الطبعة السادسة

العلم

وبناء الأمم




دكتور
راغب السرجاني

مؤسسة اقرأ
للنشر والتوزيع والترجمة

الْعِلْمُ وَبِنَاءُ الأُمَمِ

دِرَاسَةٌ تَأْصِيلِيَّةٌ لِدَوْرِ الْعِلْمِ فِي بِنَاءِ الدَّوْلَةِ

أ.د/ راغب السرجاني



الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع

٢٠٠٧/١٦٧٢١

الترقيم الدولي: I.S.B.N

977-441-031-9

مركز السلام للتجهيز الفني

عبد الحميد عمر

٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقـــرأ

١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط

القاهرة ت: ٢٥٣٢٦٦١٠ محمول: ٠١٠٢٣٢٧٣٠٢ - ٠١٢٦٣٤٤٠٤٣

www.iqraakotob.com

E-mail:info@iqraakotob.com

مقدمة الكتاب

إن الحمد لله، نحمده ونستعين به ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشـهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله.

أمّا بعد..

فأمة الإسلام أمة عظيمة!!

هذه حقيقة لا ينكرها إنسان.. وكيف تُنكَر وقد ذكرها ربنا سبحانه وتعالى في كتابه في أكثـر مـن موضع، بل لم يكتف بالإشادة بعظمتها، ولكنه ذكر تصريحًا أنها خير الأمم مطلقًا.. قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]، فهذه شهادة من رب العالمين الذي خلـق الخلـق أجمعـين، ويعلم ما سبق من أمم، وما هو لاحق.. فهذا يثلج صدور المسلمين، ويزرع الثقـة اليقينيـة في قلـوب الأمة أنها مهما تقادم عليها الزمان ستظل خير أمة أخرجت للناس.

ومع كون هذه الحقيقة ثابتة، إلا أن هذا لا يمنع أن يحـدث للأمـة هنّـات وأزمـات، ولا يُستغرب أن يأتي عليها زمان يتقدم عليها غيرها، وتتراجع الأمة بالتـالي مـن المكانـة السـامية التي أرادها الله لها، ويُصدِّق ذلك قول ربنـا في كتابـه الكـريم: ﴿وَتِلْـكَ الْأَيَّـامُ نُـدَاوِلُهَا بَـيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فليست هناك أمة - بما فيها أمة الإسلام - تبقـى قويـة أبـد الـدهر، وإنما تتناوب الأمم قيادة الأرض، ولكن وعد رب العالمين أن هذه الأمة الإسلامية العظيمـة ستظل باقية إلى يوم القيامة.. قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وقـال: ﴿وَلَقَـدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وبرغم اطمئنان قلوبنا إلى هذه البشريات إلا أن النفس تتألم لرؤية الأمة في حالة ضـعف أو سقوط، ويخشى الصادقون أن يكون ذلك بسبب تقصير من المسلمين، أو تفريط في قاعدة من قواعد العزة والنهوض.. وليس من شك في أن حال الأمة في زماننا هذا - بـرغم وجـود مبشرات كثيرة - ليس كما نتمنى لهذه الأمة العظيمة ونرغـب.. فأزماتنـا كثـيرة وفي مجـالات

متعددة، ومصائبنا جمة، والكوارث ما تركت ركنًا من أركان أمتنا إلا وحلَت عليه ووقعت.. واتسع - كما يقولون - الخرق على الراقع!

هل هذا وضع يَصْلُح معه سكوت؟!

إن الواجب علينا في ظل هذه اللحظات الأليمة التي تمر بالأمة أن نقف وقفات جادة أمام هذه الأحداث، فنشخص بدقة أسباب الانهيار، ونصف بصدق وأمانة العلاج الناجع الذي يعيد الأمة إلى مكانتها التي لا ينبغي أن تتخلف عنها..

إن الأمم لا تُبنى بسهولة، كما أنها لا تُبنى بطريقة عشوائية!!

إن بناء الأمم أمر صعب يحتاج إلى جهود متضافرة، وصبر طويل، وعزم أكيد، وهو - في الوقت نفسه - يسير وفق خطوات محددة، وسنن ثابتة، لا تبديل لها ولا تغيير، قال تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر:٤٣].

وعلى الأمة في لحظات ضعفها أن تدرس بعمق الأسس التي ينبغي للأمة أن تُبنى عليها، حتى لا يصبح بناؤنا هشًا ينهار مع أي عاصفة..

إننا يجب أن نتدبر في سنن بناء الأمم التي جاءت في كتاب ربنا سبحانه وتعالى، وفي سنه رسولنا ﷺ، كما يجب أن نتدبر في سنن بناء أمتنا في مراحلها السابقة، وكيف استطاع المغيِّرون والمجدِّدون من أبناء الأمة المخلصين أن يحوِّلوا الهزيمة إلى نصر، والضعف إلى قوة، والهوان إلى سيادة وتمكين..

وفوق ذلك فإن على المسلمين أن يدرسوا بعمق تجارب بناء الأمم المختلفة من عموم أهل الأرض، وليس بالضرورة أن تدرس تجارب المسلمين فقط، بل على العكس، إن على المسلمين أن يستفيدوا من ميراث الإنسانية، وذلك - بطبيعة الحال - دون التنازل عن شيء من ثوابتنا، أو التخلي عن أمر من شريعتنا..

وبدراسة متأنية لكتاب الله ﷻ، ولأحاديث الرسول الكريم ﷺ، والقصص والتاريخ، وكذلك لأحداث الواقع، يتبين لنا - بما لا يدع مجالاً للشك - عدة عوامل تُسهم بشكلٍ متفاعل في بناء أي أمة، ويأتي على رأس هذه العوامل - وبشكل لافت جدًا للنظر -: **«العلم»**!

وهذا الذي ذكرت ليس خاصًا بأمة الإسلام وحدها.. إنما هو أمر ضروري لازم لكل من أراد القيام.. مسلمًا كان أو غير مسلم.. وشواهد ذلك من القرآن والسنة - كما سيتبين لنا

خلال صفحات هذا الكتاب - لا تحصى ولا تعد..

والعلم الذي أعنيه هنا ليس هو العلم الشرعي فقط، بل العلم الحياتي أيضًا، ويشمل ذلك علوم الطب والهندسة والفلك والكيمياء والجغرافيا، وغير ذلك من علوم تصلح بها حياة البشر وتتحسن معيشتهم، فهذا علمٌ لابد منه، وهو يُكوِّن - مع العلم الشرعي - دعامة رئيسية من دعامات الأمة الإسلامية.

ولا يخفى على الناظر إلى حال أمتنا أن قضية العلم لم تأخذ مكانها المناسب في اهتمام المسلمين، على الرغم من التركيز الواضح على هذه الوسيلة المهمة في بناء الأمم في كلمات القرآن الكريم والسنة المطهرة، وكذلك في أقوال الصالحين والمخلصين من أبناء هذه الأمة.

ولعلَّ عدم دخول العلم في بؤرة اهتمام المسلمين هو أحد أهم الأسباب للحالة غير المُرْضية التي عليها أمتنا في زماننا الحالي.. ويصبح واضحًا للجميع أنه لن تقوم الأمة من جديد إلا عندما ينشأ جيل يضع قضية العلم هذه في مكانها الذي ينبغي أن تكون فيه، كأولوية من الأولويات المهمة جدًّا في اهتمامات الأمة كلها..

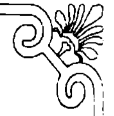
وكمحاولة لوضع لبنة في صرح الأمة الإسلامية فكّرت في جمع ما يؤيد أهمية العلم في إعادة الأمة إلى مكانها الصحيح، فتجولت في صفحات القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ، وعدت إلى حياة الصحابة ﵃، والتابعين رحمهم الله، وقرأت سِيَر العلماء والمجدِّدين، ودرست تجارب الأمم التي كان لها نصيب من الصدارة والتمكين.. فعلت ذلك وغيره، وجمعت من هنا وهناك، ورتبتُ وصنفتُ ما عندي من أوراق.. فكان هذا الكتاب!!

أسأل الله عز وجل أن ينفع الأمة الإسلامية بكل حرف في هذا الكتاب، وأن يقرَّ أعيننا برؤية أمتنا عظيمة رائدة، وأن يجعل ذلك كله في ميزان حسنات كل من ساهم في هذا العمل أو استفاد منه..

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.

أ.د. راغب السرجاني

***



الباب الأول

أمة الإسلام والعلم

ويضم الفصول التالية:

الفصل الأول: العلم في منظور الإسلام.

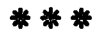
الفصل الثاني: أنواع العلوم.

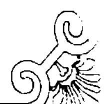
الفصل الثالث: قراءة في واقعنا العلمي.

الفصل الرابع: الإسلام وعلوم الحياة.

الفصل الخامس: نماذج من علوم المسلمين في الحضارة الإسلامية.

الفصل السادس: آراء المستشرقين في الحضارة العلمية الإسلامية.





الفصل الأول

العِلْمُ فِي منظور الإسلام

لقد كانت الحقيقة الأولى التي ظهرت في الأرض عند نزول جبريل عليه السلام لأول مرة على رسول الله ﷺ أن هذا الدين الجديد «الإسلام» دين يقوم على العلم ويرفض الضلالات والأوهام جملة وتفصيلاً..

فقد نزل الوحي أول ما نزل بخمس آيات تتحدث حول قضية واحدة تقريبًا، وهي قضية العلم.. قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥].

وهذا النزول الأول بهذه الكيفية عجيب من عدّة وجوه..

فهو عجيب لأن الله ﷻ قد اختار موضوعًا معينًا من آلاف المواضيع التي يتضمنها القرآن الكريم وبدأ به، مع أن الرسول ﷺ الذي يتنزل عليه القرآن أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، فكان واضحًا أن هذا الموضوع الأول هو مفتاح فهم هذا الدين، ومفتاح فهم هذه الدنيا، بل وفهم الآخرة التي سيُقبل عليها الناس أجمعون.

ثم هو عجيب لأنه نزل يتحدث عن قضية ما اهتم بها العرب كثيرًا في هذه الآونة في عمق التاريخ، بل كانت الخرافات والأباطيل هي التي تحكم حياتهم من أولها إلى آخرها.. فكانوا يفتقرون إلى العلم في كل المجالات، اللهم إلا في مجال البلاغة والشعر، فكان هذا هو الميدان الذي تفوق فيه العرب وبرعوا، ولذلك نزل القرآن - وهو الأعجب - يتحداهم في هذا الذي برعوا فيه، معلنًا لهم أنه ينادي بالعلم والتفوق فيه في كل الجوانب، بما فيها تلك التي يجيدونها.

ثم هو عجيب أيضًا لأنه اختار وسيلة من وسائل التعلم تُعد الأشقّ والأصعب بين كل الوسائل، وهي القراءة.. لكنها ولا شك أرسخ من غيرها، فهي أرسخ من مجرد السماع، أو النظر، أو مجرد الاستنباط أو الاستنتاج.. فهو يُعْلِن للناس جميعًا من أول يوم ومن أول لحظة،

أن الذي يريد أن يرتبط بهذا الدين لابد أن يبذل مجهودًا مُضنيًا في العلم والتعلم والقراءة.

لقد كان الإسلام بمثابة ثورة علمية حقيقية في بيئة ما ألفت روح العلم وما تعودت عليه، لدرجة أن المرحلة السابقة لنزول أول كلمات القرآن تعرف باسم «الجاهلية»!!.. فصفة «الجهل» ترتبط بما هو قبل الإسلام، ثم جاء الإسلام ليبدأ العلم، ولِتُنَار الدنيا بنور الهداية الربانية.. قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

فليس هناك مكانٌ في هذا الدين للجهل أو الظنِّ أو الشكِّ أو الرِّيبَة.

لقد أمر الله ﷻ رسوله الكريم ﷺ منذ الأيام الأولى للرسالة أن يعرض عن الجاهلين الذين يتمسكون بجاهليتهم، ويرفضون العلم.. قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

كما كان واضحًا منذ الأيام الأولى لهذا الدين أنه يرفض المناهج الظنية، وعليه فلا يمكن أن يبنى شرائعه وأحكامه وقوانينه وتصوراته ونظرياته إلا على أساس من اليقين.

فهذا رب العالمين سبحانه يقول في إعجازٍ ظاهرٍ يصف حياة الكافرين والمعرضين عن دينه ﷻ بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].

فجعل الله ﷻ الفارق الرئيسي بين المؤمنين وبين الكافرين هو قضية العلم.. فالمؤمن يعلم والكافر يظن.. والمؤمن يبنى على اليقين، والكافر يبني على الشك.

وعليه فقد قال سبحانه يصف حال الكافرين يذمهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

ولم تكن البداية فقط في هذا الكتاب المعجز «القرآن» هي التي تتحدث عن العلم وقيمته وأهميته، بل كان هذا منهجًا ثابتًا في هذا الدستور الخالد، فلا تكاد تخلو سورة من سوره من الحديث عن العلم، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

ولقد فوجئت مفاجأة كبيرة عندما قمت بإحصاء عدد المرات التي جاءت فيها كلمة «العلم» بمشتقاتها المختلفة في كتاب الله ﷻ؛ إذ وجدتها - بلا مبالغة - قد بلغت ٧٧٩ مرة !! أي بمعدل سبع مراتٍ - تقريبًا - في كل سورة!!

وهذا عن كلمة «العلم» بمادتها الثلاثية (ع ل م)، إلا أن هناك كلمات أخرى كثيرة تشير إلى معنى العلم ولكن لم تُذكر بلفظه، وذلك مثل: اليقين والهدى والعقل والفكر والنظر والحكمة والفقه والبرهان والدليل والحجة والآية والبينة.. وغير ذلك من معانٍ تندرج تحت معنى العلم وتحثُّ عليه.

أمّا السنة النبوية فإحصاء هذه الكلمة فيها يكاد يكون مستحيلاً..

فقد وردت كلمة «العلم» في صحيح البخاري أكثر من ثلاثمائة مرة، وهذا كتاب واحد من كتب السنة، وهو في ذات الوقت ليس بأكبرها حجمًا؛ إذ أن هناك من كتب السنة ما يحوي أضعاف ما في صحيح البخاري، مثل صحيح مسلم وسنن الترمذي والنسائي وأبي داود وابن ماجه والدارمي والبيهقي، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، وموطأ الإمام مالك، وكذلك معجم الطبراني وصحيح ابن حبان ومستدرك الحاكم، وغيرهم وغيرهم..

بل إن الملاحظ أن الاهتمام بقضية العلم لم يكن منذ أول لحظات الإسلام ونزول القرآن فقط، وإنما كان ذلك منذ بداية خلق الإنسان نفسه.. كما حكى ذلك القرآن الكريم في آياته!!

فالله ﷻ خلق آدم وجعله خليفة في الأرض، وأمر الملائكة أن تسجد له، وكرَّمه وعظَّمه ورفعه، ثم ذكر لنا وللملائكة سبب هذا التكريم والتعظيم والرِّفعة.. فعيّن أنه «العلم»..!!

لم يتفوق آدم ﵇ على الملائكة بطول قيام، ولا بكثرة ذكرٍ أو تسبيحٍ، ولا بقوةٍ خارقة، ولا بطاعةٍ مطلقة.. فهذه الأمور كلُّها مما تتفوق فيها الملائكة بلا منازع، وإنما تفوق عليهم فقط في قضية «العلم»..

ومن أجل ذلك رفعه الله ﷻ فوق مصافِّ هؤلاء الملائكة العِظام وفضَّله عليهم، بل وأسجدهم له ﷻ.

يقول تعالى في تقرير ذلك: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٤].

وهكذا كانت القضية منذ اللحظات الأولى لخلق آدم عليه السلام واضحة جلية.. فما إن يتمسك الإنسان بالعلم، ويحرص عليه، ويبذل الجهد في تحصيله، إلاّ استحقَّ أن يكون خليفة الله في الأرض، وما إن يألف الجهل ويتعوَّد عليه، أو يزهد في العلم، ويبتعد عنه، ويرضَ منه بالقليل.. فإنه - لا ريب - يكون قد فَقَدَ مؤهلاتِ هذه الخلافة، ومن ثَمَّ لا يصلح أن يكون عبدًا صالحًا مرفوع الذكر معظَّم الشأن..

ولم يكن الاحتفال بقيمة العلم منذ أول خلق «الإنسان» فقط، بل ظهر هذا الاحتفال قبل خلق الإنسان!! فإن الله عز وجل خلق أول ما خلق «القلم»، أداة العلم الأولى والخالدة، وذلك كما روى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ الْقَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ**»[(١)].

وهكذا نجد أن العلم أمرٌ محوري ورئيسي في الحياة الإنسانية التي وجدت على ظهر الأرض، وسيظل كذلك إلى يوم القيامة.

ومن هنا لم يكن الأمر من باب المبالغة حين أشار الرسول ﷺ في حديثه إلى أن الدنيا بكاملها لا قيمة لها - بل هي ملعونة - إلا إذا ازدانت بالعلم وذِكْر الله عز وجل..

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلاَّ: ذِكْرَ اللهِ، وَمَا وَالاَهُ، أَوْ عَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا**»[(٢)].

بل إنه إذا اختفى العلم من الدنيا، فإن الحياة فيها تصبح مستحيلة، أو لا معنى لها، لهذا فإن اختفاء العلم يكون إيذانًا بقرب قيام الساعة..

---

(١) الترمذي: كتاب التفسير، باب تفسير سورة «ن» (٣٣١٩)، والحاكم (٣٦٩٣)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والطيالسي (٥٧٧)، والطبراني في الكبير (١٢٥٠٠)، والبيهقي في سننه (٢٠٦٦٤)، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٢٤٨، وقال الألباني: صحيح (٢٠١٧) صحيح الجامع.

(٢) الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله (٢٣٢٢)، والدارمي (٣٢٢)، والطبراني في الأوسط (٤٠٧٢)، والبزار (١٧٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٧٠٨)، وقال الألباني: حسن (١٦٠٩) صحيح الجامع.

يروي في ذلك البخاري ومسلم عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ وَيَظْهَرَ الزِّنَا**»[1].

ورفعُ العِلم هذا لا يكون بمحوه من الصدور، ولكن يُرفع بموت العلماء..

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ الله لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَاد، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالاً، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلوا**»[2].

ولذلك فإن موت العالِم هو الكارثة الحقيقية، والتي هي أشد من كوارث الزلازل والبراكين؛ لأنه بغياب العالِم تفسد الأرض، ويجهل الناس الغاية من خلقهم، ومن ثم تصبح الحياة بكاملها لا قيمة لها..

يقول عمر بن الخطاب ﷺ: «لموت ألف عابد قائم الليل صائم النهار، أهون من موت عالِمٍ بصيرٍ بحلال الله وحرامه»[3]!!

ولما مات **زيد بن ثابت** ﷺ - كاتب الوحي ومن علماء الصحابة الأجلاء - قال **عبد الله ابن عباس** ﷺ: «من سرَّه أن ينظر كيف ذهاب العلم فهكذا ذهابه»[4].

العِلمُ صِفَةُ الأَنبِيَاء:

إن أعلى منزلة وأسمى رتبة في الخلق وبين البشر عند الله تعالى هي منزلة الأنبياء ورتبة النبوة، ولمكانة العلم ولأهميته القصوى في ميزانه سبحانه وتعالى، فإن الله ﷻ قد ربط في كتابه الكريم بين الأنبياء وصفة العلم، على أساس أنها صفة ثابتة ولازمة لهم، بل وضَّح سبحانه أن العلم هو أهم الصفات التي يتميز بها هؤلاء الأنبياء، وكيف لا والدور الرئيسي لهم في الدنيا أن يُعلِّمُوا غيرهم؟

---

(١) البخاري: كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل (٨٠)، ومسلم: كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه (٢٦٧١)، والترمذي (٢٢٠٥)، وابن ماجه (٤٠٤٥)، وأحمد (١٢٨٢٩)، وأبو يعلى (٣٠٦٢).

(٢) البخاري: كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم (١٠٠)، ومسلم: كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه (٢٦٧٣)، والترمذي (٢٦٥٢)، والدارمي (٢٣٩)، وابن حبان (٤٥٧١)، والطبراني في الأوسط (٥٥).

(٣) الحارث بن أبي أسامة، الحافظ نور الدين الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ٢/ ٨١٣.

(٤) ابن حجر: تهذيب التهذيب ٣/ ٣٤٤.

فإذا كان فاقد الشيء لا يُعطيه - كما قيل - فكان لزامًا على النبي أن يكون عالمًا، بل وأن يحرص على زيادة علمه، وفي ذات الوقت يكون حريصًا على نقل علمه هذا إلى غيره، وألا يكتم علمًا علَّمه الله إياه.. قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

فكيف يُبلِّغ شيئًا بلاغًا مبينًا وهو يجهله ولا يعلمه؟!

ومن هنا فقد جاء ذِكْرُ الأنبياء دائمًا مرتبطًا بالعلم، فقال ﷻ في حق آدم ﵇: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

وقال في حق لوط ﵇: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٤].

وقال في حق موسى ﵇: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤].

وقال في حق يعقوب ﵇: «﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨].

وقال في حق يوسف ﵇: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

وقال في حق داود وسليمان عليهما السلام: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقال في حق عيسى ﵇: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠].

وقال كذلك في حق رسولنا الكريم ﷺ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٤، ٥].

وقال أيضًا: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

وقد روى البخاري عن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بينا أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت منه حتى إني لأرى الري يخرج من أظفاري ثم أعطيت فضلي** -يعني- عمر» قالوا فما أولته يا رسول الله؟ قال «**العلم**»[1].

---

(١) البخاري: كتاب التعبير، باب اللبن (٦٦٠٤)، وأحمد (٥٨٦٨).

فكان العلم أثمن ما يمتلك الأنبياء، ولذلك كان هو الذي أورثوه لنا.

وعليه فمن أراد أن يحمل لواء الأنبياء وأن يسير في طريقهم ومن ثم يُحشر في زمرتهم يوم القيامة، فعليه بطريق العلم..

ولعظم قيمة العلم ومكانته، فقد امتن به الله ﷻ على أُناس معينين واختصهم بالزيادة منه، وقد اصطفاهم ﷻ على غيرهم.. فجعل - على سبيل المثال - مؤهلات القيادة عند طالوت -رحمه الله- هي العلم والقوة، فقال: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقد قدَّم هنا العلم على القوة؛ لأن العلم بإمكانه أن يُسخِّر القوة لصالحه، وليس العكس بصحيح إذ إنه بإمكان الرجل الضعيف أن يُسخر الأسد القوى لخدمته كون هذا لا يرجع إلى معيار القوة والضعف عند الرجل، وإنما يرجع إلى سعة علمه وإحاطته بما يمكن من خلاله أن يتفادى مهاجمة الأسد له، وما يمكن من خلاله أن يذلِّله له.

بل إن الله ﷻ جعل العلم سببًا في السيطرة والهيمنة والعلوّ، فقال في قصة سليمان ﵇ مع بلقيس ملكة سبأ: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢].

وينسب الله ﷻ إلى أهل العلم دائما كل صلاحٍ وفلاح، بل وشهادة حق وعمق نظرة ودراية، فيقول في إشارة إلى من أدرك منهم حقيقة التوحيد: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

ويقول عن أولئك الذين يحفظون القرآن في صدورهم: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وفيمن يدرك الحق من غيره يقول سبحانه: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

وفي إشادة بأولئك الذين فقهوا حقيقة الدنيا والآخرة في قصة قارون يقول ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

وقد مدح أيضًا الخضر، ودلّ موسى ﵇ عليه ليتعلّم منه، لأنه اتصف بالرحمة والعلم فقال: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وقد امتن ﷻ على المؤمنين بصفة خاصة فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وامتن على الإنسان بصفة عامة فقال: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ – ٤].

مع ملاحظة تقديم تعليم القرآن على خلق الإنسان مع أن الإنسان خُلق أولاً ثم عُلِّم، ولكنه قدم العلم ليوحي بأن الإنسان إذا فقد العلم فَقَدَ معه إنسانيته فكأنه لم يُخلق بعد.. ثم إنه أعقب الحديث عن خلق الإنسان بقوله: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ وكأن العلم يحيط بحياة الإنسان من أولها إلى آخرها.. فقبل ذكْر الخلق يمدح العلم، وبعد ذكْر الخلق يمدح العلم.

ولم يَقْصُر ﷺ رفع العلم لأصحابه على عالم الإنس فقط، بل تعدى ذلك عنده ليشمل عالم الجن أيضًا، قال تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٣٩، ٤٠].

وفي عالم الحيوان والطير، فإنه سبحانه يرفع من شأن الجوارح المعلَّمة والكلب المعلَّم عن الجوارح غير المعلمة، فيُحل الصيد الذي تصطاده الجوارح المعلمة ويحرِّم الذي تصطاده غير المعلمة.. قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤]. وقد جعله رسول الله ﷺ أمرًا عظيمًا يجب على الإنسان أن يتنافس فيه مع غيره ويتمنى أن لو تفوّق فيه عليهم..

يروي في ذلك البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»[1].

---

(١) البخاري: كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة (٧٣)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب من يقوم بالقرآن ويعلمه (٨١٦)، وابن ماجه (٤٢٠٨)، والطبراني في الأوسط (١٧١٢)، وأبو يعلى (٥٠٧٨)، والبزار (١٨٩٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٥٢٨).

كل هذه الملاحظات وغيرها تبين مدى أهمية العلم، وأنه أعظم النعم التي أنعم بها الله العليم الخبير على مخلوقاته..

فلا غرو إذن أن يكون العلم من الأشياء القليلة التي أمر الله ﷻ رسوله الكريم ﷺ أن يطلب الاستزادة منها، فقال تعالى موجهًا نبيه والأمة الإسلامية من بعده: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

ثم إن الإنسان لَيقف مذهولاً أمام علم الله ﷻ الذي وصفه سبحانه في كتابه حيث قال: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠].

وقد وصف سبحانه علم البشر بكل أنواعه وتصانيفه وتفريعاته، من علوم فضاء وسلاح وكيمياء وطب وهندسة وجغرافيا وعلوم نووية وبيولوجية وغيرها.. وصف كل هذه العلوم بالقليل فقال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]. وذلك في إشارة خفيّة منه سبحانه إلى البحث عن المزيد، والتنقيب عن ذلك المجهول.

وإننا في هذا الفصل لم نسع إلى حصر كل ما جاء عن العلم في كتاب الله عز وجل، أو في سنة رسوله ﷺ؛ فإن ذلك أمر يصعب جدًّا، ولكننا فقط نضع أيدينا على الوزن الحقيقي له من منظور الشريعة الإسلامية؛ فلن يهتم إنسان قطّ إلا بما يشعر بأهميته وقيمته، ونسأل الله ﷻ أن يُعِزَّ الإسلام والمسلمين.

* * *

الفصل الثاني

أَنْـــوَاعُ الْعُلُـــومِ

جاءت كلمة «العلم» في كتاب الله ﷻ وفي سنة رسوله الكريم ﷺ مطلقة، ودونما تقييد أو تحديد؛ فهي تشمل كل علمٍ نافعٍ يهدف إلى خير الدنيا وعمارة الأرض.. وكل علمٍ يهدف إلى صلاح الناس، والقيام السليم بواجبات الخلافة البشرية على هذا الكوكب.

وبالإمكان تقسيم العلوم إلى قسمين كبيرين يشملان كل علم نعرفه أو نحتاج إليه، وهذان القسمان هما: العلوم الشرعية والعلوم الحياتية.

أما العلوم الشرعية: فهي العلوم التي يُعرَف بها الله ﷻ، ويُعرَف بها كيف تكون العبادة الصحيحة، ويشمل ذلك كل العلوم المتعلقة بدراسة الدين وفقه الشريعة، مثل علوم القرآن، وعلوم السنة والحديث الشريف، وعلوم العقيدة، وعلوم الفقه وأصوله، وعلوم الأخلاق، وغير ذلك مما يتعلق بالشريعة والدين. ويرتبط بهذا القسم بعض العلوم الأخرى التي يُحتاج إليها في فقه تلك العلوم الشرعية، مثل علوم اللغة والأدب والتاريخ، ونحو ذلك..

أما العلوم الحياتية: فهي العلوم النافعة التي يحتاج إليها الإنسان ليصلح بها حياته، ويعمِّر بها أرضه، ويستكشف بها كونه وبيئته.. وذلك مثل علوم الطب والهندسة والفلك والكيمياء والفيزياء والجغرافيا، وعلوم الأرض والنبات والحيوان، وغير ذلك من العلوم المشابهة.

فكلمة العلم التي كَثُرت الإشارة إليها في الكتاب والسنة إنما تعني - في أكثر الأحيان - العلم بشقيه الشرعي والحياتي.. وكل ما جاء من مدحٍ للعلماء، فهو لكل عالمٍ نفع الناس بعلمه، سواء كان شرعيًا أم حياتيًا. وتوضيح ذلك - وخاصة أهمية العلم الحياتي - سيرد في موضعه من هذا الكتاب.

ثم إن هذه العلوم - سواء علوم الشرع أو علوم الحياة - تنقسم بدورها إلى قسمين: علوم فرض عين، وعلوم فرض كفاية.

وفرض العين: هو ما طلب الشارع فعله طلبًا جازمًا من كل مكلف بعينه، فلا يكفي أن

يقوم به البعض دون البعض الآخر، ومنه: الصلاة، والصيام، والوفاء بالعقود وغيرها.

وفرض الكفاية: هو ما طلب الشارع حصوله طلبًا جازمًا من جماعة المكلفين، فإن أقامه أحدهم أو بعضهم على الوجه المطلوب، سقط الإثم عن الباقين، وإن لم يقمه أحد أثم الجميع، ومنه: الجهاد في سبيل الله، وإقامة الخلافة، والصلاة على الميت ودفنه، وغيرها[1].

وعليه فالعلوم التي تُعَد من فروض العين هي تلك التي يتعين على كل مسلم ومسلمة ممن اتصف بالعقل والبلوغ أن يُحَصِّلَها ويتعلَّمها، وإذا لم يحصلها أثم بسبب ذلك، وركبته السيئات بحجم التفريط الذي فرّط.

فهذا النوع من العلوم حتميٌّ على كل المسلمين، وليس هناك استثناء فيه، وهو الذي عناه الرسول ﷺ في الحديث الصحيح عن أنس بن مالك ﷺ وقال فيه: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»[2].

وأما العلوم فرض الكفاية: فهي تلك العلوم التي إن قام بها بعض المسلمين على الوجه الأكمل، واستطاعوا أن يكْفوا بقية الأمة فيها، فإنهم يثابون عليها ويسقط الإثم عن باقي الأمة، حتى أولئك الذين لم يقوموا بها.. وأما إذا لم توفر الأمة من العلماء ما يكفي حاجتها في فرع معين، فإن الإثم يقع على الجميع إلى أن تكفي الأمة حاجتها في ذلك الفرع، فتوفر الكم والنوع اللازم لسد كل الثغرات..

وفروض الكفاية كثيرة جدًّا، والأمة النجيبة الواعية هي التي توزِّع فروض الكفاية على أفرادها بحيث تسد كل الثغرات لديها، وتكفى كل حاجاتها، بحيث لا يصبح هناك - مثلاً - تكدسٌ في أحد المجالات، ونقصٌ وقصورٌ في مجالات أخرى.. وهذا يحتاج إلى اتساع أفقٍ وشمولِ نظرة.

ولنحاول أن نسقط هذه التعريفات على الواقع..

فالعلوم الشرعية منها ما هو فرض عين، «يتعين» على كل مسلمٍ ومسلمةٍ أن يتعلموه،

---

(١) راجع النووي: المجموع شرح المهذب، ١/ ٤٩.

(٢) ابن ماجه: كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلم والحث عليه (٢٢٤)، والطبراني في الكبير (١٠٤٣٩)، والبزار (٩٤)، وقال الألباني: صحيح (٣٩١٣) صحيح الجامع.

ويأثمون بتركه، وذلك مثل العلم بالله ﷻ على سبيل الإجمال، كالعلم بأنه سبحانه عليمٌ وخبيرٌ وقادرٌ على كل شيء، وأنه خالقٌ ورازقٌ ورحيمٌ وكريمٌ وغير ذلك..

وأيضًا مثل العلم بأمور الفقه الضرورية لأداء العبادات.. فيتعلم المسلم كيف يتوضأ وكيف يصلِّي، وما نواقض الوضوء، وما نواقض الصلاة، وما الفرق بين الفرض والنافلة، وبين ما تصح الصلاة بدونه، وما لا تصح الصلاة إلا به، وأن يعرف الصيامَ وأحكامه، والزكاة وأحكامها، وأن يعرف أمور الحلال والحرام، وخاصة المشهور منها، والذي سمّاه العلماء «ما هو معلوم من الدين بالضرورة» كحرمة الزنا والخمر والخنزير والربا، وكذلك عليه أن يعرف رسوله الكريم ﷺ ونبذة عن سيرته، وأيضًا يعرف القرآن وكيف يُتلى، ويعرف عن الساعة ويوم القيامة إجمالاً، وكذلك عن الجنة والنار وهكذا..

ومن العلوم الشرعية ما هو فرض كفاية على بعض علماء الأمة وليس مفروضًا على بقية المسلمين، مثل دقائق علم العقيدة، ودقائق الفقه مثل فقه المواريث، ودقائق فقه التجارة لغير التجار، وكيفية حساب الزكاة في الاحتمالات المختلفة، ودقائق الاقتصاد لغير الاقتصاديين، ودقائق تفسير القرآن، وأسباب النزول، وتفاصيل حياة الرسول وحياة أصحابه، وتخريج الأحاديث، والعلم برواتها، ودرجاتهم من حيث الجرح والتعديل، وتفاصيل التاريخ الإسلامي، وفنون اللغة ودقائقها[1]..

فهذه العلوم هي من فروض الكفاية، والتي وجب على الأمة أن توجد طائفة من أفرادها ليقوموا بالخوض فيها، وإتقانها والتبحر فيها والتمكن منها، والقدرة على معرفة جميع أطرافها ودقائقها.. وهو مصداق قول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وإذا لم توفر الأمة هؤلاء العلماء، وكانت تعاني - مثلاً - نقصًا في علماء التفسير أو علماء الفقه أو الحديث أو غيره، فإن الأمة جميعها تأثم إلى أن توفر هذه الطائفة.

هذا بالنسبة للعلوم الشرعية..

(١) راجع في ذلك ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام، ٥/ ١١٣ وما بعدها ويوسف القرضاوي: الرسول والعلم، ص٩٣، ٩٤.

والأمر هو نفسه بالنسبة للعلوم الحياتية.. فمنها ما هو فرض عين، «يتعين» على كل مسلمٍ ومسلمةٍ أن يتعلموه، ويأثمون بتركه، ومنها ما هو فرض كفاية، إن قام به البعض سقط عن الباقين..

فمثلاً علم الطب يُعد فرض عينٍ على الطبيب، وعلم الهندسة يُعد فرض عينٍ على المهندس، وعلم الكيمياء فرض عينٍ على الكيميائي وهكذا.. فإذا تعلم كل واحدٍ من هؤلاء مهنته وأتقنها وبرع فيها، ووصل إلى درجة من الابتكار وحل المشكلات في مجاله، وهكذا في كل تخصص، فإن الفرض يُكفى، وبذلك يسقط الإثم عن المسلمين..

أما إذا فشلت الأمة في إخراج عدد مناسب، وبكفاءة متميزة يكْفون حاجة المسلمين.. فإن الإثم يقع على الأمة جميعًا؛ وذلك لفشلها في تحقيق ذلك الأمر[1]!!

وليس غريبًا بعد ذلك أن يكون من نتيجة ذلك الفشل أن تتخلف الأمة عن ركب الحضارة، وأن تكثر أزماتها ومشكلاتها، فضلا عن سقوطها في أعين غيرها من الأمم الأخرى، فتصبح وقد اقتادها غيرها، وقد أضحت فريسة سهلة للطامعين، فلا يُستبعد أن تنتهك سيادتها، وأن تحتل أرضها، وأن تسلب ثرواتها.. حتى تضيع تحت أقدام الغزاة!!

والشاهد من ذلك أن المرء المسلم واقع بين نوعين من العلوم يتعين عليه أن يتقنهما: الأول خاص بمعرفة دينه المعرفة التي توصله إلى العبادة الصحيحة كما ذكرنا سابقًا، وهو ما لابد للجميع منه. والثاني خاص بمجال التخصص الذي هو فيه، أيًّا كان مجاله وطبيعة عمله. والذنب والإثم في كلٍ هو بحجم التقصير الذي يحصل.

ومن هذا المنطلق لا يستقيم لطالب رفعةٍ لهذه الأمة، وراجي التمكين لها في الأرض، أن يكون فاشلاً في مجاله، متخلفًا في صنعته أو في مهنته أو في علمه الذي وُكِّل به؛ إذ إنَّ تقدم الأمة معتمدٌ على تقدمه، وتخلفها هو نتيجة لتخلفه.

وعلى ذلك فإننا إذا أخذنا أحد المسلمين كمثال توضيحي، فإننا نقول:

لو أن هناك اقتصاديًا متخصصًا (من المسلمين)، فإنه يتعين عليه أن يتعلم كيف يُصلِّي، وكيف يصوم، وكيف يزكِّي، وكيف يعتقد في ربه وفي رسوله وفي القرآن، وأن يعرف عن يوم

---

(١) انظر في ذلك: الغزالي: إحياء علوم الدين ١/ ١٦.

القيامة والجنة والنار، كما سبق أن ذكرنا..

وفوق ذلك فيتعيَّن عليه أن يُتقن مجال الاقتصاد ويبرع فيه، ويبتكر الطرق الحديثة التي ترفع من اقتصاد الأمة وتُعْلي من شأنها ماديًا، وعليه أيضًا أن يعرف الفقه الإسلامي الخاص بالاقتصاد، وحكم الإسلام في المعاملات الاقتصادية المختلفة، وحكمه في قضايا البنوك وشركات الاستثمار والتأمين والتوفير والقروض.. وغير ذلك من الأمور التي تمس هذا الجانب بصورة مباشرة.

ولكن هذا الاقتصادي لا يتعين عليه ولا يلزمه أن يتعلم دقائق التفسير، أو يتعلم بنود الفقه المختلفة الخاصة بالطب، أو الخاصة بالحرب أو الخاصة بالزواج أو الطلاق أو الميراث؛ فهذا له متخصصون ومهتمون، تماما كما هو في تخصصه في مجال الاقتصاد.

كما أنه لا يلزمه أن يتعلم شيئًا عن الطب أو الهندسة أو الفلك أو الزراعة أو غيرها، إلا فيما يرتبط بعمله كاقتصادي..

وهكذا تتوزع كفاءات الأمة على الفروع المختلفة، وتسد الثغرات تباعًا..

ولا يستقيم لأمة ناجحة أن تتكدس فيها - مثلاً - طاقات فقهية، بينما تفتقر إلى علماء الطب أو الكيمياء، ولا يستقيم لأمة متكاملة أن يتكدس فيها جمعٌ غفيرٌ من القضاة، وهي تفتقر إلى علماء التاريخ، وهكذا..

وهذا دور الدولة الناجحة.. أن ترقُب باستمرارٍ أوجه النقص، ومن ثم تسد الخلل وتحرص على تكميله.. كما أنه دور الأفراد في أن يتوجهوا إلى سد الثغرات المهمة والضعيفة، وألا يترك أصحاب التخصص منهم تخصصهم وينشغلوا بغيره من الأعمال التي لم يُكلَّفوا أصلاً بأدائها، ولم تُوجَب عليهم..

على أن الدور الأكبر والمسئولية الضخمة في هذا الأمر تتحمله الدولة ممثلة في الحكومة، ولابد لها من أن تسعى لرفعة شعبها وإعزاز أمَّتها في كل المجالات، وهي غير معذورة في أي تقصير في هذا الأمر، كما أنه ليس هناك مبررٌ للبقاء في ذيل الأمم لسنوات وسنوات..

وهذا لا يعني - كما سبق أن أشرنا - إعفاء أنفسنا من المسئولية، فهذا مصير الأمة، وإننا - كأفراد - لدينا من المساحات الضخمة التي من الممكن أن نعمل فيها وننتج ونبرع الكثير والكثير..

فالطالب – مثلاً – في أي مراحله التعليمية بإمكانه ألا يكتفي بما هو مقررٌ عليه فقط، وخاصة إذا كان هذا المقرر على مستوى غير كافٍ، ومن ثم فيمكن أن يلجأ إلى المكتبات وإلى الشبكة العالمية (الإنترنت) وغيرها، مما يزيد من حصيلته العلمية في مقرراته الدراسية وفي مجال تخصصه.

فإذا كان طالبًا يكون طالبًا متفوقًا، وإذا كان أستاذًا أو معلمًا يكون معلمًا متقنا ومبدعًا، وإذا كان مهندسًا يكون على أعلى درجة وأمكن معرفة بمجال عمله وهندسته، وهكذا.. والمطلوب هو بذل الجهد كلٌ في مجاله قدر المستطاع.

وحين يكون الالتزام بذلك، وحين لا يكون مبلغ علم الجميع وأقصى أمانيهم هو فقط الحصول على شهادة في كذا أو كذا.. حينها يسود جوٌ عام من حب العلم، فيصبح البلد أو الإقليم وقد اتخذ وجهة العلم قبلة له، شاء في ذلك أم أبى أصحاب اتخاذ القرار وصُنَّاعه!!

بل إن السياسيين حينذاك سيجدون أنهم مضطرون إلى أن يسايروا تلك الموجة العلمية، ويكونون من ركْبها، تماما كما يسايرون الموجة الدينية – رغم أن الكثيرين منهم ليست لهم ميول دينية أصلاً – فتراهم – مثلاً – يُقيمون المسابقات الدينية، ويحضرون الاحتفالات الموسمية، ويهبون الجوائز على حفظ القرآن الكريم.. وذلك مادام هناك جو عام من الاهتمام بالدين.

فكذلك إذا كانت هناك ثورة علمية، وأصبح العلم شغل الأفراد ومصب اهتماماتهم.. حينها ستجد السياسي – مثلاً – الذي يريد أن ينجح في الانتخابات، تراه يضع في برنامجه الانتخابي الاهتمام بالمؤسسات العلمية، والعمل على إنشاء الجديد منها والمزيد، وزيادة ميزانية الدولة في هذا الجانب.. وعليه فلن تجد اهتماماته متجهةً فقط إلى الطعام والشراب، وما إلى ذلك، وإنما يكون جل اهتماماته هو همّ الأمة الأول وشغلها الشاغل، وهو يومئذ العلم وقضايا التعليم!!

ولو قامت الأمة الإسلامية بدورها في هذا المجال (الاهتمام بالتوازن بين العلوم والربط بين العلم الشرعي والعلم الحياتي) حكومة وشعبًا جماعات وأفرادًا، ما افتقرت أبدًا إلى غيرها ولقامت معتمدة على سواعد أبنائها.. وهذا – ولاشك – يرفع من قيمتها ويعز شأنها..

***

الفصل الثالث
قِرَاءَةٌ فِي وَاقِعِنَا الْعِلْمِيّ

مع ازدهار الصحوة الإسلامية، وشيوع الالتزام بين صفوف المسلمين، وبالذات طائفة الشباب، ترسَّخ في أذهان الكثيرين حب العلم وطلبه، والبحث عنه وبذل الوقت له. وكل هذا - ولاشك - أمر محمود، ونتيجة طبيعية لعودة المسلمين إلى ربهم وإلى دينهم..

لكن بقيت نقطة أشعر أنها ما أخذت المساحة الكافية من تفكير شباب الصحوة، وما فُرِّغت لها الأوقات كما فرغت لغيرها، مع أن هذه النقطة من أهم النقاط التي تنفع في بناء الأمم، وتفيد في تشييد الحضارات..

وهذه النقطة هي الاهتمام بعلوم الحياة، والتفوق والإبداع فيها..

وعلوم الحياة - كما أشرنا قبل ذلك - هي العلوم التي تُصلح حياة البشر على الأرض، والتي يهتدي إليها الناس بعقولهم وتجاربهم ومشاهداتهم، ويستطيعون من خلالها عمران الأرض وإصلاحها وتسخير إمكانياتها، وهي مثل علوم الطب والهندسة والفلك والكيمياء والنباتات والحيوان، وغير ذلك من العلوم التي تشمل الماديات المبثوثة في الكون، والتي يحتاج إليها البشر في إصلاح «حياتهم» على هذا الكوكب..

وتلك العلوم هي التي يقصدها الغرب، وهي التي يعنونها دائمًا حين يكون الحديث عن مطلق العلم..

وقد تعددت الشواهد والملاحظات المهمة التي تبين سوء الوضع العلمي الذي تعيشه الأمة الإسلامية، ومدى ما وصل إليه حالها فيه، وهي كلها ناتجة عن عامل واحد، هو إهمال المسلمين لعلوم الحياة..

ولعل في الملاحظات التالية دليلاً على القصور غير المقبول الذي وصل إليه المسلمون الآن..

الملاحظة الأولى:

بدراسة أحوال العاملين في حقل الدعوة في الجامعات الإسلامية في أكثر من بلد إسلامي، يُلاحَظ أن نسبة المتفوقين دراسيًا في أوساط الدعوة نسبة قليلة بصورة لافتة للنظر،

وأن الطالب الملتزم بدعوته وبرسالته الإسلامية يرتب أموره بصورة تضع التحصيل الدراسي والتفوق العلمي في أخريات أولوياته.. وهذا لشعوره واعتقاده الدائم بأنه يجب عليه أن يُضحِّي بعلومه الدراسية ومناهجه البحثية من أجل الدين، فيُعطي - مثلاً - حلقةَ تحفيظ القرآن أولويةً عن محاضرة علمية، ويعطي موعظة تُقال في مدرّجٍ أولويةً عن موضوع علمي يلقيه في فصل دراسي أو في مجموعة علمية، ويعطي قراءةً في كتاب تفسيرٍ أو فقهٍ أو حديثٍ أولويةً عن قراءةٍ في كتاب كيمياء أو فيزياء أو رياضيات، ويهتم بحضور دروس العلم للمشايخ والقراء، ولا يهتم بحضور الدوريات أو الندوات العلمية، أو المؤتمرات المتخصصة في مجاله مثلاً!!

وهذه ليست ملاحظة عابرة، أو حالات فردية، أو مشكلة محلية، إنما تكاد تكون هي الأصل بين أوساط الشباب العاملين في حقل الدعوة في الجامعات الإسلامية.. وهذا أمر يحتاج - ولاشك - إلى وقفات ووقفات..

ومثل هذا الحديث ليس من قبيل الإحباط أو اليأس، وإنما هو محاولة لتشخيص الأمراض برصد الظواهر والحقائق، ثم وصف العلاج بعد ذلك.. والأمر يحتاج إلى مصارحة، ووقوف على مواطن الداء..

ومما زاد من أهمية هذه الملاحظة وإبراز دورها بين أهم المشاهدات التي تبين إهمال المسلمين لهذا الجانب الحياتي من العلوم، وأنهم لم يعطوه حقه بالصورة الكافية، أنه ترتب عليها خشية كثير من الطلاب المتفوقين -الذين ليست لهم وجهة إسلامية- من الالتزام أصلاً؛ وذلك لئلا يُصبِحوا مثل كثير من الأمثلة الدعوية، الذين هم متردون دراسيًا، ومتعثرون علميًا..

وقد تحدثت كثيرًا مع بعض الشباب المتفوق دراسيًا ولكنه بعيد عن آداب الإسلام وسلوكه، فكان يقبل كلامي عن الإسلام، وعلاقته بالعلم، وحضِّه عليه، وتزكيته لأهله.. ولكن كان هذا القبول منه مجرد قبول نظري غير واقعي. وقد رصدته وهو يقول لي بلسان الحال، أو بلسان المقال: إن هذه قواعد غير قابلة للتطبيق؛ لأن ما أراه حقيقة هو خلاف ما تتحدث عنه!! وإلا فكيف تفسر حصول الطلاب الإسلاميين على تقديرات متدنية، بينما يتصدر قائمة المتفوقين شبابٌ لا يضعون الإسلام منهجًا واضحًا لحياتهم، بل قد يكونون من

غير المسلمين أصلاً؟! إنها معضلة تحتاج حقًا إلى وقفات!!

الملاحظة الثانية:

التقيت في أمريكا مع أحد العرب الدارسين هناك، وكنت أتحدث في محاضرة عن أهمية علوم الحياة، وأهمية أن تكفل الأمة الإسلامية نفسها في هذا المجال، بل وأهمية أن تقود غيرها، وأن تصل إلى درجة التفوق والإبداع..

وبعد هذه المحاضرة دار بيني وبينه حديثٌ عنها، ففوجئت بوجهة نظره في هذه القضية، والتي اكتشفت فيما بعد أنها ليست وجهة نظر شخصية غير متكررة، بل هي وجهة نظر لها مؤيدون، ومن ورائها مشجعون، والتي يرى فيها أن الله ﷻ - بفضله ورحمته - قد سخَّر الكفار لخدمتنا، وأنه منحنا الأموال الكافية لشراء الإنتاج العلمي المجهِد الذي يقومون به!!

ومن أعظم نعم الله علينا - والكلام ما زال له - أنه وهبهم العلم والتقنية المتطورة التي يصنعون بها كل ما نحتاجه نحن دون أن نبذل أدنى مجهود، والحمد لله الذي فرَّغ لنا الوقت للبحث في الأمور الشرعية، وإتمام العبادات والنوافل، أو حتى في اللهو.. ثم هم يعملون لنا!!

مع ملاحظة أن الرجل كان يتحدث عن هذا المنطق بحماسة شديدة وبحمية ظاهرة، بل ويصرِّح - بغرابة أشد- أن الله ﷻ قد سخر لنا أمريكا واليابان والصين وألمانيا وروسيا وغيرهم ليكونوا طوع إرادة الأمة الإسلامية، فيخترعون ويبتكرون كل ما نريده!!

ولعلَّه قد فاته أن يذكر أن الله قد سخر إسرائيل أيضًا لخدمتنا، عن طريق الاحتلال باستخدام التقنية الحديثة والأسلحة المتطورة!!

الملاحظة الثالثة:

هناك خللٌ في فهم احتياجات الأمة الإسلامية، وطرق الإنفاق على وجوه الخير المختلفة، فتجد أن كثيرًا من أصحاب رؤوس الأموال قد يُنفقون على الفقراء والمساكين، ولكن لا ينفقون على طلبة العلم، وخاصة المغتربين منهم، والذين يعانون معاناة شديدة، ويحتاجون إلى تفرغ لجمع وتحصيل العلم..

ونجد أن بعض الأثرياء - مثلاً - يتبعون العمرة بعمرات عديدة، ومنهم من يوالون الحج عامًا بعد عام، ثم هم لا يفكرون في إنفاق المال في حضور مؤتمرٍ علمي متخصص في مجال كالطب أو الهندسة أو الفلك أو غيره، مما هو في مجال تخصصه وصميم عمله..

وقد تجد بعضهم يفكر في إنشاء معهدٍ ديني أو دار تحفيظ للقرآن، ولكنه لا يفكر في إنشاء مركزٍ لتعليم الكمبيوتر، أو مكتبةٍ علميةٍ حديثة، أو شبكة معلومات، أو جامعةٍ علميةٍ متخصصة..

بل إني رأيت كثيرًا من المسلمين في بلاد الغرب يحرصون على بناء مسجدٍ في بلدٍ قد يكون فيه عشرة مساجد أو يزيد، ولكنهم لا يحرصون علي بناء مدرسةٍ في نفس البلد، رغم افتقارها إلى مدرسةٍ واحدةٍ متخصصة!!

وهذا الخلل - لا شك - مردُّه عدم فقهٍ لمفهوم العمل الخيري في الإسلام؛ فالعمل الخيري عندهم مرتبط بالشعائر والعلوم الشرعية فقط، أما أمور إعمار الأرض وعلوم الحياة فهو مما يقع في مرتبة متأخرة جدًّا في الأولويات، أو لعله لا يقع في الأولويات أصلاً!!

الملاحظة الرابعة:

تفشِّي الأمية بصورة كبيرة في بلدان العالم الإسلامي.. وهو ما يعني غياب قضية العلم أصلاً، أو أنها ليست مطروحة بالمرة..

ففي مصر - على سبيل المثال - وصلت نسبة الأمية في الفئة فوق سن الخامسة عشرة ٢٩,٦٪ وهذا يعني أن من بين كل عشرة مصريين ثلاثةً تقريبًا لا يعرفون القراءة ولا الكتابة[1]!!

ويعني أيضًا أن ما يقرب من ثلث المجتمع المصري الذي يقع عليه واجب الإنتاج لا يقرأ ولا يكتب.. وخاصة ونحن نواكب عصر الفضاء والأقمار الصناعية والتكنولوجيا متناهية التعقيد..!!

كما يعني ذلك أيضًا - فيما يعنيه - أن هذه النسبة الخطيرة لا تقرأ الجرائد ولا تعرف المجلات.. بل لم تمسّ المصحف الشريف أصلاً..!!

أمّا الغريب، فحين نعلم أن هذه النسبة ليست بمعزل عنّا، وإنما تعيش بيننا وفي محيطنا، ومع ذلك فلا تجد أهل الخير حريصين على تعليمهم أو الإنفاق على تعليمهم، وكأن القضية مهمشة تمامًا في حياتنا!!

وحتى نعي خطورة وفداحة هذا الرقم، فيكفي أن نعلم أن نسبة الأمية في إسرائيل تبلغ

---

(١) تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م، والمنشور على موقع المنظمة على شبكة الانترنت صفحة مصر، الرابط الإلكتروني
http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_EGY.html

٩ , ٢٪ فيما فوق ١٥ سنة[١]!!

وفي الفئة العمرية من سن ١٥ إلى ٢٤ سنة، وهي فئة الشباب، والتي هي أمل الأمة وعليها بناؤها، فتبلغ نسبة الأمية بينها في مصر ١ , ١٥٪ في مقابل ٢ , ٠٪ لإسرائيل في هذه الفئة نفسها..[٢]!!

ولإبراز الصورة بشكل أوضح، فإن دولة مثل كوبا، والتي أنهكها الفقر والحروب، تبلغ نسبة الأمية فيها في فئة الشباب من ١٥ إلى ٢٤ سنة (صفرًا)!! أي ليس بها شاب ولا فتاة لا يقرءون ولا يكتبون، وتبلغ نسبة الأمية في الكبار فيها ٢ , ٠ ٪ والتي هي في مصر - كما مر بنا - ٦ , ٢٩ ٪[٣].

بل إنك لتعجب أشد العجب إذا علمت أن نسبة الأمية في نفس هذه الفئة العمرية (فئة الشباب) في فلسطين المحتلة، في الضفة الغربية وغزة، هي ٩ , ٠٪ فقط، وذلك رغم الفقر والقهر والحصار اليهودي، ورغم قتل الأطفال والشباب والرجال والنساء، ورغم تهديم البنية التحتية من مبانٍ ومدارس ومستشفيات وغيرها[٤]..!!

وليست **كوبا** الفقيرة ولا **فلسطين** المحتلة وحدها في هذا المجال، بل إن معظم دول **أمريكا اللاتينية** الفقيرة مثل **شيلي** و**البرازيل**، وحتى **كولومبيا**، تتخطى نسبة التعليم فيها حاجز ٩٧ ٪ و ٩٨٪[٥].

ونعني بذلك أنه ليس هناك من أعذار ولا من مبررات للقعود عن حلِّ هذه المعضلة وإحداث التغيير المنشود، ولا ينفع في ذلك التحجُّج بالفقر أو الأزمات الاقتصادية أو غيرها..

ومثل هذا لا ينطبق على مصر فقط، بل وعلى معظم البلدان الإسلامية الأخرى؛ إذ إنَّ

---

(١) تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م، والمنشور على موقع المنظمة على شبكة الانترنت، صفحة إسرائيل، الرابط الإلكتروني

http://hdr.undp.org/hdr2005/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_ISR.html

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م، والمنشور على موقع المنظمة على شبكة الانترنت،كوبا ، الرابط الإلكتروني

http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_CUB.html

(٤) موقع الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني.

(٥) تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م، والمنشور على موقع المنظمة على شبكة الانترنت، الرابط الإلكتروني

http:llhdr.undp.org/hdr2006/statistics/indicators/20.html

نسبة الأمية فيها قريبة جدًّا من النسبة في مصر، بل وأحيانًا كثيرة تكون أعلى منها، وذلك كما في المغرب - مثلاً - حيث تبلغ نسبة الأمية فيها في فئة الشباب ٣٠٪ أي ضعف التي في مصر، وفي فئة الكبار تبلغ ٤٨٪ وهذه كارثة بكل المقاييس..[1]!! [انظر شكل رقم ١].

وإذا جئنا إلى موقف الإناث في مصر أيضًا - كمثال للبلدان الإسلامية - وجدنا أن نسبة الأمية بينهن وصلت إلى ٤١٪ في مقابل ٤٪ فقط لمثيلاتهن في إسرائيل[2]!!

ومثل هذه الإحصائيات (انظر جدول رقم ١) تُعطي انطباعًا عما يكون عليه المستقبل في مصر مثلاً، وكذلك البلدان الإسلامية الأخرى، مع العلم بأن هذه النسبة من الشباب الذين لا يقرءون ولا يكتبون قلما تجدهم يعرفون قيمة العلم، ومن ثم لا يحرصون على تعلمه، وفي الأغلب الأعم لن يدفعوا أولادهم مستقبلاً إليه، وسيزداد الوضع بالنسبة لهم سوءًا على سوء.

فعلى مَنْ - يا تُرى - تقع مسئولية تعليم هؤلاء الشباب؟! هل هي مسئولية الحكومة وحدها؟! أم هي مسئوليتنا أيضًا كباغين للخير وساعين للصلاح، وكمتطلعين إلى رفعة أمة الإسلام وعلو شأنها..؟!

إن تعليم مثل هؤلاء القراءة والكتابة لهو من أبلغ وأهم مجالات الدعوة إلى الله ﷻ، وهو بابٌ يحتاج لمزيدٍ من الفكر والجهد، كما ينتظر من أهل الخير أن ينفقوا عليه بسخاء، وذلك عن طريق كفالة المعلمين الذين يقومون على تعليم هؤلاء الأميين، وإنها - والله - لنقلة نوعية للأمة، يوم يتقن جميع أبنائها القراءة والكتابة، بل علوم الدنيا والدين.

وقد يبدو لنا أن تعليم القراءة والكتابة أمر صعب قد يطول وقته، وتتعدد جلساته، ولكن هذا ليس صحيحًا بالمرة؛ وقد حكى لي أحد من أعرفهم أنه جلس مع اثنين من حرَّاس العمارات في المنطقة التي يقطنها، وفي خلال شهر واحد، بثمانية لقاءات تقريبًا لمدة تتراوح بين الساعة والساعتين، أصبحوا يتقنون اللغة العربية قراءة وكتابة..!!

---

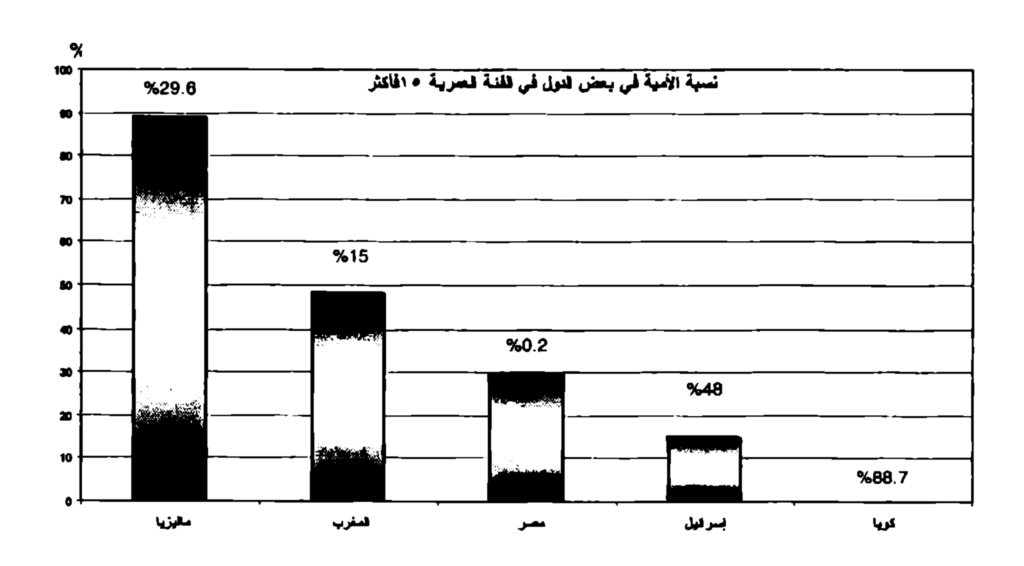
(١) تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م، والمنشور على موقع المنظمة على شبكة الانترنت، الرابط الإلكتروني
http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_MAR.html

(٢) تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م، مرجع سبق ذكره.

جدول رقم (١)

	على مستوى العالم	العرب	مصر	إسرائيل	فلسطين	المغرب	كوريا	سوريا	السعودية	سلطنة عمان	تونس	السودان
أكبر من ١٥ سنة												
الإجمالي	٪١٢	٪١٦	٪٢٩	٪٢,٩	٪٧,٦	٪٤٨	٪٠,٢	٪٣٠,٤	٪٢٠,٦	٪١٨,٦	٪٢٥,٧	٪٣٩,١
الذكور	٪٩	٪١٠	٪١٧	٪١,٥	٪٣,٣	٪٣٥		٪١٤	٪٢٢,٩	٪١٣,٢	٪١٦,٦	٪٢٨,٩
الإناث	٪١٤	٪٢١	٪٤١	٪٤	٪١٢	٪٦١		٪٢٦,٤	٪٣٠,٧	٪٢٦,٥	٪٣٤,٧	٪٤٩,٢
من ١٥ إلى ٢٤ سنة												
الإجمالي			٪١٥	٪٠,٢	٪١	٪٣٠	٪٠	٪٧,٨	٪٤,١	٪٢,٧	٪٥,٧	٪٣٢,٨
الذكور			٪١٠	٪٠	٪٠,٩	٪٢٠		٪٤	٪٤	٪١	٪٤	٪١٦
الإناث			٪٢١	٪٠,٤	٪١,٢	٪٤٠		٪٩,٨	٪٦,٣	٪٣,٣	٪٧,٨	٪٢٨,٦

مقارنة بين نسب الأمية في العالم العربي ودول أخرى



شكل رقم (١)

نسبة الأمية في بعض الدول في الفئة العمرية ١٥ فأكثر

وأعتقد أن مثل هذا العمل متيسرٌ للجميع.. لمن أراد الثواب، ولمن أراد الخير والصلاح لهذه الأمة..

الملاحظة الخامسة:

من الملاحظات المزعجة حقًا والمحزنة جدًّا، ظاهرة هجرة العقول الإسلامية إلى الغرب، فيما يُعرَف بظاهرة «استنزاف العقول» أو «Brain Drain»، فالدول الغربية بصفة عامة - وأمريكا بصفة خاصة - تحرص على استقطاب العقول المفكرة والمبدعة علميًا من شتى بقاع الأرض، ومنها - بالطبع - بلاد المسلمين..

وليس أدل على ذلك من أن أمريكا قد أعطت في التسعينيات ١٢ مليون مهاجر من شتى أنحاء العالم تأشيرة هجرة إليها، ولم تكن هذه التأشيرة مجرد تأشيرة سفر، فقد كانوا يعطونهم الجنسية الأمريكية، وفوقها ضمانات هائلة، وإغراءات مادية عالية، بحيث يذوب المهاجر تمامًا في المجتمع الأمريكي، وينقطع كليةً عن أصوله وجذوره التي انحدر منها[1]..

وموضوع استقطاب العقول هذا له أولوية خاصة في القرارات الأمريكية، حتى إن قانون الهجرة الأمريكية عُدِّل في سنة ١٩٩٥م ليعطي أولوية الهجرة لأصحاب العقول المفكرة والمبدعة، ويكفي أن نشير إلى أن أمريكا خصصت في سنة ٢٠٠٣م مائتي ألف تأشيرة لاستقطاب مهارات في مجالات علمية معينة، منها مائة ألف تأشيرة لاستقطاب مبرمجي كمبيوتر من الهند، وذلك عندما ظهر التفوق الهندي في هذا المجال في السنوات الأخيرة، مع أن الظاهر للعيان أن التفوق الأمريكي في مجال الكمبيوتر يُعدُّ تفوقًا ملحوظًا[2]!!

وهذا إن دل على شيءٍ فإنما يدل على أنهم لا يبحثون عن مجرد التواجد أو السيادة بفارق بسيط، وإنما يبحثون عن السيادة بفارق هائل وحاسم، كما أن هذا الاستقطاب لن يقوي أمريكا فقط، بل سيعمل على إضعاف الهند التي ستفقد مائة ألف متخصص جملة واحدة!!

وبنظرة متفحصة في ظاهرة هجرة العقول العربية الإسلامية إلى الغرب، تجد - على سبيل المثال - أن ٥٠٪ من الأطباء العرب المسلمين يهاجرون إلى أمريكا وأوروبا هجرة نهائية،

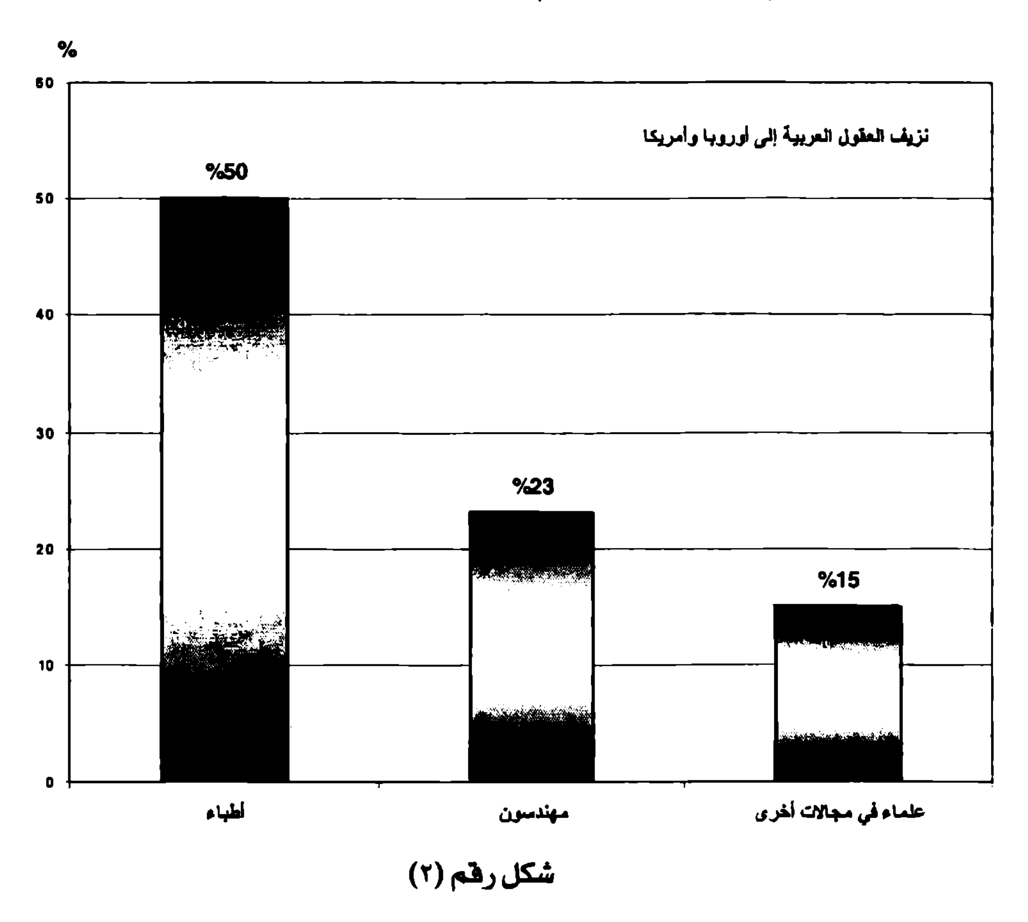
---

(١) موقع البلاغ: مقال بعنوان: العقول المهاجرة بين الاستنزاف والاستثمار، الرابط: http://www.balagh.com/thaqafa/320t3zh0.htm

(٢) راجع في ذلك مقال بعنوان: «العقول المهاجرة بين الاستنزاف والاستثمار»، منشور على شبكة «بلاغ».

ليصبحوا بذلك ركنًا أساسيًا في نهضة المشروع الأمريكي الأوروبي الطبي، بينما ينزوي المشروع الإسلامي مع مرور الوقت.. وليس هذا في مجال الطب فقط؛ فالإحصائيات تقول: إن ٢٣٪ من المهندسين و١٥٪ من العلماء من مجموع الكفاءات العربية المتخرجة يهاجرون متوجهين إلى أوروبا والولايات المتحدة، وكندا بوجه خاص، بل إن في بريطانيا وحدها تبلغ نسبة الأطباء من أصول عربية ٣٤٪ من مجموع الأطباء هناك[1]!! [انظر شكل رقم ٢].

وقد أثبتت دراسة أجريت على الطلاب العرب الذين يسافرون لتحصيل العلم من أوروبا وأمريكا أن ٥٤٪ منهم لا يعودون إلى بلادهم!! وبهذا وصل عدد العرب الذين يستقرون في



شكل رقم (٢)

(١) مجلة البرلماني العربي، السنة الثانية والعشرون، العدد الثاني والثمانون، ديسمبر ٢٠٠١: مذكرة الأمانة العامة حول جوهر الدمغة العربية، الرابط:

http://www.arab-ipu.org/publications/journal/782/memobrain.html

أوروبا وأمريكا من حملة الشهادات المؤهلة العليا حتى سنة ٢٠٠٠ إلى ٤٥٠ ألف عربي[١]!!

مع ملاحظة أن كل الإحصائيات السابقة على العرب وليست على عموم المسلمين، مع أن العرب لا يمثلون أكثر من خمس العالم الإسلامي. فإذا أضفت المسلمين غير العرب فإن الإحصائيات ستصل - بلا شك - إلى أرقام مفزعة، وبالأخص إذا كان هناك دول إسلامية غير عربية اشتهر أبناؤها بالهجرة إلى أوروبا وأمريكا بصورة لافتة، وذلك مثل **باكستان والهند وإندونيسيا وتركيا ونيجيريا** وغيرها..

ويكفي للدلالة على ذلك أن **نيجيريا** - على سبيل المثال - صدَّرت بمفردها إلى الآن إلى **أمريكا** فقط أكثر من ٢١ ألف طبيب نيجيري، وذلك على مدار السنوات السابقة[٢]!!

والوضع في قارة أفريقيا بصفة عامة مشابه للوضع في بلاد العالم الإسلامي، وخاصة أن كثيرًا من بلدانها هي بلاد إسلامية أو بها نسبة عالية من المسلمين، وذلك كما في **الصومال والنيجر ومالي وتشاد وأوغندا وسيراليون** وغيرها..

فأفريقيا تصدر سنويًا ٢٠ ألف مهاجرٍ متعلمٍ إلى أوروبا وأمريكا، ثم بعد ذلك تدفع ٤ مليارات دولار سنويًا؛ كأجورٍ لأجانب وخبرات علمية مستقدَمة؛ لسد الثغرات التي خلَّفها غياب هؤلاء العلماء الأفارقة المهاجرين[٣]!!

وهذه الإحصائيات كلها في الظروف الطبيعية العادية، أمّا في حال الكوارث أو الحروب أو الفتنة أو غيرها، فإن الأرقام تكون أبشع من ذلك..

فالعراق مثلاً تنزف من عقولها وعلمائها ما لا يُتخيل، وهناك في **بريطانيا** أكثر من ٢٠٠٠ طبيب عراقي!! ويتضح حجم الخسارة إذا علمنا أن الطبيب العراقي كان يكلف دولته في السبعينيات أكثر من ٤٥ ألف دولار.. فخسارة أكثر من ٢٠٠٠ طبيب عراقي إذن -

---

(١) مجلة البرلماني العربي، السنة الثانية والعشرون، العدد الثاني والثمانون، ديسمبر ٢٠٠١: مذكرة الأمانة العامة حول جوهر الدمغة العربية، الرابط:
http://www.arab-ipu.org/publications/journal/782/memobrain.html

(٢) موقع القنطرة: مقال بعنوان: هجرة العقول سلبيات وإيجابيات ظاهرة الهجرة، الرابط:
http://www.quantara.de/webcom/show_article.php/_c-471/_nr-158/_p-1/i.html?PHPSESSID=133099777

(٣) شبكة المشكاة الإسلامية: إدريس جالو: مقال بعنوان: هجرة العقول الإفريقية الآثار والحلول، الرابط:
http://www.meshkat.net/new/contents.php?catid=6&artid=7717

وبحساب السبعينيات - تعني خسارة ١٠٠ مليون دولار!! وهذا بالإضافة إلى الخسارة العلمية الناتجة عن فقد هؤلاء العلماء، وبالإضافة إلى الخسارة الصحية الناجمة عن فقد من يعالج مرضى الدولة[١]..

والوضع ليس أفضل حالاً بالنسبة إلى فلسطين ولبنان والسودان.. وكل بلدٍ مر بحروب شديدة أو فتنة متكررة، وإن كان الأمر عامًا على كل بلاد المسلمين كما ذكرنا.

الملاحظة السادسة:

مع كل المعوقات التي تواجهها أمتنا للخروج من مأزق التخلف العلمي، إلا أن الأعذار لاستمرار هذا التخلف غير مقبولة؛ وذلك لأننا نرى دولاً أخرى غير إسلامية مرت بظروف أمتنا نفسها أو أشد، ثم هي تخرج من كبوتها وأزمتها، وترتفع إلى مصافِّ الدول المتقدمة والمؤثرة في العالم..

والأمثلة على ذلك كثيرة ومتكررة، فهناك - على سبيل المثال - اليابان التي بدأت بعد الحرب العالمية الثانية في الخروج من الأزمة الرهيبة التي عصفت بها، وهناك ألمانيا التي أبيدت أيضًا في الحرب العالمية الثانية، وهناك كوريا الجنوبية التي لم تظهر على الساحة العالمية إلا منذ سنوات معدودات، وهناك كوريا الشمالية التي استطاعت أن تصنع السلاح النووي مع كل المعوقات التي تمر بها.. بل هناك الهند، مع كل ما تعانيه من فقرٍ وتكدُّسٍ سكاني رهيب، فإنها قد استطاعت أن تُصنِّع السلاح النووي، واستطاعت كذلك أن تنبغ وتبرز في مجال الكمبيوتر، بل وتصبح من الدول الأولى المرموقة في هذا المجال في العالم. ويكفي في التدليل على ذلك ملاحظة المعدلات المتنامية لصادراتها في مجال برامج الكمبيوتر؛ فقد بلغت صادرتها نحو ٢٣,٧١ مليار دولار في ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦م مقارنة بـ ١٧,٢١ مليار دولار في ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥، وتسجِّل صادرات الهند في قطاع تكنولوجيا المعلومات سنويًا نموًا هائلاً، ففي الفترة ما بين عامي ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦ سجل حجم الصادرات الهندية في هذا القطاع نموًا بنسبة ٣٧,٧٧٪ مقارنة بالفترة ما بين ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥[٢].

ومع أن المعوقات أمام الدول الإسلامية قد تكون أشد، إلا أن هذا ليس مبررًا لقبول

---

(١) موقع البلاغ: مقال بعنوان: العقول المهاجرة بين الاستنزاف والاستثمار، الرابط:

http://www.balagh.com/thaqafa/320t3zh0.htm

(٢) مجلة البيان: العدد (٩٨٤٢) السنة السابعة والعشرون، الرابط:

http://www.albayan.ae/servlet/Satellite?c=Article&cid=1161352119791&pagename=Albayan%2FArticle%2FFullDetail

مبدأ التخلف العلمي؛ فإنه إذا أرادت دولة إسلامية أن تصل إلى مستوي علمي لائق فإنها حتمًا ستصل، والأسباب متاحة للجميع، وليس أدل على ذلك من المثال الماليزي.. فدولة ماليزيا الإسلامية تتقدم اليوم بخطوات ثابتة رصينة في طريق العلم، وترتقي يومًا بعد يوم مع كل المعوقات التي تمر بها..

وهذه التجربة الماليزية تحتاج إلى دراسة متأنية؛ لأنها بالفعل تفتح أبواب الأمل أمام عموم المسلمين، وسنتعرض لها في نهاية الكتاب بإذن الله..

الملاحظة السابعة:

من الملاحظات السلبية والخطيرة كذلك -والتي تدل على إهمال المسلمين لعلوم الحياة- قضية «الإنفاق على العلم والبحوث العلمية»..

فقد أورد تقرير التنمية البشرية الصادر عن منظمة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م، بندًا يقيس مدى اهتمام دول العالم المختلفة بقضايا العلم، ويحدد ذلك بنسبة ما تنفقه الدولة على البحث العلمي من جملة ناتجها القومي كل عام..

وفي هذا التقرير لن نقارن الدول الإسلامية بالدول الصناعية الكبرى، مثل **أمريكا واليابان والصين وفرنسا وألمانيا وإنجلترا** وغيرها وإن كان يجب أن نقارن أنفسنا بهؤلاء لنصل إلى ما وصلوا إليه، بل ولنسبقهم إن شاء الله.. ولكننا سنقارن بدولة لقيطة ليس لها جذور حقيقية، ولا تملك من القيم ما يدفعها للصدارة، كما أنها قامت على أرض مضطربة مليئة بكثير من المشكلات والصعوبات والمعوقات، وتلك الدولة هي إسرائيل!!

فإسرائيل تنفق ٩ , ٤٪ من ناتجها القومي على العلم والإنجازات التقنية، وتُعَدُّ هذه أعلى نسبة إنفاق في العالم على العلم، ويفوق في ذات الوقت ما تخصصه كل الدول العربية مجتمعة بنحو ثلاث مرات ونصف[1]!! وهي بهذا الكم من الإنفاق تستطيع أن تصل إلى مستوى الدول المصنِّعة والمبتكرة، بل وتفوقها، وبالفعل فقد أصبح لها رصيد محترم من الاختراعات والإضافات، وفي أكثر من مجال، سواء في العلوم العسكرية، أو علوم الفضاء، أو علوم الذرة، أو العلوم الطبية، وكذلك باقي مجالات التصنيع المختلفة..

---

(١) تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م،صفحة إسرائيل، الرابط الإلكتروني
http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_ISR.html

فالعلم يقع في بؤرة اهتمامها، ولذلك وصلت إلى مستوى متميز، وإلى مكانة مرموقة [انظر شكل رقم ٣].

أما إذا نظرت إلى الدول الإسلامية، فإنك - وللأسف الشديد - تفاجأ بأن قضايا الإنجاز العلمي والتقني والابتكارات لا تقع في بؤرة الاهتمام، ولا ينفق عليها من الناتج القومي إلا النزر اليسير، مع أنه إذا زاد الاهتمام بالعلم فإن ذلك سيساعد على تقدم الصناعة والزراعة والاقتصاد والتصدير، وكل المجالات الأخرى، وهذا - من وجهة نظر مادية بحتة - سيقدم الأمة للأمام خطوات وخطوات، وسيصب في قوتها، ليس علميًا واقتصاديًا فحسب، وإنما أيضًا سياسيًا وعسكريًا..

ولكن - على ما يبدو - فإن القضية لا تشغل أذهان المسئولين عن هذه الأمة الضخمة!!

فيذكر تقرير الأمم المتحدة أن مصر - مثلاً - تنفق ٢ , ٠٪ من ناتجها القومي على العلم والإنجاز التقني، أي أن نسبة إنفاق إسرائيل على العلم ضعف نسبة إنفاق مصر ما يقرب من ٢٥ مرة(١)!!

وعليه فلا يشك أحد أن التميز اليهودي في مجال العلوم سيكون ضعف التميز المصري ٢٥ مرة.. وهذه سنة ماضية فالذي يبذل في الدنيا لابد أن يصل إلى ما يريده من غايات، كما لابد لتحقيق نتائج معينة أن تُبذل أسباب بذاتها، حتى لو كان هذا الذي يبذل كافر ملحد.. يقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥].

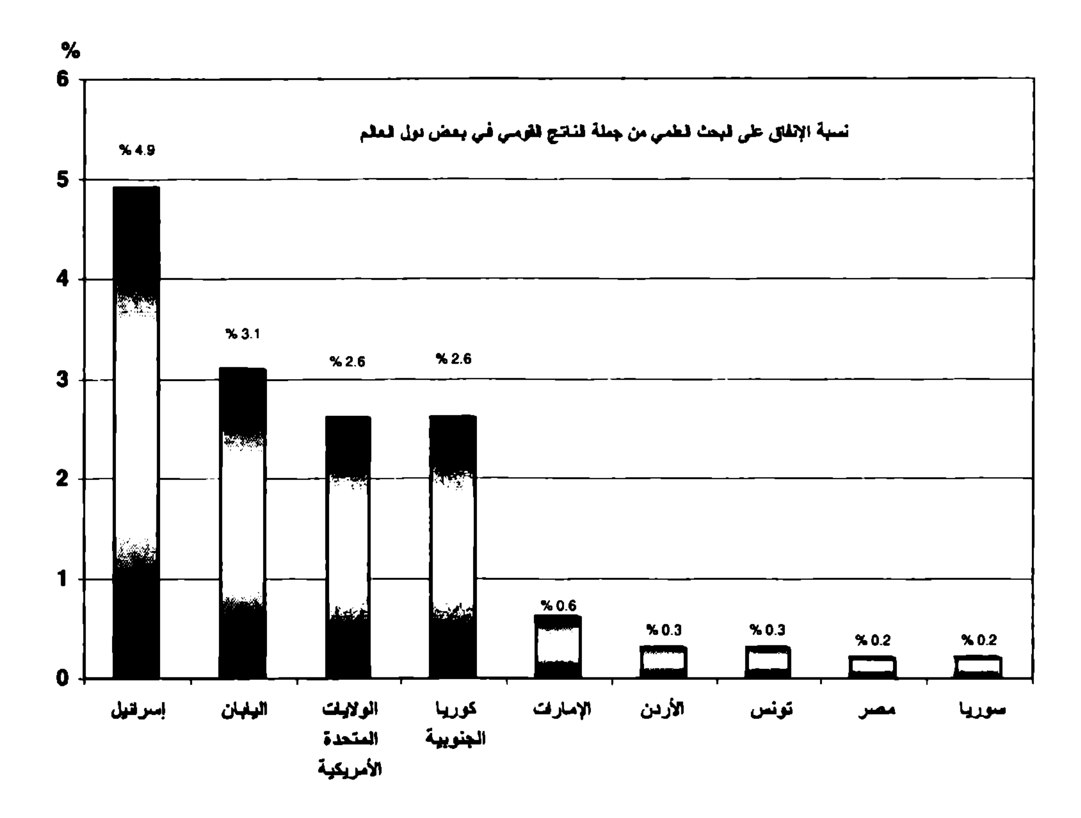
وعن بقية البلدان العربية، فإن حالها لا يختلف كثيرًا عن أحوال مصر في مجال الإنفاق على العلوم والتقنية، وهي تحوم حول النسبة نفسها تقريبا..

فهذا الأردن ينفق ٣ , ٠٪ من الدخل القومي على العلم، وتونس كذلك، وسوريا تقل لتصل إلى ٢ , ٠٪ من جملة دخلها القومي. وتعد الإمارات أعلى الدول العربية من حيث الإنفاق على العلم؛ إذ يصل نسبة إنفاقها ٦ , ٠٪ من دخلها القومي(٢)، ومع أنها أعلى الدول العربية إلا أن المسافة بينها وبين إسرائيل مازالت شاسعة..

---

(١) تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م صفحة مصر، الرابط الإلكتروني
http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_EGY.html

(٢) تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م صفحة كل البلدان، الرابط الإلكتروني
http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/indicators/20.html



نسبة الإنفاق على البحث العلمي من جملة الناتج القومي في بعض دول العالم
%
6
5
4
3
2
1
0
% 4.9
% 3.1
% 2.6
% 2.6
% 0.6
% 0.3
% 0.3
% 0.2
% 0.2
إسرائيل
اليابان
الولايات المتحدة الأمريكية
كوريا الجنوبية
الإمارات
الأردن
تونس
مصر
سوريا

شكل رقم ٣

وفي غير قضايا الإنفاق على الأبحاث العلمية، وبما يعبر عن المدى الذي وصل إليه المستوى العلمي في الدول الإسلامية مقارنة بإسرائيل، فقد كشف تقريرٌ صادرٌ عن هيئة الأمم المتحدة عن حقيقة الفجوة التكنولوجية والعلمية بين العرب وإسرائيل، والتي تجسد تفوقًا علميًّا وتكنولوجيًا إسرائيليًا ساحقًا..

ففي حين يذكر التقرير أن لكل ١٠٠٠ مواطن إسرائيلي ٢١٧ جهاز كمبيوتر، يذكر أن في الأردن ٥٢ جهازًا لكل ألف أردني، وفي لبنان ٣٩ جهازًا لكل ألف لبناني، وفي مصر ٩ أجهزة لكل ألف مواطن مصري..[1]!!

وبالنسبة لعدد الباحثين العلميين في العالم العربي مجتمعًا، فإن التقرير يُشير أيضًا إلى أن لكل مليون مواطن عربي ١٣٦ باحثًا، في حين أن في إسرائيل ١٦١٣ باحثًا لكل مليون يهودي يعيش في إسرائيل[2]!!

وإذا أردنا التوسع في ذكر أمثلة أخرى، فإن في أمريكا ٤٣٧٤ باحثًا لكل مليون مواطن أمريكي، وفي اليابان ٥٠٠٠ باحث علمي لكل مليون مواطن ياباني[3] [انظر شكل رقم ٤]..

أما بالنسبة إلى نصيب المواطن في الدولة من الإنفاق على التعليم، فهو - حسب إحصائيات التقرير نفسه - في إسرائيل ٩٢٢ دولارًا سنويًا، والمواطن الأمريكي يصرف عليه ١٠٠٥ دولارات سنويًا، أما المواطن المصري فنصيبه ٦ دولارات سنويًا!! [انظر شكل رقم ٥].

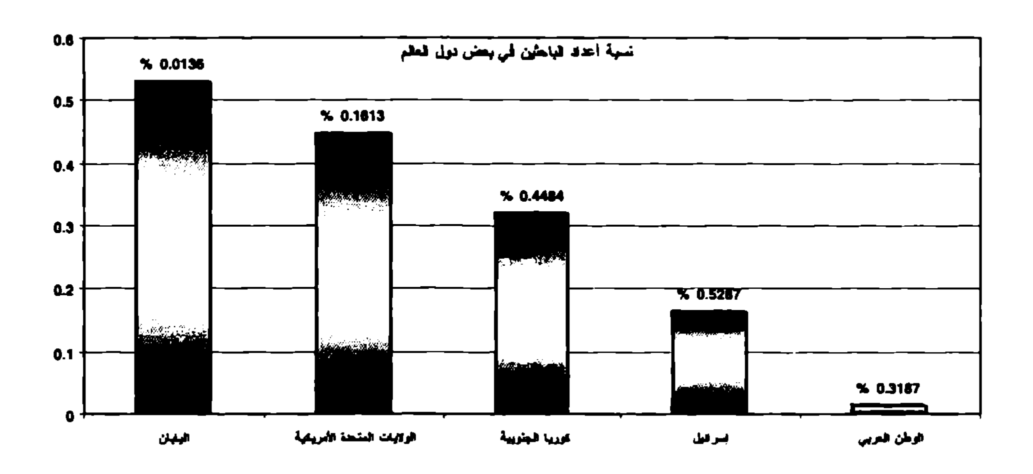
والجدول رقم (٢) يوضح دارسي العلوم الطبيعية والعلماء والمهندسين، وإنتاجهم من البحوث العلمية، والإنفاق على البحث والتطوير العلميين في الدول العربية ودول مختارة، مقارنة بالمتوسط العالمي [انظر الجدول رقم ٢].

ولا تُعذَر البلاد العربية والإسلامية بفقرٍ أو بضيق في ذات اليد، ويكفي في ذلك أن نعرف أن واحدة من هذه الدول التي تشكو معاناة الفقر والتكدس السكاني، تُنفق الملايين والملايين على أمور ليست من الأولويات في شيء.. وقد رأينا مؤسسة علمية ضخمة في مصر تنفق ١٥ مليون جنيه مصري على تجميل السور المحيط بها، بينما يصعب جدًّا إنفاق ألف أو ألفيْ جنيه مصري على مشروع بحثي مفيد!! ورأينا أيضًا من يكلف تأسيس مكتب مدير مؤسسة علمية مئات الآلاف من الجنيهات، بينما يتردد هذا المدير في الموافقة على مكافأة بسيطة لعالمٍ كادح!!

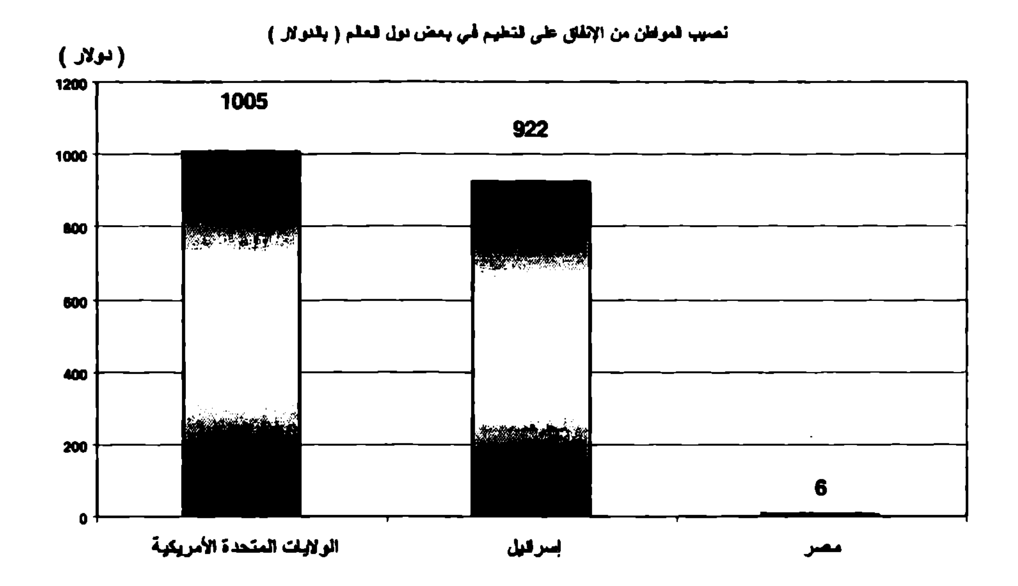
---

(١) تقرير التنمية البشرية الصادر عن هيئة الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٦م.

(٢) المصدر السابق نفسه. (٣) المصدر السابق نفسه.



شكل رقم ٤
أعداد الباحثين



شكل رقم ٥
الإنفاق على التعليم

جدول رقم ٢

الدولة	عدد العلماء والمهندسين في البحث والتطوير لكل مليون من السكان ١٩٩٦ - ٢٠٠٢	عدد الفنيين في البحث والتطوير لكل مليون من السكان ١٩٩٦ -٢٠٠٢	عدد المقالات العلمية والتقنية عام ٢٠٠١	الإنفاق على البحث والتطوير كنسبة من الدخل القومي الإجمالي ١٩٩٦ -٢٠٠٢	الصادرات عالية التكنولوجيا بالمليون دولار عام ٢٠٠٣	عائد حقوق الملكية وتراخيص الإنتاج بالمليون دولار عام ٢٠٠٣
مصر	..	..	1548	0.19٪	9	121
الجزائر	..	..	225	..	12	..
العراق	..	..	21	..	..	..
الأردن	1977	728	240	..	28	..
الكويت	73	180	257	0.20٪	11	صفر
لبنان	..	..	202	..	17	..
ليبيا	361	493	19	..	..	..
موريتانيا	..	..	2	..	..	..
المغرب	..	..	469	..	680	26
عمان	..	..	96	..	26	..
السعودية	..	..	580	..	24	صفر
السودان	..	..	43	..	4	..
سوريا	29	24	55	0.18٪	5	..
الإمارات	..	..	159	..	17	..
تونس	1013	34	344	0.63٪	244	18
اليمن	..	..	10	..	..	..
الولايات المتحدة	4526		200870	2.66٪	160212	48227
اليابان	5085	..	57420	3.12٪	105454	12271
ألمانيا	3222	1435	43623	2.53٪	102869	4262
كوريا الجنوبية	2979		11037	2.53٪	57161	1325
الصين	633	..	20978	1.23٪	107543	107
إسرائيل	1570	518	6487	5.08٪	5322	425
العالم	..	..	648500	2.36٪	1043222	92116

العلامة (..) تعني: غير متاح، وقد اعتمدنا في الكتاب على بعض البيانات المحدثة عما في الجدول. والمصدر هو: World Bank, World Development Indicators: - 2005 P. 314) (316- عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية: تقرير الاتجاهات الاقتصادية الاستراتيجية ٢٠٠٦ - القاهرة، السنة الخامسة، يونيو ٢٠٠٦م.

فالإمكانيات متاحة والأموال موجودة.. لكن المشكلة تكمن في ترتيب الأولويات، وفي فقه الواقع، وفي الضمير، وفي تقديم المصالح الخاصة على المصالح العامة، وفي ضعف الاعتقاد في أهمية العلم..

وخلاصة هذه الملاحظة أن قضية العلم لم تقع بعدُ في بؤرة الاهتمام في العالم العربي والإسلامي، وكان هذا - ولا شك - أحد أهم الأسباب المباشرة لحالة التخلف والتردي التي تمر بها الأمة، والأمر يحتاج إلى وقفات..

الملاحظة الثامنة:

نظرًا للأهمية القصوى للعلم، ونظرًا للاهتمام بأبحاثه والتطلع إلى كل جديد فيه، وأهمية أن تضع الدولة في مخططاتها المستقبلية سبل الارتقاء به وتنميته؛ فإن الأمم المتحدة - كما جاء في تقرير التنمية البشرية لسنة ٢٠٠١م - تُقسم العالم بحسب الإنجاز التقني إلى خمس فئات، وأولى هذه الفئات هي مجموعة القادة، ثم القادة المحتملين، ثم النشطين، ثم المهمشين، وأخيرًا: الآخرين..

وقد أظهر هذا التصنيف خللاً كبيرًا في عالمنا الإسلامي!! [انظر شكل رقم ٦].

فالفئة الأولى وهي مجموعة القادة ضمت ١٨ دولة، ليس من بينهم دولة إسلامية واحدة.. بينما تقع إسرائيل ضمن هذه الفئة الأولى!!

أما الفئة الثانية وهي القادة المحتَملون، فقد ضمَّت - فيما ضمَّته - دولة إسلامية واحدة هي ماليزيا، بينما تقع مصر وإندونيسيا وتونس وسوريا والجزائر وإيران في فئة النشطين، أما بقية الدول العربية والإسلامية فتقع في طائفة المهمشين والآخرين، والذين لم يضعوا قضية العلم في حساباتهم مطلقًا..

والجدير بالذكر أن بعض هذه الدول الإسلامية تتميز بمستوى مرتفع في المعيشة، بل وارتفاع في معدلات التنمية، لكن - وللأسف - ليس لها اهتمام يُذكَر بالإنجازات التقنية.

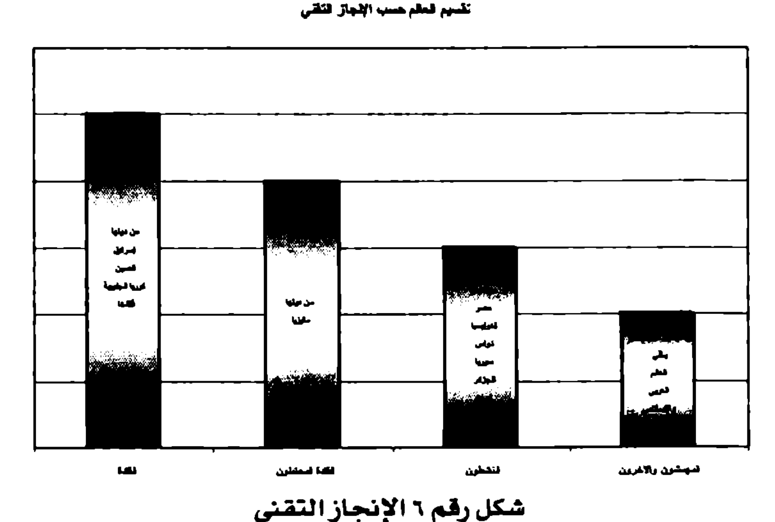
وعند النظر إلى الدول القادة أو تلك التي يحتمل أن تصبح قادة، تدرك ولأول وهلة إلى أي مدى وضعت هذه الدول البحث العلمي في أولى حساباتها، وكيف كرَّست جهودًا مضنية للوصول إلى هذه المكانة المرموقة التي تبوأتها..

فعلى سبيل المثال فإن رجال الصناعة في مجالات الاتصالات والمعلومات، وفي مجالات تصنيع الأخشاب في دولة مثل فنلندا - وهي دولة تتفوق في هذه المجالات - يخصصون ٢٠٪ من أوقاتهم لتوريث الخبرة إلى طلاب الجامعات الفنلندية.. وبذلك تستمر الدولة في طريقها نحو التفوق، ويبدأ فيها الطلاب من حيث انتهى العلماء، وتستطيع الدولة أن تحافظ على مكانتها العلمية، بل تتقدم وتسبق..

وفي دولة مثل الصين تجد أن الجامعات الحكومية تدعم مجالات البحث العلمي، ليس فقط في المشروعات الحكومية، وإنما تدعمه أيضًا لصالح المؤسسات الصناعية في القطاع الخاص، وذلك مثل تحديث الصناعات البتروكيماوية، وتحسين الأنشطة التقليدية في مجال الزراعة، وغيرها..

وهكذا تساعد الجامعات الحكومية في الصين عموم الشعب لكي يبدع في مجالات العلوم والتقنية، ولا غرو إذن في أن تصل الصين إلى هذه المكانة المتقدمة التي احتلتها بين دول العالم..

وهذه كوريا الجنوبية.. تجدها تقفز خطوات كبيرة جدًّا في مجال العلوم والتقنية الحديثة، بل وتنافس الآن دول العالم الكبرى.. فإذا راجعت برامجها وقوانينها تجد أنها - مثلاً - تُقدم تسهيلات ضريبية كبيرة للشركات التي تسهم في مشروعات البحث العلمي، كما تجد أنها تمد هذه الشركات بالكفاءات العلمية التي تساعدها على إتمام مشروعاتها العلمية، وبالطبع فإن الفائدة في النهاية تعود على الدولة ككل[1]..



شكل رقم ٦ الإنجاز التقني

(١) مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية: تقرير الاتجاهات الاقتصادية الاستراتيجية، ٢٠٠١م، الرابط http://www.ahram.org.eg/acpss/ahram/1/1/2001/ECON٨.HTM.

الملاحظة التاسعة:

وضع وترتيب الجامعات الإسلامية على مستوى العالم.. فالطبيعي أن تقدم دول العالم يُقاس اليوم بقدر إسهامها في بناء الحضارة الإنسانية وتقدم العلوم وهو دورٌ لا تقوم به إلا الجامعات العلمية في تلك الدول..

وعلى هذا الأساس فقد نشر معهد التعليم العالي في جامعة جياو تونج في شنغهاي بالصين [Institute of Higher Education Shanghai Jiao Tong University] تقريرًا تقييميًّا مفصّلا حول ترتيب ومكانة أفضل خمسمائة جامعة في العالم في سنة ٢٠٠٤م، وتلاه تقرير سنة ٢٠٠٥م، ثم تقرير سنة ٢٠٠٦م[1]. [شكل رقم ٧]

وهذه التقارير تبرز بوضوح تلك الفجوة الهائلة في مجالات البحث العلمي والاهتمام بالإنجازات التقنية بين دول العالم الإسلامي ودول العالم الأخرى..

وبداية فإني لست مع من يُشكك في مصداقية أي من هذه التقارير، أو الادعاء بأنها غير موضوعية، وقد اطَّلعت عليها فكانت النتائج جد متقاربة، مما يعطي انطباعًا بأن هناك دقة في المعايير.. وهذا بالإضافة إلى مطابقة نتائجها للواقع الذي نحياه..

ومما يعطي المصداقية أن تصنيف جامعة شنغهاي هذا استند إلى أربعة معايير علمية وموضوعية، يشهد بها كل الأكاديميين في العالم، كما يستند إلى عدد من المؤشرات أو وحدات القياس في كل معيار، ويخصص لكل من تلك المؤشرات نسبًا مئوية حصيلتها ١٠٠ علامة، وتلك المعايير والمؤشرات هي[2]:

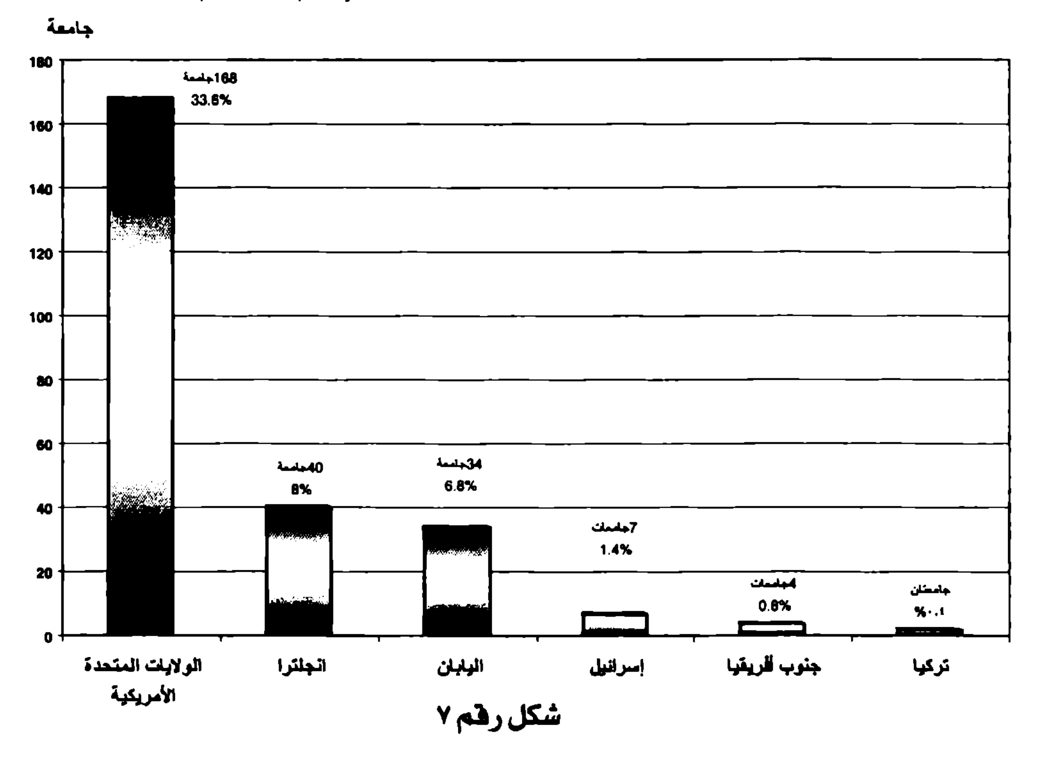
١- معيار جودة التعليم: المؤشر: «خريجو المؤسسة الجامعية، والحائزون على جوائز نوبل منها أو ميداليات في مجال تخصصهم، ونسبته ١٠٪».

٢- معيار جودة الكلية أو المعهد: المؤشر: «الجهاز للبشري العلمي في المؤسسة، والحائزون على جوائز نوبل والميداليات في التخصص منها، ونسبته ٢٠٪، والمؤشر:

---

(١) نشر ترتيب الجامعات على موقع الكتروني يتبع جامعة شنغهاي، وذلك على شبكة الانترنت، الرابط الإلكتروني http://ed.sjtu.edu.cn/ranking.htm

(٢) المرجع السابق نفسه، وفي صفحة خاصة بقواعد التفضيل بين الجامعات، الرابط الإلكتروني، http://ed.sjtu.edu.cn/rank/2004/Methodology.htm



شكل رقم ٧

«الباحثون رفيعو المستوى لديها في ٢١ فئة من الموضوعات العلمية الرئيسية، ونسبته ٢٠٪».

٣- معيار مخرجات الأبحاث العلمية: والمؤشر: «المقالات المنشورة من قبلها في فهرس علوم الطبيعة والعلوم الأساسية، ونسبته ٢٠٪، والمؤشر: المقالات المنشورة في الفهارس الموسعة في العلوم الاجتماعية والفنون والعلوم الإنسانية، ونسبته ٢٠٪».

٤- معيار حجم المؤسسة: المؤشر: «الأداء الأكاديمي من قبلها، مع الأخذ بالاعتبار حجم المؤسسة العلمية، ونسبته ١٠٪».

فهي - ولا شك - معايير قوية وموضوعية جدًّا، استندوا إليها في ترتيبهم لأفضل خمسمائة جامعة في العالم.. وهو ما يجعلنا نقف وقفة - من خلال تقارير السنوات الثلاث السابقة - نستقرىء منها الملاحظات المهمة التالية:

١- في تقرير سنة ٢٠٠٤م خَلَت الجامعات الخمسمائة من جامعة إسلامية، وفي تقرير سنة

٢٠٠٥م دخلت دولة إسلامية واحدة بجامعتين برقم ٤٠٩ و ٤٦٨ على العالم، وهي تركيا..!!

وهذا فأل حسن، والوصول إلى القمة لن يحدث قفزة واحدة، وتركيا استحقت بالفعل أن تدخل هذا الترتيب، وتحتاج تجربتها إلى دراسة متأنية.

وبينما أصابتنا حالة من الحزن لخروج تركيا من تصنيف الجامعات الأولى في تقرير سنة ٢٠٠٦م [انظر شكل رقم ٨]، عوَّضتنا مصر عن ذلك بدخولها في التصنيف بجامعة القاهرة، وذلك بترتيب ٤٠٤ من أفضل ٥٠٠ جامعة على مستوى العالم[1].

٢- أمريكا هي الدولة الأولى في العالم من حيث عدد جامعاتها في تقرير سنة ٢٠٠٥م؛ إذ شملت القائمة ١٦٨ جامعة أمريكية، من بين العشرين الأولى فيها ١٧ جامعة أمريكية، ومن بين المائة الأولى ٥٣ جامعة أمريكية.

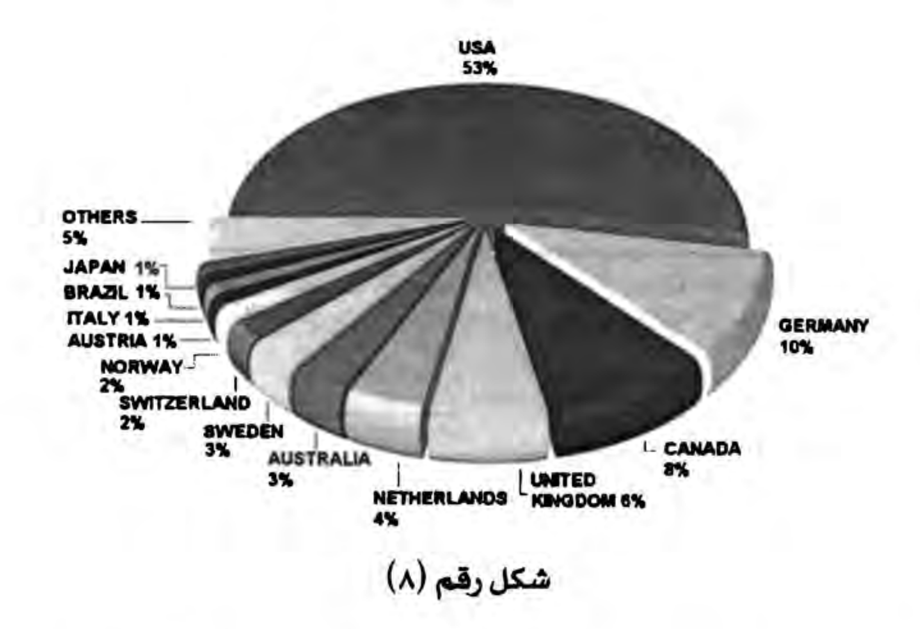
وتتصدر جامعة هارفارد الأمريكية الجامعات الخمسمائة، ثم جامعة ستانفورد في المركز الثالث، ومعهد ماساشوستش للتكنولوجيا، والذي درس به بنيامين نيتانياهو رئيس وزراء إسرائيل الأسبق في المركز الخامس ثم جاء معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا، والذي يضم الدكتور أحمد زويل في المركز السادس.

أما بقية الجامعات العشرين الأولى: فاثنتان منها بريطانيتان، وهما جامعة كمبردج وتأتي في المركز الثاني وجامعة أكسفورد وترتيبها العاشر وجامعة يابانية، وهي جامعة طوكيو، وترتيبها العشرون، وكان ترتيبها في تقرير ٢٠٠٤م الرابع عشر.

٣- جاءت أولى جامعات الصين - التي خرج منها التقرير - في المركز ١٦٢ في ترتيب الجامعات، وذلك بجامعة تايوان الوطنية على أنها أولي الجامعات الصينية في الترتيب، وذلك باعتبار أن تايوان جزء من الصين.. ولم يرصد المعهد صاحب التقرير لجامعات بلاده ومعاهدها ومراكزها العلمية التي تبلغ الآلاف إلا ١٨ جامعة فقط..!!

وهو وإن دلَّ على شيء فإنما يدل على مصداقية وموضوعية هذا التقرير؛ إذ كان التحيز أن تأتي بكين أو شنغهاي على رأس القائمة لكونهما في الصين الشعبية لا الجامعة الوطنية في تايوان.

(١) معهد التعليم العالي في جامعة شنغهاي جياو تونج، الصين، الرابط
http://ed.sjtu.edu.cn/rank/2006/ARWU2006TOP500list.htm



شكل رقم (٨)

٤- الدولة الثانية في عدد الجامعات بعد **أمريكا** هي **إنجلترا**، وعدد جامعاتها في قائمة الخمسمائة هو ٤٠ جامعة.. ولك أن تتخيل بعد ذلك الملازمة التي بينها وبين **أمريكا**، بعد أن تدرك أولاً من التابع ومن المتبوع فيهما..؟!

٥- الدولة الثالثة في عدد الجامعات في القائمة هي **اليابان** بنحو ٣٤ جامعة..

٦- تأتي **إسرائيل** لتحتل المركز الثاني عشر في التقرير، متفوقة بذلك علي دول كبري مثل **روسيا والصين**، وذلك بسبع جامعات إسرائيلية، على رأسها الجامعة العبرية في القدس، وجاءت في المركز ٧٨، وكانت في تقرير ٢٠٠٤م في المركز التسعين، بما يعني أنها في صعود وتقدم مستمر..!!

٧- وتأتي **جنوب أفريقيا** لتكون هي الدولة الأفريقية الوحيدة في قائمة دول الجامعات الخمسمائة عام ٢٠٠٤م، وذلك بأربع جامعات..

٨- ولئلاً نعوِّل على الفقر، فقد ضمت القائمة دولاً فقيرة مثل: **سنغافورة والمكسيك وجنوب أفريقيا والمجر وأيرلندا والهند والأرجنتين واليونان وبولندا والتشيك وشيلي والبرتغال**..

٩- جاء ترتيب الدول الثمانية الصناعية الكبرى في المراكز العشرة الأولى، وذلك باستثناء **روسيا**، والتي جاء ترتيبها في المركز ١٧ بين دول القائمة، وليس هذا من قبيل المصادفة؛ فمن الواضح أن روسيا في تدهور مستمر، ولكن بصفة عامة لابد أن تكون الدول الصناعية

الكبرى في الصدارة بخصوص قضايا العلم والتعلم.

ويبين الجدول رقم (٣) تقرير معهد التعليم العالي في جامعة جياو تـونج الصـينيّة لسـنة ٢٠٠٥م [انظر الجدول رقم ٣].

جدول رقم ٣

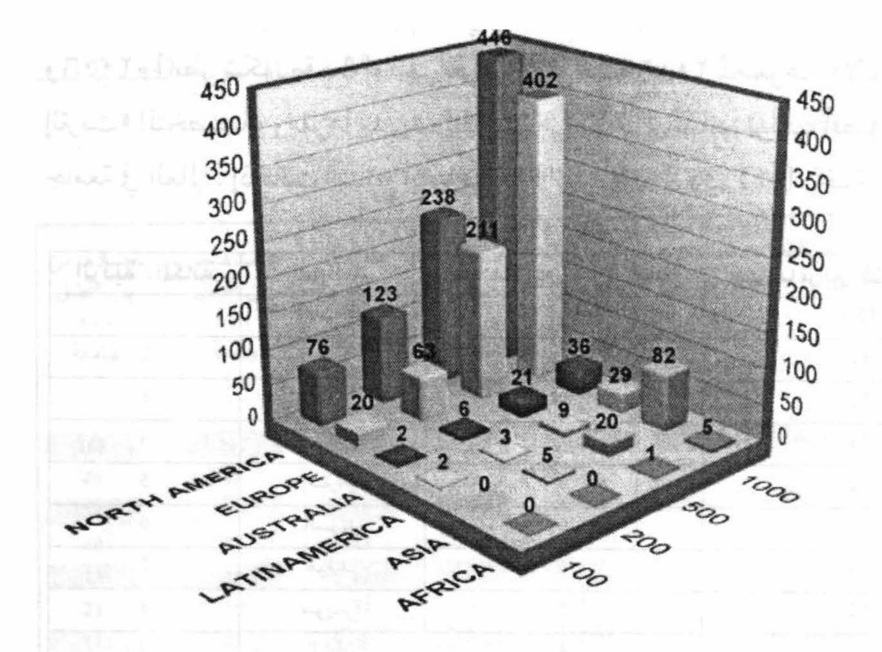
المكانة/ الرتبة	اسم البلد	حصادها من بين أفضل ٢٠ جامعة	حصادها من بين أفضل ١٠٠ جامعة	حصادها من بين من أفضل ٢٠٠ جامعة	حصادها من بين أفضل ٣٠٠ جامعة	حصادها من بين أفضل ٤٠٠ جامعة	حصادها من بين أفضل ٥٠٠ جامعة
1	أمريكا	17	53	90	119	140	168
2	بريطانيا	2	11	19	30	36	40
3	اليابان	1	5	9	13	24	34
4	ألمانيا		5	16	23	33	40
5	كندا		4	8	17	19	23
6	فرنسا		4	8	13	19	21
7	السويد		4	5	9	11	11
8	سويسرا		3	6	6	7	8
9	هولندا		2	7	9	11	12
10	أستراليا		2	6	9	10	14
11	إيطاليا		1	5	9	18	23
12	إسرائيل		1	4	4	6	7
13	الدينمارك		1	3	4	4	5
14	النمسا		1	1	2	4	6
15	النرويج		1	1	2	3	4
16	فنلندا		1	1	2	2	5
17	روسيا		1	1	1	2	2
18	بلجيكا			4	6	6	7
19	الصين			2	6	15	18
20	أسبانيا			2	3	4	9
21	كوريا (ج)			1	2	5	8
22	البرازيل			1	2	3	4
23	سنغافورة			1	1	2	2
24	المكسيك			1	1	1	1
25	نيوزيلندا				1	2	5
26	(ج) أفريقيا				1	2	4
27	هنغاريا				1	2	2
28	اليونان				1	2	2
29	ايرلندا				1	1	3
30	الأرجنتين				1	1	1
31	التشيك				1	1	1
32	بولندا					2	3

١٠- بعد تقارير معهد التعليم العالي في جامعة جياو تونج الصينيّة لسنة ٢٠٠٤ و٢٠٠٥ و٢٠٠٦م [انظر شكل رقم ٩]، ظهر تقرير آخر سنة ٢٠٠٦ لمجموعة «لابوراتوريو دي إنترنت» المتخصصة، ومقرها مدريد، لتفاجئنا هي الأخرى بنتائج ترتيب أفضل ثلاثة آلاف جامعة في العالم.. إذ كانت النتائج أيضًا مفزعة [انظر الجدول رقم (٤)] ومخيبة للآمال(١)!!.

جدول رقم ٤

الرتبة / المكانة	اسم البلد	حصادها من بين أفضل ٢٠٠ جامعة	حصادها من بين أفضل ١٠٠٠ جامعة
1	الولايات المتحدة	110	455
2	كندا	19	42
3	ألمانيا	16	68
4	المملكة المتحدة	13	79
5	استراليا	6	32
6	السويد	6	15
7	هولندا	6	13
8	سويسرا	5	10
9	اليابان	4	24
10	النرويج	3	7
11	البرازيل	2	11
12	النمسا	2	9
13	ايطاليا	1	27
14	تايوان	1	14
15	فنلندا	1	13
16	بلجيكيا	1	7
17	إسرائيل	1	7
18	جمهورية التشيك	1	7
19	المكسيك	1	4
20	سنغافورة	1	2
21	اسبانيا	1	32
22	فرنسا		20
23	الدينهارك		9
24	بولندا		9
25	الصين		9
26	البرتغال		7

(١) الترتيب الخاص بمجموعة «لابوراتوريو» منشور على موقعهم الخاص على شبكة الإنترنت، والرابط الإلكتروني http://www.webometrics.info/index.html



شكل رقم (٩)

فقد كانت **أمريكا** هي الدولة الأولى في العالم من حيث عدد جامعاتها في تلك القائمة أيضًا؛ وقد شملت الألف جامعة الأولى ٤٥٥ جامعة أمريكية، على رأسها جميعا جامعة **كاليفورنيا**. وكانت الدولة الثانية أيضًا في عدد الجامعات بعد **أمريكا هي بريطانيا**، بنحو ٧٩ جامعة بريطانية.. ثم جاء الترتيب بعد ذلك قريبًا من التقرير السابق.

ولا شك أن مثل هذه الحقيقة لم تكن مؤامرة، وليست حقدًا أو غيرة من الدول الإسلامية.. وإنما هي تجسيد وتصوير حيٌّ لما تمر به الأمة؛ الأمر الذي يوقفنا على تشخيص المرض وموطن الداء، ومن ثم وصف الدواء..

الملاحظة العاشرة:

وهذه الملاحظة تعم بلدان العالم الإسلامي، وهي مؤسفة جدًّا، وتكمن في عدم الاهتمام مطلقًا بالهيئة التعليمية، تلك التي تحمل مسئولية قيادة البلاد علميًا وتقنيًا، وذلك بدءًا من العلماء وأساتذة الجامعات، ومرورًا بكل مراحل التعليم، وانتهاء بمدرسي المدارس الابتدائية والحضانات..

والأمر - بلا شك - يعكس قيمة العلم في منظور هذه الدول..

فإذا نظرنا إلى المرتبات والأجور التي يتقاضاها العلماء والأساتذة - كواحدة من الصور التي تعكس قيمة العلم ومكانته في هذه الدول - تجد أنها لا تكفي بحال من الأحوال لسد أقل متطلبات الحياة اليومية!!

وعليه فإن هذا العالم وذاك الأستاذ من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - أن يبرع ويبتكر في مجاله في مثل هذه الظروف.. فهو أولاً سيبحث عن عمل خارجي إضافي كي يتكسّب منه، ويحصِّل من ورائه جزءًا من المال يتقوى به على متطلبات الحياة، وكثيرًا ما يكون هذا العمل الإضافي في خارج مجاله تمامًا..

ثم هو ثانيًا لن يهتم كثيرًا بعمله في الجامعة أو المؤسسة العلمية؛ كونه يشعر بالغبن في الأجر، وبعدم التقدير للمجهود، ومن ثَم يعطي من مجهوده ما يتناسب في تقديره والأجر الذي يتقاضاه.

ثم هو ثالثًا يشعر بالسُّخط وعدم الانتماء لهذه الدولة التي لم تُقدِّر جهده وسعيه وعلمه.. وهذا الشعور المقيت يقتل كل نوايا الإبداع والابتكار.

وفي النهاية تراه وقد قرر الهجرة وترك الديار إلى بيئة تُقدِّره علميًا أو ماديًا.. فإما أن يهاجر إلى أمريكا أو إلى أوروبا ليرتقي بعلمه وينبغ فيه، ويدخل بذلك ضمن المنظومة العلمية الغربية، وإما أن يبحث عن عقد عمل مجزٍ، ولو كان على حساب مجاله، ولو كان في بيئة لا تهتم أصلاً بالعلم ولا تحفل به!!

ولعله من البدايات المهمة والتي يجب أن تكون نقطة انطلاق في تلك البلاد التي تريد أن يكون لها مكانة بين الدول الكبرى، أن تهتم بأجور علمائها وأساتذتها ومربيها.. ويكفي في الإشارة إلى ذلك أن تعلم أن مرتب أستاذ الجامعة في بلد مثل مصر هو أقل من مرتب أستاذ الجامعة في أمريكا أو أوروبا الغربية بأكثر من خمسين مرة على الأقل، وأحيانًا أكثر من مائة مرة، مع أن الأسعار بصفة عامة أرخص هناك عن الأسعار في بلادنا!!

وهذا يعطي انطباعًا وخلفية عن الحالة النفسية والمادية التي يعيشها العالم هناك، مما يعني فرصًا أكبر للإبداع والتفوق والابتكار..

ولا مجال هنا للاعتذار والتعلل بضعف الوضع الاقتصادي في بلادنا، والتحديات التي تواجهنا؛ فإن مرتب الوزير في بلادنا ومن كان في وضعه السياسي يفوق مرتب مثيله في تلك البلاد الغربية المتقدمة مرات عديدة!!

فالقضية إذن ليست قضية نقص مال، وإنما هي قضية نقص علمٍ ونقص فقهٍ وسوء تصرف.. وأحيانًا كثيرة تكون نقص ضمير!!

أنا لا أقول هذا لنلقي باللوم على بعضنا البعض، ولكن لنقف وقفة جادة في سبيل حصول التغيير.. أريد أن يعلم الجميع أن ديننا يأمر بعكس ما نفعل الآن.. ديننا يأمر بالعلم النافع على إطلاقه، سواء علوم الشرع أو علوم الحياة..

وأريد أيضًا أن أقول أن الوقت ليس متأخرًا أبدًا إذا أردنا البداية، وأن النهضة لا تحتاج إلى عقود، وإنما تحتاج إلى إخلاص، وإلى جهد، وإلى بذل، وإلى خطة، وإلى عمل..

نتيجة كل هذه الملاحظات السابقة، وبعد رؤية حال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، كان من الطبيعي أن يُتهم الإسلام بأنه سببٌ لهذا التخلف العلمي الذي تمر به الأمة..

وقد حرص أعداء الأمة - سواء من خارجها أو من أبنائها العلمانيين - على الضرب على هذا الوتر، وادعاء أن الإسلام «دينٌ رجعي» يقاوم التجديد، ويمنع الابتكار، ويقتل الإبداع!!

ولا ريب في أن هذا الادعاء خلاف الواقع والحقيقة تمامًا؛ إذ ما عرفت البشرية قانونًا أو تشريعًا كالإسلام يحض على العلم النافع، ويدفع إلى عمارة الأرض والاهتمام بكنوزها وثرواتها..

وإذا كان الغربيون معذورين بتخوفهم من الدين الإسلامي، وذلك لسابق عهدهم وذكرياتهم الأليمة مع الكنيسة الأوروبية، تلك التي حاربت العلم والعلماء بكل طاقتها، فلم يبدع علماء أوروبا إلا بعد أن تخلصوا من سلطان الكنيسة.. إذا كان الغربيون معذورين بذلك، فكيف يعذر المسلمون في هذا الفكر؟!

كيف يعذرون والنصوص القرآنية والنبوية التي تحض على العلم وتشجع عليه أكثر من أن تحصى؟ وكيف يعذرون والتاريخ الإسلامي كله يشهد بتفوق المسلمين العلمي وفي شتى

مجالات علوم الحياة؟ ويشهد كذلك التاريخ الإسلامي أن الدولة الإسلامية في معظم مراحلها كانت تشجع العلم وترعى العلماء، وكان الخلفاء يجزلون العطاء للعلماء، ويولونهم عناية خاصة، وكانت هذه سياسة عامة متبعة، وتوجهًا واضحًا للدولة الإسلامية على جميع مستوياتها..

إن الأمر يحتاج إلى وقفة جادة.. والألسنة التي تطعن في الإسلام لن تخرس إلا بصحوة علمية قوية، وبعزيمة صادقة.. تدفع المسلمين دفعًا إلى اللحاق بالركب، بل والسبق فيه إن شاء الله..

من هذه الملاحظات والمشاهدات العشر ومن غيرها، ندرك بوضوح أن قضية «علوم الحياة» والتقدم فيها ليست في نصابها، وليست في موضعها الصحيح الذي ينبغي أن تكون عليه بين المسلمين، بل أحيانًا نجدها خارجة عن بؤرة اهتمام المسلمين بالكلية..

أما لماذا وصلت الأمة إلى هذه الحالة.. فالأسباب - لا شك - كثيرة، وإن كانت كل هذه الأسباب مجتمعةً لا تبرّر هذا الموقف السلبي من قضايا الاجتهاد والابتكار في علوم الحياة، لاسيما أن الخلفية الشرعية لإهمالنا الذي نعيشه غير موجودة تمامًا؛ إذ الإسلام - كما رأينا - يحض على العلم النافع بكل صوره..

ولذلك فالقضية غريبة على الشرع الإسلامي، وتحتاج لوقفة وتحليل.. وهو موضوع الفصل التالي.

* * *

الفصل الرابع

الإِسْــلامُ وَعُلُومُ الحَيَــاة

لا يخفى على أحد ذلك الخلل الكبير في المستوى العلمي لكثير من المسلمين، وأحيانًا يكون الخلل عند الملتزمين بتعاليم الدين، علمًا بأن مستوى هؤلاء الملتزمين في العلوم الشرعية غالبًا ما يكون على درجة طيبة جدًّا.. مما يعكس اهتمامًا بالجانب الشرعي، وتغليبه - إلى حدٍ كبيرٍ - على الجانب الحياتي في قضايا العلوم والتعليم..

وهذا الفصل في الاهتمام بين علوم الشرع وعلوم الحياة أمرٌ غريبٌ على الشريعة الإسلامية، ودخيل على أمتنا، وهو أمر جد خطير؛ لأنه كما لا يصلح بناء الأمة الإسلامية بغير العلوم الشرعية، فكذلك لا يصلح بناء الأمة الإسلامية بدون العلوم الحياتية، والفصل بينهما - لا شك - يؤخر المسيرة، بل يكاد يوقفها، وما عرِفَتْ الأمة الإسلامية السيادة والقوة والمجد والصدارة إلا وكانت علومها الحياتية قوية وسابقة، وما عرفت الأمة الإسلامية الضعف والتأخر والتخلف إلا وكانت علومها الحياتية ضعيفة ومهملة.. والتاريخ خير شاهد على ذلك، وفي أكثر من موضع.

إذن.. لماذا حدث هذا الفصام غير المفهوم؟!!

على ما يبدو فإن القضية في الأساس هي قضية فَهْم.. وإن كان للأعداء تخطيطهم وتدبيرهم، إلا أن العيب ينبع أساسًا من داخلنا..

فعلى مدار السنوات الماضية اختل فهم المسلمين - سواء بفعل فاعلٍ خارجي أو داخلي - لمعنى كلمة «العلم النافع»، فصاروا يقصرونها على العلوم الشرعية فقط، مع أن الأدلة - كما سنوضح بعد قليل - متواترة على عكس ذلك..

والأمر هذا كان مبنيًا على فهم أن ساحة التقرب إلى الله ﷻ محصورة فقط في الشعائر التعبدية المحضة، كالصلاة والصيام والزكاة والحج، أما ساحة الدنيا وعمرانها وإصلاحها وتسخير إمكانياتها، فقد ابتعدت عن تلك التي أُريد بها وجه الله سبحانه..

ففي العقود الأخيرة التي مرت بأمتنا نظر كثير من المسلمين إلى العلوم الحياتية نظرة

بجمال، بل نظرة ازدراء وتنقيص، وساعد على هذا الفهم الخاطئ بعض العلماء الذين قسَّموا العلوم إلى علوم «دينية» وعلوم «دنيوية»، فغدت علوم الطب والهندسة والكيمياء، وما على شاكلتها علومًا دنيوية، بينما علوم الشريعة من فقه وتفسير وعقيدة وغيرها هي العلوم الدينية أو الأخروية!!

وهكذا فإن المسلم الملتزم سرعان ما يشعر بحرجٍ شديد وهو يدرس هذا العلم الدنيوي؛ إذ إنه ينصرف بذلك - فيما يظن - عن علوم الآخرة، وهذا يعني عنده أنه سيترك شيئًا من أمور «الدين» إلى شيء من أمور الدنيا!!

والدنيا بصفة عامة مذمومة في الكتاب والسنة، وما أكثر الآيات والأحاديث التي جاءت تحث المسلمين على الزهد فيها، وعدم الاكتراث بها ولا بحجمها.. والأمر في ذلك أكثر من أن يُحصى، ويكفي للدلالة عليه أن نورد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

ويقول سبحانه أيضًا منقصًا من شأنها وقدرها: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وروى المستورد الفهري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ما مَثَلُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَثَلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي اليم، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ»[1].

كذلك روى سهل بن سعد ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»[2].

ونتيجة لربط هذه العلوم الطبيعية والحياتية بالدنيا، نظر الملتزمون إليها على أنها مما يُعد

---

(١) مسلم: كتاب الجنة ونعيمها وصفات أهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٨)، والترمذي (٢٣٢٣)، وابن ماجه (٤١٠٨)، وأحمد (١٨٠٣٧)، وابن حبان (٤٣٣٠)، والطبراني في الكبير (٧١٣).

(٢) الترمذي: كتاب الزهد، باب هوان الدنيا على الله عز وجل (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠)، والحاكم (٧٨٤٧)، وقال: حديث صحيح، والطبراني في الكبير (٥٨٤٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٤٦٥)، وقال الألباني: صحيح (٥٢٩٢) صحيح الجامع.

عن الدين الإسلامي، وأن الاشتغال بها أمرٌ مذموم، وأن الدارس للهندسة - مثلاً - والكيمياء وعلوم الذرة، هو رجلٌ نسي دينه واهتم بدنياه!!

والحق أن هذه كلها أباطيل ما أنزل الله بها من سلطان؛ فعلوم الطب والهندسة وغيرها هي طرقٌ واضحة من طرق الجنة إذا صلحت النوايا وأخلصت لله تعالى، وهي علوم «أخروية» إذا ابتغى بها العبد ثواب الآخرة، وهي علوم «دينية» إذا أراد بها المسلم نصرة دينه ورفعة أمته..

والواقع كذلك أن صحابة رسول الله ﷺ كانوا تُجَّارًا وزُرَّاعًا وصُنَّاعًا، وقبلهم أنبياء الله ﷺ، كلٌّ كان له حرفة وصناعة بجانب مهمته الأساسية، فكان آدم حراثًا، وكان داود حدادًا، وكان نوح نجارًا، وكان إدريس خياطًا، وكان موسى راعيًا، وكان زكريا نجارًا.. فلم يقعد بهم انشغالهم بالآخرة والعمل لها وتعليم علومها عن العمل للدنيا وتعميرها وتسخيرها وتعليم علومها..

بل إن عمر بن الخطاب ﷺ كان إذا نظر إلى رجلٍ ذي سيما (هيئة حسنة) قال: أله حرفة؟ فإن قيل لا سقط من عينه[1]..!!

ثم ماذا يعني قوله ﷺ فيما يرويه أنس بن مالك ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ**»[2]؟!

لماذا يغرسها وهي من نفع الدنيا، فضلاً عن أنه لن يستفيد منها دنيويًا أصلاً؟!

والذي يُفهم من ذلك كله هو - كما يُعبر الدكتور عبد الباقي عبد الكبير[3] - أنه في سعْينا لقضاء حوائجنا والقيام بمسئولية عمران الأرض ووظيفة الاستخلاف فيها بنية خالصة، سعْيٌ لإرضاء الله ﷻ.. بل إن سعْينا لعمران الأرض، وتعليم علومها، والوقوف على ثغراتها التنموية، وإخراج المجتمع من عوْز الحاجة، كلٌّ في مجاله وحسب إمكانياته وقدراته

(١) عبد الرءوف المناوي: فيض القدير ٢/ ٢٩٠.

(٢) أحمد (١٣٠٠٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، وعبد بن حميد في مسنده (١٢١٦)، وقال الألباني: صحيح (١٤٢٤) صحيح الجامع.

(٣) عبد الباقي عبد الكبير عبد الواحد ولد عام ١٩٧٠م في مدينة وردك بأفغانستان، حصل على الماجستير والدكتوراه من كلية الشريعة والقانون في السودان، ويعمل حاليا بالجامعة الأسمرية للعلوم الإسلامية بمدينة زليتين، ليبيا، ومن مؤلفاته: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية.

الوظيفية.. هو في الأساس سعيٌ لإعلاء كلمة الله ﷻ ورفع راية الإسلام[1]..

وعليه، وإذا كانت القضية في الأساس - كما رأينا - قضية فَهم وسوء فقه.. فإننا نود القيام من ركائز ومنطلقات صلبة وقويمة، هي من أساس ديننا ومن صلب معتقداتنا..

وفي بداية هذا الطريق فلا أحبذ أبدًا إطلاق لفظ علوم «دنيوية» على هذه العلوم، وإنما يمكن أن نطلق عليها «علوم الحياة».. فهي علوم أراد الله ﷻ لنا أن نتعلمها لنصلح بها حياتنا على الأرض..

والحياة بصفة عامة ليست مذمومة كالدنيا، بل هي نعمة من الله تعالى..

وانظر إلى قوله سبحانه وهو يربط بين مراعاة أحكام الشرع وبين الحياة الطيبة حين يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وهكذا، فتكون علوم «الحياة» من هذا المنظور، والتي تعني شيئًا عظيمًا علويًا، أرقى وأعظم من علوم «الدنيا»، والتي تعني الدونية والسفلية..

ويوضح هذا المعنى وذاك المراد قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وعلى هذا النهج تسير كثير من الآيات والأحاديث.. مما يعطي ثراءً ملحوظًا لكلمة الحياة..

ثم لنقف وقفة نحاور فيها ونناقش أولئك الذين صرفوا جل وقتهم واهتماماتهم لعلوم الشريعة، ولم يشاءوا أن يصرفوا قدرًا من جهدهم وفكرهم ومالهم ووقتهم لعلوم الحياة.. ونجيب معهم عن سؤال مهم مفاده:

هل يعقل أن يُهمل المسلمون علوم الحياة؟!

وفي معرض الجواب بالنفي الصريح عن هذا السؤال، نقدم هذه الأدلة وتلك البراهين القطعية على نُبل هذه العلوم إذا ما وجهت لخير الأرض، ونفع البشرية، ورفعة هذا الدين، وعزة هذه الأمة:

الدليل الأول:

هل نسي الإنسان أن الله ﷻ قد جعله «خليفة» في الأرض؟!

وحين تكون الإجابة قطعًا بالنفي، فلنتفكر معًا: كيف يمكن أن يُستخلف الإنسان في

---

(١) موقع إسلام أون لاين: استشارة إعمار الدنيا فريضة وضرورة للدكتور: عبد الباقي عبد الكبير.

الأرض وهو لا يعلم شيئًا عن علومها؟!

فالحقيقة التي لا مراء فيها أن الذي يُستخلف في الأرض يجب أن يعرف ربه، وأن يعرف كيف يعبده، ثم لابد له أن يعلم طبيعة المكان الذي استخلف فيه، وكيف يمكن استغلاله لعبادة الله رب العالمين، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

فمن شروط الاستخلاف، ومن واجباته الأساسية، أن يعرف الإنسان كيف «يَعْمُر» الأرض، وكيف يكشف كنوزها ويستفيد من ثرواتها.. وكيف يُسخِّر كل ما يمكن أن تصلح به «الحياة» على وجه هذه الأرض.

ولما خلق الله آدم ﷺ، وعظمه ورفع قدره، وأسجد الملائكة له.. لم يكن ذلك إلا بالعلم الذي أتاه إياه، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

والسؤال إذن: ما هذا العلم الذي علمه الله ﷻ آدم ﷺ، وبه تفوق على الملائكة؟

لقد علَّمه الله ﷻ - فيما يروي ابن عباس ﷺ- أسماء كل شيء: الجبل، والشجر، والبحر، والنخلة.. وأسماء الناس والدواب[1]..

أي أن الله ﷻ علمه العلوم «الطبيعية» التي سيحتاج إليها للحياة فوق الأرض وعمارتها، أما الملائكة فهي لا تعلم هذه الأسماء وتلك العلوم؛ لأنها لن تستخلف على الأرض، ومن ثم فهي ليست في حاجة إليها..

والواضح أنه لو علَّم الله ﷻ آدم ﷺ العبادة بمفهومها المقتصر على الصلاة والصيام والذكر والدعاء، لتفوقت الملائكة على آدم ﷺ في هذا المجال، وما كان هناك داعٍ أن يُستخلف الإنسان في الأرض، بل يعيش في السماء كما تعيش الملائكة، يفعل أفعالهم، ويكتفي بعلومهم.. ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

فلم يكن علْمُ آدم ﷺ علمًا شرعيًا فقط، وإنما كان علمًا حياتيًا كذلك..

وعليه فإن الإنسان إذا أهمل العلوم الطبيعية أو علوم «الحياة»، فإنه بذلك يُهمل أهم مقومات استخلافه على الأرض.. وهذا لا يجوز في حق مسلم واعٍ، يفهم دينه، ويدرك طبيعة

---

(١) انظر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/ ١٠٩.

استخلافه على الأرض..

الدليل الثاني:

أكمل الله ﷻ العلوم الشرعية قبل وفاة رسول الله ﷺ.. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]..

وليس هناك وحيٌ بعد رسول الله ﷺ، ومن ثم فستبقى العلوم الشرعية كأصول كما هي.. نعم قد يجتهد علماء الشرع في بعض الأمور بحسب المتغيرات والمستجدات في البيئة والزمان والمكان، ولكن تبقى الأصول ثابتة موجودة في القرآن والسنة..

هذا بالنسبة للعلوم الشرعية..

أما بالنسبة لعلوم الحياة، فإن الأمر يختلف؛ إذ أنها علوم لم تكتمل بعد، ولن تكتمل أبدًا.. ففي كل يوم يمر علينا يُكشف لنا كشفٌ جديد في هذه العلوم، وعلم اليوم في الطب - مثلاً - يختلف عما سيكون عليه غدًا، وهما غير ما كانا عليه بالأمس وهكذا..

فعلوم الحياة في تطور وتغير مستمرين.. وما يُعَدُّ اليوم حقيقة علمية، قد يُكتَشف غدًا أنه وهم لا أصل له، أو أن هناك ما يتخطاه ويتعداه، وما أكثر المعتقدات العلمية التي ظلت موروثة لمئات السنين، ولم تتغير إلا منذ سنوات قلائل بعد اكتشاف خطئها..

يقول تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

فالآية نزلت بصيغة المستقبل، وستظل تُقرأ إلى يوم القيامة بصيغة المستقبل، وسيظل المستقبل إلى يوم القيامة يحمل جديدًا في علوم الحياة، سواء كان في الكون (في الآفاق)، أو في الإنسان (وفي أنفسهم)..

والعمل الدءوب في هذا المجال مطلوب ومهم.. وإلا سبق الركب، وتعذَّر اللحاق!

الدليل الثالث:

هناك الكثير من القضايا الشرعية والفقهية لا يستطيع فقهاء المسلمين أن يقطعوا فيها برأيٍ صائبٍ، يبين الحل أو الحرمة فيها إلا بالاستعانة بعلماء مسلمين في مجال العلوم الحياتية.. يكونون مهرة في مهنتهم، أكفاء في تخصصهم..

فإذا أخذنا علم الاقتصاد والتجارة - على سبيل المثال - كنموذج للدراسة.. فهل يستطيع فقيهٌ مسلم غير متخصص أن يستنبط آراء فقهية صائبة في كل المعاملات الاقتصادية والتجارية؟! هل يستطيع أن يقطع بحل أو حرمة في قضية من قضايا التجارة وعلم الاقتصاد دون أن يكون على إحاطة تامة بأوجه المعاملات والمضاربات التي تتم في البنوك والبورصة والشركات والأسواق وغيرها؟!

بالقطع الإجابة هي النفي، خاصة وأن العلوم قد تشعبت كثيرًا، حتى أصبح داخل كل علم علومٌ أخرى كثيرة تتفرع منه وتنبثق عنه، ولكل فرعٍ من هذه العلوم متخصصون وباحثون ودارسون..

ثم وعلى فرض إمكانية أن يُدلي الفقيه بدلوه في مثل هذه القضايا ودون الرجوع إلى متخصصين فيه - وهو مستحيل وغير جائز - فما الحال إذا وجدنا مخالفة شرعية في مثل هذه العلوم؟ كيف يمكن إصلاحها وأسلمتها وفق المنهج الإسلامي؟! وكيف يمكننا أن نتعامل مع الأنظمة الاقتصادية العالمية المحيطة على ما بها من مخالفات، دون الوقوع في مخالفة شرعية؟!

ألا نحتاج في ذلك كله إلى اقتصادي متخصص؟! ألا نحتاج إلى من يدرس الاقتصاد بكل تفريعاته وعلومه، ويُلمُّ بكل تفصيلاته ودقائقه، ثم هو يدرس الفقه الإسلامي الخاص بالاقتصاد والتجارة، ثم يبدأ في صياغة الاقتصاد الإسلامي بالصورة التي تتناسب والعصر الذي نعيش فيه، ودون الوقوع في أدنى مخالفة شرعية؟!

ونستطيع أن نستشهد في ذلك بمثال واقعي في مجال الحقوق والقوانين، فقد كان الشهيد القاضي **عبد القادر عودة** من خريجي كلية الحقوق، وقد ألَّف كتابه «التشريع الجنائي الإسلامي»، والذي استطاع أن يُقدِّم فيه دراسة فقهية حول التشريع الجنائي في الإسلام وفلسفته ومقارنته مع القانون الوضعي، كما استطاع أن يُثبت بالأدلة والبراهين والحجج الدامغة محاسن الشريعة الإسلامية وتفوقها على القوانين الوضعية، مع سبقها إلى تقرير كل المبادئ الإنسانية والنظريات العلمية والاجتماعية التي لم يعرفها العالم، والتي لم يهتد إليها العلماء إلا مؤخرًا..

ألا تحتاج الأمة في حياتها إلى مثل ذلك؟!!

أليست هذه ثغرةً إسلامية تحتاج إلى من يسدها ويقف عليها؟!

ثم أليس من يقوم بذلك يكون مأجورًا من الله ﷻ على علمه وعمله هذا؟!

وهل يعتقد المسلمون المعظمون لدينهم أنهم لن يأثموا بترك هذا المجال وليس فيه متخصصون؟!

ألا يعتقد المسلمون أن دراسة الاقتصاد من هذا المنظور هو طريق مباشر من طرق الجنة؟!

والحقيقة أن الإجابة في ذلك لا تخفى على ذي عقل وصاحب لُبّ.. وليكن في خلد جميع أنه لن يقوم هذا الدين حقًا إلا بمبدعين في شتى مجالات وعلوم الحياة!!

وفي علم الطب - كنموذج ثانٍ للدراسة - نستطيع أن نقف أيضًا على ما وقفنا عليه في علم الاقتصاد، من حاجة فقيه اليوم الماسة إلى طبيب مسلم متخصص، يساعده في تقرير فتواه فيما له علاقة ببعض جوانب الطب..

إذ كيف سيدلي عالمٌ شرعيٌ في قضايا دقيقة لها علاقة قوية بالطب، دون الاستعانة بطبيب مسلمٍ ماهر، يستطيع أن يشرح بدقة طبيعة الأمر في النقطة التي يحتاجها الفقيه؟!!

وكيف لنا أن نعرف حُكم الشرع في القضايا المستجدة وثيقة الصلة بالطب؟

كيف لنا أن نعرف حكم الشرع - مثلاً - في قضايا مثل «الاستنساخ» أو «زرع الأعضاء» أو «عمليات التجميل»، أو «أطفال الأنابيب» أو التداوي بما قد يتخلله مُحرَّم.. وغيرها؟!

كل هذه الأمور وغيرها مما يستجد في حياتنا اليومية، نحتاج فيها - ولا شك - إلى أطباء مهرة في تخصصهم، ثم هم يدرسون في الشرع ما يختص بالفرع الذي يتقنونه، وبذلك يمتلكون القدرة على الإدلاء برأي صائب، يوافق بين رأي الطب ورأي الشرع.

أفلا يكون الطب من هذا المنظور طريقًا إلى الجنة؟! وهل يعذر المسلمون إذا لم يخرجوا لأمتهم أطباء يوضحون لهم هذه الأمور، ويبينونه للفقهاء، فيتمكنون من الإفتاء بالحلال أو الحرام فيما يتعلق بهذه المسائل؟!

فهذا - ولا ريب - بابٌ لابد من أن يتفوق فيه المسلمون، ليقيموا بذلك دينهم، وليطبِّقوه كما أراد الله ﷻ..

ومن هذا المنطلق فهذه العلوم جميعًا، سواء أكانت علوم اقتصاد أو علوم سياسة أو علوم طب أو هندسة، أو غيرها ممن هي على شاكلتها، وتنفع الأمة وتصلح الحياة للإنسان على الأرض.. هي كلها علوم أُخروية، بشرط توفر النية الصالحة، والإخلاص لله ﷻ.

الدليل الرابع:

إذا لم يتفوق المسلمون في هذه المجالات، فما البديل؟!!

لن يخالفني أحد إذا قلت بأن البديل في ذلك هو أن يعتمد المسلمون في هذه المجالات التي أهملوها وتخلفوا فيها، على غيرهم، أو قل: على عدوهم؛ إذ هو البديل الوحيد أحيانًا!!

فهل يستقيم هذا الأمر شرعًا؟!

هل تقوم أمة على أكتاف غيرها؟! بل هل تقوم أمة على أكتاف أعدائها..؟!!

أليس أمرًا يدعو إلى الدهشة والغرابة حين يضطر المسلم لكي يبدع في مهنة ما أن يسافر إلى بلاد أعدائه ليتعلم منهم، وينقل عنهم؟!

وكيف يقوم مصنع في بلد مسلم على ماكينات وقطع غيار مستوردة من بلاد عدوه؟!

وماذا يحدث لو دارت رحى الحرب بين الأمة الإسلامية وبين أعدائها هؤلاء، أو حتى حدثت بينهما مقاطعات؟ هل سنوقف حياتنا انتظارًا لتحسن العلاقات مع الأعداء؟!

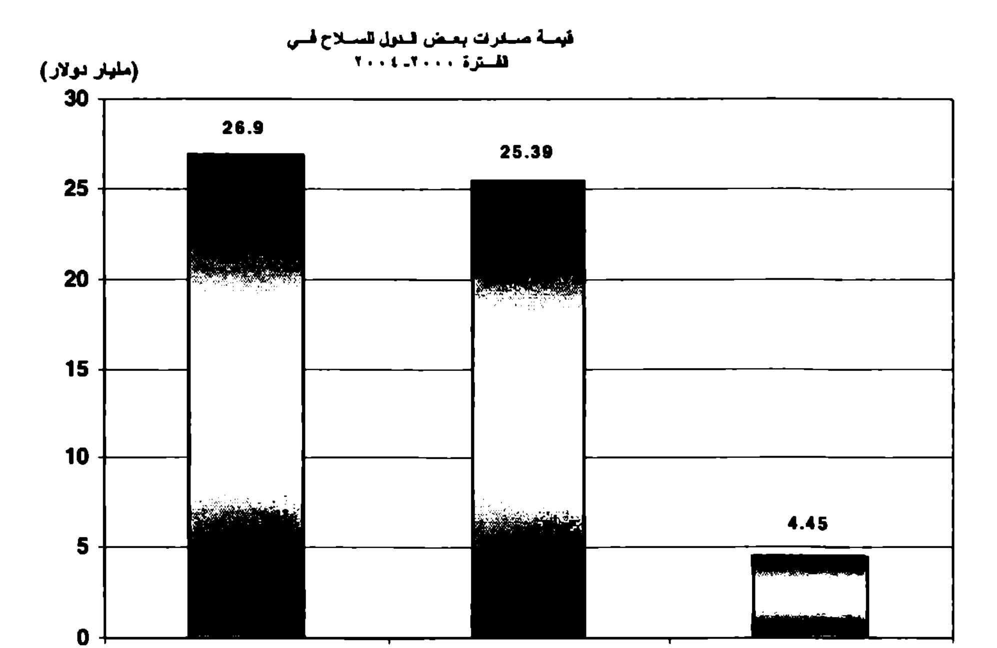
وأوضح من ذلك: كيف سنحارب أعداءنا إذا كنا نعتمد عليهم اعتمادًا كليًا في السلاح، وهم الذين يعلمون بالضبط ما قد يكون مهمًا ومؤثرًا ومتقدمًا فيمنعونه إيانا، وما قد يكون قليل الأهمية ضعيف التأثير والجدوى فيبيعوننا إياه؟!

إن هذا - وايم الله - لهو العجب فعلاً!!

وحتى لا نكون مبالغين ولا مهوِّلين، فهذه إحدى إحصائيات سوق السلاح الدولية [انظر شكل رقم ١٠]، تشير الإحصائية إلى أن صادرات أمريكا من السلاح ما بين عام ٢٠٠٠ - ٢٠٠٤م بلغت ٢٥,٣٩٠ مليار دولار، وهي بذلك تعد الدولة الثانية في العالم في تصدير السلاح بعد روسيا والتي بلغت قيمة صادراتها ٢٦,٩ مليار دولار في الفترة نفسها.. وأن ٥,٠٧٩ مليار دولار من إجمالي الصادرات الأمريكية من السلاح هي دول الشرق الأوسط وأفريقيا، أي من العالم العربي والإسلامي[1]!!

---

(١) مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية: تقرير الاتجاهات الاقتصادية الاستراتيجية الصادر عام ٢٠٠٦م ص١١٣-١١٨.



شكل رقم ١٠

تصدير السلاح

وجوهر القضية ليس فقط في دخول هذه الأموال الطائلة الخزانة الأمريكية أو غيرها، لكن القضية الحقيقية والكارثة الملمة هي في اعتماد هذه الدول اعتمادًا أساسيًا وكليًا على السلاح الخارجي فقط!!

وإضافة إلى أمريكا فإن بريطانيا وحدها - كما تشير الإحصائيات أيضًا - صدرت سلاحًا بما يبلغ قيمته ٤,٤٥٠ مليار دولار في الفترة نفسها، وأن ١,٠٠٤ مليار دولار تأتي من دول الشرق الأوسط وأفريقيا، أي من العالم العربي والإسلامي!!

وتشير الإحصائيات أيضًا إلى أن ٤٠٪ من صادرات فرنسا من السلاح يتجه إلى العالم العربي!! وأن ١٨٪ من صادرات الصين من السلاح أيضًا يتجه إلى المنطقة نفسها!! وأن ١٥٪ من صادرات روسيا من السلاح يتجه كذلك إلى العالم العربي[1]!!

---

(١) المصدر السابق نفسه.

والملاحظ أن دولاً كثيرة - غير إسلامية - لها باعٌ في سوق السلاح، لكنها لم تدخل بعد هذه الإحصائيات؛ وذلك إما لأنها في أول طريق التصدير، أو لأن تصديرها منه سرًا، وذلك مثل كوريا الشمالية والهند وأوكرانيا وصربيا وجمهورية التشيك وغيرها..

أما الغريب والعجيب فهو أن تكون **إسرائيل** هي الدولة الرابعة في العالم في تصدير السلاح، وذلك بعد **أمريكا وروسيا وبريطانيا**، متخطية في ذلك دولاً مثل فرنسا والصين وصربيا **والتشيك وأوكرانيا**[1]..!!

وتمثل صادرات السلاح في **إسرائيل** ٤٠٪ من إجمالي صادراتها، وهي أعلى نسبة على مستوى العالم[2]!!

أما الدولة التي حازت بنصيب الأسد من صادرات السلاح الإسرائيلي فهي **الهند**.. العدو التقليدي **لباكستان** المسلمة!!

فهل مثل هذه الإحصائيات لا تمثل غضاضة أو قلقًا أو حزنًا لدى الشباب المسلم الملتزم، وكل من عنده أدنى حمية لأمته؟!

ولا يتحجج البعض بأن القضية في ذلك هي مجرد قرار سياسي؛ إذ أنه لو حدث ذات يوم وتم اتخاذ مثل هذا القرار السياسي - أعني القرار بتصنيع السلاح والاكتفاء الذاتي منه مع ما يتطلبه ذلك من مسايرة أحدث تكنولوجيا التسليح في ذلك العصر - فإننا يجب أن يكون لدينا قبل هذا القرار العلماء الأكفاء في علوم الهندسة والذرة والكيمياء والفيزياء والطاقة وغيرها.. ممن يستطيعون تصنيع السلاح الأمثل، وإلا أصبح قرار تصنيع السلاح هذا قرارًا لا معنى له..

ولتأكيد هذا المعنى وتوضيحه بصورة أكبر كان هناك تقريرات أخرى..

فقد أشار التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ٢٠٠٦م، إلى مواصلة ارتفاع حصة

---

(١) موقع مجلة دار الحياة تقرير بعنوان: إسرائيل الدولة الرابعة في العالم في تصدير السلاح، الرابط:
http://www.daralhayat.com/special/features/09-2005/Item-20050917-65253914-c0a8-10ed-00a6-5760872f5f4c/story.html

(٢) موقع فلسطين المسلمة: تقرير ملف الصناعة الحربية الإسرائيلية إعداد: لواء أركان حرب متقاعد حسام سويلم، الرابط:
http://www.fm-m.com/2004dec/2004story19.htm

الواردات العربية من الولايات المتحدة وآسيا، ومنها الصين بوجه خاص، وكانت نسبة الواردات العربية الإجمالية قد وصلت قيمتها في عام ٢٠٠٥م إلى ١, ٣١٤ مليار دولار..!!

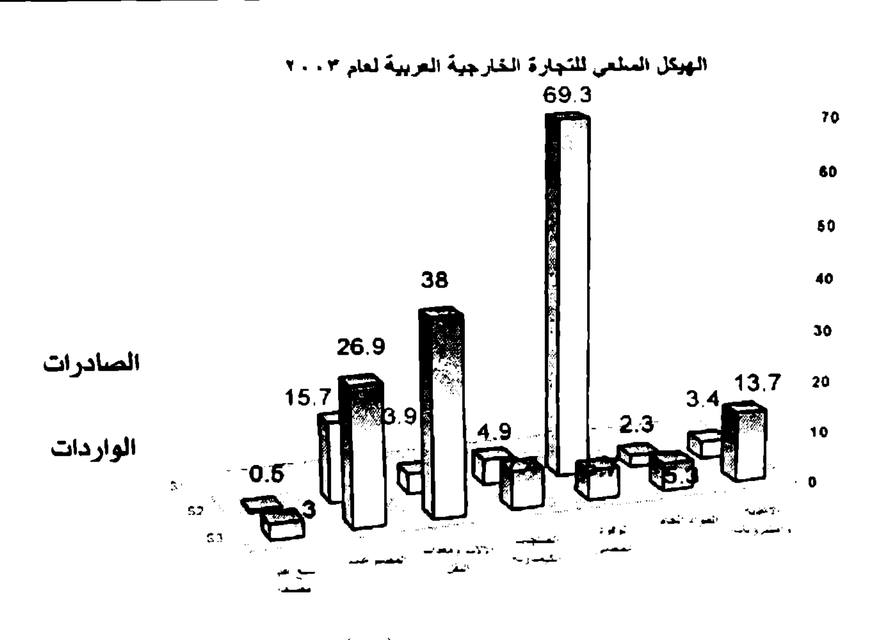
والجانب الأعظم من الواردات العربية يعتبر من الولايات المتحدة، وأهم ما يُستورَد منها: العدد والآلات ووسائل النقل المختلفة، حيث تستحوذ على ٦٠٪ من إجمالي هذه الواردات، ويليها في الأهمية السلع الغذائية مثل القمح واللحوم، وتمثل حوالي ١٥٪، ويأتي في المرتبة الأخيرة المشروبات الغازية والتبغ ومنتجاته.. وتبلغ فاتورة الواردات العربية في الأغذية وحدها ٢٠ مليار دولار سنويًا..

وتُعد واردات مصر - كمثال من تلك الدول - من السلع الغذائية ٨, ١٦٪ من إجمالي الواردات المصرية، وتستهلك من القمح أكثر من ٢, ١٢ مليون طن سنويا، تستورد منها ٦ ملايين طن[١]..

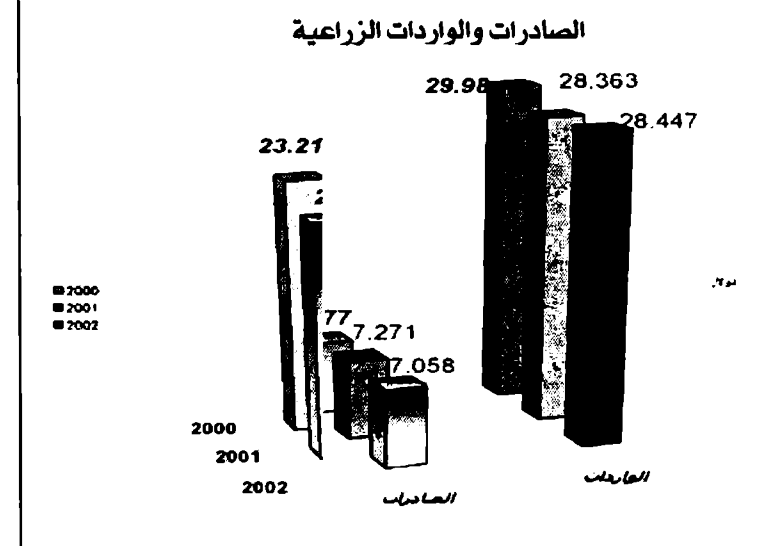
كل هذه الأرقام وغيرها تعكس ضعف نسب الاكتفاء الذاتي العربي من السلع الأساسية، ويعني أيضًا إمكانية استخدام هذا الضعف كسلاح ضد الدول العربية..

أما الغريب حقًا فهو أن تكون الواردات العربية من المواد الخام هي ٥٪ فقط (انظر الشكل رقم ١١، ١٢)؛ إذ أن ذلك يعني أننا نمتلك الكثير من الثروات الطبيعية التي حبا الله ﷻ بها بلادنا، وهو يعني في ذات الوقت عجزنا الكبير على تحقيق أدنى نسبة تحقيق اكتفاء ذاتي.. ثم هو يعني ثالثًا أننا نصدر المواد الخام ليُعاد تصنيعها، ثم نستوردها مرة أخرى.. ولكن بأضعاف مضاعفة..!!

(١) موقع صندوق النقد العربي، على شبكة الانترنت، الرابط الإلكتروني
http://www.amf.org.ae/vArabic/showPage.asp?objectID=

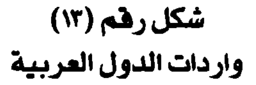


شكل رقم (١١)



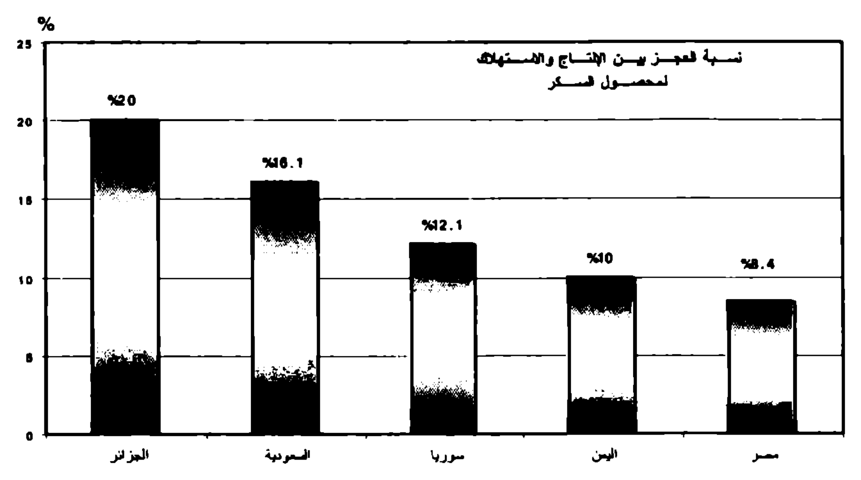
شكل رقم (١٢)

ويعتبر السكر من أكثر السلع الغذائية التي تعاني المنطقة العربية من عجز دائم فيها، وبدرجة اكتفاء ذاتي تصل لنحو ٣٥٪ فقط، وتقدر الفجوة الكمية من السكر في الوطن العربي عام ٢٠٠١م بنحو ٤٨ , ٤ مليون طن، تصل أقصاها في كل من الجزائر والسعودية وسوريا واليمن ومصر، وبأهمية نسبية تقدر بنحو ٢٠٪، ١ , ١٦٪، ١ , ١٢٪، ١٠٪، ٤ , ٨٪ لكل منها على الترتيب[1] [انظر شكل رقم ١٣]..



شكل رقم (١٣)

واردات الدول العربية



أما عن السلع الاستفزازية، فإن الأرقام تشير إلى أن مصر وحدها استوردت من أنواع الجبن المختلفة التي تم حصرها في ٣٢ نوعًا، ما قيمته نحو ١٢١ مليون جنيه في عام واحد، هذه الحقيقة تأتى على الرغم من أن مصر تعتبر من الدول المنتجة للألبان، وتأتى أيضًا - وللأسف - رغم أن بمصر العديد من شركات تصنيع الأجبان، سواء من الشركات الحكومية أو من شركات القطاع الخاص..!!

وتبلغ فاتورة أغذية القطط والكلاب المصرية من الخارج في خلال ستة شهور فقط

---

(١) تقرير أوضاع الأمن الغذائي العربي ٢٠٠٢، الصادر عن المنظمة العربية للتنمية الزراعية التابعة لجامعة الدول العربية، والتقرير منشور على موقع المنظمة على شبكة الانترنت، الرابط الإلكتروني
http://www.aoad.org/foods/TABLE20OF20%CONTENTS.htm

حوالي مليوني جنيه[1]..!!

والظاهرة الأغرب تلك الأرقام التي تصل إلى نحو ٥ ملايين دولار لاستيراد الآيس كريم من الخارج..!!

ألا يدعو ذلك إلى الدهشة والاستغراب..؟!

ثم ألا يدعو كل ذلك إلى تفعيل دور الصناعات عندنا لئلا نعتمد - على الأقل - على أعدائنا..؟!

وإن الحاجة الشديدة إلى ذلك لتظهر بوضوح حين نستعرض إحصائيات براءات الاختراع للمنظمة العالمية، والتي تعبر عن حقيقة الوضع الذي نعيشه [انظر شكل رقم ١٤].

ففي سنة ٢٠٠١م قدمت مصر - كواحدة من الدول الإسلامية - اختراعًا واحدًا، وفي سنة ٢٠٠٢م كان نصيبها في براءات الاختراع أيضًا اختراعًا واحدًا، وفي سنة ٢٠٠٣م زاد هذا العدد - بفضل الله - ليصل إلى ١٢ اختراعًا، وكانت سنة ٢٠٠٤م قمة الإنجاز بوصول عدد براءات الاختراع إلى ٧٨ اختراعًا.. وهو تطور طيب يدعو إلى التفاؤل.

وتعتبر مصر بذلك ثاني دولة إسلامية في تسجيل براءات الاختراع، أما الدولة الإسلامية الأولى في ذلك فهي تركيا، وحصيلتها من عدد براءات الاختراع في سنة ٢٠٠٤م هو ١٠٤ اختراعات[2]..

لكن الحقيقة أن هذه النسبة - سواء التي في مصر أو التي في تركيا - هي قليلة جدًّا إذا ما قورنت بغيرها من الدول الأخرى، وخاصة حين نعلم أن إسرائيل وحدها بلغ نصيبها في تسجيل براءات الاختراع في العام نفسه ١٢٢٢ اختراعًا، محتلة بذلك المركز رقم ١٥ بين دول العالم في عدد براءات الاختراع المسجلة سنويًا..!!

أما المركز الأول فكان - بالطبع - من نصيب أمريكا، والذي وصل نصيبها فيه من براءات الاختراع في نفس العام أيضًا ٤١٨٧٠ اختراعًا!! وتلتها في ذلك اليابان بنحو ١٩٩٨٢ اختراعًا، ومن بعدها فرنسا، ثم إنجلترا[3]..

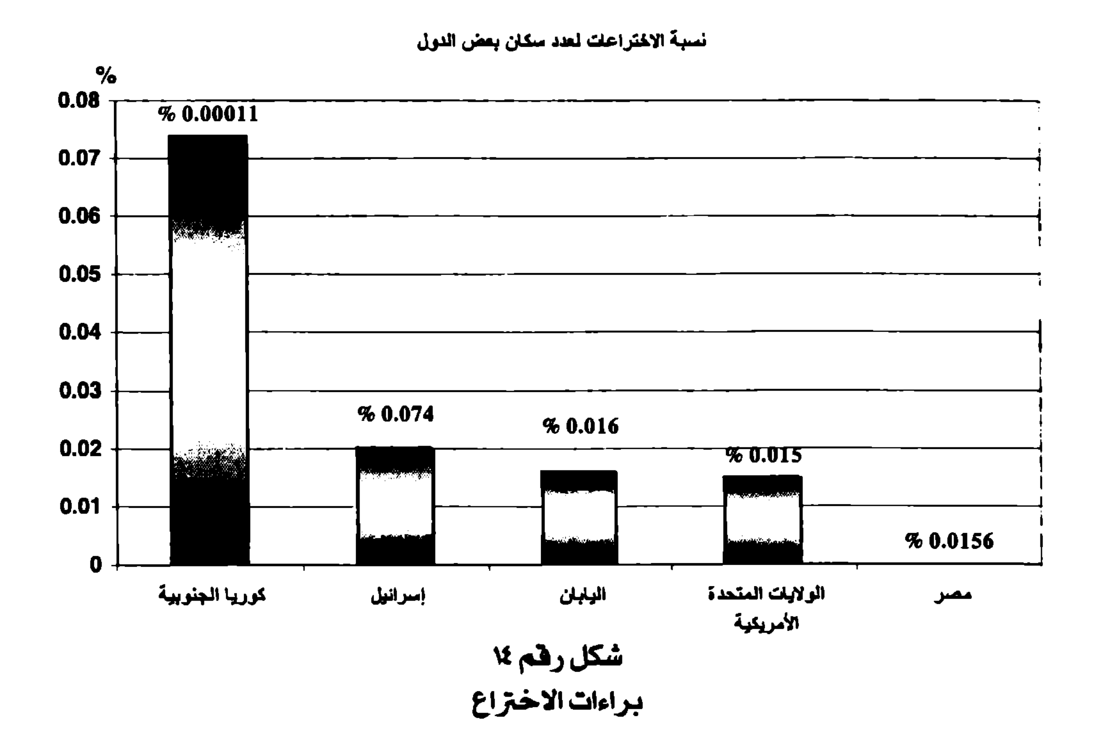
---

(١) موقع ديوان العرب: أشرف شهاب: مقال بعنوان: مصر تستورد طعام الكلاب والقطط، الرابط:
http://www.diwanalarab.com/spip.php?article.

(٢) راجع تقرير التنمية البشرية ٢٠٠٦، مرجع سبق ذكره. (٣) التقرير السابق نفسه.

وحتى تتضح الصورة بعض الشيء، فليس معنى تسجيل براءة اختراع الاقتصار فقط على اختراع شيء لم يكن موجودًا أصلاً، مثل التليفزيون أو الكمبيوتر أو ما شابه، وإنما تمنح براءة الاختراع عن كل إضافة علمية جديدة ناشئة عن فكرة جديدة وجهد في الابتكار، وتكون قابلة للاستغلال الصناعي بما فيها الفلاحة. ويدخل في ذلك تطوير اختراع قائم، أو تحسينه بإدخال بعض التعديلات عليه، مما من شأنه أن يرفع من كفاءته، أو يقلل من مضاعفاته الجانبية، أو يساعد على تخفيض سعره، أو غيره..

أي أن أيّ إضافةٍ على هذا الشيء ولو صغيرة يُعد اختراعًا، يستطيع صاحبه أن يُسجله باسمه في براءات الاختراع، ويكون بذلك قد أضاف للإنسانية شيئًا جديدًا..



شكل رقم ١٤
براءات الاختراع

وإنه لما كانت هناك دول قليلة السكان ودول أخرى كثيرة السكان، فإن العلماء استحدثوا طريقة أخرى أدق لحساب براءات الاختراع للدول، وذلك بحساب عدد براءات الاختراع فيها بالنسبة إلى عدد السكان، وكان من نتيجة ذلك أن احتلت إسرائيل المركز

الثامن بين دول العالم في تسجيل براءات الاختراع، وسبقت في ذلك أمريكا واليابان وفرنسا وإنجلترا، ودولا أخرى كثيرة؛ لأن عدد السكان بها قليل..!!

وتوضيح ذلك أن بمثل هذه الطريقة يكون هناك اختراع لكل ٥٠٠٠ إسرائيلي، في حين أن ذلك الاختراع في أمريكا هو لكل ٦٧٠٠ أمريكي، وفي اليابان لكل ٦٣٠٠ وعلى هذا القياس أيضًا فإن النسبة في مصر هي اختراع واحد لكل ٩٠٠,٠٠٠ مصري[1]..!!

وغير تصنيف الدول، فإن للشركات على مستوى العالم تصنيفًا أيضًا في تسجيل براءات اختراع خاصة بها، وكانت الشركة الأولى في تقديم أكبر عدد من البراءات هي شركة «فيلبس» الهولندية، محتفظة بهذه الصدارة للسنة الثانية على التوالي.. ومن بعدها تأتي شركة «ماستوشيتا» التي منها «باناسونيك»، ثم «سيمنز» الألمانية، ثم «نوكيا» الفلندية، ثم شركة «بوش» الألمانية، ثم «إنتل» الأمريكية، ثم «بُسّ» الألمانية، ثم «ثري إم» الأمريكية، ثم «موتورولا» الأمريكية، ثم «سوني» اليابانية[2]..

شركات كثيرة - وللأسف - ليس بينها واحدة إسلامية.. فكل براءات الاختراع لدينا إنما هي من نصيب الأفراد، وهذا يعني - في أهم ما يعنيه - غياب العمل الجماعي أو العمل المؤسسي وعمل الفريق الواحد، والذي يعتمد عليه الإبداع كلية في القرن الحادي والعشرين..!!

ولا شك أن هذه الاختراعات تنعكس على طبيعة المواد المصدرة من كل دولة، والدول الكبرى هي التي تصدر مواد مصنعة أكثر من غيرها، وكلما ازدادت المواد المصنعة تعقيدًا، ازداد تقدير العالم لقيمة هذه الدولة علميًا..

والسؤال الآن:

أليس العلم الذي يتحصل به التصنيع والحصول على براءات الاختراع- بدلاً من أن نكون في ذيل الدول الأخرى - أليس ذلك علمًا شرعيًا؟!

أليس العالِم الذي يصنع الأسلحة - مثلاً - أو يساعد في تصنيعها عالمًا نافعًا لأمته، مثابًا

---

(١) تقرير التنمية البشرية ٢٠٠٦.

(٢) تقرير براءات الاختراع لعام ٢٠٠٥ الصادر عن المنظمة العالمية للملكية الفكرية، والمنشور على موقع المنظمة على شبكة الانترنت، الرابط الإلكتروني

http://www.wipo.int/edocs/prdocs/en/2005/wipo_pr_2005_403.html

على علمه وعمله هذا من ربه إن أخلص فيه نيته؟!

أليس هذا الطريق من الطرق الموصلة إلى الجنة؟

وقس على ذلك كل العلوم والفروع الأخرى..

فإن تخلف المسلمين في هذه العلوم الحياتية يعني أنهم إنما يُسلمون رقابهم لسيوف أعدائهم..

ولا ريب في أن الأمة التي تعثرت فيها العلوم الطبية أو العسكرية أو الهندسية أو الفلكية أو غيرها من العلوم الحياتية، أو تلك التي يرتبط تقدمها في هذه العلوم بقرار من أعدائها.. لا ريب أن هذه الأمة على حافة هاوية عظيمة..

والواقع أنه لا نجاة من ذلك ولا مفر إلا بفقه قيمة هذه العلوم في حياة الأمة، وفي ميزان الإسلام.

الدليل الخامس:

علوم الحياة طريقٌ لمعرفة الله ﷻ..

ففي القرآن الكريم لم تأت الدعوة للتفكر في الكون مرة أو مرتين، إنما جاءت مرات عديدة، وبصور مختلفة..

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وهذه الدعوة المتكررة للتفكر في الكون هي دعوة لتعظيم وتقدير رب العالمين ﷻ، فكلما اتسعت علوم الحياة في ذهن العالِم ازداد تعظيمًا وإجلالاً وإكبارًا لله ﷻ، ولذلك قال سبحانه بعد الحديث عن علوم الحياة - وليس علوم الشرع -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

فقد قال سبحانه قبل تقريره في هذه الآية مباشرة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

فكل علوم المياه والنبات والجيولوجيا والإنسان والحيوان هذه.. مما يقود إلى خشية الله ﷻ..

وهذا أينشتاين - وهو عالم غربي ليس مسلمًا - بعد ما نظر إلى الكون الفسيح وتدبر في أفلاكه، واستطاع أن يتوصل إلى نظرية النسبية، قال مقررًا وجود الخالق سبحانه: وراء هذا الكون قوة خارقة لا أعرفها[1]..!!

فالاهتمام بهذه العلوم إذن من شأنه أن يؤدي إلى الإيمان ويرفع من مستواه عند الفرد، ومن شأنه أيضًا أن يجعل الإنسان يزداد تمسكًا بالدين كلما تقدم العلم.. ولسنا نقصد بذلك العلماء فقط، وإنما يرتفع الإيمان عند عموم الأمة بعد أن ينتقل إليهم هذا العلم عن طريق علمائها..

الدليل السادس:

علوم الحياة طريق لفقه وفهم نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة..

وهي حقيقة كشفها الإعجاز العلمي الحديث.. فكثير من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة لا تُفهم ولا يُعرف المراد منها على وجه الحقيقة إلا في ضوء دراسةٍ علميةٍ واعية..

وفي واحدة مما يُثبت تلك الحقيقة، ما جاء حول قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۞ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦، ٧].

فهاتان الآيتان فهمهما علماء السلف وفسروهما على محملٍ ووجه معين، ولما تقدم العلم كان لهما تفسير آخر مغاير تمامًا لما كان يُعتقد فيهما من قبل..

يقول الدكتور زغلول النجار[2] مُعلقًا على الآية الثانية من هاتين الآيتين: يصف الله ﷻ

---

(١) انظر مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله، ترجمة أنيس منصور، الشخصية رقم ١٠ ص ٤٥ .

(٢) هو زغلول راغب النجار من مواليد محافظة الغربية، عام ١٩٣٣، تخرج في جامعة القاهرة عام ١٩٥٥م وكان أول دفعته ومنح العديد من الجوائز، وأشرف على عدد كبير من الأبحاث العلمية، ومؤلفاته العلمية تربو على مائة وخمسين بحثًا، وله العديد من المقالات والمرئيات التي تحدث فيها عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

الجبال بأنها أوتاد، وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن هذه المعالم المدهشة ليست عبارة فقط عن الارتفاعات الشاهقة التي نراها على سطح هذه الكرة الأرضية (كما تصفها أغلب المعاجم ودوائر المعارف الحالية)، إنما يؤكد الله تعالى بهذه العبارة أن للجبال امتدادات إلى داخل طبقة الليثوسفير الأرضية. فكما أن الوتد يكمن أغلبه داخل التربة أو الصخر ووظيفته هي تثبيت طرف الخيمة إلى الأرض فكذلك الجبال، والتي أثبتت علوم الأرض حديثًا أن لها جذورًا عميقة جدًّا لتثبيت ألواح الليثوسفير، بل والكرة الأرضية ككل، فما نراه فوق سطح الأرض من جبال ما هو إلا قمم لكتل ضخمة من الصخور مخترقة لطبقة الليثوسفير وطافية في طبقة الإثنوسفير البلاستيكية والأعلى كثافة، كما تطفو الجبال الجليدية في مياه المحيط؛ فتبلغ امتدادات الجبال داخل طبقة الليثوسفير ما بين ١٠ – ١٥ ضعف ارتفاعاتها فوق سطح الأرض (حسب كثافة الصخور المكونة للجبل وكثافة المادة التي ينغمس فيه الجذر).

فجبل يبلغ ثقله النوعي ٢,٧ specific gravity في المتوسط (كالجرانيت مثلاً) يستطيع أن يغوص داخل طبقة من الصخور السيماتية simatic rock (البالغ ثقلها النوعي ٣,٠ في المتوسط) حتى يبلغ طول الجزء القابع داخل الأرض ٩/ ١٠ والجزء الظاهر فوق سطح الأرض ١/ ١٠ من الطول الإجمالي.

وهكذا نرى كيف تصف كلمةٌ واحدةٌ – وهي كلمة الوتد – جزءي الجبل العلوي والسفلي ووظيفته من تثبيت للكرة الأرضية وألواح الليثوسفير، وبالتالي فإن الكلمة التي يستخدمها القرآن الكريم لوصف الجبال أكثر دقة من الناحية العلمية واللغوية من كلمة «جذر» المستخدم حاليا من قبل العلماء لوصف الجزء السفلي المختبئ داخل الأرض.

ويتابع الدكتور زغلول قوله: ومع أن العلماء فكروا مليًّا منذ أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر في أنه يمكن أن تكون للجبال جذور، إلا أن العلماء لم يؤكدوا هذه الحقيقة من وجود امتدادات سفلية وظيفتها تثبيت الأرض وألواح الليثوسفير إلا مؤخرًا. ولم نصل إلا لبداية فهم عملية تكوين تلك الامتدادات السفلية ووظيفتها في توقيف الاهتزازات المفاجئة لكوكبنا ولألواح الليثوسفير من خلال إطار علوم الفلك الحديثة، ومن خلال المفهوم الحديث لتكتونية الألواح الليثوسفيرية.

ويعتبر سبق القرآن الكريم في وصف الجبال كالأوتاد شهادة واضحة أن القرآن الكريم

كلمة الله ﷻ وأن محمدًا ﷺ هو آخر المرسلين[1].

ومثل هذا التفسير العلمي من شأنه أن يوقفنا على الفهم الحقيقي والتفسير الصحيح المراد من مثل هذه الآيات الكريمة، وأيضًا يعرفنا بالإعجاز العلمي الذي يحويه دستور الأمة منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام.. فضلا عما يمكن أن يكون سببًا لإسلام كثير من غير المسلمين ممن ولعوا بالحقائق العلمية..!!

ومثل هذا التفسير أيضًا وهذه الحقيقة العلمية هي أفضل بكثير من أن نذكر ما وقف عليه مفسرونا السابقون، من أن المقصود بقوله تعالى: **﴿والجبال أوتادا﴾** هو أنه سبحانه - كما يقول **الطبري** مثلاً في تفسيره - «جعل الجبال للأرض أوتادا أن تميد بنا»[2]..

وفي واحدة أخرى من مثل هذه التفسيرات العلمية لنصوص القرآن الكريم، والتي كان لها بالغ الأثر على غير المؤمنين به حين أكدتها وأثبتتها الحقائق العلمية، ما جاء في أول سورة القمر، وهو قوله تعالى: **﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾** [القمر: ١].

فبعد محاضرة ألقاها الدكتور **زغلول النجار** في كلية الطب بجامعة كارديف في مقاطعة ويلز غربي **بريطانيا**، وُجِّه إليه سؤالٌ حول الآيات السابقة، وهل هذه الآيات تمثل ومضة من ومضات الإعجاز العلمي في كتاب الله؟

وفي رده قال بأن معجزة انشقاق القمر التي وقعت تأييدًا للنبي ﷺ في مواجهة الكفار تم إثباتها حديثا، ثم دلّل على ذلك بما أثبته العلماء، وبعد أن أتم إجابته استأذن رجل بريطاني في إضافة شيء إلى كلام الدكتور **زغلول**..

فبدأ بتعريف نفسه، وأنه يُدعى **«داود موسى بيدكوك»**، مسلم ويرأس الحزب الإسلامي في **بريطانيا**، ثم راح هذا الرجل يذكر أن هذه الآيات بعينها كانت السبب في إسلامه!!

وكانت البداية حين أهداه أحد المسلمين ترجمة لمعاني القرآن، فكان أول ما قرأ بداية سورة القمر، وفيها واقعة انشقاق القمر، فلم يصدق ذلك وأغلق القرآن، وذات يوم قدَّر الله له أن يرى برنامجًا على قناة BBC استضاف فيه المذيع ثلاثة من علماء الفضاء الأمريكيين

(١) انظر الدكتور زغلول النجار: مقال بجريدة الأهرام المصرية، بتاريخ ٣١/ ١٢/ ٢٠٠١م.

(٢) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٢/ ٣٩٧.

وذلك عام ١٩٧٨م، وكان المذيع في هذه الحلقة يتحامل على علماء الفضاء في الإسراف الزائد في إنفاق الملايين والمليارات في مشاريع غزو الفضاء، في الوقت الذي يتضور فيه الملايين من الفقر والجوع والتخلف..

وكان جواب العلماء أنه بفضل هذا الرحلات تم تطوير عدد من التقنيات التي تطبق في مجال الطب والتشخيص العلاجي والزراعة وغير ذلك، ثم قالوا بأنهم توصلوا إلى اكتشاف لو أنفقوا أضعاف هذه المبالغ لإقناع الناس بهذه الحقيقة ما صدقهم أحد!!

وهنا سألهم المذيع عن هذه الحقيقة فقالوا: إن القمر سبق له أن انشق ثم التحم (انظر صورة رقم ١)، وأن آثارًا محسوسة تؤيد ذلك الحدث قد وجدت على سطح القمر وامتدت بداخله!!

فعاد السيد بيدكوك إلى ترجمة القرآن، فقرأ الآيات ثم قال: معجزة لمحمد في القرآن منذ أربعة عشر قرنًا يذكرها القرآن ويثبتها العلم الحديث، فلابد أن يكون هذا القرآن حقًا..!!

فكانت هذه الآيات هي السبب المباشر وراء إسلام «داود موسى بيدكوك»[١]..



صورة رقم (١)
صورة وزعتها ناسا وبها الشريط الصخري الذي يثبت انشقاق القمر، ويبدو أثر الشق واضحًا على شكل أفقي من اليمين إلى اليسار.

فهذه ولا شك إضافة طيبة إلى أمة الإسلام، ونحن في ذلك بأمسِّ الحاجة إلى علماء مسلمين يكتشفون لنا مثل هذه الحقائق، لتكون حجة دامغة على العباد، وألا ننتظر لأن يقوم علماء أمريكيون أو روس أو غيرهم بهذا الدور، ثم لا يكون دورنا إلا أن نُسقط ذلك الكشف العلمي على ما جاء في آيات القرآن الكريم وسنة نبينا ﷺ، وهما اللذان لا تنقضي عجائبهما..

(١) دكتور زغلول النجار مقال بعنوان «داود موسى بيدكوك» جريدة الأهرام ٢٢/ ٥/ ٢٠٠٥.

وعليه فإن العلوم الحياتية مكملة للعلوم الشرعية، وهي تُساعد على فهم القرآن الكريم ومن ثم على هداية الناس لرب العالمين..!!

والأمة ستحتاج دومًا إلى العلماء المسلمين المبدعين في هذه العلوم الحياتية، الذين يفقهون علمهم إلى جوار فقه الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، فيستطيعون الربط بين هذا وذاك، ومن ثم نستطيع فهم وتفسير النصوص القرآنية والنبوية.. ولا شك أن هذا سيظهر لنا قيمة ذلك الكنز العظيم الذي بين أيدينا..

فإذا كان في أمتنا الفلكي البارع، وعالم النبات المتفوق، وعالم الحيوان النابغة، والطبيب الواعي، والجغرافي الفاهم.. لا شك أن مثل هؤلاء سيفتحون أبوابًا واسعة لفقه الإعجاز العلمي العجيب في الكتاب والسنة، وسيصبح هذا الفتح سببًا رئيسيًا لدعوة غير المسلمين إلى الإسلام.

وما أكثر أولئك الذين دخلوا الإسلام عند مشاهدتهم للإعجاز العلمي في اثنين من مصادر شريعتنا: القرآن والسنة!!

الدليل السابع:

هل من مصلحة الدعوة أن يكون حاملوها في ذيل أهل التخصص؟! سواء كان ذلك على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع، أو حتى على مستوى الأمة ككل..؟!

وبصورة أوضح.. إذا كان الطالب المسلم الملتزم بدينه غير متفوق في دراسته، ولم يكن سابقًا في علومه بين أقرانه.. هل سيكون قدوة بين الطلاب، ومن ثم يقلدونه في منهج حياته، ويتبعونه في دعوته؟! وهل سيطمئن الآباء على أبنائهم في صحبتهم له؟!

إن من أخطر الأمور أن يتميز طالبٌ أو متخصصٌ بسمتٍ إسلامي ودعوي ظاهرٍ، ثم تخاله في مجال دراسته أو في تخصصه، أو حتى في مهنته - تخاله قليل العلم، أو ضعيف المستوى، أو بطيء الأداء.. فهذه - ولا شك - دعوة سلبية، وهي دعوة إلى ترك هذا الدين الذي يلتزمه هذا المتأخر وذاك الضعيف، وذلك إما من أجل الخوف من أن يماثله في تأخره وضعفه، أو خوفًا من أن تتعطل أو تتعثر مسيرة العلوم..

وقد قال العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥] قالوا: إن

معنى الدعاء في هذه الآية: أن لا تجعل الكافرين أعلى من المؤمنين وأعظم؛ فيفتن الكافرون بذلك، ويقولوا: لو كان هؤلاء على الحق ما نُصِرنا عليهم، ولو كانوا على الحق ما كانوا أضعف منا وأهون[1]..

ولقد سمعت واحدًا من الأمريكيين أسلم حديثًا يحمد الله أنه قرأ عن الإسلام واقتنع به قبل أن يرى حال المسلمين، وإلا لكانت فرصة إسلامه ضعيفة.. والسبب أنه ربما لم تكن ستواتيه فرصة الاقتناع بهذا الدين الذي لا يدفع أصحابه - كما يعبر حالهم - إلى العلم والتقدم والعمل.. لكنه - بفضل الله - كان قد قرأ عن الإسلام قبل أن يرى المسلمين، وعلم أنه يدعو إلى العمل ويحث على العلم، ويحض على الفضيلة والمعاني الجميلة، وإعمار الأرض.. وعلم أيضًا أن هؤلاء المسلمين الذين يراهم لا يمثلون حقيقة الدين الإسلامي، بل هم مخالفون لمبادئه، بعيدون عن تطبيق قوانينه..

والأمر في النهاية لا يخرج عن أن يكون فتنة؛ فكم من البشر صُدُّوا عن سبيل الله برؤية تأخر المسلمين هذا وبمعاينة تخلفهم وضعفهم؟!!

أفلا يدعو كل ذلك المسلمين إلى النبوغ في مجالات العلوم الحياتية، تمامًا كما ينبغون في العلوم الشرعية؟!

إن هذا - والله - لهو الحق الذي لا ريب فيه..

الدليل الثامن:

أمر الله ﷻ المسلمين بالإتقان في كل شيء.. واهتم الإسلام بالمتمرسين والمتفوقين في كل مجال، وأولاهم القيادة على ذلك، وأعطى التبعية لغيرهم ومن دونهم..

ففي كلمته الجامعة فيما يرويه الإمام مسلم عن شداد بن أوس ﷺ، قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»**[2].

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٥٦٣. بتصرف.

(٢) مسلم: كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة (١٩٥٥)، وأبو داود (٢٨١٥)، والترمذي (١٤٠٩)، والنسائي (٤٤٠٥)، وابن ماجه (٣١٧٠)، وأحمد (١٧١٥٤)، والدارمي (١٩٧٠)، وابن حبان (٥٨٨٣).

وانظر إلى قوله «كل شيء»؛ فهي تعني - فيما تعنيه - أن الله ﷻ كتب الإحسان على المسلم في علمه الشرعي، وكذلك في علمه الحياتي. ولا شك أن الإحسان هذا يقتضي التفوق والنبوغ والسيادة والريادة..

وعلى ما هو واضح من سياق الآيات الكريمة في كتاب الله، وكذلك من سياق حياة رسول الله ﷺ، فإن القيادة تُساق دومًا إلى المتفوق، والناس جميعًا يكونون تبعًا لهذا المتفوق. ولا تشذ هذه القاعدة في حال الأمم والشعوب؛ فالأمة المتفوقة تكون قائدة، وتتبعها غيرها من الأمم، وهكذا..

ومصداق ذلك في كتاب الله ﷻ، ما كان من إعطائه سبحانه القيادة لطالوت ﷺ، وقد علل ذلك صراحة بأنه -سبحانه- زاده بسطة في العلم والجسم. وليس يخفى على أحد أن المقصود بالعلم هنا ليس هو العلم الشرعي فقط، وإنما أيضًا العلم بأمور الحرب والقيادة والإدارة، وغير ذلك مما يلزم القائد العسكري من معارف وعلوم.. وتصديق ذلك أنه كان من الممكن أن تُعطى هذه القيادة للنبي ذاته، والذي هو أعظم الناس - بلا شك - تفوقًا في مجال العلم الشرعي، وهو يوحى إليه، لكن النبي لم يقد الجيش في المعركة، وإنما قال للملأ من بني إسرائيل: ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [يونس: ٨٥].

فهذا مجال تفوقه.. وذاك سبب قيادته..

وكذلك فإن يوسف ﷺ لما عرضت عليه الوزارة في مصر قال: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

فهو هنا يذكر أن المجال الذي يتخصص فيه ويبدع هو مجال الاقتصاد وإدارة المال، ومن ثم لم يتردد في أن يعرض خدماته في هذا المجال المهم، ولم يقبل مكانًا آخر، حتى ولو كان مرموقًا ومؤثرًا.. وخلفيته الدافعة له في هذا الاختيار هي مستوى علمه في هذا الجانب، ومدى تمكنه منه.

ولو كان المقصود بالعلم في قوله ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ العلم الشرعي وعلم الوحي، لكان يوسف ﷺ صالحًا لكل المناصب، وليس فقط في الاقتصاد وإدارة المال؛ إذ إنه أعلى الجميع بلا جدال في هذا الجانب الشرعي، ولكن الواضح أنه كان يتميز - إضافة إلى ذلك - في

جانب الاقتصاد، ومن ثم فقد اختاره وفضله..

ولما ولّى رسول الله ﷺ الصحابي الجليل **عمرو بن العاص** ﷺ إمارة سرية ذات السلاسل، ووضع تحت إمرته عظماء الصحابة وسابقيه إلى الإسلام.. فإنه لم يفعل ذلك لأنه كان يرى أن **عمرو بن العاص** أكثر منهم علمًا بأمور الشرع والدين، وإنما لأنه ﷺ كان يرى أنه أعلمهم بأمور الحرب، وفنون القتال والنزال والمناورة، وهو الذي لم يكن قد مضى على إسلامه بعد أكثر من خمسة شهور فقط.. ومن ثم تجده ﷺ وقد قال في وضوح: «**لقد وليته لأنه أبصر بالحرب**[1]».

فإتقان **عمرو بن العاص** ﷺ وتفوقه قدَّمه على عمالقة عظام من الصحابة، **كأبي بكر وعمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح وأُسيْد بن حضير**، وغيرهم ﷺ أجمعين، وليس ذلك إلا لفقه الرسول ﷺ لأهمية إتقان العلم الحياتي اللازم للحرب والجهاد.

وقد أمر رسول الله ﷺ المسلمين أن يقلدوا نابغين من الصحابة في قراءة القرآن، فعن عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنْ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ فَبَدَأَ بِهِ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ**»[2].

فلم يقل ذلك ﷺ لعلو قدر هؤلاء النفر عن بقية الصحابة مثلاً في التقوى أو الزهد أو الورع، أو لأنهم كان يكثرون من القيام أو الصيام أو النافلة أو غيرها.. وإنما قال ﷺ ذلك في حقهم؛ لإتقانهم القراءة، وتمكنهم من النطق بها كما ينبغي.. ولذلك وجب على الجميع أن يتبعوهم فيها..

وعندما أمر رسول الله ﷺ **بلالاً** أن يصدع بأذان الصلاة، لم يأمره بذلك لعلمه الشرعي أو لسبقه أو لهجرته، إنما قدَّمه لحلاوة صوته في الأذان، وتفوقه في هذا المجال، بل إنه ﷺ لم يُقدم في ذلك عبد الله بن زيد ﷺ، ذاك الصحابي الذي رأى الرؤيا التي كانت سببًا في تشريع الأذان، وقال له: «**إِنَّ هَذِهِ لَرُؤْيَا حَقٌّ، فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ فَإِنَّهُ أَنْدَى وَأَمَدُّ صَوْتًا مِنْكَ، فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا قِيلَ لَكَ، وَلْيُنَادِ بِذَلِكَ**»[3].

وكذلك في أمور الطب كان ﷺ أيضًا يأمر بالعلاج عند الأمهر والأتقن في تلك الصنعة..

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٩٦.

(٢) البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب أبي بن كعب (٣٥٩٧)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عبد الله بن مسعود وأمه (٢٤٦٤)، واللفظ له، والترمذي (٣٨١٠)، وأحمد (٦٧٨٦)، والحاكم (٤٩٩٩).

(٣) الترمذي: أبواب الصلاة، باب بدء الأذان (١٨٩)، وقال: حسن صحيح، وابن خزيمة (٣٧٣)، والبيهقي في سننه (١٨١٨).

وقد روى الإمام **مالك** -رحمه الله- في الموطأ أن رجلاً من الصحابة أصيب بجرح، فدعا النبي ﷺ، رجلين من بنى أنمار فنظروا إليه، فسألهما رسول الله ﷺ: أيكم أطبّ (أي أمهر في الطب)؟ فقالا: أوفي الطب خيرٌ يا رسول الله؟ فقال: «**أنزل الدواء الذي أنزل الداء**»[1] يعني الله ﷻ..

و تعليقًا على هذا الحديث يقول **ابن القيم** ﵁: «**إنه يجب الاستعانة في كل علم وصناعة بأحذق من فيها فالأحذق؛ فإنه إلى الإصابة أقرب**»[2]..

أما الذي لا يتقن الصنعة وهو يشتغل بها، فقد يؤذى ويضر بدلاً من أن ينفع.. ولذلك كان الحكم الفقهي على من عالج مريضًا فأذاه ولم يكن معروفًا عن هذا المعالِج أنه ماهرٌ بالطب متمرسٌ فيه، فإنه يتحمل المسئولية عن ذلك، بأن يدفع ما يعوض المريض عن مقدار الأذى الذي وقع له.. بينما لا يقع ذلك الحكم على الطبيب الذي عرف عنه الإتقان والمهارة في صنعته..

روى أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم عن عبد الله بن عمرو ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ تَطَبَّبَ وَلَا يُعْلَمُ مِنْهُ طِبٌّ فَهُوَ ضَامِنٌ**»[3].

ولخص الحكم الفقهي في ذلك الفقيه الطبيب الفيلسوف **ابن رشد القرطبي الحفيد** فقال: أما الطبيب وما أشبه إذا أخطأ في فعله وكان من أهل المعرفة، فلا شيء عليه في النفس، والدية على العاقلة (يعني العصبة) فيما فوق الثلث، وفي ماله فيما دون الثلث. وإن لم يكن من أهل المعرفة فعليه الضرب والسجن والدية، قيل في ماله وقيل على العاقلة[4].

وفي هذا الإطار فقد أمر ﷺ أن يعالَج **سعد بن معاذ**[5] ﵁ عند الصحابية الجليلة **رفيدة**[6]

---

(١) مالك: كتاب العين، باب تعالُج المريض (١٦٨٩)، واللفظ له، والطبراني في الكبير (٧٣٩٥)، وابن أبي شيبة (٢٣٤٢٠).

(٢) ابن القيم: زاد المعاد ٤/ ١٢١.

(٣) أبو داود: كتاب الديات، باب من تطبب بغير علم (٤٥٨٦)، والنسائي (٤٨٣٠)، وابن ماجه (٣٤٦٦)، والحاكم (٧٤٨٤)، وقال: صحيح الإسناد «لم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: صحيح، السلسلة الصحيحة (٦٣٥).

(٤) ابن رشد: بداية المجتهد ١/ ٩٩٧.

(٥) سعد بن معاذ بن عبد الأشهل، أسلم بالمدينة بين العقبة الأولى والثانية على يدي مصعب بن عمير، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق، ورُمِيَ يوم الخندق بسهم فعاش شهرًا، ثم انتفض جرحه فمات منه، وكان موته بعد الخندق بشهر. الإصابة- الترجمة (٣٢٠٠)، أسد الغابة ٢/ ٢٣٩.

(٦) رفيدة: امرأة من أسلم، كان رسول الله ﷺ حين أصاب سعد بن معاذ السهمُ بالخندق؛ قال لقومه: اجعلوه في خيمةِ رُفيدة حتى أعوده من قريب، فكانت تداوي الجرحى، وتخدم من كانت به ضيعة من المسلمين. أسد الغابة ٦/ ١١٤، الإصابة- الترجمة (١١١٦٩).

رضي الله عنها[1]؛ لأنها ماهرة بالطب، مع أن البيئة في ذلك الوقت لم تكن بعد قد تعارفت على معالجة المرأة للرجال، ولكن لعلمها بالطب وإتقانها له كانت لها هذه المكانة السامية..

بل إنه أمر **سعد بن أبي وقاص** ﷺ أن يأتي **الحارث بن كلدة**[2]، الطبيب العربي المعروف - وهو من قبيلة ثقيف - ليعالَج عنده، مع أن هذا الطبيب لم يثبت إسلامه بعد.. ولكن لإتقانه لحرفته وصنعته ومهارته فيها، قبِل رسول الله ﷺ أن يعالَج عنده المسلم[3]!!

كل هذه الأمور تصب في النهاية في أمر واحد، وهو أن الإتقان مطلوب في كل مهنة وحرفة وصنعة.. وذلك الإتقان لا يأتي إلا بعلم ودراسة، وخبرة وكفاءة..

أما غير المتمرس في صنعة ما وغير الخبير بها.. فلا يؤخذ برأيه، مهما كانت مكانته في التقوى والصلاح والورع.. وليس أدل على ذلك من قصة تأبير النخل في المدينة..

فقد روى الإمام مسلم، وأحمد عن طلحة بن عبيد الله ﷺ قال: **«مَرَرْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي نَخْلِ الْمَدِينَةِ، فَرَأَى أَقْوَامًا فِي رُءُوسِ النَّخْلِ يُلَقِّحُونَ النَّخْلَ، فَقَالَ: مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: يَأْخُذُونَ مِنْ الذَّكَرِ فَيَحُطُّونَ فِي الْأُنْثَى يُلَقِّحُونَ بِهِ. فَقَالَ: مَا أَظُنُّ ذَلِكَ يُغْنِي شَيْئًا. فَبَلَغَهُمْ فَتَرَكُوهُ وَنَزَلُوا عَنْهَا، فَلَمْ تَحْمِلْ تِلْكَ السَّنَةَ شَيْئًا. فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ ظَنٌّ ظَنَنْتُهُ، إِنْ كَانَ يُغْنِي شَيْئًا فَاصْنَعُوا، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، وَالظَّنُّ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ، وَلَكِنْ مَا قُلْتُ لَكُمْ قَالَ اللهُ ﷻ، فَلَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللهِ»**[4].

فالنصيحة النبوية للقوم لم تكن من وحي إلهي ولم تكن تشريعًا، ولذلك ففي مثل هذه القضية يرجع فيها إلى أهل الخبرة والإتقان، وليس إلى الرسول ﷺ، على علو قدره وسمو مكانته..

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٠٠، ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ١٠٣، ابن هشام: السيرة النبوية ٤/ ١٩٨.

(٢) الحارث بن كلدة: ثقفي من أهل الطائف، طبيب العرب في عصره، وأحد الحكماء المشهورين، رحل إلى فارس وأخذ الطب هناك، ولد في الجاهلية وعاش في أيام الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، كان شاعرًا، توفي في أيام معاوية.

(٣) أبو داود: كتاب الطب، باب في التداوي بالعجوة (٣٨٧٥).

(٤) مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي (٢٣٦٢)، وابن ماجه (٢٤٧٠)، وأحمد (١٣٩٩)، واللفظ له، والطيالسي (٢٣٠).

ويؤكد على ذلك رواية مسلم عن رافع بن خديج ﷺ أن الرسول ﷺ قال لهم: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيٍ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ»[1].

وقال لهم كذلك كما في صحيح مسلم عن عائشة -رضي الله عنها- وأنس بن مالك ﷺ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ»[2].

وليس هناك دليل أعظم من ذلك على اهتمام الإسلام بأهل الخبرة في كل تخصص من تخصصات الحياة، سواء كان ذلك في الزراعة أو في الطب، أو في الحرب أو في التجارة، أو في غير ذلك..

الدليل التاسع:

الإسلام بصفة عامة يحث على تكوين العقلية العلمية الموضوعية، التي تبني أفكارها على الاستدلال والاستنباط، وينكر تمامًا ذلك التقليد الأعمى، الذي لا يُنظر فيه إلى حجة، ولا يُهتم فيه بمنطق ولا برهان..

فتراه سبحانه ينكر على الكفار تبعيتهم العمياء لآبائهم دون برهان فيقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وترى رسول الله ﷺ ينكر على المسلم أن يكون هملاً إمعة لا رأي له ولا قرار، فيقول في الحديث الذي رواه الترمذي عن حذيفة ﷺ: «لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً؛ تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ؛ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا»[3].

بل إن الله ﷻ قد طلب البرهان من الكفار على كفرهم هذا وعنادهم فقال: ﴿أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

وقال أيضًا: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ

---

(١) مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي (٢٣٦٢).

(٢) مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي (٢٣٦٣).

(٣) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو (٢٠٠٧)، وقال: حديث حسن.

﴿فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

وقد عرض ربنا سبحانه وتعالى كل القضايا بمنطق الحجة والبرهان والدليل..

فقال في إثبات وحدانيته سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقال في موضع آخر: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقال: ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. [لقمان: ١١].

وفي قضية البعث يقول سبحانه معددًا الأدلة والبراهين والحجج العقلية: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٧٨ – ٨١].

وهكذا.. فالإسلام يحث على استخدام العقل، وعلى التفكير الناضج، والفقه الواعي.. بل إنه يعد الإنسان الذي عطَّل عقله أشبه بالحيوان، أو أحط قيمة منه!!

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فالإسلام إذن دينٌ يدعو إلى إعمال العقل، وتحريره من قيود التقليد والجمود والمحاكاة، وأن يطلق له العنان لأداء وظيفته وفق ضوابط معينة وأطر خاصة..

وعليه فإن الذي يُعطِّل عقله عن العمل والتفكير والإبداع.. يكون قد خالف المنهج الإسلامي مخالفة جسيمة، وأضرّ بنفسه، ثم بأمته من بعده..

الدليل العاشر:

بمراجعة التاريخ الإسلامي نجد أن عهود القوة فيه كانت مرهونة دائمًا ومرتبطة تمام

الارتباط بالتفوق في العلوم الشرعية والعلوم الحياتية معًا.. كما أنه لم يكن في هذا التاريخ أيٌّ من مظاهر اضطهاد العلماء، كما كان الحال عند الأوروبيين..

فالدين لم يقف أبدًا عائقًا في طريق المسلمين للعلم، سواء في الجانب النظري أو في الجانب العملي التطبيقي، إنما كان الدين بالفعل عائقًا للعلم في المجتمعات الأوروبية قبل نهضتهم الحديثة، وهو الذي رسخ في أذهانهم وأذهان من تعلم على أيديهم واقتفى أثرهم من المسلمين أن الدين من المعوقات الرئيسية للعلم..

فالكنيسة الأوروبية في عصور ظلامهم كانت شديدة القسوة على العلماء، وكانت تقمع كل محاولة للابتكار والاختراع والبحث في العلم؛ في سبيل أن تظل لها السيطرة الكاملة على الشعوب وقيادة الناس.. وفي سبيل استمرار جباية الأموال.. وفي سبيل أخذ القرارات المصيرية.. بل وفي سبيل أخذ قرار الغفران من عدمه، لعبد أخطأ أو ارتكب ذنبًا..!!

من هذا المنطلق حدث صراعٌ بين الدين والعلم في أوروبا، وعليه فقد شُلَّت حركة العلم في أواسط القرن السادس عشر الميلادي ولم يتوقف ذلك إلا عند بداية النهضة العلمية والثورة العلمية الأوروبية، والانقلاب على الكنيسة..!!

والقصص والروايات التي تصف ظلم الكنيسة الأوروبية الكاثوليكية لا تكاد تنتهي، ولا يخفى على أحد محاكمات **كوبرنيكس** ومحاكمات **جاليليو**، وما حدث **لأينشتاين وماكس بلانك**، وغيرها الكثير..

لقد اكتشف **كوبرنيكس** عام ١٥٤٣م أن الأرض تدور حول نفسها مرة كل ٢٤ ساعة، فيحدث تبادل الليل والنهار، وتدور حول الشمس مرة كل عام، فيحدث تغير الفصول الأربعة، وأن الشمس هي مركز الكون وليس الأرض كما كان معتقدًا قبل ذلك.. إلا أن هذا الكشف كان كارثة في أوروبا في القرن السادس عشر الميلادي، وقد تعجبت الكنيسة لهذا الكشف حين حاكمته بميزان الحقائق الإنجيلية، إذ وجدته يتناقض مع معتقداتهم، ومع الإحساس الظاهري للبشر، ومع الجبال الساكنة في نظر النصوص المقدسة[1]..!!

ولهذا قررت الكنيسة محاربة **كوبرنيكس**، واضطهدوه واتهموه بالكفر وطلبوه للقتل، بل

---

(١) انظر ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة الدكتور/ محمد علي أبو درة ٣٠/ ٢٧٣.

وحرقوا كتبه وأبحاثه ومنعوا تدريسها.. ولم يكتشفوا صحة ما وصل إليه إلا بعد وفاته بسنوات وسنوات..

أما جاليليو والذي أثبت أن كوبرنيكس كان على حق، وأن الشمس هي مركز الكون، وكشف أيضًا أن القمر ليس جسمًا مستويًا.. فقد أمر البابا بإحضاره بالقوة رغم شيخوخته وسوء صحته، للتحقيق معه لتأييده فكرة تحرك الأرض، وحكمت الكنيسة عليه بالسجن في بيته (قيد الإقامة الجبرية) إلى أن يموت[1]..!!

وكذلك أعدمت الكنيسة أيضًا برونو حرقًا في ميدان عام لدفاعه عن تحرك الأرض، وتوقعه وجود أراضين أخرى[2]..!!

وهذا غيض من فيض.. والأمثلة على ذلك جد كثيرة، ولم تتوقف فقط على محاكمات كوبرنيكس وجاليليو، حتى إنهم توسعوا في تشكيل محاكم التفتيش ضد العلماء، وقد حكمت تلك المحاكم على تسعين ألفًا وثلاثة وعشرين عالمًا بأحكام مختلفة في الفترة ما بين سنة ١٤٨٠م إلى سنة ١٤٩٩م، أي في غضون ١٨ سنة[3]، كما أصدرت قرارات تُحَرِّم قراءة كتب جيوردا نويرنو، ونيوتن لقوله بقانون الجاذبية، وتأمر بحرق كتبهم، وقد أحرق بالفعل الكاردينال إكيمنيس في غرناطة ٨٠٠٠ كتاب مخطوط لمخالفتها آراء الكنيسة[4]..!!

وهذا الواقع الرهيب والمظلم عاشته أوروبا قرونًا طويلة، سُمِّيت بالعصور المظلمة، وتُسمى أيضًا بالقرون الوسطى، حيث استغرقت نحو ألف عام من الزمان، وقد رسَّخ هذا الواقع في أذهان العلماء والفلاسفة (أمثال ديكارت وفولتير) وعموم الناس أنه لا أمل في طلب العلم والابتكار إلا بهدم سلطان الكنيسة، وإلا بمحو الدين تمامًا من الصدور، والاتجاه إلى الإلحاد بكل ما تعنيه الكلمة من معان.. فأعلنوا صراحة معارضتهم للكتب المقدسة كالتوراة والإنجيل؛ لاحتوائهما على ما يتعارض مع الحقائق العلمية، ولاعتقادهم بأن الدين

---

(١) المصدر السابق نفسه ٣٠/ ٢٧٩- ٢٦٩.

(٢) انظر ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد علي أبو درة ٣٠/ ٣٠٠.

(٣) الإمام محمد عبده: مقاومة النصرانية للعلم في التاريخ نقلاً عن كتاب البابا والإسلام للدكتور يوسف القرضاوي.

(٤) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي، فصل بعنوان الكاثوليك بتصرف. شوقي أبو خليل: سقوط غرناطة ص٩٨ بتصرف.

- كما رأوا - هو اضطهاد العلم والعلماء، وهو الحجر على العقول[1]..

وقد راحوا يدعون بعد ذلك إلى إعلاء العقل في مقابلة النصوص الرئيسية، وحجتهم أن العقل يستطيع إدراك الحقائق العلمية، ويستطيع التمييز بين الخير والشر..

وقد ساعدت الجمعية الوطنية الفرنسية على هذا التحرر، وذلك بإصدار قرارات سنة ١٧٩٠م، كان من شأنها أن قصمت ظهر الكنيسة، حيث سرحت الرهبان والراهبات، وأجبرت رجال الكنيسة على الخضوع للدستور المدني، وأخذت تعيِّن هي رجال الكنيسة بدلا من البابا!!

ثم جاء القانون الذي أقرته الحكومة الفرنسية عام ١٩٠٥م بفصل الدين عن الدولة على أساس التفريق بينهما، وإعلان حياد الدولة تجاه الدين، كقاصمة أخرى شجعت المعارضين للكنيسة على نقد نصوص الكتاب المقدس والكنيسة بحرية، كما أجبر هذا القانون رجال الكنيسة على أن يقسموا يمين الولاء للطاعة والشعب والملك والدستور المدني الجديد..

وقد توالت القرارات بعد ذلك لتعم دول أوروبا كلها، ليتقلص بذلك دور الكنيسة من محاولة السيطرة على أمور العلم والسياسة، ولتنزوي تمامًا داخل الجدران، فتمارس فقط الوعظ والترانيم[2]..!!

هذا في أوروبا النصرانية..

لكن.. لماذا يقال هذا الكلام ولماذا يراد تطبيقه على الدين الإسلامي؟

هل كان ثمة صراعٌ قد حدث بين علماء الدين والشريعة وبين علماء الحياة؟!

هل حُورب علماء الطب والهندسة والفلك والكيمياء والفيزياء والسلاح والجغرافيا..؟ أم كُرِّموا وقُدِّموا على غيرهم؟!

لقد كان اتصاف المسلم بفضيلة العلم بشتى أنواعه كافيًا لتقديمه على غيره، ورفعه إلى مصافّ رجال الأمة وصُنَّاعها المبجلين، والمقربين إلى الخاصة وإلى العامة على حد سواء..

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي، فصل بعنوان الكاثوليك بتصرف.

(٢) المرجع السابق نفسه.

لقد كان **عباس بن فرناس**[1] - على سبيل المثال - من علماء المسلمين الأفاضل في **الأندلس**، وهو صاحب سبقٍ في اختراعات كثيرة، لعل أشهرها أنه أول من قام بمحاولة للطيران في التاريخ.. ولهذا التفوق العلمي قرَّبه الخلفاء وعظموا قدره..

ولحاله هذا، ولِما وصل إليه من شهرة وحظوة لدى الأمراء، فقد كان له حسَّاد يتربصون به، وقد راحوا يتهمونه بالسحر والشعوذة، وأنه يقوم بأشياء غريبة وعجيبة في منزله، أو في معمله الاختباري إن صح التعبير، وذلك لأنه كان يشتغل بالكيمياء، وكان ينتج عن ذلك انبعاث أدخنة وتطاير أبخرة من منزله..

وقد استُدعي للمحاكمة في قرطبة - وكان الخليفة في ذلك الوقت هو عبد الرحمن بن هشام الأموي - وقيل له في ذلك أنك تفعل كذا وكذا، وتخلط أشياء بأشياء، وتقوم بغرائب وعجائب لم نعهدها، فقال في رده عليهم: أترون أني لو عجنت الدقيق بالماء فصيرته عجينًا، ثم أنضجت العجين خبزًا على النار، أأكون قد صنعت سحرًا؟ قالوا: لا؛ بل هذا مما علم الله الإنسان. فقال: وهذا ما أشتغل به في داري، أمزج الشيء بالشيء، وأستعين بالنار على ما أمزج، فيأتي مما أمزج شيء فيه منفعة للمسلمين وأحوالهم[2].

وكانوا قد أرادوا شاهدًا على صحة الدعوى، فكان الشاهد هو عبد الرحمن بن هشام، الخليفة الأموي نفسه.. وفي المحكمة وحين سمع الأقوال راح يُدلي بشهادته فقال: أشهد أنه قال لي إنه يفعل كذا وكذا (يريد أن كل هذه الأشياء يعملها ولها أصول عنده)، وقد صنع ما أنبأني به، فلم أجد فيه إلا منفعة للمسلمين، ولو علمت أنه سحر لكنت أول من حدّه!!

لقد أتوا بقائد الدولة وخليفة المسلمين إلى المحكمة ليشهد، ثم هو يشهد بالحق ولصالح العالِم، فكان أن حكم القاضي والفقهاء ببراءة ابن فرناس، وأثنوا عليه وحثوه على أن يستزيد من عمله وتجاربه، وحُفظت له بذلك مكانته[3]..

---

(١) أبو القاسم عباس بن فرناس، من موالي بني أمية، فيلسوف شاعر، له علم بالفلك، وأول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة، وأول من اخترق الجو فقد حاول الطيران، فكسا نفسه الريش، ومد له جناحين طار بهما في الجو مسافة بعيدة، ثم سقط فتأذى في ظهره، توفي سنة أربع وسبعين ومائتين. انظر الوافي بالوفيات للصفدي، ونفح الطيب للمقري.

(٢) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلي المغرب ص٢٠٣.

(٣) أمين يوسف وعلي حسين النبهان: أشهر محاكمات التاريخ بتصرف دار التراث بيروت ١٩٧٢.

ولنقارن ذلك بمحاكمة كوبرنيكس ومحاكمة جاليليو وغيرها مما عرضنا لها سالفًا، لنتبين أبعاد المُفارقة..

والأمثلة على توقير العلماء، وإنزالهم منزلتهم، وحفظ مكانتهم وقدرهم.. هي أكثر من أن تُحصى، ولعل ما يمكن أن نذكره هنا ما كان من حال عالم البصريات الأبرز في تاريخ الحضارة الإسلامية، الحسن بن الهيثم[1]، فقد كان أمراء عصره في كل أقطار العالم الإسلامي شغوفين بالعلم ورعاية العلماء والاهتمام بهم، الأمر الذي جعله يتنقل بحرية تامة في ربوع العالم الإسلامي بين مراكز الحضارة الإسلامية فيه، ينهل منها جميعها..

وكان للحاكم بأمر الله (الأمير الفاطمي، ت٤١١هـ) دوره المهم في تنمية علم المهندس البصري الحسن بن الهيثم، وذلك بعد أن سمع عنه وذاع صيته في البصرة، وخاصة لما علم قوله: «لو كنت بمصر لعملت فِي نيلها عملاً يحصل بِهِ النفع فِي كل حالة من حالاته من زيادة ونقص، فقد بلغني أنه ينحدر من موضع عالٍ، وهو فِي طرف الإقليم المصري».

كان من أمر الحاكم بأمر الله أن دعا الحسن بن الهيثم للمجيء إلى مصر، على أن يُساعده ويقدم العون له والمال، للقيام بمشروع السد الذي يتحكم في مياه النيل كما قال..

وما إن جاء ابن الهيثم إلى مصر، حتى استقبله الحاكم بأمر الله في قصر الضيافة الملكي، وأمر بإنزاله وإكرامه، ثم سرعان ما تناقشا في أمر السد، وكان أن اقترح عليه الأمير أن يبدأ فيه..

ولما وصل ابن الهيثم إلى أرض الواقع، والموضع المعروف بالجنادل، قبلي مدينة أسوان، وهو موضع مرتفع ينحدر منه ماء النيل، عاينه وباشره واختبره من جانبيه، وجد أن ما يبغيه هو فوق جهد الناس في أيامه.. فتراجع معتذرًا عن فكرته.

فابن الهيثم حين وصل إلى منطقة الجنادل جنوبي مصر (وهو نفس مكان السد العالي المقام حاليا) وعاين المكان، اكتشف استحالة تنفيذ فكرته في زمانه بوسائل وإمكانات عصره، فرجع إلى القاهرة معترفًا بفشله في تنفيذ فكرته بإقامة سد علي النيل يختزن المياه من أيام

(١) الحسن بن الهيثم، المسمى عند الغربيين «الهازن» ولد بالبصرة ودرس بها، وتفوق في علم البصريات ويقول عنه أرنولد في كتاب «تراث الإسلام»: إن علم البصريات وصل إلي الأوج بظهور ابن الهيثم، وابن الهيثم هو أول من قال بأن العدسة المحدبة ترى الأشياء أكبر مما هي عليه وأول من شرح تركيب العين ووضح أجزاءها بالرسوم.

فيضان لتروى أرض مصر في أيام التحاريق.

والشاهد في ذلك مدى اهتمام الأمير الفاطمي بالعلماء، ومدى توقيره لهم، والـذي ظهـر من خلال دعوته لابن الهيثم للمجيء إلى مصر، ثم حسن استقباله له وإكرامه، ولم يكن ذلك إلا لعلم ابن الهيثم -رحمه الله-..

ويذكر التاريخ أيضًا أن الخوارزمي[1] انتقل من بلدته خوارزم (وكانت مركزًا من مراكز الثقافة الإسلامية) إلى بغداد عاصمة الخلافة، حيث «بيـت الحكمـة» ذلـك المجمـع العلمـي الكبير الذي أقامه الخليفة هارون الرشيد، والذي بنى المأمون بجواره مرصدًا فلكيًا..

ولأن الخوارزمي كان بارزًا في علوم الفلك والجغرافيا، فقد اتصل بالخليفـة المـأمون، لما عرف عنه من حبٍ للعلم والعلماء، وخاصة أن المـأمون كـان بارعًـا في هـذين المجـالين مـن العلوم..

وسرعان ما أحاطه المأمون بعناية خاصـة وتكـريم كبـير، فـولاه منصبًا كبـيرًا في بيـت الحكمة، ثم أوفده في بعض البعثات العلمية إلى البلاد المجاورة، للاتصال بعلماء هذه المناطق، والاستزادة من علوم الآخرين، ونشر العلم في أرجاء الدولة الإسلامية..

وفي سياق الحديث عن مرصد المأمون، فقد كان اهتمام المأمون بعلـم الفلـك غالبًـا عـلى اهتمامه بمجالات العلوم الأخرى، ولذلك أمر العلماء (ولنقـارن ذلـك بحـال الكنيسـة مـع العلماء كما ذكرنا في هذا الشأن) أن يقيموا مرصدًا فلكيًا لقياس الكواكب ومعرفـة أحوالهـا.. وقد تحدث صاعد الأندلسي عن اهتمام المأمون بعلم الفلك وجهوده في ذلك، فقال:

«ولما أفضت الخلافة إلى عبد الله المأمون، وطمحـت نفسـه الفاضـلة إلى إدراك الحكمـة، وسمت به همته الشريفة إلى الإشراف على علـوم الفلسـفة، ووقـف علـماء وقتـه عـلى كتـاب

---

(١) عاش محمد بن موسى الخوارزمي في بغداد فيما بين ١٦٤ـ ٢٣٥ هجرية (٧٨٠-٨٥٠م) وتوفي هناك، وبرز في عهد المأمون، ونبغ في الرياضيات والفلك، وطور الفكر الرياضي وذلك بإيجاد نظم لتحليل كل من معادلات الدرجـة الأولى والثانية ذات المجهول الواحد بطرق جبرية هندسية، لذا يعتبر الجبر والمقابلة للخـوارزمي هـو أول محاولـة منظمة لتطوير علم الجبر على أسس علمية. انظر ابـن النـديم: الفهرسـت ص ٣٣٣ - إليـان سـيركيس: معجـم المطبوعات ١/ ٨٤١ - أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ٢٠ - عـلي عبـد الله الـدفاع: العلـوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية ص ١٤٨.

المجسطي (لبطليموس)، وفهموا صورة آلات الرصد الموصوفة فيه... جمع المأمون علماء عصره من أقطار مملكته، وأمرهم أن يصنعوا مثل تلك الأدوات، وأن يقيسوا بها الكواكب ويتعرفوا بها أحوالها، كما صنع بطليموس ومن كان قبله، ففعلوا ذلك وتولوا الرصد بمدينة الشماسية من بلاد دمشق من أرض الشام، سنة أربع عشرة ومائتين، فوقفوا على زمن سنة الشمس الرصدية، ومقدار ميلها وخروج مركزها ووضع أوجهها، وعرفوا مع ذلك بعض أحوال باقي الكواكب من السيارة والثابتة، ثم قطع بهم عن استيفاء غرضهم موت الخليفة المأمون سنة ثماني عشرة ومائتين (٨٣٣م)، فقيدوا ما انتهوا إليه، وسموه «المرصد المأموني»[١].

وفي طور اهتمام الخلفاء بالعلم والعلماء، فقد كانوا يمنحون من الجوائز العظيمة والهبات الجزيلة التي تشجع على تحصيل هذه العلوم بصورة هي أقرب إلى الخيال، وبصورة أكثر من غيرها في أي مجال آخر..

فكان المأمون أيضًا إذا ترجم عالمٌ من العلماء كتابًا من لغة غير العربية إلى اللغة العربية أعطاه وزن هذا الكتاب المترجَم ذهبًا، وبالطبع فليس في هذه العلوم المترجمة صلة بعلوم الشرع، إنما كانت من علوم اليونان أو الرومان أو الإغريق أو الهند، مما هي في الطب والرياضيات والهندسة وغيرها من علوم الحياة[٢]..

ولذلك فقد نشطت حركة الترجمة كثيرًا في ذلك الوقت، وعلى إثرها نُقل إلى المسلمين علوم هائلة.. فاستطاعوا أن يقيموا أروع حضارة عرفتها البشرية في تاريخها..

وبهذه المناسبة والحديث عن الترجمة، فإننا نُعرّج قليلا على حركة الترجمة في البلاد الإسلامية في عصرنا هذا، لنقارنه بما كانت عليه الحياة العلمية والحضارة الإسلامية بصفة عامة في عصر الخليفة المأمون..

فإن الإحصائيات الحديثة تشير إلى أن العالم العربي يُترجِم ثلاثة كتب سنويًا لكل مائة ألف مواطن، بينما على الجانب الآخر، فإن إسرائيل وحدها - على سبيل المثال - تترجم مائة كتاب سنويًا لكل مائة ألف مواطن!!

---

(١) صديق بن حسن القنوجي: أبجد العلوم ٢/ ٢٩٩.

(٢) شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية ص٤٤٢ بتصرف.

وهذا يوقفنا بعض الشيء على حقيقة الوضع العلمي المتردي الذي نعيشه الآن..

وفي هذا الشأن أيضًا أرسل المنصور والمأمون والمتوكل الرُّسلَ إلى القسطنطينية وغيرها من المدن البيزنطية لاجتلاب الكتب اليونانية التي أهملها أصحابها - على حد تعبير علي بن عبد الله الدفاع في روائع الحضارة العربية والإسلامية - ولم يعرفوا قيمتها.. فكان خلفاء المسلمين يرسلون أحيانا العلماء إلى أعدائهم أباطرة الروم ليشتروا منهم الكتب العلمية اليونانية، كما أن خلفاء بني أمية والعباس كانوا يقبلون المخطوطات والكتب العلمية من أساقفة النصارى والصابئة والمجوس وغيرهم بدلا من دفع الجزية[1]!!

أبلغ تكريم للعلم والعلماء، وأبلغ رسالة في الحرص عليه، والتشجيع له.. ذلك الذي كان يقوم به الخلفاء المسلمون..؟!

والحديث في هذه الأمثلة لا ينقطع.. ولم تكن هذه الأحداث عابرة في حياة الأمة الإسلامية، إنما كانت متكررة عبر قرون متتالية.. مما يؤكد على أنها لم تكن من قبيل المصادفة، أو نتيجة وجود خليفة معين أو حاكم بذاته يهتم بالعلوم..

فلقد كانت هذه العلوم سمة أصيلة من أهم سمات ومقومات الدولة الإسلامية في شتى مراحلها.. وهو ما حدا بجامعات مثل قرطبة وإشبيلية وغرناطة وطليطلة في الأندلس، لأن تفتح أبوابها للراغبين في العلم من كل أنحاء أوروبا.. إذ لم يكن هناك جوٌّ علمي، ولا بيئة علمية إلا في هذه البقاع المسلمة..

ويقول سارتون: «حقق المسلمون - عباقرة الشرق - أعظم المآثر في القرون الوسطى، فكتبت معظم المؤلفات قيمة وأكثرها أصالة وأغزرها مادة باللغة العربية، وكانت من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشري، حتى لقد كان ينبغي لأي كائن إذا أراد أن يلم بثقافة عصره وبأحدث صورها أن يتعلم اللغة العربية، ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها، وأعتقد أننا لسنا في حاجة أن نبين منجزات المسلمين العلمية في الرياضيات

---

(١) انظر علي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم، مؤسسة الرسالة - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م ص ٢٥.

والفيزياء وعلم الفلك والكيمياء والنبات والطب والجغرافيا»[1]..

ولنا أن نتساءل بعد:

لماذا يهرب كثيرٌ من المسلمين من القضايا العلمية الآن؟ ولماذا يُتَّهم الإسلام بالتخلف والجمود؟ ولماذا يُعلّق كثيرٌ من المتشائمين والعلمانيين الغربيين على أن هذه القواعد التي ذكرنا هي قواعد نظرية، لا مجال لها للتطبيق في مجال الحياة، وفي واقع الناس؟ ولماذا يرسخون في اعتقادنا أن الدين عكس العلم وأنه يضاده ويتنافى معه؟ وأن الإنسان إذا أراد أن يكون عالمًا حقًا، فعليه أولاً أن يتخلص من قيود الدين؟!

ألا يثبت ذلك التشجيع المكثف على العلم، وذاك الحرص الشديد عليه الذي رأيناه من قِبل الخلفاء المسلمين على مدى عصورهم، وتلك المكانة السامقة والرفيعة للعلم والعلماء في الإسلام بصفة عامة، وعلى مدى تاريخهم الحضاري بصفة خاصة.. ألا يثبت ذلك أنه تشجيعٌ عملي واقعي، قابلٌ للتطبيق والتكرار؟!

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣].

***

(١) حسان شمسي باشا: هكذا كانوا يوم كنا ص٨، وانظر: أحمد علي الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ص١١٠، ١١١، نقلا عن سارتون: المدخل إلي تاريخ العلوم.

الفصل الخامس
نماذج من علوم المسلمين في الحضارة الإسلامية

في صورة تعبر عن جمع الحضارة الإسلامية بين علوم الشرع التي تحفظ الدين، وعلوم الحياة التي تُسيِّر الحياة وتعمِّر الأرض.. وذلك كله لرفعة الأمة واستغنائها عن غيرها، لتحقق أهليتها بأن تكون خير أمة أُخرجت للناس..

وفي واحدة مما يمكننا من خلالها غرس الأمل وإيقاظه في النفوس.. فهذه أمثلة - مجرد أمثلة - ونماذج واقعية أخذت بأسباب العلم، وارتقت به في مدارج السماء؛ فأصبحت شعلة وهّاجة أضاءت سماء الإنسانية، وبدَّدت ظلام القرون الوسطى، ونعرضها في أربعة مباحث كما يلي:

المبحث الأول: علم الجرح والتعديل.

المبحث الثاني: علم الطب في الحضارة الإسلامية.

المبحث الثالث: علم الجغرافيا في الحضارة الإسلامية.

المبحث الرابع: علم البصريات في الحضارة الإسلامية.

* * *

المبحث الأول
علم الجرح والتعديل

لما كان الحديث النبوي الشريف المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، والمنهل البياني له في تفصيل الأحكام المجملة التي وردت فيه، وتقييد المطلق وتخصيص العام، وتأسيس الأحكام التي لم ينص عليها القرآن.. فقد عُني المسلمون بحفظه وفهمه في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته، واستمر هذا الاهتمام عبر الأجيال المتتالية.

ولما كان من الأمور المعلومة بداهة أنه لا سبيل إلى معرفة ما جاء عن النبي ﷺ من أحاديث وأخبار إلا عن طريق الرواة والنقلة، الذين نقلوا أخباره جيلاً بعد جيل، وطبقة بعد طبقة، حتى دونت السنة في الكتب المعتمدة المعروفة.. فقد كان الاطلاع على أحوال هؤلاء الرواة والنقلة، وتتبع مسالكهم، وإدراك مقاصدهم وأغراضهم، ومعرفة مراتبهم وطبقاتهم، وتمييز ثِقاتهم من ضعافهم، هو الوسيلة الأهم لمعرفة صحيح الأخبار من سقيمها..

وقد نتج عن هذا نشوء علم عظيم وضعت له القواعد، وأسست له الأسس والضوابط، فكان مقياسًا دقيقًا ضبطت به أحوال الرواة، من حيث التوثيق والتضعيف، والأخذ والرد، وذلك هو «**علم الجرح والتعديل**»، أو علم الرجال، أو علم ميزان أو معيار الرواة، **والذي لا نظير له عند أمة أخرى من أمم الأرض**..

وقد عُدَّ هذا العلم نصف علم الحديث؛ وكيف لا وهو ميزان رجال الحديث ومعيار الحكم عليهم، وهو الحارس للسنة من كل زيف ودخيل..؟!

والذي يطالع كتب الرجال والتراجم والجرح والتعديل، يقف مبهورًا أمام هذا العلم الذي لا يمكن أن يكون وضعه جاء صدفة أو تشهيًا، بل بُذِلت فيه جهود، وقُطِعت فيه فيافي وقفار، وفنيت فيه أزمان وأعمار، حتى بلغ قمة الحسن ومنتهى الجودة..

وبداية؛ فإن «**الجرح**» في اللغة يعني: التأثير في البدن بقطع بسلاح ونحوه، وقد استعير في المعنويات بمعنى التأثير في الخُلُق والدين بوصفٍ يناقضهما. وعلى هذا فهو في الاصطلاح يعني: وصف الراوي أو الطعن فيه بما يقتضي رد روايته.

أما «**التعديل**» فيعني في اللغة: التقويم والتسوية، واستعير أيضًا في المعنويات بمعنى

ثناء على الشخص بما يدل على دينه القويم وخلقه السوي. وهو في الاصطلاح يعني: وصف الراوي بما يقتضي قبول روايته.

وعلى هذا فعلم الجرح والتعديل النظري هو: القواعد التي تنبني عليها معرفة الرواة الذين تقبل رواياتهم أو ترد، ومراتبهم في ذلك. أما التطبيقي فهو: إنزال كل راوٍ منزلته التي يستحقها من القبول وعدمه[1].

والكلام في الرجال جرحًا وتعديلاً ثابت عن رسول الله ﷺ، وعن كثير من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، وجُوِّز ذلك تورعًا وصونًا للشريعة من أن يدخل فيها ما ليس منها، ونصيحة لله ورسوله والمسلمين، وليس هو طعنًا في الناس، وكما جاز الجرح في الشهود جاز في الرواة، والتثبت في أمر الدين أولى من التثبت في الحقوق والأموال[2]..

والحقيقة أن التجريح والتعديل لم يكن متاحًا لأي أحد؛ وذلك أن الأمر يتطلب من الأهلية والتمكن ما لا يمكن أن يصل إليه إلا القلة من جهابذة النقاد والمحدثين، الذين لديهم اطلاع واسع على الأخبار والمرويات وطرقها، ومعرفة تامة بأحوال الرواة ومقاصدهم وأغراضهم، والأسباب الداعية إلى التساهل والكذب، والموقعة في الوهم والخطأ، مع معرفة بأحوال الراوي وتاريخ ولادته، وبلده، وديانته وأمانته، وحفظه وسلوكه، وشيوخه وتلاميذه، ومقارنة مروياته بمرويات غيره، إلى غير ذلك..

وهي منزلة لا يصل إليها كل أحد، وليس أدلَّ على ذلك من أن رواة الأخبار كثيرون يعدون بالألوف، وأما النقاد الحاذقون فإنهم قليل لا يتجاوزون أصابع اليد في كل طبقة، وهؤلاء الأئمة الذين بلغوا هذه المرتبة لم يبلغوها إلا بعد استيفائهم للشروط التي تؤهلهم للتصدي لهذا الأمر.

وقد قام الأئمة بهذا الواجب حسبة لله، وصيانة لدينه، وحفاظًا على سنة نبيه، قال أبو بكر بن خلاّد ليحيى بن سعيد: «أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله؟ فقال: لأن يكونوا خصمائي أحب إليّ من أن يكون خصمي رسول الله ﷺ يقول: لِمَ

(١) الشريف حاتم بن عارف العوني: خلاصة التأصيل لعلم الجرح والتعديل ص٦.

(٢) الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية ص٣٨.

لِمَ تذُبَّ الكذب عن حديثي؟»[1].

فلم يكن الحامل لهم على ذلك أهواء أو حظوظ النفس أو غيره، ولذلك لم ترهم يجاملون أحدًا حتى ولو أقرب الأقربين، فوجدنا منهم من يضعف والده، وقد سُئِل علي بن المديني - كما مرَّ بنا من قبل - عن أبيه؛ فقال: اسألوا غيري، فقالوا: سألناك، فأطرق ثم رفع رأسه وقال: «هذا هو الدين، أبي ضعيف»[2]، وكان منهم من يُضعِّف ولده وأخاه، قال أبو داود صاحب السنن: «ابني عبد الله كذاب»، وقال زيد بن أبي أنيسة: «لا تأخذوا عن أخي يحيى»[3]..!!

وعلى هذا فإنه لابد من توافر شروط معينة في الجارح والمعدِّل، والتي من شأنها أن تجعل حكمه منصفًا كاشفًا عن حال الراوي..

ويمكن إجمال هذه الصفات أو تلك الشروط فيما يلي:

١) أن يتصف بالعلم والتقوى والورع والصدق؛ لأنه إن لم يكن بهذه الأخلاق فهو محتاج إلى من يعدله، فكيف يكون حاكمًا على غيره بالجرح والتعديل والحالة كما ذكر[4]؟!

٢) أن يكون عالمًا بأسباب الجرح والتعديل؛ لأنه إن لم يكن بهذه الصفة ربما جرح الراوي بما لا يقتضي جرحه، أو بأمر فيه خلاف قوي، وربما عدَّل الرجل استدلالاً ببعض مظاهره دون خلطة ومعرفة وسبر لأحواله[5].

٣) أن يكون عالمًا بتصاريف كلام العرب لا يضع اللفظ لغير معناه، ولا يجرح بنقله لفظًا هو غير جارح[6].

وهذا الجرح والتعديل في الرواة يثبت بواحد من طرق ثلاثة:

الأول: الاستفاضة والشهرة؛ فمن اشتهر بين أهل الحديث بعدالته، وشاع الثناء عليه، استغنى عن بينة شاهدة بعدالته، وهؤلاء مثل: الإمام مالك، وشعبة، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، ووكيع، وأحمد بن حنبل.. فمثل هؤلاء لا يُسأل عن

(١) الأبناسي: الشذا الفياح ٢/ ٧٤٠. (٢) ابن حبان: المجروحين ٢/ ١٥.

(٣) السخاوي: فتح المغيث ٣/ ٣٥٥.

(٤) أبو الحسنات اللكنوي الهندي: الرفع والتكميل ص٦٧. (٥) زين الدين العراقي: التقييد والأيضاح ١/ ١٤٢.

(٦) الشريف حاتم بن عارف العوني: خلاصة التأصيل لعلم الجرح والتعديل ص٢٧.

عدالتهم؛ لأن شهرتهم بالعدالة أقوى في النفس من شهادة الواحد والاثنين بعدالتهم[1].

وقد سُئِل الإمام أحمد بن حنبل عن إسحاق بن راهويه، فقال: مثل إسحاق يُسأل عنه؟! إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين[2].

وحكم الجرح فيما سبق كالتعديل.

الثاني: أن ينص اثنان من أهل العلم على عدالته أو جرحه، وهذا باتفاق الجماهير من العلماء؛ قياسًا على الشهادة، حيث يشترط في تزكية الشاهد اثنان.

الثالث: أن ينص واحد من علماء الجرح والتعديل على عدالة ذلك الراوي أو جرحه، على الصحيح المختار الذي رجحه **الخطيب البغدادي** و**ابن الصلاح** وغيرهما، واستدلوا على ذلك بأن العدد لم يشترط في قبول الخبر، فإنَّ الحديث الغريب (أي الذي جاء من طريقٍ واحد) قد يكون صحيحًا، فإذا كان كذلك فلا يشترط في جرح الراوي أو تعديله أكثر من معدل أو جارح واحد[3].

وخالف بعض العلماء فقالوا: لا يثبت التعديل والجرح إلا باثنين؛ قياسًا على الجرح والتعديل في الشهادات[4].

وهناك شَرطان لقبول الجرح والتعديل:

الأول: أن يصدرا ممن استوفى شروط الجارح والمعدِّل التي سبق ذكرها؛ فإن اختلَّ بعض شروط الجارح والمعدل لم يقبل جرحه ولا تعديله، ولذلك صور منها:

١) أن يكون الجارح نفسه مجروحًا: ومثال ذلك ما ذكره الحافظ ابن حجر في التهذيب في أحمد بن شبيب الحبطي البصري، بعد أن نقل توثيقه عن أبي حاتم، وأهل العراق، وابن حبان، قال: وقال أبو الفتح الأزدي: منكر الحديث غير مرضي، قلت (ابن حجر): لم يلتفت أحدٌ إلى هذا القول، بل الأزدي غير مرضي[5].

٢) أن يكون الجارح من المتشددين الذين يجرحون الراوي بأدنى جرح: ومثال ذلك ما ذكره الإمام الذهبي في الميزان في محمد بن الفضل السدوسي شيخ الإمام البخاري، الملقب

---

(١) الأبناسي: الشذا الفياح ١/ ٢٣٥.

(٢) أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ٢/ ٣٨٢.

(٣) السيوطي: تدريب الراوي ١/ ٣٠٨.

(٤) الشهرزوري: مقدمة ابن الصلاح ١/ ٦١.

(٥) ابن حجر: تهذيب التهذيب ١/ ٣١.

بعارم، بعد أن ذكر توثيق الدارقطني له، قال: قلت (الذهبي): فهذا قول حافظ العصر الذي لم يأت بعد النسائي مثله، فأين هذا القول من قول ابن حبان... في عارم: «اختلط في آخر عمره وتغير حديثه حتى كان لا يدري ما يحدث به، فوقع في حديثه المناكير الكثيرة، فيجب التنكب عن حديثه فيما رواه المتأخرون، فإذا لم يعرف هذا من هذا تُرِكَ الكل ولا يحتج بشيء منها». قلت (الذهبي): ولم يقدر ابن حبان أن يسوق له حديثًا منكرًا، فأين ما زعم؟[1]

الشرط الثاني: أن يكون الجرح مفسَّرًا، وأما التعديل فلا يشترط تفسيره، وسبب التفريق بينهما أن أسباب التعديل كثيرة يصعب حصرها؛ فإن ذلك يحوج المعدل إلى أن يقول: فعل كذا وكذا، فيذكر كل ما يجب عليه أن يفعله، ويقول: لم يكن يفعل كذا وكذا، فيعد كل ما يجب عليه أن يجتنبه وهذا أمر شاق جدًّا، وأما الجرح فإنه يثبت في الراوي ولو بخصلة واحدة مما يقتضي الجرح[2].

وهناك سبب آخر للتفريق بينهما، وهو أن الناس اختلفوا في أسباب الجرح، فربما جرح بعضهم الراوي بما ليس بجارح عند التحقيق، فكان لابد من الاستفسار عن سبب الجرح لينظر، هل هو جرح أم لا، وليس الأمر كذلك في التعديل[3].

هذا هو مذهب الجمهور، واختار الخطيب البغدادي قبول الجرح المجمل - أي الذي لم يفسر - إذا صدر من العالم بما يصير به الراوي مجروحًا؛ لأننا متى استفسرناه عن سبب الجرح فقد شككنا في علمه، فنقضنا ما بنينا عليه أمره من الرضا به والرجوع إليه[4].

على أنه قد تتعارض أقوال أهل العلم في الراوي، فيوثقه - مثلاً - بعضهم ويجرحه آخرون.. و حينئذٍ لا يخلو الأمر من حالين:

أولاً: أن يمكن الجمع بين كلام الموثق وكلام الجارح في ذلك الراوي، وذلك بأن يحمل التوثيق على أمر خاص، والتجريح على أمر خاص آخر، ولذلك صور:

١) أن يكون التوثيق للراوي في روايته عن أهل بلده، والجرح له في روايته عن غير أهل بلده، وذلك مثل إسماعيل بن عياش الحمصي؛ فإنه إذا حدث عن الشاميين فحديثه عنهم جيد، وإذا حدث عن غيرهم فحديثه مضطرب.

---

(١) الإمام الذهبي: ميزان الاعتدال ٤/ ٨.

(٢) أبو الحسنات اللكنوي: الرفع والتكميل ص١١٧.

(٣) سراج الدين الأنصاري: المقنع ١/ ٢٤٩.

(٤) الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية ص١٠٨.

٢) أن يكون التوثيق للراوي في وقت من عمره، والتجريح في وقت آخر من عمره، وذلك في حق الرواة المختلطين، فيؤخذ من حديث هؤلاء ما روي عنهم قبل أن يختلطوا، ويضعف من حديثهم ما روي عنهم بعد الاختلاط.

ومن أمثلة هذا النوع عطاء بن السائب، وسعيد بن أبي عروبة، وصالح بن نبهان مولى التوأمة، هذا فيما إذا استمر المختلط في التحديث بعد اختلاطه، فأما إن توقف عن التحديث أو حجب عنه الناس - كما في شأن جرير بن حازم وعبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي - فإن حديثه مقبول ولا يضره اختلاطه.

٣) أن يكون التوثيق للراوي في روايته عن بعض شيوخه، والجرح في روايته عن شيوخ معينين.

ومثال ذلك حماد بن سلمة؛ فإنه ثقة، وخاصة في روايته عن ثابت البناني، ولكن روايته عن قيس بن سعد لا يحتج بها، قال الإمام أحمد: ضاع كتابه عنه، فكان يحدث من حفظه فيخطئ.

ومثل **هشام بن حسان الأزدي**؛ فإنه ثقة مشهور، لكن تُكُلِّم في روايته عن بعض شيوخه، قال يحيى بن معين: يُتَّقَى من حديثه عن عكرمة، وعن عطاء وعن الحسن البصري.

ثانيًا: أن يتعذر الجمع بين الجرح والتعديل، وهنا يقدم الجرح على التعديل؛ لأن المعدل يخبر عما ظهر له من حال ذلك الراوي، والجارح يخبر عن باطن خفي عن المعدِّل، فمعه زيادة علم، فيُقدَّم قوله.

ولكنْ ذلك بشروطٍ ثلاثة:

١) أن يكون الجرح مفسَّرًا.

٢) أن لا يكون الجارح متعصبًا على المجروح أو متعنتًا في جرحه.

٣) أن لا يبين المعدل أن الجرح قد انتفى عن ذلك الراوي بدليل صحيح، وذلك مثل أن يجرحه الجارح بأمر مفسق فيبين المعدل أنه قد تاب من ذلك العمل.

وبقي إذن أن نعلم أن علماء الحديث اصطلحوا على **ألفاظ معينة يصفون بها الرواة**؛ ليميزوا بها بين مراتب أحاديثهم من حيث القبول والرد، وهذه الألفاظ كما يلي:

أولاً: ألفاظ التوثيق:

١) أعلاها وصف الراوي بما يدل على المبالغة في التوثيق، وأصرح ذلك التعبير بأفعل،

كأوثق الناس، أو أثبت الناس، أو إليه المنتهى في التثبت.

٢) ثم ما كررت فيه صفة التوثيق لفظًا، كثقة ثقة، أو معنىً، كثقة حافظ، وثبت حجة وثقة متقن.

٣) ثم ما انفرد فيه لفظ التوثيق، كثقة، أو ثبت، أو إمام، أو حجة. أو تعدد ولكن بمعنى المفرد، مثل: عدل حافظ، أو عدل ضابط.

٤) ثم ما قالوا فيه: لا بأس به، أو ليس به بأس - عند غير ابن معين - أو صدوق، أو خيار، وأما ابن معين فإنه قال: إذا قلت لك: ليس به بأس فهو ثقة.

٥) ثم ما قالوا فيه: محلُّه الصدق، أو إلى الصدق ما هو، أو شيخ، أو مقارب الحديث. أو صدوق له أوهام، أو صدوق يهم، أو صدوق إن شاء الله، أو أرجو أنه لا بأس به، أو ما أعلم به بأسًا، أو صويلح، أو صالح الحديث.

حكم هذه المراتب:

مَن قيل فيه من الرواة لفظ من ألفاظ المراتب الثلاث الأولى، فحديثه صحيح، وبعضه أصح من بعض، وأما أهل المرتبة الرابعة فحديثهم حسن، وأما أهل المرتبة الخامسة فلا يُحتَج بحديثهم، بل يُكتَب حديثهم للاعتبار، فإن وافقهم غيرهم قُبِلَ، وإلا رُدَّ.

ثانيًا: ألفاظ الجرح:

وهي على مراتب أيضًا:

١) فشرُّها الوصف بما دل على المبالغة في الجرح، وأصرح ذلك التعبير بأفعل، كقولهم: أكذب الناس، أو إليه المنتهى في الكذب، أو هو ركن الكذب.

٢) ودونها ما قيل فيه: وضَّاع، أو كذَّاب، أو يضع الحديث، أو يختلق الحديث، أو «لا شيء» عند الشافعي.

٣) ودونها ما قيل فيه: متهم بالكذب، أو بالوضع، أو يسرق الحديث، أو ساقط، أو هالك، أو ذاهب الحديث، أو متروك الحديث، أو تركوه، أو فيه نظر، أو سكتوا عنه (عند البخاري في اللفظتين الأخيرتين فقط)، أو ليس بثقة.

٤) ودونها ما قيل فيه: ردُّوا حديثه، أو ضعيف جدًّا، أو واه بمرة، أو تالف، أو لا تحل

ـرواية عنه، أو لا شيء، أو ليس بشيء عند غير **الشافعي**، أو منكر الحديث عند البخاري.

٥) ودونها ما قيل فيه: ضعيف، أو ضعفوه، أو منكر الحديث عند غير البخاري، أو مضطرب الحديث، أو لا يحتج به، أو واه.

٦) ودونها ما قيل فيه: فيه مقال، أو فيه ضعف، أو ليس بذلك، أو ليس بالقوي، أو ليس بحجة، أو ليس بالمتين، أو سيئ الحفظ، أو لين، أو تعرف وتنكر، أو ليس بالحافظ.

حكم هذه المراتب:

الحكم في المراتب الأربع الأولى أنه لا يُحتَج بواحد من أهلها، ولا يُستشهد به، ولا يُعتبر به: فأهل المرتبة الأولى والثانية حديثهم موضوع، وأهل الثالثة حديثهم متروك، وأهل الرابعة حديثهم ضعيف جدًّا.

وأما أهل المرتبة الخامسة والسادسة فيُكتَب حديثهم للاعتبار، ويرتقي إلى الحسن إذا تعددت طرقه، والله أعلم[١].

إنَّ هذه التفاصيل عن علم الجرح والتعديل، وقواعده، وضوابطه؛ لَتبين - بما لا يدع مجالاً للشك - مدى الجهد الذي بذله العلماء المسلمون من أجل توثيق السُّنَّة النبوية الشريفة، وأنهم ما تركوا سبيلاً للتيقن من ضبط صحة السُّنة إلا طرقوه؛ حيث أنشأوا هذا العلم إنشاءً؛ مما جعله قصرًا على الأمة الإسلامية، فلا توجد أمة تملك هذه الدقة في النقل عن نبيها، ولا هذه التراجم الكاملة لأكثر من نصف مليون راوٍ من الرواة، ولا التفرقة الدقيقة بين كل لفظٍ وآخر في الجرح والتعديل؛ بحيث لا تُترك الأمور للآراء الشخصية، فكُلٌّ من الجرح والتعديل مضبوط بقواعد صارمة تحميه من اتباع الهوى، وتحافظ على المنهج العلمي في توثيق الرواة محافظةً بالغة، وهذا دليل على دقة ومكانة علماء المسلمين الذين دفعتهم غيرتهم وحميتهم، وحرصهم على اتباع الأمة الإسلامية للسُّنّة الصحيحة إلى ابتكار ذلك العلم والتنظير له بما ليس له في تاريخ البشرية العلمي نظير.

* * *

---

(١) إبراهيم بن علي آل كليب: مهمات علم الحديث.

المبحث الثاني
علم الطب في الحضارة الإسلامية

يُعدُّ الطب من أوسع مجالات العلوم الحياتية التي كان للمسلمين فيها إسهامات بارزة على مدار عصور حضارتهم الزاهرة، وكانت تلك الإسهامات على نحو غير مسبوق شمولاً وتميُّزًا وتصحيحًا للمسار، حتى ليُخيَّل للمطَّلع على هذه الإسهامات الخالدة كأن لم يكن طبٌّ قبل حضارة المسلمين.

ولم يقتصر الإبداع على علاج الأمراض فحسب، بل تعدَّاه إلى تأسيس منهج تجريبي أصيل انعكست آثاره الراقية والرائعة على جميع جوانب الممارسة الطبيَّة وقاية وعلاجًا، أو مرافق وأدوات، أو أبعادًا إنسانية وأخلاقية تحكم الأداء الطبي.

وتتجلى روعة الإسهامات الإسلامية في الطب في تخريج هذا الحشد من العبقريات الطبية النادرة، التي كان لها - بعد الله - الفضل الكبير في تحويل مسار الطب اتجاهًا آخر تابعت المسير على نهجه أجيالُ الأطباء إلى يوم الناس هذا.

وإن بدايات تلك الصنعة تكمن في أن الإنسان منذ وُجد على ظهر الأرض وهو يهتدي - بإلهام ربه - إلى أنواع من التطبيب تتفق مع مستواه العقلي وتطوره الإنساني، وكان ذلك النوع من الطب يُعرف بالطب (البدائي) انسجامًا مع المستوى الحضاري للإنسان، ولذلك نجد ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) يذكر أن: «... للبادية من أهل العمران طبًّا يبنونه في أغلب الأمر على تجربة قاصرة، ويتداولونه متوارثًا عن مشايخ الحي، وربما صح منه شيء، ولكنه ليس على قانون طبيعي...»[(١)].

ولما جاء الإسلام كان للعرب في الجاهلية مثل هذا الطب، فحث رسول الله ﷺ على التداوي فقال - كما روى أسامة بن شريك ﷺ-: **«تَدَاوَوْا؛ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلاَّ وَضَعَ لَهُ دَوَاءً، غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ: الْهَرَمُ»**[(٢)]. وعُرف عن رسول الله ﷺ التداوي بالعسل والتمر

(١) ابن خلدون: العبر في ديوان المبتدأ والخبر ١/ ٦٥٠.

(٢) أبو داود: كتاب الطب، باب في الرجل يتداوى (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وأحمد (١٨٤٧٧)، والحاكم (٨٢٠٦)، وقال: حديث صحيح ووافقه الذهبي، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩١)، وقال الألباني: صحيح (٢٩٣٠) صحيح الجامع.

والأعشاب الطبيعية، وغيرها مما عُرف بـ «الطب النبوي».

غير أن المسلمين لم يقفوا عند حدود ذلك الطب النبوي (مع إيمانهم بنفعه وبركته)، بل أدركوا منذ وقت مبكر أن العلوم الدنيوية - والطب أحدها - تحتاج إلى دوام البحث والنظر، والوقوف على ما عند الأمم الأخرى منها؛ وذلك تطبيقًا لهدي الإسلام الدافع دومًا للاستزادة من كل ما هو نافع، والبحث عن الحكمة أنَّى وُجدت، فنرى أطباء المسلمين يأخذون في التعرف على الطب اليوناني من خلال البلاد الإسلامية المفتوحة، كما أن الخلفاء بدءوا يستقدمون الأطباء الروم، الذين سرعان ما أخذ عنهم الأطباء المسلمون، ونشطوا في ترجمة كل ما وقع تحت أيديهم من مؤلفات طبية، ولعل هذا يعتبر من أعظم أحداث العصر الأموي.

وقد تميز علماء الطب المسلمون بأنهم أول من عرف التخصص؛ فكان منهم: أطباء العيون، ويسمَّون (الكحّالين)، ومنهم الجراحون، والفاصدون (الحجّامون)، ومنهم المختصون في أمراض النساء وهكذا.

وكان من سمات هذا العصر إنشاء المستشفيات النظامية، وبروز الشخصيات الإسلامية في ميدان علم الطب، وكانت عائلة **أبي الحكم الدمشقي** هي المسيطرة على هذه المهنة في العصر الأموي، وكان من هذه الشخصيات أيضًا: **تياذوق**، وقد كان قريبًا من **الحجاج بن يوسف الثقفي**، و**أحمد بن إبراهيم** الذي كان طبيب الخليفة الأموي **يزيد بن عبد الملك**[1].

وما كادت عجلة الأيام تدور في العصر العباسي حتى أجاد المسلمون في كل فرع من فروع الطب، وصححوا ما كان من أخطاء العلماء السابقين تجاه نظريات بعينها، ولم يقفوا عند حد النقل والترجمة فقط وإنما واصلوا البحث وصوَّبوا أخطاء السابقين..

وكان من عمالقة هذا العصر المبهرين أبو بكر الرازي -رحمه الله-، والذي يعتبر من أعظم علماء الطب في التاريخ قاطبة، وله من الإنجازات ما يعجز هذا الكتاب عن ضمِّه، وسوف نفرد له حديثًا خاصًّا بإذن الله في موضع آخر من هذا الكتاب.

كما تطوَّر عند المسلمين طب العيون (الكحالة) ولم يطاولهم فيه أحدٌ؛ فلا اليونان من

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١/ ٤٠٥-٤١٠.

قبلهم، ولا اللاتين المعاصرون لهم، ولا الذين أتوا من بعدهم بقرون بلغوا فيه شأوهم؛ فقد كانت مؤلفاتهم فيه الحجة الأولى خلال قرون طوال، ولا عجب أن كثيرين من المؤلفين كادوا يعتبرون طب العيون طبًّا عربيًّا، ويقرِّر المؤرخون أن **علي بن عيسى الكحال** (ت ٤٠٠ هـ) كان أعظم طبيب عيون في القرون الوسطى برمتها، ومؤلفه (التذكرة) أعظم مؤلفاته[١].

وإذا طوينا تلك الصفحة المشرقة **للرازي وابن عيسى الكحال**، فإننا نجد أنفسنا أمام عملاق آخر يعتبر من أعظم الجراحين في التاريخ -إن لم يكن أعظمهم على الإطلاق- وهو **أبو القاسم الزهراوي** (ت ٤٠٣ هـ) الذي تمكن من اختراع أولى أدوات الجراحة كالمشرط والمقص الجراحي، كما وضع الأسس والقوانين للجراحة، والتي من أهمها ربط الأوعية لمنع نزفها، واخترع خيوط الجراحة وتمكن من إيقاف النزف بالتخثير.

وقد كان **الزهراوي** هو الواضع الأول لعلم (المناظير الجراحية)، وذلك باختراعه واستخدامه للمحاقن والمبازل الجراحية والتي عليها يقوم هذا العلم، وقام بالفعل بتفتيت حصوة المثانة بما يشبه المنظار في الوقت الحاضر، إلى جانب أنه أول مخترع ومستخدم لمنظار المهبل.

ويعتبر كتاب **الزهراوي**: (التصريف لمن عجز عن التأليف) - والذي قام بترجمته إلى اللاتينية العالم الإيطالي جيراردو[٢] تحت اسم ALTASRIF - موسوعة طبية متكاملة لمؤسسي علم الجراحة بأوروبا وهذا باعترافهم، (تتألف هذه الموسوعة من ثلاثين مجلدًا مقسمة إلى ثلاثة أقسام: الأول في (الطب)، والثاني في (الكيمياء)، والثالث في (الجراحة والأدوات الجراحية). ويذهب مؤرخو الطب إلى أن **الزهراوي** كان أول من خص الجراحة بدراسة متميزة، وفصلها عن سائر الأمراض التي تعتري جسم الإنسان.

ولقد حلَّ مبحث **أبي القاسم الزهراوي** في الجراحة محل كتابات القدماء، وظل مبحثه هذا العمدة في فن الجراحة حتى القرن السادس عشر (أي لما يزيد على خمسة قرون من زمانه)، ويشتمل على صور توضيحية للعديد من آلات الجراحة (أكثر من مائتي آلة جراحية!!) كان

---

(١) المصدر السابق نفسه ٢/ ٢٦٣.

(٢) جيراردو دا كريمونا (١١١٤ ـ ١١٨٧م) مستشرق إيطالي. مولده ووفاته في «كريمونا» من مدن إيطاليا الشمالية. أقام زمنًا في طليطلة (بالأندلس) فترجم عن العربية إلى اللاتينية أكثر من سبعين كتابًا من كتب الهيئة وأحكام النجوم والهندسة والطب والطبيعة والكيمياء والفلسفة.

لها أكبر الأثر فيمن أتى من بعده من الجراحين الغربيين، وكانت بالغة الأهمية على الأخص بالنسبة لأولئك الذين أصلحوا فن الجراحة في أوروبا في القرن السادس عشر، يقول عالم وظائف الأعضاء الكبير هالر: «إن جميع الجراحين الأوروبيين الذين ظهروا بعد القرن الرابع عشر قد نهلوا واستقوا من هذا المبحث»[1].

وكانت قد برزت كذلك شخصيات إسلامية أخرى لامعة في ميدان علم الطب من أمثال ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ)، الذي استطاع أن يقدم للإنسانية أعظم الخدمات بما توصل إليه من اكتشافات، وما يسره الله له من فتوحات طبية جليلة؛ فقد كان أول من اكتشف العديد من الأمراض التي ما زالت منتشرة حتى الآن، فهو الذي اكتشف لأول مرة طفيل (الإنكلستوما) وسماها الدودة المستديرة، وهو بذلك قد سبق العالم الإيطالي «دوبيني» بنحو ٩٠٠ سنة، كما أنه أول من وصف الالتهاب السحائي، وأول من فرّق بين الشلل الناجم عن سبب داخلي في الدماغ والشلل الناتج عن سبب خارجي، ووصف السكتة الدماغية الناتجة عن كثرة الدم، مخالفًا بذلك ما استقر عليه أساطين الطب اليوناني القديم، فضلاً عن أنه أول من فرّق بين المغص المعوي والمغص الكلوي[2].

كما كشف ابن سينا - لأول مرة أيضًا - طرق العدوى لبعض الأمراض المعدية كالجدري والحصبة، وذكر أنها تنتقل عن طريق بعض الكائنات الحية الدقيقة في الماء والجو، وقال: «إن الماء يحتوي على حيوانات صغيرة جدًا لا تُرى بالعين المجردة، وهي التي تسبب بعض الأمراض...»[3] وهو ما أكده «فان ليوتهوك» في القرن الثامن عشر والعلماء المتأخرون من بعده، بعد اختراع المجهر.

ولهذا فإن ابن سينا يعد أول من أرسى (علم الطفيليات) الذي يحتل مرتبة عالية في الطب الحديث؛ فقد وصف لأول مرة (التهاب السحايا الأولي) وفرّقه عن (التهاب السحايا الثانوي) - وهو الالتهاب السحائي - وغيره من الأمراض المماثلة، كما تحدث أيضًا عن طريقة استئصال (اللوزتين)، وتناول في آرائه الطبية أنواعًا من السرطانات كسرطان الكبد،

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٥٩١.

(٢) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١٣٢، ١٣٣.

(٣) علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٢٩٨.

والثدي، وأورام العقد الليمفاوية، وغيرها[1].

ويُظهر ابن سينا براعة كبيرة ومقدرة فائقة في علم الجراحة؛ فقد ذكر عدة طرق لإيقاف النزيف، سواء بالربط أو إدخال الفتائل أو بالكي بالنار أو بدواء كاوٍ، أو بضغط اللحم فوق العرق، كما تحدث عن كيفية التعامل مع السِّهام واستخراجها من الجروح، وحذَّر المعالجين من إصابة الشرايين أو الأعصاب عند إخراج السهام من الجروح، كما نبَّه إلى ضرورة أن يكون المعالج على معرفة تامة بالتشريح[2].

ويعتبر ابن سينا أول من اكتشف ووصف عضلات العين الداخلية، وأول من قال بأن مركز البصر ليس في الجسم البلوري كما كان يُعتقد من قبل، وإنما هو في العصب البصري[3].

وكان ابن سينا جرّاحًا بارعًا؛ فقد قام بعمليات جراحية دقيقة للغاية مثل استئصال الأورام السرطانية في مراحلها الأولى[4] وشقّ الحنجرة والقصبة الهوائية، واستئصال الخرَّاج من الغشاء البلوري بالرئة، كما عالج البواسير بطريقة الربط، ووصف - بدقة - حالات النواسير البولية، إلى جانب أنه توصل إلى طريقة مبتكرة لعلاج الناسور الشرجي لا تزال تستخدم حتى الآن! وتعرَّض لحصاة الكلى وشرح كيفية استخراجها والمحاذير التي يجب مراعاتها، كما ذكر حالات استعمال القسطرة، وكذلك الحالات التي يُحذر استعمالها فيها[5].

كما كان له باع كبير في مجال الأمراض التناسلية؛ فوصف بدقة بعض أمراض النساء مثل: الانسداد المهبلي والإسقاط، والأورام الليفية.

وتحدث عن الأمراض التي يمكن أن تصيب النفساء، مثل: النزيف، واحتباس الدم، وما قد يسببه من أورام وحميات حادة، وأشار إلى أن تعفن الرحم قد ينشأ من عسر الولادة أو موت الجنين، وهو ما لم يكن معروفًا من قبل، كما تعرض أيضًا للذكورة والأنوثة في الجنين

---

(١) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١٣٣، وانظر: فوزي طوقان: العلوم عند العرب ص١٧.

(٢) انظر: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص١١٨.

(٣) حسن الشرقاوي: المسلمون علماء وحكماء ص١٦٠، مؤسسة مختار، الطبعة الأولى ١٩٧٨.

(٤) انظر: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص١٤٨.

(٥) انظر: ابن سينا: القانون ٣/ ١٦٥.

وعزاها إلى الرجل دون المرأة، وهو الأمر الذي أكده مؤخرًا العلم الحديث[1].

وإلى جانب كل ما سبق، كان ابن سينا على دراية واسعة بطب الأسنان، وكان واضحًا دقيقًا في تحديده للغاية والهدف من مداواة نخور الأسنان حين قال: «الغرض من علاج التآكل منع الزيادة على ما تآكل؛ وذلك بتنقية الجوهر الفاسد منه، وتحليل المادة المؤدية إلى ذلك...». ونلاحظ أن المبدأ الأساسي لمداواة الأسنان هو المحافظة عليها، وذلك بإعداد الحفرة إعدادًا فنيًّا ملائمًا مع رفع الأجزاء النخرة منها، ثم يعمد إلى ملئها بالمادة الحاشية المناسبة لتعويض الضياع المادي الذي تعرضت له السن، مما يعيدها بالتالي إلى أداء وظيفتها من جديد[2].

ولم تكن تلك حالات استثنائية للعبقرية الإسلامية في مجال الطب، فقد حفل سجل الأمجاد الحضارية الإسلامية بالعشرات، بل المئات من الرواد الذين تتلمذت عليهم البشرية قرونًا طويلة وشهد بفضلهم وسبْقهم الأعداء قبل الأصدقاء؛ فكان منهم أيضًا ابن النفيس (ت ٦٨٧ هـ) الذي عارض نظرية جالينوس الذي كان يقول بوجود ثقب بين بطيني القلب الأيمن والأيسر، فصحح ابن النفيس هذا الخطأ، ومنه اكتشف الدورة الدموية الصغرى، حيث لاحظ من خلال دراسته لحركة الدم في القلب أن الدم الذي يصل إلى التجويف الأيسر من تجويفي القلب يكون مختلطًا بالهواء، وأن الدم الذي تلطّف (أي انخفضت درجة حرارته) في التجويف الأيمن ولا منفذ له من داخل القلب ليس أمامه سوى أن ينفذ إلى الرئة، وهكذا قرر أن: «انتقال الدم إلى البطين الأيسر إنما هو من الرئة بعد تسخّنه وتصعّده من البطين الأيمن...». وينفي (ابن النفيس) أن يكون للدم مجرى آخر؛ فهو ليس خاضعًا لأي مدٍّ أو جزر، واتجاهه واحد.

وهكذا أثبت ابن النفيس أن اتجاه الدم إنما يكون على هذا النحو: يمر من التجويف الأيمن للقلب إلى الرئة حيث يخالط الهواء، ومن الرئة عن طريق الشريان الرئوي إلى التجويف الأيسر ، بل ويزيد على ذلك بأن يفصل القول في (الشريان الوريدي) الرئوي ويصفه بأنه ذو طبقتين؛ وذلك حتى يكون ما ينفذ من مسامه شديد الرقة، وأن شبهه

(١) انظر: ابن سينا: القانون ٢/ ٥٨٦.

(٢) انظر: ابن سينا: القانون ١/ ١٩٢.

بالشريان جاء من كونه ينبض، ولما كان نبض العروق من خواص الشريان كان إلحاق هذا العرق الرئوي بالشرايين[1].

وهكذا قدم ابن النفيس وصفًا دقيقًا للدورة الدموية الصغرى، لم يُسبَق إليه.

المسلمون وابتكار المستشفيات

لا شك أن إسهامات المسلمين في مجال الطب لا تُحصى، ولعل من أجَلِّ هذه الإسهامات وأعظمها أن المسلمين هم أول من أسس المستشفيات في العالم، بل إنهم سبقوا غيرهم في ذلك الأمر بأكثر من تسعة قرون!!

فقد أُسِّس أول مستشفي إسلامي في عهد الخليفة الأموي **الوليد بن عبد الملك**، والذي حكم من سنة ٨٦ هـ إلى سنة ٩٦ هـ، وكان هذا المستشفى متخصصًا في الجذام[2]، وأنشئت بعد ذلك المستشفيات العديدة في العالم الإسلامي، وبلغ بعضها شأوًا عظيمًا؛ حتى كانت هذه المستشفيات تُعدّ قلاعًا للعلم والطب، وتُعتبر من أوائل الكليات والجامعات في العالم، بينما أُنشِئ أول مستشفى أوروبي في باريس بعد ذلك بأكثر من تسعة قرون!!

وكانت المستشفيات تُعرف بـ (البيمارِسْتانات)، وكان منها **الثابت ومنها المتنقّل**، فالثابت هو الذي يُنشَأ في المدن، وقلَّما تجد مدينة إسلامية - ولو صغيرة - بغير مستشفى، أما المستشفى المتنقل فهو الذي يجوب القرى البعيدة والصحارى والجبال!!

وكانت المستشفيات المتنقّلة تُحمَل على مجموعة كبيرة من الجمال (وصلت في بعض الأحيان إلى أربعين جملاً!! وذلك في عهد السلطان **محمود السلجوقي** - رحمه الله -، والذي حكم من سنة ٥١١ هـ إلى سنة ٥٢٥ هـ) وكانت هذه القوافل مُزوَّدة بالآلات العلاجية والأدوية، ويرافقها عدد من الأطباء، وكان بمقدورها الوصول إلى كل رقعة في الأمة الإسلامية[3].

وقد وصلت المستشفيات الثابتة في المدن الكبرى إلى درجة راقية جدًّا في المستوى، وكان من أشهرها المستشفى العضُدي ببغداد، والذي أنشئ في سنة ٣٧١ هـ، والمستشفى النوري

---

(١) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١٤٧، ١٤٨. وانظر: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص١٠١. عمر فاروق الطباع: ابن النفيس قي تاريخ الطب العربي ص١٧٩-١٨٤.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٢٩.

(٣) ابن القفطي: تاريخ الحكماء ص٤٠٥.

بدمشق، والذي أنشئ في سنة ٥٤٩ هـ، والمستشفى المنصوري الكبير بالقاهرة، والذي أُنشئ سنة ٦٨٣ هـ، وكان بقرطبة وحدها أكثر من خمسين مستشفى[1]!!

وكانت هذه المستشفيات العملاقة تُقسّم إلى أقسام بحسب التخصص؛ فهناك أقسام للأمراض الباطنة، وأقسام للجراحة، وأقسام للأمراض الجلدية، وأقسام لأمراض العيون، وأقسام للأمراض النفسية، وأقسام للعظام والكسور وغيرها.

ولم تكن تلك المستشفيات مجرد دور علاج، بل كانت كلّيات طب حقيقية على أرقى مستوى؛ فكان الطبيب المتخصص (الأستاذ) يمرُّ على الحالات في الصباح، ومعه الأطباء الذين هم في أولى مراحلهم الطبية، فيعلمهم، ويدوّن ملاحظاته، ويصف العلاج، وهم يراقبون ويتعلمون، ثم ينتقل الأستاذ بعد ذلك إلى قاعة كبيرة ويجلس حوله الطلاب فيقرأ عليهم الكتب الطبية، ويشرح ويوضّح، ويجيب عن أسئلتهم، بل إنه يعقد لهم امتحانًا في نهاية كل برنامج تعليمي معين ينتهون من دراسته، ومن ثم يعطيهم إجازة في الفرع الذي تخصصوا فيه.

وكانت المستشفيات الإسلامية تضم في داخلها مكتبات ضخمة تحوي عددًا هائلاً من الكتب المتخصصة في الطب والصيدلة وعلم التشريح ووظائف الأعضاء، إلى جانب علوم الفقه المتعلقة بالطب، وغير ذلك من علوم تهم الطبيب.

ومما يذكر على سبيل المثال - لنعرف ضخامة هذه المكتبات - أن مكتبة مستشفى ابن طولون بالقاهرة كانت تضم بين جنباتها أكثر من مائة ألف كتاب!!

وكانت تُزرَع - إلى جوار المستشفيات - المزارع الضخمة التي تنمو فيها الأعشاب الطبية والنباتات العلاجية؛ وذلك لإمداد المستشفى بما يحتاجه من الأدوية.

أما الإجراءات التي كانت تُتخذ في المستشفيات لتجنب العدوى فكانت من نوع خاص فريد؛ فكان المريض إذا دخل المستشفى يُسلِّم ملابسه التي دخل بها، ثم يُعطَى ملابس جديدة مجانية لمنع انتقال العدوى عن طريق ملابسه التي كان يرتديها حين مرض، ثم يدخل كل مريض في عنبر مختص بمرضه، ولا يُسمح له بدخول العنابر الأخرى لمنع انتقال العدوى أيضًا، وينام كل مريض على سرير خاص به، وعليه ملاءات جديدة وأدوات خاصة!!

---

(١) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص٣٢٨،٣٢٩.

قارن كل ذلك بالمستشفى الذي أُنشئ في باريس بعد هذه المستشفيات الإسلامية بقرون، حيث كان المرضى يُجبرون على الإقامة في عنبر واحد، وذلك بصرف النظر عن نوعية أمراضهم، بل ويُضطرون لنوم ثلاثة أو أربعة، وأحيانًا خمسة من المرضى على سريرٍ واحد!! فتجد مريض الجدري إلى جوار حالات الكسور إلى جوار السيدة التي تلد!! كما كان الأطباء والممرضون لا يستطيعون دخول العنابر إلا بوضع كمّامات على الأنف من الرائحة شديدة العفونة في داخل هذه العنابر! بل كان الموتى لا يُنقلون إلى خارج العنابر إلا بعد مرور أربعٍ وعشرين ساعةً على الأقل من الوفاة!! ولك أن تتخيل مدى خطورة هذا الأمر على بقية المرضى[1]!!

وإذا أردنا أن نستعرض بعضًا من المستشفيات الرائدة في التاريخ الإسلامي، فكان من أعظمها: **المستشفى العضُدي**، الذي أنشأه **عضد الدولة ابن بويه** عام ٣٧١ هـ في بغداد، وكان يقوم بالعلاج فيه عند إنشائه أربعة وعشرون طبيبًا، تزايدوا بعد ذلك جدًّا، كما كان يضم مكتبة علمية فخمة وصيدلية ومطابخ، وكان يخدم فيه عدد ضخم من الموظفين والفرّاشين، وكان الأطباء يتناوبون على خدمة المرضى بحيث يكون هناك أطباء بالمستشفى أربعةً وعشرين ساعة يوميًّا.

ومن المستشفيات الإسلامية العظمى أيضًا: **المستشفى النوري الكبير** بدمشق، والذي أنشأه السلطان العادل **نور الدين محمود الشهيد** -رحمه الله- ، وذلك في سنة ٥٤٩ هـ وكان من أجَلّ المستشفيات وأعظمها، واستمر في العمل فترة طويلة جدًّا من الزمان، حيث بقي يستقبل المرضى حتى سنة ١٣١٧ هـ (١٨٩٩م) أي قرابة ثمانمائة سنة!!

كذلك من أعظم المستشفيات في تاريخ الإسلام: **المستشفى المنصوري الكبير**، الذي أنشأه **الملك المنصور سيف الدين قلاوون** -رحمه الله- في القاهرة، وذلك سنة ٦٨٣ هـ وكان آية من آيات الدنيا في الدقة والنظام والنظافة، وكان من الضخامة بحيث إنه كان يعالج في اليوم الواحد أكثر من أربعة آلاف مريض!!

ولا ننسى في هذا المضمار **مستشفى مراكش**، والذي أنشأه **المنصور أبو يوسف يعقوب** -رحمه الله-، ملك دولة الموحدين بالمغرب، والذي حكم من ٥٨٠ هـ إلى ٥٩٥ هـ، وكان بناء هذا المستشفى آية من آيات الإتقان والروعة! فقد غُرست فيه جميع أنواع الأشجار والزروع، بل كانت في داخله أربع بحيرات صناعية صغيرة!! وكان على مستوى عالٍ جدًّا من حيث

---

(١) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، ص١١٦، ١١٧.

الإمكانيات الطبية والأدوية الحديثة والأطباء المهرة[1].

لقد كان - بحق - درّة في جبين الأمة الإسلامية.

ليس هذا فقط، بل كانت هناك **المستشفيات المتخصصة**، التي لا تعالج إلا نوعًا معينًا من الأمراض: كمستشفيات العيون، ومستشفيات الجذام، ومستشفيات الأمراض العقلية، وغير ذلك.

وأعجب منه وأغرب: أنه كانت توجد في بعض المدن الإسلامية الكبرى أحياء طبية متكاملة؛ فقد حدَّث ابن جبير -رحمه الله- في رحلته التي قام بها في سنة ٥٨٠ هـ تقريبًا، أنه رأى في بغداد - عاصمة الخلافة العباسية - حيًّا كاملاً من أحيائها يشبه المدينة الصغيرة، يتوسطه قصر فخم جميل، تحيط به الحدائق والبيوت المتعددة، وكان كل ذلك وقفًا على المرضى، وكان يؤمه الأطباء من مختلف التخصصات، فضلاً عن الصيادلة وطلبة الطب، وكانت النفقة جارية عليهم من الدولة ومن الأوقاف التي يجعلها الأغنياء من الأمة لعلاج الفقراء وغيرهم[2].

منهج إسلامي فريد لدراسة الطب:

لم تأتِ تلك الإنجازات السابقة في مجالات الطب عند المسلمين بصورة عشوائية غير مدروسة، وإنما كان هناك منهج واضح قاد إلى هذا المستوى الراقي في البحث، وقاد إلى نتائج متميزة في هذا العلم المهم.

ولهذا المنهج الحضاري الراقي خصائص كثيرة، سنتعرف الآن على ثلاث منها قادت إلى هذا التميز الملموس:

الخاصية الأولى: الانفتاح على الغير:

كانت الحضارة الإسلامية منفتحة تمام الانفتاح في أمور العلوم الحياتية على غيرها من الحضارات، ولم يكن هناك أي حرج في أن يأخذ العلماء المسلمون من غير المسلمين، أو أن يعطي علماء المسلمين سواهم من غير المسلمين.

---

(١) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص١١٠-١١٨.

(٢) المصدر السابق ص١٠١.

فكان العلماء المسلمون ينظرون إلى العلوم الحياتية كميراث إنساني عام تستفيد فيه كل أمة من تجارب الأمم الأخرى، ولم يكن الطب بمنأى عن هذه النظرة، بل كان من أهم العلوم التي اعتنى المسلمون فيها بالجمع والتطوير والابتكار؛ لأنه من أهم العلوم الإنسانية، بل إن كثيرًا من علماء المسلمين يعدون الطب هو أشرف العلوم الإنسانية بعد العلوم الشرعية؛ وذلك لحاجة الناس إليه، ولكونه يحفظ الروح، والعقل، والجسد، ومن ثم يحفظ الإنسان لأداء مهامه الشرعية والحياتية في الدنيا.

ولذلك نجد أن الطب من أوائل العلوم التي اهتم علماء المسلمين بالبحث فيها، عن طريق ترجمة أعمال السابقين من الأطباء من الحضارات المختلفة، وكانت أولى هذه المحاولات على يد **خالد بن يزيد الأموي** (ت ٨٥هـ) والذي اهتم بالطب والكيمياء، وبدأ يترجم الكتب اليونانية، وخاصة ما كان موجودًا منها في مكتبة الإسكندرية بمصر[١].

وفي عهد الخلافة العباسية تزايدت حركة الترجمة بشكل ملحوظ، وخاصة في عهد **هارون الرشيد** -رحمه الله-، ثم ابنه **المأمون** من بعده، وانفتح أطباء المسلمين انفتاحًا غير مسبوق على كل العلوم الطبية من مختلف الحضارات؛ فترجمت المؤلفات اليونانية والفارسية والهندية والرومانية والسريانية في الطب، واطّلع المسلمون على كمٍّ هائل من التجارب، وبخاصة التجارب اليونانية القديمة[٢].

ولا نبالغ إذا ذكرنا أن الذي عرَّف الأوروبيين بتاريخ أجدادهم اليونان هم المسلمون؛ لأن كتب الأطباء اليونانيين والرومانيين كانت مهمَلة في الأديرة والكنائس وبعض القصور والمكتبات، فأخذت تلمع في سماء الدنيا أسماء لأطباء يونانيين لم تكن معروفة قبل ذلك، مثل: **أبقراط، وجالينوس**، وغيرهما.

ومن المهم هنا أن نلفت الأنظار إلى ثلاث نقاط مهمة في هذه الخاصية (خاصية الانفتاح على الغير):

النقطة الأولى: أن الأطباء المسلمين كانوا من الأمانة والنزاهة بحيث إنهم دائمًا كانوا ينسبون الفضل لأهله، وما ادَّعى طبيب مسلم اكتشافًا طبيًّا أو سبقًا علميًّا نقله من عالم من

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ٦٠.

(٢) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، ص١٢٢.

الحضارات الأخرى، بل امتلأت كتب الأطباء المسلمين بأسماء العلماء الذين نقلوا عنهم، وأعطوهم التقدير الكافي والتبجيل الواضح.

ولك أن تستمع إلى كلام العلامة الإسلامي الطبيب المشهور أبي بكر الرازي صاحب كتاب الحاوي (من أعظم الكتب في تاريخ الطب) وهو يقول: «... ولقد جمعت في كتابي هذا جملاً وعيونًا من صناعة الطب مما استخرجته من كتب (أبقراط) و(جالينوس) و(أرماسوس)... ومن دونهم من قدماء فلاسفة الأطباء، ومن بعدهم من المحدثين في أحكام الطب مثل (بولس) و(آهرون) و(حنين بن إسحاق) و(يحيى بن ماسويه)... وغيرهم»[1].

هذه الأمانة العلمية المشرِّفة كانت بالفعل من أعظم مناقب علماء المسلمين، وبخاصة أن المعاصرين من أبناء الأمم الأخرى لم يكونوا يعرفون تاريخ أجدادهم، وبالتالي فقد كان من السهل جدًّا أن تُسرق أبحاثهم، لولا البعد الأخلاقي العميق عند علماء المسلمين.

أما النقطة الثانية فهي: أن أطباء المسلمين لم يقفوا أبدًا عند حد النقل والترجمة، وإنما أخذوا تدريجيًّا في تطوير ما نقلوه، ثم وصلوا إلى مرحلة الابتكار والتأليف، بل تناولوا ما نقلوه بالنقد والتحليل، ولم يكن هناك أدنى تردد في تناول نظريات مشاهير الأطباء القدماء بالتعليق والإضافة والحذف، وأحيانًا بالاعتراض الكامل على المحتوى، وذلك مثل ما فعله **ابن النفيس** -رحمه الله-، عندما رفض نظرية جالينوس كليةً في اتجاه سير الدم من القلب، وقاده هذا الاعتراض إلى اكتشاف الدورة الدموية الصغرى، فكان ذلك سبقًا علميًّا هائلاً[2].

لقد كان الأطباء المسلمون علماء بحق، وكانوا يتميزون بعقليات مفكرة، وطاقات جبارة مما يسّر لهم قيادة البشرية لعدة قرون في هذا المجال المهم من مجالات العلوم.

والنقطة الثالثة هي: أن الأطباء المسلمين لم يجعلوا الطب حكرًا عليهم، حتى في زمان قوة دولتهم بل فتحوا الباب لكل العلماء المعاصرين من الديانات الأخرى؛ ليدلوا بدلوهم، وليسهموا بإنجازاتهم في سبيل تقدم هذا العلم المهم؛ علم الطب.

فقد ظهرت أسماء نصرانية ويهودية مؤثرة في علم الطب مثل **قسطا بن لوقا البعلبكي**،

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١/ ٧٠.

(٢) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١٤٧، ١٤٨.

وأبي النصر المسيحي، وهبة الله بن جميع الإسرائيلي، وغيرهم وغيرهم... لدرجة أنه كان هناك عائلاتٌ نصرانيةٌ كاملةٌ انصبَّ اهتمامها الأساسي على علم الطب؛ ولذلك تراها وقد برعت فيه وتبوأت مكانة مرموقة في الدولة الإسلامية، وذلك مثل عائلة آل بختيشوع النصرانية، والتي ظلت تحترف الطب لثلاثة قرون كاملة، وكان لها مكانة عظيمة عند خلفاء بني العباس، وكان من أشهر علمائهم جبرائيل بن بختيشوع، الطبيب الخاص لجعفر البرمكي (أحد كبار رجال الدولة في عهد هارون الرشيد -رحمه الله-)[1].

وتكفي الإشارة إلى أمر يدل على مدى التسامح الذي كان عند قادة المسلمين، ومدى الاقتناع عندهم بقبول الآخر، وهو أن الناصر صلاح الدين الأيوبي -رحمه الله- عندما دخل مصر، كان بصحبته ثمانية عشر طبيبًا، من بينهم ثمانية مسلمون وخمسة يهود وأربعة من النصارى، وسامري واحد!!

وهكذا وشت الحضارة الإسلامية علم الطب - بكل تخصصاته وفروعه - بكل نافع ومفيد، واستطاعت أن تضيف المزيد إليه، وتترك بصماتها الواضحة عليه، بما يفيد المسلمين والبشرية جمعاء، فأثْرت الحضارة الإنسانية بصفة عامة في هذا الجانب، واستطاعت أن تكمل مسيرتها فيه من بعدما ارتكزت على السابقين.

وهذا ما يجب أن يكون عليه تعامل المسلمين مع العلوم الحياتية الآن بصفة عامة.

الخاصية الثانية: الاعتماد على التجريب والتطبيقات الواقعية:

كانت الخاصية الثانية التي ميزت المنهج الحضاري عند المسلمين في دراسة الطب هي اعتمادهم على التجربة والمشاهدة والفروض؛ بمعنى أنه لم يكن منهجًا فلسفيًّا نظريًّا بحتًا، وإنما اعتمد - وبشكل رئيسي - على التجارب العملية والتطبيقات الواقعية، وهذا يميزه كثيرًا عن المناهج الطبيعية اليونانية، والتي كانت في أغلبها فلسفات نظرية، لا تطبيق لها في الكثير من الأحايين، حتى وإن كانت صحيحة!

فقد اعتمد الأطباء المسلمون المنهج التجريبي في علم الطب، وكانوا يقومون في ذلك بتجربة طرق مختلفة ومتعددة للعلاج، وملاحظة الفروق بين هذه الطرق، وتسجيل ذلك بعناية ودقة.

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢/ ١٤، ١٥.

واهتم الأطباء المسلمون بتسجيل الملاحظات اهتمامًا بالغًا؛ فكانوا يدوّنون ما يشاهدونه في الحالات المرضية المختلفة، كما اهتموا بمحاولة تبرير هذه الملاحظات بما يستطيعون، أو محاولة ابتكار العلاج المناسب لكل حالة، وبذلك حدث المزج الرائع بين العلوم النظرية والعلوم العملية، واستفادت البشرية من جهود العلماء السابقين واللاحقين.

يقول ابن سينا العلامة الإسلامي المتميز: «تعهدت المرضى؛ فانفتح عليَّ من أبواب العلاجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف..»[1].

ويمتعنا الرازي -رحمه الله- في هذا المجال بكلام في غاية النفاسة والفائدة، حيث يقول: «عندما تكون الواقعة التي تواجهنا متعارضة مع النظرية السائدة، يجب قبول الواقعة، حتى وإن أخذ الجميع بالنظرية السائدة تأييدًا لمشاهير العلماء...»[2].

فهو يقرِّر أن الجميع قد ينبهر بآراء العلماء المشهورين الكبار، ويتوقف عند نظرياتهم، إلا أن التجربة أحيانًا ما تتعارض مع النظرية، فهنا يجب علينا رفض النظرية - وإن كانت لمشاهير العلماء - وقبول التجربة والواقعة، والبدء في تحليلها والاستفادة منها.

وانطلاقًا من هذا المنهج العظيم، وهو منهج الاعتماد على التجربة والملاحظة وافتراض الفروض، ومحاولة تطبيقها، لم يقبل الأطباء المسلمون بالأجهزة والأدوات القديمة التي استخدمها قدماء الأطباء اليونانيين والفارسيين، بل بدءوا يفكرون في أدوات جديدة، وابتكروا أنواعًا عدة، وجربوها، فما أثبت كفاءته منها استخدموه وطوّروه، حتى وضعوا بذلك أسسًا علمية لكثير من أدوات الجراحة والولادة وعلاج الأسنان، وعلاج كسور العظام، وصلت أحيانًا إلى حد الإبهار، وبخاصة إذا نظرنا إلى التوقيت المبكر الذي ظهرت فيه هذه الآلات، وإلى خلو العالم في ذلك الوقت من أي منافس في هذا المجال.

وليس أدل على ذلك من إنتاج الجرَّاح الإسلامي الفذ **أبي القاسم الزهراوي** الذي أبهر العالم - ولعدة قرون - بأدواته الجراحية التي ابتكرها واستعملها بنفسه، وسجلها في كتابه الرائع (التصريف لمن عجز عن التأليف)، وأصبحت هذه الآلات العبقرية هي النواة التي طُوِّرَتْ بعد ذلك بقرون لتصبح الأدوات الجراحية الحديثة.

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ٧٣. (٢) المصدر نفسه ١/ ٧٧، ٧٨.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الزهراوي هو أول من ابتكر الآلة التي تستخدم في الحقن (الحقنة)، وكان يسميها (الزراقة)، ولا يخفى على لبيب إلى أي حد كانت الإضافة التي قدمتها تلك الآلة البسيطة في تركيبها، العبقرية في فكرتها، بالغة النفع، في علاج المرضى[1].

الخاصية الثالثة: الاهتمام بالضوابط الشرعية في العلاج:

وهذه هي الخاصية الثالثة الفريدة التي ميزت المنهج الإسلامي في دراسة الطب عن غيره من المناهج؛ فكل مناهج الأرض في شتى العلوم تفكر وتبتكر وتنفذ دون ضابط شرعي، أو دليل إلهي على صحة أو بطلان عمل من الأعمال، لكن الطب الإسلامي تميز بأنه كان يستمد أصولاً ثوابت من القرآن والسنة ميّزته عن شتى المناهج الأخرى.

وليس معنى هذا أن القرآن والسنة وضعا التفاصيل الدقيقة لعلاج الأمراض؛ فلا نعالج مرضًا إلا بدليل! ولكن معناه أن هناك أطرًا عامة، وحدودًا خاصة وضعها الإسلام لتكون هاديًا للأطباء المسلمين، ولكافة العلماء وعموم الناس لكي ينجحوا في الوصول إلى الحق وإلى الخير والصلاح في كل فروع الحياة، ومن هذا المنطلق نفهم قوله ﷻ: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

فكان الأطباء المسلمون - على سبيل المثال - يحترمون القاعدة الشرعية الأصيلة التي رواها أبو الدرداء ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ، وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً، فَتَدَاوَوْا وَلاَ تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ»[2]. ومن هنا لم يكن مقبولاً أبدًا عندهم أن يعالجوا مرضًا بخمرٍ أو نجاسة، أو بفعل منكر؛ فقد أغلق لهم هذا الحديث الشريف أبوابًا كثيرة من الشر؛ لأن الله ﷻ يعلم ما يُصلح عباده وما يُفسدهم.

ومثال ذلك أيضًا أن الأطباء المسلمين لم ينساقوا وراء ما كان شائعًا في زمانهم من أمور العلاج بالدجل والشعوذة، وإنما استخدموا الأسلوب العلمي الراقي في علاج الأمراض، وقادهم هذا إلى اكتشاف الكثير من الأمراض النفسية، ومعرفة طرق علاجها.

كذلك لم يستخدم المسلمون الكي في العلاج؛ لأن الرسول ﷺ نهى عن ذلك، فقد روى

---

(١) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١٧٦.

(٢) أبو داود: كتاب في الطب، باب في الأدوية المكروهة (٣٨٧٤)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٩٤٦٥).

ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «... وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ»[1]. وبذلك أغلق الأطباء المسلمون هذه الصفحة من طرق العلاج، والتي أثبت الطب الحديث بعد ذلك أنها مجرد تسكين مؤقت، ليس له فائدة حقيقية!!

وإذا كان من مثال رابع، فهو عدم استخدامهم السحر في العلاج، مع إدراكهم أنه علم له أصول، ولكنهم علموا أنه منهيٌّ عنه شرعًا، بل إنه من الكبائر ومن الموبقات السبع، كما روى أبو هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْـمُوبِقَاتِ... وذكر منها: السِّحْرُ»[2].

وكان لاهتمام الأطباء المسلمين بالقرآن والسنة السبيل لإرشادهم إلى كثير من وسائل العلاج التي أثبت الطب الحديث كفاءتها، بل وإعجازها، وذلك مثل الاستشفاء بعسل النحل، وحبة البركة، والحجامة، وغير ذلك من أنواع العلاج التي حفِلت بها كتب السنة النبوية.

فهذه خصائص عظيمة وفريدة ميزت المنهج الإسلامي في دراسة الطب عن غيره من المناهج، ومكنته من وضع أصول راسخة لهذا العلم العظيم، ويسرت لعلمائنا الأفذاذ أن يقودوا البشرية كلها لعدة قرون.

البعد الإنساني للطب عند المسلمين:

نريد بعد ما سبق أن نلفت النظر إلى بُعدٍ رائع آخر تميز به الأداء الطبي عند المسلمين في زمن حضارتهم، ذلك، هو البعد الإنساني والذي يكمن في احترام الإنسان بصفة عامة، والسعي الحثيث لرفع المعاناة والألم والحرج عنه، أيًّا كان هذا الإنسان وأيًّا كانت معاناته.

ولم يكن غريبًا على أطباء المسلمين أن يهتموا بالبعد الإنساني في تعاملهم مع المريض؛ لأن قوانين التشريع الإسلامي تنطق بهذا النهج الأخلاقي الفريد، فالإسلام ينظر إلى المريض على أنه إنسان في أزمة، ومن ثم يحتاج إلى من يقف إلى جواره، ويأخذ بيده، ويرفع من معنوياته، ويهدّئ من روعه، ويخفف عن آلامه الجسدية، فضلاً عن المعنوية.

فالتشريع الإسلامي يسعى إلى رفع الحرج عن المريض بكل وسيلة، ويخفف عنه الأعباء إلى أقصى درجة، فجعل للمريض رخصة الإفطار في رمضان، وإن عاقه اعتلال صحته عن

---

(١) البخاري: كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث (٥٣٥٦)، وابن ماجه (٣٤٩١)، وأحمد (٢٢٠٨).

(٢) البخاري: كتاب الوصايا، باب في قوله تعالى «إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما» (٢٦١٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩)، وأبو داود (٢٨٧٤)، والنسائي (٦٣٧١)، وابن حبان (٥٥٦١).

الحج فلا حج عليه، وليس عليه إثم. كما أن المريض الذي لا يستطيع الصلاة على صورتها الطبيعية يُعطى رخصة الصلاة في أوضاع تناسبه جالسًا أو نائمًا أو حتى بعينيه! والمريض الذي يضره الماء في الوضوء يتيمم، والذي لا يستطيع الوضوء ولا التيمم لسبب أو آخر يصلي دون أي منهما، ويسمى فاقد الطهورين!!

حتى في أوقات الجهاد في سبيل الله، رفع التشريع الإسلامي الحرج عن المريض، فلا يجاهد ولا إثم عليه، يقول ﷻ: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١].

بل إن التشريع الإسلامي لم يكتفِ برفع بعض التكليفات، والترخيص في بعض العبادات والفروض، وإنما يحض وبشدة على الوقوف إلى جوار المريض، ورفع روحه المعنوية إلى أقصى درجة؛ فجعل رسول الله ﷺ زيارة المريض وعيادته في بيته أو في المستشفى حقًا له على المسلمين، فقال فيما رواه أبو هريرة ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ.. وذكر منها: «وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ»[1]. وجعل الجنة نصيبًا لمن عاد مريضًا، فقال فيما رواه أبو هريرة ﷺ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا نَادَى مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الجَنَّةِ مَنْزِلاً»[2].

وأمر رسول الله ﷺ أن تذكر الخير عند المريض، وأن ترفع من روحه المعنوية، وتُطْمِعَهُ في الشفاء وفي طول العمر، فقد روى أبو سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا دَخَلْتُمْ عَلَى الْمَرِيضِ فَنَفِّسُوا لَهُ فِي الْأَجَلِ (أي ارفعوا من أمله في الشفاء وطول الأجل)؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَرُدُّ شَيْئًا، وَهُوَ يَطِيبُ بِنَفْسِ الْمَرِيضِ»[3].

بل إن رسول الله ﷺ يرتفع بروح المريض إلى السماء عندما يخبره أن هذا المرض هو كفارة لذنوبه، وهو مدعاة لنجاته في الآخرة إن صبر، فقد روى أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى

---

(١) مسلم: كتاب السلام، باب حق المسلم للمسلم رد السلام (٢١٦٢)، وأحمد (٨٨٣٢)، وابن حبان (٢٤٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٢٥).

(٢) ابن ماجه: كتاب الجنائز، باب ما جاء في ثواب من عاد مريضًا (١٤٤٣)، وقال الألباني: حسن (٦٣٨٧) صحيح الجامع.

(٣) الترمذي: كتاب الطب (٢٠٨٧) وقال: حديث غريب، وابن ماجه (١٤٣٨)، وابن أبي شيبة (١٠٨٥١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٢١٣)، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٠٨.

الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»[1]. ويقول فيما رواه أنس ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَالَ إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ (أي بعينيه) فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الجنَّةَ»[2]..

وهكذا ترتفع معنويات المريض المؤمن إلى السماء، ولا يشعر بأنه أصبح كمًّا عاجزًا مهملاً في المجتمع، بل إن الجميع يهتم به ويرعاه.

ولم تكن هذه النظرة الإسلامية الراقية للمرضى المسلمين فقط، بل كانت لأي إنسان مريض مهما كانت ديانته، وذلك انطلاقًا من الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] فالإنسان بصفة عامة مُكرَّم، ولذلك نهتم برعايته حين مرضه، وبعلاجه إذا اشتكى ولو لم يكن مسلمًا، وقد زار رسول الله ﷺ غلامًا يهوديًّا عندما مرض[3]، وأفرد البخاري لذلك بابًا خاصًّا في صحيحه فقال: «باب عيادة المشرك».

هذا البعد الإنساني العميق الذي زرعه فينا الشرع الإسلامي الحنيف جعل الأطباء المسلمين في كل عصور الحضارة الإسلامية يتعاملون مع المريض على أنه إنسان وليس على أنه «شيء لا إحساس له»، ولا على أساس أنه مصدر للرزق عن طريق أخذ الأجر منه، بل كان التعامل معه دائمًا على أنه إنسان في أزمة، ويحتاج إلى من يقف إلى جواره، وليست المساعدة طبية فقط، ولكن تتعدَّى ذلك إلى المساعدة النفسية والاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك.

وبهذه الروح النبيلة تعامل الأطباء المسلمون مع مرضاهم، فكانت الخدمة الطبية الراقية تقدم للمرضى في الدولة الإسلامية دون تفرقة بين غني أو فقير، ولا عربي أو غير عربي، ولا أبيض أو أسود، ولا حاكم أو محكوم، ولا مسلم أو غير مسلم.. ففي معظم الأحيان كان العلاج مجانيًّا للجميع.. وكان المرضى ينعمون بالمستوى نفسه من الخدمة أيًّا كان مستواهم.

ولنطلع معًا على طرف من نظام المستشفيات الإسلامية، والذي يعطي انطباعًا عن البعد الإنساني الذي نقصده.

---

(١) البخاري: كتاب المرضى، باب ما جاء في ثواب المرض (٥٣١٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٣).

(٢) البخاري: كتاب المرضى، باب فضل من ذهب بصره (٥٣٢٩)، والطبراني في الأوسط (٢٥٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٩٥٨).

(٣) انظر البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلَّى عليه؟ وهل يُعرَض على الصبي الإسلام؟ (١٢٩٠).

فبمجرد دخول المريض للمستشفى يُفحص أولاً بالقاعة الخارجية، فإن كان به مرض خفيف يُكتب له العلاج، ويُصرف من صيدلية المستشفى، وإن كانت حالته المرضية تستوجب دخوله المستشفى كان يُقيد اسمه، ويُدخل إلى الحمام للاغتسال، وتُخلع عنه ثيابه التي دخل بها فتوضع في مخزن خاص، ثم يعطى ثيابًا جديدة خاصة بالمستشفى، ويُدخل إلى القاعة المخصصة لأمثاله من المرضى، ويخصَّص له سرير مفروش بأثاث جيد، ولا يسمح بوجود مريض آخر معه في نفس السرير مراعاة لنفسيته..

وبعد دخول المريض للمستشفى الإسلامي يُعطى الدواء الذي يعيّنه الطبيب، كما يوصف له الغذاء الموافق لصحته، وبالمقدار المفروض له.. ولم يكن يضيق أبدًا على المرضى في نوع الطعام الذي يأكلونه، بل كان يقدم لهم أطايب الطعام، فقد كان غذاء المرضى يحتوي على لحوم الأغنام والأبقار والطيور والدجاج.. كذلك لا يضيق عليهم أبدًا في كميات الطعام، بل كانت من علامات الشفاء أن يأكل المريض رغيفًا كاملاً ودجاجة كاملة في الوجبة الواحدة!

فإذا أصبح المريض في دَور النقاهة أدخل القاعة المخصصة للناقهين، حتى إذا تم شفاؤه أُعطِيَ ثيابًا جديدة دون أجر، وليس هذا فقط بل كان يعطى مبلغًا من المال يكفيه إلى أن يصبح قادرًا على العمل! وذلك حتى لا يضطر إلى العمل في فترة النقاهة فتحدث له انتكاسة[1]!!

ولا تسلْ بعد عن مدى الطمأنينة التي ينعم بها الفقير في المجتمع الإسلامي عندما يعلم أنه إذا مَرِض فسيجد مثل هذا المستوى من الرعاية المجانية دون أن يحتاج إلى إراقة ماء وجهه أو البحث عن وساطات أو شفاعات لينال ما يستحق من الاهتمام والعلاج.. فضلاً عن مدّ يده متسولاً ليتم علاجه!!

وما أروع توجيه أبي بكر الرازي لتلاميذه أن يكون هدفهم الأول إبراء مرضاهم أكثر من نيل أجورهم منهم!! وأن يعالجوا الفقراء بمثل الاهتمام والعناية التي يعالجون بها الأمراء والأغنياء!! وأن يُوهموا المرضى بالشفاء حتى لو كانوا هم أنفسهم لا يعتقدون بذلك!! فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس[2].

(١) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص١١٠.

(٢) عبد المنعم صفو: تعليم الطب عند العرب، أبحاث الندوة العلمية للجمعية السورية لتاريخ العلوم، دار الجامعة (حلب، ١٩٨٠م) ص ٢٧٩.

ولم يكن هذا المستوى العالي من الرعاية الصحية مقصورًا على المدن والحواضر الكبرى بل حظيت كل بقاع الدولة الإسلامية بذات الاهتمام.. وذلك من خلال المستشفيات المتنقلة التي أشرنا إليها سابقًا.. والتي كانت تجوب القرى والنجوع والجبال والمناطق النائية بصفة عامة، والشاهد هنا أنه كان يُنظر إلى رعايا الدولة المسلمة - في مجال الرعاية الطبية - نظرة متساوية بغضّ النظر عن بيئاتهم ومستوياتهم الاجتماعية أو الاقتصادية.

بل إن النظرة الإسلامية الرحيمة للمريض تعدّت كل طبقات المجتمع السوية لتشمل نزلاء السجون ممن أساءوا لمجتمعهم! فهؤلاء أيضًا كانوا يجدون الرعاية الطبية الكافية؛ فهم بَشَرٌ ومن أبناء المجتمع على أي حال.. وما ينزل بهم من الحبس والعقاب إنما هو لإعادة إصلاحهم لا للقضاء عليهم بالموت البطيء الذي يتعرض له نزلاء كثير من السجون في عالم اليوم..

وقد كتب الوزير علي بن عيسى بن الجراح إلى سنان بن ثابت رئيس أطباء بغداد:

«.. فكرت في أمرِ مَن في الحبوس (السجون) وأنه لا يخلو مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض؛ فينبغي أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم كل يوم وتُحمل إليهم الأدوية والأشربة ويطوفون في سائر الحبوس.. ويعالجون فيها المرضى»[1]..

وما كان لهذا الفيض الإنساني أن يستمر على مر عصور الحضارة الإسلامية لولا ينابيع العطاء المتدفقة من قلوب أبناء الأمة المسلمة والموازية لدعم الدولة نفسها..

ونقصد هنا نظام الأوقاف الخيرية وما كان يقوم به من دور في حُسن رعاية المرضى وإكرامهم.. فقد كانت مستشفيات راقية بأكملها تعتمد على ريع وقف يرصده أحد المسلمين - بمن فيهم الحاكم نفسه - لتغطية كل احتياجات المستشفى بمرضاه وأطبائه ومفروشاته وأغذيته ونباتاته الطبية وأدويته.. إلى حد الإنفاق على طلاب الطب المتدربين في هذا المستشفى !!

ولعلَّ من أشهر الأمثلة على ذلك المستشفى المنصوري الكبير الذي أسسه في القاهرة الملك المنصور سيف الدين قلاوون سنة ٦٨٣ هجرية، وأوقف عليه ما يغطي نفقاته سنويًّا.. وقد سبقت الإشارة إليه آنفًا.

وفي صدد ذِكر الأوقاف الخيرية وأثرها في تغطية الجانب الإنساني في الطب عند المسلمين

---

(١) ابن القفطي: تاريخ الحكماء ص١٤٨.

لا بد أن نشير هنا إلى بعض الصور المبتكرة وغير المسبوقة في التعامل الإنساني مع نفسية المريض.

فقد كان رِيع بعض الأوقاف يُخصص لتوظيف اثنين يمرّان بالمستشفيات يوميًّا فيتحدثان بجانب المرضى حديثًا خافتًا يسمعه المريض دون أن يراهما.. يوحيان إليه من خلال حديثهما بتحسُّن حاله! فيما كان يُعرف «بوقف خداع المريض»!!.. وذلك لترتفع معنوياته، وبالتالي يتماثل للشفاء بصورة أسرع[1]!!

ولم يكن ذلك البعد الإنساني الراقي في التعامل مع المرضى سلوكًا فرديًّا يمارسه بعض الأطباء ولا كان مجرد حب شعبي للخير والرحمة ينبع من قلوب العامة.. بل كان سلوكًا عامًّا تتبناه سياسات الدولة وينتهجه أفراد الأمة حكامًا ومحكومين؛ فكثيرًا ما كان الخليفة أو الأمير يتفقد بنفسه المرضى ويشرف على حسن معاملتهم.. ويُذكر هنا أن المنصور الموحدي (ملك دولة الموحدين بالمغرب) كانت له زيارة أسبوعية للمستشفى (المنصوري) بمراكش بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع؛ يطمئن فيها بنفسه على أحوال المرضى[2].

ومن الجوانب الإنسانية في تعامل الطب الإسلامي مع المرضى ما اشتملت عليه شريعة الإسلام من آداب تحفظ كرامة المريض وتصون حياءه، وتضمن سير مراحل الفحص والعلاج دون انتهاك لخصوصياته؛ فلا يجوز - مثلاً - كشف عورة المريض إلا لضرورة وبالقدر المطلوب فقط في الفحص أو الجراحة وما إلى ذلك... كما لا يجوز أن يشهد فحص المريض أو المريضة شخص غير ذي صفة - وخاصة إذا كان من جنس مختلف - إلى جانب عدم جواز خلوة الطبيب بمريضة من النساء، إلا مع وجود ذي مَحْرم لها أو وجود امرأة أخرى كالممرضة مثلاً.. كذلك راعت المستشفيات في الحضارة الإسلامية الفصل في أقسامها الداخلية بين الرجال والنساء..

كذلك كان من الجوانب الإنسانية في تعامل الطب الإسلامي مع المرضى، أن راعى الشرع حقوق المريض في العلاج، بأن سمح للطبيب الرجل أن يعالج المرأة، والعكس كذلك، وذلك إن لم يوجد البديل الكفء من نفس الجنس، والذي يستطيع أن يقوم بالمهمة على الوجه الأكمل، وذلك حتى لا يفوت على المريض - رجلاً كان أو امرأة - فرصة العلاج الصحيح، بل إن الشرع أجاز كذلك أن يبحث المريض المسلم عن العلاج عند الأطباء غير المسلمين إن تعذر وجود من

---

(١) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص١١٢. (٢) المصدر السابق نفسه ص١١٦.

يستطيع علاجه من المسلمين، وذلك حفاظًا على صحة المريض وحياته..

كل هذه وغيرها ضوابط وآداب إسلامية تنقل مبدأ سماويًا - كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] - من حيز النظريات المجردة إلى التطبيق الواقعي؛ لترتقي حياة الإنسان عن أنماط أخرى للحياة عند سائر الكائنات.. وسبحان الذي أنزل شرعًا بهذا التكامل!!

الطب الوقائي في الإسلام:

اهتم المنهج الإسلامي منذ بداية نزوله بتوعية المسلمين بكل ما فيه الخير لدينهم ودنياهم؛ فأمرهم بالعلم وحض عليه، ورغبهم في استخدام هذا العلم في إصلاح كل جوانب الحياة..

ومن أهم هذه المجالات التي أبدع فيها المنهج الإسلامي مجال الوقاية من الأمراض؛ فقد ظهر فيه بجلاء حرص الإسلام ليس فقط على الأمة الإسلامية، ولكن على عموم الإنسانية.. فإن الأمراض إذا انتشرت في مجتمع فإنها لا تخصُّ دينًا دون دين ولا تختار عنصرًا دون عنصر، ولكنها تؤثر سلبًا على حياة العموم من الناس..

كيف أخذ الإسلام التدابير اللازمة، والإجراءات الدقيقة لمنع حدوث الأمراض أصلاً؟ وإن حدثت فكيف يمكن أن تُمنع من الانتشار؟!

لقد جاء الإسلام بمنهج معجز، فيه سلامة الجسد والنفس والمجتمع.. وكيف لا يكون معجزًا وقد جاء من عند رب العالمين؟!

ففي الوقت الذي كانت القذارة في كل شيء سمة مميزة لحياة الأوروبيين، حتى وصل الأمر إلى اعتبار أن الأوساخ التي تعلق بالجسم والملبس هي من البركة، ومن الأشياء التي تعطي القوة للأبدان!! حتى وصل الأمر إلى أن الإنسان كان لا يغتسل في العام كله إلا مرة أو مرتين[1]!!.. في هذا الوقت نزل المنهج الإسلامي في عمق الصحراء وبعيدًا عن حياة المدن والحضارات العملاقة.. يُرشد الناس إلى **الطهارة** ووجوب الغسل وإلى استحبابه..

فالغسل واجب عند الجنابة وعند الحيض وفي الحج وغير ذلك.. وهو مستحب في العيدين والإحرام وغيرهما، واختلف العلماء في وجوبه أو استحبابه يوم الجمعة، والغالب أنه مستحب.. قال رسول الله ﷺ كما روى أبو سعيد الخدري ؓ: «غُسْلُ يَوْمِ الجُمُعَةِ عَلَى كُلِّ

---

(١) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٥٤.

مُحْتَلِمٍ، وَسِوَاكٌ، وَيَمَسُّ مِنَ الطِّيبِ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ»[1]..

بل إنه حدَّد للمسلم فترة زمنية قصوى للفارق بين الغسلين، فقال ﷺ: «حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ يَوْمًا، يَغْسِلُ فِيهِ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ»[2]..

ووصل بعض الفقهاء بأنواع الغسل المختلفة إلى سبعة عشر نوعًا من الغسل للدلالة على أهميته.. ودعا الإسلام إلى طهارة الأعضاء المختلفة من الجسم، واهتم بالأعضاء التي تكثر فيها الأمراض أو يحتمل فيها حدوث الوسخ.. ففي طهارة الفم قال ﷺ: «لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ وُضُوءٍ»[3].. وقال ابن عباس ﷺ: «لقد كُنَّا نُؤْمَر بالسواك، حتى ظننَّا أن سينزل به قرآن»[4]..

ودعا رسول الله ﷺ إلى طهارة ونظافة الأماكن التي يُتَوَقَّع فيها العرق والأوساخ والميكروبات، بل جعل ذلك من سنن الفطرة.. فقد قال رسول الله ﷺ: «خَمْسٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: الْخِتَانُ، وَالِاسْتِحْدَادُ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَنَتْفُ الْإِبِطِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ»[5]..

ولك أن تتخيل مدى رقي هذا الدين الذي يأمر بهذه الآداب في هذا العمق من التاريخ، وفي هذا المكان في الصحراء، وفي هذه الظروف الصعبة التي نشأ فيها الإسلام..

وقد أمر رسول الله ﷺ أيضًا بالتنزُّه من قذارة البول والغائط، وشدَّد في ذلك حتى إنه مر على قبرين؛ فقال لأصحابه يحدثهم عن صاحبي هذين القبرين وذلك كما روى ابن عباس ﷺ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»[6]..

---

(١) البخاري: كتاب الجمعة، باب الطيب للجمعة (٨٤٠)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب الطيب والسواك يوم الجمعة (٨٤٦)، وأبو داود (٣٤٤)، والنسائي (١٣٧٥).

(٢) البخاري: كتاب الجمعة، باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم (٨٥٦)، ومسلم: كتاب الجمعة باب الطيب والسواك يوم الجمعة (٨٤٩)، وابن حبان (١٢٣٤) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) البخاري: كتاب الجمعة، باب السواك يوم الجمعة (٨٤٧)، وأحمد (٧٨٤٠) عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) ابن أبي شيبة (١٧٩٣).

(٥) البخاري: كتاب اللباس، باب قص الشارب (٥٥٥٠)، ومسلم: كتاب الطهارة باب خصال الفطرة (٢٥٧)، وأبو داود (٤١٩٨)، والترمذي (٢٧٥٦)، والنسائي (١٠) عن أبي هريرة ﷺ.

(٦) البخاري: كتاب الوضوء، باب من الكبائر ألا يستتر من بوله (٢١٣)، ومسلم: كتاب الطهارة باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (٢٩٢)، وأبو داود (٢٠)، والترمذي (٧٠)، والنسائي (٣١).

وفي غير الطهارة، فقد حضَّ الرسول الحكيم ﷺ المسلمين على حماية أنفسهم من آثار الطعام الزائد عن الحاجة، وحذرهم من آثار التخمة.. فقال: «مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، حَسْبُ الْآدَمِيِّ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ غَلَبَتِ الآدَمِيَّ نَفْسُهُ فَثُلُثٌ لِلطَّعَامِ، وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ، وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ»[1]..

كما أمرهم بالحفاظ على نظافة الأطعمة والأشربة فقال ﷺ: «غَطُّوا الْإِنَاءَ وَأَوْكُوا السِّقَاءَ»[2].. وأوكوا بمعنى: سدُّوا فتحة الوعاء الذي به الشراب.

وقد ذهب التشريع الإسلامي إلى أبعد من ذلك، حين منع أتباعه من كل خبيث يؤدي إلى ضرر بالصحة الجسدية والنفسية ويضر كذلك بالمجتمع..

فحرَّم الإسلام الخمر وما يندرج في حكمها كالمخدرات.. قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ خَمْرٍ حَرَامٌ»[3]... وبذلك حمى المسلمين من الأضرار الصحية الخطيرة للخمور والمخدرات، كما حمى البشرية جميعًا من الآثار الضارة للمخمورين، سواءٌ نتيجة للحوادث أو للجريمة أو لغير ذلك من الآثار السيئة لغياب العقل..

والذي ذكرناه في الخمر ينطبق كذلك على تحريم الفواحش؛ فالإسلام حرم الزنا وكل العلاقات غير المشروعة.. وبذلك لم يحفظ فقط صحة المسلمين ونسلهم وأخلاقهم، بل كان لذلك مردود على المجتمع بكامله مسلمين وغير مسلمين..

ولا يخفى على أحد أن انتشار الأمراض الجنسية في البلاد الإسلامية أقل بكثير منه في البلاد غير الإسلامية، وما ذلك إلا لكون الإسلام يمنع هذه الموبقات..

وما أروع ما قاله ﷺ حين قال: «لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا»[4].. ولا يخفى على

---

(١) ابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل وكراهية الشبع (٣٣٤٩)، وابن حبان (٥٢٣٦)، والحاكم (٧٩٤٥)، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وقال الألباني: صحيح (٥٦٧٤) صحيح الجامع.

(٢) مسلم: كتاب الأشربة، باب الأمر بتغطية الإناء وإيكاء السقاء (٣٧٥٥).

(٣) البخاري: كتاب الوضوء، باب لا يجوز الوضوء بالنبيذ ولا المسكر (٢٣٩)، مسلم: كتاب الأشربة باب بيان أن كل مسكر خمر (٢٠٠٣)، وأبو داود (٣٦٧٩)، والترمذي (١٨٦١)، والنسائي (٥٥٨٥).

(٤) ابن ماجه: كتاب الفتن، باب العقوبات (٤٠٠٩)، البيهقي في شعب الإيمان (٣٣١٥)، وقال الألباني: صحيح (٢١٨٧) صحيح الترغيب والترهيب.

أحد أن أمراض الإيدز والإيبولا، وغيرها من الأمراض الجنسية القاتلة لم تكن معروفة قبل ذلك، ولم تظهر إلا بظهور الفاحشة في المجتمعات..

وحرَّم الإسلام أيضًا أكل الميتة؛ لما في ذلك من أضرار جسيمة بالصحة أثبتها الآن الطب الحديث..

ومما جعلني أشعر بالفخر الشديد وأنا في زيارة لأمريكا، أني وجدتهم يفتخرون بأنه إذا مات لهم طائر أو حيوان قبل الذبح فإنهم لا يأكلونه؛ لأنه يكون ضارًّا بالصحة، وهذا لم يكتشفوه إلا منذ أعوام قليلة، بينما أوروبا إلى الآن تأكل الميتة!! وهذا يجعل الأمريكان يفتخرون بمنهجهم الصحي على الأوروبيين!!

فقلت في نفسي وأمام الأمريكان وغيرهم: ما أروع ديننا الذي حرَّم علينا هذا الذي اكتشفتموه حديثًا، ولكنه حرَّم ذلك علينا منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام!!.. فسبحان الذي يعلم السر وأخفى!!..

ولا أشك - من هذا المنطلق - في أن السجائر حرام، وأن الذي يتناولها آثم، فالدين الذي حرَّم على أتباعه الخبائث لا يمكن أن يحل لهم شرب السجائر بكل ما فيها من خبث وضرر؛ فإنها لم تترك عضوًا من أعضاء الجسم إلا وألحقت به ضررًا خطيرًا.. فعودة إلى الإسلام أيها المسلمون!!

ولم يهتم الإسلام فقط بصحة الجسد بل اهتم كذلك بصحة النفس.. فأمر بذكر الله ﷻ وجعل ذلك اطمئنانًا للقلب؛ فقال ﷻ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وحض المسلمين على الرفق والرحمة، وحُسن الخُلق ولين الجانب وطيب الكلام وجعل في التبسم صدقة، وجعل في أدب المعاملات أجرًا، وشجع المسلمين على نسيان أخطاء الغير، وعلى العفو والمغفرة، وعظَّم لهم قيمة الرضا بما قسم الله ﷻ، وجعل لهم الجنة عوضًا عما أصابهم من مصائب إذا صبروا عليها..

ولا شك أن كل هذا يصب في تكوين صحة نفسية جيدة، ويسمو بالروح ويُطمْئِن القلب، ويرتفع بأخلاق المسلم وقيمه وأهدافه إلى درجات راقية لا يتخيلها غير المسلم، ولا شك أن معدل الأمراض النفسية من قلق واضطراب واكتئاب أعلى بكثير في بلاد الغرب منها في بلاد المسلمين، وليس أدل على ذلك من مراجعة نسب الانتحار هنا وهناك لتعلم قيمة الإسلام..

وانطلاقًا من حفاظ الإسلام على صحة الفرد والمجتمع، فإن الإسلام لم يحض فقط على الاهتمام بالجسد والنفس بل اهتم كذلك بما يُلبس من ثياب.. فالثياب النظيفة الجميلة تعود بالفائدة على صاحبها وعلى من يعيشون إلى جواره.. بل على من يراه وإن كان لا يعرفه..

ففي أول ما نزل من القرآن نجد قول الله ﷻ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]، وما أروع أن يكون اهتمام الإسلام من أول يوم نزل فيه للبشر بظاهرهم كما يهتم بباطنهم، فهو يقرن التوحيد بنظافة الإنسان فيقول: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ واللفظ يحتمل ظاهر المعنى، وإن كانت له تأويلات أخرى..

كما أنَّ التشريع الإسلامي عدَّ الثوب نجسًا بمجرد وصول شيء من النجاسة إليه، كالبول والغائط والدم، ولا تصح الصلاة فيه إلا أن تزول النجاسة، حتى لو كانت النجاسة قليلة.. قال أحمد بن حنبل -رحمه الله- عن الثوب الذي أصابه بول أو غائط: «يعيد الصلاة من قليله وكثيره»، أي من قليل النجاسة أو كثيرها[1]..

كذلك ينجس الماء إذا وقع فيه من النجاسة ما يُغير لونه أو طعمه أو رائحته[2].. وكل ذلك يهدف إلى عدم استعمال شيء وصل إليه قذر أو وسخ..

ولا يهتم المسلم فقط بنظافة نفسه وثيابه، بل يجب أن يهتم بنظافة البيئة التي حوله.. وهذا بحث يحتاج إلى كثير تفصيل، ليس هذا موضعه..

وإذا كان عطاء الإسلام فيما يَخصُّ الوقاية من الأمراض على هذا النحو من الرقي، فإنه لا يقف عاجزًا أمام الأمراض إذا حدثت.. فلا يكتفي فقط بالأمر بالتداوي، ولكن يحض - وبشدة - على منع انتشار الأمراض في المجتمع، فيما يُعرف بـ «الحَجر الصحي»..

وإنَّ المرء ليقف مبهورًا أمام عظمة التوجيه النبوي الذي يَحدُّ من انتشار الأمراض في المجتمع، حيث قال رسول الله ﷺ: «لا يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ»[3]؛ فهو بذلك يوضح لك أبسط وسائل الوقاية من الأمراض - وأنجحها في ذات الوقت - وهذا كله منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام!!

---

(١) انظر مسائل الإمام أحمد ص٤١. وهذا رأي غيره أيضًا من العلماء والفقهاء.

(٢) ابن قدامة: المغني ١/ ٥٢.

(٣) البخاري: كتاب الطب، باب لا هامة (٥٤٣٧)، ومسلم: كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صَفَر (٢٢٢١)، وعبد الرزاق (١٩٥٠٧) عن أبي هريرة ﷺ.

ثم هو يختار أمراضًا خطيرة بعينها - عُلِم الآن على وجه اليقين أنها تنتقل بالعدوى - ويحذر منها تحذيرًا بيّنًا ظاهرًا لا يحتمل التأويل؛ فتراه يقول - مثلاً - في أمر مرض الجُذام الخطير: «فِرَّ مِنَ المجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ»[1]..

ثم هو يضع أعظم قواعد الحجر الصحي بالنسبة للأوبئة الخطيرة كالطاعون فيقول: «إِذَا وَقَعَ الطَّاعُونُ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا»[2]..

وهذا هو قمة ما وصل إليه الطب الحديث في محاولة الحد من انتشار الأوبئة الخطيرة كالطاعون..

وأخيرًا.. فإن المنهج الإسلامي في الوقاية من الأمراض لكي يضمن الدقة في التطبيق، والحرص في أداء القواعد الصحية، فإنه يربط كل هذه القواعد برضا الله ﷻ، وبالزجر والمثوبة والجنة والنار؛ فليس الغرض فقط هو الحياة الدنيوية السعيدة - وإن كان هذا متحققًا إن شاء الله - ولكن الهدف أسمى من ذلك وأجلّ، وهو سعادة الآخرة..

فنجد مثلاً في تعظيم أمر السواك وطهارة الفم ونظافته أن الرسول ﷺ يقول: «السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ»[3].. فهو لا يحقق نظافة وصحة فقط بل يحقق أجرًا ومثوبة!!

ونجده ﷺ يقول في أمر الوضوء والغسل.. وذلك كما روى أبو مالك الأشعري ؓ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ»[4]، فجعل هذا الطهور وهذه النظافة نصف الإيمان..

ونجده يعطي أجرًا عظيمًا لمن ساهم في منع انتشار الطاعون، حتى يصل هذا الأجر إلى الشهادة في سبيل الله! فيقول لأُمِّ المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، عندما سألته عن الطاعون: «إِنَّهُ كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ، إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ»[5]..

---

(١) أحمد (٩٧٢٠)، وابن أبي شيبة (٢٤٥٤٣)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٣٥٥٠)، وقال الألباني: صحيح، السلسلة الصحيحة (٧٨٣) عن أبي هريرة ؓ.

(٢) مسلم: كتاب السلام، باب الطاعون والكهانة ونحوها (٢٢١٨)، وأحمد(٢١٨٧٦)، وابن حبان (٢٩١٢).

(٣) النسائي: كتاب الطهارة، باب الترغيب في السواك (٥)، وابن ماجه (٢٨٩)، وأحمد (٧)، والدارمي (٦٨٤)، وابن خزيمة (١٣٥)، وقال الألباني: صحيح(٣٦٩٥) صحيح الجامع، عن عائشة -رضي الله عنها-.

(٤) مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء (٢٢٣)، وأحمد (٢٢٩٥٣)، والدارمي (٦٥٣).

(٥) البخاري: كتاب الطب، باب أجر الصابرين في الطاعون (٥٤٠٢)، وأحمد (٢٤٤٠٣).

المبحث الثالث
علم الجغرافيا في الحضارة الإسلامية

مع أن المسلمين لم يكونوا أول من درس علم الجغرافيا إلا أنهم - بلا جدال - كانوا أول من أبدع فيه، وستتعرض في الصفحات القادمة - إن شاء الله - لحركة تطور علم الجغرافيا وإسهامات المسلمين فيه، كما ستتعرف أيضًا على بعض العلماء الأجلاء الذين أثْرَوا ذلك العلم بما لا يتخيل من إبداعات، وبخاصة عند النظر إلى الإمكانيات الضئيلة التي كانت متاحة لهم في أزمانهم..

وبداية؛ فإن كلمة (جغرافيا) يونانية الأصل، وهي تتكون من مقطعين هما: «جيو» (Geo) بمعنى: أرض.. و«غرافيا» (Grophia) وتعني: وصف.. ومن ثم جاء التعريف الاصطلاحي لعلم الجغرافيا معبرًا عن مقتضيات «وصف الأرض»؛ فهو: «علم يُتَعَرَّفُ منه أحوال الأقاليم (القارات) السبع، الواقعة في الربع المسكون من كرة الأرض، وعروض البلدان الواقعة فيها، وأطوالها وعدد مدنها وجبالها وبراريها وبحارها وأنهارها... إلى غير ذلك من أحوال الربع المعمور».

وكلمة «الجغرافيا» حديثة بعض الشيء في الاستخدام العربي؛ حيث كان العرب والمسلمون يستعملون بدلاً منها مصطلحات مثل: صورة الأرض، أو قطع الأرض، أو خريطة العالم والأقاليم، أو علم المسالك والممالك، أو علم تقويم البلدان أو علم الطرق[1]..

ولم يكن ظهور علم الجغرافيا لدى المسلمين وليد صدفة، وإنما كانت هناك عوامل وأسباب عدة أسهمت في ظهوره ونمائه، نذكر منها ما يلي:

١- **انتشار الإسلام:** فقد اقترن الفكر الجغرافي لدى المسلمين بانتشار الإسلام في أنحاء شتى من العالم القديم في قاراته الثلاث، وترتب على ذلك اختلاف خصائص البيئات التي سادها الدين الإسلامي؛ مما أوجد حاجة ماسة لمعرفة وجمع معلومات متخصصة عن تلك البيئات.

٢- **التدبر في خلق الله:** حيث جاء القرآن الكريم ببيان كثير من الظواهر التي أودعها الله في الأرض، قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ

---

(١) القنوجي: أبجد العلوم ٢/ ٢١٢، ٢١٣، وكشف الظنون ١/ ٥٩٠.

شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۞ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ۞ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٧] وهكذا..

ولقد تدبر رواد الجغرافيا المسلمون هذه النصوص المحفزة على النظر في عظمة خلق الأرض ومكوِّناتها؛ مما كان له أكبر الأثر في إثراء الدراسات الجغرافية في الحضارة الإسلامية.

٣- **المتطلبات الشرعية**: فقد اعتمدت جُل أركان الإسلام في أدائها على مواقيت زمنية ومكانية، وبما أن بقاع الأرض تختلف في مواقيتها الزمنية والمكانية فقد كانت هناك ضرورة لأن يهتم علماء كل ولاية إسلامية بتوضيح هذه الأمور لعامة الناس..

فالصلاة تقام في أوقات زمنية محددة؛ ولذلك وضع علماء المسلمين في كل قطر إسلامي حدودًا زمنية لإقامة الصلاة.. وما تزال الأدوات التي تقاس بها مواعيد الصلاة موجودة في بعض المساجد القديمة، وتسمى بالساعات الشمسية، وكان الاعتناء بذلك ناتجًا عن أن دخول الوقت شرط لإقامة الصلاة، كما أن الصلاة تستقبل فيها جهة محددة وهي الكعبة في مكة، ولذلك وجب معرفة الاتجاهات الجغرافية لتحدد قبلة الصلاة في كل مدينة أو قرية..

ولم تختلف الحال كثيرًا في الصيام الذي حُدد أداؤه بحدود شهرية وحدود يومية.. وكذلك ارتبط الحج والعمرة بمواقيت مكانية للإحرام وهي مختلفة في أبعادها من مكة حسب الجهات التي يأتي منها المسلمون لأداء الفريضة، وكان ضروريًّا معرفة تلك المواضع التي يتم إحرام الحجاج والمعتمرين منها حتى لا يترتب عند تجاوزها مخالفة شرعية تؤثر على صحة العبادة.. إلى جانب أن الحج يرتبط بميقات زمني محدد: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وهي التي تتركز حول شهر ذي الحجة؛ لأن الحج مرتبط بالوقوف بعرفة في يوم التاسع من شهر ذي الحجة، فمن فاته الوقوف بعرفة - كما هو معلوم - فقد فاته الحج، وهكذا..

٤- **تفسير ما ورد من نصوص شرعية**: فقد أسهمت بعض النصوص الشرعية التي وردت في السنة في تنشيط المعرفة الجغرافية في محاولة لتفسير تلك النصوص، من ذلك ما

رواه أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ وَيَفِيضَ حَتَّى يَخْرُجَ الرَّجُلُ بِزَكَاةِ مَالِهِ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ وَحَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا**»(1).. وقول الرسول ﷺ: «**لَا يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ**»(2)، وقوله كذلك: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب**»(3)..

فتلك النصوص وما شابهها أظهرت حاجة مُلِحَّة في بيان المقصود من ذلك؛ لتحقيق ما أمر به الرسول ﷺ، كما أوجدت وجهات نظر جغرافية في التحديد؛ فالنصوص السابقة مثلاً جعلت من تحديد جزيرة العرب محل اختلاف بين العلماء الجغرافيين، حتى إنه ورد فيه أربعة آراء، منها ما هو متسع كتحديد **ابن حوقل والإصطخري**، ومنها ما هو ضيق كتحديد **المقدسي والجيهاني**، وظهرت مصنفات مهمة مثل (صفة جزيرة العرب) **للهمداني**، و(بلاد العرب) **للحسن بن عبد الله الأصفهاني**.

٥- الدعوة إلى الله وتعليم أمور الدين: فبعد فتح البلاد الإسلامية أصبحت هناك حاجة ملحة لتعلم شرائع الدين، حيث قام عدد من التابعين بالسفر إلى البلاد المفتوحة لتعليم أبنائها أمور الدين والدعوة إليه، وفي الوقت نفسه قام أفراد من سكان تلك البلاد بطلب التعلم من المنابع التي ظهر فيها الإسلام سواءً في مكة أو المدينة؛ لما تتمتع به المدينتان من وجود كبار الصحابة والتابعين، وكانت تلك الرحلات الدعوية أو العلمية تستلزم المعرفة بالمسالك المؤدية للمناطق المقصودة، كما أن أساليب الدعوة في بيئةٍ ما لا يمكن أن تصلح في كل بيئة..

ومما أسهم في تيسير الاتصال الدعوي الموقع الجغرافي لموطن الرسالة، فقد أثبتت الدراسات الجغرافية الحضارية لمنطقة الشرق العربي أن موقعها الجغرافي كان وما يزال متوسطًا في العلاقات الإقليمية والعالمية، ولذا أسهم بدور الوساطة التجارية من جانب وبدور الدعوة والبلاغ من جانب آخر.

---

(١) البخاري: كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل الرد (١٣٤٦)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها (١٥٧) واللفظ له، وأحمد (٩٣٨٤).

(٢) الموطأ برواية يحيى الليثي: كتاب الجامع، باب في إجلاء اليهود عن المدينة (١٥٨٤)، وبرواية محمد بن الحسن (٨٧٣)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٨٥٣١).

(٣) أحمد (١٩٣٥)، والنسائي في سننه الكبرى (٥٨٥٤)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٦- **المتطلبات الإدارية والعسكرية:** نمت الدولة الإسلامية وبلغت حدودها من الصين شرقًا حتى الأندلس (إسبانيا) غربًا في غضون ثمانين سنة تقريبًا. وكان هذا النمو حصيلة فتوحات في ثلاث خلافات إسلامية (الخلافة الراشدة والخلافة الأموية، والخلافة العباسية). ويتطلب التوسع في الدولة مراعاة أمور ترتبط بهذا التوسع.. منها:

إدارة المناطق: فعندما أصبح الأمر في معظم أصقاع العالم القديم تحت إمرة الخلافة الإسلامية كان من الأولويات التي اهتُمَّ بها الكيفية التي تتم بها إدارة المناطق بما يتفق مع الإمكانات البيئية والخصائص الاجتماعية لكل قطر، وكان الأمر يتم بدراسة التقارير الوصفية (الجغرافية) الأولية من قِبل الفاتحين لتحديد الطريقة المثلى لإدارة تلك الأقطار. وتعد تلك التقارير بمثابة النواة الأولى لتطور اتجاهات الدراسات الإقليمية.

الالتزامات المالية: نظَّم الدين الإسلامي جمع المال عبر أبواب متعددة؛ فجمع الزكاة يتعين على الموسرين من المسلمين، ويُقدَّر الخراج حسب مقدار غلَّة الأرض، وهو ما يختلف باختلاف البيئات التي بسط الإسلام تعاليمه السَّمْحة عليها، بينما تُؤخَذ الجزيةُ من أهل الذمة الداخلين في حمى الولاية الإسلامية، ومثال ذلك ما قام به المقدسي من تحديد للأقليات غير المسلمة في إطار الممالك الإسلامية.

تلبية احتياجات المناطق من المتطلبات المهمة: تقترن عمليات توفير الاحتياجات للمناطق بالمعرفة الجغرافية التي تحدد الأولوية في تقديم المتطلبات لسكان الولايات الإسلامية؛ فمثلاً بناء الطرق وتسهيلها من المتطلبات العامة التي تكفلت بها الخلافة، ومما روي من الاهتمام بذلك ما أناط عمر بن الخطاب ﷺ به نفسه بقوله: «لو أن جملاً هلك ضياعًا بشط الفرات خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب»؟![1]

كما رغب معظم الخلفاء في معرفة الممالك التي أصبحت تحت إدارتهم، ومن ذلك ما قام به الخليفة عمر بن عبد العزيز ﷺ من الكتابة إلى واليه في الأندلس يطلب منه فيها موافاته بصفة الأندلس وأنهارها، وفي هذا بيان لأهمية الاتجاه الإقليمي للجغرافية في إدارة شئون

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٥٦٦.

الدولة، والتعرف على أحوالها والتخطيط لمستقبلها[1].

تحديد المناطق المثلى لإنشاء خطوط الدفاع عن الدولة الإسلامية: تميزت دولة الإسلام إبان نشأتها بالقوة والمنعة إلا أن ذلك لم يمنع من التفكير في الذود عن الأمة الإسلامية - التي يتربص بها أعداؤها حالة ضعفها، أو انشغال المسلمين عن الجهاد في سبيل الله - بإيجاد بعض النقاط التي تكون مراكز للدفاع عن الأراضي الإسلامية، وقد تم اختيار بعض المعابر الأرضية (الثغور) بين ممالك الإسلام والممالك غير المسلمة نصرانية كانت أم لا دينية؛ لتكون مصدات لهجوم الأعداء، وكان اختيار هذه المعابر يأتي عبر معرفة جغرافية دقيقة بطبوغرافية المكان..

كما ابتكر القادة نقاط إمداد عسكرية شبه ثابتة - في حالة الحاجة إلى استنفار أكبر عدد ممكن من المسلمين للجهاد أو صد هجوم المعتدين - ببناء المدن الحربية في مواضع مختلفة.. وما البصرة والكوفة والقيروان إلا نماذج للمدن الحربية؛ فقد اختير موقع مدينة كالقيروان بعناية من قِبل القائد المسلم عقبة بن نافع في الجزء الهامشي من المنطقة الرطبة، وعلى مقربة من المنطقة الجافة، وعند ملتقى طرق تتجه في جميع الاتجاهات مع اهتمام بوجود ينابيع مائية تكفل نمو المدينة، وفي هذا بيان لأهمية الموقع الجغرافي في الاتجاه العلمي للمتطلبات التي تحتاجها الدولة الإسلامية[2].

٧- الدوافع الاقتصادية: حقق التبادل التجاري تنشيطًا للمعرفة الجغرافية عند المسلمين قدر ما حققه انتشار الإسلام في أرجاء واسعة من العالم؛ فالتجارة هي الحرفة الرئيسية للمجتمعات العربية حيث ارتبطت مدن الصحراء بالمناطق الزراعية، وكوّن تجار المسلمين بعد انتشار الإسلام خلفية واسعة عن البلاد المحيطة بهم عبر علاقات تجارية، وجعلت التجارة المعطيات الجغرافية أعظم بكثير مما كانت لدى أسلافهم من الأمم الأخرى، ووضعتها تحت تصرفهم فوسعت أفق الجغرافيِّ؛ مما جعله يكتب عن مناطق لم يرها وإنما سمع عنها فقط من التجار، ولقد تعددت العلاقات التجارية التي كان من أبرزها تلك العلاقات مع الهند وجنوب شرق آسيا والصين وأفريقيا وأوروبا، ولهذا العامل تأثير في بناء أساسيات

---

(١) عبد الستار الشيخ: عمر بن عبد العزيز ص٢٧١.

(٢) محمود شيت خطاب: قادة الفتح في المغرب العربي ١/ ١٠٢،١٠٣.

الجغرافيا التجارية لدى العلماء المختصين.

كانت تلك هي أبرز الدوافع التي من أجلها اهتم المسلمون بعلم الجغرافيا، ومن الجدير بالذكر أن هذا الاهتمام كان على مستوى الخلفاء والعلماء على حد سواء؛ فبينما أنفق الخلفاء بسخاء على الحركة العلمية، وقاموا بإنشاء صروح علمية هائلة كبيت الحكمة في بغداد وعملوا على تنشيط حركة الترجمة للاستفادة من جهود الأمم السابقة... كرَّس العلماء حياتهم وفكرهم ووقتهم ومالهم لخدمة هذا العلم المهم، فظهر ما يعرف في التاريخ بالرحلات..

والرحلات هذه هي الأسفار الطويلة والقصيرة التي قام بها العلماء في كل أرجاء المعمورة لدراسة أحوال الأرض، وأدت بنجاح إلى تفوق الجغرافيا الوصفية، كما أسهمت في تطور الجغرافيا البلدانية (الإقليمية)، حيث كانت الرحلة هي المصدر العلمي لهذا النوع من الكتابات الجغرافية، وتمثل الرحلة الوجه المشرق للجغرافيا الإسلامية، ففي بطونها معين لا ينضب من المعلومات التاريخية والاقتصادية والأنثروبولوجية لمعظم مناطق العالم الإسلامي، وقد اعتمد كبار الجغرافيين المسلمين على الرحلة في جمع معلوماتهم، أو التأكد مما سمعوه أو نقلوه، فزاروا معظم البلدان التي كتبوا عنها، وألفوا كتبًا تحدثوا فيها عن رحلاتهم؛ عرف الناس من خلالها أجزاء كثيرة من العالم كانت مجهولة من قبل.

المسلمون وإنقاذ علم الجغرافيا:

لم يظهر علم الجغرافيا قديمًا كما هو اليوم، وهذا من طبائع كل العلوم؛ فلكل علم إرهاصات.. ثم تأتي البداية المشوشة التي يتداخل فيها مع غيره من العلوم.. إلى أن يأخذ بعد ذلك دوره في التشكل والتكوين، خاصة مع ظهور المتخصصين.

وفي معرض تناول انطلاق النهضة الجغرافية لدى المسلمين يجدر بنا في البداية ذكر الإسهامات التي سبقت الحضارة الإسلامية، والتي قدمها الرحَّالة الهنود أو علماء اليونان الذين استعان المسلمون بمجهوداتهم البحثية التي كانت شرارة لانطلاق ثورتهم الجغرافية المبدعة.

لقد كان اليونان - على سبيل المثال - يقطنون ضفاف بحر غنيّ بالملاجئ الطبيعية، فنشطوا من خلال تجارتهم وقربهم من البحر، وكان منهم المؤرخ «هيرودوت» الذي قام برحلات كبيرة في برقة ومصر وفينيقية وبلاد بابل، كما زار المستعمرات الإغريقية في ساحل

ـب الصغرى الشمالي، وجزر بحر إيجة وصقلية وجنوب إيطاليا.. ويعتبر كتاب «التاريخ» ـتي ألفه مختصرًا للمعارف الجغرافية لدى الإغريق في أواسط القرن الخامس (ق. م)..

كما قدَّمت مؤلفات «بطليموس» و«مارينوس» البدايات للمسلمين؛ حيث اعتمد ـسلمون في القرن (الثالث الهجري - التاسع الميلادي) لإرساء قواعد علمهم الجغرافي على ـتب «الجغرافيا» لبطليموس، وكان اعتمادهم عليه أساسيًّا.. إلى جانب كتاب «مارينوس ـصوري» الذي يأتي في درجة تالية من الأهمية[1]..

وكانت تلك المؤلفات القديمة وصفية اهتم فيها هؤلاء العلماء بحساب درجات الطول ـلعرض، وأسَّست لاستخدام الجغرافيا الرياضية في رسم الخرائط.

فقد حدَّد بطليموس في كتابه العالَمَ المعروف لدى الأقدمين؛ فكان يمتد من جزر ـخالدات (وهو الاسم العربي الذي كان يُطلق على جزر الكناري حاليًا في المحيط الأطلنطي) ـربًا إلى الصين شرقًا، أما حدوده الشمالية فكانت الجزر الواقعة شمالي بريطانيا، في حين لا ـتعدى حدوده الجنوبية منطقة السودان والبحيرات الكبرى، وكان كتاب بطليموس مزودًا بـ ٢٦ خريطة، كانت إحداها تمد البحر المتوسط بحوالي ٢٠ درجة شرقًا؛ مما أدى بالتالي إلى ـستطالة الأراضي بشكل مفرط باتجاه الشرق[2].

ولم تكن استفادة المسلمين في هذا المضمار من اليونانيين فقط، بل حرصوا على الاطلاع ـعلى كل الميراث الجغرافي لشعوب العالم..

فقد قام المصريون القدامى في عهد (سينفرو) فرعون مصر برحلات عديدة بغية ـلاستكشاف، كما أرسلت مصر البعثات لكشف حوض النيل وارتياد الصحراء الشرقية ـوالليبية وشبه جزيرة سيناء، وتيسيرًا لنقل التجارة من داخل البلاد إلى البحر الأحمر حُفِرَتْ ـقناة سيزوستريس بين النيل وذلك البحر[3].

أما الكريتيون فهم شعب بحري ضاعت معظم معالم تاريخه من الذاكرة، ويظهر أن

---

(١) محمد محمود محمدين: الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان ص١١٩، ١٢٠. دار الخريجي للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ.

(٢) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص٣٢، ٣٣.

(٣) انظر: شريف محمد شريف: تطور الفكر الجغرافي، علي عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافيا ص١٥-١٧.

نشاطهم في مضمار الملاحة كان سابقًا للفينيقيين.. وهم أقدم من ركب عرض البحر، ولم يتبق من تاريخهم سوى تجارتهم الواسعة مع مصر التي عَرفوا من خلالها سواحل الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط كما عرفوا غربًا سواحل صقلية وإيطاليا الجنوبية دون أن يتجشموا مخاطر الابتعاد أكثر من ذلك.

أما الفينيقيون فقد تمت أول حملة اكتشافية على أيديهم، وقد جهزها فرعون مصر «نيخاوس» الذي حكم في النصف الثاني من القرن السابع قبل الميلاد بالسفن والمؤن واستطاعت هذه الحملة عام (٦٦٥ ق.م) أن تدور حول أفريقيا، بعد أن انطلقت من البحر الأحمر، وعادت من طريق البحر الأبيض المتوسط.. وقد استغرقت هذه الرحلة مدة عامين.

وفي الفترة الواقعة قبل الميلاد بخمسة قرون قام القرطاجيون بإرسال القائد «صفون» لاكتشاف ساحل أفريقيا الغربية، فانطلق على رأس أسطول من ستين سفينة يركبها ثلاثمائة بحار بالإضافة إلى عدد من المهاجرين، وفي الوقت نفسه كان القائد «هيميلكون» يكتشف سواحل أوروبا الغربية ويتوغَّل في بحر الشمال.

كما اتسعت معارف الرومان الجغرافية؛ إذ إنهم توغلوا في الحبشة بعد دخولهم مصر. ووصلوا إلى مناطق المستنقعات الفسيحة في بحر الغزال، وقاموا ببعض الاستكشافات الجغرافية هناك، كما اكتشفوا جبل كينيا وجبل كليمنجارو أعلى قمم أفريقيا..

حتى جاء حين من الدهر أخذت فيه روح البحث العلمي في هذا المجال في الخمول حينما بدأ رجال الكنيسة من أمثال القديس «أمبرواز» (٣٣٠ - ٣٩٧م) يجهرون بأن دراسة الكون ووضع الأرض لن يفيد الإنسانية في تحقيق أملها في الحياة الآخرة..!!

وقد أدَّى ذلك إلى أن بدأ الكثيرون يعزفون عن الرغبة في المعرفة، ويعتبرون هذه الأمور ضربًا من السحر.. واستمر الحال هكذا في أوروبا حتى القرن الخامس عشر الميلادي؛ فقد عانى علماء مثل «كوبرنيكوس» (١٤٧٣ - ١٧٤٣) و«جاليليو» (١٥٦٤ - ١٦٤٢) - على نحو ما ذكرنا في الباب الأول - الكثير من المضايقات من رجال الكنيسة، والتي وصلت إلى حدِّ القتل والإحراق!![1]

(١) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص٢١ - ٣٣.

وحين جاء دور المسلمين، فإنهم لم يقفوا في تناولهم لعلم الجغرافيا موقف المطلع ـ مشاهد فقط لمؤلفات «بطليموس» أو «مارينوس الصوري» أو غيرهما.. وإنما تعاملوا مع الأمر بخطوات إيجابية، شأن الجغرافيا لديهم شأن باقي العلوم التي اطلعوا على إسهامات سابقين فيها، ومن ثم قدموا ما عندهم من إبداعات واختراعات..

وقد مرت الجغرافيا لدى المسلمين بالمراحل التالية:

١) ظهور الجغرافيا الأدبية:

كانت المحاولات الأولى في الجغرافيا عند المسلمين قد ظهرت بشكل متواضع جدًّا في مطلع القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي).. فقد تكوَّن بعدها بنصف قرن ما يُعرف بالجغرافيا الأدبية، وقبل القرن التاسع الميلادي لم تكن هناك مصنفات جغرافية قائمة بمعنى الكلمة، إنما كانت تظهر بين الحين والآخر معلومات جغرافية متفرقة ضمن كتب الأدب، حتى نشطت الترجمة واطلع المسلمون على أفكار «بطليموس» و«مارينوس الصوري»، وبدأت سلسلة الجغرافيا العلمية، التي سرعان ما تبعتها أنماط متعددة للجغرافيا الوصفية..

وفي أواخر القرن الثالث الهجري بدأ ما يُعرَف بالوجيزات الجغرافية في الظهور لمساعدة كتاب الدواوين، وكان من أهم ما يمثل ذلك الكتاب الذي تصدى لدراسة مشهد الأرض الطبيعي بشكل خاص ويحمل عنوان: «كتاب المسالك والممالك» لابن خرداذبة (ت٢٧٢هـ/ ٨٨٥م).. وتلا ذلك وجيزات جغرافية أخرى حتى أصبحت في متناول رجال الأدب ومن ثم عامة الناس، وكان منها: «كتاب البلدان» للجاحظ (١٥٩هـ/ ٢٥٥هـ)[1].

٢) ازدهار المؤلفات من النوع المبسط:

وكان التطور التالي في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، حيث بلغ الأدب الجغرافي ذروته وذلك على أثر ظهور مؤلفات من نوع (المسالك والممالك)، أي بظهور المدرسة التقليدية للجغرافيين العرب التي كانت على صلة وثيقة «بأطلس الإسلام» الذي يمثل قمة علم المصورات عند العرب، أو علم الخُرُط..

كما حظي التبسيط الجغرافي بترحيب الجمهور الذي أقبل عليه بشغف، وتعددت مناهج

---

١) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص٦٧ .

وصف الرحلات.. و يمكن القول إجمالاً: إن القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كان عصر تكامل الأنماط في المصنفات الجغرافية، حيث تعددت الأسفار الاستكشافية مما زاد من اتساع أفق الجغرافيين الوصفيين، وزادت مع ذلك معلوماتهم دقة ووضوحًا[(١)].

ففي عام (٣٠٩هـ/ ٩٢١م) أرسل خليفة بغداد «المقتدر» بعثة إلى **بلغار الفولغان**، وعهد إلى «ابن فضلان» بكتابة تقرير عن أخلاق شعوب تلك المنطقة.. وقد ظل هذا الكتيب حتى القرن الثاني عشر الميلادي أفضل مصدر وثائقي يملكه المسلمون عن الروس وعن سكان بحر الخزر (**قزوين**)[(٢)].

٣) التطور الختامي للأنماط الجغرافية:

وكان ذلك في نهاية القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) والقرون التالية، ففي هذه الفترة ظهرت المعاجم الجغرافية، والمؤلفات الكوزموغرافية التي تهتم بالكوزموغرافيا أو الجغرافيا الكونية، والمؤلفات الجغرافية العالمية، واحتلت الموسوعات التاريخية والجغرافية مكانة مهمة أيام المماليك في مصر.. وكذلك كثرت أقاصيص الرحالة الجغرافيين.

٤) الحقبة العثمانية:

وفيها بدأ الاحتكاك بالجغرافيا الأوروبية الحديثة والاكتشافات الجغرافية الكبرى.

٥) النهضة الجغرافية الحديثة:

وقد ابتدأت في مصر مع مطلع العصر الحديث، الذي اقترن برحيل الحملة الفرنسية وظهور أسرة **محمد علي**، فقد ظهرت عدة مؤلفات في الجغرافيا الرياضية والرحلات، ولا سيما في الشطر الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ومطلع القرن العشرين[(٣)].

لقد كانت رحلة علم الجغرافيا في الحضارة الإسلامية رحلة فريدة بكل المقاييس.. ابتدأت بإنقاذ ذلك العلم المهم من الاختناق بيد الكنيسة الأوروبية، والتي حرَّمت البحث فيه كما رأينا قبل قليل.. ثم لم تكتفِ بإنقاذه - وقد كان في طور طفولته - حتى تكفَّلت بتنميته،

---

(١) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص٥٩.

(٢) انظر مقدمة رحلة ابن فضلان.

(٣) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص٦٠.

يضخ دماء العافية العلمية في جسده من جديد..

وسنحاول فيما يلي - بإذن الله - الوقوف أمام بعض الإنجازات الإسلامية المبهرة في علم الجغرافيا.. بعد أن نتعرَّف على بعض معالم المناهج الإسلامية لدراسة الجغرافيا..

المناهج الإسلامية لدراسة الجغرافيا:

عرفت الدراسات الجغرافية عند المسلمين عدة مناهج، كان منها:

١- **المنهج الأدبي:** وقد كان ذا استقلالية فكرية، ويعتمد على الأسلوب الأدبي متأثرًا بروائع الشعر العربي أو المقالات النثرية.

وللمؤلَّفات التي اتخذت هذا المنهج - رغم قِلَّة عددها - قوة ورصانة علمية قلما تتوافر في غيرها من المؤلفات.. وقد كانت كتب أدب الرحلات من أوضح الأمثلة على هذا المنهج.

٢- **المنهج الرياضي:** وهو انعكاس للحاجة التي نمت حول القياسات الحسابية والطوالع التي بدأت عند العرب قبل الإسلام[1].

ولقد تطور المنهج الرياضي بعد ترجمة الكتب اليونانية ذات الصبغة الرياضية، مثل كتاب (المجسطي) لبطليموس، وأصبح لهذا المنهج كتب معروفة مثل: كتاب (القانون المسعودي) للبيروني (٣٦٢هـ - ٤٤٠هـ)، و(الزيج) **للصابئ للبتاني** (٢٤٤هـ - ٣١٧هـ)، وقد أعطى هذا المنهج للمصنفات الفلكية رصانة علمية؛ مما جعلها ذات مرجعية في الدراسات الحديثة، ويعد هذا المنهج أساسًا في تطور الاتجاه الرياضي (الفلكي).

٣- **المنهج الوصفي الإقليمي:** أصَّل جغرافيو المسلمين هذا المنهج وأبدعوا فيه، ووضعوا له الأطر العلمية، وجاء الإبداع في أدبيات هذا المنهج لأسباب عديدة، منها:

أ- الاتساع في كَمِّ المعلومات عن بقاع الأرض؛ مما جعل الاستفادة الفعلية منها لا تتحقق إلا في حالة وضع تصنيف لهذه المعلومات بشكل موضوعي.

ب- التجارب المتعاقبة حول الكتابة بمنهج إقليمي، والتي امتدت لأكثر من أربعة قرون، وكان من شأن ذلك الامتداد التجريبي أن حدث تطوير لهذا المنهج، وتم إدخال

---

(١) محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٥٥.

تعديلات في آليات الوصف.

ج - تعـدُّد المـدارس الإسـلامية في أسـلوب الكتابـة الإقليميـة بـما يعـرف بالمدرسـة البطليموسية، والمدرسة البلخية؛ مما أحدث تنافسًا بينهما في قبول الطرح الجغرافي عند المتلقين.

د - تبني العديد من المصنفين لهذا المنهج، فقد كان أكثر الكتاب يُخضعون مصنفاتهم للأسلوب الوصفي المدعم بالمشاهدات والتحقيقات الميدانية.

هـ - وجود فائدة علمية وعملية للمعلومات المدونة وفق هـذا المنهج؛ مما جعل أكثر الخلفاء والملوك يدعمون الاتجاه الإقليمي بتأليف عدد من المصنفات، فمثلاً قام «الشريف الإدريسي» (٤٩٣هـ - ٥٦٠هـ) بتأليف كتاب في تقويم البلدان لغليوم الأول (ملك هولندا) عنونه بـ «روضة الأنس ونزهة النفس».

وقد قام الجغرافيون الوصفيون والرحالة بوصف المدن بدقة، مركِّزين بذلك على تاريخها وأجوائها وأهم منتجاتها وتعاملاتها التجارية مع الآخرين، ومما جاء في ذلك:

أورد «ابن حوقل» (٢٩٤هـ - ٣٦٧هـ) في كتابه «صورة الأرض» وصفًا للمدن التي استعرضها في دراسته للأقاليم، وكان من تلك المدن مدينة (**الفسطاط**)، وقد وصفها بقوله: «**الفسطاط** مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد، ومقدارها نحو فرسخ على نهاية العمارة والخصب والطيبة واللذة، ذات رحاب في محالها وأسواق عظام ومتاجر فخام، وممالك جسام.. إلى ظاهر أنيق، وهواء رقيق، وبساتين نضرة، ومنتزهات على مرِّ الأيام خضرة... وفيها خمسة مساجد وحمامان وغير فرن لخبز عجين أهلها، ومعظم بنيانهم بالطوب، وأكثر سفل دورهم غير مسكون وبها مسجدان لصلاة الجمعة»[1].

ويتضح من وصف «**ابن حوقل**» السابق التركيز على تقدير مساحة **الفسطاط**، وإيراد بعض خصائص أسواقها، إلى جانب إبراز بعض المرافق والخدمات..

ومن الأمثلة المختصرة في وصف المدن ما ذكره في وصف مدينة (**الطائف**) التي مرَّ بها خلال رحلاته الطويلة التي استغرقت حوالي ثمانية وعشرين عامًا، حيث يقول: «والطائف

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص١٣٧،١٣٨.

ـينة صغيرة... كثيرة الشجر والثمر، وأكثر ثمارها الزيت، وهي طيبة الهـواء، وفواكـه مكـة يعُولها منها وهي على ظهر جبل غزوان، وبغزوان ديار بني سعد وسائر قبائل هذيل، ولـيس ـحجاز فيها علمته مكان أبرد من رأس هذا الجبل؛ ولذلك اعتدل هواء الطائف»[1]..

وهو بهذا الوصف يؤكد أثر الموضع الجغرافي على مناخ المدينة، كما أنه أعطى بيانًا لتوزيع لقبائل وارتباط استقرارها بالمدن.

كما أبدع «الشريف الإدريسي» (٤٩٣هـ - ٥٦٠هـ) في وصـف المـدن في كتابـه (نزهـة ـشتاق في اختراق الآفاق)؛ فهو يُولي اهتمامًا كبيرًا لدراسة المدن.. ومما ذكره في ذلـك وصـفه لمقيق لمدينة (قرطبة) بقوله: «ومدينة قرطبة قاعدة بلاد الأندلس وأم مدنها... وهي في ذاتهـا ـمنٌ خمس يتلو بعضها بعضًا، بين المدينة والمدينة سور حاجز.. وفي كل مدينة ما يكفيهـا مـن لأسواق والفنادق... ولا بلد أكبر اسمًا منها في بلاد الأندلس»[2].

ومن الكتابات التي احتلت منزلة مرموقة في المنهج الوصفي للدراسـات الجغرافيـة، مـا ورده «ابن بطوطة» (٧٠٣هـ - ٧٧٩هـ) الرحَّالة المسلم الأكثـر شـهرة، في كتابـه المعـروف ـسم (رحلة ابن بطوطة).. أو (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسـفار).. حيـث ـدع في وصف مشاهداته عبر رحلاته الطويلة.. وكـان ممـا قالـه في وصـف مدينـة (حمـاة): «حدى أمهات الشام الرفيعة، ومدائنها البديعة، ذات الحسن الرائق، والجمال الفـائق، تحـف ـه البساتين والجنات، عليها النـواعير كـالأفلاك الـدائرات، يشـقُّها النهـر العظـيم المسـمى ـعاصي، ولها ربض سمي بالمنصورة... فيها الأسواق الحافلة والحمامات الحسان»[3].

٤- **المنهج التعليلي**: وقد اتصفت دراسات «ابن خلدون» (٧٣٢هـ - ٨٠٨هـ) بهذا الـنمط، عى الرغم من وجود أعلام آخرين سبقوا ابن خلدون في هذا المضمار، ولكن ليس بالشمول والتطبيق نفسـهما؛ فمقدمة ابن خلدون الشهيرة لا تركز عـلى وصـف المـدن بالقـدر الـذي تحـاول فيـه تحديـد لعوامل المقترنة بظروف مواقعها ونموها وأحجامها، مع تحديد لتعريف المدينة.. وهي كما يلي:

ظروف الموقع: بلغ عدد المدن التي أنشأها المسلمون خارج الجزيرة العربية ما يزيـد عـلى

---

١) ابن حوقل: صورة الأرض ص٣٩.

٢) الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ٢/ ٥٧٤.

٣) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ص٢٨.

مائتي مدينة خلال حكم الخلفاء الراشدين وفي عهد الأمويين والعباسيين، ويعطي هذا الرقم -مع ما ذكر حول تحديد المناطق المثلى لإنشاء خطوط الدفاع عن الدولة الإسلامية، كأحد العوامل المرتبطة بالمتطلبات الإدارية والعسكرية - أهمية دراسة المواقع بشكل دقيق لتحديد المزايا التي يتمتع بها والعيوب التي ترتبط به.

ومن هذا المنطلق خصَّص «ابن خلدون» لهذا الأمر فصلاً فيما يجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن تلك المراعاة في جانبين:

أ - دفع المضارّ: ويكون ببناء أسوار للمدن، مع الحرص على الموضع الذي تحصل به المنعة الطبيعية، ويقول في هذا: «وأن يكون وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة؛ إما على هضبة متوعرة من الجبل وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها من العدو، ويتضاعف امتناعها وحصنها».

ومن القضايا التي أُخذت في دفع المضار السلامة من الأمراض بأن يكون الموقع طيب الهواء بعيدًا عن الراكد من الماء؛ لما قد يسببه ركود الماء من انتشار الآفات وما يصاحبه من تفشٍّ للأمراض. وقد أعطى «ابن خلدون» أمثلة لبعض المواضع السيئة التي لم تختر بعناية مثل: مدينة قابس بالمغرب[1].

ب - جلب المنافع: ويراعى فيها توافر الماء بأن تكون المدينة على نهر جار أو بالقرب من عيون عذبة، كما يشترط لمثالية الموقع طيب المرعى للسائمة وقربه لما يترتب على بعده من حصول المشقة، ويراعى أيضًا توافر المزارع التي يتحصل بها قوت الناس، ويرى في اختيار المدن الساحلية الحصانة الطبيعية والبشرية، فقد ذكر أن «مما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل أو تكون بين أمة من الأمم موفورة العدد... والسبب في ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران للقبائل ولا موضعها متوعر من الجبل كانت في غِـرَّةٍ للبيات (أي: مباغتة العدو) وسهل طروقها (غزوها) من الأساطيل البحرية»[2].

نمو المدن: يخضع نمو المدن إلى مقومات تدفع به إلى الأمام، أو إلى معوقات تحد منه.. ولقد أورد «ابن خلدون» في الفصل الرابع من الكتاب الأول أن المدن عند نشأتها يمكن أن

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ص٢٨٠.

(٢) المصدر السابق ص٢٨١.

تمو بتوجيه من الدولة رغبة منها في اجتماع الأيدي، وهو يقول في هذا الشأن: «فلا بد من تمصير الأمصار، واختطاط المدن من الدولة والملك.. ثم إذا بُنِيت المدينة وكمل تشييدها حسب نظر من شيدها، وبما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية فيها فعُمُرُ الدولة - حينئذٍ - عمرٌ لها، فإن كان عمر الدولة قصيرًا وقف الحال بها عند انتهاء الدولة، وتراجع عمرانها، وخربت، وإن كان أمد الدولة طويلاً ومدتها منفسحة، فلا تزال المصانع فيها تشاد، والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد، ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح إلى أن تتسع الخطة وتبعد المسافة، وينفسح ذراع المساحة كما هو واقع ببغداد وأمثالها»[1].

تصنيف المدن وتدرُّجها: أخذ المسلمون بمسألة اختلاف المدن في أحجامها، وهذا أوجد مصطلحات تختص بهذا الاختلاف فهناك البُلَيْدَة والبَلْدَة والبَلَد، وتم ربط أحجام المدن بالأسواق، فمثلاً أوضح «ابن خلدون» أنه متى ما كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل، وأن المصر كثير العمران يختص بالغلاء في أسعار حاجاته[2].

وبعد أن تعرَّفنا - من خلال الاستعراض الموجز السابق - على بعض ملامح المنهج الإسلامي لدراسة الجغرافيا.. ذلك المنهج الذي قاد إلى روائع من الإنجازات المبهرة التي غيَّرت مجرى النظر الجغرافي عبر تاريخ الإنسانية كله.. سنحاول في الصفحات القادمة - إن شاء الله - التوقف أمام بعض المعالم المبهرة لتلك الإنجازات الخالدة..

المسلمون وإثبات كروية الأرض:

بالرغم من أن «كروية الأرض» تُعدُّ الآن من الحقائق العلمية البديهية التي لا يشكُّ فيها أحد من الناس على اختلاف الأعمار والثقافات، حتى صار الصغار يدرسونها بالبراهين في مراحل تعليمهم المبكرة.. إلا أن هذه الحقيقة واجهت في عصور قديمة صعوبات بالغة حتى تستقر علميًّا في أذهان البشر..

وقد يأخذك العجب عندما تعلم أن هيئات دينية كبرى حكمت العقل الأوروبي قرونًا طويلة ضاقت بهذه الحقيقة العلمية ضيقًا حملها على تكفير من يؤمن بها من العلماء.. وربما بلغ

(١) ابن خلدون: المقدمة ص٢٧٩.

(٢) المصدر السابق نفسه ص٣٠١.

الأمر حدَّ التعذيب أو الإعدام بأبشع الأساليب..!!

وظلَّ ذلك الوضع حتى جاء الإسلام بما يحمله من دعوة لتوسيع النظر في الكون. وتحرير العقل من الأوهام والخرافات، وإطلاق سراح البحث العلمي معتمدًا على التجريب والبرهان، ثم الوصول للحقائق بعد نقاش موضوعي حُرٍّ وهادئ؛ فأحيا ما كاد ينمحي من حقائق العلوم جميعًا (وكرويَّة الأرض إحداها)... وإليك التفاصيل..

كان الإغريق يعتقدون أن الأرض قرص دائري مسطح تحيط به مياه المحيطات من كل جانب، فها هو «**هكتاتيوس**» (سنة ٥٠٠ ق.م) والذي يعتبر أبا الجغرافيا الإغريقية يرسم خرائطه على أساس القرص المستدير[١]..

وبالرغم من أن «**أفلاطون**» (سنة ٣٤٨ ق.م) أتى بأول نظرية عن كروية الأرض إلا أنه لم يلق التأييد الكافي ممن جاء بعده.. بل إن الدولة الرومانية رفضت هذه الفكرة، وكتب «**كوزماس**» (COSMAS) «أبو الجغرافيا الرومانية» في (سنة ٥٤٧ م): «إن العالم يشبه العجلة، وإن مياه المحيط حوله من كل الجهات..»[٢]..

وبلغ الأمر ذروته حين تبنَّت الكنيسة وآباؤها الأوائل (وعلى رأسهم «**الكتانشيوس**») هذه النظرية بشدة، وقالوا بأن الأرض مسطحة، وأن الجانب الآخر غير مأهول؛ وإلا سقط الناس في الفضاء[٣]!!

والمثير للعجب أن التعامل مع معارضي أمثال تلك النظريَّات كان يتَّسم بالضراوة البالغة؛ فكان المعارض يتعرض للتعذيب على الخازوق أو الحرق حيًّا بتهمة الهرطقة (التي تعني كنسيًّا: المروق عن الدين الصحيح)!!

بل كان علماء أوروبا حتى القرن الثالث عشر الميلادي يرسمون خريطة العالم على شكل صليب: رأسه الجنة، وقدماه النار، وذراعاه: البحر الأبيض والبحر الأحمر.. وبيت المقدس (أورشليم) في موضع القلب!!!

---

(١) انظر: محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٥٨.

(٢) كتاب «كوزماس» Christian Geography Cosmography.

(٣) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٩٧،٣٩٨.

وقد كان من أشهر العلماء الأوروبيين الذين تبنَّوا نظريَّة كرويَّة الأرض «نيقولا كوبرنيكوس» (١٤٧٣م – ١٥٤٣م) الذي توصَّل إلى أن الأرض ليست مركز الكون.. إلا أنه لم يتجرأ على نشر كتابه إلا وهو على فراش الموت!! وظل كتاب «كوبرنيكوس» من الكتب المحرمة، واضطهدت الكنيسة كل من يؤيد اعتقاد «كوبرنيكوس» مثل «برونو» الذي أُعدم حرقًا، و«جاليليو» الذي أودع السجن حتى أُرغم على التنكر لنظرية «كوبرنيكوس» والتخلي عن آرائه، والانصياع للفكر الكنسي[1]!!!

ولما جاءت الحضارة الإسلامية، عملت على إحياء نظرية كروية الأرض وتبنَّتها.. وربما كان من أهم أسباب ذلك أن القرآن أشار بصور مختلفة إلى كروية الأرض..

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] والدحية في اللغة هي الكرة.. كما أن هناك آيات تتحدث عن دوران هذه الكرة حول نفسها بما يحدث الليل والنهار.. فيقول تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥].

ويعلِّق الدكتور زغلول النجار على هذه الآية الأخيرة بقوله: «معنى يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل: أي يُغشي كلَّ واحد منهما الآخرَ كأنه يَلُفُّه عليه، وهو وصف واضح الدلالة على كروية الأرض وعلى دورانها حول محورها أمام الشمس وذلك لأن كلاً من الليل والنهار عبارة عن فترة زمنية تعتري نصف الأرض في تبادل مستمر؛ ولو لم تكن الأرض مكورة لما تكور أي منهما؛ ولو لم تكن الأرض تدور حول محورها أمام الشمس ما تبادل الليل والنهار، وكلاهما ظرف زمان وليس جسمًا ماديًّا يمكن أن يُكَوَّر بل يتشكل بشكل نصف الأرض الذي يعتريه..».

ثم يؤكد الله تعالى هذا المعنى فيقول سبحانه: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن:١٧] ويُقسم في موضع آخر: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ [المعارج:٤٠] فهي آيات تشير بوضوح إلى أن الشمس عندما تشرق على مكان من الأرض، فهذا يعني أن هناك غروبًا في مكان آخر، أي أن المشارق والمغارب تتعاقب بسبب دوران

(١) انظر ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد علي أبو درة ٣٠/ ٢٧٣.

الكرة الأرضية حول نفسها[1].

والغريب أنه مع أن «كرويَّة الأرض» شأن علمي كوني، إلا أننا سنرى في السطور القادمة نظرة علماء الشرع لهذه الحقيقة أيضًا، وكيفية اعتراضهم على منكريها.. مقارنة بما أشرنا إلى طرف منه آنفًا، مما كان يعانيه معتنقو المسيحية في أوروبا من آباء الكنيسة وسلطانها المطلق. عندما كان أحدهم - مهما أوتي من علم - يجهر بكرويَّة الأرض؛ لندرك الفارق الضخم بين مناخين:

صنع الإسلام أحدهما بروح مشجعة على العلم، محترِمة للعقل والنظر والتجريب والبرهان؛ فأقام حضارته العظيمة التي أحسنت الصلة - على نحو غير مسبوق - بين الدين والعلم.. حتى غدا كلاهما يدعو إلى صاحبه، ويرسخ أقدامه في القلوب والعقول جميعًا..

بينما اغتالت سُلطة الكنيسة - في المناخ الآخر - رُوحَ العلم اغتيالاً، حينما أدمنت اعتناق الأساطير، وحمْل الناس قسرًا على اعتناقها.. الأمر الذي أدَّى - في نهاية المطاف - إلى ما نرى عليه الغرب الآن من إقصاء كامل للكنيسة عن كل قضايا الحياة!!

وبالنسبة إلى نظرة علوم الشرع إلى كروية الأرض، فإن «ابن حزم» (ت٤٥٦هـ - ١٠٦٤م) ينقل في كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل) إجماع أئمة المسلمين على كروية الأرض، فيقول عنهم: «قالوا إن البراهين قد صحت بأن الأرض كروية، والعامة تقول غير ذلك.. وجوابنا وبالله تعالى التوفيق: إن أحدًا من أئمة المسلمين المستحقين لاسم الإمامة بالعلم لم ينكروا تكوير الأرض، ولا يُحفَظ لأحد منهم في دفعه كلمةٌ.. بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها.. قال الله ﷻ: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾.. وهذا أوضح بيان في تكوير بعضها على بعض، مأخوذ من: (كَوْرِ العمامة..) وهو إدارتها، وهذا نص على تكوير الأرض...»[2].

ولا بد أن نلاحظ هنا إلى أي مدى وصل ابن حزم -رحمه الله- في اعتراضه على مخالفيه في قضية بديهية كهذه.. إنه لم يَزِد على وصفهم بـ«العامَّة» دونما تكفير ولا أحكام بالقتل..

---

(١) الدكتور زغلول النجار: جريدة الأهرام بتاريخ ١٤/ ١/ ٢٠٠٢.

(٢) ابن حزم: الفصل في الملل ٢/ ٧٨.

لا سيَّما وهو أحد فقهاء عصره.. ولنقارن ذلك بما أشرنا إليه من مصادرة الكنيسة الأوروبية لآراء الآخرين معتمدة على سطوة النفوذ الديني والروحي!!

وهذا الإمام «فخر الدين الرازي» (ت ٦٠٦هـ - ١٢٠٩م تقريبًا) يقول في تفسيره مفاتيح الغيب) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ.. ﴾ [الرعد: ٣] يقول: «المدُّ هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه، فقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ يشعر بأنه تعالى جعل حجم الأرض حجمًا عظيمًا لا يقع البصر على منتهاه؛ لأن الأرض لو كانت أصغر حجمًا مما هي الآن عليه لما كمل الانتفاع به... والكرة إذا كانت في غاية الكبر، كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح..»[1].

أما علماء الجغرافيا المسلمون فكان لهم شأن آخر في إثبات كروية الأرض..

فإنهم لم يكتفوا فقط في إثبات هذه الحقيقة العلمية بنفض ما علاها من أتربة الجهل والتعصب.. وإنما أيدوها بالمزيد من الأدلة والبراهين القاطعة التي يسَّرها الله لهم..

يقول «ابن خرداذبة» (ت ٢٧٢هـ - ٨٨٥م) في كتابه (المسالك والممالك): «إن الأرض مُدَوَّرَةٌ كدوران الكرة.. موضحة كالمحة (المحة هي: صفار البيض) في جوف البيضة»[2].

وكتب «ابن رُستة» (ت ٢٩٠هـ - ٩٠٣م) في كتابه (الأعلاق النفيسة): «إن الله ﷻ وضع الفلك مستديرًا كاستدارة الكرة أجوف دوَّارًا.. والأرض مستديرة أيضًا ومصمتة في جوف الفلك»[3].

وكتب «المسعودي» (ت ٣٤٦هـ - ٩٥٦م) في كتابه (التنبيه والإشراف) : «جعل الله ﷻ الفلك الأعلى وهو فلك الاستواء وما يشمل عليه من طبائع التدوير، فأولها كرة الأرض يحيط بها فلك القمر..»[4].

وقد ذكر «الشريف الإدريسي» (ت ٥٦٠هـ - ١١٦٦م) في كتابه (نزهة المشتاق) ما نصه:

---

(١) الرازي: مفاتيح الغيب ١٩/ ١.

(٢) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص٤.

(٣) ابن رستة: الأعلاق النفيسة ص٨.

(٤) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص ٣١٩.

«.. وإن الأرض مدورة كتدوير الكرة، والماء لاصق بها، وراكد عليها ركودًا طبيعيًا لا يفارقها، والأرض والماء مستقرّان في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة.. ووضعهما وضع متوسط، والنسيم يحيط بها (يقصد الغلاف الجوي) من جميع جهاتها..»[1].

ويُذكَر أن الإدريسيَّ لما أراد صُنع نموذج للأرض كان على شكل الكرة المجسمة[2]..

ويقول «القزويني» (ت ٦٨٢هـ - ١٢٨٣م) في كتابه (عجائب المخلوقات): «الأرض كرة، والدليل على ذلك أن خسوف القمر إذا كان يُرى من بلدان مختلفة فإنه لا يُرى فيها كلها في وقت واحد بل في أوقات متعاقبة؛ لأن طلوع القمر وغروبه يكونان في أوقات مختلفة في الأماكن المختلفة. والأرض واقفة في وسط الأفلاك كلها بإذن الله تعالى..».

ثم يفنِّد القزويني آراء علماء القرون الوسطى في أوروبا ورجال الكنيسة الذين يقولون: إن الأرض لو كانت كرة لسقط الناس في الجانب الآخر منها، أو كانت رءوسهم مقلوبة.. فيقول: «إن الإنسان في أي موضع يقف على سطح الأرض فرأسه أبدًا مما يلي السماء، ورجله أبدًا مما يلي الأرض، وهو يرى من السماء نصفها، وإذا انتقل إلى موضع آخر ظهر له من جانب السماء الذي أمامه بقدر ما كان قد خفي عنه من الجانب الآخر..»[3].

والعجيب - بعد كل ما سبق - أن بعض الكتب والمراجع العربية ما زالت تنقل عن المراجع الأجنبية أن المسلمين لم يعرفوا نظرية كروية الأرض.. وأن هذه النظرية لم تعلن إلا بفضل «كوبرنيكوس» (١٤٧٣م - ١٥٤٣م)!!

وحَسبُك الآن مقارنة تاريخ وفاة كوبرنيكوس بأعوام وَفَيَات علماء المسلمين الذين سبق ذكرهم؛ ليتبيَّن لك: مَن أخذ ممَّن؟؟!

فقد أكد المسلمون - كما رأينا - وبتحفيز من كتاب ربهم وسنَّة نبيِّهم - إثبات تلك الحقيقة الجغرافية عظيمة الأهميَّة، وذلك بعدما عدت عليها - أو كادت - جهالات العصور المظلمة.. وقد رأينا كيف اتَّسم البحث العلمي في عصور حضارتنا الإسلامية بالحرية الكاملة

---

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص٧.

(٢) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٤٠٢، ٤٠٣. وزكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ص٦٤.

(٣) القزويني: عجائب المخلوقات ص٣٥.

ـهة الحوار وتحكيم التجربة..

من إنجازات المسلمين في علم الجغرافيا:

حيثما شرَّقتَ أو غرَّبت في فروع علم الجغرافيا، فإنَّك - لا شكَّ - سترى بصمات العلماء ـمين - الذين سعدت الدنيا بإنجازات حضارتهم - فيها واضحة جلية، وقد استقرت ـت العلوم المختلفة بحسن اعتمادهم على الله في توظيف طاقات العقول وإمكانات ـحث والتجريب والمشاهدة..

وستتوقف بنا الصفحات القادمة أمام بعض الإنجازات المبهرة التي سبق إليها المسلمون ـ جغرافيا، والتي تُشكِّل معالم فارقة في مسيرة هذا العلم عبر التاريخ الإنساني، القديم ـ حديث على حد سواء..

خطوط الطول وخطوط العرض:

يُعدُّ المسلمون أول من وضع خطوط الطول وخطوط العرض على خريطة الكرة ـأرضية، وقد وضعها العالم أبو علي المراكشي (ت ٦٦٠هـ - ١٢٦٢م)؛ وذلك لكي يستدل ـمون على الساعات المتساوية في بقاع الأرض المختلفة للصلاة.. كما وضع البيروني قاعدة ـبية لتسطيح الكرة أي نقل الخطوط والخرائط من الكرة إلى سطح مسطح وبالعكس.. ـهما سهل رسم الخرائط الجغرافية[1].

قياس محيط الأرض:

كان أول من قام بمحاولة قياس أبعاد الكرة الأرضية الخليفة العباسي العالم المأمون (ت ٢١٠هـ - ٨٣٣م) فقد جاء بفريقين من علماء الفلك والجغرافيا؛ فريق برئاسة «سند بن علي»، وفريق بقيادة «علي بن عيسى الإسطرلابي» (ويقال: إن رئاسة أحد الفريقين كانت لبني موسى بن شاكر، وهو ما ذكرناه في الفصل السابق) واتفق معهما أن يذهبا إلى بقعتين مختلفتين على ـدائرة العظمى من محيط الأرض شرقًا وغربًا، ثم يقيسا مقدار درجة واحدة من خطوط ـطول (التي تبلغ ٣٦٠ خطَّ طول)..

ويحكي في ذلك ابن خلكان أن كل فريق اختار بقعة واسعة مسطحة، وركز في مكانٍ منها

---

[1] عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص٤٥٩، جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٩٧.

وتدًا، واتخذ النجم القطبي نقطةً ثابتةً، ثم قاس الزاوية بين الوتر وبين النجم القطبي والأرض، ثم سار شمالاً إلى مكان زادت فيه تلك الزاوية، وقاس كل فريق المسافة بين الوتدين، وكانوا يقيسون المسافات على الأرض بحبال يشدونها على الأوتاد[1]..

والعجيب أن النتائج جاءت دقيقة وقريبة مما توصل إليه العلم المعاصر؛ فقد أخذ المأمون متوسط قياس الفريقين، فوجده ٥٦,٦٦ ميل تقريبًا، والذي توصل إليه العلم المعاصر هو ٦٩,٩٣ ميل. وعلى قياس المأمون هذا فإن محيط الأرض يبلغ ٢٠,٤٠٠ ميل، أي حوالي: ٤١,٢٤٨كم.

ومن خلال مقارنة هذه القيمة مع القيمة التي قيست بواسطة الأقمار الصناعية في العصر الحديث، وهي ٤٠,٠٧٠ كم، يتضح أن نسبة الخطأ في قياسات فريق المأمون لم تتجاوز (٣٪)!! وهو أمر جدير بالتقدير[2]..

ثم جاء «البيروني» فقام بتجربة جديدة على أساس مختلف.. بقياس الانخفاض الرأسي من (قلل الجبال) في الهند، فجاءت شبيهة بأرقام فلكيي المأمون فأثنى عليهم[3].

وفي ذلك يقول المستشرق «نللينو» - كما أشرنا سابقًا - في كتابه (علم الفلك عند العرب): إن قياس العرب للكرة الأرضية هو أول قياس حقيقي أُجري كله مباشرة مع كل ما تقتضيه تلك المسافة الطويلة وهذا الفريق الكبير من العلماء والمساحين العرب، فهو يعد من أعمال العرب المأثورة وأمجادهم العلمية[4]!!

دوران الأرض حول نفسها:

في الوقت الذي كان العالم لا يتخيل فيه أن الأرض كرة لم يكن هناك من يناقش مسألة دوران الكرة حول نفسها.. ولكن ثلاثة من علماء المسلمين كانوا أول من ناقش فكرة دوران الأرض في القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) وهم **«علي بن عمر الكاتبي»** و**«قطب الدين الشيرازي»** من **الأندلس** و**«أبو الفرج علي»** من سوريا.. فقد كان هؤلاء الثلاثة أول من أشار في التاريخ الإنساني إلى احتمال دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة كل يوم وليلة..

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ١٦٢.

(٢) انظر في ذلك يوهانس فيلارز: كنوز علم الفلك، المتحف القومي الألماني - نورنبرج، ١٩٨٣ ص ٢٥.

(٣) قدري طوقان: تراث العرب العلمي ص٦٣.

(٤) نللينو: علم الفلك عند العرب.

وعن هؤلاء العلماء يقول «سارتون»: إن أبحاث هؤلاء العلماء الثلاثة في القرن ١٣ لم تذهب سُدى، بل كانت أحد العوامل التي أثرت على أبحاث «كوبرنيكوس» في نظريته التي أعلنها سنة ١٥٤٣م[1].

علم الخرائط:

لا يُنكِر أحدٌ أن الغرب قد استفاد من مجهودات المسلمين في علم الجغرافيا عامة أيّما استفادة.. بل إن (أطلس الإسلام) أو الخرائط الإسلامية كانت في مقدمة مظاهر التأثير الإسلامي المباشر في الحضارة الغربية.

فقد تخطَّف (الغرب) مؤلَّف «الإدريسي» (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) وقاموا بطباعته طبعات كثيرة ومختلفة، حتى ظل هذا الكتاب مصدرًا أساسيًّا لدارسي الجغرافيا الأوروبيين على مدار أكثر من أربعة قرون!!

صمم «الإدريسي» خريطته (انظر خريطة رقم ١) على الطريقة العربية في ذلك الوقت حيث بدأ بالجنوب في أعلى الخريطة ثم انتقل إلى الشمال في أسفلها.. وتتكون مخطوطة الخريطة من ٧٠ ورقة (٣٣ × ٢١سم) تصل إلى نحو خمسة أمتار مربعة.



خريطة رقم (١)
خريطة الإدريسي

وقد قام العالم الألماني «كونراد ميلر» بنشر نسخة مُلَوَّنة منها سنة ١٩٢٨م بعد أن بذل مجهودًا خارقًا من أجل تجميع أجزائها المختلفة وترجمة الأسماء العربية إلى الألمانية.. ثم اهتمَّ المجمع العراقي بهذا الكتاب؛ فعمل باحثوه على مراجعة وتدقيق كل النسخ الموجودة في العالم، وأخرجوا خريطة الإدريسي وطبعوها

(١) سارتون: مقدمة في تاريخ العلم ١/ ٤٦.

سنة ١٩٥١م وهي بطول مترين وعرض متر واحد[١]..

تصحيح أخطاء السابقين:

بين أيدينا الآن شهادة لمؤرخ غربي مشهور هو «**جوستاف لوبون**» الذي ستؤكد كلماته ما سبق بخصوص تفوق المسلمين في مجال الخرائط.. إلى جانب أنها ستضيف إلى عظمة إسهامات المسلمين في الجغرافيا بُعدًا جديدًا بالغ الأهمية..

يقول «**جوستاف لوبون**»: «يكفي أن نشير إلى ما حققه العرب في الجغرافيا لإثبات قيمتهم العالية؛ فالعرب هم الذين عيَّنُوا بمعارفهم الفلكية مواقع الأماكن تعيينًا مضبوطًا في الخرائط، فصححوا بذلك أغاليط علماء اليونان، والعرب هم الذين نشروا رحلاتهم الممتعة عن بقاع العالم التي كان يشك الأوروبيون في وجودها، والعرب هم الذين وضعوا الكتب الجغرافية التي جاءت ناسخة لما تقدمها، فاقتصرت أمم الغرب عليها وحدها قرونًا كثيرة...»[٢].

فالروعة والإنجاز لا يتجسدان فقط في الجديد الذي قدَّمه الجغرافيون المسلمون للعالم.. وإنما يتجسد الإنجاز وتتجلَّى الروعة كذلك في التصويب والتعديل الذي عاد به عباقرة الجغرافيين المسلمين على التراث الجغرافي اليوناني.

لقد وقع «**بطليموس**» - على الرغم من براعته المعروفة - في العديد من الأخطاء عند تحديد الأطوال والأعراض، ومن هذه الأخطاء:

أنه بالغ كثيرًا في تحديد طول البحر المتوسط..

وبالغ في تحديد امتداد الجزء المعمور من الأرض المعروف له..

وجعل المحيط الهندي والهادي بحيرة!!! وذلك عندما وصل جنوبي آسيا بجنوبي أفريقيا..

وبالغ في تحديد حجم جزيرة «**سيلان**»..

وأخطأ في وضع بحر قزوين والخليج العربي خطأً فاحشًا[٣]..

---

(١) قدري طوقان: علماء العرب وما أعطوه للحضارة ص١٩٩.

(٢) محمود الشرقاوي: الإسلام وأثره في الثقافة العالمية ص٩٧، نقلاً عن حضارة العرب.

(٣) جلال مظهر: حضارة الإسلام ص ٣٩٠- ٣٩٣.

وقد صحح المسلمون كل هذه الأخطاء وغيرها، ولم يأخذ الغرب هذه التعديلات إلا عنهم.. ومن هنا يتجلَّى دور المسلمين في إنقاذ الدراسات الجغرافيَّة من التشوُّهات العلمية والمنهجيَّة.. كما رأينا من قبل دورهم في إنقاذها من بطش السلطة الكنسيَّة الغاشم..

وقد بدأت تلك المسيرة التصحيحية منذ عهد الخليفة «المأمون» (ت ٢١٨هـ - ٨٣٣م)..

فقد أسدت الخريطة المأمونية (انظر خريطة رقم ٢) التي أمر علماء عصره بتنفيذها، إلى الحضارة الغربية فضلاً عظيمًا، رغم ضعف إمكانات المسلمين من حيث الأجهزة الجغرافية في ذلك العصر، وقام المسلمون بإدخال الكثير من التعديلات المهمة على خريطة بطليموس (انظر خريطة رقم ٣)، وحسَّنوها وأضافوا إليها الكثير من التصحيحات الجوهرية..

وقد أقبل الغرب على عطاء الجغرافيين المسلمين بشغف واهتمام بالغين؛ فلم يكن الأوروبيون حتى بداية القرن الخامس عشر يرجعون إلا إلى الجغرافيا الإسلامية كما يقرر «كراتشكوفسكي».. وقد ظلت الكارتوغرافيا الأوروبية (علم الخرائط) تعتمد على خريطة الإدريسي حتى قبيل القرن الخامس عشر الميلادي[1]..

وإجمالاً، فإنه منذ وقت الإدريسي ١١٥٠م إلى حوالي ١٤٥٠م استُمِدَّت الجغرافيا الأوروبية رأسًا من الجغرافيا الإسلامية.. إلا أن تحوُّلاً عنصريًّا أصاب الفكر الأوروبي فيما بين (١٤٥٠م) إلى (١٥٥٠م)، فنهضت حملة ضد المسلمين لا أساس لها من العلم، وأسفرت عن تحول الجغرافيين الأوروبيين إلى جغرافيا «بطليموس»!! ولما كان استمرار هذا الأمر غير منطقي فقد اضطرَّ العلماء ثانيةً إلى هجر بطليموس[2]..

والحقُّ أنَّ إسهامات المسلمين في الجغرافيا محيط واسع.. ربما بقدر سعة الآماد المذهلة التي بلغتها رحلات علمائهم الاستكشافية برًّا وبحرًا... وهو الجانب الذي ستحاول الصفحات القادمة الوقوف بنا أمامه..

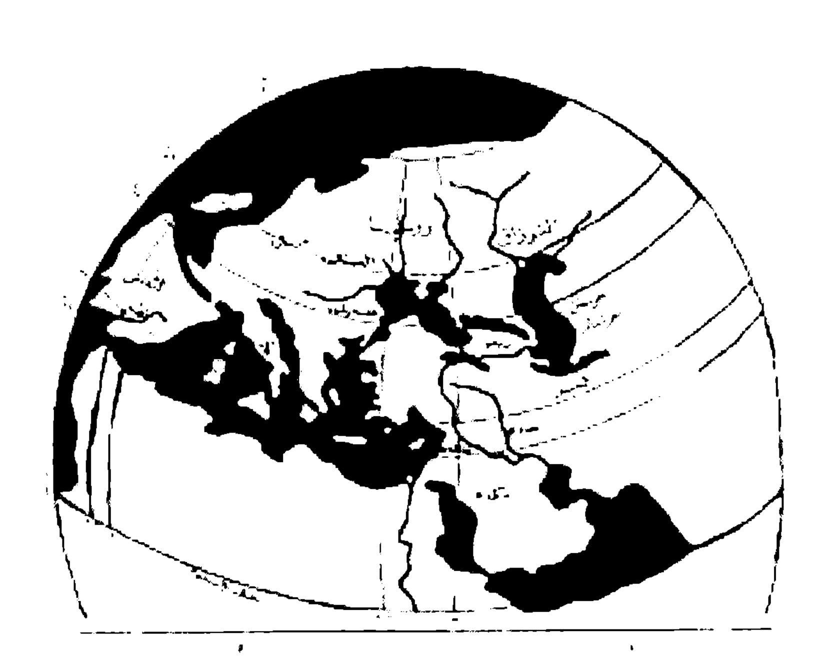
---

(١) جلال مظهر: حضارة الإسلام ص٤٠٥.

(٢) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٤١١، ٤١٢.



خريطة رقم (٢)
(خريطة بطليموس)



خريطة رقم (٣)
(الخريطة المأمونية)

المسلمون والكشوف الجغرافية:

لم تكن النهضة الجغرافية الإسلامية لتظهر لولا جهود مضنية - بعد توفيق الله ﷻ - قام بـ العديد من العلماء الأفذاذ الذين مرَّ بنا نبأ بعضهم في صفحات سابقة..

ولم تكن جهود أولئك العلماء حبيسة الجدران، ولا أسيرة خيالات أو موروثات بالية.. بل كان السير في الأرض والضرب في مناكبها طولاً وعرضًا، والنظر عن قرب إلى طبائعها في شتى البقاع، وملامح الحياة المتباينة فوق كل شبر منها.. كان كل ذلك هو الطابع المميز لدراسات الجغرافية عند المسلمين..

ولا عجب؛ فالإسلام يُنفِّر أتباعه من التعويل على الظن الذي «لا يُغني من الحق شيئًا»، ويدعو في أكثر من موضع إلى الاعتماد على الحق والبرهان: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

وفيما يلي أهم اكتشافات جغرافيي المسلمين:

استكشاف القارات:

١) في آسيا:

كان أقصى ما يعرفه الإغريق عن شرقي آسيا هو منطقة سيراداريا (بأوزباكستان حاليًا).. وهي أقصى منطقةٍ وصل إليها «الإسكندر الأكبر» في فتوحاته (سنة ٣٢٣ ق.م)..

فلما جاء المسلمون تعدَّوْا هذه الحدود، وتمكنوا من عبور جبال (تيان شاه)، والتوغل مئات الأميال إلى الشرق منها، فوقعت كل مدن وسط آسيا كبخارى وسمرقند وفرغانة وكشغر (وهي إحدى الولايات الصينية) تحت نفوذهم منذ عام (٨٦هـ - ٧٠٥م).. وقد انتشر الإسلام في هذه المناطق وبقي فيها حتى يومنا هذا، وكان الخلفاء يرسلون الوفود إلى ملوك الصين والتبت وسائر آسيا يدعونهم إلى الإسلام[1]..

وقد اكتشف المسلمون عن طريق أساطيلهم التجارية التي كانت تُبحر من ميناء عدن إلى ميناء كانتون بالصين أن بحر الصين يتصل بالمحيط الهندي، كما اكتشفوا بحيرة (آرال) شمالي شرق قزوين، فوُضِعَتْ لأول مرة على الخرائط المأمونية في عهد المأمون باسم (بحيرة خوارزم)، وقد زار

١) فهمي هويدي: الإسلام في الصين.

«البيروني» (ت٤٤٠هـ - ١٠٤٨م) سيبيريا الشرقية، وكان أول من سَمَّى نهر أنجارا (الواقع شمال غرب بحيرة بيكال شرقيَّ سيبيريا).. كما أنه عاش في الهند قُرَابة عشرين عامًا؛ فأبدع في وصفها لم يسبقه إليه أحد.. وذلك في كتابه (ما للهند من مقولة)[1].

٢) في أوروبا:

لقد عرف المسلمون أوروبا رغم تخلفها وخمولها الحضاري في ذلك الوقت؛ ففي عام (٣٠٨هـ - ٩٢١م) ذهب «ابن فضلان» رسولاً من قِبَل الخليفة العباسي «المقتدر» إلى بلاد البلغار في الفولجا (تطلق عند العرب على بلاد الصقالبة الروس وعلى عاصمتهم التي تقع شرقي نهر الفولجا) كما وصف البيروني بلاد (الفرنج) وهم النرويج والإسكندنافيون ووصف (بحر الثلج) وهو القطب الشمالي كما عرف المسلمون «بلاد الغال» وهي فرنسا[2]..

وقد عُثِر حديثًا على عملات إسلامية في كل من روسيا وإسكندنافيا تعود إلى العصر العباسي!!

٣) في أفريقيا:

توقفت معلومات الإغريق والرومان في أفريقيا على البلاد الساحلية وحدها، أما قلب القارة السوداء فقد بقي غامضًا أمام العالم حتى وصله المسلمون كتجار أو رحَّالة أو سفراء.. فاستكشفوا القارة الغامضة، ونشروا الإسلام في السودان والسنغال والنيجر وغيرها.. وكانوا أول من اكتشف مدغشقر، وقد وصلت مراكبهم من الأندلس والجزائر إلى الصومال وزنجبار وموزمبيق وجزائر الكومور..

ومما يُعد من إنجازات المسلمين السَّبَّاقة أنهم أول من اكتشف منابع نهر النيل العظيمة قبل أن تصل إليها حملات الاستكشاف البريطانية بعدة قرون؛ فقد ذكر الرحالة البريطاني «ستانلي» أنه في رحلاته لاكتشاف منابع النيل قد وجد التجار العرب قد سبقوه وأن القبائل الأفريقية تدين بالإسلام!!

الاكتشافات البحرية:

يُعتَبَر اكتشاف «كريستوفر كولومبوس» لأمريكا عام ١٤٩٢م، واكتشاف «فاسكو دي جاما» لطريق الهند البحري عام ١٤٩٧م من أكثر الكشوف الجغرافية تأثيرًا في مجرى التاريخ

---

(١) نفيس أحمد، ترجمة: فتحي عثمان: الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي ص٤٤.

(٢) نفيس أحمد، ترجمة: فتحي عثمان: الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي ص٤٤.

لإسباني.. وبالرغم من مرور ما يزيد على خمسمائة عام على هذين الكشفين إلا أن الجدل لم يحسم بعد حول أسبقيتهما..

فهل كان «**كريستوفر كولومبوس**» ذلك البحار الإيطالي هو أول مكتشف للسواحل الأمريكية بالفعل؟؟

وما السِّرُّ وراء انطلاق رحلته من إسبانيا التي كانت قد فرغت للتوِّ من القضاء على الوجود الإسلامي في أراضيها؟

ألم يستفِد «**كولومبوس**» ومَنْ معه من آلاف الوثائق العلمية والخرائط الإسلامية التي وضع الإسبان أيديهم عليها من ميراث الحضارة الإسلامية الطويل؛ فأحرقوا بعضها، واستولوا على البعض الآخر مما لم يظهر بعد ذلك إلا حديثًا في مكتبة الإسكوريال في مدريد..؟؟

وما حقيقة الأهداف التي حركت الكشوف البحرية الأوروبية على نحو كثيف ومتزامن..؟؟!

إننا في السطور القادمة سنحاول - بإذن الله - إلقاء الضوء على حقيقة هذا الأمر..

فمنذ أعلن المسلمون كروية الأرض، وأثبتوا ذلك بالبراهين الفلكية والحسابية بدأت الإشارات تظهر في كتبهم إلى أنه لا بد من وجود جزر معمورة في الوجه الآخر من الكرة الأرضية لم تُكتَشَف بعد، وقد بُنِيَت هذه النظرية على أنه ليس من المعقول أن يكون أحد سطحي الكرة يابسة بالكامل بينما يغطي الماء الجانب الآخر؛ لأنَّ هذا سيؤدي إلى اختلال توازن الأرض وانتظام دورانها[1]..

وقد كان «**البيروني**» أول من أشار إلى هذه الحقيقة وبَشَّر بها في كتبه، وبناءً على هذه النظرية بدأت مغامرات الكشف الجغرافي التي جاء ذكرها في مخطوطات كبار الجغرافيين المسلمين، ومنهم «**المسعودي**» في كتابه (مروج الذهب) و«**الإدريسي**» في كتابه (نزهة المشتاق..) وغيرهما..

وأول إشارة في ذلك تقول: إن بحارًا عربيًّا أندلسيًّا اسمه«**خشخاش البحري**» أبحر بسفينته من «لشبونة» إلى الغرب في بحر الظلمات (المحيط الأطلنطي) (سنة٢٣٥هـ تقريبًا -

---

(١) جلال مظهر: حضارة الإسلام ص٣٩٦،٣٩٧.

٨٥٠م) وقد اكتشف في هذا البحر جزيرة مأهولة بالسكان أحضر منها الهدايا إلى حاكم الأندلس «عبد الرحمن الثاني» الذي كافأه بتعيينه أميرًا للبحرية الإسلامية.. وقد استُشهِد هذا الرجل في معركة بحرية مع قرصان (الفايكنج)[1].

أما الإشارة الثانية فتذكر أن جماعة من عرب المغرب الأفريقي قد خرجوا إلى بحر الظلمات نحو تلك الجزيرة، وكان ذلك في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ولم يَعُدْ أحدٌ منهم ولم يسمع عنهم أي خبر!!

ثم يتلو ذلك قصة «الفتية المغرَّرين» الذين تحدَّث عنهم **المسعودي والإدريسي**، وتقول هذه القصة: إن ثمانية من الشباب العرب في مدينة لشبونة من عائلة واحدة من البحارة... قرروا المغامرة (في بحر الظلمات) بحثًا عن تلك الجزر التي هلك من سبقوهم دون خبر عنها.. وأن أهل المدينة أطلقوا عليهم لقب (الفتية المغررين) نسبة إلى (الغُـرَّة) أي (المقدمة) وليس المغرورين نسبة إلى (الغرور) كما جاء في بعض المراجع، فمن ذلك ما ذكره «**المسعودي**» في كتابه (مروج الذهب) عن أخبار (من خاطر بنفسه في ركوبه - أي المحيط الأطلسي - ومن نجا منهم ومن تلف، وما شاهدوا منه وما رأوا[2]..

وعندما يورِد «**الإدريسي**» هذه القصة يذكر أن هؤلاء الفتية الثمانية عندما عادوا إلى الأندلس احتفي بهم أهل لشبونة، واستقبلوهم بالزينات والأفراح.. وأطلقوا على الشارع الذي يسكنون فيه اسم (شارع الفتية المغرَّرين)، كان ذلك في أواخر القرن العاشر الميلادي.. ثم ظل هذا الاسم معروفًا بعد ذلك في لشبونة لمئات من السنين[3].

كانت هذه صورة موجزة لما أورده جغرافيو **الأندلس** عن سبق العرب لاكتشاف **أمريكا**.. يعضدها ما ذكره العالم المؤرخ اللغوي «**الأب إنستاس الكرملي**» من أن العرب قد وصلوا **أمريكا** من لشبونة قبل «**كولومبوس**» بفضل معرفتهم لتيار الخليج الحار في الأطلسي، فيقول: «سَبَقَ العرب سائر الأمم إلى معرفة هذا التيار وخواصه، وإلى حركته من المكسيك إلى إيرلندا وبالعكس..»[4].

---

(١)، (٢)، (٣) انظر: المسعودي: مروج الذهب ١/ ٤٥.

(٤) الأب انستاس الكرملي: عرف العرب أمريكا قبل أن يعرفها الغرب، نشر هذا البحث في مجلة المقتطف عدد ١٠٦، وأشار إليه العقاد في كتابه أثر العرب في الحضارة ص٤٧.

على أن هناك إشارة تظهر في أقوال «كولومبوس» نفسه؛ حيث يذكر أنه كان يعتقد أولَ الأمر أن الهنود الحمر الذين رآهم في تلك الجزر لا بد أن يكونوا من سلالة العرب «الذين سبقوه..» كما قرأ في المخطوطات العربية.. وقد قامت (الجمعية الجغرافية البريطانية) بإنتاج مسلسل تليفزيوني وثائقي بعنوان (المكتشفون) وفيه حلقة مستقلة عن «كولومبوس» واكتشافاته، وهي تبين أنه قد اختار أحد رجاله الذين يعرفون اللغة العربية (لأنه من أصل عربي) وبعث معه برسالة إلى ملك الهنود الحمر مكتوبة باللغة العربية يقول فيها: «يا صاحب الجلالة.. إن الملكة «إيزابيلا» ملكة إسبانيا وقشتالة تحييك السلام، وتطمع أن يكون بينها وبين بلادك علاقات صداقة.. إلخ»[1].

إلا أن أكثر تلك الإشارات إبهارًا وإثارة للدهشة هي تلك الخريطة التي اكتشفها المستشرق الألماني Kahle في مكتبة (طوب كابي سراي) بإسطنبول، ونشرها على العالم سنة ١٩٢٤م بعد تحقيق علمي دولي استمر عدة سنوات..

فقد حيَّرت هذه الخريطة (انظر خريطة رقم ٤) العلماء وأذهلت العالم.. وهي من تأليف جغرافي تركي مسلم هو «بيري ريس» واسمه الكامل «محيي الدين بن محمد الريس» (ت ١٥١٣م)، وكان أحد قادة البحرية في الأسطول التركي الذي كان سيد البحار في تلك الآونة.. وهذه الخريطة تنقسم في الواقع إلى عدة خرائط مفردة؛ فهي تبين شرقي المحيط الأطلسي حيث السواحل الإسبانية والأفريقية الغربية... أما في غربي المحيط فأنت ترى القارة الأمريكية بسواحلها وجزرها وموانيها وحيواناتها.. فضلاً عن سكانها الأصليين (الهنود الحمر) الذين يرسمهم عراةً وهو يرعون الغنم.

ويذكر المستشرق «كراتشكوفسكي» في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) تعليلاً لهذه الخريطة أنه لا بد أن يكون «الريس» قد بناها على أساس خرائط «كولومبوس» التي ربما تكون قد سقطت في يده عندما انتصر الأسطول التركي على أسطول البندقية سنة ١٤٩٩م، وأَسَرَ بعض سفنه[2]..

إلا أن هذا الرأي يلقى معارضة من كثير من الباحثين؛ لأن الخريطة بها تفاصيل لأماكن لم يعرفها «كولومبوس»، ولم يكن اكتشفها، ولكن هؤلاء الباحثين لم يقدموا تعليلاً بديلاً يكشف سِرَّ هذه الخريطة الغامضة.

---

(١) زينب عصمت راشد: تاريخ أوروبا الحديث، القاهرة ص ٤٧، دار الفكر العربي ١٩٩٨.

(٢) كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٢/ ٥٦٢ النسخة العربية.

إن أعجب ما في خرائط «بيري ريس» أنها عـادت لتشـغل العلـماء بعـد عصر رحـلات الفضـ
وتصوير الأرض من الأقمار الصـناعية؛ فقـد كـان الاعتقـاد الأول لـدى علـماء الخـرائط في أمريكـ
وأوروبا في القرن العشرين أن الخرائط غير دقيقة، وأن بها أخطاءً في الرسم حسب أحدث معلومـاتهـ
عن الشاطئ الأمريكي.. ولكنهم فوجئوا بعد ظهور أول صورة مأخوذة مـن القمـر الصـناعي لهـ
المناطق أن خرائط «محيي الدين الريس» أدقُّ من كل ما عرفوه وتصوروه!!.. وأنها تطابق تمامًا صـو
القمر الصناعي، وأن معلوماتهم هي التي كانت خاطئة.



خريطة رقم (٤)
(خريطة بيري ريس للقارة الأمريكية)

وعلى أثر ذلك عكف فريق من العلماء في وكالة الفضاء الأمريكية على إعادة دراسة الخرائط مقطعيًا بعد تكبيرها عدة مرات، فكانت المفاجأة الثانية.. وهي أن «بيري ريس» قد وضع في خرائطه القارة السادسة في القطب الجنوبي والمسماة Antarctica قبل اكتشافها بأكثر من قرنين!!.. كما أنه وصف جبالها ووديانها التي لم تكتشف حتى سنة ١٩٥٢م!! (انظر خريطة رقم ٥)[١].

يحكي الكاتب «إريك فون دانيكن» في كتابه[٢] «Chariots of the gods» أن خرائط «بيري ريس» سُلِّمت إلى الدكتور «ماليري آرلنجتون» أستاذ الخرائط الجغرافية في الجامعات الأمريكية الذي قرَّر بعد فحص دقيق أنها تحتوي على كل الحقائق الجغرافية حول أمريكا.. ولكنه شكَّ في وجود خطأ وعدم دقة في بعض الأماكن.. فطلب الاستعانة بجغرافيي الأسطول الأمريكي الذين أظهرت دراساتهم أن خرائط «بيري ريس» قد نقلت الطبوغرافيا الداخلية للقارات (أي التضاريس) بدقة مذهلة؛ فتظهر فيها الجبال والأنهار والسهول وكأنما أُخِذَت من الفضاء الخارجي..!!

وفي سنة ١٩٥٧م عكف فريق من علماء الجغرافيا بالمراصد الكبرى والبحرية الأمريكية على مزيد من دراسة خرائط «الريس».. وبعد دراسات على أجهزة متطورة وجدوا أن صوره عن القارة السادسة Antarctica صحيحة ودقيقة بدرجة مذهلة.. حتى بالنسبة للمناطق التي لم يُستكمَل اكتشافها في عصرنا الحاضر!! فالجبال على قارة القطب الجنوبي لم تُكْتَشَف حتى عام ١٩٥٢م.. فهي دائمًا مغطاة بطبقة سميكة من الثلوج بحيث إن اكتشاف وجودها على الخرائط الحديثة كان باستعمال أجهزة صدى الصوت Echo-Sounding apparatus . .

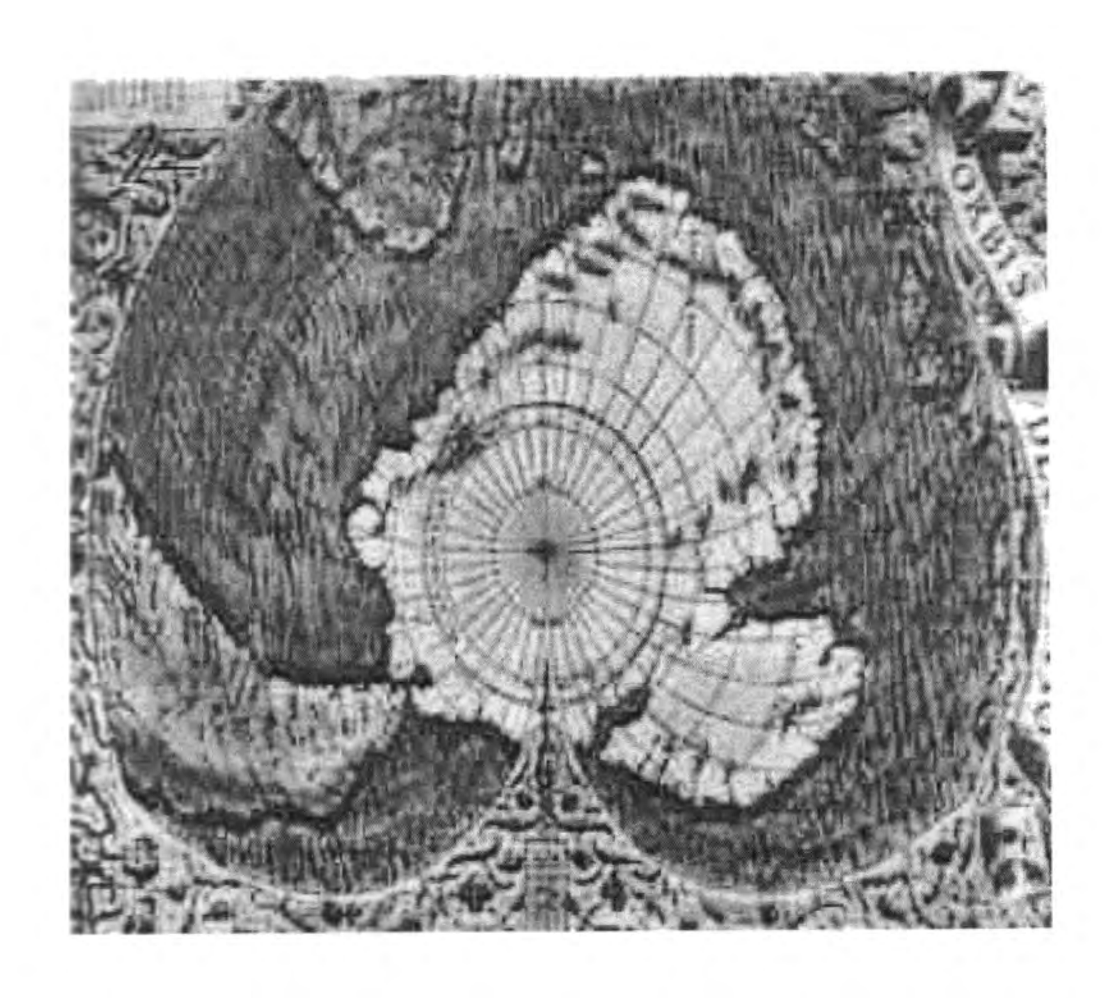
والجدير بالذكر هنا أيضًا هو اهتمام وكالة الفضاء الأمريكية بمواصلة دراسة هذه الخرائط، حيث اتضح أنها تشبه تمامًا الصور المأخوذة للكرة الأرضية من مركبة فضائية أثناء مرورها فوق منطقة القارة القطبية الجنوبية، وهي صور تغطي مسافة (خمسة آلاف ميل) فوجدوا تشابهًا مذهلاً بين صور القمر الصناعي وبين خريطة «بيري ريس»[٣]!!

---

(١) إريك فون دانيكين: عربات الآلهة ص٢٩.

(٢) اسم الكتاب: عربات الآلهة، وهو يتحدَّث عن سفن الفضاء، ونقتبس المعلومات منه رغم اعتراضنا على اسمه؛ لأن الحكمة ضالَّة المؤمن، أنَّى وجدها فهو أحقُّ الناس بها.

(٣) إريك فون دانيكن: عربات الآلهة ص٢٩.



خريطة رقم (٥)

(خريطة بيري ريس للقارة القطبية الجنوبية)

فلكم هو مذهل تتبُّع جهود المسلمين في اكتشاف الأرض من حولهم!! وكم هو مُبهر تصفُّح ثمار تلك الجهود!!..

ويبقى أن نقرر - أخيرًا - أن استشعار خلافة الله في هذه الأرض لا بد أن يكون له أكبر الأثر في بعث تلك الحركة الهائلة للكشوف والرحلات الجغرافية، التي جابت أقطار المعمورة في تلك العصور البعيدة..

ولا بد - أيضًا - أن نقرر أن اهتداء المسلمين بكتاب ربهم قد كان له أكبر الأثر في هذا السير الفريد في جنبات الأرض.. حيث يقول سبحانه: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [العنكبوت: ٢٠].

***

المبحث الرابع

علم البصريات في الحضارة الإسلامية

كغيره من العلوم التي ظهرت قبل المسلمين، كان لليونانيين وغيرهم من الشعوب القديمة اهتمام بعلم البصريات، وكان لهم فيه آثار طيبة اتكأ عليها المسلمون عند ممارستهم لهذا العلم، فقد نقلوا عن اليونان آراءهم في انكسار الضوء والمرايا المحرقة وغيرها، ولكنهم لم يقتصروا على مجرد النقل بل توسعوا وأضافوا إضافات مبهرة من ابتكاراتهم، واستطاعوا أن يسطروا في علم البصريات تاريخًا مشرقًا.

ففي أول الأمر كانت البصريات الإغريقية تحوي رأيين متعارضين: الأول: هو الإدخال، أي دخول شيء ما يمثل الجسم إلى العينين. والثاني: الانبعاث، أي حدوث الرؤية (الإبصار) عندما تنبعث أشعة من العينين وتعترضها الأجسام المرئية.

وقد ظلت الحضارة الإغريقية تتناول البصريات بأخذٍ وردٍّ بين هذين الرأيين، وكانت مجهودات **أرسطو** تفتقر إلى تفصيل حتمي، وكذلك **إقليدس** رغم مجهوداته الملموسة، إلا أن نظرياته كانت مقصورة على تقديم شرح كامل للإبصار؛ لأنها أغفلت العناصر الفيزيائية والفسيولوجية والسيكولوجية للظواهر البصرية، حيث ذهب إلى أن العين تُحدث في الجسم الشفاف المتوسط بينها وبين المبصرات شعاعًا ينبعث منها، وأن الأشياء التي يقع عليها هذا الشعاع تُبْصَر، والتي لا يقع عليها لا تبصر، وأن الأشياء التي تبصر من زاوية كبيرة تُرى كبيرة، والتي تبصر من زاوية صغيرة ترى صغيرة.

أما **بطليموس** فرغم إبداعه في التوفيق بين التناول الهندسي والتناول الفيزيائي إلا أنه فشل في نهاية الأمر؛ لأن استخدامه كان مقصورًا على دعم استنتاجات سبق التوصل إليها فعلاً، بل إن معالجة النتائج التجريبية كانت تجري أحيانًا بجواز مروره لهذه الاستنتاجات.

وقد ظلت البحوث في علم البصريات تدور في هذا الفلك السابق دون تقدم أو رقي، وبقيت على ذلك حتى جاءت الحضارة الإسلامية فكان لإسهامات المسلمين في علم البصريات نسق آخر متطور وفريد؛ وذلك نظرًا لنبوغهم في العديد من العلوم المرتبطة بهذا العلم مثل الفلك والهندسة الميكانيكية وغيرهما، إذ إن ابتكاراتهم قد تتداخل فيها هذه العلوم.

فقد جاء الفيلسوف أبو يوسف الكندي (١٨٥-٢٥٦ هـ / ٨٠٥-٨٧٣م)، والذي يُعد من أوائل العلماء المسلمين الذين طرقوا ميدان علم الطبيعة، فتناول الظواهر الضوئية وعالجها في كتابه الشهير «علم المناظر»، وكان ذلك أول كتاب عربي يعنى بعلم البصريات.

والكندي هذا هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، يُعد - كما يصنفه الكثيرون - مؤسس الفلسفة العربية الإسلامية وكان كمعظم علماء عصره موسوعيًّا، فهو رياضي وفيزيائي وفلكي، بالإضافة إلى كونه فيلسوفًا[1]!

وكانت بدايته مع أسرته الغنية في الكوفة، والذي كان والده واليًا عليها، وقد توفي وترك يعقوب صغيرًا مع إخوته ووالدته، فأتم حفظ القرآن الكريم والكثير من الحديث النبوي الشريف وهو بعد في الخامسة عشرة من عمره، وكعادة طلاب العلم في عصره فقد قرر السفر صحبة والدته إلى البصرة للاستزادة من العلم، ثم انتقل بعدها إلى بغداد ليزيد من ثقافته وعلمه، حيث كانت بغداد في العصر العباسي بحرًا زاخرًا بالعلوم المتنوعة المختلفة[2].

كانت مكتبة «بيت الحكمة» التي أنشأها هارون الرشيد وازدهرت في عهد ابنه المأمون مقصده، وصار يُمضي أيامًا كاملةً فيها وهو يقرأ الكتب المترجمة عن اليونانية والفارسية والهندية، إلا أن فضوله الزائد للمعرفة والعلم لم يتوقف عند حد قراءة الكتب المترجمة فقط، فبدأ بدراسة اللغتين السريانية واليونانية على يد أستاذين كانا يأتيان إلى منزله ليعلماه، وقد تمكن من إتقان هاتين اللغتين بعد فترة وجيزة، بعدها بدأ في تكوين فريق خاص به، وصار صاحب مدرسة ذات مكانة مهمة في الترجمة، وأنشأ في بيته مكتبة تضاهي في ضخامتها مكتبة الحكمة، فصار الناس يقصدون بيته للتعلم ومكتبته للمطالعة، وسارت شهرته في البلاد عندما كان عمره خمسةً وعشرين عامًا فقط، فدعاه الخليفة المأمون إليه وصارا صديقين منذ ذلك الحين[3].

أما في البصريات فقد أخذ الكندي بنظرية الانبعاث الإغريقية، إلا أنه أضاف كذلك وصفًا دقيقًا لمبدأ الإشعاع، وصاغ من خلال ذلك أساس نظام تصوري جديد يحل في نهاية

---

(١) مصطفى عبد الرازق: فيلسوف العرب ص١٨.

(٢) أحمد فؤاد الأهواني: الكندي فيلسوف العرب ص٢٦.

(٣) رحاب العكاوي: الكندي أعظم الحكماء في تاريخ البشرية ص١٦ بتصرف.

الأمر محل نظرية الانبعاث، وكان لهذا الكتاب صدى في المحافل العلمية العربية، ثم الأوروبية خلال العصور الوسطى.

ثم من بعده جاء **أبو الحسن بن الهيثم** (٣٥٤- ٤٣٠هـ) والذي تُعد أعماله العلمية فتحًا جديدًا ووثبة خطيرة في عالم البصريات وفزيولوجية الإبصار، وكانت أعماله هي الأساس الذي بنى عليه علماء الغرب جميع نظرياتهم في هذا الميدان، وكان في طليعة العلماء الأجانب الذين اعتمدوا على نظرياته - بل أغاروا عليها ونسبوها لأنفسهم - **روجر بيكون وفيتلو** وعلماء آخرون، ولا سيما في بحوثهم الخاصة بالمجهر والتلسكوب والعدسة المكبرة[١].

بدأ **ابن الهيثم** أولاً بمناقشة نظريات **إقليدس وبطليموس** في مجال الإبصار، وأظهر فساد بعض جوانبها، ثم في أثناء ذلك قدم وصفًا دقيقًا للعين وللعدسات وللإبصار بواسطة العينين، ووصف أطوار انكسار الأشعة الضوئية عند نفوذها في الهواء المحيط بالكرة الأرضية بعامة، وخاصة إذا نفذ من جسم شفاف كالهواء والماء والذرات العالقة بالجو، فإنه ينعطف - أي ينكسر - عن استقامته[٢].

وقد بحث في (الانعكاس) وتبيان الزوايا المترتبة على ذلك، كما تطرق إلى شرح أن الأجرام السماوية تظهر في الأفق عند الشروق قبل أن تصل إليه فعلاً، والعكس صحيح عند غروبها، فإنها تبقى ظاهرة في المجال الأفقي بعد أن تكون قد احتجبت تحته، وهو أول من نوّه باستخدام الحجرة السوداء التي تعتبر أساس التصوير الفوتوغرافي[٣].

والكتاب الذي خلَّد اسم **ابن الهيثم** عبر القرون هو **«كتاب المناظر»**، ويوضح هذا الكتاب تصور البصريات كنظرية أولية في الإبصار، مختلفة جذريًّا عن فرض الشعاع المرئي الذي حافظ عليه التقليد الرياضي منذ إقليدس وحتى الكندي.

ولقد أدخل **ابن الهيثم** أيضًا منهجية جديدة على هذا التفسير لعملية الإبصار، وبهذا تمكن من صياغة مسائل كانت إمّا غير مفهومة طبقًا لنظرية الشعاع البصري، أو مُهمَلة من جانب فلاسفة يهدفون أساسًا إلى تفسير ماهية الرؤية أكثر من اهتمامهم بشرح كيفية حدوث الإبصار.

---

(١) موقع إسلام أون لاين: ابن الهيثم عبقري في ثوب الجنون.

(٢) الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص١٢٤.

(٣) محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٤٨.

وعلى الرغم من مكانة ابن الهيثم وبحوثه المبتكرة في علم الضوء، إلا أنه ظل مغمورًا لا يعرفه كثير من الناس، حتى قيض الله له من يكشف عن جهوده وينقب عن آثاره ويجليها، ويكن من هؤلاء العالم العربي مصطفى نظيف، وذلك حين كتب عنه دراسة طيبة رائدة نشرتها جامعة القاهرة في مجلدين، وقد بذل فيها جهدًا مضنيًا في قراءة مخطوطات ابن الهيثم ومثات المراجع الأخرى، حتى خلص إلى حقيقة صادقة، وهي أنَّ ابن الهيثم يُعَد واضع أسس علم الضوء بالمعنى الحديث!!

يقول الأستاذ مصطفى نظيف: «لقد قلب ابن الهيثم الأوضاع القديمة، وأنشأ علمًا جديدًا أبطل فيه علم المناظر، الذي أنشأه اليونان، كما أنشأ علم الضوء الحديث، وإن أثره في الضوء لا يقل عن أثر (نيوتن) في الميكانيكا، فإن عُدّ (نيوتن) بحق رائد علم الميكانيكا في القرن السابع عشر، فإن ابن الهيثم خليقٌ بأن يُعد بحق رائد علم الضوء في مستهل القرن الحادي عشر»[1].

وطالما كان على هذا القدر من المكانة والمنزلة، فإنا نخوض بعض الشيء في شخصيته، نعرض فيها لحياته الشخصية، ثم حياته العلمية..

فهو المهندس البصري أبو علي الحسن بن الهيثم، من أصل عربي، لُقِّبَ ببطليموس الثاني، وجده الأعلى «الهيثم» أي «فرخ النسر»، وقد عُرِف ابن الهيثم عند الأوروبيين بـ (alhazen)، وهو عالم موسوعي من أعظم علماء الرياضيات والفيزياء ومؤسس علم البصريات، وأتقن الطب وصنف فيه لكنه لم يمارسه، وكان دائمًا يقول: «وإني ما مُدَّت لي الحياة، باذل جهدي، ومستفرغ قوتي في مثل ذلك (يقصد الدراسة وتحصيل العلوم)، متوخيًا منه أمورًا ثلاثة: أحدها إفادة من يطلب الحق ويؤثره، في حياتي وبعد مماتي، والآخر أني جعلت ذلك ارتياضًا لي بهذه الأمور في إثبات ما يتصوره ويتقنه فكري من تلك العلوم، والثالث أني صَيرته ذخيرة وعدة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم»[2].

ولد في البصرة عام ٣٥٤هـ / ٩٦٥م وعاش فيها حياته الأولى، وكان في طفولته عازفًا

---

(١) قدري طوقان: الخالدون العرب.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ٣٨٠.

عن اللهو مع أقرانه، مقبلاً على القراءة والاطلاع، كثير التساؤل، حيث اهتمَّ بتحصيل العلم والإلمام بها وصلت إليه الفلسفة والعلوم التعليمية، بل والعلوم الطبية أيضًا[1].

وعندما شبَّ ابن الهيثم اشتغل كموظف في الديوان الحكومي، إلا أنه عكف على مواصلة البحث والدراسة، فكان يقرأ الفلسفة ويشرح ويلخص ويختصر فيها من كتب اليونان ما أحاط فكره بتصوره وصنف في ذلك فروعًا كثيرة، وقد اشتغل بنسخ الكتب فيما بعد، وسار على طريق العلماء، فسافر في طلب العلم، فذهب إلى بغداد والشام ومصر، وتنقل بين أرجاء الدولة الإسلامية.

ولقد كان في كل أحواله زاهدًا عن الدنيا مقبلاً على التحصيل والدراسة، يصفه ابن أبي أصيبعة فيقول: «كان ابن الهيثم فاضل النفس، قوي الذكاء، متفننًا في العلوم، لم يماثله أحد من أهل زمانه في العلم الرياضي، ولا يقرب منه، وكان دائم الاشتغال، كثير التصنيف، وافر التزهد»[2].

ومما يُذكَر في ذلك أنه وهو بالشام عند أحد أمرائها فأعجب به وأراد أن يغمره بالأموال فقال ابن الهيثم: «يكفيني قوت يوم وتكفيني جارية وخادم، فما زاد على قوت يوم إن أمسكته كنتُ خازنَك، وإن أنفقتُه كنتُ وكيلك، وإذا اشتغلتُ بهذين الأمرين فمن الذي يشتغل بأمري وعلمي؟!»[3].

وقد درس في بغداد الطب، واجتاز امتحانًا مقررًا لكل من يريد العمل بالمهنة، وتخصَّص في طب الكحالة (طب العيون)، وكان أهل بغداد يقصدونه للسؤال في عدة علوم، برغم أن المدينة كانت زاخرة بصفوة من كبار علماء العصر.

وقد تعرضنا لموقفه مع الحاكم بأمر الله الفاطمي، عندما استدعاه الأخير للقيام بمشروع على النيل يحجب الفيضان بعدما سمع مقولته: «لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص»[4]، وكيف أنه اعتذر بعد أن أدرك صعوبة

(١) ابن القفطي: أخبار الحكماء ص١١٤.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ٣٧٢.

(٣) البيهقي ظهير الدين: تتمة صوان الحكمة ص١٦.

(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ٣٧٤.

ـ ستحالة إقامة المشروع بإمكانات عصره..

ثم وهو في مصر اتخذ من غرفة بجوار الجامع الأزهر سكنًا، ومن مهنة نسخ بعض ـكتب العالمية موردًا لرزقه، هذا بخلاف التأليف والترجمة؛ حيث كان متمكنًا من عدة لغات، ـكنه لم يكن في سعة من العيش، فقد كان يرتزق من نسخ كتابين أو ثلاثة كتب رياضية، ـهي: كتاب الأصول لإقليدس في الهندسة، وكتاب المجسطي لبطليموس في الفلك، فكان ـخها كل عام فيأتيه من أقاصي البلاد من يشتريها منه بثمن معلوم، لا مساومة فيه ولا ـحودة، فيبيعها ويجعلها مئونة حياته طول سنته[1].

ابن الهيثم.. والمنهج العلمي:

اعتمد ابن الهيثم في بحوثه على منهجين هما: منهج الاستقراء، ومنهج الاستنباط، وفي ـحين كان يعتمد على التجربة والملاحظة، وكان همه من وراء البحث هو الوصول إلى ـحقيقة التي تثلج صدره، وقد حدد الرجل هدفه من بحوثه، وهو إفادة من يطلب الحق ـؤثره في حياته وبعد مماته[2].

وكان ابن الهيثم يرى أن تضارب الآراء هو الطريق الوحيد لظهور الحقيقة، وقد جعل ـ التجربة العملية منهاجًا ثابتًا في إثبات صحة أو خطأ النتائج العقلية أو الفرضيات ـعمية، وبعد ذلك يحاول التعبير عن النتيجة الصحيحة بصياغة رياضية دقيقة.

ويتضح منهج ابن الهيثم في البحث إجمالاً من مقدمة كتابه (المناظر)؛ فقد بين فيه بإيجاز ـطريقة التي هداه تفكيره إلى أنها الطريقة المثلى في البحث، والتي اتبعها في بحوثه، يقول ابن ـهيثم: «.. ونبتدئ في البحث باستقراء الموجودات، وتصفح أحوال المبصرات وتمييز خواص ـجزئيات، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار، وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا ـشتبه من كيفية الإحساس، ثم نرتقي في البحث والمقاييس على التدريج والترتيب مع انتقاد ـمقدمات والتحفظ في النتائج، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل ـ اتباع الهوى، ونتحرى في سائر ما نميزه ونتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء»[3].

---

(1) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ٣٨٠.

(2) محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر عند المسلمين ص١٤٥ بتصرف.

(3) ـنظر: ابن الهيثم: المناظر ص٦٢.

فقد أخذ ابن الهيثم في بحوثه بالاستقراء والقياس، وعُنِيَ في البعض منها بالتمثيل، وهي عناصر البحوث العلمية العصرية، وابن الهيثم في هذا كله لم يسبق فرنسيس بيكون إلى طريقته الاستقرائية فحسب، بل سما عليه سموًّا كبيرًا، وكان أوسع منه أفقًا وأعمق تفكيرًا، وإن لم يُعنَ كما عُنِيَ بيكون بالتفلسف النظري، فهذا المنهج يتسم بالحيوية والتكامل؛ إذ يجد فيه رجل العلم ما يرتاح له من أساليب وطرق تسهل له عمله، ويجد فيه الفيلسوف صاحب النظر المجرد ما يثلج صدره ويقيه جمحات عقله[1].

يقول أحمد أمين: «وأهم ما امتاز به (ابن الهيثم) معرفة نظريات الرياضة، ومن أهم مميزاته تطبيق علمه على العمل»[2].

وفوق ذلك فقد كان ابن الهيثم يتحلى بروح علمية سامقة؛ إذ قرر أن الحقائق العلمية غير ثابتة، وأنها ليست غايات ينتهي إليها العلم، بل كثيرًا ما يعتريها التبديل والتغيير، وهو يؤمل ويرجو رجاء العالم المتواضع الوصول إلى الحقيقة فيقول: «.. ولعلنا ننتهي بهذا الطريق إلى الحق الذي يثلج الصدر ونصل بالتدريج والتلطف إلى الغاية التي عندها اليقين، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم بها مواد الشبهات»[3]!!

وهكذا يتضح أن منهج ابن الهيثم في العلم يلتقي مع المنهج العلمي الحديث وأربى عليه باعتبار سبقه الزمني.

تقول زيجريد هونكه: «والواقع أن روجر بيكون، أو باكوفون فارولام، أو ليوناردو دافنشي، أو جاليليو، ليسوا هم الذين أسسوا البحث العلمي؛ إنما السابقون في هذا المضمار كانوا من العرب، والذي حققه ابن الهيثم لم يكن إلا علم الطبيعة الحديث، بفضل التأمل النظري والتجربة الدقيقة»[4].

وعلى هذا المنهج سار ابن الهيثم في كل مؤلفاته وتصانيفه، وقد كان غزير التأليف متدفق الإنتاج في شتى أنواع المعرفة، فطرق الفلسفة والمنطق والطب والفلك والبصريات

(١) عمر فاروق الطباع، عبد المنعم الهاشمي: ابن الهيثم مؤسس علم الضوء الحديث ص١٠٧، ١٠٨.

(٢) أحمد أمين: ظهر الإسلام ٢/ ٦٥.

(٣) انظر: ابن الهيثم: المناظر ص٦٢.

(٤) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص١٤٨، ١٤٩.

في الرياضيات، مستحدثًا أنماطًا جديدة من الفكر العلمي الأصيل، وقد بلغ عدد مؤلفاته ما يربو على مائتي مؤلف (٢٣٧ مخطوطة ورسالة في مختلف فروع العلم والمعرفة).

وفي البصريات وحدها ألَّفَ ابن الهيثم ما يقرب من أربعة وعشرين موضوعًا، ما بين كتب ورسالة ومقالة، غير أن أكثر هذه الكتب قد فُقد فيما فقد من تراثنا العلمي، وما بقي منها فقد ضمته مكتبات إستانبول ولندن وغيرهما، وقد سلم من الضياع كتابه العظيم «المناظر» الذي احتوى على نظريات مبتكرة في علم الضوء، وظل المرجع الرئيسي لهذا العلم حتى القرن السابع عشر الميلادي بعد ترجمته إلى اللاتينية[1].

ولا يعرف العالم من مؤلفات ابن الهيثم حاليًا سوى خمسين كتابًا لم يبق منها في القاهرة سوى ثلاثة فقط، حيث تسرب العديد من كتبه الأخرى إلى أوروبا أثناء الحملة الفرنسية على مصر وأثناء الحروب الصليبية.

وإلى جانب البصريات فقد كانت له مساهماته في الهندسة، وله فيها ثمانية وخمسون مؤلفًا، تضم آراءه وبراهينه المبتكرة لمسائل تواترت عن إقليدس وأرشميدس بدون برهان، أو في حاجة إلى شرح وإثبات، ويوجد في مكتبات العالم في القاهرة ولندن وباريس وإستانبول أكثر من واحد وعشرين مخطوطًا لابن الهيثم في هذا التخصص، وفي الحساب والجبر والمقابلة ألّف ما لا يقل عن عشرة كتب، لا يوجد منها سوى مخطوطات قليلة في مكتبة عاطف بتركيا منها: حساب المعاملات، واستخراج مسألة عددية.

وفي الفلك أبدع ابن الهيثم وأسهم فيه بفاعلية حتى أُطلق عليه «بطليموس الثاني»، ولم يصلنا من تراث ابن الهيثم في الفلكيات إلا نحو سبع عشرة مقالة من أربعة وعشرين تأليفًا، بحث فيها عن أبعاد الأجرام السماوية وأحجامها وكيفية رؤيتها وغير ذلك[2].

كما أن له في الطب كتابين: أحدهما في «تقويم الصناعة الطبية» ضمّنه خلاصة ثلاثين كتابًا قرأها لجالينوس، والآخر «مقالة في الرد على أبي الفرج عبد الله بن الطيب» لإبطال رأيه الذي يخالف فيه رأي جالينوس، وله أيضًا رسالة في تشريح العين وكيفية الإبصار[3].

---

(١) الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص١٢٣.

(٢) رحاب العكاوي: الحسن بن الهيثم ص٧٢.

(٣) الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٣١٨.

ابن الهيثم.. وعلم الضوء الحديث:

كان لاكتشافات ابن الهيثم تأثير كبير على التراث الفكري الإنساني، أما ما يهمن في تخصصه العلمي فهو كتابه (المناظر)؛ إذ كان ثورة في عالم البصريات، فابن الهيثم لم يتب نظريات بطليموس ليشرحها ويجري عليها بعض التعديل، بل إنه رفض عددًا من نظرياته في علم الضوء، بعدما توصل إلى نظريات جديدة غدت نواة علم البصريات الحديث.

فقد كان بطليموس - كما ذكرنا - يزعم أن الرؤية تتم بواسطة أشعَّة تنبعث من العين لا الجسم المرئي، وقد تبنى العلماء اللاحقون هذه النظرية، ولما جاء ابن الهيثم نسف هذه النظرية في كتابه «المناظر»، وبين أن الرؤية تتم بواسطة الأشعة التي تنبعث من الجسم المرئي باتجاه عين المبصر، وبعد سلسلة من الاختبارات أجراها ابن الهيثم بيّن أن الشعاع الضوئي ينتشر في خط مستقيم ضمن وسط متجانس.

وقد أثبت ذلك بقوله في كتاب المناظر: «إمّا أن يكون (أي الشعاع) جسمًا أو لا، فإن كان جسمًا فنحن إذا نظرنا إلى السماء ورأينا الكواكب فقد خرج من البصر جسم ملأ ما بين السماء والأرض ولم ينقص من البصر شيء، وهذا محال في غاية الاستحالة وفي غاية الشناعة، وإن لم يكن جسمًا فهو لا يحس هو نفسه بالبصر، فالإحساس ليس إلا للأجسام ذات الحياة..» [1].

ثم بعد مناقشة مثل هذه الآراء وغيرها يدلي برأيه (في الفصل السادس من المقالة الأولى) فيقول: «فلنحرِّر الآن ما استقرَّ من جميع ما ذكرناه فنقول: إن البصر يُحِسُّ بالضوء واللون اللذين في سطح المبصَر من الصورة التي تمتد من الضوء واللون اللذين في سطح المبصَر في الجسم المشِفّ المتوسط بين البصر والمبصَر، وليس البصر شيئًا من صور المبصَرات إلا من سموت الخطوط المستقيمة التي تتوهم ممتدة بين المبصَر ومركز البصر فقط، وإذا قد تحرَّر ذلك وتبين مع هذه الحال أن هذا المعنى ممكن وغير ممتنع فإنا نحرر الآن الدعوى..» [2].

كذلك برهن ابن الهيثم رياضيًا وهندسيًا علي كيفية النظر بالعينين معًا إلى الأشياء في آن واحد دون أن يحدث ازدواج في الرؤية برؤية الشيء شيئين، وعلَّل ابن الهيثم ذلك بأن صورتي

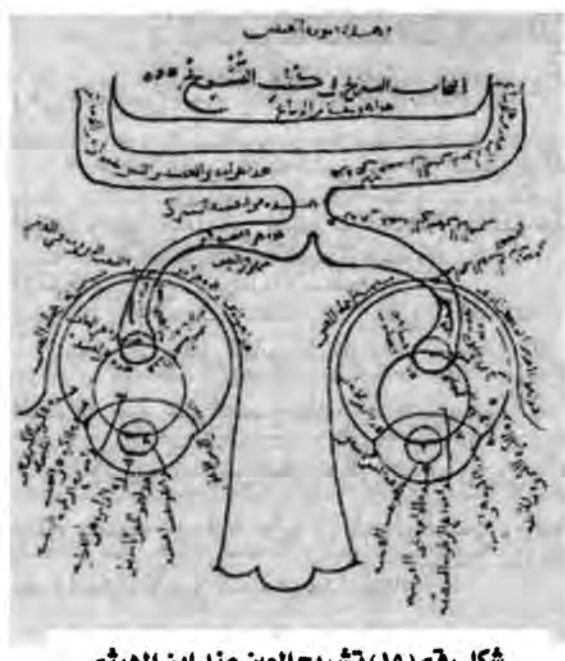
---

(١) انظر: ابن الهيثم: المناظر ص١٣٣.

(٢) انظر: ابن الهيثم: المناظر ص١١٩.

الشيء المرئي تتطابقان على شبكية العينين، وقد وضع ابن الهيثم بهذه البرهنة وذلـك التعليـل الأساس الأول لما يعرف الآن باسم الاستريسكوب.

وكان ابن الهيثم أول من درس العين دراسة علمية، وعرف أجزاءها وتشريحها ورسمها، وأول من أطلق على أجزاء العين أسماء أخذها الغرب بنطقها أو ترجمها إلى لغاته (انظر شكل رقم ٣)، ومن هذه الأسماء : القرنية (Cornea) ، والشبكية (Retina) ، والسائل الزجاجي (Vitrous Humour) ، والسائل المائي (Aqueous Humour) .



شكل رقم (١٥) تشريح العين عند ابن الهيثم

ومن أهم إنجازاته كذلك في هذا المجال - كما يتضح من كتابه «المناظر» - ما يلي:

• أنه أول من أجرى تجارب بواسطة آلة الثقب أو البيت المظلم أو الخزانة المظلمة واكتشف منها أن صورة الشيء تظهر مقلوبة داخل هذه الخزانة، فمهد بهذا الطريق إلى ابتكار آلة التصوير، وبهذه الفكرة وتلك التجارب سبق ابن الهيثم العالمين الإيطاليين «ليوناردو دافنشي» و«دي لا بورتا» بخمسة قرون[1].

• وضع ابن الهيثم ولأول مرة قوانين الانعكاس والانعطاف في علم الضوء، وعلَّل انكسار الضوء في مساره، وهو الانكسار الذي يحدث عن طريق وسائط كالماء والزجاج والهواء، فسبق ابن الهيثم بما قاله العالم الإنجليزي نيوتن[2].

• قام بتعريف الضوء بصورة قريبة مما نعرفه اليوم، وذلك بأنه جسم مادي لطيف يتألف

---

(١) جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٠٤.

(٢) السابق نفسه ص٣٠٣.

من أشعة لها أطوال وعروض. وناقش خصائصه، وقام بتعريف الانعكاس، وحدد بصورة قاطعة أن زاوية السقوط تساوي زاوية انعكاس الضوء في المرايا[١].

- كان أول من قال بأن للضوء سرعة محددة يمكن قياسها[٢].

- حدَّدَ اتجاه انكسار الضوء عند انتقاله من وسط إلى وسط أقل أو أكثر كثافة من الأول فيكون الانكسار (الانعطاف في لفظه) مبتعدًا أو مقتربًا من العمود المقام على المستوى الفاصل بين الوسطين[٣].

- وكما تقول الموسوعة العلمية «سارتون»: فابن الهيثم يعتبر أول مخترع للكاميرات وهي ما يُسمَّى عمليًّا:(Camera obscura)[٤].

- عرض لصور الانعكاس من على السطوح المختلفة، وهو ما عُرف باسم مسألة ابن الهيثم، وفيها تعامل ابن الهيثم مع معادلة من الدرجة الرابعة، وذلك لتحديد مكان نقطة الانعكاس لكافة أشكال الأسطح[٥].

ومن يطَّلع على كتاب المناظر والموضوعات التي تتعلق بالضوء وما إليه، يخرج بأن ابن الهيثم قد طبع علم الضوء بطابع جديد لم يسبق إليه، وقد ألف هذا الكتاب عام ٤١١هـ/ ١٠٢١م، وفيه استثمر عبقريته الرياضية، وخبرته الطبية، وتجاربه العلمية، فتوصل فيه إلى نتائج وضعته على قمة عالية في المجال العلمي، وصار بها أحد المؤسسين لعلوم غيّرت من نظرة العلماء لأمور كثيرة في هذا المجال[٦].

وخلاصة القول أنَّ ما أتى به ابن الهيثم قبل أكثر من ألف عام، شيء كثير يستحق أن ينحني العلماء أمامه إجلالاً واحترامًا؛ فهو بحق أكبر فيزيائي مسلم، وكتابه في البصريات تضمن أول وصف صحيح للعين بأخلاطها المائية وجسمها البللوري

---

(١) عمر فاروق الطباع، عبد المنعم الهاشمي: ابن الهيثم مؤسس علم الضوء الحديث ص٩١.

(٢) رحاب عكاوي: الحسن بن الهيثم الحكيم بطليموس الثاني ص١١٧.

(٣) رحاب عكاوي: الحسن بن الهيثم الحكيم بطليموس الثاني ص١٠٠.

(٤) انظر: جورج سارتون: مقدمة لتاريخ العلم ١/ ٧٢١.

(٥) رحاب عكاوي: الحسن بن الهيثم الحكيم بطليموس الثاني ص١١٨.

(٦) رحاب العكاوي: الحسن بن الهيثم ص٨٤ وما بعدها.

وقرنيتها وشبكيتها وغرفتها المظلمة.

كما يتضح لنا أن ابن الهيثم جعل علم الضوء يتخذ صبغة جديدة، وينشأ نشأة أخرى غير نشأته الأولى، حتى أصبح أثره في علم الضوء يشبه تأثير نيوتن العام في علم الميكانيكا، فكانت المعلومات في علم الضوء قبل ابن الهيثم متفرقة لا يربطها رابط، فأعاد البحث فيها من جديد، واتجه في بحثه وجهة لم يسبقه إليها أحد من قبله، فأصلح الأخطاء وأتم النقص، وابتكر المستحدث من البحوث، وأضاف الجديد من الكشوف، واستطاع أن يؤلف من ذلك كله وحدة مترابطة الأجزاء، وأقام الأساس الذي انبنى عليه صرح علم الضوء.

يقول الدكتور محمد يونس الحملاوي: «لقد حفر ابن الهيثم مكانه في سجل تقدم البشرية بحروفٍ من نور حين درس واستوعب ونقد وفنَّد المسلمات التي عاشت عند رواد علم المناظر من أمثال إقليدس وبطليموس وغيرهما.. لقد أضاف الكثير لعلم الضوء حين قال بوجود سرعة للضوء، وحدد أن هذه السرعة متناهية، ولكنها كبيرة جدًّا لدرجة تبدو في بعض الأحيان لا متناهية، وبرهن على ذلك معتمدًا على الأجهزة التي ابتكرها. لقد اخترع ابن الهيثم وصنع بيديه العديد من الأجهزة الفلكية والطبيعية في مجال تجاربه، وبهذا يكون ابن الهيثم قد سبق كُلاًّ من ديكارت ونيوتن، كما سبق ابن الهيثم أينشتاين حينما بيَّن أن سرعة الضوء محدودة، ورغم هذا يتعلم طلابنا تلكم الحقائق عن أي طريق وعن كل طريق إلا عن أصله العربي الأصيل، وعن كل العلماء إلا عن علماء أمتهم!!».

ثم.. وبعد رحلة علمية حافلة بالإنجازات التي أفادت البشرية، وساعدت على قيام النهضة الأوروبية الحديثة.. وبعد تأثير دام أثره إلى اليوم.. وفي القاهرة، وفي سنة ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٩م.. رحل ابن الهيثم -رحمه الله- عن دنيا الناس والطبيعة، وترك أعماله القيمة تنبئ عنه، وتستمد منها الحضارة الإنسانية النور والمعرفة[١].

والحقيقة أن ابن الهيثم لم يكن وحده في هذه الحلبة، فقد أتى من بعده علماء مسلمون أفذاذ اقتفوا أثره وساروا على دربه، بل وقدموه للعالم بعد أن لم يكن قد لمع نجمه!!

(١) الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية ص١٢٢.

علم الضوء بعد ابن الهيثم:

كان البيروني (٣٦٢ - ٤٤١هـ) ثالث ثلاثة - بعد ابن سينا وابن الهيثم - ازدهـرت بهـم الحضارة العربية الإسلامية في الفترة من منتصف القرن الرابع الهجري إلى منتصف القرن الخامس الهجري، ويذهب بعض مؤرخي العلوم مثل الألماني إدوارد سخاو (ت ١٣٤٨هـ-١٩٣٠م) إلى أنَّ البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ[1].

ومثل ابن الهيثم وغيره الكثير من العلماء المسلمين الذين اتصفوا بأنهم موسوعيون، فإن البيروني يكاد يكون قد ألَّف في كل فروع المعرفة التي عهدها عصره؛ فقد كتب في الرياضيات والفلك والتنجيم والحكمة والأديان والتاريخ والجغرافيا والجيولوجيا والأحياء والصيدلة[2]، وفي مجال الطبيعيات اهتم بالخواص الفيزيائية لكثير من المواد، وتناول في كتاباته ظاهرة تأثير الحرارة في المعادن، وضغط السوائل وتوازنها، وتفسير بعض الظواهر المتعلقة بسريان الموائع، وظاهرة المد والجزر وغيرها، وتناولت أبحاثه أيضًا علم ميكانيكا الموائع والهيدروستاتيكا، ولجأ في بحوثه إلى التجربة وجعلها محورًا لاستنتاجاته.

وفيما يختص بسريان الضوء فقد فطن البيروني إلى أن سرعة الضوء تفوق سرعة الصوت[3]، واتفق مع ابن الهيثم وابن سينا في قولهما بأن الرؤية تحدث بخروج الشعاع الضوئي من الجسم المرئي إلى العين وليس العكس[4]، كما يقرِّر أن القمر جسم معتم لا يضيء بذاته وإنما يضيء بانعكاس أشعة الشمس عليه، وكان البيروني يشرح كل ذلك بوضوح تام، ودقة متناهية في تعبيرات سهلة لا تعقيد فيها ولا التواء.

أما الرجل الثاني في موضوعنا هذا فهو كمال الدين أبو الحسن الفارسي، وهو رياضي وعالم فيزياء، ولد بمدينة شيراز في بيت اشتهر بالعلم، وتلقى مبادئ علم الطب عن أبيه، وتتلمذ على يد العالم قطب الدين الشيرازي أشهر علماء المسلمين في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، وصار كمال الدين الفارسي يسترشد بقطب الدين الشيرازي في دراسته، ويعرض عليه

---

(١) المجلد التذكاري للبيروني ص٢٨٢، طبع بكلكتا- الهند ١٩٥١.

(٢) محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١١٤،١١٥.

(٣) حسن نافعة، كليفورد بوزورث: تراث الإسلام ٢/ ١٩٣.

(٤) قدري طوقان: العلماء العرب وما أعطوه للحضارة ص١٦٣.

ما يواجهه من مشاكل علمية، واتصل بالعالم نصير الدين الطوسي الفلكي الرياضي المشهور.

وقد عُني كمال الدين الفارسي بالرياضة، وبدراسة علم الضوء، وكان يُسمى في ذلك العصر - «علم المناظر»، وانصرفت عنايته بصفة خاصة إلى ما يتعلق بكيفية إدراك صور المبصَرات بالانعطاف، ولم يجد في كتاب إقليدس في المناظر، ولا في كتب الفلاسفة بغيته في موضوع الانعطاف، فذهب إلى أستاذه نصير الدين الطوسي يسأله عن رأيه في هذا الموضوع[1].

أرشد نصير الدين الطوسي تلميذه كمال الدين الفارسي إلى كتاب «المناظر» للعالم ابـن الهيـثم وهو في مجلدين كان قد رآه بخزائن الكتب بفارس، وأعطاه نسخة من هذا الكتاب بخط ابن الهيثم نفسه، فاهتم به ودرسه جيدًا، وكان كمال الدين الفارسي قد وجد قبل حصوله على هـذا الكتـاب أقوالاً في الانعطاف تدل على جهل بهذه الظاهرة، وكانت هذه الأقوال ما زالـت تـتردد في بعـض كتب الحكمة، وكان قد مضى على بحوث ابن الهيثم وبحوثه في الضوء والانعطاف ما يقـرب مـن ثلاثمائة عام، ولم تكن بحوث ابن الهيثم قد عَمَّ تداولها في الأوساط العلميـة بالعـالم الإسـلامي في القرون الثلاثة التالية له بسبب ظروف الفتن الداخلية ومحنة التتار والحروب الصليبية.

وكان من أهم إنجازات كمال الدين الفارسي دراسته لكيفية انعكاس الضوء والإبصار في كرة مشفة واحدة، وفي كرتين مشفتين، وقد أوضح كمال الدين الفارسي بعض مظاهر الخداع البصري، حين صبغ وجه حجر الطاحون بعدة ألـوان وأداره بسرعـة فوجـد أنـه لا يظهـر إلا لـون واحـد لامتزاج الألوان، وبذلك يكون قد سبق أسطوانة نيوتن (١٦٤٢ -١٧٢٧م) بعدة قرون.

وقد طوَّر كمال الدين الفارسي نظرية قوس قزح، ووضع لها الشكل النهائي في التراث العربي العلمي ليعلِّل فيها أمرين، الأول: الهيئة التي يظهر عليها قوس قزح في السماء كقوس أو كقوسين متحدي المركز، والثاني: الألوان وترتيبها في كل من القوسين، وقد أضاف الفارسي بنظريته إضافة علمية جديدة لعلم الضوء لم يسبقه إليها ابن الهيثم وسبق بنظريته هذه بحوث ديكارت ونيوتن عن قوس قزح، واستطاع كمال الدين التوصل إلى تفسير جديد لظاهرة قـوسي قـزح مـداها أن قـوس قزح الأول ناتج عن انكسارين للضوء وانعكاس واحد، وأن القوس الثاني ناتج عـن انكسـارين وانعكاسين وبرهن على تحديد انكسار ضوء الشمس خلال قطرات المطر، وهـو الانكسـار الـذي

---

(١) محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ١٤٠، ١٤١.

يحدث ظاهرة قوس قزح عن طريق تمرير شعاع من خلال كرة زجاجية.

وكمال الدين الفارسي هو أول مَن تكلم عن نظرية الضوء الموجية، وله اهتمامات ببعض الظواهر الفلكية مثل: الشفق، والسمت، ودائرة البروج.

ومن أهم مصنفات كمال الدين الفارسي: تنقيح المناظر لذوي الإبصار والبصائر، والهالة وقوس قزح، ومقال: رسالة في أمر الشفق، وله في الرياضيات كتب: أساس القواعد في أصول الفوائد، وهو شرح لكتاب ابن الخوام البغدادي المسمى: الفوائد البهية في القواعد الحسابية، وله كتاب: تذكرة الأحباب في بيان المتحاب وهو في الأعداد المتحابة.

«المناظر».. وعلماء الغرب:

ذكرنا سابقًا أن كمال الدين الفارسي هو الذي عُني ببحوث ابن الهيثم في البصريات ودرسها دراسة وافية، وكان قد ألف في ذلك كتابه المعروف «تنقيح المناظر لذوي الأبصار والبصائر»، وعن طريق هذا الكتاب عرفت أوروبا الكثير عن ابن الهيثم وأعماله وجهوده في علم الضوء بعد أن لم تكن قد ذاعت بعد؛ حيث نشر هذا الكتاب مترجمًا في مدينة بال بسويسرا سنة (٩٨٠هـ/ ١٥٧٢)، وإن كان قد سبق نشره قبل اختراع الطباعة من قبل «جيرار دي كريمونا» أشهر المترجمين في إسبانيا، الذي اهتم بإنشاء أضخم مجموعة فلكية سنة (٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م) عن العلماء العرب، وهذه الكتب استفادت منها إسبانيا والبرتغال في رحلاتها البحرية في المحيط الأطلنطي بفضل الأزياج الفلكية (الجداول الفلكية) والمعلومات الرياضية التي خلفها العلماء العرب.

وعن طريق هذه الترجمات لأعمال ابن الهيثم تأثَّر روجر بيكون وجون بيكام وفيتلو في بحوثهم، فكتاب جون بيكام الموسوم بالمنظور ليس إلا اقتباسًا ناقصًا من كتاب ابن الهيثم في البصريات، وأما كتاب فيتلو الذي ألفه سنة (٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م) فمأخوذ في قسم كبير منه عن ابن الهيثم، ولا يتجاوز النتائج التي وصل إليها.

وكان كتاب «المناظر» معينًا للعديد من العلماء الحقيقيين وغيرهم، فقبل أكثر من خمسة قرون ترجم الإيطالي جيرادي كيرمونا هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية، وما زالت مكتبة الفاتيكان تحتفظ بنسخة من تلك الترجمة حتى الآن، وتلقف علماء الغرب كتاب «المناظر» ليستفيدوا منه في علوم

الضوء والرياضيات، ولينسب البعض إلى أنفسهم بعض الآراء التي جاءت فيه.

ومن بين من نسب لنفسه بعض ما جاء في الكتاب في القرن السابع عشر الميلادي الألماني «كبلر»، كما أن عالم البصريات فيتلو البولوني في كتابه «الذخيرة» نسب لنفسه الكثير مما قاله ابن الهيثم؛ مما حدا بالعالم دي لابورتا أن يقول: «لقد أخطأ فيتلو فيما نقله عن الهازن (ابن الهيثم كما يطلق عليه الأوروبيون) وكان كالقرد المقلد، ولبث هذا الكتاب المنقول عن العربية مرجعًا لأهل أوروبا في علم الضوء خلال القرون الوسطى»[1].

لقد سبق ابن الهيثم كلاً من فيتلو وكبلر في وضع أساس علم البصريات ورغم ذلك مازلنا نشير إلى كليهما على أنهما واضعا أساس علم البصريات في كتبنا!!

ومهما يكن من أمر، فقد حاز ابن الهيثم إعجاب كثير من المنصفين الغربيين، حتى وصفه جورج سارتون - وهو من كبار مؤرخي العلم - بقوله: «هو أعظم عالم فيزيائي مسلم، وأحد كبار العلماء الذين بحثوا في البصريات في جميع العصور»[2].

ووصفه أرنولد في كتاب « تراث الإسلام» يقول عنه: «إن علم البصريات وصل إلى الأوج بظهور ابن الهيثم»[3].

وقد سحرت بحوث ابن الهيثم في الضوء «ماكس مايرهوف» وأثارت إعجابه إلى درجة جعلته يقول: «إن عظمة الابتكار الإسلامي تتجلى لنا في البصريات»[4].

أما دائرة المعارف البريطانية فقد وصفته بأنه رائد علم البصريات بعد بطليموس.

وتقول زيغريد هونكه الألمانية: «كان الحسن بن الهيثم أحد أكثر معلمي العرب في بلاد الغرب أثرًا وتأثيرًا..».

وتقول أيضًا: «لقد كان تأثير هذا العربي (ابن الهيثم) النابغة على بلاد الغرب عظيم

---

(١) مصطفى نظيف: الحسن بن الهيثم بحوثه وكشوفه البصرية ١/ ٣ نقلاً عن تعليق هيئة تحرير
JOURNAK OF AMERICAN ORIENTAL SOCIETY VOL IV P.1859.

(٢) انظر: جورج سارتون: مقدمة لتاريخ العلم ١/ ٧٢١.

(٣) أرنولد: تراث الإسلام.

(٤) قدري حافظ طوقان: علماء العرب وما أعطوه للحضارة ص١٦٧.

الشأن فسيطرت نظرياته في علمي الفيزياء والبصريات على العلوم الأوروبية حتى أيامنا هذه فعلى أساس كتاب المناظر لابن الهيثم نشأ كل ما يتعلق بالبصريات ابتداء من الإنكليزي (روجر بيكون) حتى الألماني (فيتلو)، وأما ليوناردو دافنشي الإيطالي مخترع آلة (التصوير الثقب) أو الآلة المعتمة ومخترع المضخة والمخرط وأول طائرة - ادعاءً - فقد كان متأثرًا تأثيرًا مباشرًا بالعرب، وأوحت إليه آثار ابن الهيثم أفكارًا كثيرة، وعندما قام (كبلر) في ألمانيا خلال القرن السادس عشر ببحث القوانين التي تمكن (جاليليو) بالاستناد إليها من رؤية نجوم مجهولة من خلال منظار كبير كان ظل ابن الهيثم الكبير يجثم خلفه، وما تزال حتى أيامنا هذه المسألة الفيزيائية الرياضية الصعبة التي حلها ابن الهيثم بواسطة معادلة من الدرجة الرابعة مبرهنًا بهذا عن تضلعه البالغ في علم الجبر، نقول: ما تزال المسألة القائمة على حسب موقع نقطة التقاء الصورة التي تعكسها المرآة المحرقة بالدوائر على مسافة منها ما تزال تسمى «بالمسألة الهيثمية» نسبة إلى ابن الهيثم نفسه»[1].

ويقول د. تشالرز جروسي (متخصص في فسيولوجيا الأعصاب والجوانب العصبية والنفسية للإبصار) بعد دراسة قيمة في كتاب المناظر: «والخلاصة الأساسية التي يمكننا الخروج بها هي أن هذا الرجل المرموق يستحق منا دراسة أعمق، فمع أن العمل الفريد الذي قام به ابن الهيثم في دمج الفيزياء والرياضيات ووظائف الأعضاء في نظرية جديدة عن الإبصار قد احتل مكانة تاريخية، إلا أن نظرياته عن سيكولوجية الإدراك وآثارها ستظل مجالاً خصبًا ومهمًا للبحث والدراسة»[2].

وأخيرا كانت هذه الحقيقة.. يقول العالم الرياضي الفرنسي «شارل أبرنون»(١٨٨٠م): «إن بحوث ابن الهيثم في ميدان المناظر تُعَدُّ أصل معارفنا في علم الضوء»[3].

***

(١) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص١٥٠.

(٢) تشالرز جروسي: آراء ابن الهيثم في العين والمخ واستيعابها، موقع ويكيديا الرابط:
http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B7%D8%A8_%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%8A%D9%88%D9%86..

(٣) موقع مهارات النجاح الرابط
http://www.sst5.com/inde.php?lang=0&CODE=02&id=.1455.

الفصل السادس

آراء المستشرقين في الحضارة العلمية الإسلامية

١ - شهادة المؤرخ الإنجليزي ويلز

«كل دين لا يسير مع المدنية في كل أطوارها فاضرب به عرض الحائط، وإن الدين الحق الذي وجدته يسير مع المدنية أينما سارت هو الإسلام.. ومن أراد الدليل فليقرأ القرآن وما فيه من نظرات ومناهج علمية، وقوانين اجتماعية، فهو كتاب دين وعلم واجتماع وخلق وتاريخ، وإذا طُلبَ مني أن أحدّد معنى الإسلام فإني أحدده بهذه العبارة (الإسلام هو المدنية)»[1].

٢ - شهادة العلامة بريفولت

«ما من ناحية من نواحي الازدهار الأوروبي إلا يمكن إرجاع أصلها إلى مؤثّرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة، وإنَّ ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدَّموه لنا من كشوف مدهشة ونظريات مبتكرة، بل إنه مدين بوجوده ذاته... ولم يكن بيكون إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلامي إلى أوروبا المسيحية، وهو لم يَملَّ قطّ من التصريح بأن اللغة العربية وعلوم العرب هما الطريق الوحيد لمعرفة الحق[2].. ولقد انبعثت الحضارة الإسلامية انبعاثًا طبيعيًّا من القرآن، وتميزت عن الحضارات البشرية المختلفة بطابع العدل والأخلاق والتوحيد، كما اتسمت بالسماحة والإنسانية والأخوّة العالمية»[3].

٣- شهادة المفكر ليوبولد فايس

«لسنا نبالغ إذا قلنا: إنَّ العصر العلمي الحديث الذي نعيش فيه، لم يُدشَّن في مدن أوروبا، ولكن في المراكز الإسلامية في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة»[4].

«نحن مدينون للمسلمين بكل محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة، وحَسْبُ

---

(١) عبد المنعم النمر: الإسلام والمبادئ المستوردة ص٨٤.

(٢) أنور الجندي: مقدمات العلوم والمناهج ٤/ ٧١٠ نقلاً عن رويلت بريفولت: بناء الإنسانية.

(٣) أنور الجندي: أخطر ما تواصى به المسلمون عبر الأجيال ص١٦.

(٤) محمد أسد: الإسلام على مفترق الطرق ص٤٠.

المسلمين أنهم كانوا مثالاً للكمال البشري، بينما كنّا مثالاً للهمجية»[1]

٤ - شهادة الكاتب الفرنسي أناتول فرانس

«أسوأ يوم في التاريخ هو يوم معركة (بواتييه) عندما تراجع العلم والفن والحضارة العربية أمام بربرية الفرنجة، ألا ليت شارل مارتل قُطِعَت يدُه ولم ينتصر على القائد الإسلامي عبد الرحمن الغافقي».

«حين نتذكر كم كان العرب بدائيين في جاهليتهم يصبح مدى التقدم الثقافي الذي أحرزوه خلال مائتي سنة، وعمق ذلك التقدم- أمرًا يدعو إلى الذهول حقًّا، ذلك بأن علينا أن نتذكر أيضًا أن النصرانية احتاجت إلى نحوٍ من ألفٍ وخمسمائة سنة لكي تُنشِئ ما يمكن أن يُدعَى حضارة مسيحية، وفي الإسلام لم يُولَّ كلٌّ من العلم والدين ظهره للآخر، بل كان الدين باعثًا على العلم، وإن الحضارة الغربية مدينة للحضارة الإسلامية بشيء كثير إلى درجة نعجز معها عن فهم الأولى إذا لم تتم معرفة الثانية»[2].

٥ - شهادة المسيو سيديو

«لم يشهد المجتمع الإسلامي ما شهدته أوروبا من تحجُّر العقل، وشلّ التفكير، وجدب الرُّوح، ومحاربة العلم والعلماء، ويذكر التاريخ أن اثنين وثلاثين ألف عالم قد أُحرِقوا أحياءً! ولا جدال في أن تاريخ الإسلام لم يعرف هذا الاضطهاد الشنيع لحرية الفكر، بل كان المسلمون منفردين بالعلم في تلك العصور المظلمة، ولم يحدث أن انفرد دينٌ بالسلطة، ومنع مخالفيه في العقيدة كل أسباب الحرية كما فعل الإسلام»[3].

«لقد دِيسَت بالأقدام تلك المدنيةُ العظيمة في الأندلس! ولماذا؟ لأنها نشأت من أصول رفيعة. ومن طباع شريفة، نعم من رجال الإسلام. إن المدنية الإسلامية لم تتنكر يومًا للحياة»[4].

٦ - شهادة العلاّمة جورج سارتون

«المسلمون عباقرة الشرق، لهم مأثرة عظمى على الإنسانية، تتمثل في أنهم تولّوا كتابة أعظم الدراسات قيمة، وأكثرها أصالةً وعمقًا، مستخدمين اللغة العربية التي كانت بلا مراءٍ

---

(١) عبد المنعم النمر: الإسلام والمبادئ المستوردة ص٨٤.
(٢) روم لاندو: الإسلام والعرب ص٢٤٦،٩.
(٣) حسان شمسي باشا: هكذا كانوا يوم كنا ص٨٣.
(٤) محمد الغزالي: ظلام من الغرب ص١٤٠.

حة العلم للجنس البشري»[1].

٧- شهادة الدكتورة لويجي رينالدي

«لما شعرنا بالحاجة إلى دفع الجهل الذي كان يثقل كاهلنا، تقدمنا إلى العرب ومددنا إليهم يدينا؛ لأنهم كانوا الأساتذة الوحيدين في العالم»[2].

٨- شهادة البروفسور غريسيب، مدير جامعة برلين

«أيها المسلمون ما دام كتابكم المقدس عنوان نهضتكم موجودًا بينكم، وتعاليم نبيكم محفوظة عندكم، فارجعوا إلى الماضي لتؤسسوا المستقبل»[3].

٩- شهادة آلبر شامدرور

«لقد عاش العربي في أرض قاحلة، تلهب الشمس رمالها، فاتخذ النجوم دليلاً، والعلم مرشدًا واستطاع أن يجمع علم العالم في أقل من مائة عام، كما استطاع أن يفتح نصف العالم، في أقل من مائة عام أيضًا، وترك لنا في حمراء غرناطة، آثار علمه، وآثار مجده وفخاره»[4].

١٠- شهادة المستشرق الفرنسي جاك رسلر

«في غضون خمسمائة سنة ما بين ٧٠٠ و ١٢٠٠م ساد الإسلام على العالم بقوة حضارته وعلمه .. فكان المقاتل العربي في القرن الحادي عشر مزودًا بالقوس والقذافة قبل الغربيين بمائتي عام وكانت القذافة تستعمل لغرضين فهي لم تكن تسمح بإطلاق عدة أسهم فحسب، بل كانت قادرة على قذفها لمسافة بعيدة ، ومنها ما كان يطلق من على منصات إطلاق ثقيلة . ثم كان العرب أول من صنع البارود بعد ذلك بنصف قرن»[5].

١١- شهادة رينان

«ما يدرينا أن يعود العقل الإسلامي الوَلود إلى إبداع المدنية من جديد؟ إن فترات

---

(١) حسان شمسي باشا: هكذا كانوا يوم كنا ص٨، وانظر: أحمد علي الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ص١١٠،١١١.

(٢) أنور الجندي: مقدمات العلوم والمناهج ٧/ ١٤١.

(٣) حسان شمسي باشا: هكذا كانوا يوم كنا ص٩.

(٤) استيفن هرنبجي، مبادئ السياسة العالمية ص٢٥، نقلاً عن حمراء غرناطة لآلبر شامدرور.

(٥) جاك رسلر: كتاب الحضارة العربية.

الازدهار والانحدار مرَّت على جميع الأمم بما فيها أوروبا المتعجرفة»[1].

١٢ - شهادة غوستاف لوبون

«إنَّ حضارة العرب المسلمين قد أدخلت الأمم الأوروبية الوحشية في عالم الإنسانية فلقد كان العرب أساتذتنا... وإن جامعات الغرب لم تعرف لها موردًا علميًّا سوى مؤلفات العرب، فهم الذين مدّنوا أوروبا مادةً وعقلاً وأخلاقًا، والتاريخ لا يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه... إن أوروبا مَدينة للعرب بحضارتها... وإن العرب هم أول من علَّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين... فهم الذين علَّموا الشعوب النصرانية، وإن شئت فقل: حاولوا أن يعلموها التسامح الذي هو أثمن صفات الإنسان... ولقد كانت أخلاق المسلمين في أدوار الإسلام الأولى أرقى كثيرًا من أخلاق أمم الأرض قاطبةً...»[2].

١٣ - شهادة جلين ليونارد

«يجب أن تكون حالة أوروبا مع الإسلام بعيدة من كل هذه الاعتبارات الثقيلة، وأن تكون حالة شكرٍ أبديٍّ بدلاً من نكران الجميل المقوت والازدراء المهين، فإنَّ أوروبا لم تعترف إلى يومنا هذا بإخلاص طوية وقلب سليم، بالدَّيْن العظيم المدينة به للتربية الإسلامية والمدنية العربية، فقد اعترفت به بفتور وعدم اكتراث عندما كان أهلها غارقين في بحار الهمجية والجهل في العصور المظلمة فقط. ولقد وصلت المدنية الإسلامية عند العرب إلى أعلى مستوى من عظمة العمران والعلم، فأحيت المجتمع الأوروبي وحفظته من الانحطاط، ولم نعترف - ونحن نرى أنفسنا في أعلى قمة من التهذيب والمدنية - بأنه لولا التهذيب الإسلامي، ومدنية العرب وعلمهم وعظمتهم في مسائل المدنية، وحُسن نظام مدارسهم، لكانت أوروبا إلى اليوم غارقة في ظلمات الجهل»[3].

١٤ - شهادة كارادي فو

«إن العرب ارتفعوا بالحياة العقلية والدراسة العلمية إلى المقام الأسمى في الوقت الذي كان العالم المسيحي يناضل نضال المستميت للانعتاق (للتحرُّر) من أحابيل البربرية وأغلالها،

---

(١) أنور الجندي: مقدمات العلوم والمناهج ٨/ ١٧٣.

(٢) انظر: غوستاف لوبون: حضارة العرب ص٢٦،٢٧٦،٤٣٠،٥٦٦.

(٣) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية القاهرة ١٩٦٨ ص٨٢.

وصلوا إلى قمة نشاطهم (الذي استمر حتى القرن الخامس عشر) في القرنين التاسع والعاشر. ومن القرن الثاني عشر فصاعدًا، كانت مراكش والشرق الأوسط محطَّ أنظار كل غربي يميل إلى العلم ويتذوقه، وفي هذه الفترة شرع أبناء أوروبا يترجمون آثار العرب، كما كان العرب قد ترجموا آثار الإغريق»[1].

١٥ - شهادة زيغريد هونكه

«إن هذه القفزة السريعة المدهشة في سلم الحضارة التي قفزها أبناء الصحراء، والتي بدأت من لا شيء لهي جديرة بالاعتبار في تاريخ الفكر الإنساني. وإن انتصاراتهم العلمية المتلاحقة التي جعلت منهم سادة للشعوب المتحضرة لَفَريدة من نوعها، لدرجة تجعلها أعظم من أن تُقارَن بغيرها، وتدعونا أن نقف متأملين: كيف حدث هذا؟ إنه الإسلام الذي جعل من القبائل المتفكِّكة شعبًا عظيمًا، آخت بينه العقيدة، وبهذا الروح القوي الفتي شقَّ العربُ طريقهم بعزيمة قوية تحت قيادة حكيمة وضع أساسها الرسول بنفسه!! أوَليس في هذا الإيمان تفسير لذلك البعث الجديد؟! والواقع أن روجر بيكون أو جاليليو أو دافنشي ليسوا هم الذين أسسوا البحث العلمي .. إنما السبّاقون في هذا المضمار كانوا من العرب الذين لجئوا في بحثهم إلى العقل والملاحظة والتحقيق والبحث المستقيم، لقد قدَّم المسلمون أثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهَّدت أمام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة وتسلطه عليها اليوم. وإنَّ كل مستشفى، وكل مركز علمي في أيامنا هذه إنما هي في حقيقة الأمر نُصب تذكاري للعبقرية العربية.

وقد بقي الطب الغربي قرونًا عديدةً نسخة ممسوخة عن الطب العربي، وعلى الرغم من إحراق كتب ابن سينا في مدينة بازل بحركة مسيحية عدائية، فإن كتب التراث العربي لم تختفِ من رفوف المكتبات وجيوب الأطباء، بل ظلَّت محفوظة يسرق منها السارقون ما أحبُّوا أن يسرقوا»[2].

١٦ - شهادة بلسنر

«لا يكاد يوجد شيء من جهود المسلمين في ميدان العلوم لم يتأثر به الغرب بطريق أو بآخر».

«لم تكن علوم المسلمين بطبيعة الحال العامل الوحيد الذي أدى إلى إحياء العلم في الغرب،

---

(١) كارداي فو: الفلك والرياضيات بحث منشور بكتاب تراث الإسلام بإشراف «أرنولد» ص٥٦٤.

(٢) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص ١٤٨، ٢٦٩، ٣١٥، ٣٥٤.

فتقاليد العلوم القديمة لم تتلاش تمامًا وسط الفوضى التي عمت خلال عصر غزوات البرابرة لأوروبا، ومع ذلك فمن الصحيح أن علماء المسلمين أعطوا العلم الأوروبي قوة دفع جديدة وأهم من ذلك أن هذا العلم الغربي قد اكتسب مادة أدَّت إلى إثرائه بدرجة لا نظير لها بفضل الترجمات العربية عن الإغريق، وكذلك بفضل الإنتاج العلمي المستقل للمسلمين أنفسهم..»[1].

١٧ - شهادة يبدي تومبسون

«إن انتعاش العلم في العالم الغربي نشأ بسبب تأثر شعوب غربي أوروبا بالمعرفة العلمية العربية وبسبب الترجمة السريعة لمؤلفات المسلمين في حقل العلوم ونقلها من العربية إلى اللاتينية لغة التعليم الدولية آنذاك. ويقول في مكان آخر: إن ولادة العلم في الغرب ربما كانت أمجد قسم وأعظم إنجاز في تاريخ المكتبات الإسلامية»[2].

١٨ - شهادة أوسلر

«إن ابن سينا مكّن علماء الغرب من الشروع في الثورة العلمية، التي بدأت فعلاً في القرن الثالث عشر وبلغت مرحلتها الأساسية في القرن السابع عشر»[3].

١٩ - شهادة جوان فرينيه

«وإذا نحن تحرَّينا الدقة نجد أن أصول التطور العلمي للرياضيات عند المسلمين تبدأ مع القرآن الكريم، وذلك فيما ورد في القرآن من الأحكام المعقَّدة في تقسيم الميراث، ويُعَدُّ الخوارزمي أول رياضي مسلم، ونحن مدينون له بمحاولة وضع تنظيم منهجي باللغة العربية لكل المعارف العلمية والتقويم، كما ندين له باللفظ الإسباني «غوارزمي» الذي يعني الترقيم (أي الأعداد ومنازلها والصفر)، وكان الجبر هو الميدان الثاني الذي عمل فيه الخوارزمي، وهو فرع من الرياضيات لم يكن حتى ذلك الوقت موضوعًا لأية دراسة منهجية جادة»[4].

---

(١) بلسنر: العلوم الطبيعية والطب دراسة منشورة بكتاب تراث الإسلام إشراف «شاخت» و«بوزورث» ص٧٩، ٨١.

(2) Yhompsonj\J\W\The Medioval Library N.Y. Hafner Piblishing Company 1967 P263.

(٣) شوقي أبو خليل: دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية ص١٢٣.

(٤) جوان فرينيه: الرياضيات والفلك والبصريات دراسة منشورة بكتاب تراث الإسلام إشراف «شاخت» و«بوزورث» القسم الثالث ص١٦٨.

٢٠- شهادة براند تراند جون

«إن قرطبة التي فاقت كل حواضر أوروبا مدنيةً أثناء القرن العاشر كانت في الحقيقة محطَّ عجاب العالم ودهشته، كمدينة فينسيا في أعين دول البلقان. وكان السياح القادمون من لشمال يسمعون بما هو أشبه بالخشوع والرهبة عن تلك المدينة التي تحوي سبعين مكتبة، وتسعمائة حمام عمومي؛ فإن أدركت الحاجة حكام ليون أو النافار أو برشلونة إلى جراحٍ أو مهندس أو معماري أو خائط ثياب أو موسيقي فلا يتجهون بمطالبهم إلا إلى قرطبة»[1].

٢١- شهادة دوبير

«ولما آلت الخلافة إلى المأمون سنة ٨١٣م صارت بغداد العاصمة العلمية العظمى في لأرض؛ فجمع الخليفة إليها كتبًا لا تحصى، وقرَّب إليه العلماء، وبالَغ في الحفاوة بهم. وقد كانت جامعات المسلمين مفتوحة للطلبة الأوروبيين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب لعلم، وكان ملوك أوروبا وأمراؤها يَغْدون على بلاد المسلمين ليُعالَجوا فيها»[2].

٢٢- شهادة نيكلسون

«وما المكتَشَفات اليوم لَتُحسَب شيئًا مذكورًا إزاء ما نحن مدينون به للرُّوّاد العرب لذين كانوا مشعلاً وضّاءً في القرون الوسطى ولا سيما في أوروبا»[3].

٢٣- شهادة وايدمان

«إن العرب أخذوا بعض النظريات عن اليونان وفهموها جيدًا، وطبَّقوها على حالات كثيرة ومختلفة، ثم أنشئوا من ذلك نظريات جديدة وبحوث مبتكرة، فهم بذلك قد أسدوا إلى لعلم خدماتٍ لا تقلُّ عن الخدمات التي أتت من مجهودات نيوتن، وفاراداي، ورُنتجن»[4].

٢٤- شهادة كمستون

«إنَّه لو لم يكن للعرب غير هذا الفضل في الإنقاذ، لكفاهم خدمة وفخرًا. لقد رفع

---

(١) براند تراند جون: إسبانيا والبرتغال دراسة منشورة بكتاب تراث الإسلام بإشراف «أرنولد» ص٢٧.

(٢) دوبير: المنازعة بين العلم.

(٣) قدري طوقان: علماء العرب وما قدموه للحضارة ص٦.

(٤) المصدر السابق نفسه ص١٠.

العرب شأن الطب ولهم الفضل في جعل الجراحة قسمًا منفصلاً عنه، وفي إنشاء المستشفيات والتفنن فيها، وفي الترخيص الشرعي لممارسة الطب»[1].

٢٥- الباحث الألماني الدكتور بير بورمان

«إن إنجازات المسلمين في العالم واضحة جليَّة في كل شئون العلوم والثقافة، بل إن إنجازاتهم في مجال الطب لا يستطيع أحد إنكارها، وهذا هو ما دفعني إلى تأليف كتاب بعنوان (الطب الإسلامي في القرون الوسطى)». وقال: «دفعني لتأليف هذا الكتاب أنني كمسيحي ألماني أدين بالفضل في جزء من ثقافتي للثقافة الإسلامية، وهذا ما أحاول توضيحه وتأكيده رغم محاولات البعض طمس الدور المهم الذي لعبه المسلمون في أوروبا والعالم، ولقد عكفت أنا وزميلتي الباحثة «إيميلي سافاج سميث» على رصد إنجازات المسلمين في مجال الطب في القرون الوسطى»، وأضاف: «إن المستشفيات الإسلامية كانت عبارة عن أوقاف إسلامية، وكانت تقدم الخدمة الطبية لكل الناس بصرف النظر عن ديانتهم، فهناك اليهود والمسيحيون والصابئة والزرادشتيون وغيرهم، فكان المستشفى الإسلامي يعالج الجميع. وهذا يعني تسامحًا إسلاميًّا كبيرًا مع غير المسلمين».. وعن أهم الأمراض التي أسهم فيها المسلمون بعلم جديد، قال: «الكثير من الأمراض، إلا أن أخطرها هو مرض المالنخوليا»[2].

٢٦- شهادة ي. هل

«من تراث العرب علم حساب المثلثات ونظريات الزوايا والتَّماس، ولم يكن في استطاعة بيورباخ ورجيوناس وكوبرنيق أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه دون أساس من علوم العرب وما أسهموا به في ميدان الرياضيات؛ ذلك أن العرب أحبُّوا تدعيم نظرياتهم بنماذج عملية، وساعدهم ذلك على وصول درجة الكمال في علم الجوادسيا (مقياس سطح الأرض) الخاص بقياس ارتفاع الجبال واتساع الوديان، أو حساب المسافة بين نقطتين تقعان على سطح منبسط، واستخدم العرب هذا العلم أيضًا في تصميم مجاري المياه»[3].

---

(١) قدري طوقان: علماء العرب وما قدموه للحضارة ص١٢.

(٢) حوار له بجريدة الأخبار المصرية بتاريخ ١٣/ ٤/ ٢٠٠٧.

(٣) ي. هل: الحضارة العربية ص١٠٨، تعريب الدكتور إبراهيم العدوي.

٢٧- شهادة جوستاف إ. فون جرونيباوم

«كان الرازي يتناول الطب على صورة علمية حقًّا، حتى لقد كتب رسالة موضوعها «أن مهرة الأطباء أنفسهم لا يستطيعون شفاء جميع الأمراض»[١].

٢٨- شهادة مايرهوف

«كان تفوق المسلمين العلمي والمادي في الشطر الأعظم من العصر الوسيط معترَفًا به غير منكور إلى حدٍّ بعيد. ثم يتناقص ذلك التفوق قرب نهاية ذلك العصر بدخول الشرق في دور الركود الذهني والاضمحلال الاقتصادي، على حين تنهض أوروبا وتتماسك وقد نبهها في حد كبير اطِّراد إلمامها بالعلوم الإسلامية»[٢].

٢٩- شهادة تشرش

«يعود الفضل للعرب إذ إنهم كانوا أول من أوجد حوانيت الصيدلة لبيع الأقرباذينات[٣]، ويغلب على الظن أنه لولا العرب لما وصل الطب الأوروبي إلى ما هو عليه الآن»[٤].

٣٠- شهادة تومبسون

«إنَّ انتعاش العلم في العالم الغربي نشأ بسبب تأثُّر شعوب غربي أوروبا بالمعرفة العلمية العربية، وبسبب الترجمة السريعة لمؤلَّفات المسلمين في حقل العلوم، ونقلها من العربية إلى اللاتينية لغة التعليم الدولية آنذاك.. إنَّ ولادة العلم في الغرب، ربما كان أمجد قسم، وأعظم إنجاز في تاريخ المكتبات الإسلامية»[٥].

٣١- شهادة ماكس فانتيجو

«كل الشواهد تؤكد أن العلم الغربي مدين بوجوده إلى الحضارة العربية الإسلامية، وأن المنهج العلمي الحديث القائم على البحث والملاحظة والتجربة، والذي أخذ به علماء أوروبا، إنما كان نتاج اتصال العلماء الأوروبيين بالعالم الإسلامي

---

(١) جوستاف إ. فون جرونيباوم: حضارة الإسلام ص٤٢٤، ترجمة عبد العزيز توفيق.

(٢) انظر تراث الإسلام ص٣٥٣.

(٣) الأقراباذين: فارسية تعني فن تركيب الدواء.

(٤) محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٨٨.

(5) Thompson the mediaeval n. y. hafner piblishing combany page263.

عن طريق دولة العرب المسلمين في الأندلس»[1].

٣٢- شهادة الزعيم الهندي «جواهر لال نهرو»

«إنهم - العرب - آباء العلم الحديث وإنَّ بغداد تفوقت على كل العواصم الأوروبية فيما عدا قرطبة عاصمة إسبانيا العربية «الأندلس»، وإنه كان لا بُدَّ من وجود ابن الهيثم والحسن والكندي وابن سينا والخوارزمي والبيروني لكي يظهر عند الغرب «جاليليو، وكبلر، وكوبرنيق، ونيوتن»[2].

٣٣- شهادة الأمير البريطاني تشارلز

«إن الإسلام يمكن أن يعلمنا طريقة للتفاهم والعيش في العالم، الأمر الذي فقدته المسيحية. فالإسلام يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة، والدين والعلم، والعقل والمادة»[3].

٣٤- شهادة الموسوعة البريطانية

«والحق أن كثيرًا من أسماء الأدوية وكثيرًا من مركباتها المعروفة حتى يومنا هذا، وفي الحقيقة المبنى العام للصيدلة الحديثة - فيما عدا التعديلات الكيماوية الحديثة بطبيعة الحال - قد بدأه العرب»[4].

٣٥- شهادة البروفسور هوكينج

«إن الشغف بالعلم والتعطش الدائم لارتياد مناهله، صفات امتاز بها العرب، وهي التي تمد عبقريتهم بالقوة المبدعة الخلاقة، يعشقون الحرية ويتطلعون دومًا إلى المثل العليا بدون تعصب ولا تزمت، ولسوف نرى عندما تزول اللفحة المحرقة التي أصابت العرب وخدَّرت نفوسهم، أن عناصر الثروة العلمية الكامنة والشجاعة الفكرية الخابية سوف تنطلق من عقالها، وتتحرر من أسرها ليعودوا سريعًا لاحتلال مكانتهم على الأرض»، ويضيف: «والدليل على قولي هو ما كان من انطلاق العرب في نهضتهم الأولى وما تركوا للأجيال من

---

(١) ماكس فانتيجو: في كلمة له أمام مؤتمر الحضارة العربية الإسلامية المعقود في جامعة برنستون في واشنطن عام ١٩٥٣م. انظر شوقي أبو خليل، هاني المبارك: دور الحضارة العربية والإسلامية في النهضة الأوروبية ص١٢٥.

(٢) جواهر لال نهرو: لمحات من تاريخ العالم.

(٣) محاضرة «الإسلام والغرب» والتي ألقاها في مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية عام ١٩٩٣.

(٤) الموسوعة البريطانية ١٨/ ٤٦ الطبعة الحادية عشرة.

تراث علمي، وآثار خالدة، وهذا ما يزعمون فعله في العصر الحاضر..»[1].

٣٦- شهادة الدكتور كمبل

«إن أوروبا كانت من عصر شارلمان حتى تأسيس مدرسة (سالرنو) الطبية (العرب هم الذين أسسوها)، قد انحدرت إلى أدنى دركات الانحطاط، وإن شعوبها لم تكن لتقارن بالهمج الأسطوريين الذين عاشوا في أدنى حدود المدنية، وأنها كانت كلها حتى الحروب الصليبية (١٠٩٦ - ١٢٧٢م) باستثناء إسبانيا وإيطاليا (وكانتا تحت النفوذ العربي الإسلامي) في حالة همجية تامة»[2].

٣٧- شهادة أندرو ديكسون وايت

«إن معاملة المجانين في العالم الإسلامي منذ عصر عمر وما بعده كانت أرحم بكثير من الوضع الذي ساد في طول العالم المسيحي وعرضه مدة ثمانيةَ عشرَ قرنًا من الزمان، كان المجانين يُعتَبَرون أشخاصًا ممسوسين تقمصتهم الشياطين، ومن ثَمَّةَ تعرَّضوا لأقصى ضروب التنكيل والوحشية».

ويقول أيضًا: «إن الراهب جون هوارد لاحظ في القرن الثامن عشر ما لاحظه غيره من الرُّهبان والرَّحالة الأوروبيين في ذلك العصر وقبل ذلك، أنَّ المسلمين قد وفَّروا كثيرًا من الوسائل الرحيمة للمجانين، لم يَرَ هؤلاء لها مثيلاً في أراضي أوروبا المسيحية. والحق أن المسلمين هم الذين نبهوا إلى ضرورة بذل الجهود التي بدأت في أوروبا ابتداء من القرن الثامن عشر لمعاملة المجانين معاملة رحيمة»[3].

٣٨- شهادة سميث

«إن البيروني كان ألمع أهل زمانه في الرياضيات، وإن الغربيين مدينون له بمعلوماتهم عن الهند ومآثرهم في العلوم»[4].

---

(١) استيفن هو كينج: مبادئ السياسة العالمية ص ٢٥.

(2) D. Campbell: ARABIAN Medicine Vol 1/107,108.

(٣) انظر:

A. D. White: A History of the Warfare of Science with Theology in Christendom Vol.123/11.

(٤) قدري حافظ طوقان: تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ص٣١١، نقلاً عن سميث: تاريخ الرياضيات الجزء الأول.

٣٩- شهادة سنجر

«نستطيع أن نستبين بوضوح الحالة الراهنة في ذلك العصر بأن نستجمع الصورة الحقيقية من وثائق مختلفة، تدل على أن طالب العلم الأوروبي، المشغوف بالعلم، المتطلع إلى الاستزادة من المعرفة ذاك الذي كانت الدراسة في باريس أو بادوا أو أكسفورد لا ترضيه، إنما كان يذهب إلى طليطلة أو قرطبة»[١].

٤٠- شهادة جون هرمان راندال

«وسط هذا العالم الذي أخذت رقعته في الاتساع اتجه رجال القرون الوسطى إلى المعرفة العلمية التي وجدوها في مكاتب العرب وجامعاتهم الغنية، وحين أخذ الغرب يستيقظ في مطلع القرون الوسطى انتقل مركز الثقافة الإسلامية بنتيجة فعل المتعصبين من المصلحين المسلمين من الخلافة الشرقية إلى إسبانيا، وعن طريق إسبانيا جاءت أول معرفة بمؤلفات أرسطو الكبيرة، ولكن المسلمين أنقذوا من العالم القديم شيئًا كان أرسطو بالرغم من عبقريته عاجزًا كل العجز عنه وهو العلم الرياضي والآلي»[٢].

***

(١) Ch. Singer: Medieval Contribution to modern Civlization P.124.

(٢) جون هرمان راندال: تكوين العقل الحديث ١/ ٣٣١.

الباب الثاني: صناعة العلمـــاء

قد يبدو غريبًا عنوان هذا الباب، وقد يبدو أشد غرابةً عند من يتواضع كثيرًا فيجعـل همَّـه وطموحه فقط أن يصبح طالب علم، أو - كما يقول بعضهم - «طُويلب علم»..!!

ولا شك أن مثل هذه الهمة هي همة قاصرة، وهي همة تعجز في أن تلحق - بالمرة - بركب العلماء.. وأولى بصاحبها وأجدر أن يقف مع نفسه وقفـة أخـرى، يجـدد العـزم، ويعقد العهد قبل أن تتفلت من يده الأيام، ويندم ولات حين مناص!

يقول المتنبي:

إذا غـامرت في شـرفٍ مـروم	فـلا تقْنـعْ بمـا دُون النُّجـومِ
فطعـمُ المـوتِ في أمـرٍ حقـيرٍ	كطعـمِ المـوتِ في أمـرٍ عظـيمِ

لذا لا يصلح لك إلا أن تكون عالمًا.. وليس فقط من طلاب العلم..

ولا شك أن ذلك يتطلب نوعًا خاصًا مـن الإعـداد.. فيتطلـب خطـة بعينهـا، ويتطلـب حيـاة خاصة، وأيضًا حالة نفسية معينة.. أو قل: يتطلب ذلك منهجًا في الحياة جديدًا، فتصبح لـك طريقـة تفكير خاصة، وطريقة ترتيب وقت تناسب هذه الحياة الخاصة، بل وطريقة نـوم وأكـل مختلفـة عـن بقية الناس.. إنها حياة إنسان يُربَّى ليُغيِّر لا ليتغير، ويؤثِّر لا ليتأثر.. إنها حياة مختلفة حقًّا!!

ومثل هذه الحياة الجديدة.. نقف على أبعادها وأطوارها، من خلال هـذا البـاب في فصوله الخمسة التالية.

الفصل الأول: منزلة العلماء.

الفصل الثاني: جهاد العلماء.

الفصل الثالث: أوقات العلماء.

الفصل الرابع: أخلاق العلماء.

الفصل الخامس: تنشئة العلماء.

الفصل الأول

مَنْزِلَةُ الْعُلَمَـــاءِ

تُثمَّن الأشياء وتُقدَّر بحسب قيمتها، ومن ثم تكون الأولويات في تحصيلها.. ولولا ذلك لاختلط الغث بالسمين والحابل بالنابل، وما عُرف طعمٌ للحياة..

وقد علمنا في الباب الأول قيمة العلم في الميزان الإسلامي، وعرفنا أهميته، وكيف أن حياة الناس لا تستقيم إلا به، وكيف كان صفةً لازمةً للأنبياء عليهم السلام..

وكان من رحمة الله ﷻ أنه لم يرفع العلم بذهاب الأنبياء، وإنما جعل الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه يورِّثُوا علمهم هذا قبل أن يموتوا إلى طائفة معينة من البشر، أوكل إليها مهمة تعليم الناس، والقيام بالدور الذي كان يقوم به الأنبياء في حياتهم.. ولكن دون وحيٍ ودون عصمة..

وهذه الطائفة من البشر هي «العلماء»..

عن أبي الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلى الجنةِ، وَإِنَّ الملائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الماءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[1].

ففي نهاية هذا الحديث وضح رسولنا الكريم ﷺ أن الأنبياء لم يتركوا خلفهم مالاً ولا مُلكًا. وإنما تركوا العلم وهذه هي أعظم تركة ومن أخذها فقد فاز حقًّا.. يقول الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

---

(١) الترمذي: كتاب العلم، باب فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢) واللفظ له، وأبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (٢١٧٦٣)، والدارمي (٣٤٢)، وابن حبان (٨٨)، وقال الألباني: صحيح (٦٢٩٧) صحيح الجامع.

وفضلاً عن ذلك فالحديث يبين فضل العلم ومنزلة العلماء؛ فالملائكة تضع أجنحتها لمن يدءون طريق العلم؛ تواضعًا وتعظيمًا وتكريمًا وتبجيلاً لهم.. وكفى بذلك شرفًا ومنزلة..!!

ويخص رسول الله ﷺ طائفة العلماء - وليس طلاب العلم - بمزية خاصة، وهي أنه يستغفر لهم من في السماوات ومن في الأرض، بل يصل الأمر إلى أن تستغفر له الحيوانات أيضًا، بل حتى تلك التي تسبح في جوف الماء..!!

وليت الأمر يقف عند هذا الحد فقط، بل إنه ﷺ يُفضِّل ذلك العالم ويرفع منزلته ومكانته على العابد لله ﷻ!! وقد جعل المقارنة بينهما في ذلك تمامًا كما يكون القمر ليلة البدر - كما ورد ذلك في رواية أخرى - مع غيره من النجوم، وذلك في إشارة إلى أن نور القمر يحجب نور الكواكب الأخرى ويُغطِّي عليها، مهما كثُر نورها بكثرة أعدادها..!!

ألا ترى أن الأمر جد عظيم..؟!

ومع كون هذه المقارنة عظيمة في حق العلماء، إلا أن هناك مقارنة أعظم منها، ذكرها رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي أمامة الباهليِّ ؓ قال: «ذُكِرَ لِرَسُولِ الله ﷺ رَجُلَانِ: أَحَدُهُمَا: عَابِدٌ، وَالْآخَرُ: عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ، حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الحوت لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ»[1].

ففي هذا الحديث الشريف يُقارن رسول الله ﷺ بين العالم والعابد، فيشبه ذلك بالفارق بين منزلة الرسول ﷺ ومنزلة أقل المسلمين، أي أن الفجوة التي بينه ﷺ وبين أدنى المسلمين، تشبه تلك التي بين العالم والعابد..!!

وفي ذلك من الفضل والشرف والمنزلة الرفيعة العالية ما فيه..

فلم يقارن ﷺ بين نفسه وبين أحد العظماء - مثلاً - في الإسلام، رغم أن مثل هذه المقارنة هي عظيمة أيضًا؛ إذ البون شاسع بين رسول الله ﷺ وبين أي إنسان آخر ولكن لعظم المفارقة هنا وبيان الفضل، فهو يقارن بين نفسه ﷺ وبين أدنى المسلمين..!!

ولعل البعض قد يستغرب من كون هذه المنزلة العالية للعالم إنما هي فوق منزلة العابد..

---

(١) الترمذي: كتاب العلم، باب فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٥)، وقال الألباني: صحيح (٤٢١٣) صحيح الجامع.

ولعل هذا العجب يزول إذا علمت أن العابد الذي يعبد الله على غير علم يَضل ويُضل.. وقد كان كفار مكة أنفسهم يعترفون لله بالعبودية ولكنها عبودية على غير علم، فكان أن كفروا وضلوا، يقول تعالى يصف حالهم وهم يتحدثون عن الأصنام: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

كما أن العابد إذا كانت عبادته لله على ظنٍّ فاسدٍ، فإن عبادته هذه لا تُقبل، ويكون بذلك من الخاسرين.. قال تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

ويروي الدارمي أن عمر بن عبد العزيز ﷺ كتب إلى أهل المدينة: «إنه من تعبد بغير علم كان ما يُفسد أكثر مما يصلح»[1].

بل إن من الفقهاء في الإسلام من رفع درجة العلماء فوق درجة المجاهدين في سبيل الله وليس فقط العُبَّاد!! يقول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ، وهو من علماء الصحابة الأفذاذ: «والذي نفسي بيده، ليودَّنَّ رجالٌ قُتلوا في سبيل الله شهداء، أن يبعثهم الله علماء؛ لما يرون من كرامتهم»[2] أي من كرامة العلماء.

ويقول العلامة التابعي الحسن البصري – رحمه الله-: «يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء، فيرجح مداد العلماء!!»[3].

وإن كان البعض قد يستغرب هذا الكلام، إلا أن حجته قوية..

فالجهاد لا يُعرف فضله أساسًا إلا بالعلم، وعليه فلن يجاهد إلا من «علم» قيمة الجهاد ودرجة المجاهد، كما لن تُعرف شروط الجهاد ومشروعيته إلا بالعلم، ولن يُعرف فرض العين من فرض الكفاية فيه إلا بالعلم.. ومن ثم فقد يترك «من لا يعلم» فرضًا ويقيم نافلة، وهذا لا يجوز كما أنه قد يتعدى في جهاده الحدود المشروعة، أو يقاتل من لا يجوز قتاله.. وهذا كله لا يجوز.

---

(١) أبو عبد الله الذهبي: تذكرة الحفاظ ١/ ٣٤٩.

(٢) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ١/ ٨.

(٣) المصدر السابق.

وهكذا، فالعلم هو الذي يحدد مشروعية الجهاد وحدوده.. وبغير العلماء الصادقين لن يوجد مجاهدون على حق..

بل قد يأثم المسلم بجهاده بغير علم!!

وما فتنة الخوارج بخافية على أحد..

فالخوارج كانوا يعبدون الله ﷻ ويقيمون الفرائض ويجاهدون في سبيل الله.. وذلك كله على غير هدى من الله ولا علم، فكان أن خرجوا من الدين بالكلية، بينما هم يحسبون أنفسهم على أفضل درجات العبادة والجهاد..!!

ولما همَّ عمر بن الخطاب ﷺ أن يقتل أحدهم - كما يروي أبو سعيد الخدري ﷺ - قال له رسول الله ﷺ قال: «دَعْهُ؛ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»[1]..

فكانت آفتهم الرئيسية أنهم اجتهدوا بغير علم، فأدى بهم ذلك إلى أن يجاهدوا على باطل.. حتى كان أحد زعمائهم، وهو عبد الرحمن بن ملجم كان يظن تمام الظن أنه تقرب إلى الله ﷻ بقتل أمير المؤمنين، ورابع الخلفاء الراشدين، وزوج بنت رسول الله ﷺ، والمبشر بالجنة مرتّا، عليّ بن أبي طالب ﷺ!!

وكان هذا اعتقادًا راسخًا عند كل الخوارج، حتى إنك لتجد عمران بن قحطان (أحد شعراء الخوارج المتأخرين) يقول واصفًا هذه الطعنة اللئيمة التي قُتل بها علي بن أبي طالب ﷺ:

يا ضربةً من تقيٍّ ما أراد بها	إلا ليبلُغ من ذي العرش رِضوانًا
إني لأذكره حينًا فأحسبه	أوْفَى البريَّة عند الله ميزانًا

كل ذلك، وقد قال رسول الله ﷺ في حقه يوم خيبر - كما يروي سلمة بن الأكوع ﷺ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، أَوْ قَالَ: يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، يَفْتَحُ اللهُ عَلَيْهِ»[2]..

---

[1] البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤١٤)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (١٠٦٤)، وابن حبان (٦٧٤١)، وعبد الرزاق (١٨٦٤٩)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٦٤٧٩).

[2] البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل (٢٨٤٧)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب ﷺ (٢٤٠٦)، وابن حبان (٦٩٣٢).

وحين كان الغد كان هذا الرجل هو علي بن أبي طالب ﷺ..

ولم يقع عبد الرحمن بن ملجم (القاتل) في هذه الكارثة إلا بفقد العلم..

يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

ولكم عانت الأمة الإسلامية من بعض المتحمسين للدين، المشتاقين للجهاد ولكن بغير علم.. وقد أدى بهم حالهم هذا إلى أن يجتهدوا اجتهادات خاطئة ويحكموا أحكامًا جائرة فكانت النتيجة تكفير المجتمعات المسلمة واستباحة دماء الأبرياء والاستهانة بكل الحرمات والقتل والسفك والظلم والبطش باسم الجهاد والدعوة والتضحية!! والإسلام من ذلك كله براء..

ولأجل ذلك، ومن فقهٍ لمنزلة العلماء وقيمة العلم مقارنة بغيره، يقول كعب الأحبار -رحمه الله- موضحًا الحقيقة: «طالب العلم كالغادي الرائح في سبيل الله ﷻ»[(١)]..

وهو ما أكده أبو الدرداء ﷺ حين قال: «من رأى الغدو والرواح إلى العلم ليس بجهاد. فقد نقص في عقله ورأيه»[(٢)]..

وترى سفيان بن عيينة ﷺ، وهو من التابعين يقول أيضًا: «من طلب العلم فقد بايع الله ﷻ»[(٣)]..

ولذلك فإن الله ﷻ رفع قدر العلماء وعظم قيمتهم.. يقول تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

وقد فقه الصحابة والتابعون والصالحون من هذه الأمة الكريمة هذا القدر، فعظموا علماءهم ورفعوا من قدرهم وحفظوا لهم مكانتهم.. ولم يعتبروا في ذلك بعرقٍ ولا نسبٍ ولا جنسٍ ولا عمرٍ ولا منصب.. إنما اعتبروا فقط بالعلم.. فكان معاذ بن جبل ﷺ على صِغر سنه معظمًا جدًّا بين الصحابة، حتى إنهم كانوا لا يرفعون أعينهم في عينه حياءً منه وتعظيمًا له ﷺ.. هذا مع أنه مات وهو لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره، ولكنه عُظِّم بالعلم الذي كان يحويه في صدره ﷺ..

---

(١) أبو نعيم: حلية الأولياء ٥/ ٣٧٧.

(٢) ابن القيم: مفتاح دار السعادة ١/ ٧١.

(٣) المصدر السابق ١/ ٧١.

يقول رسولنا الكريم ﷺ في حقه - كما يروي أنس بن مالك ﷺ-: «وَأَعْلَمُهُمْ بِالحلالِ والحرامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ»[1]..

ومن هنا نستطيع فهم الموقف الذي حكاه لنا أبو مسلم الخولاني ﷺ (من التابعين)، وفيه صور مدى احترام وتعظيم الصحابة لمعاذ بن جبل ﷺ مع حداثة سنه..

يقول أبو مسلم الخولاني: «أَتَيْتُ مَسْجِدَ أَهْلِ دِمَشْقَ فَإِذَا حَلْقَةٌ فِيهَا كُهُولٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِذَا شَابٌّ فِيهِمْ أَكْحَلُ الْعَيْنِ بَرَّاقُ الثَّنَايَا، كُلَّمَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ رَدُّوهُ إِلَى الْفَتَى فَتًى شَابٌّ - وفي رواية أخرى: ولا يصدرون إلا عن رأيه - قَالَ: قُلْتُ لِجَلِيسٍ لِي: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ»[2].

فقد وصف أبو مسلم الصحابةَ الذين هم حول معاذ ﷺ بأنهم «كهول»، أي شيوخ كبار في السن، ورغم ذلك - وكما جاء في الحديث - فكانوا يرجعون فيما يختلفون فيه وفيما لا يدركون له حلاً إلى معاذٍ وهو يومئذ فتًى شاب.. ولم يكن ذلك إلا لعلمه وفقهه ﷺ..

وقد جاء في رواية أن هؤلاء الأصحاب كانوا نحوًا من ثلاثين كهلاً من الصحابة[3]!!

ويؤكد معنى تقديم العلماء على غيرهم بصرف النظر عن مناصبهم ما رواه الإمام مسلم في صحيحه، وهو أن نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الحارث لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ - وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ - فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى. قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى من موالينا. قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى! قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ الله ﷻ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ. قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»[4].

وفي مثل ذلك ما روي أن زيد بن ثابت ﷺ صلى على جنازة فقُرِّبت إليه بغلته ليركبها فجاء ابن عباس ﷺ فأخذ بركابه، فقال زيد: خلِّ عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ.

---

(1) الترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل (٣٧٩٠)، وابن ماجه (١٥٤)، وأحمد (١٤٠٢٢)، وابن حبان (٧١٣٧)، والطيالسي (٢٠٩٦)، وقال الألباني: صحيح (١٢٢٤) السلسلة الصحيحة.

(2) أحمد (٢٢١١٧)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح.

(3) انظر الذهبي: تذكرة الحفاظ ١/ ٢٠.

(4) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه (٨١٧)، أبو القاسم الطبراني: مسند الشاميين (٢٩٩٩).

فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء. فقبَّل زيد بن ثابت ﷺ يده وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ﷺ[1].

فعبد الله بن عباس ﷺ يرفع من قدر زيد بن ثابت ﷺ ويوقِّره ويقدِّمه ويمسك له دابته رغم صغر سنه.. وليس ذلك لشيءٍ إلا لعلمه وفقهه، وكان هذا عموم حال الصحابة رضوان الله عليهم وعهدهم مع العلماء..

يقول علي بن أبي طالب ﷺ: «إن من حق العالم أن لا تكثر عليه بالسؤال، ولا تعنته في الجواب، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشي له سرًّا، ولا تغتاب أحدًا عنده، ولا تطلبن عثرته، وإن زل قبلت معذرته، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى ما دام يحفظ أمر الله تعالى، ولا تجلس أمامه، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته»[2].

وقال علي ﷺ أيضًا: «العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة (أي: ثغرة) لا يسدها إلا خلفٌ منه»[3].

وقال أيضًا منشدًا:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاءُ

وقدر كل امرئٍ ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداءُ

ففزْ بعلمٍ تعشْ حيًّا به أبدًا ... الناس موتى وأهل العلم أحياءُ

بل يذكر الغزالي – رحمه الله- في الإحياء أن حق المعلم أعظم من حق الوالدين؛ لأن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية، والمعلم سبب الحياة الباقية، فهو معلم علوم الآخرة أو علوم الدنيا على قصد الآخرة[4]..

ثم يقرر الغزالي – بعد أن أورد قول ابن المبارك حين سُئل: من الناس؟ فقال: العلماء. قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد – فيقول: «ولم يجعل غير العالم من الناس؛ لأن الخاصية التي

---

(١) ابن القيم: مدارج السالكين ٢/ ٣٣٠، المتقي الهندي: كنز العمال ١٣/ ٣٧٠.

(٢) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ١/ ٥١.

(٣) المصدر نفسه ١/ ٧.

(٤) المصدر نفسه ١/ ٥٥.

تميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم؛ فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله، وليس بقوة شخصه، فإن الجمل أقوى منه، ولا بعظمه فإن الفيل أعظم منه، ولا بشجاعته فإن السبع أشجع منه، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطنًا منه، ولا ليجامع فإن أخس العصافير أقوى على السفاد منه، بل لم يخلق إلا للعلم»[1].

ويروي عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف عالمنا»[2] أي يعرف لعالمنا حقه..

وفي قصة موسى ﷺ مع الخضر كان غاية توقير العلماء وإجلالهم، فمع كون موسى ﷺ على قدرًا وأعظم مكانة؛ كونه ليس نبيًّا فقط، بل من أولي العزم من الرسل، إلا أنه قال للخضر موقرًا مبجِّلاً: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾!

فهو يصرح بأنه سيتبع الخضر، وسبب الاتباع هو العلم: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، ثم هو يستأذن منه، ويسترضيه ويستسمحه.. لا لشيء إلا للعلم الذي رفع من قدر الخضر وجعل له هيبة واحترامًا وإجلالاً..

ويقول الزهري- رحمه الله- (وهو من التابعين العظماء) مقررًا: «كنت آتي باب عروة بن الزبير - رحمه الله- (وهو أيضًا من التابعين) فأجلس بالباب ولو شئت أن أدخل لدخلت، ولكن إجلالاً له»[3]!!

وفي سبيل التربية على ذلك يقول الحسن بن علي ﷺ لابنه ناصحًا ومرشدًا: «يا بني، إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع كما تعلم حسن الصمت، ولا تقطع على أحد حديثًا - وإن طال - حتى يُمسِك».

وعلى هذا ظلت مكانة العلماء محفوظة ومرموقة في الأمة الإسلامية وظل قدرهم مرفوعًا فوق غيرهم من المسلمين..

ولقد كان الناس يجتمعون بالآلاف حول البخاري - رحمه الله- ليعلمهم حديث رسول

---

(1) المصدر نفسه ١/ ٧.

(2) أحمد (٢٢٨٠٧) واللفظ له، والحاكم (٤٢١)، وقال الهيثمي: رواه أحمد وإسناده حسن، وقال الألباني: صحيح (١٠١) صحيح الترغيب والترهيب.

(3) سنن الدارمي (٥٦٩).

الله ﷺ، وهو بعد في السادسة عشرة من عمره!!

يقول الشافعي - رحمه الله-:

وإن صغير القوم إن كان عالمًا ... كبيرٌ إذا ردت إليه المحافل

ولم يكن هذا التقدير من جانب العامة فقط، بل كان أيضًا من قبل الأمراء وأصحاب السلطان، فكانوا ينزلون العلماء منازلهم ويرفعونهم قدرهم، ولذلك عزَّت أمتهم، وسادت غيرها من الأمم..

ففي أحد مواسم الحج جاء أمير المؤمنين **سليمان بن عبد الملك** - رحمه الله- إلى الحج هو واثنان من أبنائه الأمراء، فاحتاجوا إلى إجابة عن بعض الأسئلة المتعلقة بالحج، ولم يجدوا لذلك أفضل من العلامة **عطاء بن أبي رباح**[1]- رحمه الله-، فذهبوا إليه وهو يصلي، فانتظروا إلى جواره حتى انتهى من صلاته، فبدءوا يسألونه وهو يجيبهم في وضع الصلاة لا يلتفت إليهم، وهم يقبلون بهذا الوضع لأنهم يحتاجون إلى العلم، وبعد انتهاء الأسئلة انصرفوا. ثم جمع أمير المؤمنين **سليمان بن عبد الملك** - رحمه الله- ولديه وقال لهما: «يا بني، لا تنيا في طلب العلم، فإني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود»[2]!!

وكان **عطاء بن أبي رباح** - رحمه الله- (من التابعين) عبدًا أسود لامرأة من مكة..!!

وصدق قول الشاعر:

العلم يرفع بيتًا لا عماد له ... والجهل يهدم بيت العزِّ والشرفِ

وكان **المأمون** قد وكل **الفراء** يلقن ابنيه النحو، فلما كان يومًا أراد **الفراء** أن ينهض في بعض حوائجه، فابتدرا إلى نعل **الفراء** يقدمانه له، فتنازعا أيهما يقدمه، فاصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فردًا فقدماها، فرفع ذلك الخبر إلى المأمون، فوجه إلى الفراء فاستدعاه، فلما دخل عليه قال: من أعز الناس؟ قال: ما أعرف أعز من أمير المؤمنين- قال: بل من إذا نهض

---

(١) نشأ عطاء بن أبي رباح بمكة، وكان عبدًا أسود لامرأة، وكان أنفه كأنه باقلاة، وكان بنو أمية يأمرون في الحج صائحًا يصيح: لا يُفتِي الناس إلا عطاء بن أبي رباح. ويقول عنه الأوزاعي: ما رأيت أحدا أخشع لله من عطاء ومات بمكة عام ١١٥ وعمره ٨٨ سنة. صفة الصفوة٢/ ٢١٢- ٢١٤.

(٢) ابن الجوزي: صفة الصفوة ٢/ ٢١٢.

المتنازعين على تقديم نعليه وَلِيًّا عهد المسلمين حتى رضي كل واحد أن يقدم له فردًا!! قال: يا أمير المؤمنين، لقد أردت منعهما عن ذلك، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها أو أكسر نفوسهما عن شريعة حرصا عليها. فقال له المأمون: لـو منعـتهما عـن ذلـك لأوجعتـك لومًـا وعتبًا وألزمتك ذنبًا، وما وَضَعَ ما فعلاه من شرفهما، بل رفع من قدرهما وبيَّن عن جوهرهمـا، ولقد ظهرت لي مخيلة الفراسة بفعلهما، فليس يكبر الرجل وإن كـان كبـيرًا عـن ثـلاث: عـن تواضعه لسلطانه، ووالده، ومعلمه العلم..

وإن جواب المأمون هذا ليعكس نظرة الإسلام والأمة الإسلامية كلهـا آنـذاك إلى العلـم والعلماء، وما كانوا عليه رعاة ورعية من العناية والاهتمام والتعظيم والإجلال للعلم وأهله..

فكان العالِم حقًّا أعز الناس، وهذه هي الدرجة والمنزلـة التـي قررهـا الصـالحون لعلـماء الأمة وحفظوها لهم وأنزلوهم إياها.. وقد علموا أنهم مصابيح الدُّجى التي يُهتدى بها، وهـو الأمر الذي أورثهم عزًّا ومجدًا وتقدمًا وحضارة ورفعة..!!

فإن أردت - أخي في الله - أن تصبح عالمًا، فلا بد لك أولاً أن تعرف منزلـة مـا تطلـب، ومكانة ما تهفو إليه نفسك؛ فليس في الدنيا أعز ممن ورث الأنبياء، واستغفر لـه أهـل الأرض والسماء!!

***

الفصل الثاني

جِهَادُ الْعُلَمَاءِ

لما كان العلم أشرف النعم، وأعلى المنازل والرتب.. ولما كان كذلك ميراث الأنبياء وكان الطريق المؤهل إلى الجنة.. فلابد أن يكون تحصيله بمجهودٍ عظيم، وتضحيةٍ ثمينة وكيف لا والمكارم منوطة بالمكاره، والسعادة لا يُعبَر إليها إلا على جسرٍ من التعب؟!

وقد أرشد رسول الله ﷺ إلى أن سلوك طريق الآخرة بصفة عامة صعبٌ، وأن تحصيل الآخرة متعسرٌ لا يحصل إلا بسعي حثيث، فقال - كما روى أبو هريرة ﵁ - : «أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ الله غالية، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ الله الجنةُ»[1].

وفي هذا السياق روى الإمام مسلم في صحيحه عن يحيى بن أبي كثير ﵁ أنه قال: «لا يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ»[2]..

ويقول الإمام النووي في وصفه لطالب العلم: ينبغي أن يكون حريصًا على التعلم مواظبًا عليه في جميع أوقاته، ليلاً ونهارًا، وسفرًا وحضرًا، ولا يُذهب من أوقاته شيئًا في غير العلم إلا بقدر الضرورة، لأكل ونوم قدرًا لابد له منه ونحوهما، كاستراحة يسيرة لإزالة الملل، وشبه ذلك من الضروريات، وليس بعاقل من أمكنه درجة ورثة الأنبياء ثمَّ فوتها[3]!!

---

(١) الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٥٠)، والحاكم (٧٨٥١)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجه ووافقه الذهبي، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٨١)، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ٣٧٧، وقال الألباني: صحيح حديث (٦٢٢٢) صحيح الجامع.

(٢) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب أوقات الصلاة (٦١٢)، والسؤال عن إدخال الإمام مسلم هذه الحكاية عن يحيى مع أنه لا يذكر في كتابه الا أحاديث النبي ﷺ محضة مع أن هذه الحكاية لا تتعلق بأحاديث مواقيت الصلاة، فكيف أدخلها بينها؟ حكى القاضي عياض رحمه الله عن بعض الأئمة أنه قال: سببه أن مسلم رحمه الله أعجبه حسن سياق هذه الطرق التي ذكرها لحديث عبد الله بن عمر وكثرة فوائدها وتلخيص مقاصدها وما اشتملت عليه من الفوائد في الأحكام وغيرها ولا نعلم أحدا شاركه فيها، فلما رأى ذلك أراد أن ينبه من رغب في تحصيل الرتبة التي ينال بها معرفة مثل هذا، فقال: طريقه أن يكثر اشتغاله وإتعابه جسمه في الاعتناء بتحصيل العلم. هذا شرح ما حكاه القاضي. شرح النووي ٥/ ١١٤.

(٣) النووي: التبيان في آداب حملة القرآن ١/ ١٣.

ويقول ابن القيم- رحمه الله-: وأما سعادة العلم فلا يورثك إياها إلا بذل الوسع، وصدق الطلب، وصحة النية[1]..

ويؤكد على ذلك ابن الجوزي فيقول: «تأملت عجبًا، وهو أن كل شيءٍ نفيسٍ خطيرٍ يطول طريقه، ويكثر التعب في تحصيله، فإنَّ العلم لما كان أشرف الأشياء لم يحصل إلا بالتعب والسهر والتكرار، وهجر اللذات والراحة..».

وهو الذي قال أيضًا: قال بعض الفقهاء: بقيت سنين أشتهي الهريسة ولا أقدر على شرائها؛ لأن وقت بيعها وقت سماع الدرس[2]!!

ولما رأى أحد أصحاب الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله- جهده ومثابرته سأله قائلاً: إلى متى تستمر في طلب العلم، وقد أصبحت إمامًا للمسلمين وعالمًا كبيرًا؟! فقال له: «مع المحبرة إلى المقبرة»[3]!!

ومعنى ذلك أنه سيستمر في طلب العلم إلى أن يموت ويدخل القبر، رغم أنه لم يكن في عصره من هو أحفظ منه لحديث رسول الله ﷺ، حتى إنهم لَقَّبوه: «إمام السنة وفقيه المحدثين».

وهو الذي قال عنه ابن رافع: رأيت أحمد بن حنبل بمكة بعد رجوعه من اليمن وقد تشقَّقت رجلاه وأبلغ إليه التعب، فقال لي: يا أبا عبد الله، ما أخلقني أن لا أرحل بعدها في حديث. قال: ثم بلغني أنه صار إلى أبي اليمان بعد اليمن، أي إلى حمص[4]!!

وقد خرج الإمام أحمد إلى طرسوس ماشيًا على قدميه لعجزه عن النفقة في السفر..[5]!!

وهو الذي قال: لو كان عندي خمسون درهمًا لخرجت إلى جرير بن عبد الحميد إلى الري (كان إمامًا في الرواية)، فخرج بعض أصحابنا ولم يمكني الخروج لأنه لم يكن عندي..[6]!!

---

(1) ابن القيم: مفتاح دار السعادة ١/ ١٠٨.
(2) ابن الجوزي: صيد الخاطر ص٢٦٦.
(3) ابن الجوزي: تلبيس إبليس ص٣٩٩.
(4) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥/ ٢٦٧.
(5) أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ١/ ٤٤٧.
(6) المصدر السابق ١/ ٤٤٧.

يقول الشافعي - رحمه الله-: «حق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من علمه والصبر على كل عارضٍ دون طلبه وإخلاص النية لله تعالى في إدراك علمه نصًا واستنباطًا، والرغبة إلى الله تعالى في العون عليه»[1].

ويقول الإمام ابن هشام النحوي:

ومن يصطبرْ للعلم يظفرْ بنيلهِ ومن يخطب الحسناءَ يصبرْ على البذلِ

وقال النظَّام: العلم شيءٌ لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك؛ فإذا أعطيته كلك فأنت من إعطائه لك البعض على خطر[2]..

وصدق حوط بن رئاب الأسدي[3] حين قال:

لا تحسب المجد تمرًا أنت آكله لن تبلُغ المجد حتى تلعق الصبرَا

ولأجل ذلك حرص الفاهمون الصادقون على تحصيل العلم والسعي في طلبه، بصورة قد يتعجب لها الكثيرون ممن لم يدركوا بعد قيمة العلم وثمراته.. بل بصورة تُهوِّن على من يعرفه كلَّ شدة، وتجعلهم يبذلون أنفسهم طواعية في سبيل تحصيله..

وفي ذلك فقد روى البخاري عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: «كُنْتُ أَنَا وَجَارٌ لِي مِنَ الْأَنْصَارِ (هو أوس بن خولِيّ) فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ، وَهِيَ مِنْ عوالي المدِينَةِ، وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، يَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ اليومِ مِنْ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ..»[4].

أما عبد الله بن عباس ﷺ، فقد قال: «لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ قُلْتُ لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ: يَا فُلاَنُ، هَلُمَّ فَلْنَسْأَلْ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّهُمُ اليومَ كَثِيرٌ. فَقَالَ: وَاعَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؛ أَتَرَى النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إليكَ وَفِي النَّاسِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ تَرَى؟! فَتَرَكَ ذَلِكَ وَأَقْبَلْتُ عَلَى الْمَسْأَلَةِ، فَإِنْ كَانَ لَيَبْلُغُنِي الْحَدِيثُ عَنِ الرَّجُلِ فَآتِيهِ وَهُوَ قَائِلٌ، فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِي عَلَى بَابِهِ،

---

(١) بدر الدين بن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم ص٢٧.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٦/ ٩٧.

(٣) حوط بن رئاب الأسدي، المشتهر بأبي المهوش: شاعر مخضرم، عاش واشتهر في الجاهلية وأدرك الاسلام. شعره قليل متفرق. الأعلام ٢/ ٢٨٩.

(٤) البخاري: كتاب العلم، باب التناوب في العلم (٨٩)، وابن حبان (٤١٨٧).

فَتَسْفِي الرِّيحُ عَلَى وَجْهِي التُّرَابَ، فَيَخْرُجُ فَيَرَانِي فَيَقُولُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ، مَا جَاءَ بِكَ؟ أَلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيَكَ؟ فَأَقُولُ: لاَ، أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيَكَ، فَأَسْأَلُهُ عَنِ الْحَدِيثِ.

قَالَ: فَبَقِيَ الرَّجُلُ حَتَّى رَآنِي وَقَدِ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيَّ؛ فَقَالَ: كَانَ هَذَا الْفَتَى أَعْقَلَ مِنِّي»[(1)]!!

ولما فُتحت البلاد آثر ابن عباس ظمأ الهواجر في دروب المدينة ومسالكها على الظلال الوارفة في بساتين الشام وسواد العراق من أجل طلب العلم هذا، وقد قال ﷺ: «لما فُتحت المدائن أقبل الناس على الدنيا وأقبلت على عمر بن الخطاب ﷺ»[(2)]!!

ولمثله أنشد أبو القاسم الجزي[(3)]:

لكل بني الدنيا مراد ومقصد	وإن مرادي صحة وفراغْ
لأبلغ في علم الشريعة مبلغًا	يكون به لي للجنان بلاغْ
وفي مثل هذا فلينافس أولو النهى	وحسبي من الدنيا الغرور بلاغْ
فما الفوز إلا في النعيم مؤبَّدٍ	به العيش رغد والشراب يساغْ

ثم يخبر ﷺ عن دأبه في طلب العلم فيقول: «كنت آتي باب أبي بن كعب وهو نائم، فأقيل عند بابه، ولو علم بمكاني لأحب أن يُوقَظ لي لمكاني من رسول الله ﷺ، لكنني أكره أن أُمِلَّه»!!

ويزيد وضوحًا فيقول: «كنت ألزم الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار فأسألهم عن مغازي رسول الله ﷺ وما نزل من القرآن في ذلك، وكنت لا آتي أحدًا إلا سُرَّ بإتياني، لقربي من رسول الله ﷺ، فجعلت أسأل أُبيَّ بن كعب ﷺ وكان من الراسخين في العلم، عما نزل بالقرآن في المدينة، فقال: نزل بها سبعٌ وعشرون سورة، وسائرها بمكة»[(4)].

وقد قيل للشعبي: من أين لك هذا العلم كله؟!

---

(1) الدارمي: باب الرحلة في طلب العلم (٥٧٠)، والحاكم (٣٦٣) وقال: صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

(2) انظر: مسند البزار ١/ ٣١١.

(3) هو محمد بن أحمد بن يوسف بن جزي، الكلبي، أبو القاسم، من أهل غرناطة، وذوي الأصالة والنباهة فيها، ولد سنة ٦٩٣، ومات وهو يحرض الناس يوم الكائنة بطريف سنة ٧٤١ هـ. انظر نفح الطيب ٥/ ٥١٤ - ٤١٦ والأبيات أيضًا في هذا المصدر.

(4) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٣٧١.

فردَّ عليهم وقال: بنفي الاعتماد، والسير في البلاد، وصبر كصبر الحمار، وبكور كبكور الغراب[1]!!

ولننظر إلى **الشافعي** - **رحمه الله** - كيف يتحدث عن نفسه في طلب العلم حين يقول: «حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين، وحفظت الموطأ (**لمالك رحمه الله**) وأنا ابن عشر سنين»[2]..!!

وقد تكون هذه طفولة صعبة بالنسبة للكثيرين، لكنها في النهاية أنتجت وولدت رجلاً مثل **الشافعي**، الذي نفع الله ﷻ بعلمه الأمة، ليس في زمانه فقط، ولكن فيما تلا ذلك من أزمان أيضًا..

يقول **الشافعي** - **رحمه الله** -: «فلما ختمت القرآن دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء. وكنت أسمع الحديث أو المسألة فأحفظها، ولم يكن عند أمي ما تُعطيني أشتري به قراطيس (أوراق يكتب عليها)، فكنت إذا رأيت عظمًا يلوح، آخذه فأكتب فيه، فإذا امتلأ طرحته في جرة كانت لنا قديمة..»[3].

ولما كبُر **الشافعي** قليلاً، وكان بين العاشرة والثالثة عشرة، احتاج إلى المزيد من الورق ليكتب عليه ما يتعلمه، ولم يكن له مال يشتري به الأوراق، فكان يذهب إلى الديوان يستوهب «الظهور» (وهي الأوراق المستعملة من ناحية واحدة فقط، يطلبها ليستنفع بالناحية الأخرى) فيأخذها ليكتب على ظهرها[4]!!

كل هذه المعاناة ليُحصِّل العلم..

قال ابن أبي حاتم: سمعت المزني يقول: قيل للشافعي: كيف شهوتك للعلم؟ قال: «أسمع بالحرف (أي بالكلمة) مما لم أسمعه، فتود أعضائي أن لها أسماعًا تتنعم بها تنعمت به الأذنان»، فقيل له: كيف حرصك عليه؟ قال: «حرص الجموع المنوع في بلوغ لذته للمال». قيل له: فكيف طلبك له؟ قال: «طلب المرأة المضلة ولدها ليس لها غيره»!!

---

(١) الذهبي: تذكرة الحفاظ ١/ ٨١.

(٢) أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ٢٤/ ٣٦٦.

(٣) ابن الجوزي: صفة الصفوة ٢/ ٢٤٩، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٥١/ ٢٨٢ .

(٤) أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ٢٤/ ٣٦١.

وصدق الشافعي - رحمه الله-.. إذ لولا هذا الطلب وذاك الحرص ما كان الشافعي..

فليس من فراغ أن يصبح الإنسان إمامًا يُقتدى به في العالمين.. قال ابن تيمية: «إنَّما تنال الإمامة في الدين بالصبر واليقين»[1]!!

ويقول ربنا -سبحانه وتعالى- في كتابه الكريم، يعلمنا الدعاء النافع حقًّا: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

ففي تفسير هذه الآية يقول ابن عباس ﷺ: أي: اجعلنا أئمة يقتدى بنا في الخير[2].. وذلك - لا شك - لا يتأتى إلا بمجهود مضن، وتضحيات غالية عزيزة.. ومن طلب العلا سهر الليالي!!

وكما لم يمنع الفقر ولا ضيق ذات اليد من أن يصير الشافعيُّ الشافعيَّ، فلم يمنع ذلك أيضًا من أن يكون سفيان الثوري - رحمه الله- فقيه العرب ومحدثهم، وأحد أصحاب المذاهب الستة المتبوعة، وأمير المؤمنين في الحديث، والذي قال فيه زائدة: «الثوري سيد المسلمين»[3]، وقال فيه الأوزاعي: «لم يبق من تجتمع عليه الأمة بالرضا إلا سفيان»[4]..!!

ويصور ذلك بنفسه فيقول: لما أردت أن أطلب العلم قلت: يا رب، لابد لي من معيشة. ورأيت العلم يدرس (أي: يذهب ويندثر) فقلت: أُفرِّغ نفسي في طلبه، قال: وسألتُ الله الكفاية.. يعني أن يكفيه أمر الرزق!! وكان من كفاية الله له في ذلك الشأن أن قيض له أُمًّا صالحة، قد تكفلت بالإنفاق عليه، فكان هو ثمرتها..

قالت أمه له: «يا بني اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي»[5]..!!

فكانت رحمها الله تعمل بالغزل، وتقدم لولدها نفقة الكتب والتعلم؛ ليتفرغ هو للعلم، بل والأكثر من ذلك أنها كانت كثيرًا ما تتخوله بالموعظة والنصيحة لتحضه على تحصيل العلم، فكان مما قالته له ذات مرة: «يا بني، إذا كتبت عشرة أحرف فانظر هل ترى في نفسك زيادة في خشيتك وحلمك ووقارك، فإن لم تر ذلك فاعلم أنها تضرك ولا تنفعك»[6]..!!

---

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٣/ ٣٥٨.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٣٩.

(٣) ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل ١/ ١١٨.

(٤) أبو عبد الله الذهبي: تذكرة الحفاظ ١/ ٢٠٤.

(٥) أبو نعيم: حلية الأولياء ٦/ ٣٧٠.

(٦) ابن الجوزي: صفة الصفوة ٣/ ١٨٩.

وهكذا كانت كفاية الله له..

فلم يكن من غرابةٍ بعدُ أن يتبوأ سفيان الثوري السيادة في العلم، والإمامة في الدين. وكيف وقد ترعرع في كنف مثل هذه الأم الصالحة، وتغذَّى من فضائلها وتقواها..؟!

ولم يكن العلماء يكتفون بطلب العلم في بلادهم، ولكن كانوا يطلبونه في أصقاع العالم المختلفة، ولهم في ذلك حكايات أشبه بالأساطير؛ إذ تراهم يقطعون آلاف الأميال من أجل الدرس والتحصيل.. ويكفي أن نعرف فقط وسائلهم في ذلك الوقت، لندرك حجم المعاناة والمخاطرة التي كانوا يتعرضون لها في هذا الطريق..

فهذا جابر بن عبد الله ﷺ يرحل مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس ﷺ في طلب حديث واحد، يقول جابر: بلغني حديث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، فابتعت بعيرًا، فشددتُ إليه رحلي شهرًا، حتى قدمت الشام، فإذا عبد الله بن أنيس، فبعثت إليه أنَّ جابرًا بالباب فرجع الرسول فقال: جابر بن عبد الله؟! فقلت: نعم. فخرج فاعتنقني، قلت: حديث بلغني لم أسمعه خشيت أن أموت أو تموت.. فذكر الحديث[1].

وبعد سماع الحديث عاد جابر إلى المدينة مباشرة؛ إذ لم يكن له بغية في الشام غير هذا الحديث الواحد!!

وقد رحل أبو أيوب الأنصاري كذلك من المدينة إلى عقبة بن عامر بن عبس الجهني في مصر ليروي عنه حديثًا واحدًا، فقدم مصر، ونزل عن راحلته ولم يحل رحلها، فسمع منه الحديث ثم ركب راحلته وقفل إلى المدينة راجعًا[2]!!

ويقول أبو حاتم الرازي - رحمه الله- (من العلماء الجهابذة النُّقاد، من الطبقة الرابعة، من أهل الري) قاصًا أمر رحلته العجيبة: أحصيت ما مشيت على قدميَّ زيادة على ألف فرسخ (أي نحو خمسة آلاف كيلو متر، والفرسخ هو ثلاثة أميال، أو ٥٥٤٤ مترًا!!)، لم أزل أحصي حتى لما زاد على ألف فرسخ تركته، وأما ما سرت أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا أحصي كم مرة، ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة، وخرجت من البحر من قرب مدينة سلا - وذلك في المغرب الأقصى - إلى مصر ماشيًا، ومن مصر إلى الرملة ماشيًا، ومن الرملة إلى بيت المقدس،

(١) البخاري: الأدب المفرد (٩٧٠)، أحمد (١٦٠٨٥)، والحاكم (٣٦٣٨) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.
(٢) أحمد (١٧٤٩٠)، وعبد الرزاق (١٨٩٣٦)، وابن أبي شيبة (١٣٧٢٩).

ومن الرملة إلى عسقلان، ومن الرملة إلى طبرية، ومن طبرية إلى دمشق، ومن دمشق إلى حمص، ومن حمص إلى أنطاكية، ومن أنطاكية إلى طرسوس، ثـمَّ رجعـت مـن طرسـوس إلى حمـص، وكان بَقِي عليَّ شيء من حديث أبي اليمان فسمعته، ثمَّ خرجت مـن حمـص إلى بيسـان، ومـن بيسان إلى الرقة، ومن الرقة ركبت الفرات إلى بغداد، وخرجت قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل، ومن النيل إلى الكوفة، كل ذلك ماشيًا، هذا سفري الأول وأنا ابن عشرين سـنة أجـول سبع سنين!! وخرجت المرة الثانية، وكان سني في هذه الرحلة سبعًا وأربعين سنة[1]!!

وكان أسد بن الفرات - رحمه الله-، وهو الفقيه المالكي العظيم الذي دوّن مذهب الإمام مالك - رحمه الله-، والذي كان يعمل قاضيًا للقيروان ثم مجاهدًا في سبيل الله، وفـتح جزيـرة صقلية حيث استشهد هناك سنة ٢١٣هـ، كان هذا العلامة الفقيه القاضي المجاهد يحكي عـن نفسه وكيف طلب العلم فيقول:

إنه ذهب إلى المدينة فتعلم على يد الإمام مالك - رحمه الله- ثم رحل إلى العراق فسمع من أصحاب أبي حنيفة - رحمه الله-، وبالذات محمد بن الحسن الشيباني وكان يجلس في مجلسه مع مئات وآلاف الطلاب فلا يستطيع أن يسأل ما يريد ولا أن يتعلم ما يشتهي فذكر ذلك للإمام الجليل محمد بن الحسن وقال له: «إني غريب قليل النفقة والسماع منك نـزر (أي قليـل لشـدة الزحام)، والطلبة عندك كثير فما حيلتي؟».

فقال له العلامة الجليل المتجرد محمد بن الحسن - رحمه الله-: اسمع مع العراقيين بالنهار وقد جعلت لك الليل وحدك فتبيت عندي وأسمعك!!

قال أسد بن الفرات - رحمه الله-: «كنت أبيت عنده وينزل إليَّ ويجعل بين يديه قدحًا فيه ماء ثم يأخذ في القراءة، فإذا طال الليل ونعست ملأ يده ونفخ في وجهي بالماء فأنتبـه؛ فكـان ذلك دأبه ودأبي حتى أتيت على ما أريد من السماع عليه».

فانظر رحمك الله إلى همة العالمين الجليلين، وانظر كيف فرَّغ محمـد بـن الحسـن مـن وقتـه لأسد بن الفرات.. وذلك لأنه يعلم أنه سينشر هذا العلم في بلاد لن يستطيع محمد بن الحسن الوصول إليها، ومن ثم فهو أولى من غيره بتفريغ مزيد من الوقت له..

---

(1) أبو حاتم الرازي: الجرح والتعديل ١/ ٣٦٠، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٢/ ١٠.

ثم انظر إلى همة أسد بن الفرات - رحمه الله-، الذي كان يكفيه أنه تعلم على يد الإمام مالك - رحمه الله-.. لكنه طالب العلم الذي لا يرتوي ولا يشبع أبدًا، فيظل يطلب العلم مادام فيه نبض الحياة..!!

روى الدارمي بسندٍ صحيح غير أنه مرسل، عن طاووس بن كيسان - رحمه الله- أنه قال: قِيلَ لِرَسُولِ الله ﷺ: يَا رَسُولَ الله، أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ قَالَ: «مَنْ جَمَعَ عِلْمَ النَّاسِ إلى عِلْمِهِ، وَكُلُّ طَالِبِ عِلْمٍ غَرْثَانُ (أي: جائع، أو: لا يكتفي ويطلب المزيد) إلى عِلْمٍ»[1].

فلم تكن أجسادهم لأجل ذلك تقوى على ملامسة الفراش؛ كون هذا يمنعهم من تحصيل العلم!!

ولقد كان البخاري - رحمه الله- يستيقظ في الليلة الواحدة من نومه فيوقد السراج ويكتب الفائدة تمر بخاطره ثم يطفئ سراجه، ثم يقوم مرة أخرى وأخرى حتى كان يتعدد منه ذلك قريبًا من عشرين مرة[2]..!!

وهو الذي قال عنه عمر بن حفص الأشقر: إنهم فقدوا البخاري أيامًا من كتابة الحديث بالبصرة، قال: فطلبناه فوجدناه في بيت وهو عريان! وقد نفد ما عنده، ولم يبق معه شيء، فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم، حتى اشترينا له ثوبًا وكسوناه، ثم اندفع معنا في كتابة الحديث[3]!!

وذلك الجهد العظيم يُصوره فخر الدين محمد الساعاتي، أحد جهابذة الطب في تاريخ الإسلام، حين يصف معاناته في تحصيل الطب فيقول:

يحسدني قومي على صنعتي ... لأنني بينهم فارس

سهرت في ليلي واستنعسوا ... لن يستوي الدارس والناعس[4]

ويصوره أيضًا ابن رشد، حين نعلم أنه لم يدع النظر في الكتب إلا ليلة وفاة أبيه، وليلة

(١) الدارمي: باب من هاب الفتية مخافة السقط (٢٨٥)، وقال حسين سلم أسد محقق سنن الدارمي: إسناده صحيح.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٥.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/ ١٣.

(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٤/ ١٦٢.

زواجه..[1]!! وكان من نتيجة ذلك أنه صنف وشرح وهذب أكثر من عشرة آلاف ورقة..!! وكان يُفزع إلى فتياه في الطب كما يُفزع إلى فُتياه في الفقه، مع الحظ الوافر في الإعراب والآداب والحكمة..!!

أما الجاحظ والذي أُغرم بالمطالعة إغرامًا شديدًا، حتى إنه لم يقع في يده كتاب إلا استوفى قراءته.. فكان من حرصه على طلب العلم وجهاده في ذلك، أنه كان يستأجر حوانيت الوراقين في البصرة الزاخرة بشتى الرسائل والمدونات في العلوم المختلفة، ويعتكف فيها للدرس والمطالعة[2]..!!

وفي مثل ذلك يحكي الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله- عن طفولته فيقول: «كنت ربما أردت البكور في الحديث (أي الخروج من بيته مبكرًا لكي يجد مكانًا مناسبًا في درس الحديث) فتأخذ أمي بثيابي حتى يؤذِّن الناس، أو حتى يصبحوا»[3]!!

فهو يحاول الخروج لطلب الحديث والعلم قبل صلاة الفجر، لكن أمه تخشى عليه، فتستبقيه حتى يكون الأذان..!!

بل وأكثر من ذلك أنهم كانوا كثيرًا ما يهملون أهم ضرورات الحياة لأجل العلم، يفضلونه في ذلك على أنفسهم، وقد ذكر الذهبي في سيره عن عبد الرحمن بن أبي حاتم أنه قال: كنا بمصر سبعة أشهر، لم نأكل فيها مرقة، كل نهارنا مقسمٌ لمجالس الشيوخ، وبالليل: النسخ والمقابلة. قال: فأتينا يومًا أنا ورفيق لي شيخًا، فقالوا: هو عليل، فرأينا في طريقنا سمكًا أعجبنا، فاشتريناه، فلمّا صِرنا إلى البيت، حضر وقت مجلس، فلم يمكنّا إصلاحه ومضينا إلى المجلس، فلم نزل حتى أتى عليه ثلاثة أيام، وكاد أن يتغير، فأكلناه نيئًا، لم يكن لنا فراغ أن نعطيه من يشويه. ثم قال: «لا يُستطاع العلم براحة الجسد»[4]!!

وهذا ابن الجوزي يقول: لقد كنت في حلاوة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل؛ لأجل ما أطلب وأرجو.

وقال: كنت في زمن الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث وأقعد على نهر عيسى، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء. فكلما أكلت لقمة شربت عليها، وعين همتي لا

(١) انظر ترجمته عند الذهبي: تاريخ الإسلام ١/ ٤٢٣٩ (٢) انظر ترجمته عند الذهبي: تاريخ الإسلام ١/ ١٩٣١.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٠٦. (٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٦٦.

ترى إلا لـذة تحصيل العلم، فأثمر ذلك عندي أني عرفت بكثرة سماعي لحديث رسول الله ﷺ، وأحواله وآدابه، وأصحابه وتابعيهم[1]..

بل انظر إلى حال من كان غنيًا منهم.. فهذا **يحيى بن معين** - رحمه الله- (من كبار علماء الجرح والتعديل)، وقد خلف له أبواه ألف ألف درهم، فأنفقها كلها في تحصيل الحديث. حتى لم يبق له نعل يلبس[2]..!!

بل انظر إلى من يُعرض عليه المال منهم، وكيف كان زهدهم فيه..

فهذا **ابن الهيثم** - رحمه الله-، والمعروف عند الأوروبيين بـ (الهازن Alhazen)، وهو عالم موسوعي من أعظم علماء الرياضيات والفيزياء، وهو مؤسس علم البصريات، وله في ذلك الاكتشافات المذهلة، والتي عليها قامت النظريات العلمية الحديثة، ومن المستحيل أن تجد كتابًا أو مرجعًا في علم البصريات لا يُشار فيه إلى ابن الهيثم، وخاصة كتابه «المناظر» الذي كان ثورة حقيقية في عالم البصريات!!

فقد كان ابن الهيثم يعيش حياة مادية متعسرة، ولأن الأمراء والخلفاء - كما ذكرنا من قبل - كانوا يقدرون العلم والعلماء، فقد أُعجب به أحد أمراء الشام حين كان عنده، وأراد أن يغمره بالأموال، فرفض ابن الهيثم واكتفى بقوت يومه وبخدمة جارية وخادم[3]..؟!!

فإلى هذا الحد كان ابن الهيثم خائفًا أن يُلهيه المال الفائض عن حاجة يومه عن الاشتغال بالعلم.. فالقضية عنده: مَنْ للعلم إن لم أكن أنا له..؟!

ولهذا كان هو ابن الهيثم..

ولقد قال يومًا مبيِّنًا منهجه في الحياة بصفة عامة، وفي قضية العلم عنده بصفة خاصة: «وإني ما مُدَّت لي الحياة، باذلٌ جهدي، ومستفرغ قوتي في مثل ذلك (يقصد الدراسة وتحصيل العلوم)، متوخِّيًا منه أمورًا ثلاثة: أحدها: إفادة من يطلب الحق ويؤثره، في حياتي وبعد مماتي. والآخر: أني جعلت ذلك ارتياضًا لي بهذه الأمور في إثبات ما يتصوره ويُتقنه فكري من تلك

---

(1) ابن الجوزي: صيد الخاطر ص٢٣١.

(2) المزي: تهذيب الكمال ٣١/ ٥٤٧.

(3) البيهقي ظهير الدين: تتمة صوان الحكمة ص١٦.

لعنوم. والثالث: أني صّيرته ذخيرة وعدة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم»[1]..!!

وفي ظروف غير الفقر والمال قد تكون أشد وأصعب منهما.. كان المجهود أيضًا فوق العادة، فلم يستسلم علماء الأمة للأمر الواقع، ولم يكسلوا أو يتوانوا، بل برعوا حتى وهم تحت أغلال القيود..!!

فكان الطوسي[2] ذا مكانة عالية ودرجة رفيعة عند خلفاء العباسيين لنباهته وحدة ذكائه، ولهذا فإن أحد وزراء البلاط أضمر له الغدر حسدًا، وأرسل إلى حاكم قهستان (من أعمال نيسابور) يتهمه زورًا وبهتانًا، مما دفع به إلى السجن في إحدى القلاع، وقد كان من نتيجة سجنه أن أنجز في خلال اعتقاله معظم مصنفاته في الفلك والرياضيات، وهي التي كانت سبب ذيوع صيته وشهرته وبروز اسمه بين عباقرة الإسلام في جميع الأنحاء!!

وهذا سيد قطب[3] - رحمه الله -، يكتب «الظلال» وهو من أشهر التفاسير الحديثة - والذي قلَّ أن تجد مكتبة إسلامية في أنحاء العالم الإسلامي تخلو منه، سواء بالعربية أو بغيرها - كتب معظم هذا التفسير العظيم خلال فترة سجنه!!

وقبله كان أيضًا العالم الجليل ابن تيمية الذي صنَّف مؤلفات عدة في فترة سجنه، منها - على سبيل المثال - كتاب في التفسير في أربعة مجلدات!!

ثم عجيبٌ جدًّا أن ترى من يسجن نفسه ويتغرب متعمدًا، لينقطع إلى العلم والدراسة والتأليف..!!

ففي جنوب قسنطينة في قلعة ابن سلامة بالجزائر ينقطع ابن خلدون أربع سنوات كاملة للكتابة، وقد أنجز في هذه المدة مقدمته الشهيرة «مقدمة ابن خلدون»، والتي خلدت اسمه في التاريخ، وكيف لا وقد وضع فيها قواعد تفسير التاريخ، فضلاً عن أسس علم الاجتماع

---

(1) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ٣٨٠.

(2) ظهر الطوسي في القرن السادس الهجري، وكان أحد حكماء الإسلام المرموقين، كرمه الخلفاء العباسيون لمكانته في العلم، وجعله هولاكو من مستشاريه الطبيين العلميين، واستطاع أن يبني مرصدًا في بغداد، وكذلك استطاع إنشاء مكتبة كبيرة. انظر الزركلي: الأعلام ٧/ ٣٠.

(3) سيد قطب (١٩٠٦م - ١٩٦٦م): كاتب وأديب ومفكر إسلامي، له إسهامات مجيدة في قضايا الأدب والفكر الإسلامي والدعوة، فقد أعانه الله على إكمال تحفته الخالدة «في ظلال القرآن» رغم المصاعب التي مرَّ بها في حياته.. كما ألَّف إلى جانب الظلال: هذا الدين - خصائص التصور الإسلامي - المستقبل لهذا الدين.. وغيرها.

الحديث، سابقًا في ذلك دوركايم وغيره من الغربيين..!!

وعن مقدمته تلك يقول: «وأكملت المقدمة على هذا النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر، حتى امتخضت زبدتها وتألفت نتائجها»[1].

وقد كان له من العمر آنذاك ثلاث وأربعون سنة، وكانت المدة منذ خروجه من بلده الأندلس وإلى رجوعه إليها خمسًا وعشرين سنة!!

ورحل ابن البيطار (من كبار علماء النبات المسلمين ٦٤٦هـ) إلى أقطار العالم الإسلامي. في سبيل طلب العلم وتحصيله، وقد زار أيضًا اليونان وبلاد الروم في طريقه إلى المشرق. وبذلك فقد أخذ عن المسلمين كما أخذ عن اليونان والرومان، وفي بلاد اليونان لقي مهتمين بعلم النبات فاستفاد منهم، كما رافقهم لدراسة النبات في مواضعه.. وفي المغرب قام بالعمل نفسه[2]..

ويقول ابن أبي أُصَيْبِعة أنه شاهده في دمشق، ورافقه لمعاينة النبات في مواضعه، كما قرأ عليه ابن البيطار تفسيره لأسماء أدوية ديسقوريدس[3]..

وكان ابن البيطار يصحب أستاذه العشاب الشهير ابن الرومية إلى الريف، فيعاينان النبات معًا..

وهذه قصة عجيبة للإمام الجليل «بقي بن مخلد الأندلسي[4]»- رحمه الله- (ت ٢٧٦هـ). والذي سأل عن العلم فدلوه على بغداد حيث الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله- فسافر ماشيً من الأندلس في أقصي غرب بلاد المسلمين إلى بغداد[5]!!

يحكي عن نفسه فيقول: «لما قربت من بغداد اتصل بي خبر المحنة التي دارت على أحمد بن حنبل، وأنه ممنوع من الاجتماع إليه والسماع منه (كان أحمد بن حنبل قد حُبِس في بيته، وجُعل

---

(١) ابن خلدون: العبر في ديوان المبتدأ والخبر ٧/ ٤٤.

(٢) المقري: نفح الطيب ٢/ ٦٩٢.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ٥٠٠.

(٤) بقي بن مخلد بن يزيد أبو عبد الرحمن الحافظ أحد علماء الأندلس، ذو رحلة واسعة، صنف المسند والتفسير وغيرهما، وكان ورعًا فاضلاً زاهدًا مجاب الدعوة. توفي بالأندلس سنة ست وسبعين ومائتين. تاريخ دمشق ١٠/ ٣٥٤.

(٥) ابن عساكر: تاريخ دمشق ١٠/ ٣٥٧.

تحت المراقبة ورهن الإقامة الجبرية)، فأغممت بذلك غمًا شديدًا، فاحتللت الموضع، فلم أعرج على شيء بعد إنزالي متاعي في بيت أكتريه (أستأجره) في بعض الفنادق أن أتيت المسجد الجامع، وأنا أريد أن أجلس إلى الخلق وأسمع ما يتذاكرونه.

فدفعت إلى حلقة نبيلة، فإذا برجل يكشف عن الرجال، فيُضعِّف ويُقوِّي، فقلت: من هذا؟ لمن كان قربي، فقال: هذا يحيى بن معين، فرأيت فرجة قد تفرَّجت قربه، فقمت إليه فقلت: أبا زكريا رحمك الله، غريبٌ نائي الدار، أردت السؤال فلا تستخفَّني. فقال لي: قل. فسألته عن بعض من لقيت من أهل الحديث، فبعضًا زكَّي، وبعضًا جرَّح.

فسألته في آخر السؤال عن هشام بن عمّار، وكنت قد أكثرت من الأخذ منه، فقال: أبو الوليد هشام بن عمار صاحب الصلاة، دمشقي ثقةٌ وفوق الثقة، لو كان تحت ردائه كِبرٌ، وتقلَّد كبرًا ما ضرَّه شيئًا لخيره وفضله. فصاح أهل الحلقة: يكفيك - رحمة الله عليك - غيرك له سؤال!

فقلت وأنا واقف على قدمي: أكشفك عن رجل واحد: أحمد بن حنبل؟!

فنظر إلى كالمتعجب وقال لي: ومثلنا نحن نَكْشف عن أحمد بن حنبل؟! ذاك إمام المسلمين وخيرهم وفاضلهم.

فخرجت أستدلُّ على منزل أحمد بن حنبل فدُلِلت عليه، فقرعت بابه فخرج إليَّ وفتح الباب، فنظر رجلاً لم يعرفه، فقلت: يا أبا عبد الله، رجلٌ غريبٌ، نائي الدار، هذا أول دخولي هذا البلد، وأنا طالب حديث، ومُقيِّد سُنَّة (أي جامع حديث)، ولم تكن رحلتي إلا إليك.

فقال: ادخُل الأسطوان (يعني: الممر إلى داخل الدار) ولا يقع عليك عين.

فدخلت، فقال لي: وأين موضعك؟! قلت: المغرب الأقصى.

فقال لي: إفريقية؟ قلت: أبعد من إفريقية، أجوز من بلدي البحر إلى إفريقية، بلدي الأندلس.

قال: إن موضعك لبعيد، وما كان شيءٌ أحب إليَّ من أن أُحسن عون مثلك على مطلبه، غير أنِّي في حيني هذا مُمتحنٌ بما لعلَّه قد بلغك.

فقلت: بلى قد بلغني وهذا أول دخولي، وأنا مجهول العين عندكم، فإن أذنت لي أن آتي كل يوم في زِيِّ السُّؤَّال (في هيئة متسوِّل)، فأقول عند الباب ما يقولونه، فتخرج إلى هذا

الموضع، فلو لم تحدثني في كل يوم إلا بحديث واحد لكان لي فيه كفاية.

فقال لي: نعم، على شرط أن لا تظهر في الحِلق، ولا عند المحدثين.

فقلت: لك شرطك.

فكنت آخذ عصا بيدي، وألف رأسي بخرقة، وأجعل ورقي ودواتي في كمي، ثمَّ آتي بابه فأصيح: الأجر - رحمك الله - والسُّؤَّال هناك كذلك، فيخرج إليَّ ويُغلق باب الدار، ويحدثني بالحديثين والثلاثة والأكثر.

فالتزمت ذلك حتى مات الممتحن له (الخليفة المأمون ومن بعده المعتصم وكذا الواثق)، وولي بعده من كان على مذهب السنة (الخليفة المتوكل)، فظهر أحمد وعلت إمامته، وكانت تضرب إليه آباط الإبل، فكان يعرف لي حق صبري، فكنت إذا أتيت حلقته فسح لي، ويقص على أصحاب الحديث قصتي معه، فكان يناولني الحديث مناولة، ويقرؤه عليَّ وأقرؤه عليه[1]..!!

وقد كان من نتيجة هذا المجهود الشاق الذي بذله بقي بن مخلد، ونتيجة ذلك التحايل في سبيل طلب العلم والصبر على تداعياته، أنه - رحمه الله- رجع إلى الأندلس فملأها علمًا، وقد عمل مسنده المشهور في أحاديث رسول الله ﷺ، «مسند بقي بن مخلد»، والذي يُعد من أعظم كتب المسانيد، يصفه طاهر بن عبد العزيز الأندلسي فيقول: حملت معي جزءًا من مسند بقي بن مخلد إلى المشرق، فأريته محمد بن إسماعيل الصائغ، فقال: ما اغترف هذا إلا من بحر، وعجب من كثرة علمه[2].

وعن قدر الجهد المبذول في هذا المسند يقول الإمام أبو محمد بن حزم الظاهري - رحمه الله-: «ومسند بقي روى فيه عن ألف وثلاث مائة صاحب ونيف، ورتب حديث كل صاحب على أبواب الفقه، فهو مسند ومصنف، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله، مع ثقته وضبطه وإتقانه، واحتفاله فيه، وجَوْدة شيوخه، فإنه روى عن مائتي رجل وأربعة وثمانين رجلاً، ليس فيهم عشرة ضعفاء»[3]!!

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٩٢.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٨٧.

(٣) المصدر السابق ١٣/ ٢٩١.

وهذا المسند يقع في نحو ٢٠٠ جزء، وفيه (٣٠, ٩٦٩) حديثًا، بزيادة (٩٦٩) حديثًا على مسند شيخه الإمام أحمد..!!

وحول شخصيته ومنهجه في مؤلفاته وبحوثه يقول الذهبي: وكان إمامًا مجتهدًا صالحًا، ربانيًا صادقًا مخلصًا، رأسًا في العلم والعمل، عديم المثل، منقطع القرين، يفتي بالأثر، ولا يقلد أحدًا[1].

أما العجيب والمحزن فهو أن مسند بقي بن مخلد هذا يُعد مفقودًا الآن، وإن كان للباركفوري قد نقل في تحفة الأحوذي أنه موجود في مكتبة برلين بألمانيا.

غير أن بقيًّا كان له مصنفات أخرى على قدر كبير أيضًا من الأهمية والتفرد، يقول ابن حزم: وله مصنف في فتاوى الصحابة والتابعين فمن دونهم، الذي قد أربى فيه على مصنف ابن أبي شيبة وعلى مصنف عبد الرزاق وعلى مصنف سعيد بن منصور... حتى قال: فصارت تصانيف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام، لا نظير لها، وكان متخيرًا لا يقلد أحدًا، وكان ذا خاصة من أحمد بن حنبل وجاريًا في مضمار البخاري ومسلم والنسائي[2].

أما عن تفسيره فيقول ابن حزم: أقطع أنه لم يؤلَّف في الإسلام مثل تفسير بقي، لا تفسير محمد بن جرير، ولا غيره[3]..!!

وفوق ذلك كانت له هذه المنقبة العجيبة أيضًا، يقول الذهبي: ومن مناقبه أنه كان من كبار المجاهدين في سبيل الله، يقال: شهد سبعين غزوة..!!

فهل يمكن أن تتخيل مقدار عمله وجهده، ثم أجره إن شاء الله؟!

وصدق الله إذ يقول: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

ولم يكن بقي بن مخلد - رحمه الله-، هو الوحيد صاحب الرحلة الطويلة للبحث عن العلم، ولكن هناك الكثير والكثير ممن قضوا جلّ حياتهم سعيًا وراء العلم.. وكان من هؤلاء العظماء الإمام الجليل شعبة بن الحجاج..

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٨٦.

(٢) انظر ابن عساكر: تاريخ دمشق ١٠/ ٣٥٨.

(٣) حاجي خليفة: كشف الظنون ١/ ٤٤٣، السيوطي: طبقات المفسرين ص٣٠، الأدنروي: طبقات المفسرين ص٣٧.

فقد روى الخطيب البغدادي في كتابه «الكفاية في معرفة أصول علم الرواية» تلك الرحلة التي قام بها هذا الإمام العظيم من أجل التدقيق في حديث واحد، حتى يقف على علته!!

يقول الخطيب البغدادي: كان جماعة من السلف قعودًا على باب الإمام شعبة، يتذاكرون. فقال أحدهم: حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن عطاء، عن عقبة بن عامر. قال: كنا نتناوب رعاية الإبل على عهد رسول الله ﷺ، فجئت ذات يوم والنبي ﷺ جالس وحوله أصحابه، فسمعته يقول: «من توضأ، فأحسن الوضوء، ثم دخل المسجد، فصلى ركعتين واستغفر الله، غفر الله له». فقلت: بَخٍ بَخٍ! فجذبني رجل من خلفي. فالتفت، فإذا هو عمر بن الخطاب. فقال: الذي قال قبل أحسن! فقلت: وما قبل؟! قال: قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، قيل له: ادخل من أي أبواب الجنة شئت».

واتفق أن استمع الإمام شعبة إلى هذا الحديث، فخرج إلى هؤلاء الرهط وعنّفهم على تهاونهم في عدم تحري الدقة عند رواية هذا الحديث، لوجود علة في سند الرواية: (إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن عطاء، عن عقبة)! وأوضح أنه قد سمع أبو إسحاق يروي هذا الحديث، فذهب للتأكد من صحة هذه الرواية، فسأله عمن حدّثه بهذا الحديث فقال له أبو إسحاق: حدثني عبد الله بن عطاء، عن عقبة، فألح شعبة بن الحجاج على أبي إسحاق في السؤال: «هل سمع عبد الله بن عطاء من عقبة»؟! لأن سماع المحدثين من بعضهم يعتبر شرطًا للقبول بصحة الحديث.

ولما لم يتيقن شعبة بن الحجاج من ذلك، قرر أن عليه الذهاب إلى عبد الله بن عطاء بمكة لسؤاله عن هذا الحديث، فبدأ في التجهز لهذه الرحلة، ثم توجه من البصرة إلى مكة، وكان موسم الحج قد بدأ، ولكن لم يكن قصد شعبة الحج، وإنما كان همه معرفة صحة هذا الحديث، فلما لقي عبد الله بن عطاء، سأله عمن سمع منه هذا الحديث، فأخبره أنه سمعه من سعد بن إبراهيم! أي صحت شكوك شعبة بن الحجاج بأن عبد الله بن عطاء لم يسمع هذا الحديث من عقبة بن عامر مباشرة. وهنا كان على شعبة البحث مرة أخرى!!

ولم يكن هذا الشخص الذي سماه عبد الله بن عطاء ممن ذهبوا للحج في هذا العام، بل كان في بلده بالمدينة المنورة، فرحل شعبة بن الحجاج ثانية إلى المدينة، ولقي هذا الرجل، وسأله عمن سمع منه هذا الحديث، فأخبره بأنه سمع هذا الحديث من رجل آخر يقطن في البصرة، وهنا شك شعبة في الأمر، ولكنه أراد أن يكمله للنهاية، فرجع إلى البصرة، فلقي الرجل الذي

سمي له. وسأل شعبة هذا الرجل عن ذلك الحديث، فأخبره أنه سمعه من أحد الضعفاء!

وهنا أيقن شعبة بن الحجاج بضعف هذا الحديث، وقال: لو صح لي مثل هذا الحديث عن رسول الله ﷺ كان أحب إلي من أهلي ومالي ومن الناس أجمعين[(1)]!!

فيالها من همم!! يطوف بلدانًا شتى، ويدخل مدائن عدة، وتمضي به الأزمان، وينفق الأموال العظام.. من أجل الوقوف على صحة حديث واحد..!!

وبمثل هذا الجهد العظيم في الرحلة، فقد كان الصادقون من أهل هذه الأمة أيضًا يتسابقون حجز الأماكن لحضور مجالس العلم.. يقول جعفر بن درستويه (من كبار المحدثين): «كنا نأخذ مجلس في مجلس علي بن المديني - رحمه الله- (وهو من علماء الجرح والتعديل) وقت العصر لمجلس غد بعد الفجر فنقعد طول الليل؛ مخافة أن لا نلحق من الغد موضعًا نسمع فيه»[(2)]!!

وفي ذلك يقول وهب بن مُنَبِّه - رحمه الله- (وهو من التابعين): «مجلس يتنازع فيه العلم أحب إليَّ من قدره صلاة لعل أحدهم يسمع الكلمة فينتفع بها سنة أو ما بقي من عمره»[(3)].

ولأجل ذلك كانوا لا يتركون موطنًا فيه علم إلا طرقوه وحصَّلوا منه، يقول مكحول ﷺ (وهو من التابعين): «أعتقت بمصر فلم أدع بها علمًا إلا حويته فيما أرى ثم أتيت العراق، ثم أتيت المدينة فلم أدع بهما علمًا إلا حويت عليه فيما أرى ثم أتيت الشام فغربلتها»[(4)]!!

وتلك هي الطبيعة المتعطشة دائمًا التي تكون عليها نفسُ طالب العلم وهمته، يقول الحسن البصري - رحمه الله-: «منهومان لا يشبعان: منهوم في العلم لا يشبع منه، ومنهوم في الدنيا لا يشبع منها»[(5)].

ولعله أخذ هذا المعنى من عبد الله بن مسعود ﷺ حيث يقول: «منهومان لا يشبعان صاحب العلم وصاحب الدنيا ولا يستويان، أما صاحب العلم فيزداد رضا للرحمن وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان، ثم قرأ عبد الله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ

---

(1) الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية ١/ ٤٠٠.

(2) أبو سعد التميمي السمعاني: أدب الإملاء ١/ ١١٢.

(3) الدارمي: باب في فضل العلم والعالم (٣٢٥). (4) أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ٢٨/ ٤٧٠.

(5) الدارمي: باب في فضل العلم والعالم (٣٣١).

اسْتَغْنَى﴾، قَالَ: وَقَالَ الآخَرُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1].

وليس أقل من أن صاحب مثل هذه النفس كان إذا فاته شيءٌ من العلم، نزل به الهم والحزن، وأصابه المرض..!!

فقد ذكروا حديثًا لشعبة لم يسمعه، فجعل يقول: «واحزناه!!». وكان يقول: «إنِّي لأذكر الحديث يفوتني فأمرض[2]»!!

ولأجل ذلك كله لم يكن العلماء فقط هم الذين يطلبون العلم ويبحثون عنه، بل سبقهم إلى تلك الفضيلة الأنبياء أيضًا، مع علو قدرهم، وسمو منزلتهم..

وفي صورة توضح ذلك، فقد روى أُبي بن كعب ﷺ عن النبي ﷺ قال: «قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ. فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إليهِ، فَأَوْحَى اللهُ إليهِ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمَّ.

فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، وَحَمَلَا حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا وَنَامَا، فَانْسَلَّ الْحُوتُ مِنَ الْمِكْتَلِ، ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾.

وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَهُمَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ.

فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾.

قَالَ مُوسَى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾.

وقد أشعره الله بالتعب ليتوقف ويكتشف ضياع الحوت، ومن ثم يستطيع الوصول إلى من وُصف له بأنه سيُعلِّمه، ويعني ذلك أن الله ﷻ لما اطلع على الإخلاص في قلبه، وظهر على إثر ذلك رغبته الحقيقية في التعلم، فقد يسَّر الله له الوصول إلى ما كان يبغيه، ووفقه إلى طريق العلم..

---

(١) الدارمي: باب في فضل العلم والعالم (٣٣٢) والآيات من سورة العلق ٥،٦، وسورة فاطر٢٨.

(٢) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء ٧/ ١٥٥ .

وهكذا كل من أراد أن يتعلم بصدق، فإن الله يُيسِّر له وسائل التعليم..

ويتابع رسول الله ﷺ القصة فيقول:

فَلَمَّا انْتَهَيَا إلى الصَّخْرَةِ إِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبٍ، أَوْ قَالَ تَسَجَّى بِثَوْبِهِ، فَسَلَّمَ مُوسَى فَقَالَ الْخَضِرُ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ. فَقَالَ: أَنَا مُوسَى. فَقَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا﴾؟

قَالَ: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لَا أَعْلَمُهُ!

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾.

فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعُرِفَ الْخَضِرُ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ الْخَضِرُ: يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ..»[1].

ثم كان من أمرهما ما كان في سورة الكهف من أحداث..

وما يمكن أن نضيفه هنا، هو أن هذا الجهد العظيم المبذول في تعلم العلم وتحصيله - كما رأينا سابقًا - رغم كل المعوقات والصعوبات التي قد تعتري الطريق - لم يكن ذلك الجهد مقصورًا على العلماء المسلمين فقط، بل شاركهم في ذلك كل من نبغ وتفوق في أي من مجالات العلوم الأخرى من كل أمم الأرض؛ إذ هي سنة كونية وقاعدة مطردة..

فمن بذر لابد أن يرى الثمر، وعلى قدر البذل والجهد، لابد أن يكون العطاء..

وعليه، فكما نبغ علماء مسلمون وذاع صيتهم وشهرتهم في مجال علمهم، نتيجة ما بذلوه من مجهود، وما صبروا عليه من مشاق وتضحيات.. فقد نبغ أيضًا علماء غير مسلمين في مجال علومهم، نتيجة طبيعية وحتمية لما مروا به أيضًا في رحلتهم العلمية الخاصة بهم..

---

(١) البخاري: كتاب العلم: باب إذا سئل العالم أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله (١٢٢)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام (٢٣٨٠)، والترمذي (٣١٤٩)، وأحمد (٢١١٥٥)، وابن حبان (٦٢٢٠). والآيات من سورة الكهف من ٦١-٦٨.

فهذا توماس أديسون مخترع المصباح الكهربائي.. كان من دأبه الكد والعمل ودونما انقطاع طيلة الأربع والعشرين ساعة على مدار اليوم، يختلس منها فقط فترات وجيزة للراحة، ليعود على إثرها للبحث والعمل من جديد، وكان يكتفي في طعامه بالوجبات السريعة في المعمل..!!

وفي سنة ١٨٨٦م استطاع أن يؤسس مصنع «منلوبارك» الشهير بمدينة «نيوجيرسي». حيث تلاحقت منه اختراعاته الغزيرة!!

وقد بقي في معمله الذي اتخذ منه بيتًا ومصنعًا أربعة أيام متصلة، رافضًا الخروج منه قبل تحقيق اختراعه، وكان يردد: «**إما النجاح أو أن أموت**»..

ولما توفي في الثامن عشر من شهر أكتوبر سنة ١٩٣١م، كان هذا العبقري قد سجل رسميًا ١٥٠٠ اختراع!!

ولما سُئِل عن سر هذا الإنجاز الجبّار أجاب: «إن المثابرة والكد والصبر أساس النجاح.. وإن نسبة الوحي والإلهام هي ١٪، و ٩٩٪ عرق جبين»..

وهذا **أنطوان لافوازييه**[1] مكتشف الأوكسجين.. انقطع كلية عن اللهو والمرح مع أقرانه، وعاش منهمكًا في الدراسة والعلم، حتى تدهورت صحته بسبب ذلك، وأُصيب بتوعك في معدته، الأمر الذي فرض عليه العيش على الحليب لعدة أشهر، حتى نصحه أحد أصدقائه بالتقليل من الإجهاد الفكري، والزيادة في النشاط البدني!!

ورغم ذلك فقد شغل ثلاث وظائف، هي: عضوية المجمع العلمي، وعضوية المزرعة، ومدير دار الأسلحة.. ولم يمنعه ذلك كله من القيام باختباراته العلمية، وقد خصص لها ٦ ساعات يوميًّا!!

أما العالم نيوتن[2].. فقد ضرب أروع الأمثلة في تحمل الفقر، وضيق العيش، وشظف الحياة.. فقد رأت أمه أن تبعده عن الدراسة بعد وفاة أبيه، وذلك ليعتني لها بالأرض

---

(١) ولد لافوازييه في باريس ١٧٤٣م، عمل بالمحاماة كوالده ونال جائزة لابتكاره في طريقة إنارة شوارع باريس إلا أنه كان يعشق البحث فقاده ذلك لأن يكون أبا الكيمياء الحديثة، وهو أول من تعرف على الأوكسجين، ورغم عبقريته إلا أن مصيره كان الإعدام بعد قيام الثورة الفرنسية.

(٢) ولد السير إسحاق نيوتن ١٦٤٢م في بلدة وولثروب البريطانية، وظهرت عليه براعة ميكانيكية فصنع أدوات آلية من تصميمه مثل طائرة ورقية ومزولة وساعة مائية، واكتشف قانون الجاذبية، وقانون الجذب العام، ومن مؤلفاته «الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية»، وتوفي عام ١٧٢٧م.

ـ خرث، كما كان يفعل أبوه من قبل!!

وبالفعل تخلى مُكرهًا عن الدراسة..!!

ولأجل ذلك، وفي سبيل كسر ذلك الطوق الذي قيَّده عن إتمام تعليمه، كان يختلي بكتبه ـتى سنحت له الفرصة، ولما كانت تأمره أمه بمرافقة الخادم إلى السوق، كان يستجيب لها حتى إذا ما أشرف على المدينة خلا إلى كتابه وطلب من الخادم أن يقوم بمهام الشراء بمفرده!!

وهكذا يمضي الخادم لشأنه، ويبقى نيوتن مستلقيًا على العشب يحل إحدى المسائل حسابية في استغراق كلي، ريثما يعود الخادم من السوق، فيرجعا معًا إلى المزرعة..

أما العالم الفرنسي المشهور **لويس باستير**[1]، فقد افتقده الناس ليلة زفافه، ولما بحثوا عنه ـحوه في مختبره يجري بعض التجارب!!!

هذه هي أحوال العلماء في جهادهم من أجل العلم، ومن أجل تحصيله.. ولا يظنن أحدٌ ـه بعيدٌ عن تحصيل مثل هذه الدرجات التي حصَّلها هؤلاء السابقون، ويتحجج في ذلك بأن حهه عريض، أو أن حصيلته قليلة، أو أن بضاعته في ذلك مزجاة!!

فالأمر فقط كما روى معاوية ﷺ بسند حسن أن رسول الله ﷺ قال: **«يا أيها الناس، ـعموا، إنما العلم بالتعلم، وإنما الفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيرًا يفقه في الدين»**[2].

ولا ريب أن الأمة التي يكون أتباعها على هذه الدرجة من معرفة قيمة العلم، ومن حرص عليه، والرغبة الشديدة فيه.. لابد أن تكون أمة رائدة سائدة قائدة..

ولاشك أن الذي يتخلى عن هذه الحمية العلمية، يقود أمته ونفسه من قبل إلى الانقياد، ـ ويقودهما إلى مواطن الهلاك ومصارع السوء..

* * *

ـويس باستير ولد في عام ١٨٢٢ في مدينة دول في فرنسا، ابتدع طريقة للقاح ضد مرض الكلب، واستطاع ـكتشاف طريقة اللاهوائية وهي استطاعة بعض الكائنات على العيش دون أوكسجين أو هواء، وهو أول من عرف البكتريا والجراثيم وعرف التعامل معها وتوفي عام ١٨٩٥.

ـ لطبراني في الأوسط (٢٦٦٣)، وقال الألباني: حسن لغيره. صحيح الترغيب والترهيب ١/ ١٦.

الفصل الثالث

أَوْقَاتُ الْعُلَمَـــاءُ

صناعة العلماء تبدأ من حرصهم على احترام الوقت كركيـزة إسـلامية وقيمـة حضـارية كبرى، وهي الحقيقة التي لم يغفلها الإسلام أبدًا، فكان أن اهتم اهتمامًا كبيرًا بالوقت، وحث أتباعه على استثماره والمحافظة عليه، وذلك فيما ينفع دينهم ودنياهم..

فلعظم الوقت وأهميته الكبرى أقسم الله ﷻ به في كتابه الكريم في أكثر مـن موضـع، فأقسم سبحانه بالفجر، والضحى، والليل، والعصر.. ولم يقسم الله ﷻ إلا بغالٍ وعزيزٍ ونفيس..

وإنه إذا كانت النظرية الغربية ترى أن الوقت هو المال، فإن النظرية الإسـلامية تـرى أن هذه القيمة بخسٌ لحقِّ الوقت؛ إذ هو أغلى من أن يُقدَّر بمال، ولذلك كان الوقت في منظومتها هو الحياة..

فالوقت باهظ الثمن؛ إذ هو الحياة بعينها، وما حياة الإنسان إلا ذلك الوقت الذي يقضيه من ساعة الميلاد إلى ساعة الوفاة..

ولذلك لم يكن غريبًا أن يقول ابن القيم - رحمه الله-:

إذا مرَّ بي يـومٌ ولم أسـتفد هـدى ... ولم أكتسب علمًا فما هـو مـن عمـري[1]

ولم يكن عجيبًا أن أحدهم حين مرّ بقومٍ وهم في ملهى أو في مقهى جالسون، أخذ يتأسف، ولما قيل له في ذلك قال: والله آسف، وأتمنى لـو أن الأوقـات تشـترى كـما تشـترى البضـاعة لاشترينا من هؤلاء أوقاتهم..!!

وفي ذلك يقول الحسن البصري - رحمه الله-: «أدركت أقوامًا كـانوا عـلى أوقـاتهم أشد منكم حرصًا على دراهمكم ودنانيركم»[2]!!

وإنه - وللأسف - لم يدرك الكثيرون هذه الحقيقة، ولم يفقهوا كون «الوقت» من أعظم

(١) ابن القيم: مفتاح دار السعادة ١/ ١٢٢ .

(٢) أنور بن سعيد البيلاوي: الوقت بين حرص السلف وتفريط الخلف ص١٠.

ـ كبر نعم الله ﷻ على الإنسان، فغبنوه وقدَّروه بأقل من ثمنه، ففرطوا في استهلاكه والانتفاع حتى لحظة فيه.. فقد روى ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»[1]!!

ولذلك يقول ابن مسعود ﷺ: «ما ندمت على شيءٍ ندمي على يومٍ غربت شمسه؛ نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي».

وإنه لما كان لعلماء الإسلام مهمة شريفة، وغاية نبيلة - على نحو ما وضحنا سابقًا - فضلا عن معرفتهم تلك القيمة الغالية للوقت.. فقد كان لهم تعاملهم الخاص معه، وبمعنى آخر: كان لهم تعاملهم الخاص مع أنفاسهم التي تُعد عليهم.. وذاك الذي أورثهم حضارة عريقة الجذور، استطاعت أن تؤتي أُكلها علمًا وعزًا ومجدًا، لم يعرف التاريخ لمثلها نظيرًا!!

وفي تجسيد عملي، وفي صورة واقعية تبين تثمين ذلك الوقت وكيفية إدارته في واقع علماء المسلمين، يقول الإمام أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي: إني لا يحل لي أن أُضيِّع ساعة من عمري، حتى إذا تعطَّل لساني عن مذاكرة أو مناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا منطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشد ما كنت أجده وأنا ابن عشرين[2].

ثم ترى العجب حين تراه يُكمل فيقول: وأنا أقصر بغاية جهدي وقت أكلي حتى أختار سفَّ الكعك وتحسِّيه بالماء على الخبز؛ لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ؛ توفرًا على مطالعةٍ، أو تسطير فائدة لم أدركها فيه[3]!!

وقال موسى بن إسماعيل التَّبُوذكِيّ: لو قلت لكم إني ما رأيت حماد بن سلمة ضاحكًا لصدقت، كان مشغولاً: إما أن يحدِّث أو يقرأ أو يُسبِّح أو يصلي، وقد قسم النهار على ذلك[4].

بل إن الإمام سُليم بن أيوب الرازي (أحد كبار أئمة المذهب الشافعي ت ٤٤٧هـ) كان

---

(١) البخاري: كتاب الرقاق، باب ما جاء في الصحة والفراغ وأن لا عيش إلا عيش الآخرة (٦٠٤٩)، والترمذي (٢٣٠٤)، وابن ماجه (٤١٧٠)، وأحمد (٣٢٠٧)، والحاكم (٧٨٤٥).

(٢) أبو الفضل العسقلاني: لسان الميزان ٤/ ٢٤٣.

(٣) ابن رجب الحنبلي: ذيل طبقات الحنابلة ١/ ١٠٨.

(٤) أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ٧/ ٢٦٥.

يحاسب نفسه على الأنفاس أن تضيع دون إفادة فقد حكى عنه أبو الفرج غيث بن عـ التنوخي الصوري قال: وحُدِّثت عنه أنه كان يحاسب نفسه على الأنفاس لا يدع وقتًا يـمـ عليه بغير فائدة إما ينسخ أو يُدرِّس أو يقرأ وينسخ شيئًا كثيرًا. ولقد حدثني عنه شيخ ـ الفرج الإسفراييني (أحد تلامذته) أنه نزل يومًا إلى داره ورجع فقال: «وقد قرأت جزءًا ـ طريقي»!!

قال: وحدثني المؤمَّل بن الحسن: أنه رأى سُلَيمًا حَفِيَ عليه القلم (أي: لم يعد صـ للكتابة) فإلى أن قَطَّهُ (أي: براه وأصلحه) جعل يحرك شفتيه، فعلم أنه يقرأ بإزاء إصلاحه لئلا يمضي عليه زمان وهو فارغ[1]!!

وهذا محمد بن سلاَم البِيْكَنْدي شيخ البخاري (ت ٢٢٧هـ) كان في حال الطلب جالسـ في مجلس الإملاء والشيخ يحدِّث ويُمْلي، فانكسر قلم محمد بن سلام فأمر أن ينادى: قـ بدينار.. فتطايرت إليه الأقلام[2].

وذلك لئلا ينشغل ولو برهة عن الدرس والتحصيل؛ فالمال يعوّض، أما الوقـ والتحصيل فهيهات هيهات أن يرجع..!!

ومن هذه المشكاة، كان الخليل بن أحمد الفراهيدي يقول: أثقل الساعات عليَّ: ساعة آكـ فيها[3]!!!

ويحكي ابن أبي أصيبعة صاحب طبقات الأطباء فيقول: حكى لنا القاضي شمس الديـ الخوئي عن الشيخ فخر الدين بن الخطيب أنه قال: والله إنني أتأسف في الفوات عن الاشتغـ بالعلم في وقت الأكل، فإن الوقت والزمان عزيز[4]!!

وحكى أيضًا القاضي عياض في ترتيب المدارك عن ابن المكوى القرطبي[5]، وكان قـ حبب إليه الدرس مدة عمره لا يفتر عنه ليله ونهاره، فقال:

---

(١) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص٢٦٣.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٠/ ٦٢٩.

(٣) أبو هلال العسكري: الحث على طلب العلم والاجتهاد ص٨٨.

(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ١٣٠.

(٥) هو أبو عمر أحمد بن عبد الملك الإشبيلي المعروف بابن المكوى، مولى بني أمية.

ذكر أن صديقًا له قصده في عيد زائرًا له، فأصابه داخل داره وبابه مفتوح، فجلس منتظره، وأبطأ عيه فأوصى إليه، فخرج وهو ينظر في كتاب فلم يشعر بصديقه حتى عثر فيه لاشتغال باله بكتاب!! فتنبّه حينئذٍ له وسلَّم عليه، واعتذر إليه من احتباسه بشغله بمسألة عويصة لم يمكنه تركها حتى فتحها الله عليه!! فقال له الرجل: في أيام عيد ووقت راحة مسنونة؟! فقال: إذا علمت بهذه ... انصبت إلى هذه المعرفة، والله ما لي راحة ولا لذة في غير النظر والقراءة[1].

وعن مكانته يقول ابن عفيف: إليه انتهت رئاسة العلم بالأندلس، حتى صار بمثابة يحيى ابن ... في زمانه، واعتلى على جميع الفقهاء، ونفذت الأحكام برأيه، فحكم على الحاكم، وبعُد صيته ...أندلس، وكان - رحمه الله- من ذوي المتانة في دينه والصلابة في رأيه والبعد عن هوى نفسه، لا ...هن السلطان، ولا يدع صدعه بالحق، كان البعيد والقريب عنده في الحق سواء[2]!!

فلأجل ذلك الحرص الشديد على الوقت في الدراسة وتحصيل العلم، لم تكن تضيع منهم ...هة سُدى.. ومن ثم فإنك تراهم يقتنصون ما أسمِّيه بـ «الفراغات البينية»، وهي التي تكون ... عمل وآخر، بل ويجعلون من أعمال حياتهم الضرورية - مثل أوقات الأكل، ودخول خلاء، والذهاب إلى عمل ما - يجعلون منها أوقاتًا للدرس والعلم أيضًا!!

فقد ذكر الحافظ الذهبي في ترجمة أبي حاتم الرازي أنه قال: قال لي أبو زرعة (يعني ...رازي): ما رأيت أحدًا أحرص على طلب العلم منك، فقلت له: إن عبد الرحمن ابني حريص. فقال: من أشبه أباه فما ظلم.

قال الرَّقَّام (وهو أحمد بن علي، أحد رجال إسناد الخبر): فسألت عبد الرحمن عن اتفاق ...ة السماع له وسؤالاته لأبيه فقال: ربما كان يأكل وأقرأ عليه، ويمشي وأقرأ عليه، ويدخل خلاء وأقرأ عليه، ويدخل البيت في طلب شيء فأقرأ عليه[3]!!

فكانت ثمرة تلك المحافظة العجيبة على الزمن، والحرص الشديد على طلب العلم هذا - كانت ثمرته نتاجًا علميًا كبيرًا، منه: كتاب «الجرح والتعديل» في تسع مجلدات، وهو من ...م الكتب النفيسة الحافلة الرائدة في هذا العلم، وكتاب «التفسير» في عدة مجلدات، وكتاب

---

(1) القاضي عياض: ترتيب المدارك ٤/ ٦٣٦.
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ٢٤/ ٣٨٨.

«المسند» في ألف جزء!!

وهذا عبد الرحمن بن تيمية يحكي عن أبيه فيقول: كان الجد إذا دخل الخلاء يقول: اقرأ هذا الكتاب، وارفع صوتك حتى أسمع[1]!!

وعلى هذا النحو أيضًا قال عمّار بن رجاء: سمعت عبيد بن يعيش يقول: أقمت ثلاثين سنة ما أكلت بيدي بالليل، كانت أختي تلقمني وأنا أكتب الحديث[2]!!

بل إن داود الطائي كان يستفّ الفتيت، ويقول: بين سفّ الفتيت وأكل الخبز قراءة خمسين آية[3]!!

وحكى القطب اليونيني عن الإمام النووي - رحمه الله- أنه كان لا يضيع له وقت في ليل ولا نهار إلا في وظيفة من الاشتغال بالعلم، حتى إنه في ذهابه في الطريق وإيابه يشتغل في تكرار محفوظة، أو مطالعة، وإنه بقي على التحصيل - على هذا الوجه - ست سنين[4]!!

وبالإمكان أن أذكر هنا تجرِبة شخصية مررت بها ونفعتني كثيرًا، من خلال استغلال تلك المسافات البينية، أو الأوقات المهدرة بين العمل والآخر..

فحين كنت في أمريكا، ولما كانت المسافات التي نقطعها يوميًا بالسيارة للوصول إلى العمل طويلة جدًّا، فقد حرصت على أن أستغل ذلك الوقت وأستفيد منه قدر الطاقة، وقمت على إثر ذلك بإعداد برنامج عملي تفصيلي لسماع محاضرات علمية في أثناء ركوب السيارة، واستطعت سماع مكتبة كبيرة وقيمة من الأشرطة المسموعة التي في المسجد، والتي هي عندي وعند أصدقائي، وكانت لشيوخ وعلماء من بلدان إسلامية شتى، فأضافت إليّ علومًا ما تخيلتُ أن أحوزها.. وكل ذلك في وقت قد يُهدَر دونها تقدير!!

مع العلم بأن استماعي هذا لم يكن بطريقة عشوائية، وإنما كان وفق برنامج مدروس ومتكامل، يضيف المعلومة إلى المعلومة، والموضوع إلى الموضوع، وهكذا..

فماذا لو خصص كل منا «شريطًا» إسلاميًا - مثلاً - وجعله معه أثناء سفره - وخاصة

---

(١) أبو عبد الله الزرعي: روضة المحبين ١/ ٧٠.

(٢) الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي ٢/ ١٧٨.

(٣) ابن الجوزي: صيد الخاطر ص٤٨٩.

(٤) السخاوي: ترجمة النووي ص١١،١٢.

وكلنا يمر بتجربة السفر والتنقل والترحال - واستطاع أن يستفيد من سماعه في السيارة التي يستقلها، أو يستفيد ويفيد منه الآخرين، إذا كان يستقل مواصلات عامة؟!!

إن الأمر جدٌّ هيِّن.. وما عليك إلا أن تعرف قيمة ما عزمت عليه.. ولا إخال أنك لم تعرفه الآن!!

وليس الأمر في ذلك مقتصرًا فقط على أوقات السفر، فهناك أيضًا أوقات الانتظار، سواء كان ذلك لقضاء عمل معين أو مصلحة خاصة.. وما أكثر ذلك في حياتنا!! فهناك - مثلاً - عيادات الأطباء.. وهناك مكاتب المحاماة.. وهناك انتظار المحاضرات.. وغيرها الكثير من الفراغات الوقتية الهائلة!!

فمن الممكن في ذلك تخصيص كتاب لقراءته والاستفادة منه، أو حَمل المصحف للحفظ فيه أو قراءة الورد اليومي، وذلك في مثل كل هذه الأمور.. ويكفي في ذلك ألا تجعل وقتًا يمر عليك دون فائدة!!

وقد حكي عن أبي بكر بن الخياط النحوي - رحمه الله- أنه كان يدرس جميع أوقاته، حتى في الطريق!! وكان ربما سقط في جرف، أو خبطته دابة لسبب ذلك[1]!!

وأما الفتح بن خاقان (استوزره المتوكل واتخذه أخًا له) فكان يحمل الكتاب في خُفِّه، فإذا قام من بين يدي المتوكل لحاجة أو ليصلي، أخرج الكتاب فنظر فيه وهو يمشي حتى يبلغ الموضع الذي يريد، ثم يصنع مثل ذلك في رجوعه إلى أن يأخذ مجلسه[2].

أما حالهم في سهر الليل، فكان له شأنٌ آخر..

فكان محمد بن الحسن الشيباني - رحمه الله- لا ينام الليل، وكان عنده الماء يزيل نومه به، وكان يقول: إن النوم من الحرارة لابد من دفعه بالماء البارد[3]!!

وذكر ابن اللباد أن محمد بن عبدوس صلَّى الصبح بوضوء العتمة (العشاء) ثلاثين سنة، خمس عشرة من دراسة، وخمس عشرة من عبادة[4]!!

---

(١) أبو هلال العسكري: الحث على طلب العلم والاجتهاد ص٧٧.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص١٦٩.

(٣) طاشكبري: مفتاح السعادة ومصباح السيادة ١/ ٢٣.

(٤) القاضي عياض: الإلماع إلي معرفة أصول الرواية وتقيد السماع ١/ ٢٣٥.

ويحكي أحد أصحاب الإمام مالك، وهو عبد الرحمن بن قاسم؛ فيقول: كنت آتي مالكًا غلسًا فأسأله عن مسألتين، ثلاثة، أربعة، وكنت أجد منه في ذلك الوقت انشراح الصدر. فكنت آتي كل سحر، فتوسدتُ مرة عتبته فغلبتني عيني فنِمت، وخرج مالك إلى المسجد ولم أشعر به، فركضتني جارية سوداء له برجلها، وقالت لي: إن مولاك (ظنت أنه مولاه من كثرة اختلافه إليه وتردده عليه) قد خرج، ليس يغفل كما تغفل أنت، اليوم له تسعٌ وأربعون سنة قلَّما صلَّى الصبح إلا بوضوء العتمة[1]!!

وإذا نظرنا إلى حالهم مع أقرانهم ومحيطهم ودروسهم فإنك ترى العجب العجاب..

وقد كان العلامة الكبير أبو المعالي محمود شكري الألوسي البغدادي الحفيد، يمتاز بالجد الشديد والحرص على الوقت، فكان لا يثنيه عن دروسه شدة الحر، ولا قرص برد الشتاء، وكثيرًا ما تعرَّض تلاميذه بسبب تأخرهم عن الدرس إلى النقد والتعنيف..

قال عنه تلميذه العلامة بهجة الأثري: أذكر أنني انقطعت عن حضور درسه في يوم مزعج، شديد الريح، غزير المطر، كثير الوحل؛ ظنًّا مني أنه لا يحضر المدرسة، فلمّا شخصت في اليوم الثاني إلى الدرس، صار ينشد بلهجة الغضبان: ولا خير فيمن عاقه الحر والبرد.. [2]!!

ولهذا قال بعضهم: «من أمضى يومًا من عمره في غير حقٍ قضاه، أو فرضٍ أدَّاه، أو مجدٍ أصَّله، أو حمدٍ حصَّله، أو خيرٍ أسَّسَه، أو علمٍ اقتبسه، فقد عَقَّ يومه وظلم نفسه».

وعليه فلا نعجب حين نسمع بعد ذلك عن وفرة حفظهم وسعة تحصيلهم..

فلا نعجب - مثلاً - حين نعلم أن النووي وهو في أول طلبه للعلم، كان يقرأ كل يوم اثني عشر درسًا على المشايخ شرحًا وتصحيحًا!!

فكان يقرأ درسين في «الوسيط»، وثالثًا في «المهذب»، ورابعًا في الجمع بين الصحيحين، وخامسًا في «صحيح مسلم»، ودرسًا في «اللُّمع» لابن جني في النحو، ودرسًا في «إصلاح المنطق»

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٩/ ١٢٠.

(٢) من مقدمة الأستاذ عدنان عبد الرحمن الدوري: لكتاب إتحاف الأمجاد فيما يصح به الاستشهاد للآلوسي محمود الحفيد ص١٥.

لابن السكيت في اللغة، ودرسًا في التصريف، ودرسًا في أصول الفقه، تارة في «اللمع» لابن إسحاق، وتارة في «المنتخب» للفخر للرازي، ودرسًا في أسماء الرجال، ودرسًا في أصول الدين[1]!!

قال النووي: وكنت أُعلِّق جميع ما يتعلق بها من شرح مُشْكل، وإيضاح عبارة، وضبط لغة، وبارك الله لي في وقتي واشتغالي، وأعانني عليه[2]!!

وفي مثل ذلك ما ذكره الذهبي في تاريخه عن إسماعيل بن أحمد الحيري النيسابوري الضرير، فيقول في ترجمته: سمع عليه الخطيب البغدادي بمكة صحيح البخاري بسماعه من الكشميهني في ثلاثة مجالس: اثنان منها في ليلتين، كان يبتدئ بالقراءة وقت المغرب ويختم عند صلاة الفجر، والثالث من ضحوة النهار إلى طلوع الفجر!!

وقد علق الذهبي على ذلك بقوله: وهذا شيءٌ لا أعلم أحدًا في زماننا يستطيعه[3]!!

وقد قرأ الفيروز آبادي (صاحب القاموس المحيط) صحيح مسلم في ثلاثة أيام وهو بدمشق.

وذكر الحافظ السخاوي في حق شيخه ابن حجر قال: وقع لشيخنا الحافظ ابن حجر أجلَّ مما وقع لشيخه المجد اللغوي، فإنه قرأ صحيح البخاري في أربعين ساعة رملية، وقرأ صحيح مسلم في أربعة مجالس سوى مجلس الختم، وقرأ سنن ابن ماجه في أربعة مجالس، وقرأ كتاب النسائي الكبير في عشرة مجالس، كل مجلس منها نحو أربع ساعات، وقرأ صحيح البخاري في عشرة مجالس كل مجلس منها أربع ساعات.

ثم قال السخاوي: وأسرع شيء وقع له (أي لابن حجر) أنه قرأ في رحلته الشامية معجم الطبراني الكبير في مجلس واحد بين صلاتي الظهر والعصر!! قال: وهذا الكتاب في مجلد يشتمل على نحو ألف حديث وخمسمائة[4]!!

كما لا نعجب بعد ذلك أيضًا أن يصبح لهم باع عريض في شتى أصناف العلوم..

وفي صورة تعبر عن ذلك، وتُجسِّد قيمة الوقت عندهم، وكيفية تحصيلهم للعلوم، وتبين

---

(١) الذهبي: تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٧٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) السخاوي: فتح المغيث ٢/ ٥٢.

(٤) انظر سيد العفاني: صلاح الأمة في علو الهمة ١/ ٥٥٧، ٥٥٨، نقلاً عن الضوء اللامع للسخاوي.

أيضًا سعة اطلاعهم ووفرة تصنيفاتهم.. ما يقصه صاحب طبقات الأطباء عن ابن سينا. حيث يحكي عن نفسه فيقول:

أحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب، وأكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب، حتى كان يقضى مني العجب... ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله النائلي. وكان من علماء الفلسفة، وأنزله أبي دارنا رجاء تعلمي منه، وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه إلى إسماعيل الزاهد، وكنت من أجود السالكين، وقد ألفت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على المجيب على الوجه الذي جرت عادة القوم به.

ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق، وكذلك كتاب إقليدس، فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه، ثم توليت بنفسي حل بقية الكتاب بأسره، ثم انتقلت إلى المجسطي، ولما فرغت من مقدماته وانتهيت إلى الأشكال الهندسية، قال لي النائلي: تولَّ قراءتها وحلها بنفسك، ثم اعرضها عليّ لأبين لك صوابه من خطئه، وما كان الرجل يقوم بالكتاب، وأخذت أحل ذلك الكتاب، فكم من شكل ما عَرَفَه إلى وقت ما عرضته عليه أفهمته إياه (أي أنه بدأ يشرح لأستاذه)!!

ثم فارقني النائلي متوجهًا إلى كركانج، واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من الفصوص والشروح، من الطبيعي والإلهي، وصارت أبواب العلم تنفتح علي.

ثم رغبت في علم الطب وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه؛ وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة، فلا جرم أني برزت فيه في أقل مدة، حتى بدأ فضلاء الطب يقرءون عليَّ علم الطب. وتعهدت المرضى فانفتح عليَّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف، وأنا مع ذلك اختلف إلى الفقه وأناظر فيه، وأنا في هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة!!

ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصفًا، فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة. وفي هذه المدة ما نمت ليلة واحدة بطولها، ولا اشتغلت النهار بغيره، وجمعت بين يدي ظهورًا، فكل حجة كنت أنظر فيها أثبت مقدمات قياسية، ورتبتها في تلك الظهور، ثم نظرت فيما عساها تنتج، وراعيت شروط مقدماته حتى تحقق لي حقيقة الحق في تلك المسألة.

وكلما كنت أتحيَّر في مسألة ولم أكن أظفر بالحد الأوسط في قياس، ترددت إلى الجامع.

وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل، حتى فتح لي المنغلق، وتيسر المتعسر!!

وكنت أرجع بالليل إلى داري، وأضع السراج بين يدي، وأشتغل بالقراءة والكتابة، فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف، عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إليَّ قوتي، ثم أرجع إلى القراءة، ومهما أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها، حتى إن كثيرًا من المسائل اتضح لي وجوهها في المنام!!

وكذلك حتى استحكم معي جميع العلوم، ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنساني!!

... حتى أحكمت على المنطق والطبيعي والرياضي، ثم عدلت إلى الإلهي، وقرأت كتاب «ما بعد الطبيعة»، فما كنت أفهم ما فيه، والتبس عليَّ غرض واضعه، حتى أعدت قراءته أربعين مرة وصار لي محفوظًا، وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به، وأيست من نفسي وقلت: هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه!!

وإذا أنا في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في الوراقين، وبيد دلال مجلد ينادي عليه، فعرضه عليَّ فرددته رد متبرم، معتقدٌ أن لا فائدة من هذا العلم، فقال لي: اشتر مني هذا فإنه رخيص، أبيعكه بثلاثة دراهم، وصاحبه محتاجٌ إلى ثمنه.

واشتريته فإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة، ورجعت إلى بيتي وأسرعت قراءته، فانفتح عليَّ في الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه كان لي محفوظًا على ظهر قلب، وفرحت بذلك، وتصدقت في ثاني يومه بشيء كثير على الفقراء؛ شكرًا لله تعالى[1]!!

أعتقد أن معنى استغلال الوقت واستثماره قد وضح لنا من خلال التعرف على قصة ابن سينا، وطريقته في تلقي العلوم والبحث عنها، وهي ليست طريقة خاصة بابن سينا وحده، ولكنها الطريقة الأصيلة التي يحرص عليها أي عالم يريد أن يصل إلى الإبداع!

وغير ابن سينا، كان هناك الشافعي أيضًا..

فقد ذكر ابن خلكان أن أحد علماء الأنساب في العراق تحدث مع الشافعي في هذا العلم (علم الأنساب)، فوجده من كبار العلماء فيه، فلما طال بينهما الحديث، قال له الشافعي: مثلي

---

١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء٣/ ٧١-٧٤.

ومثلك لا يليق بهما أن يتحدثا عن أنساب الرجال من قبل آبائهم، فتعال نتحدث عن أنسابهم من قبل أمهاتهم[1]!!

ثم يذكر أنه لقيه طلبة الطب في الفسطاط، فوجدوا عنده من المعرفة في علومهم ما أطمعهم في أن يخصص لهم درسًا يأخذون فيه عنه علوم الطب، فأشار إلى الفقهاء واقفين ينتظرونه في ظل جدار جامع عمرو بن العاص فقال: وهل ترك لي هؤلاء من الوقت ما أتفرغ به لكم؟[2]!!

ولما قدم الشافعي الفسطاط كان يجالسه أرباب الحلق، عبد الله بن الحكم ونظراؤه، وكان حسن الوجه والخلق، فحبب إلى أهل مصر من الفقهاء والنبلاء والأعيان، وكان يجلس في حلقته إذا صلى الصبح بجامع عمرو، فيجيئه أهل القرآن ويسألونه، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث، فيسألونه عن معانيه وتفسيره؛ فإذا ارتفعت الشمس قاموا. واستوت الحلقة للمناظرة والمذاكرة؛ فإذا ارتفع النهار تفرقوا، وجاء أهل العربية والعروض والشعر والنحو، حتى يقترب انتصاف النهار، ثم ينصرف إلى منزله في الفسطاط[3]!!

وقال الربيع: أقام الشافعي ها هنا في الفسطاط أربع سنين، فأملى ألفًا وخمسين ورقة. كلها في أربع سنين، وكان مع ذلك عليلاً شديد العلة، وربما خرج الدم وهو راكب، حتى يملأ سراويله وخفه (يعني من البواسير) [4]!!

وتراه يحكي عن نفسه فيما رواه عنه عمرو بن سواد قال: قال لي الشافعي: ولدت بعسقلان، فلما أتت عليَّ سنتان حملتني أمي إلى مكة، وكانت نهمتي في شيئين: الرمي، وطلب العلم، فنلت من الرمي حتى إني أصيب من عشرةٍ عشرة، وسكت عن العلم، فقلت: أنت والله في العلم أكثر منك في الرمي[5]!!

وليس لنا بعد ذلك أن نعجب أيضًا من حالهم وهم على فراش الموت.. إذ تراهم يطلبون العلم حتى آخر لحظات حياتهم..

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات ٢/ ١٧٥.

(٢) ابن أبي حاتم الرازي: آداب الشافعي ومناقبه ص٣٢٤.

(٣) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٧/ ٣٠٤.

(٤) البيهقي: المناقب ٢/ ٢٨٩،٢٩٠.

(٥) أبو نعيم: حلية الأولياء ٩/ ٧٧، وأبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ٢٤/ ٣٦٢.

فقد روى المعافى بن زكريا عن بعض الثقات أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري - رحمه الله- قبل موته، وتوفي بعد ساعة أو أقل منها، فذُكر له هذا الدعاء عن جعفر بن محمد، فاستدعى محبرة وصحيفةً فكتبه، فقيل له: أفي هذه الحالة؟! فقال: ينبغي للإنسان ألا يدع اقتباس العلم حتى المات[1]!!

و عن فرقد (إمام مسجد البصرة) أنهم دخلوا على سفيان الثوري في مرض موته، فحدثه رجل بحديثٍ فأعجبه، فضرب سفيان بيده إلى تحت فراشه، فأخرج ألواحًا فكتبه، فقالوا له: على هذه الحال منك؟! فقال: إنه حسن؛ إن بقيت فقد سمعت حسنًا، وإن مت فقد كتبت حسنًا[2]!!

ويروي القاضي إبراهيم بن الجراح الكوفي موقفًا جميلاً لأستاذه الإمام أبي يوسف القاضي، والإمام أبو يوسف هو يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، صاحب أبي حنيفة وتلميذه وناشر علمه ومذهبه، وقاضي الخلفاء العباسيين الثلاثة: المهدي والهادي والرشيد، وأول من دُعي: قاضي القضاة، وكان يقال له: قاضي قضاة الدنيا، ت ١٨٢هـ، يقول القاضي إبراهيم: مرض أبو يوسف فأتيته أعوده، فوجدته مُغمًى عليه، فلما أفاق قال لي: يا إبراهيم، ما تقول في مسألةٍ؟ قلت: في مثل هذه الحالة؟! قال: ولا بأس بذلك، ندرس لعله ينجو بها ناج! ثم قال: يا إبراهيم، أيما أفضل في رمي الجمار - أي في مناسك الحج - أن يرميها ماشيًا أو راكبًا؟ قلت: راكبًا، قال: أخطأت، قلت: ماشيًا، قال أخطأت، قلت: قل فيها، يرضى الله عنك!! قال: أما من كان يوقف عنده للدعاء، فالأفضل أن يرميه ماشيًا، وأما ما كان لا يوقف عنده، فالأفضل أن يرميه راكبًا.

قال: ثم قمت من عنده، فما بلغت باب الدار حتى سمعت الصراخ عليه، وإذا هو قد مات ﷺ[3]!!

ويروي الفقيه أبو الحسن علي بن عيسى - رحمه الله- أنه دخل على أبي الريحان البيروني - رحمه الله- وهو في لحظات حياته الأخيرة وقد حشرجت نفسه، وكادت أن تخرج، فقال البيروني وهو في هذه الحالة من حالات الاحتضار: كيف قلت لي يومًا في مسألة الجِدَّات التي تكون من قبل الأم؟!

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٢/ ١٩٩. (٢) أبو نعيم: حلية الأولياء ٧/ ٦٤.

(٣) ابن معظم شاه الكشميري: العرف الشذي للكشميري ٢/ ٣٥٨. المحقق محمود أحمد شاكر.

يسأله عن مسألة من مسائل الميراث!!

فيقول الفقيه أبو الحسن: فقلت له إشفاقًا عليه: أفي هذه الحالة؟!

قال لي: يا هذا، أُوَدِّع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألا يكون خيرًا لي من أن أُخلِّيها وأنا جاهل بها[1]؟!

فهو يريد أن يتعلم الأمر قبل أن يموت، لا لشيءٍ إلا لمجرد العلم، وذلك أنه يعلم فضل ومزية تلك المكانة والمنزلة.. فأعاد عليه الفقيه أبو الحسن شرح المسألة وعلَّمه وحفَّظه، ثم قال: «وخرجت من عنده، وأنا في الطريق سمعت الصراخ»[2]!!

لقد مات أبو الريحان البيروني - رحمه الله- بعد دقائق من تعلمه المسألة..!!

وقد يتخيل البعض أن هذه مبالغات من هؤلاء العلماء، وأن الحرص على الوقت إلى هذه الصورة قد يكون تكلفًا.. لكن الذي ينظر إلى إنتاج هؤلاء العلماء يدرك بوضوح أهمية استغلال كل لحظة من لحظات الحياة، وخاصة أن التراث الذي تركوه ما زلنا ننتفع به إلى ساعتنا هذه، وقد يبقى خالدًا إلى يوم القيامة!

قال الخطيب البغدادي: سمعت علي بن عبيد الله بن عبد الغفار اللغوي، يحكي أن محمد ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ عن ثلاث وثمانين سنة) مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة[3]!!

أي أنه - رحمه الله- كتب في حياته ما يزيد على نصف مليون ورقة!!

ولا يتأتى أبدًا هذا الإنتاج الغزير بدون حرص أكيد على كل لحظات الحياة مهما دقت!

يقول الأستاذ محمد كرد علي في ترجمة الطبري: وما أُثِر عنه أنه أضاع دقيقة من حياته في غير الإفادة والاستفادة[4]!!

ولعل عجب القارئ يزداد ويزداد إذا علم أن الإمام الطبري لم يكن منتجًا في مجال واحد فقط، بل في عدة مجالات في آنٍ واحد، فله التصانيف العظيمة في التفسير، وكذلك في التاريخ،

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات ١/ ١٠٧٠.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٧/ ١٨١، ١٨٢.

(٣) السيوطي: طبقات المفسرين ١/ ٨٢.

(٤) محمد كرد علي: كنوز الأجداد ١٢٣.

ـه غير تميزه الملحوظ في الفقه، حيث يعد صاحب مدرسة فقهية خاصة به!!

وغير الطبري فقد بلغ الإمام أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي البغدادي الذي يقول فيه الإمام ابن تيمية: «إنه من أذكياء العالم»[1]، بلغ في محافظته على الزمن مبلغًا أثمر أكبر كتاب عُرِفَ في الدنيا، وهو كتاب «الفنون»، وقد جاء في ثمانمائة مجلد!!

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في ترجمته: وأكبر تصانيفه كتاب «الفنون»، وهو كتاب كبير جدًّا، فيه فوائد كثيرة جليلة في الوعظ والتفسير والفقه، والأصول، والنحو، واللغة والشعر والتاريخ، والحكايات، وفيه مناظراته ومجالساته التي وقعت له وخواطره، ونتائج فكره، قيدها فيه[2].

وهذا هو الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي تلميذ ابن عقيل (ت ٥٩٧هـ) أحد أعلام الأئمة الذين يُقتدى بهم في حرصهم على الزمن، ها هو يتحدث عن نفسه يصف إنتاجه – كما يقول أبو المظفر -: كتبت بإصبعي هاتين ألفي مجلدة، وتاب على يديَّ مائة ألف، وأسلم على يديَّ عشرون ألف يهودي ونصراني[3].

أما مقدار ما ألَّف وصنف، فنترك ابن تيمية يحدثنا عنه:

يقول الإمام ابن تيمية –رحمه الله– في «أجوبته المصرية» «كان الشيخ أبو الفرج مفتيًا كثير التصنيف والتأليف، وله مصنفات في أمور كثيرة حتى عددتها فرأيتها أكثر من ألف مصنف، ورأيت بعد ذلك له ما لم أره».

ويقول الحافظ الذهبي: «وما علمت أحدًا من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل، ولم يدع ابن الجوزي فنًا من الفنون إلا وصنف فيه، منها ما هو عشرون مجلدًا، ومنها ما هو في رسالة قصيرة»[4].

ولعلنا نفهم سر هذا الإنتاج العجيب عندما ننظر إلى تقديره – رحمه الله– للوقت وقيمته..

يقول الموفق عبد اللطيف– فيما نقله عنه الذهبي-: إنه كان «لا يضيع من زمانه شيئًا»[5].

ويقول ابن الجوزي نفسه – رحمه الله– : لقد رأيت خلقًا كثيرًا يجرون معي فيما قد اعتاده

---

(١) ابن تيمية: درء التعارض ٤/ ١٣٣.

(٢) ابن رجب الحنبلي: ذيل طبقات الحنابلة ١/ ١٠٧-١٠٨.

(٣) الصفدي: الوافي بالوفيات ١/ ٢٥٨٢.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ١/ ٤٢٦٥.

(٥) الذهبي: تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٤٦.

الناس من كثرة الزيارة، ويسمون لك التردد خدمة، ويطلبون الجلوس، ويجرون فيه أحاديث الناس، وما لا يعني، وما يتخلله غيبة، وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس، وربما طلبه المزور وتشوق إليه واستوحش من الوحدة، خصوصًا في أيام التهاني والسلام، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام بل يمزجون ذلك بما ذكرت من تضييع الزمان.

فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء، والواجب انتهازه بفعل الخير، كرهت ذلك وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان، فصرت أدافع اللقاء جهدي، فإذا غلبت قصرت في الكلام لأتعجل الفراق.

ثم أعددت أعمالاً لا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم لئلا يمضي الزمان فارغًا، فجعلت من المستعد للقائهم قطع الكاغد، وبري الأقلام، وحزم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لابد منها ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب. فأرصدتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي[1].

لقد عرف ابن الجوزي - رحمه الله- مهمته في الحياة، فما ضيع لحظة في عمل يلهيه عن مهمته!

وعلى سنن من سبق، مشي رئيس الطب في زمانه : ابن النفيس- رحمه الله- ويقول عنه الإمام تاج السبكي:«وأما الطب فلم يكن على وجه الأرض مثله، قيل: ولا جاء بعد ابن سينا مثله، قالوا: وكان في العلاج أعظم من ابن سينا».هذا الطبيب الرائد صنف كتابًا في الطب سماه «الشامل» يقول فيه تاج السبكي: «قيل: لو تم لكان ثلاثمائة مجلدة، تم منه ثمانون مجلدة. وكان فيما يذكر يملي تصانيفه من ذهنه»[2]. فكيف تم له ذلك؟

كان – رحمه الله- إذا أراد التصنيف، تُوضع له الأقلام مبرية، ويدير وجهه إلى الحائط. ويأخذ في التصنيف، إملاءً من خاطره، ويكتب مثل السيل إذا انحدر، فإذا كلَّ القلم وحفي. رمى به وتناول غيره لئلاّ يضيع عليه الزمان في بري القلم[3]..

ودخل ذات مرة إلى الحمام، فلما كان في بعض تغسيله خرج إلى مسلخ الحمّام (موضع نزع

(١) ابن الجوزي: صيد الخاطر ١/ ٢٢٥. (٢) القنوجي: أبجد العلوم ٣/ ١١٥.

(٣) انظر: عمر فاروق الطباع: ابن النفيس في تاريخ الطب العربي ص١٥٧، نقلاً عن ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار.

ـيب وخلعها) واستدعى بدواة وقلـم وورق، وأخـذ في تصـنيف مقالـة في النـبض إلى أن
ـه، ثم عاد ودخل الحمام وكمل تغسيله[1]..!!

ن ما ذكرناه هنا من أمثلة لتقدير العلماء لقيمة الوقت ما هو إلا غـيضٌ مـن فـيض، وإن
ـظر في حياة هؤلاء العظماء ليعكس اهتمامًا - قد يبدو لنـا متكلفًـا - لهـذه القيمـة الغاليـة:
ـوقت، ولعل بعض الناس يرى أن الأمر أهون من ذلك، وأن الحياة فيها متع كثيرة، تحتاج أن
ـع لها وقت وأوقـات.. لكـن العـالمين ببـواطن الأمـور، والنـاظرين إلى حقيقـة الأشـياء،
ـتفهمين لقصر الدنيا وحقيقة الآخـرة.. هـؤلاء يعتـبرون الأنفـاس معـدودة، فضـلاً عـن
ـعات والأيام، ولله در الحسن البصري ﷺ إذ يقول: «يا ابن آدم، إنما أنت أيام مجموعة، إذا
ـب يومك ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل»[2]!!

فما أنت - يا عبد الله - إلا بضع لحظات.. فإما نفعٌ لك وللبشرية، وإما ضـياعٌ وهـلاكٌ
ـحسران!!

**«والكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواهـا وتمنـى عـلى
ـه»[3]..**

وأسأل الله أن يُعِزَّ الإسلام والمسلمين.

* * *

---

(1) نظر: عمر فاروق الطباع: ابن النفيس في تاريخ الطب العربي ص١٥٧، نقلاً عن ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار.

(2) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم، ص٣٨٢.

(3) الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن شداد بن أوس مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ (٢٤٥٩)، وأخرجه أيضًا ابن ماجه (٤٢٦٠)، وأحمد (١٧١٦٤)، والحاكم (٧٦٣٩) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

الفصل الرابع

أَخْـــلاَقُ الْعُلَمَـــاء

مرّ بنا في الفصول الثلاثة السابقة أمورٌ لا غنى عنها في تكوين العلماء.. وأول هذه الأمـ
هو إدراك قيمة الوقت ومنزلة العلماء، أما الأمر الثاني فهو التيقن أن ذلك لن يَتَـأَتّى إلا بيـ
الغالي والنفيس، وصرف الجهد كل الجهد في سبيل ذلك، وأما الأمـر الثالـث والأخـير فهـ
إدراك قيمة الوقت والحرص على كل دقيقة من دقائق الحياة..

وإذا كنا قد وقفنا على ذلك، فلنعلم أن مثل هذه الأمـور وتلـك الخـلال ليسـت خاصـ
بالمسلمين وحدهم، وإنما يشترك فيها ويتساوى في تحصيلها العالم المسلم وغير المسـلم، وهـ
تصلح للعالِم التقي كما تصلح للعالِم الفاجر.. فالجميع في الجَمْع بينها سواء..

وبالنظر إلى رسالة الإسلام، ودور هذا الدين العظيم في إصلاح الأرض كلها، وفي نفـ
العالمين، كل العالمين، كان لزامًا على العالِم المسلم أن يكون مختلفًا عن غيره، متميزًا بما لا يقـ
غيره على التميّز به..

ولا يكون ذلك في جانب الجهد أو التحصيل فقط، فهذا - كما ذكرنا - أمر مشـترك بـ
عموم العلماء، ولكن يكون - وفي المقام الأول - في جانب الأخلاق والقيم..

إن العلماء هم ورثـة الأنبيـاء، وهـم قـدوة المجتمـع، وهـم بنـاة الأمـة وقائـدو التغيـ
والإصلاح، لذا كان لزامًا عليهم أن يكون لهم أخلاق خاصة، يتفرّدون بها عن عموم الخَلـ
سواء من المسلمين أو من غير المسلمين..

إن هذا يعني أن هناك أخلاقًا معينة وصفات خاصة، لابد أن يـتحلَّى بهـا العـالم المسـ
ولابد أن تصطبغ بها حياته وتكون غالبة عليه.. ومنذ بداية الطريق..

وفي ذلك فإنا نكتفي بما يمكن أن يكون هو الأساس وليس الكل؛ إذ الأمر أكـبر مـن ـ
يحويه هذا الفصل، ويكفي أن أخلاق العالِم تُمثِّل في حد ذاتها أخلاق الإسلام..

وعليه؛ فإن أهم ما يجب على العالم أن يتصف به من أخلاق.. ما يلي:

أولاً: الإخلاص:

وهو حجر الزاوية في القضية برُمَّتها.. وهو الخطوة الأولى في طريق تحصيل العلم.. إذ هو الميزان الحساس الذي به يُقوَّم ويوزن عِلْمنا، بل أعمالنا كلها.. وبه نصعد إلى أعلى الدرجات والمنازل، ومن غيره نهوي - كما سُنبين - إلى أسفل الدَّرِكَات وأحطِّ الرُّتب..!!

إنه الإخلاص..

إنه السر الدفين المخبوء داخل قلب المرء، والذي لا يَطَّلِعُ عليه غير من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور..

فتُرى..

لماذا نتعلم هذا العلم..؟!

وأيُّ شيء نبغي من وراء تحصيله..؟!

وبالأحرى: لماذا نُريد أن نكون علماء..؟!

هل هذا لأجل الله عز وجل، وطمعًا في جنته، وخوفًا من ناره؟!

أم أنه لأجل التكسب وجني المال..؟! أو لأجل التفاخر والتباهي، والرفعة في دار الدنيا، والمنزلة العالية في قلوب الخلق..؟!

وقبل الإجابة عن هذه الأسئلة، لنعي جيدًا ذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ: رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ؛ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ»**.

فهذا الشهيد الذي مات في وسط المعركة، والذي جَادَ بنفسه التي هي أغلى ما يملك.. يُجَرُّ على وجهه حتى يُلْقَى في النار!!

لقد اطَّلَع على باطنه الذي يعلم السر وأخفى، وعَلِمَ أنه إنما كان يُقاتل ليرتقي أرفع الدرجات في أعين الناس، كان يُقاتل ليتحدث الناس عنه بأنه جريء مِقْدام.. وقد تحقق طلبه وبُغيته، وتحدَّث الناس عنه بذلك، ليأخذ نصيبه في دار الدنيا، ومن ثم فليس له نصيب في

الآخرة.. ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

وهذا عن أوَّل الثلاثة الذين هم أول من يُقضى عليهم يوم القيامة، وأما الثاني فهو:

«وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ؛ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ».

وهذا الرجل الثاني، الذي يُحكم عليه ضمن أول من يحكم عليهم يوم القيامة، هو بيت القصيد في بحثنا، وهو موضوع دراستنا..

وهو لم يكن عالمًا وحسب، وإنما كان عالمًا مُتَفَاعلاً ومؤثرًا في مجتمعه، تعلَّم العلم، ثم راح يبذل جهده ووقته وعرقه ليعلمه الناس.. ثم هو يُجَرُّ على وجهه حتى يُلقى في النار!!

ولا عجب؛ إنه كمال العدل.. فلم يكن في ذلك كله يطلب وجه الله ﷻ.. لقد انطوى قلبه على مكنون من الأهداف الشخصية والمصالح الخاصة في دار الدنيا.. لقد أراد أن يُشار إليه بالبنان، وأراد أن يكون حديث الناس في مجالسهم وسمرهم، وأراد أن يُعلم أنه الأعلم، وأنه الأقرأ..

وكل هذا قد حَدَث!!

حَدَث ونال ما تمنى، وتَكَلَّم الناس كما أراد، وتحقق حلمه الذي كان يسعى إليه.. فكان هذا هو أجره ونصيبه، وقد أخذه كاملاً كما أراده هو.. فليس العدل إذن أن يأخذه مرة ثانية.. ومن ثم فليس لك في الآخرة نصيب!!

أما الرجل الثالث، فكان أيضًا على شاكلتهم في مقصده ومراده، فنال أيضًا درجتهم، وجُرَّ على وجهه في النار، يقول رسول الله ﷺ عنه يصفه:

«وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ؛ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[١].

---

(١) مسلم: كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار (١٩٠٥).

والقضية جِدُّ خطيرة، والموضوع ليس بالهيِّن!!

فمع وجود الكافرين، ومع وجود المنافقين، ومع وجود أصحاب الكبائر والمعاصي، ومع وجود من اقترف من الموبقات ما اقترف.. مع وجود كل هؤلاء يقضي رب العالمين سبحانه أول ما يقضي على هذه الطوائف الثلاث، والتي كانت في حياتها مِلْء سمع الدنيا وبصرها!!

وإن ذلك ليوقفنا على حقيقة مهمة وقاعدة خطيرة، وهي أن الأعمال التي ليس فيها إخلاص، والتي لم يُرَدْ بها وجه الله تعالى، هي أعمال محبطة، وهي أعمال لا وزن لها ولا قيمة.. يقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أُوحِيَ إليكَ وَإلى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ**﴾ [الزمر: ٦٥].

ومن ثم كان الإخلاص أول خطوة في طريق العلماء، وإنا وإن علمنا ذلك، فإن الحصول عليه - كما العلم - هو مطلب غالٍ وعزيز، وليس يحصل بين يوم وليلة، وإنما يحتاج الأمر فيه إلى مجاهدة شاقة على طول طريق العلم، بل وعلى طول طريق الحياة!!

فالنفس تتغيَّر بين الحين والآخر، والقلب يَتَقَلَّبُ بين الفينة والثانية، ومن الممكن أن ينوي الإنسان نيةً صالحة لله ﷻ في أول عمل ما، ثم ومع مرور الوقت، وأثناء أداء نفس العمل، يأتيه - مثلاً - من يُثني عليه فيه، أو من يعظمه بسببه، أو غيره.. فيجد نفسه وقد تغيرت عليه نيته وتبدلت؛ فينظر وقد ارتاحت نفسه لذلك الثناء وهذا المديح واستكانت إليه.. وهذا بعينه هو المحظور الذي وقع فيه!!

يقول **سفيان الثوري** رحمه الله: «ما عالجت شيئًا أشد عليّ من نيتي؛ لأنها تنقلب عليَّ»[1].

وقد قيل **ليحيى بن معاذ** رحمه الله: متى يكون العبد مخلصًا؟ فقال: إذا صار خُلقه كخلق الرضيع، لا يبالي من مدحه أو ذمه.

وقال **يوسف بن الحسين**: أعزُّ شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت على لون آخر[2]!!

(١) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم ١/ ١٣.

(٢) المصدر نفسه ١/ ١٧.

ومن ثم فالأمر يحتاج إلى طول متابعة، وعظيم مجاهدة..

يقول أبو يوسف صاحب أبي حنيفة: «يا قوم، أريدوا بعلمكم الله؛ فإني لم أجلس مجلسًا قَطّ أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم، ولم أجلس مجلسًا قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أفتضح[1]».

وإن ذلك ليتأكد في الحديث الذي رواه ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِغَيْرِ الله، أَوْ أَرَادَ بِهِ غَيْرَ الله، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ»[2].

وكان المطرِّف بن عبد الله يقول في دعائه: «اللهم إني أستغفرك مما زعمت أني أريد به وجهك، فخالط قلبي منه ما قد علمت»[3]!

فليست القضية إذن في فضائل الأعمال، إنما هي منهج حياة!!

وقد روى ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال محذرًا: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إليهِ، فَهُوَ فِي النَّارِ»[4].

فرسول الله ﷺ يذم في ذلك من أراد بعلمه أن يجادل ضعاف العقول، يريد تكبرًا عليهم، أو من يتيه بعلمه أمام العلماء يفاخرهم به، أو من يريد بعلمه الجاه والمكانة بين الناس، وصرف وجوه عوامهم إليه.. فكل ذلك نهايته إلى النار!!

وقد اجتمع الفضيل بن عياض وسفيان الثوري يومًا، فجلسا يتذاكران شيئًا من الرقائق، فرقَّ كل واحد منهما وبكى، فقال سفيان الثوري - رحمه الله-: أرجو أن يكون هذا المجلس علينا رحمة وبركة، فقال الفضيل بن عياض: «ولكني أخاف - يا أبا عبد الله - ألا يكون أضرُ علينا.. ألست تخلصتَ إلى أحسن حديثك وتخلصتُ أنا إلى أحسن حديثي، فتزينتُ لك وتزينتَ لي؟! فبكى سفيان الثوري - رحمه الله- وقال: «أحييتني أحياك الله»[5]!!

---

(١) النووي: بستان العارفين ص٨٢.

(٢) الترمذي: كتاب العلم، باب فيمن يطلب بعلمه الدنيا (٢٦٥٥) وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٢٥٨) واللفظ له.

(٣) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم ١/ ١٧.

(٤) الترمذي: كتاب العلم، باب فيمن يطلب بعلمه الدنيا (٢٦٥٤)، وابن ماجه (٢٥٣) واللفظ له، والدارمي (٣٧٣)، وقال الألباني: حسن (٦٣٨٢) صحيح الجامع.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٣٩.

وكان الإمام الشافعي - رحمه الله- يقول: «وددت أن الناس تعلموا هذا العلم ولم يُنسب إليّ منه شيء»[1]!!

وهذا الإخلاص هو الذي دفعه إلى قبول الحق أيًا كان قائله، يقول في ذلك: «ما ناظرت أحدًا قط على الغلبة، وددت إذا ناظرت أحدًا أن يظهر الحق على يديه»[2]..

وخرج أيوب السختياني مرة في سفر فتبعه أناس كثير، فقال: «لولا أني أعلم أن الله يعلم من قلبي أني لهذا كاره، لخشيت المقت من الله ﷻ»[3]!!

حفظه الإخلاص وصِدق النية من العُجْب بنفسه بسبب علمه، وخاصة وهو في مثل هذه الحالة، والناس حوله مُشَيِّعون وله مُعظِّمون..

وعليه فإن الإخلاص هو أول الطريق في منهج العلماء الربانيين..

والأمر كما ذكرنا في البداية ليس مجرد وقفة مع النفس في لحظة من اللحظات، أو في يوم من الأيام، وإنما هو منهج حياة، فيه مراجعة دائمة، ومراقبة مستمرة، والموفَّق من وفقه الله عز وجل.

ثانيًا: الزهد في الدنيا:

يأتي الزهد في الدنيا نتيجة طبيعية وحتمية للإخلاص عند العلماء؛ فإذا لم يكن العالم مخلصًا في علمه لله تعالى، متجردًا فيه عن إغراءات الدنيا وزخارفها، لن يكون بإمكانه تحقيق حق وفضيلة الزهد فيها، وما لم يحقق الزهد فيها فلن يكون علمه خالصًا لوجه الله تعالى..

وأعني فيما أعني هنا.. ألا نطلب الدنيا بعلمنا..

وهذه حقيقة يقع فيها الكثيرون، وخاصة وأن أغلب العلوم الآن - وبالأخص العلوم الحياتية - تُعَد من مصادر الدخل الأساسية للفرد.. وقد يكثر المال بسبب التفوق في هذه العلوم، فيفتن به وينسى قضيته، وتتبدل نيته!!

يقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه عبد الرحمن بن عوف ﷺ: «فَوَالله مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ،

---

(1) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم ١/ ١٢٣.

(2) ابن الجوزي: صفة الصفوة ٢/ ٢٥١.

(3) أبو بكر القرشي: التواضع والخمول ١/ ٨٤.

فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[1].

أمرٌ جدٌّ خطير أن نسعى لتحصيل العلم ونتعلم - أيًا كانت العلوم - مـن أجـل المـ
وأخطر منه أن يفتح الله ﷻ أبواب الرزق الواسعة على العالم فتنة له، فيقع فيها، فـتراه لا يَعْـ
يصرف علمه إلا في الوجه الذي يأتي فقط بمال!!

وهذه - وللأسف - حقيقة مشاهدة، ومن دعاة في الدين وعلماء!!

فقد كان أحد من أعرفهم إمامًا في مسجد في دولة غربية، وكـان يأخـذ راتبًـا عـلى هـ
الإمامة، ولما انفصم العقد الذي كان بينه وبين إدارة المسجد، وجدته وقد قرَّر أن يظل بالبـ
يعمل بأي عمل آخر ولو كان بعيدًا تمامًا عن مجال الدعوة والدين، فالمهم عنده هو الاستمر
في تحصيل المال والثروة..

ورغم أن بيته كان قريبًا من المسجد الذي كان يعمـل إمامًـا لـه، إلا أنـه لم يعُـدْ يـأتي
الصلاة.. لقد ذهب الراتب، فذهبت الدعوة، بل وذهبت صلاة الجماعة!!

أما الغريب، فهو أن هذا الشيخ بعينه هو الذي قَصَّ عـليَّ قبـل ذلـك - متنـدرًا أحـو
العلماء والدعاة الذين يقومون بمثل ذلك -فحكى لي في أسًـى - أن أحـدهم - وكـان إمامـ
أيضًا - إذا جاء يوم إجازة الأسبوع، كان لا ينزل إلى المسجد يُصلِّي، رغم أن بيته فوق المسجـ
تمامًا..!!

وقد مرَّت الأيام، ووقع هو فيما وقع فيه صاحبه.. والمؤمن لا يأمن على نفسه الفتنة أبدًـ
ونسأل الله الثبات..

ومثل هذه الصورة نراها أيضًا في غير أئمة المساجد.. فحين كنت في الأردن وجدت مـ
يشكو إليَّ أن إحدى الإذاعات طلبت من أحد الدعاة البارزين أن يُلقي حـديثًا فيهـا، لتعليـ
الناس ونشر العلم وغيره.. فوافق على أن يُدفع له أولاً مبلغٌ وقدره كذا..!!

لقد أُتيحت له الفرصة لنشر العلم، والدعوة إلى الخير، والقيام بمهمة الأنبياء، وتهيأت له
الأسباب لتبليغ الجمع الغفير.. إلا أنه غلبته الـدنيا، فصـار يعمـل ويُعلِّـم لأجلهـا، ولم يَعُـدْ

---

(1) البخاري: كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرًا (3791)، ومسلم: في أوائل كتاب الزهد والرقائق (2961) والترمذي (2462)، وابن ماجه (3997)، وأحمد (17273).

حسبانه نفع الأمة، أو العمل على نهضتها، أو المشاركة في حل أزماتها.. فوق أنه أصلاً قد حُرم أجر هذه المهمة؛ كون ما طلبه من مالٍ وأجر لم يكن بمقدورهم!!

إننا إزاء هذه الأزمات والفتن لابد أن نعود إلى الأصول، وأن نقف وقفات طويلة أمام القدوات الحقيقية في هذا الشأن، ألا وهم الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه.. فهم القدوة في الدعوة، وهم القدوة في العلم..

إننا حين نراجع قصصهم في القرآن الكريم، نجد أنهم في دعوتهم وعلمهم دائمًا ما يقرنون ذلك بقولهم: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقولهم: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ [هود: ٢٩]. وقولهم: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [هود: ٥١]. وقولهم: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧]. وقولهم: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩].

وهذه الآية الأخيرة تكررت في سورة الشعراء على لسان خمسة أنبياء، وهم: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، على الترتيب!!

بل إن الله ﷻ قد خص نبيه محمدًا ﷺ بقوله: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم عن هذا البلاغ وهذا النصح أجرًا تعطونيه من عرض الحياة الدنيا، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: وما أزيد على ما أرسلني الله به، ولا أبتغي زيادة عليه، بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه الله ﷻ والدار الآخرة[1]..

وعليه فإن ربط العالم علمه، أو ربط دعوته بالمال.. فهو ليس على الطريق السويّ، وأن علمه هذا ودعوته تلك يصبحان وبالاً عليه يوم القيامة..

وقد جاء أن أحد الأمراء قصد ابن الهيثم ليتعلَّم عليه، فخشي أن يُضيع وقته معه سُدَى، فأراد أن يختبر حبه للعلم فطلب منه أن يدفع مائة دينار في كل شهر، فبذل الأمير المال وبعد

---

(1) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٧.

أن تعلَّم على ابن الهيثم ثلاث سنين وأراد الانصراف، صحبه الأستاذ العظيم مودِّعًا ومعه كيـ
ما أخذه من المال، وكان قد حفظه له فأعطاه إياه، وقال له: أنت أحوج لهـذا المـال منـي عـ
عودتك إلى بلادك، وإني قد جرَّبتك بهذه الأجرة، فلمّا علمتُ أنـه لا خَطَـرَ ولا مَوقِـعَ لل
عندك في طلب العلم بذلت مجهودي في تعليمك وإرشادك، واعلم أنه لا أجرة ولا رشوة ولا
هدية في إقامة الخير».

وقد يتساءل أحدهم: هل لا يمكن الجمع بين العلم والدنيا؟ أو بمعنى آخر: هـل يقـ
محكومًا على العلماء بالفقر..؟!

والحقيقة أن هذه القضية ليست معضلة، وهي ليست في حسبان العلماء الحقيقيين بالمرة
إذ أنهم يدركون جيدًا أن ما كان من رزقهم فلـن يفـوتهم، وهـم يعلمـون أن الـرزق يطلـ
الإنسان كما يطلبه الإنسان تمامًا، فكلاهما يبحث عن الآخر، وهكذا فما قُـدِّر لنـا مـن رزق لا
يمكن الزيادة عليه، تمامًا كما لا يمكن الانتقاص منه، بعز عزيز أو بذل ذليل..

ومن ثم فإن العالم يطلب العلم ويتعلمه وينشره، وقد يكون ذلك العلم - كـما ذكرنـ -
هو مصدر رزقه، فإذا جاءه من وراء ذلك مال وفير، كان ذلك نعمة من الله ﷻ تستحق الشكر
والامتنان، فضلاً عن تأدية حقه.. وإذا جاءه قليل، صبر وحمد الله، واحتسب الأجـر عنـده
فلا يشغل باله بهذه القضية إطلاقًا..

لكن أن يصرفَ حياته، ويُكرِّس علمه وعمله لأجل الدنيا وجمـع المـال، ويكـون ذلك
مقصده وديدنه.. فهذا غير ممكن لمن أراد أن يكون عالمًا ربانيًا يبغي الأجـر عنـد الله، ويقتفي
أثر الأنبياء، قدوته عليهم السلام..

إن الدنيا إذا أصبحت هدفًا، فلا شك أن الفتنة عظيمة..

والشيطان يوهم الإنسان أحيانًا أنه يجب أن يمتلـك الـدنيا لينفقهـا في سـبيل الله.. فـإذ
جاءت الدنيا فُتن فيها الإنسان على الأغلب، إلا ما رحم الله وقليل ما هم..

إننا يجب أن نراجع مناهج سلفنا وعلمائنا لنعرف الطريقـة المـثلى في التعامـل مـع قضـية
الدنيا والمال.

فهدف عثمان بن عفان أو أبي بكر الصديق، أو عبد الرحمن بن عوف، أو طلحة بـن عبيـد

ـه أو سعد بن عبادة.. أو غيرهم من أغنياء الصحابة رضوان الله عليهم، لم يكن أبدًا جمع لك ثم إنفاقه في سبيل الله.. وإنما جاءهم المال بعمل لم يستنزف كل أوقاتهم وغالب حياتهم، نفقوه في سبيل الله، وكان منهم من تخلَّى عن ماله وتركه بالكلية من أجل الدعوة والرسالة!!

يقول يونس بن ميسرة: «ليس الزهد بتحريم الحلال وإضاعة المال، ولكن أن تكون بما في ـه أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة - إذا أصبت بها - أرغب منك فيها ـو لم تصبك»[1]..

ثم إنك لا تضمن أبدًا أنه إذا أتتك الدنيا وجاءك المال الوفير ألا تُفتن به، وكيف تضمن ن تراعي فيه حق الله، فضلاً على أن تنفقه كله أو بعضه في سبيل الله..؟!

وما أكثر من وقع في ذلك.. يقول رسول الله ﷺ محذرًا في الحديث الذي رواه أبو سعيد خدري ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا لدُّنْيَا..»[2].

وفضلاً عن الزهد في الدنيا، فإن على العالم ومن يسلك طريق العلم أن يترفع عن الدنايا، يتحرز عن الشبهات والمكروهات..

يقول الشافعي - رحمه الله-:

أَمَتُّ مَطَامعي فَأَرحتُ نَفسي	فإنَّ النَّفس مَا طَمِعَت تهونُ
وأحييتُ القنوعَ وكان ميتًا	ففي إحيائه عِرْضٌ مَصونُ

وليس معنى هذا أن ينعزل العلماء عن الدنيا، ويتركوا الاختراع والابتكار الذي يأتي صورة طبيعية بمال أو ثروة؛ فإننا نُريد سبقًا في العلوم، وامتلاكًا للقدرات العلمية والعسكرية حضارية التي تكفل لأمتنا مكانة سابقة في العالمين.. لكن المقصود هو هدف العلماء غايتهم.. أهو تقدم الأمة ورفعتها، أم هو المال وبريقه؟!

إن القضية ليست قضية هامشية في حياة العلماء.. فالثروة الحقيقية التي يمتلكها العالِم

---

(١) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم ١/ ٢٨٩.

(٢) مسلم: كتاب التوبة والدعاء والذكر والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة (٢٧٤٢)، والترمذي (٢١٩١)، والحاكم (٨٥٤٣).

تكمن في عقله وفي فكره، ولا يجب أبدًا للعالم أن يهبط بثروته هذه إلى سفاسف لـ ومغريات العوام.. فليس سهلاً أن تكون قائدًا وقدوة، وليس يسيرًا أن تكون وارثًا للأنبـ"

ثالثًا: العلم النافع:

لم يكن على المسلم - وخاصة العالم - إلا أن تكون حياته مُورِقة مُثْمِرة، وعليه فلا يجـ أن يُضيِّع عمره في فراغ، كما لا يجب أن يكون عمله عبثًا.. بل لابد أن يكون كل عمله وقته وجهده فيما ينفعه وينفع الآخرين في الدنيا والآخرة..

ومن ثم فإنك لا تكاد تجد رسول الله ﷺ ذكر العلم أو حَثَّ عليه، إلا وأضاف إليه «النفع»..

فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلا مِـ ثَلَاثَةٍ** (أي: ثلاثة أشياء، وفي الترمذي: ثلاث): **إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»[1].

وروى زيد بن أرقم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْـ يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتَجَابُ لَهَا**»[2].

وعليه فقد كان رسول الله ﷺ يَحُضُّ على العلم النافع ويَحُثُّ عليه فيقول: «**سَلُوا الله عِلْمًا نَافِعًا**»[3]..

ومن هنا قَسَمَ العلماءُ العلومَ إلى ثلاثة أنواع:

1) علم نافع: ينفع الإنسان ويفيد البشرية في دينهم ودنياهم..
2) علم ضار: يضر الإنسان في دينه، أو دنياه..

---

(1) مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان بعد وفاته (1631)، وأبو داود (2880)، وأحمد (8831)، وأبو يعلى (6457).

(2) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (272...)، والنسائي (5470)، وابن ماجه (250)، وأحمد (13699)، وابن حبان (83).

(3) ابن ماجه: كتاب الدعاء، باب ما تعوذ منه النبي ﷺ (3843)، وأبو يعلى (1927)، وابن أبي شيبة (212...)، وعبد بن حميد (1093)، وقال الألباني: حسن (3635) صحيح الجامع.

٣) علم لا هو بالنافع ولا هو بالضار: فهو يُعدُّ ضارًا؛ لأنه أضاع الأعمار وبدَّد الأوقات..

وقد فقه الصحابة ﷺ هذا الأمر جيدًا، وكانوا حريصين تمام الحرص على قضية العلم النافع، وكيف يُطلب ويُحصَّل..

ففي قصة الدجال - على سبيل المثال - ذكر رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة صفاته وعلاماته، وعدَّدها، وكانت كل صفة من صفاته غريبة في حد ذاتها، تسترعي انتباه المتطلعين وتستثيرهم للسؤال عنها، ومعرفتها على وجه الحقيقة واليقين..

إلا أن كل ذلك لم يدفعهم إلى السؤال عن تفاصيل أكثر ، ولكن عندما ذكر رسول الله ﷺ مدة مُكُوثِه في الأرض وهي: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ..».

قال الصحابة: «يَا رَسُولَ اللهِ، فَذَلِكَ اليومُ الَّذِي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ»[1]!!

إنها وفقط قضية العلم النافع.. يريدون أن يتعلموا ما يُعينهم على العمل، ولا يكترثون للبحث عن قضايا لا ينبني عليها عمل، بل كل اهتمامهم ما ينفع دنياهم وآخرتهم.

لقد زرع رسول الله ﷺ في صحابته هذا النهج القويم في البحث عن النافع من العلوم، وذلك حين جاءه أعرابي ليسأله: «مَتَى السَّاعَةُ؟» قال له مباشرة: «وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟»[2]..

فهو بذلك نقله من طور النظريات، وما لا ينبني عليه كثير عمل، إلى طور العمل، والعمل النافع الذي ينفعه في الآخرة..

هذا هو العلم النافع الذي يؤتي ثمارًا وفيرة في الدنيا والآخرة..

ومثل هذا الكلام يقال أيضًا على العلوم الحياتية، فقد أدرك أبناء موسى بن شاكر حقيقة

---

(١) مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته (٢٩٣٧)، وأبو داود (٤٣٢١)، وابن ماجه (٤٠٧٥)، وأحمد (١٧٦٦٦)، وكل عن النواس بن سمعان الكلابي ﷺ.

(٢) البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب (٣٤٨٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (٢٦٣٩)، وأحمد (١٢٧١٥).

هذا العلم النافع جيدًا، وهم أول وأشهر فريق علمي جماعي في التاريخ، ذاع صيتهم في عـ
الرياضيات والفلك والعلوم التطبيقية والتقنية، وكانوا من علماء القرن الثالث الهجري.. لقد
أدرك هذا الفريق العظيم قيمة أن يكون العلـم نافعًـا، فاسـتفادوا مـن علمهـم وأفـادو مـ
المسلمين، بل والبشرية جمعاء..

ففي كتابهم «الحِيَل» استحدثوا آلات لخدمة الزراعة والفلاحـة، مثـل المعـالف الخـ
لحيوانات ذات أحجام معينة، تتمكن أن تصيب مأكلها ومشربها، فلا تنازعها غيرهـا العـ
والشراب، وعمل خزانات للحمامات، وآلات لتعيين كثافة السوائل، وآلات تثبت في الحقـ
لكيلا تضيع كميات الماء هدرًا، ويمكن بواسطتها السيطرة على عملية ري المزروعات.

وكان من جملة أعمالهم أيضًا عمل سراج إذا وضع في الريح العاصف لا ينطفئ، وعمـ
سراج يخرج الفتيلة لنفسه ويصب الزيت لنفسه، وكل من يـراه يظـن أن النـار لا تأكـل مـ
الزيت ولا من الفتيلة شيئًا البتّة، وأيضًا عمل نافورة يفور منها المـاء مـدة مـن الزمـان كهيـ
الترس، ومدة متماثلة كهيئة القناة، وكذلك لا تزال دهرها تتبدل!!

وكتابهم السـابق يحتـوي عـلى مائـة تركيـب ميكـانيكي، مـع شروح تفصـيلية ورسـ
توضيحية لطرائق التركيب والتشغيل، وكان اسـتخدامهم للصـمامات التـي تعمـل تلقـ
وللأنظمة التي تعمل بعد زمن معين، وغير ذلك مما من شأنه يحصل فيـه الـتحكم الآلي. مـ
أهم الإنجازات في تاريخ العلم والتقنية بشكل عام.

وقد كان لكل هذه الأفكار الإبداعية - كما يقول أحمـد فـؤاد باشـا - أثـرٌ كبـير في تعـ
مسيرة تقنية «الحيل النافعة» أو الهندسة الميكانيكية قُـدُمًا؛ حيـث تميـزت تصـاميمها بالخيـ
الخصب والتوصيف الدقيق والمنهجية التجريبية الرائدة[1].

ولعل الإنسان يُدرك قيمة بحوث أبناء موسى بن شـاكر عنـدما يـرى القواعـد النظـ
الكثيرة التي أَلَّفَهَا الإغريق لكنهم لم يُسقِطوها عـلى الواقـع، وبالتـالي لم يسـتفيدوا منهـ. و
تستفِد كذلك البشرية..

أما العلم الذي لا ينبني عليه عمل، فلا منفعة منه، ولا طائـل مـن ورائـه، ومـا هـو

(١) أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي ص٣٠، ٣١.

مضيعة للوقت.. ومثال ذلك من يبحث في طول سفينة نوح ﷺ.. أو في نوع الشجرة التي أكل منها آدم ﷺ.. أو المدة التي قضاها قابيل حاملاً هابيل حتى يدفنه.. وغيرها كثير!!

ولو كان العلم بهذه الأشياء فيه منفعة أو فائدة من قريب أو من بعيد، لذكرها لنا سبحانه وتعالى، أو قصَّها علينا رسوله ﷺ..

وأما العلم الضار، فقد عدّد ابن رجب طائفة منه فقال: أصعب ذلك ما أُحدث من الكلام في أفعال الله تعالى من قضائه وقدره؛ فكذب بذلك من كذب وزعم أنه نزّه الله بذلك عن الظلم!

وأصعب منه ما أُحدث بعد ترجمة فلسفة اليونان، وذلك من الكلام أيضًا في ذات الله وصفاته، مما سكت عنه النبي ﷺ والصحابة والتابعون..

وقد تجلت مظاهر هذا العلم في كتابات بعض الصوفية، الذين كتبوا كتابات لا تُفهم بحال، ولا تدفع أبدًا إلى خيرٍ أو صلاح!!

ومن أمثلة هذا قول بعضهم عن الألف والباء في البسملة: **«الألف في التحقيق لسان حل «النقطة» في فوت كنهها، والباء لسان حل تفصيلها، وقلم خطها في تشكيلها، ومبدأ بسطها في تنزيلها»**..!!

وأنا على يقين أن كاتب هذا الكلام لا يفقه معناه فضلا عن قارئه!!

وقد قال الذهبي - رحمه الله- في سياق ذكر التصوّف الفلسفيِّ والقول بوحدةِ الوُجود: «والله لأن يعيشَ المسلمُ جاهلاً خلفَ البقر، لا يعرف من العلم شيئًا سِوى سُورةٍ من القرآن يصلِّي بها الصلواتِ، ويؤمن بالله واليوم الآخر، خيرٌ له بكثيرٍ من هذا العِرْفان وهذه الحقائقِ! ولو قرأ مائة كتابٍ أو عَمِلَ مائةَ خَلْوَة!»[1].

ومن أمثلة ذلك العلم الضار أيضًا علوم الفن والرقص وما يلحق بهما.. والعجيب في ذلك أن تجد حكومات مسلمة تخصص مدارس للرقص بأنواعه، وتنفق عليها من أموال المسلمين، بل وترعى الفرق الراقصة، وتنسبها إلى القومية، وتعطي الجوائز القيمة لمن أبدع في

---

(١) الذهبي: لسان الميزان ٥/ ٣١٢.

أغنية أو لحن، واصفة إيّضاه بأنه من رهبان الفن وعلماء الموسيقى!!

ومثلهم من ظل يتعلم ويبذل جهده ووقته وعمره كي يضيف وترًا إلى العود!!

ومن أمثلة هذا العلم الضار كذلك علوم التنجيم، وعلوم السحر..

وبالجملة فالعلم الضار هو العلم الذي يضر بالإنسان والبشرية، سواء كان هذا الضرر دنيويًا أو أخرويًا..

فإذا كان لا ينبغي للمسلم أن يَصرف أوقاته في علم لا يترتب عليه نفع له أو للمسلمين في الدين أو الدنيا.. فما البال وما الخطب بمن يصرف أوقاته فيما يضر بالمسلمين!!

رابعًا: العمل بما علِم:

ما دام هناك إخلاص، وما دام هناك علم نافع ينبني عليه عمل.. إذن لابد أن يكون هناك استثمارٌ لهذا العلم.. وهو العمل به!

يقول أبو الدرداء ﷺ: إنما أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق فيقول لي: يا عويمر، فأقول: لبيك يا رب، فيقول: «**ما عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ**»[1]؟!

وذكر الخطيب البغدادي بسنده قال: كان إسماعيل بن إبراهيم بن جارية يقول: «كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به»[2]..

ولفهم تلك القضية، فماذا يعني كونك - مثلاً - عندك من الأدلة على فضل صلاة الفجر، أو الصلاة في جماعة، والأهمية الكبيرة والثواب العظيم عليهما، والوعيد الشديد لمن يتخلف عنهما.. ثم تتخلف أنت..؟!

إن مثل ذلك العلم يكون حجة على الإنسان، لا حجة له.. وقس على ذلك كل العلوم، سواء في علوم الشريعة أو في علوم الحياة..

ومن هذه الوجهة، فقد قسم رسول الله ﷺ الناس إلى أربعة أصناف، وذلك بحسب العلم والمال الذي عندهم.. فهناك من أنعم الله عليهم بالعلم والمال، وهناك من حرمهم الله

(١) أبو محمد المنذري: الترغيب والترهيب ١/ ٧٤.

(٢) الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي ٢/ ٢٥٨.

العلم والمال، وهناك من أعطاهم العلم ومنعهم المال، وهناك من رزقهم المال ومنعهم العلم..

فقد روى أبو كبش الأنماري - رحمه الله- أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالاً وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ للهِ فِيهِ حَقًّا؛ فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ**».

ذلك أن العلم عنده ضَبْطُ حركة المال، فجعله يتحكم فيه تحكمًا شرعيًا.. فتراه يأتي به من جهة حلال، وتراه ينفقه في الوجه الذي أحله الله، وفوق ذلك فهو لا ينسى حق ذلك العلم عليه، من جهة نشره وتعليمه وتدريسه..

وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ.

وما أعظم تلك المثوبة وذلك الجزاء العظيم، الذي هو متوقف فقط على الإخلاص والنية الصالحة!! وما أعظم الحسنات التي من الممكن أن يكتسبها الذي حرم المال وهو يبغي الإنفاق..!!

وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ للهِ فِيهِ حَقًّا؛ فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ.

فحرمان العلم مع وجود المال، جعله لا يعرف وجوه الحلال والحرام في الإتيان به، أو صَرْفِه وضَبْطِ حركته، فتراه يتصرف فيه من تلقاء نفسه، فيتخبّط فيه مُعربدًا مَيْمَنَةً وميسرةً، فيمسك تارة شُحًّا وحرصًا، وينفق أخرى فخرًا وسمعة ورياء..

وهكذا، فإن أكثر الأغنياء يفتنون.. يقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه أبو ذر رضي الله عنه: «**إِنَّ الْأَكْثَرِينَ** (في المال) **هُمُ الْأَقَلُّونَ** (في الحسنات) **يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ..**»[1].

فقليلٌ جدًّا من يُؤتى المال فيثبت، ويتصرف فيه بما ينبغي أن يكون..

أما الصنف الرابع:

---

(١) البخاري: كتاب الاستقراض والديون والحجر والتفليس، باب أداء الديون (٢٢٥٨)، مسلم: كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة (٩٤)، وأحمد (٢١٣٨٥)، وابن حبان (١٧٠).

وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالاً وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ؛ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ»[1].

وإن هذا الصنف من الناس - والله - لمسكين.. فهو ليس لديه كثير مال، ولم يتعلم العلم ولم يطلبه، ورغم ذلك تراه يتمنى أن لو كان عنده مال، لعمل فيه - ليس بالتعلم، أو بإنفاقه في طرق الخير وفي مصارفه الشرعية، وإنما - بعمل ذلك الرجل العاصي، الذي ينفق ماله في معصية الله ﷻ، والذي يتكبر بماله ويتطاول به على الناس..!!

وقد وقع عليه وزر نيته..!!

وفي عدم العمل بالعلم يروي أسامة بن زيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ، مَا شَأْنُكَ؟ أليس كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ. كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»[2].

ويروي أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لَمَّا أُسْرِيَ بِي مَرَرْتُ بِرِجَالٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، قَالَ: فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ»[3].

وقال الحسن: «إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُصِيبُ الْبَابَ مِنَ الْعِلْمِ فَيَعْمَلُ بِهِ، فَيَكُونُ خَيْرًا لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَوْ كَانَتْ لَهُ فَجَعَلَهَا فِي الآخِرَةِ. قَالَ: وَقَالَ أَيْضًا: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا طَلَبَ الْعِلْمَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يُرَى ذَلِكَ فِي بَصَرِهِ وَتَخَشُّعِهِ وَلِسَانِهِ وَيَدِهِ وَصَلَاتِهِ وَزُهْدِهِ»[4].

وفي أمثلة عمليّة وحيَّة على أحوال علماء الأمة في العمل بالعلم، فإن المروزي يقول: قال

---

(١) الترمذي: كتاب الزهد، باب مثل الدنيا مثل أربعة نفر (٢٣٢٥) وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد (١٨٠٦٠). وقال الألباني: صحيح: (٣٠٢٤) صحيح الجامع.

(٢) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة (٣٠٩٤)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله (٢٩٨٩).

(٣) أحمد (١٣٤٤٥)، وابن حبان (٥٣)، والطبراني في الأوسط (٨٢٢٣)، وقال الألباني: صحيح (٢٩١) السلسلة الصحيحة.

(٤) الدارمي: باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله (٣٨٥).

الإمام أحمد: ما كتبت عن النبي ﷺ حديثًا إلا وعملت به، (في مسند الإمام أحمد حوالي ٤٠,٠٠٠ حديث) حتى مر بي في الحديث أن النبي ﷺ احتجم وأعطى الحجام دينارًا، فأعطيت الحجام دينارًا حين احتجمت[1]!!

بل إنه -رحمه الله- استأذن زوجته في أن يتخذ أَمَةً فأذنت له، فاشترى جارية بثمن يسير وسماها ريحانة؛ استنانًا بالرسول ﷺ!!

وهذا الحسن البصري -رحمه الله-، جاءه الرقيق يومًا وطلبوا منه أن يكلم الناس في خطبة الجمعة عن فضل عتق الرقاب؛ إذ كان الناس وقتئذٍ يَقبلون منه ما لا يقبلون من العلماء.. فقام الحسن في الجمعة الأولى فلم يتكلم في هذا، وفي الثانية لم يتكلم أيضًا، وفي الجمعة الثالثة تكلم فأحسن في فضل عتق الرقاب، وكان أن خرج الناس من المسجد فأعتقوا ما كان عندهم من الرقيق..

وحينها جاء الرقيق المحررون لوجه الله تعالى يشكرون الحسن ويقولون: أبطأت علينا ثلاث جمع، فقال: لقد انتظرت حتى رزقني الله مالاً، فاشتريت عبدًا وأعتقته لوجه الله تعالى؛ حتى لا آمر الناس بما لم أفعل..!!

وقال عبد الرحمن بن مهدي: سمعت سفيان يقول: «ما بلغني عن رسول الله ﷺ حديث قط إلا عملت به، ولو مرةً واحدةً»[2]..

ويقول أبو رافع: «صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ الْعَتَمَةَ، فَقَرَأَ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ فَسَجَدَ، فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ؟ قَالَ: سَجَدْتُ بِهَا خَلْفَ أَبِي الْقَاسِمِ ﷺ، فَلَا أَزَالُ أَسْجُدُ بِهَا حَتَّى أَلْقَاهُ»[3].

وفي العلوم الحياتية، فإن الصينيين كانوا قد اخترعوا البوصلة، إلا أنهم كانوا يستخدمونها في السحر والخرافات، وحينما وصلت لأيدي المسلمين، كانوا هم أول من استخدمها في الملاحة البحرية، وفي تحديد القبلة في الصلاة.. وبدأوا يطورونها كي

(١) الذهبي: نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء، إعداد محمد بن موسى الشريف ٢/ ٩٢٩.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٤٢

(٣) البخاري: كتاب صفة الصلاة، باب الجهر في صلاة العشاء (٧٣٢)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب سجود التلاوة (٥٧٨)، وأبو داود (١٤٠٨).

تؤدي فوائد عملية للناس..

وقد مرَّ بنا سعي ابن الهيثم لتطبيق فكرتـه لبنـاء سـدٍّ عـلى النيـل يحمـي مصر مـن ميـ
الفيضان..

وهو الذي أنكر نظرية إقليدس وبطليموس في علم البصريات، والتي تقول بـأن العـ
هي التي ترسل أشعتها على الأشياء، وأثبت بتجاربه العملية أن العكس هو الصحيح[1]..

أما الجزري -رحمه الله- (من علماء الهندسة الميكانيكية المعدودين) فقد طلب منه الخيـ
أن يصنع آلة تغنيه عن الخدم كلّما رغب في الوضوء للصلاة، فصنع له الجزري آلـة عـلى هيـ
غلام منتصب القامة، وفي يده إبريق ماء، وفي اليد الأخرى منشفة، وعلى عمامته يقـف طـ
فإذا حان وقت الصلاة يصفر الطائر، ثم يتقدم الخادم نحو سيده ويصـب المـاء مـن الإبريـ
بمقدار معين، فإذا انتهى من وضوئه يقدم له المنشفة ثم يعود إلى مكانه، والعصفور يغرِّد[2].

وهكذا، كان للعلم الذي تعلمه العلماء المسلمون، سواء الشرعي أو الحياتي، تطبيق عمـ
في حياتهم اليومية، واستثمار حي وحقيقي له..

خامسًا: الرحمة:

من الأخلاق التي لابد أن يتصف بها العلماء أيضًا الرحمة..

فكثيرًا ما يضع العالِم حواجز كثيرة بينه وبين عموم الناس إذا لم يكن متصفًا بهـذا الخلـ
العظيم: خلق الرحمة.. والناس عادةً تَنْفِرُ من الإنسان غليظ الطباع، قاسي المشـاعر؛ ولـذلك
قد يحوي عقل العالِم علمًا هائلاً لكنه لا يستطيع أن يُفيد الخلق به؛ لأنَّ قلبه ما حوى رحمـةً ولا
شفقة!!

لذلك على العالم أن يتعلَّم الرحمة تمامًا كما يتعلَّم العلم، ويباشر هذه الرحمـة مـع عبـاد الله
تمامًا كما يباشر تجاربه وقواعده وأصوله العلمية.

ومن هنا نفهم لماذا قدّم الله عز وجل صفة الرحمة عنده سبحانه وتعالى على صفة العلـم:
فقال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْـدِ رَبِّهِـمْ وَيُؤْمِنُـونَ بِـهِ وَيَسْـتَغْفِرُونَ

(١) الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص١٢٤.

(٢) محمد أمين فرشوخ: موسوعة عباقرة الإسلام ٥/ ٢٣٧.

لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

فالملائكة يصفونه سبحانه بأنه وسع كل شيء رحمة وعلمًا.. وقد قدَّموا قبل طلبهم وسؤالهم ودعائهم سبحانه للذين آمنوا - قدَّموا قبل ذلك رحمته ﷻ ولم يقدموا علمه.. في صورة إنها توحي باستئناسهم وارتياحهم وحاجتهم لهذه الرحمة أولاً..

بل إنه سبحانه قال يصف العبد الصالح الذي وُصِفَ بالعلم، والذي أُرْسِلَ إليه موسى ﷺ كي يتعلم منه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٥، ٦٦].

فقد رزقه الله الرحمة أولاً وزوّده بها، وذلك كي ييسر له التعامل مع الناس، ثم علَّمه ﷻ من علمه بعد ذلك..

وهذا بعينه ما بدا واضحًا في بقية أحداث القصة في الآيات التي جاءت بعد ذلك، وكيف عامل العبد الصالح موسى ﷺ، وكيف صبر على أسئلته التي أثارها رغم تعهداته..

ومن أوضح الأمثلة العملية على ذلك، ما جسده رسول الله ﷺ بنفسه في حياته، فكان نعم المعلِّم هو ونعم المربي هو، ونعم القدوة هو ﷺ..

وانظر إلى تجسيد الصحابي الجليل معاوية بن الحكم السلمي ﷺ لهذه الرحمة في التعليم، وذلك حين يصف سلوك رسول الله ﷺ معه؛ فيقول: «بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: «يَرْحَمُكَ اللهُ»، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ! فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ.

فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَالله مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ.

قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، وَقَدْ جَاءَ اللهُ بِالْإِسْلَامِ، وَإِنَّ مِنَّا رِجَالاً يَأْتُونَ الْكُهَّانَ. قَالَ: فَلَا تَأْتِهِمْ. قَالَ: وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ. قَالَ: ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي

صُدُورِهِمْ فَلَا يَصُدَّنَّهُمْ..»[1].

ولعلنا نلحظ بوضوح في هذا الموقف أن رحمة رسول الله ﷺ لم تمرَّ هكذا دون أن يلتفت إليها معاوية ﷺ أو ينتبه إليها، لقد علَّق عليها، وذكر أنها من أجلِّ صفات المعلِّم وأحسنه. ثم لعلَّنا نلحظ أيضًا أن هذه الرحمة هي التي شَجَّعت معاوية على أن يتقدم بأسئلة أخرى ليستفيد ويستزيد.. ولو كان أسلوب المعلِّم غليظًا لامتنع السائل خشية التعرُّض للغلظة أو القسوة.

وإنَّ العجب بعد ذلك أن تجد علماء يستعملون هذه الغلظة في معاملتهم ودعوتهم، الأمر الذي ينفر الناس منهم، ويصدهم عن دعوتهم، فضلاً عن الاقتداء بهم..

وقد حدث قريب من هذا في عهد رسول الله ﷺ، فكان له معه موقف..

فقد روى أبو مسعود الأنصاري ﷺ قال: «جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي - وَالله - لَأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مِنْ أَجْلِ فُلَانٍ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا فِيهَا! قَالَ: فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَطُّ أَشَدَّ غَضَبًا فِي مَوْعِظَةٍ مِنْهُ يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ؛ فَإِنَّ فِيهِمْ الْكَبِيرَ، وَالضَّعِيفَ، وَذَا الْحَاجَةِ»[2].

وإن مثل ذلك الخلق يتطلبه المعلِّم في كل مكان وكل مجال.. فيتطلبه الأب في البيت، والمدرس في المدرسة، والأستاذ في الجامعة، والطبيب في المستشفى أو العيادة.. ويتطلبه بصفة خاصة الداعية والمربي في كل أحواله ومقاماته..

سادسًا: توريث العلم:

نَقْلُ العلم هو أعظم استثمار له.. فبه قد وصل إلينا، وبه أيضًا يصل إلى غيرنا.. وإن أعظم الأعمال هي تلك التي لم يقتصر نفعها على صاحبها، وإنما التي يَتَعَدَّى نفعها إلى الآخرين..

---

(١) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة (٥٣٧)، والنسائي (١٢١٨)، وأبو داود (٩٣٠)، وأحمد (٢٣٨١٣).

(٢) البخاري: كتاب الجماعة والإمامة، باب تخفيف الإمام في القيام وإتمام الركوع والسجود (٦٧٠)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام (٤٦٦)، والدارمي (١٢٥٩)، وابن خزيمة (١٦٠٥)، وابن حبان (٢١٣٧)، والطبراني في الكبير (٥٦٠)، وابن أبي شيبة (٤٦٥٧).

ونقل العلم وبيانه للناس هو أعظم حق له على العلماء الربانيين.. فبه يتعلم الجاهل، ويرشُدُ الضال.. يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ومن هنا فإن من أهم أخلاق العالم أيضًا هو أن ينفع بعلمه الآخرين، فينقله لهم ويورثه إياهم.. لتعم الفائدة، ويعود النفع على الأمة بأثرها..

وذلك الأمر قد فقهه جيدًا أبو هريرة رضي الله عنه فيقول: «إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ»، وَلَوْلَا آيَتَانِ فِي كِتَابِ الله مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا، ثُمَّ يَتْلُو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى..﴾ إلى قَوْلِهِ: ﴿الرَّحِيمُ﴾ وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الْعَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَلْزَمُ رَسُولَ الله ﷺ بِشِبَعِ بَطْنِهِ، وَيَحْضُرُ مَا لَا يَحْضُرُونَ، وَيَحْفَظُ مَا لَا يَحْفَظُونَ»[1].

وعن فضل ذلك ومكانته، يروي زيد بن ثابت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ»[2].

وفي صورة رائعة، توضِّحُ فضل من يعلِّم العلم على غيره، فإن رسول الله ﷺ يضربُ مثل فيقول: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً.

فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ الله، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى الله الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»[3].

---

(١) البخاري: كتاب العلم، باب حفظ العلم (١١٨)، وأبو داود (١٢٦١).

(٢) أبو داود: كتاب العلم، باب فضل نشر العلم (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦)، وابن ماجه (٢٣٢)، وأحمد (٤١٥٧)، والدارمي (٢٩)، وقال الألباني: صحيح (٤٠٤) السلسلة الصحيحة.

(٣) البخاري: كتاب العلم، باب فضل من علم وعلَّم (٧٩)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم (٢٢٨٢)، وأحمد (١٩٥٨٨)، وابن حبان (٤).

ومن هنا تراه ﷺ يحضُّ على تعليم الغير، فيقول في حِجة الوداع في خطبته الجامعة، عن أبي بَكْرة ﷺ: «لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ؛ فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ»[1].

وروى عثمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[2].

وفي شرحه يقول ابن حجر: والذي يُعلِّم غيره يحصل له النفع المُتعدِّي، بخلاف من يعمل فقط، بل من أشرف العمل تعليم الغير، فمُعلِّم غيره يستلزم أن يكون تعلمه وتعليمه لغيره عمل وتحصيل نفعٍ مُتعدٍّ... ولا شك أن الجامع بين تعلم القرآن وتعليمه مكمِّلٌ لنفسه ولغيره، جمع بين النفع القاصر والنفع المتعدي، ولهذا كان أفضل، وهو من جملة من عنى سبحانه وتعالى بقوله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[3].

ويقول معاذ بن جبل ﷺ: «.. وتعليمه من لا يعلمه صدقة..»[4].

ويقول جابر بن عبد الله: «إذا لعن آخر هذه الأمة أولها، فمن كان عنده علم فليظهره فإن كاتم ذلك العلم ككاتم ما أُنزل على رسول الله ﷺ»[5]!!

وهو يريد أنه إذا جاء زمان يلعن فيه الناس أوائل هذه الأمة، أي الصحابة -رضي الله عنهم-، فمن كان عنده علم في الدفاع عنهم فليظهره، وإلا فإن من يكتمه كمن يكتم ما أُنزل على رسول الله ﷺ.. وكلاهما أمر عظيم!!

ومن هنا كان التحذير الشديد من كتمان العلم عمن يسأل عنه..

فقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمَّ كَتَمَهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»[6]!!

---

(١) البخاري: كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ رب مبلغ أوعى من سامع (٧٦)، ومسلم: كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩)، وابن ماجه (٢٣٣).

(٢) البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٤٧٣٩)، وأبو داود (١٤٥٢)، والترمذي (٢٩٠٧).

(٣) ابن حجر: فتح الباري ٩/ ٧٦، والآية من سورة فصلت: ٣٣.

(٤) الغزالي: إحياء علوم الدين ١/ ١١.

(٥) الطبراني في الأوسط: (٤٣٠)

(٦) أبو داود: كتاب العلم: باب كراهية منع العلم (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦٤)، وأحمد (٧٥٦١)، والحاكم (٣٤٥)، وقال: حديث صحيح، وقال الألباني: صحيح (٦٢٨٤) صحيح الجامع.

ولعلَّنا ندرك بعد ذلك سبب انتشار علم الإمام **مالك**، حتى صار له مذهبٌ فقهيٌّ خاصٌّ به، وعدم انتشار علم الإمام **الليث بن سعد** - رحمه الله -، وقد كان فقيه عصره وإمامه البارز..!!

وتظهر الحقيقة في أنَّ الإمام **مالك** - رحمه الله - كان له من التلاميذ الذين يبلِّغون عنه، وينشرون علمه، في حين لم يجد الإمام **الليث** من يحمل مذهبه حتى يعُمَّ وينتشر.. وقد أشار إلى هذه الحقيقة الإمام **الشافعي** - رحمه الله - حين قال: «**الليث بن سعد أفقه من مالك**، إلا أن أصحابه لم يقوموا به»[1].

وبذلك أيضًا استفادت الدنيا من علم **الرازي** - رحمه الله -.. فقد كانت له مدرسة في تعليم الطب؛ فكان يؤلف الكتب، ويجري التجارب والأبحاث مع طلبة العلم، وكان يقوم بجولة معهم للاطمئنان على المرضى.. فورَّث - رحمه الله - العلم، واستفادت منه ليست أمة الإسلام فحسب، وإنما البشرية جمعاء..!!

وفي العلوم الحياتية أيضًا، فقد أهدى **أبو نصر بن عراق** (وهو من علماء القرن الرابع الهجري، وله مصنفات في الآلات الفلكية والمثلثات) أكثر كتبه ورسائله إلى **أبي ريحان البيروني**، وقد اعترف له البيروني بفضله، فكان يلقبه بـ «أستاذي»[2]!!

أما **الجلدكي** (وهو من علماء القرن الثامن الهجري)، والذي اشتهر بسعة اطلاعه وتبحره في علم الكيمياء، فكان مُحِبًا لنشر هذا العلم بين الناس؛ ولذلك كانت داره مفتوحة أمام طلاب المعرفة، وصدره واسعًا لإجابة من يستفتيه في مسألة من مسائل الكيمياء، أو أي فرع من فروع المعرفة[3]..

سابعًا: الأمانة العلمية:

لعلنا يجب أن نقف كثيرًا أمام أهم صفتين اتصف بهما رسول الله ﷺ حتى قبل أن تنزل عليه الرسالة ويتعلَّم العلم، وهما صفتا: الصدق والأمانة؛ إذ عُرِف بهما في مجتمعه، مما كان له أبلغ الأثر بعد ذلك في نجاحه في توصيل علمه ودعوته للناس..

---

(١) ابن حيان الأنصاري: طبقات المحدثين بأصبهان ١/ ٤٠٦.

(٢) هداية العارفين ص٦٩٨.

(٣) رحاب خضر عكاوي: موسوعة عباقرة الإسلام ٤/ ٥٠-٥٥.

وإن القلب ليحزن حقيقةً عندما يرى أن هذا الخلق قد افتُقِد كثيرًا في زماننا هذا.. فتجد من يسرق الصفحات ولا ينسبها إلى أصحابها، بل تجد من يسرق الكتب كاملة ويحصل بها على درجات الترقية في الجامعات الأكاديمية، ودون أي رادع إيماني أو إلزام خلقي يصدُّه عن ذلك..!!

وهذه الآفة من أخطر الأخلاق وأخبثها..

ولأجل ذلك فقد كان علماء المسلمين في كل علومهم، سواء كان علمًا شرعيًّا أو حياتيًّا - كانوا حريصين أشد الحرص على تحري الدقة والأمانة العلمية فيما ينقلونه عن غيرهم، حتى ولو كان النقل عن مجهولين، وكان ذلك واضحًا في كل كتبهم وتصانيفهم..

من هذا مثلاً ما يقوله ابن الأثير في مقدمة كتابه (الكامل) بعد أن يذكر السبب الذي من أجله كان كتابه هذا: «ولا أقولُ إني أتيتُ على جميع الحوادث المتعلّقة بالتاريخ؛ فإنَّ من هو بالموصل لابد أن يشذَّ عنه ما هو بأقصى الشرق والغرب، ولكن أقول: إنني قد جمعت في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد، ومن تأمَّله عَلِمَ صحّة ذلك.

فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنّفه الإمام أبو جعفر الطبريّ؛ إذ هو الكتاب المعوّل عند الكافة عليه، والمرجوعُ عند الاختلاف إليه، فأخذت ما فيه من جميع تراجمه، لم أُخِلّ بترجمة واحدة منها، وقد ذكر هو في أكثر الحوادث روايات ذوات عدد، كلّ رواية منها مثل التي قبلها أو أقل منها، وربّما زاد الشيء اليسير أو نقصه، فقصدتُ أتمّ الروايات، فنقلتها وأضفت إليها من غيرها ما ليس فيها، وأودعت كل شيء مكانه، فجاء جميع ما في تلك الحادثة على اختلاف طرقها سياقًا واحدًا على ما تراه.

فلمّا فرغتُ منه وأخذتُ غيره من التواريخ المشهورة فطالعتها وأضفت منها إلى ما نقلته من تاريخ الطبري ما ليس فيه، ووضعتُ كلّ شيء منها موضعه..»[1].

وترى المقريزي في مقدمة كتابه (المواعظ والاعتبار) يذكر أنه سلك في كتابه هذا ثلاثة أنحاء، وهي:

«النقل من الكتب المصنفة في العلوم، والرواية عمن أدركت من شيخه العلم وجِلّة

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١/ ٧، ٨.

لناس، والمشاهدة لما عاينته ورأيته. فأما النقل من دواوين العلماء التي صنفوها في أنواع لعلوم؛ فإني أعزو كل نقلٍ إلى الكتاب الذي نقلته منه؛ لأخلص من عهدته، وأبرأ من جريرته، فكثيرًا ممن ضمني وإياه العصر، واشتمل علينا المصر صار لقلة إشرافه على العلوم وقصور باعه في معرفة علوم التاريخ، وجهل مقالات الناس، يهجم بالإنكار على ما لا يعرفه، ولو أنصف لعلم أن العجز من قبله وليس ما تضمنه هذا الكتاب من العلم الذي يقطع عليه، ولا يحتاج في الشريعة إليه، وحسب العالم أنْ يعلم ما قيل في ذلك ويقف عليه.

وأما الرواية عمن أدركت من الجِلَّة والمشايخ؛ فإني في الغالب والأكثر أصرح باسم من حدّثني إلا أن لا يحتاج إلى تعيينه، أو أكون قد أنسيته، وقلّ ما يتفق مثل ذلك.

وأمّا ما شاهدته؛ فإني أرجو أن أكون - ولله الحمد - غير متهم ولا ظنين..»[1].

وهذا أبو كامل المصري، من علماء القرن الثالث الهجري، والذي كان يُلقب بأستاذ لجبر، وقد صنف فيه كتابه المعروف بـ (الكامل بالجبر).. فقد ذكر في هذا الكتاب أيضًا أنه إنما هو تكملة لما وصل إليه أستاذه محمد بن موسى الخوارزمي عن الجبر والمقابلة[2]..!!

بل إن أبناء موسى بن شاكر - الذين ذكرناهم سابقًا - كان لهم مع الأمانة العلمية شأن عجيب..

فتراهم في أشهر كتبهم، وهو «الحِيَل»، يوضحون ما ليس من عملهم، وما قد يخفى على كثير من أمتهم فيقولون: «فكل ما وصفْنا في كتابنا فإنه من عَمَلنا، إلا معرفة المحيط من نقطر؛ فإنه من عمل أرشميدس، وإلا معرفة وضع مقدارين بين مقدارين لتتوالى على نسبة واحدة؛ فإنه من عمل مانا لاوس»[3]!!

وأعجب من ذلك أن ترى العالم المسلم يشهد على أبيه؛ التزامًا بنهج رسول الله ﷺ..!!

فقد ذكر ابن حبان أن علي بن المديني سُئِل عن أبيه فقال: اسألوا غيري.

فقالوا: سألناك.

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار مقدمة الكتاب.

(٢) الدفاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية ص١٩٩.

(٣) انظر: بنو موسى: كتاب معرفة مساحة الأشكال ص١٧، ٢٥.

فأطرق، ثم رفع رأسه وقال: هذا هو الدين، «أبي» ضعيف[1]!!

دفعته الأمانة العلمية إلى أن يعترف بالحق، فيُضعِّف أباه؛ حتى لا يُؤخذ عنه ما قد يُسيء إلى العلم، أو إلى الدين بصفة عامة..

وفي الحديث عن الأمانة العلمية، فإن ذلك يجُرُّنا إلى أمر أعظم من مجرد سرقة الأفكار أو الكتب، وهو التظاهر بالمعرفة العلمية.. أو قل إنه: الفتوى بغير علم!!

وذلك ليس في العلوم الشرعية فقط، بل في كل مجالات العلوم، قلَّ شأنها أو عظم، حتى لَيتسع فيشمل المسئول في الشارع، والمستشار في الزواج، والطبيب في مستشفاه، والقاضي في محكمته.. وأخطر من هذا كله: الفتوى في الدين!!

وفي مثل ذلك روى البخاري وابن حبان - واللفظ له - عن مسروق - رحمه الله- أنه قال: «بينما رجل يُحدِّث في كندة قال: يجيء دخان يوم القيامة، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمن كهيئة الزكام. قال: ففزعنا، فأتيت ابن مسعود، قال: وكان متكئًا، فغضب، فجلس، وقال: يا أيها الناس، من علم شيئًا فليقل به، ومن لم يعلم شيئًا فليقل: «الله أعلم»؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: «لا أعلم»؛ فإن الله جل وعلا قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[2].

فهذا الرجل يروي عن أحداث يوم القيامة ما لا علم له به، ولم يأتِ في آية قرآنية أو حديث شريف؛ مما أثار غضب الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ؛ فطفق يعلِّم السامعين أهمية توقف المسلم عند ما يعلمه، وأهمية قول: لا أعلم.

وهذه هي القاعدة العريضة التي لابد أن يحتكم إليها كل إنسان، فمن كان عالمًا قال بعلمه، ومن لم يكن عالمًا لا ينبغي له أن يعطي الناس شيئًا هو فاقده؛ ذلك أن من أفتى بغير علم ضلَّ وهلك.!!

وقد روى الخطيب البغدادي في تاريخه عن ابن عمر أنه قال: «العلم ثلاثة: كتاب ناطق، وسُنّة ماضية، ولا أدري»[3].

---

(١) ابن حبان: المجروحين ٢/ ١٥.

(٢) البخاري: كتاب التفسير، باب الم غلبت الروم في أدنى الأرض (٤٤٩٦)، وابن حبان (٦٥٨٥)، والآية من سورة ص: ٨٦.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٤/ ٢٣.

ولا غرو.. فقد انتفت يومًا «لا أدري»، فحدثت الحادثة، ووقعت الكارثة.. وقُتِلَ صحابي بسبب فقدها!!

يقول جابر ﷺ: «خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلاً مِنَّا حَجَرٌ فَشَجَّهُ فِي رَأْسِهِ، ثُمَّ احْتَلَمَ، فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ: هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيَمُّمِ؟ فَقَالُوا: مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ. فَاغْتَسَلَ فَمَاتَ. فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أُخْبِرَ بِذَلِكَ فَقَالَ: قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ؛ أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؟! فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ (أي: الجهل أو: التحير في الكلام) السُّؤَالُ؛ إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ، أَوْ يَعْصِبَ - شَكَّ مُوسَى - عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً، ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا، وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ»[1].

إنَّ كثيرًا من الناس يستحيون من ذكر كلمة «لا أعلم»، وكأنه على الإنسان أن يعلم علوم الدنيا والدين جميعًا!! وما أبلغ الدرس الذي علمنا إياه رسول الله ﷺ، وهو يجيب أحيانًا عن بعض الأسئلة بقوله: «لا أدري»، مع كونه أعلم الخلق، وسيد البشر، وخير الرسل..

يروي جبير بن مطعم ﷺ أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟

قَالَ: فَقَالَ: «لَا أَدْرِي».

فَلَمَّا أَتَاهُ جِبْرِيلُ ﷺ قَالَ: «يَا جِبْرِيلُ، أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟»

قَالَ: لَا أَدْرِي حَتَّى أَسْأَلَ رَبِّي ﷻ.

فَانْطَلَقَ جِبْرِيلُ ﷺ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ سَأَلْتَنِي: أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟ فَقُلْتُ: «لَا أَدْرِي»، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ أَيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟ فَقَالَ: «أَسْوَاقُهَا»[2].

وليس هذا هو الموقف الوحيد في حياته ﷺ؛ فقد سُئِل عن أهل الكهف، وسُئِل عن الساعة، وكذلك عن الرُّوح، وسُئِل عن ذي القرنين.. ولم يُجب عن كل ذلك حتى نزل عليه

---

(١) أبو داود: كتاب الطهارة، باب في المجروح يتيمم (٣٣٦)، والدارقطني (٣)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٠١٦) صحيح أبي داود (٣٢٥)، وقال الألباني: صحيح.

(٢) أحمد (١٦٧٩٠)، والحاكم (٢١٤٨)، وقال: هذا حديث صحيح، وأبو يعلي (٧٤٠٣)، قال حسين سليم أسد: إسناده حسن.

الوحي بالإجابة، وهو في ذلك غير ناظرٍ ولا عابئٍ بما كان يقوله المشركون حين يتأخر الوحي بها[1]!!

وقد وعى الصحابة ﷺ الدرس، وتعلموا منه ﷺ كلمة **«لا أعلم»**، وصارت لهم منهجًا في الحياة.. والأمثلة على ذلك في كتب السنن أكثر من أن تُحصَر، فمنها ما رواه أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ». قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»**[2].

فلم يُفتوا ﷺ بغير علم، ولم يتطوع أحدٌ منهم بتبسيط المسألة، أو باقتراح إجابة.. بل إنهم شَفَعُوا **«الله ورسوله أعلم»** بسؤال يوضح لهم الصورة أكثر مما علموه عنها!!

ويقول الشعبي: «كان أبو بكر يقول: أي سماء تُظِلُّني وأي أرض تُقِلُّني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم»[3]!!

وعلى هذا النهج سار علماء الأمة من بعدهم..

يقول ابن القيم في (إعلام الموقعين): «وكان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التسرع في الفتوى، ويَوَدّ كل واحدٍ منهم أن يكفيه إياها غيرُه، فإذا رأى أنها قد تعيّنت عليه بذل اجتهاده في معرفة حُكمها من الكتاب والسنة أو قول الخلفاء الراشدين، ثم أفتى»[4].

ويقول عبد الرحمن بن أبي ليلى ﷺ: «أدركت عشرين ومائةً من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ، ما منهم رجلٌ يسأل عن شيء إلا وَدَّ أن أخاه كفاه، ولا يحدِّث حديثًا إلا وَدَّ أن أخاه كفاه»[5].

وهذه قصة رائعة يرويها أبو عياش ﷺ توضح نفور علماء الصحابة والتابعين من الفتوى إلا عند الاضطرار.. يروي أبو عياش أنه كان جالسًا عند عبد الله بن الزبير وعاصم بن عمر

(١) انظر البخاري: كتاب العلم، باب وما أوتيتم من العلم إلا قليلا (١٢٥)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين، باب سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح (٢٧٩٤)

(٢) مسلم: كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الغيبة (٢٥٨٩)، وابن حبان (٥٧٥٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٧١٩).

(٣) ابن أبي شيبة: (٣٠١٠٣).

(٤) ابن القيم: إعلام الموقعين ١/ ٣٣.

(٥) المصدر السابق ١/ ٣٤.

فجاءهما محمد بن إياس بن البُكَيْر؛ فقال: إن رجلاً من أهل البادية طلق امرأته ثلاثًا؛ فماذا ترَيان؟ فقال عبد الله بن الزبير: إن هذا الأمر ما لنا فيه قول؛ فاذهب إلى عبد الله بن عباس وأبي هريرة، فإني تركتهما عند عائشة زوج النبي ﷺ، ثم ائتنا فأخبرنا، فذهبْت فسألتهما، فقال ابن عباس لأبي هريرة: أفته يا أبا هريرة، فقد جاءتك معضلة. فقال أبو هريرة: الواحدة تُبِينُها، والثلاث تُحرِّمُها حتى تنكح زوجًا غيره[1].

ويقول ابن عباس: إن كل من أفتى الناس في كل ما يسألونه عنه لمجنون[2].

وقال سحنون بن سعيد: أجسر الناس على الفتيا أقلهم علمًا، يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم يظن أن الحق كله فيه[3]!!

ويقول حذيفة: إنما يُفتي الناسَ أحدُ ثلاثة: من يعلم ما نُسِخ من القرآن، أو أميرٌ لا يجد بدًا، أو أحمق متكلف. قال: وكان ابن سيرين يقول: فلست بواحد من هذين، ولا أحب أن أكون الثالث[4]!!

ويقول النووي عن عطاء بن السائب التابعي: «أدركتُ أقوامًا يسأل أحدهم عن الشيء فيتكلم وهو يرعد»[5]!!

وعن الهيثم بن جميل قال: شَهِدْتُ مالكًا سُئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنتين وثلاثين منها: «لا أدري»[6]!!

وعن مالك أيضًا: أنه ربما كان يُسأل عن خمسين مسألة فلا يجيب في واحدة منها، وكان يقول: «من أجاب في مسألة فينبغي قبل الجواب أن يعرض نفسه على الجنة والنار وكيف خلاَصُه، ثم يجيب»[7].

وسُئِل عن مسألة فقال: «لا أدري»، فقيل: هي مسألة خفيفة سهلة، فغضب وقال:

---

(١) الموطأ، رواية يحيى الليثي ٢/ ٥٧١.
(٢) ابن القيم: إعلام الموقعين ١/ ٣٤.
(٣) المصدر السابق ١/ ٣٥.
(٤) المصدر السابق ١/ ٣٥.
(٥) النووي: آداب الفتوى والمفتي والمستفتي مقدمة الكتاب.
(٦) القاضي عياض: ترتيب المدارك ١/ ١٤٤.
(٧) انظر: الشهرزوري: أدب المفتي والمستفتي ص٧٩ - ٨٠، القاسمي: الفتوى في الإسلام ص٤٥.

«ليس في العلم شيء خفيف»[1].

وقال حماد بن زيد: «سُئِل أيوب عن شيء فقال: لم يبلغني فيه شيء. فقيل له: فقل فيه برأيك. فقال: لا يبلغه رأيي»[2]!!

وهذا ابن النفيس شيخ الطب في زمانه، ومكتشف الدورة الدموية الصغرى، تقدم إليه أحد المرضى، وسأله عن علاج لورم في يده، فلمّا فحصه قال في تواضع: «أعرف صفة الورم وأتفهَّم أسبابه، ولكنني لا أعرف له علاجًا؛ فالتمسه عند غيري»[3].

ثامنًا: العزة:

لم يرث الأنبياء غير العلماء، وإذا كانت رتبة النبوة أعلا المراتب وأشرف المنازل عند الله ﷻ.. فإنه لا يليها في المرتبة والمنزلة غير تلك التي ورثتها.. ولقد قال الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

فالعلماء أعزّاء بالعلم الذي هو إرث الأنبياء.. فلا يَخضعون ولا يـذِلُّون ولا يُهانون؛ إذ إنهم لا يريدون من دنيا الناس شيئًا؛ حكامًا كانوا أو محكومين..!!

وهكذا، فلا يضيرهم كيد المستكبرين، ولا ظلم المستبدين، ولا بريق أموال المزهوين..

ويستوي في ذلك الأمر أن يكونوا أغنياء أو فقراء.. فإنهم يعلمون قوله ﷺ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»[4].

ومصداق ذلك ما ذكره ابن عبد البر من أن الحَجَّاج سأل خالد بن صفوان: مَنْ سيد أهل البصرة؟ فقال له: الحسن (الحسن البصري). فقال: وكيف ذلك وهو مولى؟! فقال: احتاج الناس إليه في دينهم، واستغنى عنهم في دنياهم، وما رأيت أحدًا من أشراف أهل البصرة إلا يروم الوصول إلى حلقته؛ ليستمع قوله ويكتب علمه.

---

(١) النووي: آداب الفتوى والمفتي والمستفتي، مقدمة الكتاب.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧/ ٢٤٧.

(٣) انظر في ذلك صبري الدمرداش: قطوف من سير العلماء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦م، ج٢ ص ١٧٥ .

(٤) البخاري: كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس (٦٠٨١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض (١٠٥١)، وابن ماجه (٤١٣٧)، وأحمد (٧٥٤٦)، وابن حبان (٦٧٩)، وكلٌّ عن أبي هريرة ﷺ.

فقال الحجاج: هذا - والله - السُّؤدد!!

وتلك العزة التي هي في الغنى، صورها الشافعي - رحمه الله- حين قال منشدًا:

أمطري لؤلؤًا جبال سرنديب	وفيضي آبار تبريز تبرًا
أنا إن عشت لست أعدم قوتًا	وإذا مت لست أعدم قبرًا
همتي همة الملوك ونفسي	نفس حر ترى المذلة كفرًا
وإذا ما قنعت بالقوت عُمري	فلماذا أهاب زيدًا وعمرًا؟!

وجسّدها أبو حازم التابعي - رحمه الله- حين دخل على الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك؛ ورأى منه الأخير عزته وقوته في الحق؛ فقال له يطلب صحبته:

هل لك أن تصحبنا، وتصيب منا ونصيب منك؟ قال: كلا. قال: ولم؟ قال: إني أخاف أن أَرْكَنَ إليكم شيئًا قليلاً، فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف المهات، ثم لا يكون لي منه نصير. قال: يا أبا حازم، ارفع إليَّ حاجتك. قال: نعم، تُدخلني الجنة، وتُخرجني من النار. قال: ليس ذلك إليَّ. قال: فما لي حاجة سواها[1].

وذكر السيوطي أيضًا في حسن المحاضرة أن السلطان الصالح إسماعيل استعان بالصليبيين وأعطاهم مدينة صيدا وقلعة الشقيف، فأنكر عليه الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وترك الدعاء له في الخطبة، وساعده في ذلك الشيخ جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب المالكي، فغضب السلطان منهما، فخرجا إلى الديار المصرية. فأرسل السلطان إلى الشيخ عز الدين - وهو في الطريق - رسولاً يتلطف به في العودة إلى دمشق، فاجتمع به ولاينه، وقال له: ما نريد منك شيئًا إلا أن تنكسر للسلطان، وتقبل يده لا غير!!

فقال الشيخ له: يا مسكين، ما أرضاه يُقبِّل يدي، فضلاً عن أن أقبل يده! يا قوم، أنتم في وادٍ وأنا في واد! والحمد لله الذي عافانا مما ابتلاكم[2].

وفي مواقف أخرى له أيضًا يقول الباجي: خرج السلطان أيوب في يوم العيد في أُبَّهة الملك، وأخذت الأمراء تقبل الأرض، فالتفت إليه الشيخ العز بن عبد السلام، وناداه: يا

---

[1] سنن الدارمي (٦٤٧)، وأبو نعيم: حلية الأولياء ٣/ ٢٣٥.

[2] السيوطي: حسن المحاضرة ٢/ ١٦٢.

أيوب، ما حُجَّتك عند الله إذا قال لك: ألم أُبَوِّئ لك مُلك مصر ثم تبيح الخمور؟

فقال السلطان: هل جرى هذا؟

فقال العز: نعم، الحانة الفلانية يُباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلَّب في نعمة هذه المملكة - يناديه بأعلى صوته والعساكر واقفون -!!

قال: يا سيدي، هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبي.

فقال العز: أنت من الذين يقولون: «إنا وجدنا آباءنا على أمة»؟!

فأمر السلطان بإبطال تلك الحانة.

فسأله الباجي: أما خفته؟

قال العز: والله يا بني، استحضرت هيبة الله تعالى، فصار السلطان قُدَّامي كالقِط[1]!!

والأمثلة في ذلك جِدُّ كثيرة.. وكلها تجسد وضع العلماء الصحيح بين الناس، وكيف أنهم هم القادة لا المقودون، وأنهم هم الموجِّهون لا الموجَّهون..

تاسعًا: التواضع:

طالما كانت العزة من شيم العلماء وأخلاقهم، فكان لابد أن يأتي التواضع تاجًا يزين رؤوسهم..

وكما أن العزة لا تعني الغرور أو الكبر، فكذلك التواضع لا يعنى التَّذَلُّل أو التَّزَلُّف.. وإنما يعني أن يُنصف العالِمِ غيره من نفسه، وأن يقف عند حدود علمه لا يتجاوزه، وألا يتدخل فيما ليس هو من اختصاصه.. كما أن منه أن يَعِيَ جيدًا قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].. وهذا هو المعني بخلق التواضع عند العلماء..

إن العالم المتواضع يُدْرِك أن بضاعته في العلم قليلة مهما زادت، وبسيطة مهما عظمت. وليس أدل على ذلك من موقف واحد من أعظم علماء الأرض، وهو الخضر؛ إذ يُقدِّر علمه بالقياس إلى علم الله ﷻ بقولٍ عجيب..

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية ٨/ ٢١١.

لقد جاء عصفورٌ فوقع على حرف السفينة التي كانت تُقِلُّ موسى والخضر عليهما السلام، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر: «يَا مُوسَى، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ الله إِلاَّ كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ..»[1]!!

وهذا الشعور الدائم بالقلة والبساطة هو الذي يورث التواضع في القلب..

وهو ما عناه الشافعي حين قال:

كلَّما أدَّبني الدهر ... أراني نقص عقلي

أو أراني ازددتُ علمًا ... زادني علمًا بجهلي!

وهو أيضًا ما أدركه الفخر الرازي، إمام علم الكلام والفلسفة والعقيدة في عصره، وصاحب التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) حين قال في أخريات حياته:

العلم للرحمن جلَّ جلاله ... وسواه في جهلاته يتغمغمُ

ما للتراب وللعلوم وإنما ... يسعى ليعلم أنه لا يعلمُ!

وذلك الشعور هو ما يدفع العالم الربّاني إلى أن يعرف قدر نفسه وقدر غيره.. فلا ينتقص من غيره، ولا يتعالى هو عليهم.. وفي ذات الوقت لا يزهو بنفسه، ولا يأخذه العجب أو الغرور بما عنده، وما حصله..

وقد قال رسول الله ﷺ: «يظهر الإسلام حتى يختلف التجار في البحر، وحتى تخوض الخيل في سبيل الله، ثم يظهر قوم يقرؤون القرآن يقولون: من أقرأ منا؟ من أفقه منا؟ من أعلم منا؟ ثم قال لأصحابه: هل في أولئك من خير؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أولئك منكم من هذه الأمة، فأولئك هم وقود النار»[2].

وذلك شأن العلماء المغرورين، والذي إن دلَّ حالهم على شيء فإنما يدل على جهلهم وقلة علمهم؛ إذ لو كانوا يعلمون، لعلموا أنهم ما حصَّلوا كثيرًا، بل ولا قليلاً!!

---

(١) البخاري: كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام (٣٢٢٠)، الترمذي (٣١٤٩)، وابن حبان (٦٢٢٠).

(٢) الطبراني في الأوسط ٦/ ٢٢١، والبزار (٢٨٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الأوسط والبزار ورجال البزار موثقون.

وقد ضرب الإمام مالك بن أنس - رحمه الله- أروع الأمثلة في تجسيد خلق التواضع عند العلماء؛ فقد روى ابن عبد البر عنه أنه قال: لما حجَّ أبو جعفر المنصور دعاني فدخلتُ عليه فحدثته، وسألني فأجبته فقال:

إني قد عزمت أن آمر بكتبك هذه التي وضعتها - يعني الموطأ - فينسخ نسخًا ثم أبعث إلى كل مصر (قطر أو بلد) من أمصار المسلمين منها نسخة، وآمرهم أن يعملوا بما فيها لا يَتَعدَّون إلى غيره، ويَدَعُون ما سوى ذلك من هذا العلم المحدَث؛ فإني رأيتُ أصل العلم رواية أهل المدينة وعلمهم.

قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، لا تفعل؛ فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورَوَوا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وعملوا به ودانوا به، من اختلاف الناس: أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد، فَدَعِ الناس وما هم عليه، وما اختار كل أهل بلد لأنفسهم.

فقال: لعمري لو طاوعتني على ذلك لأمرتُ به. قال الراوي بعد نهاية القصة: «وهذ غاية في الإنصاف لمن فَهِم»[1]!!

ورُوِيَ أيضًا عن عبد الرحمن بن القاسم أنه قال لمالك: ما أعلم أحدًا أعلمَ بالبيوع من أهل مصر. فقال له مالك: وبم ذلك؟ قال: بك. فقال: أنا لا أعرف البيوع فكيف يعرفونها بي[2]؟!

وهكذا يكون العالم المتواضع.. وهكذا تكون مواقفه وردود فعله..

يروي أبو هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ**»[3].

وفي التحذير من الضِّدِّ، قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»[4].

---

(١) الموطأ - رواية محمد بن الحسن ١/ ٣٣.

(٢) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٣٣).

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والأدب، باب استحباب العفو والتواضع (٢٥٨٨)، والترمذي (٢٠٢٩)، وأحمد (٨٩٩٦)، ومالك برواية محمد بن الحسن (١٨١٧).

(٤) مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (٩١)، والترمذي (١٩٩٨)، وابن ماجه (٥٩)، وأحمد (٣٧٨٩).

وقال رسول الله ﷺ أيضًا: «وَإِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا؛ حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَبْغِ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»[1].

عاشرًا: العمل في فريق، والبداية من حيث انتهى الآخرون:

إذا قام العالم بكل ما سبق من أعمال، واتصف بكل ما سبق من خِلال، فلا شك أنه يكون عالمًا متميزًا جليلاً.. لكن هذا لا يكفي لتنمية وتطوير حركة العلم، ولا لرفعة ونهضة الأمة، إنما يحتاج العلم وتحتاج الأمة إلى تضافر الجهود، وتفاعل الطاقات.. ولا يكون هذا إلا حين يضع العالِم يده في يد غيره من العلماء.. وكذلك بأن ينظر بصورة عملية وجدية في جهود السابقين والمعاصرين من أقرانه في العلم.

ووَضْعُ اليد في يد الآخرين هو ما يمكن أن نسميه «العمل في فريق»، وهذا ولا شك يحقق أهدافًا مهمة، مثل: الإبداع، وسرعة الإنجاز، وزيادة الإنتاج، ودقة الإتقان، وبروز الكفاءة العالية.. كما أنه يُساعد على إيجاد روح التطوير، وصناعة مادة التقدم والحضارة..

وذلك كله يفتقده العمل الفردي، والذي تقوم عليه - للأسف - كثيرٌ من المؤسسات في الأمة الإسلامية، كما رأينا قبل ذلك في عرضنا لتسجيل براءات الاختراع بالنسبة للشركات والمؤسسات.. إذ لم يوجد بين الشركات الكثيرة التي سجَّلت براءات اختراع شركة واحدة إسلامية، وكانت براءات الاختراع عندنا - على قِلَّتِها - إنما هي من نصيب الأفراد فقط!!

وقد أدرك علماء المسلمين في تاريخنا تلك القيمة، فأثْروا الحياة العلمية في جميع المجالات، واستطاعوا أن يصنعوا نهضة الأمة وحضارتها..

وقد تجلَّت قيمة «العمل في فريق» - على سبيل المثال - في ظهور مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان - رحمه الله-؛ فقد كان أبو حنيفة يحضُرُ - كعادة العلماء المسلمين في تحصيلهم للعلم - حلقة حماد بن أبي سليمان، وبعد موت شيخه حماد آلت رياسة الحلقة إليه، وقد التف حوله تلاميذه ينهلون من غزير علمه..

إلا أنَّ أبا حنيفة كانت له طريقة خاصة حين تطرح المسائل والقضايا المختلفة في حلقته؛ فلم

---

[1]) مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥)، والبيهقي في سننه الكبرى (٢٠٨٧٢).

يكن يتصدى لها هو في البداية، وإنما كان يطرحها على تلاميذه أو فريقه - إن جاز التعبير - أولاً، ثم يُدلي كل منهم برأيه فيها، ويقوم أبو حنيفة بجمع كل هذه الآراء ومناقشتها، ثم يصوِّب أخيرًا ما ارتآه صوابًا.. ليحصل الإبداع والإثراء، ومن ثَمَّ الوصول إلى أفضل الحلول..

ولم يكن هذا خاصًّا فقط بالعلوم الشرعية، إنما وجدناه كذلك في العلوم الحياتية.. ومن أشهر الأمثلة على ذلك ما تمَّ في زمان الخليفة العباسي العالم المأمون (ت ٢١٨هـ/ ٨٣٣م)؛ حيث قام العلماء بأوّضل محاولة لقياس أبعاد الكرة الأرضية.. والذي يهمنا هنا هو أنه قام بذلك عن طريق فريقين من العلماء - سيأتي تفصيل ذلك لاحقًا إن شاء الله- وكان أحد هذين الفريقين: «**بنو موسى بن شاكر**»!!

وفي ذلك يقول المستشرق (نللينو): «إن قياس العرب (المسلمين) للكرة الأرضية هو أول قياس حقيقي أُجرِيَ كله مباشرة، مع كل ما تقتضيه تلك المسافة الطويلة **وهذا الفريق الكبير من العلماء والمسَّاحين العرب**؛ فهو يُعدُّ من أعمال العرب المأثورة وأمجادهم العلمية»[1].

أما بنو موسى بن شاكر - وقد مرَّ بنا قبل ذلك حديث عنهم - فكانوا وحدهم فريقًا متكاملاً، ولا نكون مغالين إذا قلنا بأنهم أول فريق علمي ظهر في العالم!! وفي كتابهم المشهور «الحِيَل» في علم الهندسة والميكانيكا، اتضحت روح الفريق بشكل مباشر، وتجسَّد فيه مبدأ العمل الجماعي القائم على المشاركة والتعاون، حتى إنه ليصادفك كثيرًا عبارات مثل: «نريد أن نجد..»، «وذلك ما أردناه..»، كما تجد أن أغلب أفعال المضارعة هي مثل: «نبين»، «نقول»، «نريد».. وهكذا..

إننا لانشك في أن هذه الجماعية هي التي كانت سببًا في نبوغهم وتقديمهم للأمة وللبشرية ما لم يضارعهم فيه أحدٌ في زمانهم، يقول عنهم ابن خِلِّكَان: «.. الإخوة الثلاثة الذين ينسب إليهم حِيَل بني موسى، وهم مشهورون بها.. وكانت لهم همة عالية في تحصيل العلوم القديمة وكتب الأوائل، وأتعبوا أنفسهم في شأنها، وأنفذوا إلى بلاد الروم من أخرجها لهم، وأحضروا النقلة من الأصقاع الشاسعة والأماكن البعيدة بالبذل السني، فأظهروا عجائب الحكمة..»[2]!!

---

(١) نللينو: علم الفلك عند العرب. (٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٦/ ١٦١.

ومن عجائب الحكمة التي ظهرت أيضًا بفضل التعاون والعمل في فريق، ما كان بين ابن رشد وابن زهر (أبي مروان بن زهر)..

فحين ألَّف ابن رشد كتابه «الكُلِّيات»، والتي تعود شهرته في الطب إليه، وقد جمع فيه النظريات العامة لعلم الطب، والمبادئ الأساسية لعلم الأمراض - حين ألَّف كتابه هذا، رأى أنه في حاجة إلى كتاب آخر يُكَمِّله، ويكون مقصورًا على الجزئيات؛ لتكون جملة كتابيهما - كما يذكر ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء - ككتاب كامل في صناعة الطب.. ومن ثَمَّ قصد ابنُ رشد أبا زهر (الطبيب الأندلسي الشهير) وكانت بينهما مودة، ورجاه أن يقوم بهذه المهمة..

وقد تم له ما أراد، وألف ابن زهر أهم كتبه وهو: «التيسير في المداواة والتدبير» وهو موسوعة طبية عظيمة، وفيه تظهر براعة ابن زهر وتضلُّعه في الصناعة الطبية!!

ولذلك تجد ابن رشد يقول في آخر كتابه «الكليات»: «فهذا هو القول في معالجة جميع أصناف الأمراض بأوجز ما أمكننا وأبينه، وقد بقي علينا من هذا الجزء القول في شفاء عَرَض عَرَضٍ من الأعراض الداخلة على عضو من الأعضاء، وهذا وإن لم يكن ضروريًا لأنه منطوٍ بالقوة فيما سلف من الأقاويل الكُلية ففيه تتميمٌ ما وارتياض؛ لأنَّا ننزل فيها إلى علاجات الأمراض بحسب عُضْوٍ عضوٍ، وهي الطريقة التي سلكها أصحاب الكنانيش (الكتب)، حتى نجمع في أقاويلنا هذه إلى الأشياء الكلية الأمور الجزئية؛ فإن هذه الصناعة أحق صناعة ينزل فيها في الأمور الجزئية ما أمكن، إلا أنا نؤخِّر هذا إلى وقت نكون فيه أشد فراغًا لعنايتنا في هذا الوقت بما هو أهم من غير ذلك، فمن وقع له هذا الكتاب دون هذا الجزء، وأحب أن ينظر بعد ذلك إلى الكنانيش، فأوفق الكنانيش له الكتاب الملقَّب بـ«التيسير» الذي ألَّفه في زماننا هذا أبو مروان بن زهر، وهذا الكتاب سألته أنا إيَّاه وانتسخته فكان ذلك سبيلاً إلى خروجه..» [1].

ومن هنا تظهر قيمة العمل الجماعي في الوقوف على ما هو أهم ومطلوب، ومن ثم تكميل النقص، وإثراء العلم.. وتقدم الأمة!!

وغير «العمل في فريق» هناك أيضًا خاصية مهمة في ضمان خروج العمل في أفضل صورة ممكنة، وهي خاصية «البدء من حيث انتهى الآخرون».. فكل حضارة معتبرة لم تبدأ أبدًا من

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ٣١٩، ٣٢٠.

الصفر، وإنما تبدأ من حيث انتهى سابقوها.. ولو بدأت كل حضارة في مضمار العلوم من الصفر لما ازدهرت أي حضارة، ولما وصلت حضارة اليوم إلى ما وصلت إليه من هذا التقدم العلمي المذهل..

وقد ارتكز المسلمون في نهضتهم على الحضارات التي سبقتهم، من فرعونية وإغريقية ويونانية وفارسية، واستطاعوا بعد ذلك أن يواصلوا العطاء والتقدم الذي ابتدأه من سبقهم، وقد قَدَّموا في ذلك للإنسانية - وللنهضة الأوروبية بصفة خاصة - أجل ما يمكن أن تفخر به!!

وعلى هذا فإن ما نريده اليوم هو أن نبدأ من حيث انتهى أو من حيث يقف سابقونا؛ إذ هي سنة قيام الأمم والحضارات، واللاحق في ذلك يبني على السابق..

فإذا كانت شركة سنجر الأمريكية - على سبيل المثال - لم تخترع ماكينة الخياطة، فإنها أضافت إليها تطوير الحركة الميكانيكية بالرجل بدلاً من اليد، واستطاع سنجر بذلك أن يحقق نجاحًا باهرًا في تسويق وبيع الماكينات، وفي ذات الوقت إفادة الإنسانية وتقدم الحضارة!!

وأمّا في العلوم الشرعية فلا تعتمد حضارتنا أبدًا على حضارات أخرى؛ فديننا مكتمل وشرعنا تامّ، قال تعالى: ﴿اليومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]... ومع ذلك ففي مجال التصنيف والتأليف يمكن أن يكمل عمل جهود علماء سابقين، وبذلك تستفيد الأمة، وتكتمل العلوم.

وقد قام الإمام النووي -رحمه الله - على سبيل المثال - بالبدء في تصنيف كتاب (المجموع شرح المهذَّب)، ولكنه مات ولم يتمّه؛ فجاء الإمام السبكي -رحمه الله -، وابتدأ في إكمال الشرح، ومات أيضًا قبل أن يتمه؛ فجاء الشيخ محمد نجيب المطيعي -رحمه الله -. وأكمل ما بدأه الشيخان من عمل..

ولو حاول كل واحد ممن أتَوا بعد الإمام النووي أن يُصَنِّف شرحًا خاصًّا به.. فترى كم كان يضيع من الزمان، وكم كان يضيع من علم لعالم مثل النووي، وكم كان يضيع من استفادة يستطيع اللاحقون أن يبنوا عليها..؟!

ومثلما فعل هؤلاء فعل أيضًا جلال الدين السيوطي في تفسير القرآن المسمَّى بـ «تفسير الجلالين»، وهذه التسمية جاءت نسبة إلى مؤلِّفيه الجليلين: جلال الدين المحلِّي، وجلال الدين

لسيوطي؛ وهو من التفاسير القيِّمة المفيدة، التي لاقت انتشارًا واسعًا بين المسلمين..

فقد بدأ الإمام جلال الدين المحلِّي –رحمه الله –، وهو من العلماء البارزين في القرن لثامن الهجري، بتأليف هذا التفسير من سورة الكهف، وانتهى به إلى سورة الناس، وعندما شرع في تفسير سورة الفاتحة وما بعدها وافته المنيَّة.. فجاء الإمام السيوطي من بعده، وهو من علماء القرن التاسع الهجري، فشرع في تكميله، واستطاع أن يتمه إلى نهاية سورة الإسراء.

وبهذا العمل اكتمل هذا التفسير العظيم، والذي كان له من القبول والنفع الكثير، وبه حُفِظ علمٌ من الضياع، كما حُفظ وقتٌ ثمينٌ من أن يُهدر..

وغنيٌّ عن البيان أنه لكي يقبل عالمٌ أن يتعاون مع الآخرين ويأخذ منهم ويعطي لهم، لا بد أن يكون متواضعًا متجردًا، لا يبغي نفعًا شخصيًّا ولا مصلحة ذاتية.. ولو توفَّر لدينا هذا النوع من العلماء، فهذه – والله – هي أولى خطوات الرِّيادة!!

* * *

الفصل الخامس

تَنْشِئَةُ الْعُلَمَـــــاءِ

نسعد كثيرًا، ويأخذنا الإعجاب والفخر كل مأخذ، حين نسمع عن عـالِمٍ عظـيمٍ نبـغ في مجال من مجالات العلوم المختلفة، ويزداد الإعجاب والفرح حـين يكـون هـذا العـالم مسلمًا ملتزمًا بتعاليم دينه، يبغي الصلاح ونفْع الأمة.. والعجيب أن هذا الشعور وذاك الإحساس أحيانًا لا يتخطَّى حاجز النظرة العابرة واللحظة الآنية، تلك التـي تنظـر فقـط إلى الأمـور في نهايتها، وإلى الثمار في أوج نضجها، وليس إلى النَّبْت من أول غرسه وكيف نبَت!!

وإنه لحريٌّ بنا - ونحن نبغي العلم ورفعة الأمة - أن نقف على ذاك النبت منـذ بدايتـه.. كيـف ينمو؟ وكيف ينشأ؟ وما هي السبل التي من شأنها أن تخرج لنا هذه الثمرة الطيبة؟ وهي: «العلماء»!!

وإذا كنا قد ذكرنا في هذا الصدد جهد العالم نفســه، وأهميـة الإرادة ووجـود الاسـتعداد عنده.. فإنا نرى أن هذا الجهد يُثمر بصـورة أكـبر إذا مـا تـوافرت وتضـافرت عـدَّة عوامـل أخرى، نجملها في النقاط التالية:

أولاً: دور الأسرة في تنشئة العلماء:

يقع الواجب الأكبر في إخراج العلماء وتنشئتهم على عاتق قطبي الأسرة: الأب والأم؛ فهما المظلة الحقيقية التي يخرج من تحت عباءتها العلماء، وهما البلد الذي يخرج نباته كـما يُسـقى ويُغـذَّى.. يقـول تعالى: ﴿**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا**﴾ [الأعراف: ٥٨].

والأبوان غالبًا ما يحددان وجهة الطفل ومصيره، وقـد ذكـر رسـولنا ﷺ هـذا الأمـر في الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ فقال: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِـهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟**» **ثُمَّ يَقُـولُ أَبُو هُرَيْرَةَ** ﷺ: ﴿**فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾»[1].

---

(١) البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فـمات هـل يصـلى عليـه وهـل يعـرض عـلى الصـبي الإسـلام؟ (١٢٧١)، ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٤٨٠٣).

وقد فقه كثيرٌ من الآباء المسلمين تلك الحقيقة، فبذلوا جهدهم ليوفروا لأبنائهم تلك البيئة الصالحة التي تساعدهم على أن يكونوا علماء.. فكان منهم - على سبيل المثال - من يستقدم لأبنائه علماء مشهورين لتعليمهم وهم صغار، وكانوا يختارون من هؤلاء العلماء المشهورين من يجمعون - في الغالب - بين أكثر من علم!!

وكان من ذلك أن محمد بن عبد الله بن طاهر (حاكم بغداد في أيام المتوكل العباسي، وتوفي سنة ٢٥٣هـ) اختار لتعليم ابنه طاهر العالِمَ النحوي اللغوي أحمد بن يحيى المعروف بثعلب، إمام الكوفيين في النحو واللغة، بل إن هذا الأب أفرد لذلك العالم الذي استقدمه لتعليم ابنه دارًا في داره ليقيم فيها هو وتلميذه، وكان يتغدَّى معه، هذا غير إجرائه له مرتبًا معلومًا في الشهر[1]!!

ومثله فعل الخليفة المأمون حين وكَّل الفرَّاء (من أئمة الكوفيين أيضًا، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، تُوُفِّي سنة ٢٠٧هـ) بتعليم ابنيه في داره على نحو ما مرَّ بنا، والطريف في ذلك - كما ذكرنا أيضًا - أن ابني المأمون هذين، اللذين تربَّيا على العلم وحفظ مكانة العلماء، تنازعا ذات يوم على تقديم نعل الفرَّاء إليه!! ولما علم المأمون بذلك بادر بسؤاله: مَنْ أعزُّ الناس؟ فأجابه الفراء بأنه ما يعرف أعزَّ من أمير المؤمنين، فقال له المأمون: بل أعز الناس من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليَّا عهد المسلمين، حتى رضي كل واحد أن يقدم له فردًا!! ثم أخبره بأن ما فعلاه رفع من قدرهما، وكشف عن جوهرهما[2]!!

وهذا عتبة بن أبي سفيان يأتي بمؤدِّبٍ لولده، ويقول له: «ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك؛ فإنَّ عيونهم معقودة بك؛ فالحَسَن عندهم ما صنعتَ، والقبيح عندهم ما تركت، علِّمهم كتاب الله، ولا تملهم فيكرهوا، ولا تدعهم منه فيهجروا، ورَوِّهم من الحديث أشرفه، ومن الشعر أَعَفَّه، ولا تخرجهم من بابٍ من العلم إلى غيره حتى يحكموه؛ فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم. تهددهم بي، وأدبهم دوني، وكن لهم كالطبيب الرفيق الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء، وامنعهم من محادثة النساء، واشغلهم بسير الحكماء،

---

(١) انظر: آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبي ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، الطبعة الثالثة، ج١ ص ٣٢٨ .

(٢) راجع القصة في الكتاب، وانظرها أيضًا في وفيات الأعيان ٦/ ١٧٩.

واستزدني بآدابهم أزِدْك، ولا تتكلنَّ على عذر مني؛ فقد اتكلت على كفاية منك»[1].

ومثل هذا لَيَعكِس حرص الآباء على تنشئة أبنائهم التنشئة العلمية السليمة، وحرصه على رعايتهم وتربيتهم منذ صغرهم ليكونوا علماء الغد ورجالاته..

ولقد كان من وسائل هؤلاء الآباء أيضًا في تنشئة أبنائهم ليصبحوا علماء ما كان من تشجيعهم لهم، واحتفائهم بهم، وتقديمهم الغالي والنفيس ليرغبوا أطفالهم في العلم، كما كان منه أيضًا إكرام معلميهم.

فكان عبد الملك بن مروان يُرغِّب بنيه، ويقول لهم: «يا بَنِيَّ، تعلَّموا العلم؛ فإن استغنيتم كان لكم كمالاً، وإن افتقرتم كان لكم مالاً»[2].

وحدَّث النضر بن الحارث؛ فقال: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: قال لي أبي: «يا بُنيَّ، اطلب الحديث، فكلَّما سمعتَ حديثًا وحفظتَه فلك درهم. فطلبتُ الحديث على هذا»[3].

وهذا أبو القاسم بن الوزير الخاقاني يحتفل بدخول ابنه الكُتَّاب، فكان مما فعله أنه دعا من القوّاد والرؤساء جماعةً بلغوا ثلاثين فردًا، وأمر الداعي بإعطاء المُعلِّم ألف دينار! وأكرم الناس وأكلوا[4].

وحتى لا يُظَنَّ أن الأمر خاصٌّ بالخلفاء أو الأمراء أو المشهورين من العلماء فقط، فهذا والد ابن سينا، وكان شخصًا لم يُعرَف عنه أنه اشتُهِرَ بعلم أو رياسة، أحضر لولده ابن سينا - مع نبوغه وعبقريته الفذَّة منذ صغره - عالِمَ الفلسفة المشهور أبا عبد الله النائلي، وأنزله داره؛ بغية أن يعلِّم ولده ابن سينا[5].

وهذا أيضًا الإمام الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠هـ) يحدِّث عن نفسه فيقول: حفِظتُ القرآن ولي سبع سنين، وصلَّيت بالناس وأنا ابن ثماني سنين، وكتبت الحديث وأنا

(١) انظر تاريخ دمشق ٣٨/ ٢٧٢ - ابن عبد ربه: العقد الفريد ١/ ٢٣٤.

(٢) انظر ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ١/ ٢٤٢.

(٣) انظر الخطيب البغدادي: شرف أصحاب الحديث ص ١٦٥.

(٤) انظر آدم متز: الحضارة الإسلامية ١/ ٣٢٩.

(٥) انظر ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ٧١.

في التاسعة[1]!! والشاهد هنا: كيف وصل إلى هذه الرتبة العَلِيّة والدرجة الرفيعة تلك؟!

والإجابة في ذلك تكمن في قوله وهو يحكي دور والده: رأى لي أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله ﷺ، ومعي مخلاة مملوءة بالأحجار، وأنا أرمي بين يديه، وقصَّ رؤياه على المعَبِّر؛ فقال له: إن ابنك إن كبر نصح في دينه، وذبَّ عن شريعته. **فحرص أبي على معونتي على طلب العلم**، وأنا حينئذٍ صبيٌّ صغير[2]!

ولا نعجب بعدُ أن نرى الطبري وهو يحدث عن نفسه وهو بصدد تفسير القرآن العظيم الذي ألَّفه، والمسمّى (**جامع البيان في تأويل القرآن**)، والذي يقع في أكثر من عشرين جزءًا كبيرًا؛ فيقول: «حدثتني نفسي به وأنا صبي»[3]!! أي منذ أن شجعه والده، وأعانه على طلب العلم، وحببه له، حتى غدا - رحمه الله - شيخ المفسرين والمحدِّثين والمؤرِّخين، والمجتهد العظيم.

وفي عصرنا، كان والد المودودي الهندي هو مُعلِّمَه الأول؛ حتى إنه علَّمَهُ - كما سيأتي - اللغة العربية والقرآن الكريم والحديث الشريف والفقه وغيرها، وقد حكى ابنه عن ذلك فقال عن والده: «لقد أحسن تربيتي، وعلمني النطق السليم، وكان يحكي لي كل مساء قصص الأنبياء والمرسلين، ووقائع التاريخ الإسلامي، وحوادث الهند، واهتم بأخلاقي؛ وكان يأخذني معه دائمًا عند رفاقه، وكُلُّهُم على درجة عالية من الثقافة والاتزان، فانتقلتْ إليَّ من مجالستهم العادات الفاضلة الحسنة»[4].

وبصفة عامة فإن من أهم واجبات الآباء أن يُعظِّموا عند الأبناء قيمة العلم، ويرفعوا عندهم قيمة المعلمين والمدرسين، وإلاَّ يصبح كلام المعلم للطفل هباءً منثورًا.. ومن أروع ما جاء في ذلك ما كان من حال أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك هو واثنان من أبنائه الأمراء - كما مرَّ بنا - مع العالم الجليل عطاء بن أبي رباح العبد الأسود؛ حيث قال سليمان لولديه: «يا بني، لا تنيا في طلب العلم، فإني لا أنسى ذُلّنا بين يدي هذا العبد الأسود»[5]!!

---

1) انظر ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٨/ ٤٩.

2) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

3) المصدر السابق ١٨/ ٦٢.

4) مجلة المختار الإسلامي، ربيع الأول ١٤٠٠هـ ص ٨٤.

5) ابن الجوزي: صفة الصفوة ٢/ ٢١٢.

وهكذا يكون دور الآباء مع الأبناء في سبيل تخريج وتنشئة العلماء.. أما دور الأم في ذلك فهو أعظم عملٍ يمكنها القيام به، وكيف لا وقد اجتمع لها من وسائل تربية الأبناء وقضاء أغلب الأوقات معهم ما لم يجتمع للأب؟ فهي أقرب الناس لقلوب أبنائها، وأحرص الناس على منفعتهم، ولو جعلت القضية قضيتها، والمهمة مهمتها لخرج لنا جيل نفاخر به العالمين. فالأم مدرسة حقيقية، شريطة أن تضع مصالح الأمة وهموم المسلمين نصب عينيها.

وصدق حافظ إبراهيم[1] إذ يقول:

الأمُّ مَدرَسَـــةٌ إذا أعـــدَدتَها ... أعـــدَدتَ شَـعبًا طَيِّـبَ الأعـــراقِ

الأمُّ رَوضٌ إن تَعَهَّـــدَهُ الحَيـــا ... بالــــرِّيِّ أورَقَ أيَّمـــا إيــــراقِ

الأمُّ أســـتاذُ الأســـاتِذَةِ الألى ... شَـغَلَت مَـآثِرُهُم مَـدى الآفـاقِ

وجسَّد ذلك معروف الرصافي[2]؛ فقال:

ولم أرَ للخلائــق مــن مَحَـلّ ... يهـــذِّبها كحِضـــن الأمهـــات

فحضـن الأم مدرسـة تسـامت ... بتربيــــة البنــــين أو البنــــات

وأخـلاق الوليـد تُقـاس حسـنًا ... بـــأخلاق النســـاء الوالـــدات

وليت الأمهات يكتشفن مواهب أبنائهن قبل أن تمر السنوات وتضيع فيما لا فائدة فيه، ولنا عبرة في النَّوَار بنت مالك -رضي الله عنها- أم زيد بن ثابت ﷺ..

لقد كان زيد بن ثابت طفلاً صغيرًا، واشتاقت نفسه للجهاد وهو بعدُ ابن ثلاثة عشر عامًا، وحين حاول أن يخرج للحرب في بدر، ردَّه رسولُ الله ﷺ بسبب صغر سنه.. وعندها رجع إلى البيت يبكي بسبب عدم مشاركته المسلمين في الجهاد، ولما رأته أمه على هذه الحالة.

---

(١) هو محمد حافظ بن إبراهيم فهمي المهندس، الشهير بحافظ إبراهيم (١٢٨٨ - ١٣٥١هـ/ ١٨٧١ - ١٩٣٢م)، شاعر مصر ومدون أحداثها نيفًا وربعًا من القرن. وُلِدَ في ديروط، ونشأ يتيمًا، وتوفي بالقاهرة. نظم الشعر في أثناء الدراسة، واشتُهِرَ حتى لُقِّب بشاعر النيل. له: ديوان حافظ، والبؤساء، وليالي سطيح، وكتيب في الاقتصاد وغيرها. انظر الأعلام ٦/ ٧٦.

(٢) هو معروف بن عبد الغني البغدادي الرصافي (١٢٩٤ - ١٣٦٤هـ/ ١٨٧٧ - ١٩٤٥م)، شاعر العراق في عصره، من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، وُلِدَ ببغداد، ونشأ بها في الرصافة، وتوفي في الأعظمية ببغداد. له كتب منها: ديوان الرصافي، ودفع الهجنة، ومحاضرات في الأدب العربي، وغيرها الكثير. انظر الأعلام ٧/ ٢٦٨.

تطيب خاطره بكلمات وكفى، فإنها كانت تدرك بعمق مواهبه وإمكاناته؛ فلفتت نظره إليها وقالت له: إن لم يكن باستطاعتك أن تجاهد بالسيف والدرع كما يفعل المجاهدون في المعركة، فباستطاعتك أن تخدم رسول الله ﷺ والإسلام بالعلم الذي عندك!!

لقد كانت القراءة والكتابة مَزِية لدى زيد ﷺ، فوق أنه يحفظ الكثير من آيات القرآن الكريم.. وهذا مجال يتفوق فيه على غيره.. وهكذا استطاعت الأم الواعية الفاهمة أن تفتح لصغيرها بابًا آخر، بعد ما أُغلقَ أمامه باب الجهاد مؤقتًا.

وحين ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وعرضت عليه إمكانات ولدها، وما يمتلكه في غير مجال الجهاد والحرب، اختبره ﷺ وسمع منه، ولما علم قدراته وطاقاته قال له: **«اذهب فتعلَّم لغة اليهود؛ فإني - والله - ما آمنهم على كتابي»**[1]..

فذهب زيد وتعلم لغة اليهود في أقل من سبع عشرة ليلة!! ولعله كان عنده بعض الخلفية عنها، واستطاع خلال الأيام السبعة عشر أن يُتم تعلمها وإتقانها..

وبعد ذلك جعله رسول الله ﷺ من كَتَبة الوحي، وكفاه شرفًا بذلك.. حتى إنه بعد وفاة رسول الله ﷺ أوكل إليه أبو بكر الصديق ﷺ مهمة جمع القرآن، وكان عمره وقتئذٍ ثلاثًا وعشرين سنة!!

فلكم نبغ ذلك الطفل!! ولكم أفاد الأمة الإسلامية!! وكان ذلك ثمرة أمٍّ مسلمة استطاعت أن تهب الأمة أعظم ثروة.. فتُرى إذن: كم يكون أجرها ومكافأتها عند الله؟!

وقبل أمِّ زيد بن ثابت - والأمثلة جد كثيرة - كانت هند بنت عتبة، أم الصحابي والخليفة معاوية بن أبي سفيان ﷺ.. فقد قيل لها ومعاوية ما زال طفلاً صغيرًا: **«إن عاش معاوية ساد قومه»**، فردَّت هي من فورها وكلها ثقة وحزم: **«ثكِلْتُه إن لم يسُدْ إلا قومه»**[2]!!

وقد كان لها ما عزمت وأرادت، حيث صار خليفة للمسلمين، ومؤسس الدولة الأموية، صاحبة التاريخ العظيم والمآثر الجليلة في الإسلام..

---

(1) أبو داود (٣٦٤٥)، وأحمد (٢١٦٥٨)، والحاكم (٢٥٢)، وانظر أيضًا: ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة ٢/ ٥٩٣ - والمزي: تهذيب الكمال ١٠/ ٢٨ .

(2) ابن كثير: البداية والنهاية ٨/ ١١٨.

وغير أُولاء الأمهات الجليلات، كانت هناك أيضًا أم «ربيعة الرأي»[1]، شيخ الإمام مالك، حيث خرج زوجها فرُّوخ في البعوث إلى خراسان أيام بنى أمية، وترك ربيعة حملاً في بطنها، لتقوم هي على تنشئته وتربيته وتعليمه، وقد ترك عندها ثلاثين ألف دينار.. ولما رجع بعد سبعٍ وعشرين سنة، دخل مسجد المدينة، فنظر إلى حلقة وافرة، فأتاها فوقف عليها، وإذا فيها مالك والحسن وأشراف أهل المدينة، ولما سأل عن صاحب هذه الحلقة أجابوه بأنه ربيعة بن أبي عبد الرحمن (ابنه)!!

فرجع إلى منزله وقال لزوجته وأم ولده: «لقد رأيت ولدك على حالة ما رأيت أحدًا من أهل العلم والفقه عليها»، فقالت له: فأيهما أحب إليك: ثلاثون ألف دينار، أم هذا الذي هو فيه؟! فقال: لا - والله - بل هذا. فقالت: أنفقت المال كله عليه. قال: فوالله ما ضيَّعته[2]!!

وإنَّا لَنَعجَبُ حين نعلم أنَّ سفيان الثوري - رحمه الله-فقيه العرب ومحدثهم، وأمير المؤمنين في الحديث، والذي قال فيه زائدة[3]: «الثوري سيد المسلمين»[4]، وقال فيه الأوزاعي[5]: «لم يبقَ من تجتمع عليه الأمة بالرضا إلا سفيان»[6] - كان وراءه أمٌّ صالحة تكفلت بتربيته والإنفاق عليه، فكان هو ثمرتها!!

يصوِّر ذلك هو بنفسه فيقول: «لما أردت أن أطلب العلم؛ قُلتُ: يا ربِّ، لا بد لي من معيشة. ورأيت العلم يَدْرُس (أي: يذهب ويندثر)؛ فقلت: أُفرِّغ نفسي في طلبه، قال: وسألتُ الله الكفاية»، يعني أن يكفيه أمر الرزق، فكان من كفاية الله له في ذلك الشأن أن قيَّض له أمه

---

(١) هو ربيعة بن أبي عبد الرحمن التيمي مولاهم، أبو عثمان المدني المعروف بربيعة الرأي، يقول ابن حجر عنه: ثقة فقيه مشهور. مات سنة ١٣٦ هجرية على الصحيح. انظر تقريب التهذيب ص ٢٠٧ - تاريخ بغداد ٨/ ٤٢٠ - الباجي: التعديل والتجريح ٢/ ٥٧٣ .

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٢٨٩،٢٩٠.

(٣) هو زائدة بن قدامة الثقفي، أبو الصَّلت الكوفي، من كبار أتباع التابعين، قال الذهبي: ثقة حجة صاحب سنة، توفي غازيًا بالروم سنة ١٦١ . انظر الكاشف ١/ ٤٠٠ - تقريب التهذيب ص ٢١٣ .

(٤) ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل ١/ ١١٨.

(٥) هو أبو عمرو الأوزاعي، واسمه عبد الرحمن بن عمرو، والأوزاع بطن من همدان، ولد سنة ٨٨هـ. إمام أهل الشام في زمانه في الحديث والفقه، قال ابن سعد: كان ثقة مأمونًا صدوقًا فاضلاً خيرًا كثير الحديث والعلم والفقه حجة كان يسكن بيروت وبها مات سنة ١٥٧هـ. انظر الطبقات الكبرى ٧/ ٤٨٨ - تهذيب الكمال ١٧/ ٣٠٨ .

(٦) أبو عبد الله الذهبي: تذكرة الحفاظ ١/ ٢٠٤.

التي قالت له: «يا بُنَيَّ، اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي»[1]!!

فكانت رحمها الله تعمل بالغزل، وتقدم لولدها نفقة الكتب والتعلُّم؛ ليتفرغ هو للعلم، بل والأكثر من ذلك أنها كانت كثيرًا ما تتخوَّله بالموعظة والنصيحة لتحضَّه على تحصيل العلم، فكان مما قالته له ذات مرة: «يا بني، إذا كتبت عشرة أحرف فانظر هل ترى في نفسك زيادة في خشيتك وحلمك ووقارك، فإن لم تَرَ ذلك فاعلم أنها تضرك ولا تنفعك»[2]!!

وهكذا كانت أمه فكان هو.. تَبوَّأ السيادة في العلم والإمامة في الدين!!

ولا يفوتنا هنا أن ننوِّه بدور الأم في حياة الأئمة المشهورين، مثل البخاري، أمير أهل الحديث، وكذلك الشافعي وأحمد بن حنبل ومالك، أصحاب المذاهب الفقهية المشهورة..

فقد نشأ البخاري - كما سيأتي - يتيمًا ضريرًا في حِجْر أمه، لتقوم هي على تربيته أفضل تربية، فتتعهده بالرعاية والدعاء، وتدفعه إلى التعلم والصلاح، وتزين له أبواب الخير، بل وترحل به وهو في سن السادسة عشرة إلى مكة للحج، ثم تتركه هناك وترجع، ليطلب العلم بلسان قومه.. ليرجع ويكون هو البخاريَّ، ولتُعلِّم أمهات المسلمين - والأرامل منهن خاصة - كيف تكون تربية الأبناء، وما دور الأمهات في جهادهن لرفعة الأمة والنهوض بها!

وكان السر أيضًا في نجابة وظهور **الإمام مالك - رحمه الله -** يكمن في أمه العاقلة، تلك التي أحسنت توجيه أبنائها، واختارت لهم الطريق السوي، وهيأت لهم أسباب النجاح، وفي قصتها يأخذنا العجب كل مأخذ حين نعلم أن مالكًا الطفل لم يكن يريد أن يتجه إلى العلم، وإنما رغب في أن يتعلم الغناء ويجيده، وبالتالي يصبح مغنيًا!! فالغناء - كما يُخيل للحالِم والرائي - مصدرًا لشُهرة، ومجلبةً سريعةً للثروة، لكن أم الإمام مالك العاقلة لم ترضَ لولدها ذلك، وحالها هنا على عكس الأمهات اللائي يسارعن إلى تشجيع أولادهن لصقل تلك الموهبة التي ظهرت حسب ما يظنون!! ففي لطفٍ شديد ولباقة جمة، استطاعت أن تصرف ولدها عن فكرته، وأن تختار بديلاً سريعًا لها، **وهو العلم**؛ ذلك الذي يرفع من قدر البيوت وإن كانت خاملة، ويُعلِي من قيمة الرِّجال وإن جاءوا من حضيض الفقر وقسوة العوز[3].

(١) أبو نعيم: حلية الأولياء ٦/ ٣٧٠. (٢) ابن الجوزي: صفة الصفوة ٣/ ١٨٩.

(٣) انظر في قصة أم مالك: مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة، دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م ص ٦، ٧.

يقول الإمام عن تلك الحادثة: نشأتُ وأنا غلام، فأعجبني الأخذ عن المغنين، فقالت أمي: يا بني، إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يُلتَفَت إلى غنائه؛ فدع الغناء واطلب الفقه فتركت المغنين وتبعت الفقهاء، فبلغ الله بي ما ترى[1].

فهذه الأم الفاضلة العاقلة لم تكذب على ولدها وتقول له: إنه قبيح الوجه؛ إذ لم يكن مالك كذلك، بل كان وسيمًا ذا شقرة، وإنما هي أرادت أن توحي إليه بما يصرفه عن عزمه فقالت قولتها تلك اللبقة المهذبة[2].

ولم يتوقف دور أم مالك عند ذلك، ولم تكتف بتوجيهه إلى طلب العلم وحسب، بل إنها ألبسته ثياب العلم ووجَّهته إلى من يتعلَّم منه، يقول مالك في ذلك: فألبستني ثيابًا مشمرة، ووضعت الطويلة على رأسي - يعني القلنسوة الطويلة - وعمَّمتني فوقها، ثم قالت: اذهب فاكتب الآن!! ثم تختار له المعلِّم والأستاذ - وكان أشهرهم آنذاك ربيعة بن أبي عبد الرحمن - فتقول له: اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه[3]. ومقصدها بالطبع هو تعلُّم العلم والأدب جميعًا.

وبذلك يبتدئ الصبي الصغير مالك بن أنس مسيرته الطويلة في طريق العلم حتى يصير إمامًا فذًّا من أئمة المسلمين، فيكون أثمن عطية، وأغلى هدية، من أم فاضلة تجيد التربية وتحسن التوجيه[4].

أمّا والدة الشافعي - رحمه الله- فقد شبَه دورها دور أم البخاري - رحمه الله-. إذ إن والد الشافعي مات بعد أن وُلِدَ الشافعي بزمن قصير، فنشأ الشافعي يتيمًا، وأصبح مصيره مرتبطً بتصرُّف أمه.. فإن كانت الأم عاقلة حاذقة فإنها - لا شك - ستهيئ للطفل أسباب السعادة والنشأة الصالحة، وإن كانت الأخرى فإنها ستعرض وليدها للشقاء والمستقبل المضطرب..

على أن أم الشافعي أثبتت وبكل جدارة أنها من الأمهات الصالحات الحانقات المجاهدات؛ إذ أهدت للأمة الإسلامية إمامًا عظيمًا، ملأ سمع الأرض والسماء!!

ومن طريف ما يذكره المؤرخون عن والدة الشافعي أنها كانت ذات حذق وذكاء، وتفقُّه

(١) سرح العيون ص ١٨١، نقلاً عن المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٢) انظر مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة ص ٧ .

(٣) انظر ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ص ٩ .

(٤) راجع مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة ص ٨، ٩ .

في الدين، وقوة عارضة، وقدرة على الاستبطان، ودليل ذلك أنها تقدمت هي وامرأة أخرى مع رجل للإدلاء بشهادة أمام قاضٍ، فأراد القاضي أن يفرِّق بين المرأتين، ولكن والدة الشافعي المتصفة بما أسلفنا من شمائل اعترضت على القاضي قائلة: ليس لك ذلك؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢]؛ فأسقط في يد القاضي وانصاع لقولها[1].

وهذه الأم الفاضلة لا يُتَوَقع منها إلا أن تحسن رعاية وليدها، وتسهر على تنشئته تنشئة صالحة، وتختار له الطريق القويم.. وكان من ذلك أنها ارتحلت به حين بلغ عامين من عمره من غزَّة - مسقط رأس الشافعي - إلى مكة، حيث العلم والفضل، وحيث البادية حولها، والتي فيها يقوِّم لسان الغلام وتصح لغته[2]، وكان الشافعي هو ثمرة جهود تلك المرأة الفاضلة..

وإذا جئنا إلى صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك بن شيبان، فإنا نراها وقد أهدت إلى دنيا المؤمنين وعالم الموحدين إمام أهل السنة أحمد بن حنبل - رحمه الله-..

فقد وهبت صفية حياتها كلها لطفلها اليتيم (أيضًا!!)، واختارت من أجله الترمُّل في سن الشباب نهجًا لحياتها، وقد كان الكثيرات من نساء العرب يفضِّلن الزواج إذا مات الزوج؛ صونًا للعفة وحفاظًا على السمعة، بل إنه كان من الأمور المتعارف عليها أن تتزوج المرأة إذا ترمَّلت أو طلقت، أما صفية فقد منحت شبابها لوليدها..

ذلك أن زوجها محمد بن حنبل مات شابًّا في الثلاثين، وكانت هي دون الثلاثين حين وفاة زوجها، ورغم ذلك فإنها لم ترض بالزواج، وإنما ارتضت أن تملأ على ولدها حياته حنانًا وأنسًا، وهو ما لم يكن يخفيه أحمد - رحمه الله- بعد أن كبر.

وإذا عرفنا أن الإمام ابن حنبل لم يتزوج قبل سن الأربعين أدركنا أن السبب في ذلك هو ما هيأته له أمه من سبيل العناية وغامر الاهتمام[3]..

---

١) ابن حجر: توالي التأسيس بمعالي ابن إدريس ص ٤٢، نقلاً عن مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة ص ١٠ .

٢) راجع في قصة أم الشافعي: مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة ص ١٠، ١١ .

٣) راجع في قصة أم الإمام أحمد: مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة ص ١٤، ١٥ .

وهكذا وعلى طول الطريق كان دور الأم في تنشئة العلماء.. من أجل النهوض بالأمة والعمل على تقدمها، ونفع المسلمين ورفعتهم..

ويبقى في دور الأسرة بصفة عامة في تنشئة العلماء دور الزوجة..

وأعني بذلك دورها تجاه زوجها ليكون عالمًا؛ فبيت المرأة بصفة عامة هو مملكتها، وهو منطلقها الحيوي والحقيقي نحو أي إصلاح أو تغيير، وذلك يكون عن طريق أولادها - كما قدمنا سابقًا - وقبل ذلك عن طريق زوجها..

وفي هذا الصدد بإمكان الزوجة أن تُهيئ للزوج الجو العلمي المناسب ليُبدِع وينتج في مجال علمه وصناعته.. وبإمكانها أن تُحمِّسه على التقدم والإبداع والاختراع، فتوفر له الجو النفسي الذي يناسب ذلك.. وبإمكانها أن تخفف عنه مطالب الحياة؛ فلا ترهقه بالمتطلَّبات غير الضرورية في المعيشة والحياة؛ لأجل توفير نفقات العلم.. وبإمكانها أن يكون من ضمن طلباتها قبل الزواج مكتبة قيمة، تشترك فيها مع زوجها، ويتعاونان على إعدادها معًا لبيت الزوجية الجديد، ولست أعني بالمكتبة «القيمة» ارتفاع ثمنها أو فخامة شكلها، وإنما أعني تنوع مصادرها، وغزارة محتوياتها.. ولو كانت كتبها ذات طباعة غير فاخرة، أو كانت على رفوف بسيطة زهيدة الثمن، ولا شك أن الأطفال سيستفيدون استفادة جمَّة من وجود هذه المكتبة..

وحقيقة فإن نبوغ الزوج وتفوقه غالبًا ما يكون لأن وراءه زوجة تدفعه إلى ذلك وتعينه عليه، وفي المثل المتداول: «وراء كل رجل عظيم امرأة»، ولا نغالي هنا إذا قلنا: «وراء كل رجل عظيم امرأة أعظم»!!

ولا ضير إذا ما كان دور الزوجة هنا ظاهرًا أو غير ظاهر؛ ولا ضير إذا ما كانت الزوجة تقوم بدور الجندي المجهول أو غيره؛ فالبديهي أن تفوق الزوج ونجاحه في عمله ونبوغه في علمه ما هو إلا دليل على عِظَم الزوجة وتفوقها، وهو يعكس نجاحها هي، بل وصلاحها، تلك التي هيأت له من الوسائل والأسباب التي ذكرناها أولاً ما جعله يصل إلى ما وصل إليه..

فالزوجة الصالحة، والتي تبغي نفع الأمة والعمل على نهضتها، هي تلك التي تدفع زوجها دائمًا إلى الأمام لتحقيق النجاح، والوصول إلى الهدف المنشود.. ورحم الله تلك التي كانت تنادي على زوجها في الصباح تقول له: اتَّقِ الله فينا، ولا تطعمنا إلاَّ حلالاً؛ فإننا نصبر

عى الجوع في الدنيا، ولا نصبر على النار في الآخرة[1]!!

وفي تجسيد دور الزوجة في ذلك المجال، فليس أقل من دور زوجة الحافظ الهيثمي (وهي ـت شيخه الحافظ العراقي)؛ إذ ثبت أنها كانت تساعد زوجها في مراجعة كتب الحديث[2].

وفي دور غيرها، فقد أجمع المؤرخون على أن جميع الأعمال الطيبة، والأفعال الحسنة التي قـم بها الخليفة المهدي، فأكسبته الشهرة الفائقة، إنما كانت بتأثير زوجته «الخيزران»[3]!!

وغير هذه وتلك فإن ابنة سعيد بن المسيب دخل بها زوجها، وكان من أحد طلبة والدها، ـمـ أن أصبح أخذ رداءه يريد أن يخرج، فقالت له زوجته: إلى أين تريد؟ فقال: إلى مجلس ـعيد أتعلَّم العلم. فقالت له: اجلسْ أعلِّمْك علم سعيد[4]!!

فهي لم تعِنه وتساعده فقط على تعلُّم العلم، وإنما تقوم بدور المعلِّم كذلك!! ولذلك لم يكن غريبًا أن يقول زوجها عبد الله بن أبي وداعة بعد أن دخل بها: «.. **فإذا هي أجمل الناس، وأحفظهم لكتاب الله تعالى، وأعلمهم بسنَّة الرسول، وأعرفهم بحق الزوج، وإن كانت ـمعضلة وعجز الفقهاء عنها فأجدها عندها فأسألها علمها**»[5]!!

والمرأة بدورها في ذلك كله - كأمٍّ وكزوجة - تُشاطِر الرجال تمامًا بتمام في سبيل تنشئة ـعلماء والعمل على رفعة هذه الأمة، إن لم يكن لها فضل السبق عليهم والأجر عنهم..

ثانيًا: دور الدولة في تنشئة العلماء:

لا يقِلُّ دور الدولة في تنشئة العلماء عن دور الأسرة، بل إن دورها قد يفوق دور الأسرة ي أحيانٍ كثيرة.. وقد يكون لزامًا على الدولة في سبيل بناء نهضتها، وفي سبيل قيادة مسيرتها ـحو التقدم والاستقلالية، والبعد عن ذُلِّ التبعية، أن تحوز نصيب الأسد في كفالة العلماء،

---

(1) الغزالي: إحياء علوم الدين ٢/ ٥٨.

(2) عبد الله بن محمد بن الصديق الحسني: تمام المنة ببيان الخصال الموجبة للجنة، مكتبة القاهرة – مصر ص ٣٩.

(3) نظر محمد كمال الدين الأدهمي: مرآة النساء فيما حسُن منهن وساء، مكتبة التراث الإسلامي - القاهرة ص ٨٦، وهي أم الهادي وهارون الرشيد، ملكة حازمة متفقهة، أخذت الفقه عن الإمام الأوزاعي. انظر الأعلام ٢/ ٣٢٨.

(4) أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري بن الحاج: المدخل، دار الفكر – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، ج ١ ص ٢١٥.

(5) انظر إحياء علوم الدين ٣/ ١٠٤.

ورعايتهم وتنشئتهم، وتفقد أحوالهم!!

والحقيقة أن الدولة الإسلامية لم تغفل يومًا دورها المحوري في هذا المجال، بل ربما كان هو الدور الغالب عليها، حتى إنك لتجد المدارس، والمعاهد العليا، والمكتبات العامة وكذلك الخاصة وقد ازدانت بها مدن العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه.. وفي ذلك يذكر التاريخ بكثير من الإكبار والإعجاب جمًّا غفيرًا من خلفاء المسلمين وأمرائهم، الذين كان لهم دورٌ كبير في رعاية العلماء وطلاب العلم، وكانت لهم اليد الطولى في إنشاء المدارس والمعاهد والمكتبات في مختلف الأمصار الإسلامية، واستطاعوا أن يساعدوا العلماء في بناء أمة متعلِّمة ذات حضارة عالمية..

وكان من هؤلاء على سبيل المثال نظام الملك، الوزير السلجوقي العظيم؛ الذي ملأ بلاد العراق وخراسان بالمدارس، حتى قيل فيه: إنَّ له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة وكان ينشئ المدارس حتى في الأماكن النائية، وكان كلَّما وجد في بلدةٍ عالمًا قد تميز وتبحر في العلم بنى له مدرسة، ووقف عليها وقفًا، وجعل فيها دار كتب[1]!!

ولعلَّ أهم ما كان يتميز به النظام الوقفي هو اشتراطه أن يتولَّى المدرسة أعلم العلماء في مجاله وفي علمه، وهو الأمر الذي كان وراء نبوغ الكثير من العلماء وكذلك الطلاب.

ولم تكن هذه المدارس صغيرة أو بدائية، ويكفي أن نعلم أن إحدى مدارس الوزير السلجوقي نظام الملك، وهي نظامية بغداد، بلغ عدد تلاميذها ستة آلاف تلميذ، وكانوا كلُّهم **يتعلَّمون بالمجان، بل إن الطالب الفقير كان له فوق ذلك شيء معلوم يتقاضاه من الرِّيع المخصَّص لذلك**[2].

وغير نظام الملك - والأمثلة أكثر من أن تحصى - كان هناك أيضًا صلاح الدين الأيوبي فقد أنشأ المدارس في جميع المدن التي كانت تحت سلطانه، في مصر ودمشق والموصل وبيت المقدس[3]!!

ومثله كذلك كان الخليفة العباسي هارون الرشيد، وقد مرَّ بنا التعرُّض له في هذا المجال

---

(١) انظر مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، دار الوراق، ودار السلام - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م ص ١٠٤.

(٢) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(٣) انظر في ذلك على سبيل المثال: النعيمي: الدارس في أخبار المدارس.

ـِ أكثر من موضع، فقد قال عنه عبد الله بن المبارك: «ما رأيتُ عالمًا، ولا قارئًا للقرآن، ولا ـسبقًا للخيرات، ولا حافظًا للحرمات في أيام بعد أيام رسول الله ﷺ وأيام الخلفاء الراشدين ـلصحابة، أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه، لقد كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثماني ـنين، ولقد كان الغلام يستبحر في الفقه والعِلم، ويروي الحديث، ويجمع الدواوين، ويناظر ـعلمين وهو ابن إحدى عشرة سنة»[1]؛ ولم يكن ذلك إلا بكثرة إنفاقه، واهتمامه بالعلم ـلعلماء وطلابه منذ الصغر!!

ونظرة واحدة على عدد المدارس على اختلاف أقسامها، والبيمارستانات التي شُيِّدَت في ـعصر النهضة والحضارة الإسلامية تُوقِفُك على ما كان من دور الدولة في رعاية العلماء ـتنشئتهم منذ الصغر.. فقد كانت هناك مدارس لتدريس القرآن الكريم وتفسيره، ومدارس ـحديث الشريف، ومدارس للفقه، وأخرى للطب، كما كان هناك مدارس خاصة بالأيتام!!

وفي محاولة للوقوف على بعض من ذلك يقول ابن كثير في حوادث سنة إحدى وثلاثين ـستمائة: «فيها كَمُلَ بناء المدرسة المستنصرية ببغداد، ولم يُبْنَ مدرسة قبلها مثلها، ووُقِفَت على ـمذاهب الأربعة، من كل طائفة اثنان وستون فقيهًا، وأربعة معيدين، ومدارس لكل مذهب، ـشيخ حديث، وقارئان، وعشرة مستمعين، وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم ـلطب، ومكتب للأيتام، وقُدِّر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة ـلكل واحد»[2].

وتابع ابن كثير فقال: «ولما كان يوم الخميس خامس رجب حضرت الدروس بها، ـحضر الخليفة المستنصر بالله بنفسه الكريمة وأهل دولته من الأمراء والوزراء والقضاة ـلفقهاء والصوفية والشعراء، ولم يتخلَّف أحدٌ من هؤلاء، وعُمِلَ سماط عظيم بها أكل منه ـحاضرون، وحُمِلَ منه إلى سائر دروب بغداد من بيوتات الخواص والعَوَام، وخلع على جميع ـمدرسين بها والحاضرين فيها، وعلى جميع الدولة والفقهاء والمعيدين، وكان يومًا مشهودًا..».

إلى أن قال ابن كثير: «ووُقِفَت خزائنُ كتبٍ لم يُسمَع بمثلها في كثرتها، وحُسْن نسخها،

---

(1) أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة، وهو المعروف بتاريخ الخلفاء، تحقيق الدكتور طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي – القاهرة، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م ٢/ ١٥٧.

(2) البداية والنهاية ١٣/ ١٦٣ .

وجودة الكتب الموقوفة بها»[1]!!

وبعد مرحلة الصغر كان للدولة الدور البارز أيضًا في الاهتمام بأبنائها العلماء ورعـايتهـ بما يليق ومكانتهم..

فكانت أولاً توفر لهم من المرتبات ما يكفي لمعيشتهم عيشة هانئـة، وهـذا عـدا مـا كـ يُعطَون من رواتب أخرى كحاجات معاشية.. فقد كان الشيخ نجم الدين الخبوشاني ممن عيَّ السلطان صلاح الدين ليدرِّس في مدرسته الصلاحية، وقد جعل له كل شـهر أربعـين دينـ عن التدريس، وعشرة دنانير للإشراف على أوقاف المدرسة، وستين رطلاً مصريًّـا مـن الخبـ كل يوم، وراويتين من ماء النيل كل يوم.

وكان من رواتب شيوخ الأزهر الشهرية، راتب يأخذه الشيخ لنفقات بغلته، إذْ كان مـ أوقاف الأزهر وقف خاص لبغلة الشيخ ونفقاتها[2].

ومثل هذا يُعَدُّ من أبـواب تفريـغ العلـماء للتـأليف والابتكـار، وأيضًـا تعلـيم النـاس وإفادتهم، دينيًّا ودنيويًّا..

ومما يستحق التنويه به في ذلك الصدد أيضًا أنه كان للمعلمين في ذلك الوقت المبكر نقابة خاصة بهم، وكان جماعة المعلمين هم الذين يختارون النقيب، وما كان يتدخل السلطان إلا إذ وقع خلاف بين الأعضاء فيصلح بينهم..

وفي ذلك يروي أبو شامة في الروضتين عن مقلد الـدولعي أنـه قـال: لمـا مـات الحـافظ المرادي، وكُنّا جماعة الفقهاء قسمين: العرب والأكراد؛ فمنّـا مَـن مـال إلى المـذهب، وأراد أن يستدعي الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وكان بالموصل، ومنّا من مـال إلى علـم النظـر والخلاف، وأراد أن يستدعي القطب النيسابوري، وكان قد جاء وزار البيت المقدس، ثم عاد إلى بلاد العجم؛ فوقع بيننا كلام بسبب ذلك ووقعت فتنة بـين الفقهـاء، فسـمع نـور الـدين بذلك فاستدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم مجد الدين بن الدّاية نائبًا عنـه وقال لهم: ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم، ودحض البدع، وإظهار الدين، وهـذا الـذي

---

(١) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٢) انظر مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص ١٠٢ .

جرى بينكم لا يحسن ولا يليق، وقد قال المولى نور الدين: نُرضي الطائفتين ونستدعي الشيخين. فاستدعاهما جميعًا، وولى شرف الدين المدرسة التي سُمِّيَت باسمه، وولى قطب الدين مدرسة النفري[1].

وفي مرحلة أخرى فإن دور الدولة في التعامل مع العلماء المبدعين كان له شأنٌ آخر!!

فهذا الخليفة الموحدي الثالث المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن يُنشئ «بيت الطلبة»، للنابغين ويشرف عليه بنفسه، حتى إن بعض حاشيته حسدوا هؤلاء الطلبة على موضعهم منه، وتقريبه إياهم، وخلوته بهم دونهم، ولما بلغ ذلك المنصور الموحدي فزع وخاطبهم قائلاً: «يا معشر الموحدين، أنتم قبائل، فمن نابه منكم أمرٌ فزع إلى قبيلته، وهؤلاء الطلبة لا قبيلة لهم إلا أنا، فمهما نابهم من أمرٍ فأنا ملجؤُهم، وإليَّ فزعهم، وإليَّ يُنسَبون..»[2]، فكان أن قامت دولة الموحدين وسادت وعمَّت الأرجاء!!

ولأبي عُبَيد القاسم بن سلام قصة طريفة مع عبد الله بن طاهر تدل على تقدير الأمراء لعقول العلماء، وتكريم النابغين منهم.. فإنه لما وضع أبو عبيد القاسم بن سلام كتاب «غريب الحديث» عرضه على عبد الله بن طاهر، فاستحسنه وقال: «إن عقلاً بعث صاحبه على عمل هذا الكتاب حقيقٌ أن لا يُحْوَجَ إلى طلب المعاش»، ثم أجرى له كل شهر عشرة آلاف درهم[3]!!

وقد مرَّ بنا ما كان من الجوائز العظيمة والهبات الجزيلة التي كان يمنحها الخلفاء والحكام للعلماء بهدف التشجيع على تحصيل العلوم، والتي كانت (أي: الجوائز والهبات) في صورة هي أقرب إلى الخيال، وأنه كان من ذلك إعطاء وزن الكتاب المُترجَم - من لغة غير العربية إلى اللغة العربية - ذهبًا للعالِمِ الذي يقوم بترجمته!!

وقد كان من جرَّاء ذلك أن نشطت حركة الترجمة، ونُقِلَت علوم هائلة على إثرها إلى المسلمين..

وأروع من ذلك ما قامت به الخلافة العثمانية، وذلك حين نجحت في تجميع النابغين من

---

(1) انظر الروضتين في أخبار النورية والصلاحية ص ١٧ .

(2) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٨١ .

(3) انظر تاريخ بغداد ١٢/ ٤٠٦ - تاريخ دمشق ٤٩/ ٧٤ - تهذيب التهذيب ٨/ ٢٨٤ .

جميع القرى والأمصار، ووفرت لهم الرعاية التي جعلت كل نابغة يعطي ما عنده من فـ
وعلم؛ وهو الأمر الذي ساعد على ازدهار الدولة حضاريًّا وعسكريًّا حتى باتت الدو
الأولى في العالم!!

ولم يكن اهتمام الدولة يقتصر على رعاية العلماء من أبنائها، بل كان الحكام يستدعو
العلماء من شتى الأمصار ليستفيدوا من علومهم، ويسعدوا برعايتهم!!

فها هو الأمير المعز بن باديس، أحد أمراء دولة الصنهاجيين في المغرب الإسلامي، كـ
لا يسمع بعالم جليل إلا أحضره عنده، بل وجعله من خاصته، وبالغ في إكرامه، وعوَّل عـ
آرائه، ومنحه أسمى الرتب[1]!!

وها هو السلطان محمد الفاتح لا يسمع عن عالم في مكانه أصابه عوز وإملاق إلا بادر
مساعدته، وبذَل له ما يستعين به على أمور دنياه[2].

وإن هذه الصورة لتتضح في وصيته لابنه وهو على فراش الموت؛ فقد جاء فيها: «.. و
أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولة، فعظِّم جانبهم وشجعهم، وإذا سمعت
بأحدٍ منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك، وأكرمه بالمال..»[3].

وقد مرَّ بنا استدعاء الحاكم بأمر الله الفاطمي في مصر لابن الهيثم العالم الشهير
والاحتفاء بقدومه وإكرامه، وتقديم العون والمال له..

ومرَّ بنا أيضًا انتقال الخوارزمي من بلدته خوارزم إلى بغداد، حيث (بيت الحكمة
وكيف أحاطه المأمون بعناية خاصة وتكريم كبير، وولاّه منصبًا كبيرًا في بيت الحكمة، ثـ
أوفده في بعض البعثات العلمية إلى البلاد المجاورة، للاتصال بعلماء هذه المناطق، والاستز
من علوم الآخرين، ونشر العلم في أرجاء الدولة الإسلامية..

بل إن اهتمام الدولة برعاية وتنشئة العلماء لم يقتصر فقط على المسلمين منهم، وإنما تعدّ

---

(١) انظر في ذلك ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ص ١٢٩ - الأعلام ٧/ ٢٦٩ .

(٢) علي محمد الصلابي: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة
الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م ص ١٤٠ .

(٣) المصدر السابق ص ١٤٨ .

ـك ليشمل العلماء غير المسلمين أيضًا!!

فها هو السلطان محمد الفاتح يراسل مهندسًا مجريًّا نصرانيًّا يُدعى أوروبـان، كـان بارعًـا في صناعة المدافع، فيحسن استقباله، ويزداد في إكرامه، ويعتني به عناية خاصة، فيوفِّر له جميع الإمكانيات، ويزوده بكل ما يحتاجه؛ ليتمكَّن هذا المهندس بعـد ذلـك مـن تصـميم وتنفيـذ العديد من المدافع الضخمة، والتي كان على رأسها المدفع السـلطاني المشـهور، والـذي لم يُـرَ مثله[1]!! وهو بعينه ما تقوم به أمريكا وأوروبا الآن..

وهذه أسرة بختيشوع النسطورية، كان أبناؤها أطباء الأسرة العباسية لقُرَابة ٧٠ سنة، من زمن المنصور إلى المعتمد، فكانت لهم الرعاية والاهـتمام الخـاص[2]. وكـان مـن هـذه الأسرة جبرائيل بن بختيشوع بن جرجس (ت٢١٣هـ)، والذي كان طبيب هارون الرشيد وجليسـه ونديمه، حتى إنه ليقال: إن منزلته ما زالت تقوى عند الرشيد حتى قال لأصحابه: من كانت له حاجة إليَّ فليخاطب بها جبرائيل[3]!!

وكذلك كان ابن ميمون اليهودي الأندلسي له رعاية واهتمام خاص عنـد صـلاح الـدين الأيوبي، وكان طبيبه الخاص[4]!!

على أن الحكام والأمراء كانت لهم وسـائل أخـرى إذا لم يسـتطيعوا أن يجتـذبوا العلـماء، ويكن من هذه الوسائل: شراء مؤلَّفات العلماء العلمية فور انتهاء أصحابها من تأليفها!!

وعلى سبيل المثال فإنه لما سمع الحكم الخليفة الأموي بالأندلس بكتـاب «الأغـاني» المشـهور لذي في الأدب، ما كان منه إلا أن أرسل إلى مؤلِّفه أبي الفرج الأصفهاني ألف دينـار مـن الـذهب ثمن نسخة منه ليرسله إليه في بلده، وكان له ما أراد؛ حيث أرسل إليه أبو الفرج بنسخة من كتابـه المذكور، فكان أن قُرِئ الكتاب في الأندلس قبل أن يُقرَأ في العراق موطن المؤلف!!

ناهيك عمَّا يُصاحِب تلك الروح العلمية العالية عند أولي الأمر، وما يمكن أن يـتمخض عنها من حالة علمية ومعرفية عامة!!

---

(1) انظر عبد العزيز العمري: الفتوح الإسلامية عـبر العصـور، دار إشـبيلية - الريـاض، الطبعـة الثانيـة، ١٩٨٦م - ١٤٠٦هـ ص٣٦١.

(2) انظر الأعلام ٢/ ٤٤، ٤٥.

(3) المصدر السابق ٢/ ١١١.

(4) انظر الأعلام ٧/ ٣٢٩.

ونستطيع أن نتلمس دور الدولة في تنشئة ورعاية العلماء في عصرنا الحاضر من خلا مؤسسة الملك فيصل الخيرية، كمثال حي وشاهد عيان على ما ذكرناه..

فهذه المؤسسة تَمنح جائزةً سنوية (جائزة الملك فيصل العالمية) لتكافئ الذين أوقفـ حياتهم للعلم، وحقَّقوا إنجازاتٍ فريدةً، وتحولاً إيجابيًا في مجالات إبداعهم، وتُمنَح للعلـ الذين كان لنتائج بحوثهم الأثر في تحقيق تقدُّم جوهري في تخصصاتهم العلمية خدمـ للإنسانية، ومن شأن هذا الحافز أن يشجع على توسيع البحوث العلمية وتطويرها لارتيـ آفاقٍ جديدة، وذلك في ميداني: الطب والعلوم.

وقد تحدَّدت غايات الجائزة في:

- العمل على خدمة الإسلام والمسلمين في المجالات الفكرية والعلمية والعملية.
- تحقيق النفع العام لهم في حاضرهم ومستقبلهم، والتقدم بهم نحو ميادين الحضـ والمشاركة فيها.
- تأصيل المثل والقيم الإسلامية في الحياة الاجتماعية، وإبرازها للعالم.
- الإسهام في تقدُّم البشرية، وإثراء الفكر الإنساني.

وتتيح المعايير الموضوعية التي تعتمدها الجائزة الفرصة لأي عالم أو مفكر له درا علمية أصيلة في الفرع المعلن أن يكون مؤهَّلاً لنيل الجائزة، ما دام قد أغنى مجال تخصصـ وأسهم في تطوره، وحقَّق فائدة ملحوظة للبشرية[1]..

ومثل هذه الجائزة أيضًا جائزة محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات ورئيس مجلس الوزراء، وحاكم دبي؛ والتي جُعِلَت خصيصًا لخدمة الأمة العربية، وحرصـ على ضمان تطور ونمو مؤسساتها، ورقي ورفعة شعوبها..

يقول راعي الجائزة: «لقد أردنا أن تكون هذه الجائزة وسيلة فعّالة لتطوير الإد العربية، وأداة عملية للارتقاء بالممارسات الإدارية والمهنية في المؤسسات العربية، وحرصـ على أن تكون فرصة للتعبير عن تقديرنا ومساندتنا للأداء المتميز، والإنجاز الفعّال، والعمـ

---

(١) موقع جائزة الملك فيصل العالمية على شبكة الإنترنت، وهو على الرابط:
http://www.menofia.edu.eg/announcements/faisal/section- 1-ar.html

جيد الذي يستجيب لمتطلبات أمتنا ويخدم شعوبنا العربية[1]..

بقي أن نقرِّر أنَّ على الدولة جانبًا كبيرًا من الجهود المطلوبة لتنشئة العلماء وإخراجهم إلى الوجود، وأنه لا مناص لها من بذل ذلك الجهد إذا ما أرادت النهوض ومواكبة العصر، والاقتداء بمثيلتها في عصر الحضارة والنهضة الإسلامية؛ فينبغي لها الاهتمام بالعلماء والباحثين في الجامعات وفي مراكز البحوث المختلفة، ومن صور ذلك: تقديم الحوافز الماديّة والمعنوية لهم، وعدم إخضاعهم للبيروقراطية واللوائح التي تعوق طريقهم، كما ينبغي لها منح تسهيلاتٍ، وامتيازاتٍ، وحوافز تشجيعية للمرافق البحثية وللعاملين فيها؛ وذلك بهدف ملاحقة التطور ودفع عجلة الإنتاج في هذا المجال، فضلاً عن إيقاف طوفان هجرة العقول والكفاءات إلى دول أخرى متقدمة.

ثالثًا: دور العلماء والدعاة في تنشئة العلماء:

للعلماء والدعاة في تنشئة العلماء دورٌ لا يُضاهيه دور آخر في تأثيره الفعلي ونتيجته المباشرة والقريبة؛ إذ لا يُثمِّن الشيء إلا من علِمَه وزانه، ولا يعرف طعم العسل إلا من ذاقه وطعِمَه.. والخدُّ يعلم ما في الدمع من حُرَقٍ[2]..

فلأنهم أعلم الأمة بمصالح الأمة، ولأنهم أحرص الناس على الإصلاح، ولأنهم أحرصهم على سيادة العلم؛ فكان دورهم جد كبير في إخراج العلماء، وفي تربية المجتمع على إخراج وتنشئة هؤلاء العلماء..

أما بالنسبة للدعاة فالمجال رحبٌ والمساحة واسعة، ولو أخذ الدعاة على عاتقهم هذا الأمور بمحمل من الجد لخرج لنا جيلٌ من العلماء يكفي الأمة، ويسدُّ الثغرات في كل المجالات!! وكيف لا والدعاة هم أعلام الأمة وموجِّهو دفَّة مسيرتها؟! وهم وسيلة الإصلاح الأولى في المجتمع، وعن طريقهم يحصل الأمل المنشود؟!

وقد جسَّد معاذ بن جبل ﷺ ذلك الدور، فقام وهو يحمل هم الأمة يخطب الناس،

---

(1) انظر موقع جائزة محمد بن راشد آل مكتوم على الرابط:
http://www.arabmanagementaward.com/Default.aspx?&lang=ar

(2) شطر بيت لشاعر المهجر إلياس فرحات، وتمامه هو: «الخد يعلم ما في الدمع من حرق .. وليس تعلم ما فيه المناديل».

ويقول: «تعلَّموا العلم؛ فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على الدين، والمصبِّر على السراء والضراء، والوزير عند الأخلاَّء، والقريب عند الغرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله به أقوامًا فيجعلهم في الخير قادة سادة، هداة يقتدى بهم، أدلة في الخير، تقتص آثارهم، وترمق أفعالهم، وترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، وكل رطب ويابس لهم يستغفر، حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها؛ لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلا في الدنيا والآخرة، والتفكر فيه يعدل الصيام ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء»[1].

فلم يترك ﷺ واردة ولا شاردة في الحث على العلم، وبيان فضله ومنزلته إلا أتى به يخاطب بها قومه ومجتمعه؛ علَّهم يأخذون في تعليمه ويهُبُّون إلى تحصيله..

فالمهمة جليلة وجد عظيمة، وخاصة إذا كان حال الأمة غير مرضيّ.. ولعلنا نوجه من هنا دعوة إلى كل الدعاة في أنحاء العالم الإسلامي، بأن يسدوا الثغرة التي أوكلهم الله إياها وأوقفهم عليها، وأن يقوموا بها على وجهها.. وقد قال رسول الله ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً..»[2].

وحريٌّ بدعاة المسلمين بأن يقفوا على مواطن النزف التي تصيب الأمة، وأن يكشفوا عنها، ويعملوا على علاجها ومقاومتها، وألا يخوضوا في سفاسف الأمور وما لا يعود بنفع على الأمة من قريب أو بعيد.. وأحرى بهم بأن يسيروا وفق منهج واضح وهدف محدد، عن طريقه يمكن تربية المجتمع وتنشئة وإخراج العلماء.

على أن دور الدُّعاة غالبًا ما يأخذ طابع الحثِّ والنصح، والتوجيه والإرشاد، على الاهتمام بالعلم وتعليمه، وبذل المال فيه، وإنفاقه على طلبته ومشاريعه ومؤسساته، متوجهين في ذلك لكل فئات المجتمع وطبقاته، بدءًا بالأطفال وانتهاءً بالآباء، ومرورًا بأرباب الصنائع والحرف

---

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٢٣٥) وقال: هكذا حدثنيه أبو عبد الله عبيد بن محمد -رحمه الله- مرفوعًا بالإسناد المذكور، (وكان قد ذكر الإسناد).

(٢) البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٢٠٢).

مختلفة في المجتمع، وانتهاءً بالدولة ومؤسساتها..

فكان من ذلك، في سبيل تنشئة الأطفال مثلاً وتعويدهم على أن يُصبحوا علماء، أن عمرو بن العاص ﷺ مرَّ على حلقة من قريش فقال: «ما لكم قد طرحتم هذه الأغيلمة؟ لا تفعلوا! أوسعوا لهم في المجلس، وأسمعوهم الحديث، وأفهموهم إياه؛ فإنهم صغار قوم يوشك أن يكونوا كبار قوم، وقد كنتم صغار قوم فأنتم اليوم كبار قوم»[1].

فكان الاعتناء بتعليم الأطفال الجرأة على طرح أفكارهم، والمشاركة بها في نوادي الكبار، وذلك بمجالسة العقلاء الكبار، فتكبر عقولهم وينضج تفكيرهم.. كان ذلك وسيلة مهمة من قبل الدعاة والمصلحين في تنشئة الأطفال ليصبحوا علماء، ومن الخطأ أن يُمنَع الصغير من حضور مجلس أهل الخبرة والتجربة، كما أن من الخطأ عدم الاهتمام بالنشء في هذه الفترة المبكرة.

بل إن ابن شهاب الزهري -رحمه الله- كان يشجع الصغار ويقول لهم: «لا تحتقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم؛ فإن عمر بن الخطاب كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتيان فاستشارهم يتبع حدَّة عقولهم»[2].

ولم تقتصر نصيحة الدعاة في هذا الدور على الأطفال فحسب، وإنما - كما أشرنا سابقًا - كانت لهم توجيهاتهم الخاصة لآباء هؤلاء الأطفال؛ وذلك أن الآباء ربما ينخرطون في دوامة الدنيا وصروفها، فينشغلون بذلك عن أبنائهم وتقديم الرعاية اللازمة لهم ليصبحوا علماء، لا عن قصدٍ بقدر ما هو عن تكاسل أو جهل.. وهنا يصبح دور الدعاة دورًا محوريًّا ومهمًّا جدًّا!!

فهذا الإمام النووي – رحمه الله- وهو طفل صغير كان الصبيان يُكرِهونه على اللعب معهم، وهو يهربُ منهم ويبكي؛ يريد أن يتعلم ويحفظ القرآن، وقد صادف أن مرَّ بقريته الشيخ ياسين بن يوسف المراكشي ورأى ذلك، فما كان منه إلا أن ذهب إلى والده ونصحَه بأن يفرّغه لطلب العلم، وكان أن استجاب والد النووي، حتى إنه رحل به إلى دمشق ليتعلم في مدرسة دار الحديث[3].. ليصبح بعد ذلك الإمام النووي، والذي ملأ سمع الدنيا بعلمه، وصار إمام عصره، وبرع في الحديث والفقه واللغة، وترك لنا أسفارًا وكتبًا ما زالت تحييه في عالمنا!!

---

(1) انظر الخطيب البغدادي: شرف أصحاب الحديث ص ١٥٩ .

(2) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/ ٤٠٩ .

(3) انظر القصة في تحفة الطالبين في ترجمة الإمام النووي لابن العطار ص ٢.

وكان للمجتمع أيضًا بصفة عامة نصيبٌ بارز من دور الدعاة في هذا المجال.. ومما يُذكر في ذلك أن أسد بن الفرات بن سنان[1] ولاّه زيادة الله القضاء بأفريقية، وقدَّمه على غزو صقلية؛ فخرج في عشرة آلاف رجل، منهم ألف فارس. ولما خرج إلى سوسة ليتوجه منها لغزو صقلية، خرج معه وجوه أهل العلم يشيعونه، وهنا استغل ذلك الحدث الجليل وقام فيهم خطيبًا؛ فقال: **لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يا معشر الناس، ما بلغت ما ترون إلا بالأقلام! فأجهدوا أنفسكم فيها، وثابروا على تدوين العلم، تنالوا به الدنيا والآخرة**[2]!

وإذا أردنا تجارب واقعيةً وأسوةً في ذلك الصدد، فإنما هو دور الدعاة والمصلحين في هذه الأمة وعلى امتداد العالم الإسلامي، وسيرتهم في ذلك، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤- ١٣١٤هـ/ ١٨٣٨- ١٨٩٧م)، ومحمد عبده (١٢٦٥- ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩- ١٩٠٥م)، ومحمد رشيد رضا (١٢٨٢-١٣٥٤هـ/ ١٨٦٥- ١٩٣٥م)، ومحمد أبو زهرة (١٣١٦-١٣٩٤هـ/ ١٨٩٨-١٩٧٤م)، وحسن البنا (١٣٢٤- ١٣٦٨هـ/ ١٩٠٦-١٩٤٩م)، وعبد الحميد بن باديس (١٣٠٥-١٣٥٩هـ/ ١٨٨٧- ١٩٤٠م).. وغيرهم كثير من الدعاة والمصلحين، والذين ينبغي أن يُترسَّم خطاهم ويُقتَفى أثرُهم، وخاصة فيما نحن بصدده في قضية تنشئة العلماء.

أمّا دور العلماء في هذا المجال، فإنه لا يقل عن دور الدعاة، ولهم في ذلك سبلٌ ووسائل شتى، على أن أنجع وسيلة يمكن أن يقوموا بها هي **توريث العلم**.. عملاً بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران:١٨٧] كما ذكرت سابقًا في أخلاق العلماء.

وغير وسيلة توريث العلم كان للعلماء المسلمين وسائل أُخرى في دورهم في تنشئة العلماء؛ فكان من ذلك تأليفهم الكتب التي تحثُّ على تعلُّم العلم، وتبين فضله ومكانته، والكتب المؤلَّفة في ذلك أكثر من أن تحصى، ومن أبرزها: جامع بيان العلم وفضله لابن عبد

---

(١) هو أسد بن الفرات الفقيه المالكي العظيم، أصله من خراسان، ورحل أبوه إلى القيروان في جيش الأشعث، فأخذه معه وهو طفل، فنشأ بها ثم بتونس، ورحل إلى المشرق في طلب الحديث. دوّن مذهب الإمام مالك، وكان يعمل قاضيًا للقيروان، ثم مجاهدًا في سبيل الله، وفتح جزيرة صقلية، واستُشهِد هناك سنة ٢١٣هـ. الأعلام ١/ ٢٩٨.

(٢) انظر النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص ٣١.

نحو، وآداب العلماء والمتعلِّمين للحسين بن المنصور اليمني، وأخلاق العلماء للآجري، وجماع العلم لمحمد بن إدريس الشافعي، ومسبوك الذهب في فضل العرب وشرف العلم على شرف النسب لمرعي الكرمي، واقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي، وغيرها كثير..

على أن أهم وأبرز وسيلة قام بها العلماء والدعاة في هذا الشأن هي رعاية النابغين والموهوبين من طلبة العلم، معنويًا وماديًا..

فقد اهتم الإسلام برعاية النابغين والتنويه بهم، خاصة وأن هؤلاء النابغين يعدُّون في الأساس ثروة الأمة وعمادها..

فكان عمر بن الخطاب ﷺ - على سبيل المثال - يحب عبد الله بن عباس ويقرِّبه من مجلسه، ويستشيره في الكثير من أموره، ويُدخله مع أشياخ بدر، ويأخذ برأيه رغم صغر سنه، حتى عاب ناسٌ من المهاجرين ذلك على عمر، وقالوا: تُدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟! حتى قال لهم عمر: أما أني سأريكم اليوم منه ما تعرفون فضله، فسألهم عمر عن تفسير سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]، فسكت بعضهم، وقال بعضهم: أمر الله نبيَّه إذا رأى الناس يدخلون في دين الله أفواجًا أن يحمده ويستغفره. فقال عمر: يا ابن عباس، تكلَّم. فقال ابن عباس: أعلَمَ الله رسوله متى يموت، أي: فهي علامة موتك فاستعدّ، فسبِّحْ بحمد ربك واستغفره[1].

وفي هذا الصدد أيضًا قال الصفدي يصف اهتمام الإمام أبي حيان محمد بن يوسف الغرناطي بالنابغين فيقول: «لم أره قَطّ إلا يسمع أو يكتب أو ينظر في كتاب، ولم أره على غير ذلك، وكان له إقبال على أذكياء الطلبة؛ يعظِّمهم وينوِّه بقدرهم»[2].

ولما اتجه مالك بن أنس لطلب العلم وهو حَدَث صغير كان يُعاني شظف العيش، فكان فقيه مصر الليث بن سعد - وكان من الأغنياء - يرسل إليه بالهدايا وبالمال، حتى انصلحت حاله، واستطاع أن يكون مالك بن أنس!!

وبعد أن منَّ الله عليه كان الإمام مالك - رحمه الله- يدعو طلبته لبيته، ويبرهم ويكرمهم

---

(١) القصة في البخاري: كتاب المغازي، باب منزل النبي ﷺ يوم الفتح (٣٩٥٦).
(٢) انظر ابن حجر: الدرر الكامنة ٢/ ١٢١.

ويهتم بهم؛ فقد قال عبد الله بن عبد الحكم: هيأ مالك دعوة للطلبة وكنتُ فيهم، فمضينا إلى داره، فلمّا دخلنا قال: هذا المستراح وهذا الماء، ثم دخلنا البيت فلم يدخل معنا، ودخل بعد ذلك فأُتِينا بالطعام[1]..

والإمام مالك أيضًا هو الذي أفضى به طلب العلم، وإنفاقه على طلابه إلى أن ينقض سقف بيته فيبيع خشبه[2]!!

بل إن هارون الرشيد بعث إلى مالك مجموعة من الإبل كهدية، فتصدَّقَ بها مالك على تلاميذه، وأعطى واحدًا منها لتلميذه الشافعي!!

وأكثر من ذلك ما كان من قصة أسد بن الفرات - رحمه الله- مع شيخه محمد بن الحسن الشيباني.. فقد ذهب أسد إلى المدينة فتعلَّم على يد الإمام مالك - رحمه الله- ثم رحل إلى العراق فسمع من أصحاب أبي حنيفة - رحمه الله-، وبخاصةٍ من محمد بن الحسن الشيباني وكان يجلس في مجلسه مع مئات وآلاف الطلاب فلا يستطيع أن يسأل عمّا يريد ولا أن يتعلم ما يشتهي، فذكر ذلك للإمام الجليل محمد بن الحسن، وقال له: «إني غريب قليل النفقة والسماع منك نَزْر (أي قليل لشدة الزحام)، والطلبة عندك كثير فما حيلتي؟

فقال له العلاّمة الجليل المتجرِّد محمد بن الحسن: اسمع مع العراقيين بالنهار وقد جعلت لك الليل وحدك فتبيت عندي وأسمعك!!

قال أسد: «وكنت أبيت عنده وينزل إليَّ، ويجعل بين يديه قدحًا فيه الماء ثم يأخذ في القراءة، فإذا طال الليل ونعستُ ملأ يده ونفخ في وجهي بالماء فأنتبه، فكان ذلك دأبه ودأبي حتى أتيتُ على ما أريد من السماع عليه»[3].

فانظر -رحمك الله- كيف فرَّغ محمد بن الحسن من وقته لتلميذه أسد بن الفرات، وكيف اهتم به وبتعليمه..

وعلى دربهم يحكي زفر بن الهذيل أن الإمام أبا حنيفة - رحمه الله- كان يجلس إلى شيخه

---

(١) انظر ابن فرحون: الديباج المذهب ص ٩.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٣) انظر القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك ١/ ١٦٩ .

حد، فكان يسمع مسائله فيحفظها، ثم إذا أعادها من الغد حفظها وأخطأ أصحابه، وهنا قال شيخه منوِّهًا به وبتفوقه: «لا يجلس في صدر الحلقة بحذائي غير أبي حنيفة»، وقد صحبه ـك أبو حنيفة عشر سنين، حتى أمره أن يجلس مكانه[1]!!

ولم يحِدْ أبو حنيفة عن النهج، فكان أيضًا يهتم بطلبته النابهين ويتفقد أحوالهم.. يقول تلميذه النجيب الإمام أبو يوسف: كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقلّ رثّ الحال، فجاء أبي يومًا وأنا عند أبي حنيفة، فانصرفت معه، فقال: يا بني، لا تمد رجلك مع أبي حنيفة، فإن أبا حنيفة خبزه مشوي[2]، وأنت تحتاج إلى المعاش. فقصرت عن كثير من الطلب، وآثرت طاعة أبي، فتفقدني أبو حنيفة، وسأل عني، فجعلت أتعاهد مجلسه، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخري عنه؛ قال لي: ما شغلك عنّا؟ قلت: الشغل بالمعاش وطاعة والدي، فجلست، فلمّا انصرف الناس دفع إليَّ صُرَّة، وقال: استمتع بها فنظرت فإذا فيها مائة درهم، فقال لي: الزم الحلقة، وإذا فرغت هذه فأعلمني. فلزمت الحلقة، فلما قضيت مدة يسيرة، دفع إليَّ مائة أخرى، ثم كان يتعهَّدني (يرعاني) وما أعلمته بقِلَّة قطّ، ولا أخبرته بنفاد شيء، وكأنه يخبر بنفادها حتى بلغت حاجتي من العلم أحسن الله مكافأته[3].

وروي أيضًا أن الحسن بن زياد كان فقيرًا، وكان يلازم الإمام أبا حنيفة، فكان أبوه يقول له: لنا بناتٌ وليس لنا غيرك، فاشتغل بهنَّ؛ فلمّا بلغ الخبر الإمام أبا حنيفة أجرى عليه رزقًا، وشجَّعه وقال له: الزم الفقه؛ فإني ما رأيت فقيهًا معسرًا قط[4].

وعلى هذا كان نهج العلماء العاملين، ومن قبلهم الدعاة الصادقين..

رابعًا: دور المجتمع في تنشئة العلماء:

للمجتمع في تنشئة العلماء دورٌ لا يقل أهمية عن الأدوار السابقة.. فالمجتمع الذي يعيش فيه العالِم يُعدّ بمثابة البيئة التي يتنفس فيها والأرض التي ينمو في تربتها ومن خلالها؛ ومن ثَمَّ فإنه لكي ينشأ العلماء فلا بد من مجتمع واعٍ وفعَّال، يُقدِّر للعلماء قدرهم، ويُنزِلهم

(1) تاريخ بغداد ١٣/ ٣٣٣.

(2) يريد أن لديه سعة في الرزق تعينه على ما هو فيه من التفرغ لتدريس العلم.

(3) مناقب الكردري ٢/ ١٢٢.

(4) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

مكانتهم التي أنزلهم الله إياها.

والحقيقة أن هذا الدور ليس من قبيل الترف أو الفضل، وإنما هو فرض وواجب عل المجتمع تجاه العلماء؛ إذ هم - كما أشرنا إلى ذلك من قبل - ورثة الأنبياء، وهم الذين زكاهم الله عز وجل ورفع قدرهم فقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

ويروي عبادة بن الصامت ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ»[1]..

وقال أيضًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا»[2].

ومثله ما رواه أبو موسى الأشعري ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ: إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ المسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الغالي فِيهِ[3]، وَالجافِي عَنْهُ[4]، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ المقْسِطِ»[5].

فدور المجتمع إذن في تنشئة العلماء دورٌ مهمٌ وجليل، ويتمثل في توقير العلماء وتقديره لهم، وتكريمه إياهم، والنظر إليهم بعين الإكبار والإجلال والتعظيم.. وذلك تمامًا بتمام كما كرَّم الإسلامُ العلمَ، ورفع قدره وأعلى من شأنه وأهله!!

وعلى هذا فإن تكريم المجتمع للعلماء ليس تكريمًا لأشخاصهم بقدر ما هو تكريمٌ للعلم في صورة أشخاصهم..

ومثل هذه الصورة المثلى لم تُعدم في المجتمعات الإسلامية في عصور قوتها، حتى غدا

---

(١) أحمد (٢٢٨٠٧) واللفظ له، والحاكم (٤٢١)، وقال الهيثمي: رواه أحمد وإسناده حسن، وقال الألباني: صحيح (١٠١) صحيح الترغيب والترهيب.

(٢) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الصغير (١٨٤٣)، وأحمد (٦٧٣٣)، والحاكم (٢٠٩)، وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، والبخاري في الأدب المفرد (٣٥٨)، وقال الألباني: صحيح (٥٤٤٤) صحيح الجامع.

(٣) الغالي فيه: المجاوز حده.

(٤) أصل الجفاء ترك الصلة والبر، وجفاه: أبعده وأقصاه.

(٥) أبو داود: كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم (٤٨٤٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٥٧)، وابن أبي شيبة (٣٢٥٦١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٦٨٥)، وقال الألباني: حديث حسن (٢١٩٩) صحيح الجامع.

تواضع للعلماء في هذا المجتمع رفعة، وحتى عُدَّ احترامهم والخضوع لهم فخرًا!! فهذا حَبْرُ الأمة ابن عباس ﷺ مع جلالته وقرابته لرسول الله ﷺ وهو يأخذ بركاب زيد بن ثابت ﷺ رغم صغر سنه ويقول: «هكذا أُمِرنا أن نفعل بعلمائنا»!!

ولن نعجب حين نرى الشافعي – رحمه الله- وهو يقول: «كنتُ في مجلس مالك وأريد أن أصفح الورقة[1] فأصفحها صفحًا رقيقًا؛ هيبة له لئلاّ يسمع وقعها»[2]!!

ومثله أيضًا الربيع بن سليمان يقول: «والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليَّ؛ هيبة له»[3]!!

وهذا على مستوى الأفراد، أما على مستوى الجماعات فإن يوسف بن موسى المروزي يحكي فيقول: كنت بالبصرة في جامعها إذ سمعت مناديًا ينادي: يا أهل العلم، لقد قدم محمد بن إسماعيل البخاري. فقاموا جميعًا إليه!!

ثم تابع فقال: وكنت معهم، فرأينا رجلاً شابًا ليس في لحيته بياض (أي صغير السن)، فأحدقوا به وسألوه أن يعقد لهم مجلسًا للإملاء، فأجابهم إلى ذلك، فقام المنادي ثانيًا في جامع البصرة فقال: يا أهل العلم، لقد قدم محمد بن إسماعيل البخاري فسألناه أن يعقد مجلس الإملاء فأجاب بأن يجلس غدًا في موضع كذا...»[4]!!

فهو ينادي في المدينة كلها بقدوم عالمٍ إليها ليس من أهلها، فترى الناس وقد قاموا إليه، وأحاطوا به من كل جانب، يريدون أن يستفيدوا من علمه، فيطلبوا منه مجلسًا لذلك، وحين يحدد ذلك العالم (وهو البخاري) الموعد ينادي المنادي من جديد؛ يُعلم الناس بموعد مجلس العالم المغترب، كي يكون لقاؤهم معه واحتفاؤهم به!!

ولقد كان الناس يجتمعون بالآلاف حول البخاري – رحمه الله- ليعلمهم حديث رسول الله ﷺ، وهو دون العشرين من عمره[5]!!

---

(١) أي: أعرضها ورقة ورقة.

(٢) انظر تاريخ دمشق ١٤/ ٢٩٣ – فيض القدير ٣/ ٢٥٣ .

(٣) انظر تاريخ دمشق ٥١/ ٤٠٤ .

(٤) انظر فتح الباري ١/ ٤٨٦ .

(٥) انظر تهذيب الكمال ٢٤/ ٤٥٢ .

وعلى النقيض من ذلك، ترى الأمة في حال ضعفها لا توقر العلماء ولا تنزلهم منزلتهم ولا ترفعهم قدرهم، بل قد تُعلي من شأن المطربين واللاعبين واللاهين ولا تأبه بوجود العلماء!! ولا شك أن هذه علامة من علامات الوهن الشديد، وهي متكررة في معظم مراحل الأمة.

ومما يُذكر في ذلك أن عبد الملك بن حبيب السُّلَميَّ[1] عالم الأندلس وفقيهها سمع أن زِرْياب[2] (المغنِّي) قدِم الأَندلس في عهده، فاحتفى الناس به أيما احتفاء، وصاروا يقلدونه في كل شيء، وبذل له الرؤساء الأموال، حتى بلغ من ذلك أنه غنّى يومًا بين يدي الأمير عبد الرحمن الثاني ابن الحكم، فطرِب الأمير لذلك لحسن صوته وعذوبته طربًا شديدًا، فأعطاه ألف دينار دفعةً واحدةً، وكان عبد الملك بن حبيب فقير الحال، لا يكاد يجد من يعينه على العيش، فقال شاكيًا حاله وعاتبًا على أهل زمانه:

صلاح أمري والذي أبتغي	سهل على الرحمن في قدرته
ألف من الحمر وأقلل بها	لعالم أوفى على بغيته
زرياب قد يأخذها دفعة	وصنعتي أشرف من صنعته[3]!

وإن تعجب فعجب بمن يُقدّم صاحب صنعة ما، أنّى كانت، على صاحب صنعة العلم ووريث الأنبياء!! وإنك لن تراهم في ذلك إلا أصحاب الأهواء والشهوات.

وليت شعري ماذا كان سيقول عبد الملك بن حبيبٍ لو رأى زماننا الذي نعيشه؟! ومد لو رأى جانبًا أو لونًا من تكريم أرباب الفن واللعب فيه؟!!

على أن الذي نقصده هنا هو أن المجتمع الإسلامي في فترات قوته، والتزامه أحكام الإسلام قد حفظ مكانة العلماء وصانها لهم، وبوَّأهم ما يستحقونه من الحفاوة والإكرام

---

(١) هو عبد الملك بن حبيب بن سليمان القرطبي، أبو مروان: عالم الأندلس وفقيهها في عصره. ولد في البيرة سنة ١٧٤هـ، وسكن قرطبة وتوفي بها سنة ٢٣٨هـ. له تصانيف كثيرة، قيل: تزيد على ألف، وكان ابن لبابة يقول: عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس، ويحيى بن يحيى عاقلها، وعيسى بن عبد الملك بن حسين العصامي فقيهها. انظر تاريخ علماء الأندلس ص ١٠١ - الأعلام ٤/ ١٥٧ .

(٢) هو علي بن نافع، أحد المغنين المطبوعين، والموسيقيين المشهورين، سافر من بغداد إلى الأندلس، واستقبله هناك عبد الرحمن بن الحكم. توفي سنة ٢٣٠هـ . انظر ابن حيان القرطبي: المقتبس من أنباء الأندلس ص ٢٥ - نفح الطيب ١/ ٣٤٤ - الأعلام ٥/ ٢٨ .

(٣) انظر الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ص ١٠١ - ونفح الطيب ٢/ ٧ .

والمنزلة العالية، والدرجة الرفيعة.. فَسَادَ المسلمون الدنيا وملؤوها علمًا ومجدًا وحضارة.

وإن مثل ذلك لو تم القيام به على الوجه الأكمل، فمن شأنه أن يحفز الشباب على بلوغ درجات العلماء، فوق أنه سيجعل باب الإبداع والابتكار مفتوحًا على مصراعيه.. فيعود من جديد مجد المسلمين وحضارتهم إلى الرِّيادة والصدارة، وتراهم وقد انطلقوا في أصقاع الأرض، ينشرون العلم، ويبصِّرون الناس، ويدلُّونهم على حقيقة إنسانيتهم وأسرار خلقهم!!

خامسًا: دور رجال الاقتصاد والثروة في تنشئة العلماء:

الأسخياء عظَّمهم الله في الدنيا كما عظَّم العلماء.. فإذا كان العلماء بعلمهم وبمنزلتهم التي أكرمهم الله بها، فإن الأسخياء من رجال الاقتصاد والثروة سادوا كذلك بسخائهم وقُربهم من الله عز وجل ومن الناس..

وفي الإنفاق بصفة عامة يقول الله عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١] يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: «هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف..»[1].

وروى أبو ذر ﷺ قال: انْتَهَيْتُ إلى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ يَقُولُ: هُمُ الأَخْسَرُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، هُمُ الأَخْسَرُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ. قُلْتُ: مَا شَأْنِي؟ أَيُرَى فِيَّ شَيْءٌ؟ مَا شَأْنِي؟ فَجَلَسْتُ إليهِ وَهُوَ يَقُولُ، فَمَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَسْكُتَ، وَتَغَشَّانِي مَا شَاءَ اللهُ؛ فَقُلْتُ: مَنْ هُمْ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الأَكْثَرُونَ أَمْوَالاً، إلاَّ مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، وزاد مسلم: «مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ..»[2].

وإنه إذا كانت سبل الخير وطرق الإنفاق كثيرة ومتنوعة، فإن من أفضل وأحسن وأنفع ما ينفق فيه المحسنون ويبذل فيه الأسخياء والموسرون من رجال الاقتصاد والثروة نشر العلم، وتعهُّد طلابه ورعايتهم، والعمل على تنشئة العلماء، وإقامة المراكز والمؤسسات

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٦٩١ .

(٢) البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦١٤٧)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة (١٦٥٢).

البحثية.. وذلك أن طلب العلم ونشره يحتاج فيما يحتاج إليه إلى تفرغٍ وجهادٍ بالنفس والنفيـ
كما سبق أن رأينا، وذلك يتعذَّر كثيرًا على من لم يُكْفَوا مئونة العيش وهم كُثُر، وقد قاـ
الشاعر[1]:

بِالعِلمِ وَالمـالِ يَـبني النـاسُ مُلكَهُـمُ   لَمْ يُبْنَ مُلكٌ عَلـى جَهْـلٍ وَإِقـلالِ

والمجتمع المسلم قبل كل شيء مجتمعٌ متكافلٌ ومترابط، ومتممٌ بعضه بعضًا، وما مـ
شريحة من شرائحه إلا وهي تقوم بدورٍ فاعلٍ فيه، وتسد ثغرة من الثغرات المهمة التي لا
يمكن إغفالها، والتقصير في أي دور من تلك الأدوار يؤدي بالضرورة إلى إحداث خـ
وأضرار وتأثيرات سلبية على المجتمع الإسلامي ككل!!

وعليه فإن مساعدة رجال الاقتصاد والثروة لإخوانهم من العلماء وطلاب العلـ
وعملهم على سد تلك الثغرة الحيوية والمهمة في المجتمع، والتي كثيرًا جدًّا ما تحتاج لـ
الإنفاق عليها، من شأنه أن يعمل على قيام حياة علمية متقدمة، ومن شأنه أن يُيسِّر ويتيح
للعلماء القيام بواجبهم في نشر العلم، ونفع الناس، وهدايتهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في
الدين والدنيا.

فهذا العالم المجاهد التاجر، الذي اشتغل بالتجارة لأجل الإنفاق على العلماء وطلاب
العلم، عبد الله بن المبارك – رحمه الله-، يقول: «إني أعرف مكان قوم لهم فضلٌ وصدق
طلبوا الحديث فأحسنوا الطلب للحديث، وحاجة الناس إليهم شديدة وقد احتاجوا، فإن
تركناهم ضاع علمهم، وإن أغنيناهم نشروا العلم لأمة محمد ﷺ، ولا أعلم بعد النبوة درجة
أفضل من بَثِّ العلم»[2]!!

وقد قال له الفضيل بن عياض يومًا: «أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبلغة ونراك تأتي
بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام؟ كيف ذا وأنت تأمرنا بخلاف ذا» فرد عليه ابن
المبارك وقال: «يا أبا علي، إنما أفعل ذا لأصون بها وجهي، وأكرم به عرضي، وأستعين به
على طاعة ربي، لا أرى لله حقًّا إلا سـارعت إليه حتى أقوم به». فقال لـه الفضيل:

(١) هو أحمد شوقي (١٢٨٥ - ١٣٥١هـ/ ١٨٦٨ - ١٩٣٢م) أشهر شعراء العصر الأخير، يلقب بأمير الشعراء
مولده ووفاته بالقاهرة. انظر الأعلام ١/ ١٣٦ .

(٢) المزي: تهذيب الكمال ١٦/ ١٩، ٢٠ - ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٢/ ٤٥٥ .

يبن المبارك، ما أحسن ذا إن تم ذا»[1].

ويحكي الذهبي عن ابن المبارك أيضًا فيقول: بلغنا أنه قال للفضيل بن عياض: «لولاك وأصحابك ما اتجرت»[2]!!

وذكر ابن حجر أن ابن المبارك كان يتجر ويقول: لولا خمسة ما اتجرت: السفيانان (يعني العالمين الكبيرين والمحدِّثين العظيمين: سفيان الثوري وسفيان بن عيينة رحمهما الله)، والفضيل، وابن السماك، وابن علية؛ فيصلهم[3].

وقال علي بن خَشْرم: قلت لعيسى بن يونس: كيف فَضَلَكُم ابن المبارك ولم يكن بأسن منكم؟ قال: كان يقدم ومعه الغِلْمة الخرسانية، والبزَّة الحسنة، فيَصِل العلماء، ويعطيهم..[4].

وكان من ذلك ما يحكيه جعفر بن عبد الله الوراق حيث قال: قدِم ابن المبارك الكوفة ومعه مال، فقسمه، فصرَّ صُررًا، فجعل يوجه إلى كل شيخ بصُرَّة[5]!!

وهكذا كان حال التاجر المسلم في عصره، عبد الله بن المبارك، مع العلماء وطلاب العلم؛ يكفلهم بالمال، ويغنيهم عن ذل السؤال، ويعينهم على مئونة العيش؛ ليتفرغوا هم للعلم ونشره، ونفع الناس به.. وذلك كله رغم ما أُثر عنه من علمه هو وجهاده في سبيل الله!!

وغير ابن المبارك كان هناك أيضًا دعلج بن أحمد (ت ٣٥١هـ)؛ إذ كان ضمن منظومة من له صدقات جارية على العلماء والمحدِّثين!!

قال الخطيب البغدادي في ذلك ما مؤداه: كان من ذوي اليسار، مشهورًا بالبر، له صدقات جارية ووقوف على أهل الحديث ببغداد ومكة وسجستان. (أي جعل لهم قدرًا كبيرًا من المال موقوفًا عليهم، لا ينفق منه على وجه آخر من وجوه الخير)، وزاد ابن ناصر الدين عن الحاكم: لم يكن في الدنيا أيسر منه[6].

وقال الذهبي: قال الحاكم: «دعلج الفقيه... له صدقات جارية على أهل الحديث بمكة

---

(١) المصدران السابقان: الصفحات نفسها. (٢) انظر سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٨٦.

(٣) انظر تهذيب التهذيب ١/ ٢٤٢ - وتاريخ بغداد ٦/ ٢٣٥.

(٤) انظر الذهبي: تاريخ الإسلام ١/ ١٣٨٥. (٥) انظر تاريخ دمشق ٣٢/ ٤٥٧.

(٦) انظر تاريخ بغداد ٤/ ٤٢ - الأعلام ٢/ ٣٤٠.

وببغداد وسجستان»[1]!!

ومثل ذلك الصنيع إذا قام به رجال الاقتصاد والثروة في مجتمعنا، وكان لهم اهتمام خاص بالمؤسسات والمراكز العلمية الناجحة - وهناك الكثيرون ممن يقومون بذلك بفضل الله - من شأنه أن يعمل على خلق جو علمي عام، ينشأ فيه العلماء ويكثرون، ويدفعهم ذلك إلى إتمام مسيرتهم واستكمال طريقهم نحو تقدم الأمة ورفع الحرج عنها في كل المجالات العلمية المختلفة..

ونستطيع هنا أن نُشيد ببعض مؤسسات رجال الاقتصاد والثروة في عصرنا الحاضر والذين بات لهم دورٌ بارزٌ في هذا المجال.. فنذكر على سبيل المثال لا الحصر **مؤسسة سعيد هائل الخيرية**، كمثال حضاري إيجابي..

فهي مؤسسة علمية ثقافية تأسست في عام ١٩٩٦م بقرار من مجموعة هائل سعيد أنعم وشركاه؛ تكريمًا لذكرى هائل سعيد أنعم – رحمه الله – ؛ لما قدمه من خدمات لمجتمعه في الميدان التنموي بصورة عامة، وفي المجال الخيري بصورة خاصة، انطلاقًا من حسّه الإسلامي وتجسيدًا لأمانيه في تطوير العلوم والثقافة والتكنولوجيا في بلاده اليمن.

وتهدف المؤسسة إلى الآتي:

- الإسهام في تطوير جيل من العلماء والخبراء والمتخصصين اليمنيين في ميادين العلوم الطبيعية الأساسية والتطبيقية والتقنية والتنموية.
- إنشاء مركز للبحث العلمي.
- الإسهام في تطوير قطاعات الإنتاج الوطني وقطاع الزراعة على الخصوص والنهوض بها وتحديثها بزيادة البحوث والتجارب العلمية والعملية.
- تنظيم المسابقات للعلماء والمبدعين لتشجيعهم على البحث العلمي والأعمال الإبداعية وعلى إجراءات علمية مبتكرة أو متطورة وتقديم جوائز للبحوث والابتكارات للفائزين.

وتنتهج المؤسسة أساليب علمية وعملية لتنفيذ أهدافها، وهي تنظيم الندوات والمحاضرات وورش العمل والمؤتمرات العلمية، وكذلك تنمية العلاقات بين المؤسسة ومؤسسات البحث العلمي داخل اليمن وخارجها لتحقيق الأهداف المشتركة، وإبراز عملية الإبداع العلمي والفكري والأدبي

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣١.

وضمان تقدير العلماء والأدباء والكتاب ورجال الفكر ونوابغ الباحثين الذين يسهمون في بناء الوطن وحضارته، وتشجيع البحث الأدبي والنقدي والمعرفي.

وتتوزع مجالات منح الجائزة في الوقت الراهن فيما يلي:

- جائزة العلوم الطبية.
- جائزة العلوم الإنسانية والاجتماعية.
- جائزة العلوم الإسلامية.
- جائزة الإبداع الأدبي.
- جائزة العلوم البيئية والزراعية.
- جائزة العلوم الاقتصادية.

وتمنح هذه الجوائز في اليوم السابع والعشرين من شهر إبريل من كل عام في ذكرى وفاة السيد/ هائل سعيد أنعم[1].

وفيما يخص البحث العلمي؛ فقد تم إنشاء صندوق السعيد لدعم البحث العلمي بقرار من مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة تكريمًا لذكرى السيد/ هائل سعيد أنعم، ولتحقيق المقاصد والأهداف التالية:

١- دعم البحث العلمي وتشجيعه في الجامعات والمؤسسات والمراكز العلمية المتخصصة في اليمن، وذلك من خلال:

- دعم البحوث العلمية الأصيلة للباحثين والمتخصصين والأكاديميين في الجامعات والمؤسسات والمراكز التعليمية المؤهلة.
- تشجيع الباحثين والمتخصصين والأكاديميين في الجامعات والمؤسسات والمراكز العلمية اليمنية على إجراء بحوث علمية مبتكرة، ثم تصميمها بعناية مع مؤسسات البحث العلمي الراقية، المحلي منها والعربي والدولي.
- دعم البحوث العلمية عن طريق المنح أو التعاقد مع الصندوق في مجالات معينة من

(١) جائزة السيد/ هائل سعيد أنعم للعلوم والآداب، الدورة الثانية عن عام ١٩٩٨م (كتاب توثيقي) ص ٤ .

العلوم الأساسية والتطبيقية والتكنولوجية ذات الأولوية للصندوق والمؤسسة.

- التطوير المشترك للتكنولوجيات الناشئة التي من شأنها الإسهام في تطوير الاقتصاد اليمني

٢- المشاركة في دعم المؤتمرات المتخصصة والندوات وورش العمل العلمية التي تتوافق وأهداف المؤسسة.

٣- المشاركة في تنمية إمكانات مكتبة السعيد من كتب ومراجع ونصوص إلكترونية في العلوم الأساسية والتطبيقية والتكنولوجية.

٤- العمل على نشر نتائج البحوث العلمية ووقائع المؤتمرات والندوات وورش العمل التي تقيمها الجامعات ومؤسسات ومراكز البحث العلمية التخصصية والتي تتفق وأهداف المؤسسة.

٥- إقامة وتعزيز الصلات بين مراكز ومؤسسات البحث العلمي محليًا وعربيًا ودوليًا.

ويدير الصندوق لجنة خاصة مؤلفة من رئيس ونائب رئيس وخمسة أعضاء يختارهم مجلس إدارة مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة من ذوي الكفاءة العالية، ومن أصحاب التخصصات والخبرات العلمية المختلفة ولمدة ثلاث سنوات[1].

ومثل هذه المؤسسة هناك مؤسسات أخرى كثيرة تقوم بمثل هذا الدور، وهي - ولله الحمد - في ازدياد وتطور مستمر، وإنا لنأمل في أن يقوم خيِّرون من هذه الأمة ذوو ثروة بتخصيص أموال بعينها للبحث العلمي، مضارعة بنوبل السويدي، صاحب ومؤسس الجائزة المشهورة على الأبحاث العلمية الممتازة.

ويهمنا بعد أن نقرر أن كل هذه العوامل التي ذكرناها في سبيل تنشئة العلماء لا شك أنها تساعد كثيرًا في إنتاج وإخراج علماء متميزين، لكن الحقيقة التي لا يمكن إغفالها هي أن العامل الرئيسي هو الرغبة الداخلية والإرادة الحقيقية في نفس الطفل، أو الشاب، أو الرجل، أو المرأة في أن يصبح عالمًا متميزًا، فهذا هو الأساس والمعوَّل عليه، ومن دون ذلك تضيع كل الجهود المذكورة هباءً منثورًا.. ونسأل الله أن يُعِزَّ الإسلام والمسلمين.

***

---

(١) الموقع الرسمي لمؤسسة السعيد للعلوم والثقافة على شبكة الإنترنت، الرابط http://www.al-saeed.net/index.php

الباب الثالث

دور العلم في بناء الحضارات

(أَمْثِلَةٌ تَطْبِيقِيَّةٌ)

لئلاَّ يكون الحديث محض تسلية أو تنفيس، وفي سبيل طرق ميدان العمل وترك ميدان القول.. وحتى نخرج من طور النظرية إلى طور العملية والتطبيق..

وفي واحدة مما يمكننا من خلالها غرس الأمل وإيقاظه في النفوس..

فهذه أمثلة ونماذج واقعية، نعرضها في فصولٍ ثلاثة:

الفصل الأول: وفيه نماذج من تاريخ الحضارات القديمة التي اهتمت بالعلم؛ فسادت العالم قرونًا طويلة.

الفصل الثاني: ونذكر فيه نماذج من الحضارة الإسلامية، أخذت بأسباب العلم، فارتقى بها في مدارج السماء؛ لتصبح شعلة تضيء سماء الإنسانية، وتبدد ظلام القرون الوسطى!!

الفصل الثالث: وفيه نماذج من الواقع المعاصر، في صورة دول؛ اهتمت بالعلم؛ فصارت قوى عظمى، يخطب الجميع ودَّها، ويلجئون إليها لطلب العلم والحضارة والمدنية.



الفصل الأول

دور العلم في بناء الحضارات القديمة

ويضم هذا الفصل المباحث التالية:

المبحث الأول: دور العلم في بناء الحضارة الصينية.

المبحث الثاني: دور العلم في بناء الحضارة الرومانية.

المبحث الثالث: دور العلم في بناء الحضارة الفارسية.

المبحث الرابع: دور العلم في بناء الحضارة الهندية.

المبحث الخامس: دور العلم في بناء الحضارة المصرية.

المبحث السادس: دور العلم في بناء الحضارة اليونانية.

***

المبحث الأول
دور العلم في بناء الحضارة الصينية

كان للحضارة الصينية منجزات عظيمة في مجال العلوم والصناعة والطب والفلك
ـ ـعمار؛ ففي مجال العلوم كتب الصينيون عن الخسوف وعن مجموعات من النجوم كما
ـ ـدوا ملاحظاتٍ على الضوء، وعلى المرايا بأنواعها: المقعَّرة والمحدَّبة والمستوية، كما أدركوا
ـــبة الصحيحة في النحاس والقصدير.

وتذكر كتب التاريخ فضل أسرة (سونج ٩٦٠- ١٢٧٩م) في النهضة العلمية بالصين
ـعميمة؛ حيث حَفِلَت فترة سونج بالعديد من الاختراعات، ونشأت في عام ١١٠٠م مصانع
حديد والصلب العملاقة والتي أنتجت حوالي ١٥٠ ألف طن من الحديد والصلب. وأنتج
ـصينيون عام ١٠٧٨م من الصلب ما يعادل ما أنتجته إنجلترا في بداية الثورة الصناعية في
ـقرن الثامن عشر. وكانت الدولة تكافئ المخترعين على اختراعاتهم.

ومن أهم الاختراعات التي قام بها الصينيون:

الطباعة، واختراع الورق:

صنع الصينيون حوالي (١٠٥م) الورق من قشر الشجر والقِنَّب والخرق، وقد كانوا قبله
ـكتبون على الخيزران والحرير.

وقد حوت المتاحف وقتئذٍ مجموعاتٍ موحيةً من النقوش الفنية على البرونز وأحجار
ـشب[1]، ومن الصور الزيتية والمخطوطات؛ وأُنشِئَت في البلاد دور الكتب التي بقي بعضها
ـ أن زالت أمجاد الحروب، وكانت كلتا العاصمتين الشمالية والجنوبية من أهم مراكز العلم
ـ ـسيا.

وقد دخلت الطباعة في أيام أسرة سونج فأحدثت في حياة الصين الأدبية ثورة كاملة وإن
ـدرك الناس - حينها - مداها، وكان هذا الفن قد نما شيئًا فشيئًا خلال القرون الطوال حتى
ـ ـوْجَه في أيام تلك الأسرة، فأتم مرحلتيه الكبيرتين؛ إذ صُنِعَت الألواح المحفورة لتُطبَع

ـوع من الأحجار الكريمة، كانت تستخدم للكتابة عليها.

عليها صفحاتٌ كاملة، وصُفَّت الحروفُ المفكَّكة المفرَدة من المعادن المجموعة في القوالب
وكان هذا الاختراع الصيني الخالص أعظم اختراع في تاريخ الجنس البشري بعد الكتابة[1].

وكانت الخطوة الأولى في هذا الاختراع العظيم هي كشف مادة تكون الكتابة عليها أسهل منها على الحرير أو الغاب اللذين قنع بهما الصينيون؛ ذلك أن الحرير غالي الثمن والغاب ثقيل، وكانوا يحتاجون إلى ثلاث عربات نقل يحمل عليها الكتب المدونة على شرائح الغاب التي كانت أثمن ما يملكون من متاع الدنيا آنذاك.

وكان اختراع الحبر أيضًا في بلاد الشرق. نعم إن المصريين قد صنعوا الورق والحبر في العهد الذي نستطيع أن نسميه أقدم العهود، ولكن الصين هي التي أخذت عنها أوروبا طريقة خلط الحبر بسناج المصابيح. ولقد كان «الحبر الهندي» صيني الأصل، وكذلك كان الحبر الأحمر المصنوع من كبريتور الزئبق[2] شائع الاستعمال في الصين من أيام أسرة (هان). فلمّا ظهر الحبر الأسود في القرن الرابع الميلادي أصبح استعمال الحبر الأحمر ميزة خاصة بالأباطرة[3]. وكان اختراع الحبر الأسود من العوامل المشجعة على انتشار الطباعة؛ لأنه كان أصلح المواد للاستعمال في القوالب الخشبية، ويمتاز بأن الكتابة به لا تكاد تُمحَى مطلقًا؛ فلقد وُجِدَت أكداسٌ من الورق في آسيا الوسطى ظلت تحت الماء حتى عطنت، ولكن ما عليها من الكتابة ظلَّ واضحًا تُستَطَاع قراءتُه[4].

وكان استخدام الأختام في مهر الأوراق هو البداية غير المقصودة التي نشأت عنها الطباعة. ولا يزال اللفظ الصيني الذي يطلق على الطباعة هو نفسه الذي يطلق على الخاتم، وكانت الأختام الصينية تطبع في بادئ الأمر على الطين كما كانت تُطبَع عليه في بلاد الشرق الأدنى، ثم أخذوا في القرن الخامس الميلادي يُنَدُّونها بالحبر، وفي هذه الأثناء كانت أمهات الكتب الصينية القديمة تُحفَر على الحجر في القرن الثامن بعد الميلاد، وسرعان ما نشأت بعدئِذٍ عادةُ استخراج صورٍ من هذه النقوش المحفورة بعد طلائها بالحبر. وفي القرن السادس نجد الدَّوِّين يستعملون أختامًا من الخشب لطبع الرُّقى السحرية، وبعد مائة عام من ذلك الوقت أخذ المبشرون البوذيون يُجرُون التجارب بقصد استخراج عدَّة نسخ مطبوعة باستخدام أختام وألواح وورق نضّاح وطباعة على

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٤ صـ ١٥١ وما بعدها.
(٢) المادة الخام التي يستخرج منها الزئبق.
(٣) ول ديورانت : قصة الحضارة ٢/ ٤ ص١٥٦.
(٤) السابق :ص ١٥٧

نسوجات، وقد أخذوا هذا النوع الأخير عن الهنود، وأقدم ما وصل إلينا من الطباعة على لوح محفور ألف ألف رُقْيَة سحرية طُبِعَت في اليابان حوالي عام (٧٧٠م) مكتوبةً باللغة السنسكريتية بحروف صينية، فهي بذلك مثل طيب لتفاعل الحضارات في بلاد آسيا. وطبعت أشياء أخرى كثيرة من القوالب (الكليشهات) في أيام أسرة تانج، ولكن يلُوحُ أنها قد تلفت أو فُقِدَت في أثناء الفوضى والقلاقل التي أعقبت عهد (منج هوانج).

وقد كان الباعث الأول على اختراع الطباعة في بلاد الصين باعثًا دينيًّا، كما كانت الحال في أوروبا في العصور الوسطى المتأخرة، وكما هي الحال بين بعض الشعوب البدائية في الوقت الحاضر؛ ذلك أن الأديان في ذلك الزمن القديم كانت تسعى لنشر عقائدها عن طريق العين وعن طريق الأذن معًا، ولجعل صلواتها ورقاها وأقاصيصها في متناول كل إنسان.

لقد كان الصينيون أقدر على الاختراع منهم على الانتفاع بما يخترعون؛ فقد اخترعوا البارود في أيام أسرة (تانج)، ولكنهم قصروا استعماله وقتئذٍ على الألعاب النارية، ولم يستخدموه في صنع القنابل اليدوية وفي الحروب إلا في عهد أسرة سونج (عام ١١٦١م).

وقد عرف المسلمون ملح البارود (نترات البوتاسا) - وهو أهم مركبات البارود - في أثناء اتِّجارهم مع الصين وسمُّوه (الثلج الصيني)، ونقلوا سِرَّ صناعة البارود إلى البلاد الغربية، واستخدمه المسلمون في إسبانيا في الأغراض الحربية، ولعلَّ سير روجر بيكين - أول من ذكره من الأوروبيين - قد عرفه من دراسته لعلوم المسلمين، أو من اتصاله بـ (ده- روكي) الرَّحالة الذي طاف في أواسط آسيا.

والبوصلة البحرية أقدم عهدًا من البارود، وإذا جازفنا بأن نصدِّق ما يقوله عنها المؤرِّخون الصينيون فإن دوق جو قد اخترعها في عهد الإمبراطور تشنج وانج (١١١٥- ١٠٧٨ ق.م) ليهتدي بها بعض السفراء الأجانب في عودتهم إلى بلادهم. ويقول الرواة: إن الدوق أهدى إلى السفارة خمس عربات جهزت كل منها «بإبرة تشير إلى الجنوب». وأكبر الظن أن الصينيين الأقدمين كانوا يعرفون ما لحجر المغناطيس من خواصّ مغناطيسية، ولكن استعماله كان مقصورًا على تحديد الاتجاهات في بناء الهياكل، وقد ورد وصف الإبرة المغناطيسية في (السونج- شو) وهو كتاب تاريخي مؤلَّف في القرن الخامس الميلادي، ويقول

المؤلِّف: إنَّ مخترعَها هو الفلكي جانج هنج (في عام ١٣٩م)[١]، على أن هذا العالِم لم يفعل إلا من أن يكشف من جديد ما كانت الصين تعرفه قبل أيامه. وأقدم ما ورد عن الإبرة من حيث فائدتها للملاحين هو ما جاء في كتاب أُلِّف في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي وهو يعزو استخدامها في هذا الغرض إلى البحارة الأجانب- وأكبر الظن أنهم من المسلمين - الذين كانوا يُسيِّرون سفنهم بين سومطرة وكانتون[٢].

وكان الصينيون من أوائل الأمم التي اتخذت الفحم وقودًا واستخرجوه من الأرض بكميات قليلة منذ عام ١٢٢ ق.م.

وأنتجت الحضارة الصينية كذلك كتبًا من أرقى الكتب الدراسية في الزراعة، وفي تربية دود القز قبل ميلاد المسيح بقرنين كاملين، وأُلِّفت رسالاتٌ قيِّمة في علم تقويم البلدان. وقد خلَّف عالمها الرياضي المعمَّر جانج تسانج (المتوفى في عام ١٥٢ق.م) وراءه كتابًا في الجبر والهندسة فيه أول إشارة معروفة للكميات السالبة، وقد حسب (دزو تسو تشونج- حوالي) القيمة الصحيحة للنسبة التقريبية إلى ثلاثة أرقام عشرية، وحسَّن المغناطيس أو «الأداة التي تشير إلى الجنوب»، وقد وردت عنه إشارة غير واضحة قيل فيها: إنه كان يجري التجارب على سفينة تتحرك بنفسها. واخترع تشانج هنج آلة لتسجيل الزلازل (سيمسغرافا) في عام ١٣٢م[٣].

الرياضيات:

وأكبر الظن أن علماء الرياضة الصينين قد أخذوا الجبر عن علماء الهند، ولكنهم هم الذين أنشأوا علم الهندسة في بلادهم مدفوعين إلى هذا بحاجتهم إلى قياس الأرض [انظر صورة رقم ٢]، وكان في وُسْعِ الفلكيين في أيام (كونفوشيوس) أن يتنبَّأوا بالخسوف والكسوف تنبُّؤًا



صورة رقم ٢
سور الصين العظيم

---
(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٤ ص٢٥١.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٤ صـ ٢٥٢

ـقيقًا، وأن يضعوا أساس التقويم الصيني بتقسيم اليوم إلى اثنتي عشرةَ ساعةً، وتقسيم السنة إلى اثني عشر شهرًا يبدأ كل منها بظهور الهلال، وكانوا يضيفون شهرًا آخر في كل بضع سنين حتى يتفق التقويم القمري مع الفصول الشمسية.

الطب:

وكان الطب في الصين خليطًا من الحكمة التجريبية والخرافات الشعبية، وكانت بدايته في قبل التاريخ المدوَّن، ونبغ فيه أطباء عظماء قبل عهد أبقراط بزمن طويل، وكانت الدولة في أيام أسرة (جو) تعقد امتحانًا سنويًا للذين يريدون الاشتغال بالمهن الطبية، وتُحدَّد مرتبات الناجحين منهم في الامتحان حسب ما يظهرون من جدارة في الاختبارات، وقد أمر حاكمٌ صينيٌّ في القرن الرابع قبل الميلاد أن تُشرَّح جثثُ أربعين من المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام، وأن تُدرَس أجسامُهم دراسةً تشريحيةً، ولكن نتائج هذا التشريح وهذه الدراسة قد ضاعت وسط النقاش النظري، ولم تستمر عمليات التشريح فيما بعد[1].

وكتب (جانج جونج- تنج) في القرن الثاني عدَّة رسائل في التغذية والحِميَات (الريجيم) ظلت هي النصوص المعمول بها مدى ألف عام، وكتب (هوا- دو) في القرن الثالث كتابًا في الجراحة، وأشاع العمليات الجراحية باختراع نبيذٍ يخدِّر المريض تخديرًا تامًّا. ومن إهمال المؤرِّخين أن ضاعت أوصاف هذا المخدِّر فيما بعد، ولم يُعرَف عنها شيءٌ[2].

وفي أوائل القرن السادس كتب داو هونج- جنج وصفًا شاملاً لسبعمائة وثلاثين عقارًا كان يستخدم في الأدوية الصينية، وبعد مائة عام من ذلك الوقت كتب جاو يوان- فانج كتابًا قيمًا في أمراض النساء والأطفال ظل من المراجع المهمة زمنًا طويلاً. وكثرت دوائر المعارف الطبية في أيام أباطرة أسرة تانج كما كثرت الرسائل الطبية المتخصصة التي تبحث كل منها في موضوع واحد في عهد الملوك من أسرة سونج، وأُنشِئَت في أيام هذه الأسرة كُلِّية طبية؛ وإن ظل طريق التعليم الطبي هو التمرين والممارسة.

وكانت العقاقير الطبية كثيرة متنوعة حتى لقد كان أحد مخازن الأدوية منذ ثلاثمائة عام يبيع منها بنحو ألف ريال في اليوم الواحد. وكان الأطباء يطنبون في تشخيص الأمراض؛ فقد

---

(١) ول ديورانت – قصة الحضارة ٢٥٣

(٢) المصدر السابق ٢٥٤

ميَّزوا من أنواع النبض أربعًا وعشرين حالة، واستخدموا اللقاح في معالجة الجدري، وقد كانوا لم يستخدموا التطعيم للوقاية منه، ولعلَّهم قد أخذوا هذا عن الهند، ووصفوا الزئبق للعلاج من الزهري. ويلوح أن هذا المرض الأخير قد ظهر في الصين في أواخر أيام أسرة (منج)، وأنه انتشر انتشارًا مروعًا بين الأهلين، وأنه بعد زواله قد خلَّف وراءه حصانة نسبية تقيهم أشد عواقبه خطورة.

ولم يتقدم علم الطب تقدمًا يستحق الذكر من أيام (شي هوانج- دي) إلى أيام الملك الوالدة، ولعلَّ في وسعنا أن نقول هذا القول بعينه عن علم الطب في أوروبا من عهد أبقراط إلى عهد باستير. وغزا الطب الأوروبي بلاد الصين في صحبة المسيحية، ولكن المرضى الصينيين من الطبقات الدُّنيا ظلوا إلى أيامنا هذه يقصرون الانتفاع به على الجراحة، أمَّا في عداها فهم يفضِّلون أطباءهم وأعشابهم القديمة على الأطباء الأوروبيين والعقاقير الأوروبية[1].

***

(١) ول ديورانت: مصدر سابق ٢٥٥.

المبحث الثاني
دور العلم في بناء الحضارة الرومانية

تعد الحضارة الرومانية من أعظم حضارات أوروبا بعد الحضارة اليونانية، ولم يكن لحضارة أن تقوم، وتتقدم بذلك القدر دون أن يكون فيها من العلماء، والحريصين على نهضتها وتقدمها من يقودها إلى ذُرَى ذلك المجد والعظمة، وكان هؤلاء هم علماء الحضارة الرومانية، ولكن تناولهم للعلم يعتمد على تجارب علمائهم الشخصية، أو النقل عن الحضارات المجاورة لهم .

فنجد مثلاً أن دراسة الجغرافيا كانت لديهم أكثر واقعية، وكان الغرض منها أن يُستَعان به على الملاحة، وقد نشر بمبنيوس ميلا (Pomponius Mela ٤٣م) خرائط قسَّم فيها سطح الأرض إلى منطقة حارة في الوسط، ومنطقتين معتدلتين شمالية وجنوبية، وكان جغرافيون الرومان يعرفون أوروبا وشمالي آسيا الغربية، وشماليها الشرقي، أما سائر أجزاء العالم فكانت لديهم عنها أفكار غامضة، وأقاصيص خرافية غريبة. وقد وصلت السفن الإسبانية والأفريقية الصغيرة إلى جزائر ماديرا Madeira وكناريا أو الخالدات (Canary).

وكان أكبر المنتجات العلمية الإيطالية، وأكثرها دلالة على الجد في ذات الوقت كتاب التاريخ الطبيعي Historia Naturalis الذي وضعه كيوس بلنيوس سكندس Caius Plinius Secondus، وقد قضى كيوس حياته كلها تقريبًا جنديًا، ومحاميًا، ورحّالة، وحاكمًا، وقائدًا للأسطول الروماني في غربي البحر المتوسط، ولكنَّه رغم هذه المشاغل كلِّها ألَّف رسائل في الخطابة، والنحو، والحرب، وكتب تاريخًا لروما، وتاريخًا آخر لحروب روما في ألمانيا، وسبعة وثلاثين «كتابًا» في التاريخ الطبيعي هي كل ما بقي من هذا الفيض العظيم من المؤلفات.

وكتابه هذا في جملته وتفصيله دائرة معارف كتبها رجل واحد، وجمع فيها خلاصة علم زمنه وأخطائه. وفي ذلك يقول: «إن الغرض الذي أرمي إليه هو أن أعرض وصفًا عامًّا لكل ما نعرف أنه موجود على سطح الأرض»، فهو يبحث في عشرين ألف موضوع، ويعتذر عما تركه من الموضوعات الأخرى، ويشير في هذا الكتاب إلى ألفي مجلد كتبها ٤٧٣ مؤلفًا، ويعترف بدَيْنِه إلى من رجع إليهم من الكتّاب ويذكر أسماءهم جميعًا بصراحة لا نظير لها في

الأدب القديم، ويشير عرضًا إلى أنه وجد أن كثيرًا مـن المـؤلفين نقلـوا أقـوال مـن سـبقوهـ
بنصها دون أن يعترفوا بهذا النقل[1].

الطب عند الرومان:

أمّا الطب فقد أخذوه عن اليونان، ولكنَّهم أحسـنوا صـياغته، وتنظيمـه، وطبّقـوه عـ
الصحة العامة والخاصة، ولقد كانت روما تحيط بها من جميع جهاتها تقريبًا مستنقعات واسـ
وكانت معرضة للفيضانات الوبائية، فكانت بذلك في أشد الحاجة إلى العناية بالصحة العـ
فنحن نسمع أنَّ الملاريا كانـت منـتشرة في رومـا في القـرن الثـاني قبـل المـيلاد، وأن بعوضـ
الأنوفيل كانت في ذلـك الوقـت مسـتقرة في منـاقع بنتـين (Pontine)، وانـتشر داء النقـرـ
بانتشار الترف، وتدل بعض الفقرات في كتابات الهجـائين الرومـان عـلى ظهـور الزهـري ـ
القرن الأول بعد الميلاد، واجتاحت الأوبئـة الفتاكـة إيطاليـا الوسـطى في عـام ٢٣ ق.م وـ
أعوام ٩٥، ٧٩، ١٦٦ ميلادية[2].

وكان النـاس مـن أقـدم الأزمنـة يحـاولون التغلـب عـلى المـرض والطـاعون بالسـحـ
والصلوات، وكـانوا يحملـون مرضـاهم وقـرابينهم إلى هيكـل إيسـكلبيوس Aesculapius
ومنيرفا، وكان الكثيرون منهم يتركون فيهما الهدايا شكرًا على نعمة الشفاء. فلمّا أن حلَّ القرـ
الأول قبل الميلاد أخذت عنايتهم بالطب الحقيقي تزداد شيئًا فشيئًا، ولم تكن الدولـة في ذـ
الوقت قد وضعت نظامًا لممارسة مهنـة الطـب، فكـان الحـذّاءون، والحلاقـون، والنجـارو
يمارسونه مع مهنهم الأصلية إذا شاءوا، ويستعينون بالسحر، ويخلطون عقـاقيرهم بأنفسـهـ
ويبيعونها للناس.

وفُتِحَت في عهد فسبازيان مُستَمَعات Auditoria لتعليم الطب يتولّى التعليمَ فيها أساتـ
تعترف بهم الدولة وتؤدّي إليهم رواتبهم، وكانت اللغة اليونانية لغة التعليم في هـذه المعاهـ
كما أنَّ اللغة اللاتينية هي اللغة التي تُكتَبُ بها تذاكرُ الدواء في هذه الأيام. وكـان يُطلَـق عـ
خريجي هذه المعاهد اسم: أطباء الجمهورية، وكانوا هم وحـدهم الـذين يسـتطيعون ممارسـة
الطب بصفة قانونية في روما بعد عهد فسبازيان. ونصَّ في قانون أكوليا Les Aquilia على ـ

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٥/ ٢ ص ١٨٦ وما بعدها.

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ٥/ ٢ صـ ١٩٤.

شرف الدولة على الأطباء، كما نص فيه على وجوب تحملهم تبعة إهمالهم. وكان قانون كرنليا Les Cornelia يفرض أشد العقوبات على من يتسببون في موت المرضى بسبب إهمالهم أو حمقهم الناشئ من جهلهم بأعمالهم. ومع هذا فإن الدَّجّالين ظلوا يمارسون دجلهم، ولكن عدد الأطباء المتعلمين ظلّ يزداد شيئًا فشيئًا[1].

وقد وصل الطب العسكري في عام (١٠٠م) إلى أرقى ما وصل إليه في الزمن القديم؛ فكان في كل فيلق أربعة وعشرون جراحًا، كما كان له هيئة للإسعاف الأولي ونقالات ميدان منظمة أحسن تنظيم، وكانت الدولة تعين الأطباء لمعالجة الفقراء مجانًا وتؤدي لهم أجورهم، أما الأغنياء فكان لهم أطباؤهم الخصوصيون وكان «رؤساء الأطباء Archiarti» يُعنون بالإمبراطور وأسرته، وخدمه وأعوانه، وتُؤدى لهم على ذلك أجور طيبة، وكانت بعض الأسر تتعاقد أحيانًا مع بعض الأطباء على أن يعنوا بصحتها ويداووها من أمراضها مدة معينة[2].

وبلغت مهنة الطب في ذلك الوقت درجة عظيمة من التخصص، فكان في البلاد أخصائيون في المسالك البولية، وفي أمراض النساء، وكان فيها أطباء مولِّدون، وأطباء رمد، وأخصائيون في أمراض العين والأذن، وأطباء بيطريون، وجراحو أسنان، وكان في وسع الرومان أن تكون لهم أسنان صناعية من ذهب، وأسنان مرتبطة بأسلاك، وكباري وأسنان ذات قشرة ذهبية، كما كان لديهم عدد كبير من الطبيبات، وقد كتبت الكثيرات منهنَّ كتبًا في الإجهاض كانت واسعة الانتشار بين سيدات الطبقات الراقية، وكان الجراحون يتخصصون في فروع الجراحة المختلفة، وقلَّما كان يوجد جراح غير متخصص في فرع خاص. وكان الأتروبين يُستَعمَل في التخدير، وقد وُجِدَ في خرائب مدينة (بمبي) أكثر من مائتي أداة جراحية مختلفة. وكان تشريح جثث الآدميين عملاً غير مشروع، ولكنهم كانوا يستعيضون عن ذلك بفحص عن أجسام المجروحين أو المحتَضَرِين.

وكان العلاج بمياه العيون واسع الانتشار، وكانت العيون الحارة الكبرى معاهد للعلاج والاستشفاء. وقد جمع شارميس Charmis المرسيلي ثروة طائلة بإدارة حمامات باردة. وكان

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٩٥.

(٢) السابق ١٩٦.

المصابون بالسل يرسلون إلى مصر أو شمالي أفريقية، على حين كان الكبريت يُستخدَم لعلاج الأمراض الجلدية، ولتبخير الحجرات بعد انتشار الأمراض المعدية. وكانت العقاقير آخر ما يلجأ إليه الناس من وسائل العلاج، ولكنهم كانوا يلجأون إليها في كثير من الحالات، وكان الأطباء يصنعونها بأنفسهم بطرق يحتفظون بسريتها، ولا يطلعون الجماهير عليها، ويبيعونها بأغلى الأثمان التي يطيقها المرضى[1].

وليس بين الكتّاب المعروفين في علم الطب في هذا العهد كاتب من أصل روماني إلا واحدًا فقط، وحتى هذا الكاتب لم يكن طبيبًا. لقد كان أورليوس كرنليوس سلسس Aurelius Cornelius Celsus من أبناء الأشراف، جمع حوالي عام ٥٠م في دائرة المعارف كل ما درسه عن الزراعة، والحرب، والخطابة، والقانون، والفلسفة، والطب. وقد ضاع كل ما كتبه إلا القَسَم الخاص بالطب، ويُعَدُّ كتابُه في هذا العلم أعظمَ مؤلَّفٍ وصل إلينا من القرون التي المحصورة بين أبقراط وجالينوس، ويمتاز فوق هذا بأنه كُتِبَ بلغةٍ لاتينية فصحى نقية، لُقب سلسس من أجلها بشيشرون[2] الطب. ولقد ظلَّت الأسماء اللاتينية التي ترجم بها المصطلحات العلمية اليونانية تسيطر على علم الطب من ذلك الوقت إلى أيامنا هذه[3]!! .

الهندسة عند الرومان:

برع الرومان كذلك في إنشاء الطرق فقد كانت السفن والطرق التي تحمل عليها البضائع، والقناطر التي تربط الطرق بعضها ببعض، والموانئ والأحواض التي تستقبل السفن، والقنوات المبنية التي يجري فيها الماء النقي إلى روما، والمصارف التي تنصرف فيها مياه المستنقعات الريفية وأقذار المدن، كانت هذه كلها من عمل المهندسين الرومان واليونان والسوريين يساعدهم آلاف من العمال الأحرار وجنود الفيالق والعبيد. وكانوا يرفعون الأحمال أو الحجارة الثقيلة، أو يجرونها بوساطة البكرات أو القوائم الخشبية العمودية، تديرها الروافع التي يدفعها فيها الحيوانات أو الآدميون،وقد أقاموا على أحد شواطئهم جدرانًا ذات درجات ثلاث حتى لا ينكشف الطين في قاع النهر إذا انخفض ماؤه .

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٥/ ٢ ص ١٩٧.

(٢) كاتب وخطيب روماني مميز.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ٥/ ٢ ص ١٩٧.

كما أنشئوا ميناءً مزدوجًا عند« أستيا »لملوكهم «كلوديوس »(٤١ ـ ٥٤م) ونيرون
تروجان، وافتتحوا موانئ أصغر منها في مرسيليا وبتيولي، وميسينم، وقرطاجنة وبرنديزيوم
فنا؛ وجددوا أعظم موانئ الإمبراطورية كلها في الإسكندرية. وقد جففوا البحيرة
عوسية، واستصلحوا أرضها للزراعة وذلك بأن شقوا لها نفقًا يخترق جبلاً من الصخر
صنب، وأنشأ تحت الأرض في روما مصارف من الأسمنت المتحجر للآجر والقرميد
قومت البِلَى مئات السنين، وجففوا مناقع كمبانيا حتى أصبحت صالحة للسكنى، ويدل ما
عثر عليه فيها من آثار على أن قصورًا فخمة كثيرة أقيمت فيها ، وقاموا بتنفيذ المشروعات
خمة المدهشة التي خفف بها قيصر وغيره من العباقرة التعطل في البلاد وجملوا بها روما.

وكانت الطرق القنصلية من أقل أعمالهم مشقة، ولكنها لم تكن تنقص عن طرق هذه
الأيام. وكانت سعتها تختلف من ستة عشر إلى أربع وعشرين قدمًا، ولكن بعض هذا العرض
كان يشغله بالقرب من روما ممرات جانبية مرصوفة بألواح حجرية مستطيلة الشكل، وكانت
تسير مستقيمة إلى أهدافها مضحية بالنفقات العاجلة في سبيل اقتصاد دائم؛ وأقيمت على
مجاري التي لا حصر لها قناطر كثيرة النفقات، فإذا وصلت إلى المستنقعات اخترقتها فوق
ضب مقامة على جدران من الآجر والحجارة، وكانت تصعد فوق الجبال الوعرة وتنحدر على
سفوحها دون أن تستخدم النفق، وسارت بمحاذاة الجبال أو الجسور العالية تحميها الجدران
تقوية، واختلفت المواد التي ترصف بها باختلاف الأماكن التي تمر بها، وكانت الطبقة السفلى
تصنع في العادة من الرمل ويتراوح سمكها بين أربع بوصات وست، أو من الملاط بسمك
بوصة واحدة، ثم تقام فوق هذه الطبقة أربع طبقات من البناء: الأولى وسمكها قدم وتبنى
من الحجارة يمسكها الأسمنت أو الطين، تليها طبقة ثانية سمكها عشر بوصات من
الأسمنت القوي، ثم طبقة ثالثة سمكها ما بين اثنتي عشرة وثمان عشرة بوصة وتتألف من
عدة طبقات من الأسمنت المقوى أيضًا، فوقها الطبقة الرابعة وتتخذ من حجر الصوان أو
حمم البركانية الكثيرة الأضلاع والتي يختلف قطر كل منها بين قدم واحد وثلاثة أقدام،
وسمكها بين ثماني بوصات واثنتي عشرة بوصة، وكان يسوون الوجه الأعلى لهذه القطع،
وكانت مواضع اتصالها بعضها ببعض لا تكاد تتبينها العين، وكانت الطبقة العليا تصنع في
بعض الأحيان من الأسمنت المقوى، وفي الطرق القليلة الأهمية كانت تصنع من الحصباء؛

وفي بريطانيا كانت من حجر الصوان المخلوط بالأسمنت فوق طبقة من الحصباء. وكـ
سمك الطبقات السفلى كبيرًا إلى حد جعل المهندسين لا يعنون كثيرًا بتصريف الماء الجو
ويمكننا أن نقول عن هذه الطرق بوجه عام إنها أطول الطرق أعمارًا في التاريخ كله، ولا يزال
بعضها يستخدم إلى اليوم، ولكن منحنياتها الشديدة التي صُنِعَت لسير البغال والعربـ
الصغيرة جعلتها غير صالحة لوسائل النقل الحديث.

وكانت القناطر التي تحمل هذه الطرق نماذج طيبة لتضافر العلم والفن، ولقد ور
الرومان عن مصر البطليموسية أصول الهندسة المائية واستخدموها على نطاق بلغ من الـ
حدًّا لم يسبقهم أحد إليه من قبل، وبقيت الأساليب التي نُقِلَت عنهم لم يطرأ عليها تغيير إلى
هذه الأيام، وقد وضعوا الأسس، وأشادوا الأرصفة تحت الماء كما كانت تشاد هذه وتلك في
أقدم العهود، وكانوا يدفعون في أنواع المجاري أسطوانات مزدوجة مملوءة بمواد البناء، وقـ
أحكموا إغلاق كل منهما ونزحوا الماء مما بينهما، وغطوا الجزء المعرى بالحجارة أو الخـ
وأقاموا الرصيف المطلوب إقامته على هذا الأساس. وقد أقيمت على نهر التيبر قبالة رو
تسعة جسور بعضها قديم: كجسر سبليسيوس الذي لم يكن يجوز استخدام المعادن فيـ
وبعضها متقن البناء كجسر فبريسيوس لدرجة أنه بقي صالحًا للاستعمال إلى هذه الأيام[1].

* * *

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٥/ ٢ ص ٢٢٥ وما بعدها.

المبحث الثالث

دور العلم في بناء الحضارة الفارسية

يرجع الفضل في حضارة الفرس إلى (آل ساسان) الذين حكموا فارس في القرن الثالث ـيلادي، وككل القوى العظمى كان للفرس حضارة علمية لا يُستَهان بها، وكان أبرز ما ـرِفَت به الحضارة الساسانية علم نظم الإدارة، والتنظيمات السياسية، التي بدأت منذ أقرَّ «ـردشير» (أول الحكام الساسانيين) عددًا من الأنظمة والقوانين في الدولة، منها وضع ديانة ـصية للبلاد، ووقع اختياره على الديانة الزرادشتية، التي كانت سائدة لدى الشعب، وأمر ـير وزرائه «تنسر» بجمع كل النصوص المتعلقة بكتابها المقدس المدعو (الفستا) أو ـبستاق) في مجلدٍ واحد، وأجازه باللغة البهلوية، واعتبره الكتاب المقدس.

وفي عهد ولده وخليفته «سابور» أدخل رجال الدين إلى هذه النصوص الدينية نصوصًا طبية وفلكية ـيعية، عدّوها نصوصًا تعليمية، وجبت إضافتها إلى ثقافة الزرادشتي الصالح لدينه ووطنه[1].

النُّظم الاجتماعية والإدارة:

بدأ «أردشير الأول» في إرساء أول نظام اجتماعي عرفته الحضارة القديمة، ارتكز على ـسيم المجتمع إلى أربع طبقات ـيسية؛ تأتي في مقدمتها طبقة «رجال ـين»، ثم طبقة «رجال الجيش»، ـ طبقة «الكتّاب»، ثم طبقة ـفلاحين والعمال».



خريطة رقم (٧)
الإمبراطورية الساسانية الفارسية- ٢٢٦م- ٦٥١م -في أقصى اتساع لها سنة ٥٠٠ م

وتذكر المصادر أنه بعد وفاة ـردشير» تولى الحكم ابنه «شابور» ـذي ورث دولة قوية، واهتم بتدعيم ـمونة، وأعاد تنظيم الإمبراطورية [انظر ـريطة رقم ٧]، وأقام سدَّ «شستر»،

---

(١) عبد الحفيظ يعقوب: من ملامح الحضارة الإيرانية القديمة ٨٠.

وأنشأ العديد من المدن، كما اهتم بالعلوم فأمر بترجمة الكثير من الكتب الإغريقية في شتى التصـ
كالطب والفلك والفلسفة[1].

التعليم في الحضارة الفارسية:

يذكر (ول ديورانت) في قصة الحضارة أن الفرس كان لـديهم عـاداتٌ خاصـة في تعليم أبنائهم، فيقول: «كان الوليد يبقى في أحضان أمه حتى السنة الخامسة من عمـ ثم يحتضنه أبوه حتى السابعة، وفي هذه السنة يدخل المدرسة. وكان التعليم يُـقصَر في الغالب على أبناء الأغنياء، ويتولاّه الكهنة عادةً؛ فكان التلاميذ يجتمعون في الهيكـ في بيت الكاهن؛ وكان من المبادئ المقررة ألاّ تقوم مدرسة بالقرب من السـوق حتـ لا يكون ما يسودها من كذب وسباب وغش سببًا في إفساد الصغار. وكانت الكتـ الدراسية هي (الأبستاق)[2] وشروحها، وكانت مواد الدراسة تشمل الدين، والـ أو القانون، أمّا طريقة الـدرس فكانـت الحفـظ عـن ظهـر قلـب، وتكـرار الفقـر الطويلة غيبًا.

أمّا أبناء الطبقات غير الموسرة فلم يكونوا يتلقون ذلـك النـوع مـن التعلـيم، بـل كـ تعليمهم مقصورًا على ثلاثة أشياء: ركوب الخيل، والرمي بالقوس، وقول الحق.

وكان التعليم العالي عند أبناء الأثرياء يمتد إلى السنة العشرين أو الرابعة والعشريـن. وكـ مَن يُعَدُّ إعدادًا خاصًّا لتولِّي المناصب العامة أو حكم الولايات؛ يُدرَّبون على القتال بلا اسـ

وكانت حياة الطلاب في هذه المدارس العليـا حيـاة شـاقة؛ فكـان التلاميـذ يسـتيقظـ مبكرين، ويدرَّبون على الجري مسافات طويلة، وعلى ركـوب الخيـل الجامحـة وهـي تـركـ بأقصى سرعتها، والسباحة، وصيد الحيوان، ومطاردة اللصوص، وفلاحـة الأرض، وغـر الأشجار، والمشي مسافات طويلة في حر الشمس اللافح أو البرد القـارس؛ وكـانوا يمـرّنـ على تحمُّل جميع تقلبات الجو القاسية، وأن يعيشوا على الطعام الخشن البسيط.

لقد كان هذا في الحق تعليمًا ينشرح له صدر فريدرك نتشه في اللحظات التي يستطيع فيـ

---

(١) حسن برنيا: تاريخ إيران القديم ٢٣٠.

(٢) هو كتاب الديانة الزرادشتية، وقد سبقت الإشارة إليه.

ـيان ثقافة اليونان الأقدمين وما فيها من تنوع وبريق[1].

العلوم الطبية:

كان الفرس الساسانيون يثقون بعلوم الإغريق والرومان، خاصة في الطب، حيث تؤكد ـصادر أن معظم أطباء الملوك كانوا إغريقًا أو رومانًا، ومع ذلك تتضمن (الأوتسا) وشروحها، وأشهرها (نسك هُبسارم) معلومات طبية جيدة، تستهلها بحقيقة أن «أهورامزدا» ردَّ على «أهريمن» الذي خلق الأمراض لقهر الإنسان بأن أوجد لكل مرض ـتًا يشفي منه، كما يتضمن (النسك) تفاصيل عن صفات الطبيب الجيد، ومراحل تعليمه، وواجباته تجاه مرضاه ومجتمعه، إضافة إلى أجوره التي تختلف حسب حالة المريض الاجتماعية ونوعية المرض، ونجد في «النسك» توجيهًا للمرضى الإيرانيين بضرورة اللجوء إلى الطبيب ـوطني، قبل الاستعانة بالطبيب الأجنبي، وكذلك تفاصيل أخرى عن أنواع الأمراض وأشكال الأوبئة، وكذلك أمراض الحيوانات الأليفة وعلاجها.

ولعل أبرز ما في هذا النسك من معلومات طبية، هو تقديمه معلومات عن الطب ـنفسي، وتفريقه بين صحة الجسد وصحة الروح، وتأكيده على أهمية طبيب الروح، علمًا بأنه لا يستخدم أدوية بل يستخدم طرقًا معنوية للعلاج.

وقد أوردت كتب التراث العلمية الساسانية ثلاث طرق للعلاج، وهي:

العلاج بالأعشاب وهي «كالأدوية»، والعلاج بالسكين وهي «الجراحة»، وثالثها الكلام ـقدس، وهو «العلاج النفسي»، وكان يُضاف له حرقُ البخور لطرد الأرواح الخبيثة، ويبدو ـن الأطباء النفسيين كانوا يقتربون بحسب علومهم من رجال الدين أكثر من رجال العلم، حيث كان هؤلاء يشبهون الإثم بالمرض، ويوازون بينهما، ويعتقدون أن الرذائل كالجهل والغرور والخداع ما هي إلا أسباب لا مرئية لأمراض الزكام والإسهال والجفاف والحمَّى وغيرها.

ويبدو أن نجاح العلوم الطبية المعاصرة التي أثبتت وجودها في المجتمع الساساني دفعت في اتجاه إنشاء مدرسة لتخريج الأطباء، وقد سهَّل تحقيق الهدف لجوء عدد كبير من الأطباء

---

[1] ول ديورانت: قصة الحضارة المجلد الأول ـ الجزء الثاني ٤٤٣.

الرومان إليهم (أثناء اضطهادهم في رومانيا)، مما دفعهم لتأسيس أفضل مدارس الطب في «جنديسابور» آنذاك، وظلَّت هذه المدرسة مزدهرة، وتُخرِّج العديد من الأطباء حتى بديع العصر الإسلامي[1]..

العلوم الأخرى:

وهي تلك العلوم التي ازدهرت استمرارًا للعلوم التي عرفتها دول إيران الأقدم من الدولة الساسانية، ومعظم هذه العلوم كانت منذ عهد كسرى الأول (٥٣١ ـ ٥٧٩م) التي كان – على الرغم من كونه زرادشتيًّا – واسع الأفق، حرَّ التفكير، ذا عقلية علمية متميزة، كان يتقبل بحث الآراء المختلفة في مسائل الطبيعة والعلوم المختلفة، ولم يتردَّد في الاستعانة بأبناء الديانات الأخرى (كالنصارى) في الوظائف التعليمية أو العلمية ذات النفع العام، وكان مثقفًا يتقن اللغة السريانية، والسنسكريتية، وكان معجبًا بفلسفة أفلاطون وأرسطو لدرجة أنه كلَّف أحد المطارنة بترجمة كتب المنطق التي كتبها أرسطو، والتي تحدث فيها عن الآراء التاريخية بوصف الآلهة والعالم، ونظريات الخلق.. وغيرها.

ويبدو تأثير ذلك الملك عظيمًا في إيران، وذلك لحرصه على نقل معارف الأمم المجاورة إلى بلاده، ففي عهده نقلت مجموعة الكتابات الهندية والبوذية إلى اللغة البهلوية والساسانية[2].

العمارة:

كان للفرس طراز فني خاص في العمارة؛ فقد شيَّدوا في أيام قورش (٥٥٠ـ ٥٢٩ ق.م)، مقابر وقصورًا، كشف علماء الآثار القليل منها، وقد يستطيع المعول والمجرف – وهما المؤرِّخان اللذان لا ينقطعان عن البحث والتنقيب – أن يكشفا لنا في المستقبل القريب ما يُعلِي من تقديرنا للفن الفارسي.

وإلى أقصى الجنوب عند نقش رستم غير بعيد من برسبوليس يقوم قبر (دارا) الأول منحوتًا في واجهة صخرة في الجبل كأنه ضريح هندوسي، وقد نُقِش مدخلُه ليمثل لمن يراه واجهة قصر لا قبر، وأقيمت عند هذا المدخل أربعة عُمُد دقيقة حول باب غير شامخ. ومن

---

(١) حسن بيرنيا: تاريخ إيران القديم ٣٠٠ وما بعدها .

(٢) من ملامح الحضارة الإيرانية ١٠١.

ـوق هذا الباب شخوص قائمة كأنها فوق سقف يمثل أهل البلاد الخاضعة للفرس تحمل ـصة رُسِمَ عليها الملك كأنه يعبد أهورا - مزدا، والقمر. والفكرة التي أوحت بهذا الرسم ـطريقة تنفيذها تسري فيهما روح البساطة والرِّقة الأرستقراطية.

أمّا أروع الآثار الفارسية القديمة التي تنفرج عنها الأرض الكتوم يومًا بعد يوم فهي ـرج الحجرية والأرصفة والأعمدة التي كشفت في برسبوليس؛ ذلك أنَّ دارا (٥٢١ ق. م) ـمن جاء بعده من ملوك الفرس قد أقاموا لهم فيها قصورًا يحاولون بها أن يرجئوا الوقت ـي تُنسَى فيه أسماؤهم. ولسنا نجد في تاريخ العمائر كلها ما يشبه الدرج الخارجية العظيمة ـتي كان القادم من السهل يرقاها إلى الربوة التي شيدت عليها القصور.

وأكبر الظن أن الفرس أخذوا هذا الطراز عن الدرج التي كانت توصل إلى (الزجورات)، أي ـرج أرض الجزيرة، وتلتف حولها، ولكنها كان لها مع ذلك خصائص لا يشاركها فيها غيرها من ـني. ذلك أنها كانت سهلة المرتقى واسعة يستطيع عشرة من رُكّاب الخيل أن يصعدوها جنبًا إلى جنب. وما من شك في أن هذه الدرج كانت مدخلاً بديعًا إلى الطور الفسيح الذي يعلو عن الأرض ـجاورة له علوًّا يتراوح بين عشرين وخمسين قدمًا، والذي يبلغ طوله ألفًا وخمسمائة قدم، وعرضه ـمًا، والذي شُيِّدت عليه القصور الملكية، وكان عند ملتقى الدرج الصاعدة من الجانبين مدخل ـمعي كبير نُصِبَت على جانبيه تماثيل ثيران مجنَّحة ذات رءوس بشرية كأبشع ما خلَّفه الفن الآشوري. ـكانت في الجهة اليمنى بعد هذا المدخل آية العمائر الفارسية على الإطلاق، ونعني بها (الجهل - منار)، ـو الرَّدهة العظمى التي شادها خشيارشاي الأول، والتي كانت هي وغرفات الانتظار المتصلة بها ـشغل رقعة من الأرض تربو مساحتها على مائة ألف قدم مربع، فهي أوسع من معبد الكرنك ـفسيح، ومن أية كنيسة أوربية عدا كنيسة ميلان[1].

ولا يزال ثلاثة عشر عمودًا من الاثنين والسبعين التي كانت قائمة في قصر خشيارشاي ـقية إلى اليوم بين خربات القصر، كأنها جذوع نخل في واحة مقفرة موحشة، وتُعَدُّ هذه ـلأعمدة المبتورة من الأعمال البشرية القريبة من الكمال، وهي أرفع من مثيلاتها في مصر ـلقديمة أو اليونان، وتعلو في الجو علوًّا لا تصل إليه معظم الأعمدة الأخرى، إذ يبلغ ـرتفاعها أربعة وستين قدمًا، وقد خطت في جذوعها ستة وأربعون محزًا، وتشبه قواعدها

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٤٤٩.

أجراسًا تغطيها أوراقُ أشجارٍ مقلوبة الوضع، ومعظم تيجانها في صورة لفائف مـن الأزهـ
تكاد تشبه اللفائف «الأيونية»، يعلوها صدرا ثورين أو حصانين مقرّنين يتصل عنقاهمـا مـ
الخلف وترتكز عليهما عوارض السقف. وقام من خلف الجهل- منار، أي من شرقيهـا «بهـ
العُمُد المائة» ولم يبق من هذا البهو سوى عمود واحـد والحـدود الخارجـة لتصـميمه العـ
ولعلَّ هذين القصرين كانا أجمل ما شاده الإنسان في العالم القديم والحديث على السواء.

وأقام أرت خشتر الأول والثاني (٣٧٩-٣٨٢م) في مدينة السوس (في منطقـة الأحـواز) قصريـ
يبق منهما إلا أساسهما. ذلك أنهما شُيّدا من الآجر المكسو بأجمل ما عُرِفَ من القرميد ذي اللؤلؤ الزجاجي.

ولم يكن التصوير والنحت في السوس وفي غيرها من العواصم فنين مستقلين، بـل كـ
تابعين لفن العمارة، كذلك كانت الكثرة الغالبة من التماثيل من صـنع فنـانين جـيء بهـم مـ
آشور وبابل وبلاد اليونان[١].

بناء الطرق:

أنشأ المهندسون طاعةً لأمر دارا الأول (٥٢١ - ٤٨٦ ق.م) طرقًا عظيمة تربط حواضر الدولـة
بعضها ببعض، وكان طول أحد هذه الطرق (وهي الممتدة من السوس إلى سرديـس) ألفًـا وخمسـ
ميل، وكان طولها يقدر تقديرًا دقيقًا بالفراسخ (وكان الفرسخ ٤ ,٣ ميل)، ويقول هـيرودوت: «إنـه
كان عند نهاية كل أربعة فراسخ محاط ملكية ونُزُل فخمة، وكان الطريق كله يخترق أقاليم آمنة عـامرة
بالسكان»، وكان في كل محطة خيول بديلة متأهبة لمواصلة السير بالبريد، ولهذا فإن البريد الملكي كـان
يجتاز المسافة من السوس إلى سرديس بالسرعة التي يجتازها بها الآن رتل من السيارات الحديثة، أي في
أقل قليلاً من أسبوع، مع أن المسافر العادي في تلك الأيام الغابرة كان يجتـاز تلـك المسـافة في تسـعين
يومًا. وكانوا يعبرون الأنهار الكبيرة في قوارب، ولكن المهندسـين كـانوا يسـتطيعون متـى شـاءوا أن
يقيموا على الفرات أو على الدردنيل نفسه قناطر متينة تمر عليها مئات الفيلة الوجلة وهي آمنة، وكـان
ثمة طرق تصل فارس بالهند مجتازة ممرات جبال أفغانستان، وقد جعلت هذه الطرق مدينـة السـوس
مستودعًا وسطًا لثروة الشرق التي كانت حتى ذلك العهد البعيد ثروة عظيمة لا يكاد يصدقها العقل.
وقد أنشأت هذه الطرق في الأصل لأغراض حربية وحكومية، وذلك لتيسير سيطرة الحكومة المركزية
وأعمالها الإدارية؛ ولكنها أفادت أيضًا في تنشيط التجارة وانتقال العادات والأفكار[٢].

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٤٥٠.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٤١٣.

المبحث الرابع
دور العلم في بناء الحضارة الهندية

جهود الهند في العلم قديمة جدًا وحديثة جدًا في آنٍ معًا؛ فهي حديثة إذا نظرنا إلى العلم باعتباره بحثًا دنيويًا مستقلاً، وهي قديمة إذا نظرنا إليه باعتباره مشغلة فرعية من مشاغل الكهنة؛ ولما كان الدين هو لُبُّ الحياة الهندية وصميمها، فإن العلوم التي كان من شأنها أن تعاون الدين هي التي سبقت غيرها بالرعاية والنمو؛ فالفلك قد نشأ من عبادة الأجرام السماوية، ومشاهدة حركاتها لتحديد أيام الأعياد والقرابين؛ ونشأ النحو وعلم اللغة عن الرغبة الملحَّة بأن تكون كل صلاة وكل صيغة دينية، صحيحة في تركيبها وفي مخارج أصواتها، على الرغم من أنها تقال أو تكتب بلغة ميتة، فقد كان علماء الهند هم كهنتها، بكل ما في ذلك من خيرٍ ومن شرٍّ.

علم الفلك:

نشأ علم الفلك عن التنجيم نشأة غير مقصودة، ثم أخذ رويدًا رويدًا ينفُضُ عن نفسه الأغلال في ظلِّ اليونان؛ وأقدم الرسائل الفلكية - وهي السِدْ ذانتا حوالي ٤٢٥ ق.م - كانت قائمة على أساس العلم اليوناني حتى لقد اعترف «فارهاميرا» الذي أطلق على مؤلَّفه الموسوعي اسمًا له مغزاه إذ أطلق عليه «مجموعة كاملة للتنجيم الطبيعي» - اعترف صراحة باعتماده على اليونان، وعلَّل «آريا بهاتا» - وهو أعظم الفلكيين والرياضيين الهنود - الكسوف والخسوف، والاعتدالين والانقلابين (في حركة الأرض حول الشمس)، وأعلن عن كروية الأرض ودورتها اليومية حول محورها، وكان فيما كتبه سابقًا لعلم النهضة الأوروبية سبقٌ جريءٌ؛ حيث قال: «إنَّ عالم النجوم ثابت، والأرض في دورانها هي التي تُحدِثُ كلَّ يوم ظهور الكواكب والنجوم من الشرق، واختفاءها في الغرب» وجاء بعده خَلَفُه المشهور (براهما جوبتا) فنَسَّق المعلومات الفلكية في الهند، ولو أنه أعاق تقدم الفلك هناك برفضه نظرية «آريا بهاتا» الخاصة بدوران الأرض، هؤلاء الرجال وأتباعهم هم الذين لاءموا بين حاجات الهنود والتقسيم البابلي للسماء إلى أبراج، وهم الذين قسَّموا العام اثني عشر شهرًا، كل شهر منها ثلاثون يومًا، وكل يوم ثلاثون ساعة، وكانوا يضيفون شهرًا زائدًا كل خمسة أعوام، وحسبوا بدقة تستوقف النظر قُطْرَ القمر وخسوف الشمس، وموضع القطبين

ومواضع النجوم الرئيسية ودورانها، وشرحوا نظرية الجاذبية- ولو أنهم لم يصلوا إلى قانونه- عندما كتبوا في «سِدْ ذانت» : «إن الأرض تجذب إليها كل شيء بما لها من قوة جاذبة»[1].

الجبر والرياضة:

تقدم الجبر عند الهنود وعند اليونان دون أن يأخذ فريق عن فريق فيما يظهر لكن احتفاظنا باسمه العربي (الجبر كلمة عربية معناها ملاءمة التركيب) يدل على أن هذا العلم قد أُتي به إلى أوروبا الغربية من العرب- وهذا معناه أنه جاء إليها من الهند لا من اليونان، وأبطال هذا الميدان من الهنود هم- كما في علم الفلك- آريا بهاتا وبراهما جوبتا وبهاسكارا؛ ويظهر أن أخيرهم (وُلِدَ سنة ١١١٤م) قد ابتكر العلامة الجذرية وكثيرًا غيرها من الرموز الجبرية وهؤلاء الرجال هم الذين ابتكروا فكرة الكمية السلبية التي كان يستحيل الجبر بغيرها وصاغوا القواعد التي يمكن بها إيجاد التباديل والتوافيق، وحسبوا الجذر التربيعي للعدد ٢. وحلّوا في القرن الثامن الميلادي معادلاتٍ غير متعينة من الدرجة الثانية، كانت تجهلها أوروبا حتى أيام «يولر» بعد ذلك بألف عام، ولقد صاغوا علمهم هذا في قالب شعري، وخلعوا على مسائل الرياضة رشاقة تُميِّز العصر الذهبي في تاريخ الهند[2].

غير أن الهنود لم يكونوا على هذه الدرجة من التوفيق في الهندسة؛ ولو أن الكهنة استطاعوا - في قياس مذابح القرابين وبنائها - أن يصوغوا النظرية الفيثاغورسية (التي مؤداها أن المربع المنشأ على وتر المثلث القائم الزاوية يساوي مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين) قبل ميلاد المسيح ببضع مئات من السنين، وكذلك استطاع «آريا بهاتا»- وقد يكون متأثرًا باليونان في ذلك- أن يحسب مساحة المثلث والمعيَّن والدائرة وأن يقدر قيمة النسبة التقريبية (في حساب النسبة بين طول قطر الدائرة ومحيطها) بـ ١٤١٦ر٣- وهو رقم لم يعادله في دقة الحساب رقم آخر حتى عهد «بير باخ» في أوروبا؛ وكان «بهاسكارا» سباقًا إلى حساب التفاضل، إذ فكر فيه على نحو تقريبي، وأعد «آريا بهاتا» قائمة بحساب الجيب، وجد في كتاب «سوريا سِدْ ذانتا» مجموعة منسقة في حساب المثلثات، كانت أرفع مستوى من كل ما عرفه اليونان في هذا الباب[3].

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة المجلد الثاني الجزء الثالث ٢٣٦. (٢) المصدر السابق ٢٣٧ .

(٣) انظر : ماكدونال: تاريخ الهند القديم ٢٩.

الكيمياء:

تقدمت الكيمياء بادئة طريقها من مصدرين: الطب والصناعة؛ فقد أسلفنا بعض القول في براعتهم الكيماوية في صَبِّ الحديد في الهند القديمة، وفي الرقي الصناعي العظيم في عصور «جوبتا»، حينما كان يُنظر إلى الهند - حتى من روما القيصرية - على أنها أمهر الأمم جميعًا في صناعات كيماوية مثل: الصباغة والدبغ وصناعة الصابون والزجاج والأسمنت.

وفي القرن الثاني قبل الميلاد، خصص «ناجارجونا» كتابًا بأكمله للبحث في الزئبق؛ فلما كان القرن السادس كان الهنود أسبق بشوط طويل من أوروبا في الكيمياء الصناعية، فكانوا أساتذة في التكليس والتقطير والتصفية والتبخير واللحام وإنتاج الضوء بغير حرارة، وخلط المساحيق المنومة والمخدرة، وتحضير الأملاح المعدنية، والمركبات والمخلوطات من مختلف المعادن؛ وبلغ طرق الصلب في الهند القديمة حدًّا من الكمال لم تعرفه أوروبا إلا في أيامنا هذه، ويقال: إنَّ الملك يورس، قد اختار هدية نفيسةً نادرة يقدمها للإسكندر ثلاثين رطلاً من الصلب، إذ آثرها على هدية من الذهب أو الفضة؛ ونقل المسلمون كثيرًا مما كان للهنود من علم الكيمياء والصناعة الكيماوية إلى الشرق الأدنى وأوروبا، وكان الفرس قد نقلوا بدورهم عن الهند سِرَّ صناعة السيوف «الدمشقية»[1].

الطب الهندي:

كان التشريح وعلم وظائف الأعضاء- مثل بعض جوانب الكيمياء- نتيجتين عرضيتين للطب الهندي؛ ففي القرن السادس قبل الميلاد- رغم أنه عهد يغوص في القدم- كان الأطباء الهنود يعرفون خصائص الأربطة العضلية، ورتق العظام، والجهاز اللمفاوي، والضفائر العصبية، واللفائف والأنسجة الدهنية، والأوعية الدموية، والأغشية المخاطية والمفصلية، وأنواعًا من العضلات أكثر مما نستطيع أن نتبينه من جثة حديثة.

وقد زلَّ أطباء الهند في العصر السابق لميلاد المسيح في نفس الخطأ الذي وقع فيه أرسطو حين تصور القلب مركز الشعور وأداته، وظنوا أن الأعصاب تصعد من القلب وتهبط إليه، لكنهم فهموا عمليات الهضم فهمًا يستوقف النظر بدقته- أعني الوظائف المختلفة للعصارات

---

(1) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٣ ص ٢٣٨.

المعدية، وتحول الكيموس إلى كيلوس، ثم تحول الكيلوس إلى دم- وسبق «أتريا»، «وإيزمد» بألفين وأربعمائة عام حين ذهب (حوالي ٥٠٠ ق.م) إلى أن نطفة الوالد مستقلة، وكن يحبذون فحص الرجال للتحقق من توافر عناصر الرجولة فيهم قبل إقدامهم على الزوج وجاء في تشريع «مانو» تحذير من عقد الزواج بين أشخاص مصابين بالسل، أو الصرع، أو سوء الهضم المزمن، أو البواسير، أو شقشقة اللسان.

وكان مما فكرت فيه مدارس الطب الهندية سنة ٥٠٠ ق.م، ضبط النسل على آخر طرز يأخذ به رجال اللاهوت، وهو يقوم على نظرية هي أن الحمل مستحيل في مدى اثني عشر يومًا من موعد الحيض؛ ووصفوا تطور الجنين وصفًا فيه كثير جدًّا من الدقة، وكان مما لوحظ في هذا الصدد أن جنس الجنين لا يتعين إلا بعد مدة، وزعموا أن جنس الجنين في بعض الحالات يمكن التأثير فيه بفعل الطعام أو العقاقير[1].

وتبدأ مدونات الطب الهندي بكتاب «أترافا- فيدا»، ففي هذا الكتاب تجد قائمة بأمراض مقرونة بأعراضها، لكنك تجدها محاطة بكثير جدًّا من السحر والتعزيم؛ فقد نشأ الطب ذيلاً للسحر؛ فالقائم بالعلاج كان يدرس ويستخدم وسائل جثمانية لشفاء المريض على أساس أن هذه تساعد على نجاح ما يكتبه له من صيغ روحانية؛ ثم أخذ على مرِّ الزمن يزيد من اعتماده على الوسائل الدنيوية، ماضيًا إلى جوار ذلك في تعاويذه السحرية؛ لتكون هذه مُعينة لتلك من الوجهة النفسية، كما نفعل اليوم بتشجيعنا للمريض.

وفي ذيل كتاب «أترافا- فيدا» ملحق يسمى «أجو- فيدا» (ومعناها: علم إطالة العمر) ويذهب هذا الطب الهندي القديم إلى أن المرض يسببه اضطراب في واحد من العناصر الأربعة (الهواء والماء والبلغم والدم)، وطرائق العلاج هي الأعشاب والتمائم السحرية؛ ولا يزال كثير من طرائق الطب القديم في وصف الأمراض وعلاجها مأخوذًا به في الهند اليوم، وإنَّ ذلك لَيُصِيب من النجاح أحيانًا ما يثير الغيرة في صدور الأطباء الغربيين؛ وتجد في كتاب «رجْ- فيدا» نحو ألف اسم من أسماء هذه الأعشاب، وهو يحبِّذ الماء على أنه خير علاج لمعظم الأمراض؛ على أن الأطباء والجراحين حتى في العهد الفيدي كانوا يتميزون بما يفرِّق بينهم وبين المعالجين

(١) السابق نفسه: ٢٣٩.

ـنسحر؛ وكانوا يسكنون منازل تحيط بها حدائق يستنبتون فيها الأعشاب الطبية.

وأعظم اسمين في الطب الهندي هما «سوشروتا» في القرن الخامس قبل الميلاد و«شاراكا» ـي القرن الثاني بعد الميلاد؛ فقد كتب «سوشروتا» - وكان أستاذًا للطب في جامعة بنارس - ـللغة السنسكريتية مجموعة من أوصاف الأمراض وطرائق علاجها، وكان قد ورث العلم ـه من معلمه «ذانوانتاري»؛ فبحث في كتابه بإطناب في الجراحة، والتوليد، والطعام الصحي، ـ لاستحمام، والعقاقير، وتغذية الرُّضَّع والعناية بهم والتربية الطبية، وأما «شاركا» فقد أنشأ ـسامهيتا» (ومعناها موسوعة) تشمل علم الطب، وهي لا تزال مأخوذًا بها في الهند؛ وبثّ في ـتباعه فكرة عن مهنتهم كادت تقترب من فكرة أبقراط: «لا ينبغي أن تعالجوا مرضاكم ابتغاءَ ـمنفعةٍ لأنفسكم، ولا إشباعًا لشهوة ما من شهوات الكسب الدنيوية، بل عالجوهم من أجل ـغية واحدة هي التخفيف عن الإنسانية المعذبة، بهذا تفقدون سائر الناس»[1].

ويتلو هذين الاسمين التماعًا في تاريخ الطب الهندي اسم «فاجبهاتا» (٦٢٥م) الذي أعد ـموسوعة طبية نثرًا ونظمًا، ثم اسم «بهافامِسْرًا» (١٥٥٠م) الذي وصف الزئبق علاجًا لـذلك ـرض الجديد- مرض الزهري- الذي كان من عهد قريب مع البرتغاليين، جزءًا من التراث ـتي خلّفته أوروبا للهند[2].

وصف «سوشوترا» كثيرًا من العمليات الجراحية- الماء في العين، والفتق، وإخراج ـحصاة من المثانة، وبقْر الأمهات عن الأجنة وغير ذلك، كما ذكر (١٢١) أداة من أدوات ـجراحة منها المشارط والمسابير والملاقط ومناظير القُبُل والدُّبُر، وعلى الرغم من تحريم ـبراهمة لتشريح جثث الموتى، جعل يدافع عن ضرورة ذلك في تدريب الجراحين؛ وكان أول ـن رقّع أذنًا جريحة بقطع من الجلد اقتطعها من أجزاء أخرى من الجسم، وعنه وعن أتباعه ـ الهنود أخذ الطب الحديث عملية تقويم الأنف؛ ويقول «جارِسُنْ»: «لقد أجرى قدماء ـهنود كل العمليات الجراحية الكبرى تقريبًا، ما عدا عملية ربط الشرايين»[3]؛ فقد بتروا ـلأطراف، وأجروا الجراحات في البطن، وجبروا كسور العظام، وأزالوا البواسير؛ وقَعَّد ـسوشوترا» القواعد الدقيقة لإجراء الجراحة، ويعد اقتراحه بتعقيم الجرح بالتبخير أول ما

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢/ ٣ صـ ٢٤٢.

(٢) المصدر السابق ٢٤٣.

(٣) المصدر السابق نفسه.

نعرفه من جهود في وسائل التطهير أثناء الجراحة؛ ويذكر لنا «سوشوترا» و «شاراكا» فوق أنواع من الشراب الطبي في تخدير الجسم عند الألم، وحدث في سنة ٩٢٧ م أن قام جراحد بتربنة الجمجمة لملك هندي، فخدره عند الجراحة بفعل عقار يسمى «ساموهيني»[١].

وأوصى «سوشوترا» بأن تُتَّبع في تشخيص الأمراض التي أحصى منها (١١٢٠)، طريقة النظر بالمنظار، وطريقتا جس النبض والتسمُّع بالأذن، وقد جاء وصف لجسّ النبض في رسالة تاريخها ١٣٠٠م؛ وكان تحليل البول طريقة مستحسنة في تشخيص الأمراض؛ حتى لقد اشتهر أطباء التبت بقدرتهم على علاج أي مريض دون النظر في أي شيء يتعلق به مع بوله؛ وكان العلاج الطبي في الهند في عهد يوان شوانج، يبدأ بصيام مداه سبعة أيام، وكثيرًا ما كان يشفى المريض في هذه الفترة، فإذا بقي المرض لجئوا بعدئذ إلى استخدام العقاقير، لكنهم لم يكونوا يسرفون في استخدامها حتى في أمثال هذه الحالات؛ إذ كان معظم اعتمادهم على تدبير الطعام الملائم، والاستحمام والحقن الشرجية، والاستنشاق، والحقن في مجاري البول وإخراج الدم بدود العلق أو بالكئوس.

وقد كان لأطباء الهنود شهرة خاصة في تكوين ترياقات السموم، ولقد عرفت الهند التطعيم منذ سنة ٥٥٠ م، مع أن أوروبا لم تعرفه إلا في القرن الثامن عشر، ذلك لو حكمنا من نص يُعزَى إلى «ذانوانتاري» وهو طبيب من أقدم أطباء الهنود، وهذا هو: «خذ السائل من البثور التي تراها على ضرع البقرة ... خُذْه على سنان المشرط، ثم طعِّم به الأذرع بين الأكتاف والمرافق، حتى يظهر الدم؛ عندئذٍ يختلط السائل بالدم فتنشأ عن اختلاطه حمى الجدري»[٢].

ومن اللافت للنظر أن كثيرًا من قوانين الصحة التي أوصى بها «سوشوترا» و «مانو» تُسلِّم تسليمًا - فيما يظهر - بما نسميه نحن بنظرية المرض عن طريق الجراثيم؛ ويبدو لنا أنَّ التنويم كوسيلة للعلاج قد نشأ عند الهنود الذين كثيرًا ما كانوا ينقلون مرضاهم إلى المعابد لمعالجتهم بالإيحاء التنويمي، أو «نعاس المعبد» كما كان يحدث في مصر واليونان. أمَّا الأطباء الإنجليز الذين أدخلوا طريقة العلاج بالتنويم في إنجلترا - وهم «بريد» و«ازديل» و«اليوتسُن» «فلا شك في أنَّ ما أوحى لهم بآرائهم تلك، وببعض خبرتهم، هو اتصالهم بالهند»[٣].

---

(١) أقيمت المستشفيات في سيلان منذ ٤٢٧ ق.م ، وفي شمال الهند منذ ٢٢٦ ق.م.

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ٢/ ٣ ص ٢٤٤.

(٣) المصدر السابق نفسه .

وقد تطور الطب الهندي بصفة عامة تطورًا سريعًا في العهدين الفيدي والبوذي، ثم أعقب ذلك قرونٌ سار فيه التقدم بخطواتِ الوئيد الحذر؛ ولسنا ندري كم يدين «أتريا» و«ذانوانتاري» و«سوشوترا» لليونان!! وكم تدين اليونان لهم!! يقول «جارسن»: إنه في أيام الإسكندر «كان لأطباء الهنود وجراحيهم شهرة - هم جديرون بها - بما يتميزون به من تفوُّق في العلم والمهارة في العمل»، وحتى أرسطو نفسه - في رأي طائفة من الباحثين - مدين لهم وكذلك قل في الفرس والعرب، فمن العسير أن تقطع برأيٍ في مدى ما أخذه الطب الهندي من بغداد، ومن الطب البابلي في الشرق الأدنى عن طريق بغداد؛ فمن جهة ترى بعض طرائق العلاج مثل الأفيون والزئبق، وبعض وسائل الكشف عن حقيقة المرض مثل جس النبض، قد جاءت إلى الهند من فارس فيما يظهر، لكنَّك من جهة أخرى ترى الفرس قد ترجموا إلى لغتيهما في القرن الثامن الميلادي موسوعتي «سوشوترا» و «شراكا» اللتين كانتا قد مضى عليهما ألف عام، وينتهي «لورد آمِتهِل» إلى نتيجة هي أن أوروبا الوسيطة والحديثة مدينة بعلمها الطبي للعرب بطريق مباشر، وللهند عن طريق العرب؛ ولعلَّ هذا العلم قد نشأ في بلاد مختلفة في وقت واحد تقريبًا، ثم جعل يتطور بما كان بين الأمم المتعاصرة في سومر ومصر والهند من صلات وتبادل فكري[1].

***

1) المصدر السابق ٢٤٥ .

المبحث الخامس
دور العلم في بناء الحضارة المصرية

لا شك أن أي حضارة لا يستقيم بناؤها عبثًا، ولا يمكن أن تكون راسخة شامخة إلا بأسس ودعائم قوية، وأن أساس أي حضارة هو ما توصلت إليه من علم في شتى مجالات الحياة المختلفة، ذلك العلم الذي بدأ بحاجة الإنسان البدائية للحياة، وتطور بإعمال عقله. ولا شك أن الحضارة المصرية القديمة أسهمت إسهامًا كبيرًا في الحضارة الإنسانية لما توصلت إليه من اكتشافات ومخترعات، كما سنرى:

اختراع الكتابة:

يُعَدُّ أعظم ما قام به المصريون الأولون من جهود حضارية هو اختراع الكتابة، وسواء أكانوا هم أول من اخترعها، أم سبقهم في ذلك السومريون أو الصينيون فهذه مسألة موضع جدل ونظر، ولكنهم على أية حال اخترعوها مستقلين عن غيرهم، وينبغي ألا ننسى أن اختراعًا كهذا - بقطع النظر عن موضع ظهوره - لا يمكن تحديد زمنه بالضبط، لأنه لا يظهر دفعة واحدة، ولا في زمن معين، وإنَّ ذلك الاختراع بدأ في مصر في عصر ما قبل التاريخ. ويمكن أن يقال: إنه وصل إلى مرتبة من الكمال قبل نهاية ذلك العصر؛ لأن أقدم كتب وصلت إلينا ترجع إلى عصر الدولة القديمة.

ونستطيع أن نفترض أن المصريين بدءوا الكتابة باستعمال صور للتدليل على الأشياء أو الأفكار لا الكلمات، ثم أصبحت هذه الصور تدريجيًا - وبمضي الزمن - مصطلحاتٍ مبسَّطة ومعقَّدة مرتبطة في النهاية بكلمات منطوقة، وبذلك أصبحت كل صورة لا تمثل فكرة فحسب، بل كلمة معينة من كلمات اللغة المصرية، وربما يحدث فيما بعد أن تذهب الفكرة الأصلية وتحتفظ الصورة بقيمتها الصوتية، وأن يحدث أن يستعملوها، بل استعملوها فعلاً في كتابة كلمات ذات أصول واحدة، وبخاصة في كلمات أسماء الأشخاص، أو الكلمات ذات الدلالة المعنوية التي لا يمكن تأديتها عن طريق التصوير، وبمرور الزمن تقدم المصريون خطوة أخرى، حين استعملوا بعض الرموز للدلالة على العلامات الساكنة الأولى في الصوتيات، وهكذا صار لديهم - زمن الدولة القديمة - مجموعة عِدَّتها أربع وعشرون علامة

هجائية، ولم تزد عن هذا العدد فيها بعد[1].

اكتشاف ورق البردي:

بلغ اختراع الكتابة قيمته الاجتماعية عن طريق اختراع آخر، وهو إيجاد مادة صالحة للكتابة، مع سهولة الحصول على هذه المادة بثمن في متناول الأيدي، ومن الواضح أنه طالما ظلَّت الكتابة مقصورة على النقش على الحجر (كما كانت الحال على ما يبدو في بلاد اليونان لعدة قرون)؛ فإن مجالها ينحصر في كتابة الوثائق ذات الأهمية البارزة، أمّا الإنتاج الأدبي فيكون طويلاً لدرجة أنه لا يمكن نقشه على الحجر أو المعدن، ولا بُدَّ من مادة أرخص لحفظه عن طريق تدوينه بالكتابة.

وقد تغلَّب المصريون القدماء على تلك المشكلة الأساسية بطريقة رائعة، فقد اكتشفوا طريقة لاستخدام ورق البردي في الكتابة، وهو مادة صالحة جدًّا للكتابة، صنعها المصريون من لُبِّ السيقان الطويلة لنبات البردي الذي كان يكثر في مستنقعات الدلتا، وكان اللُّب يُقطَّع إلى شرائح طويلة توضع متعارضة في طبقتين أو ثلاث، ثم تُبلَّل بالماء، ثم تضغط وتصقل، ولم يكن الأمر يكلفهم أكثر من جمع نبات البردي كثير الانتشار، أمّا صنعه ورقًا فكان هينًا للغاية.

غير أن كل اختراع يتطلب اختراعاتٍ أخرى مكمِّلة له، فلا يكفي أن يكون لدينا شيء في متناول اليد لنكتب عليه، بل يجب أن يكون لدينا أيضًا أدوات الكتابة نفسها، وقد استعمل المصريون في الكتابة أنواعًا مختلفة من الألوان ليكتبوا بها على ورق البردي بفرشاة دقيقة صُنِعَت من السمار الرقيق الذي وجدوه في نفس المواضع المائية مع نبات البردي.

ومن الواضح أن ورق البردي تفوق على غيره من المواد التي استعملها المصريون للكتابة في أي زمن من الأزمنة (مثل: العظام والفخار والعاج والجلد والكتان)، على أن ناحية من نواحي هذا التفوق لم تتضح لأول وهلة، مع أنها في نظرنا أهم هذه النواحي، وهي أن الأخبار المكتوبة على العظام أو الجلد أو غيرهما من المواد تظل قطعًا غير متصلة، لا يمكن الاحتفاظ بها مجموعة مدى قرون من الزمن، أما العباقرة مخترعو ورق البردي، فبعد أن صنعوا منه صفحات منفصلة لم يلبثوا أن أدركوا أنه يمكن لصق كثير من هذه الصفحات بعضها إلى بعض؛ الواحدة ذيل الأخرى وبذلك أمكنهم عمل درج - وهو في اللاتينية فليومن

---

[1] جورج سارتون: تاريخ العلم ١/ ٧٦.

volumen، ومنه اشتُقَّت كلمة فليوم volume في اللغات الأوروبية الحديثة - ليحتوي عو
نصٍّ مهما بلغ طوله، ويحفظه حفظًا تامًّا في ترتيبه الخاص، واختلف عرض الدرج من ثلا
أقدام إلى ثمانيةَ عشرَ قدمًا، وأما الطول فيتوقف على النص الذي يحتويه، وأطول بردية معروفة
هي التي تسمَّى هاريس رقم ١ (بالمتحف البريطاني رقم ٩٩٩٩)، ويبلغ قياسها ١٣٣ قدمًا ×
١٦ قدمًا[١]، وبفضل اختراع الدرج وصل إلينا كثير من النصوص القديمة كاملاً[٢].

الفلك:

ترجع معرفة المصريين بالنجوم إلى أبعد عصر من عصور ما قبل التاريخ، وليس في هذا
ما يدعو إلى العجب؛ لأن جوَّ مصر الصافي ولطافة طقسها المنعش أثناء الليل، حدا بالناس إلى
التأمل في حركات الأجرام السماوية، ولا بد أنهم لاحظوا أن النجوم موزعة توزيعًا غير
متساوٍ، وأنها مجموعات (أو أبراج) ذات أشكال معينة، وتسهيلاً للرجوع إلى هذه المجموعات
قسَّموا منطقة واسعة على طول خط الاستواء إلى ستة وثلاثين قسمًا يشمل كل منها أسطعَ النجوم
والمجموعات (أو أجزاءها)، مما يمكن رصد ظهوره كل عشرة أيام متعاقبة (وهو ما يُسَمَّى
ديكان)، ولدينا جداول قديمة لهذه الأقسام، والنجوم الخاصة بكل منها[٣].

ومن المعروف أن أهم حدث في الحياة المصرية هو الفيضان السنوي للنيل، إذ يتوقف
عليه رخاء الفلاح أو ضنكه (في الفيضان المنخفض)، واتفق ذلك الحدث تمامًا (أو تقريبًا لأن
انتظامه لم يكن دائمًا) مع شروق الشِّعرَى اليمانية، وهي أكثر النجوم تألقًا في السماء.

وقبل ذلك حاول المصريون حساب الزمن بواسطة القمر، ولكنهم سرعان ما انتقلوا عنها إلى
التقويم الشمسي؛ فغدت السنة عندهم أولاً مقسمة إلى اثني عشرَ شهرًا، وكل شهر منها ثلاثة دياكين
وساوت السنة ستة وثلاثين ديكانًا، ولكنهم سرعان ما أضافوا إليها خمسة أيام أعيادًا[٤].

العمارة والهندسة:

الأهرام معروفة لكل إنسان، وهي لذلك غنية عن التعريف، ولكنَّ القارئ العادي لا

---

(١) عُثِرَ عليها عام ١٨٥٥م بالقرب من معبد «الدير البحري»، وقد وصلت إلى يد أحد تجار الآثار في نفس الوقت، واشتراها منه في العام نفسه المستر «هاريس» الإنجليزي الأصل، وأول مذكرة كُتِبت عن هذه الورقة كانت عام ١٨٥٨م.

(٢) جورج سارتون: تاريخ العلم ١ / ٨١.

(٣) المصدر السابق ٨٥.

(٤) المصدر نفسه ١/ ٨٨.

يفكر إلا في أهرام الجيزة الثلاثة وهي أكبر الأهرام، ولكنَّها ليست كل ما هنالك منها، ولا هي أقدمها، أمّا أقدم هرم فهو ما بُني للملك زوسر من الأسرة الثالثة (في القرن الثلاثين قبل الميلاد)، وهو المعروف باسم الهرم المدرَّج بسقارة (قرب العاصمة القديمة منف جنوبي القاهرة)، ويبلغ ارتفاع هذا الهرم حوالي مائتي قدم [انظر صورة رقم ٣]، أما الهرم الأكبر، وهو أضخم الأهرام الثلاثة بالجيزة، فكان بناؤه بعد ذلك بقرن من الزمن للملك خوفو من الأسرة الرابعة، وهو أضخم بناء من العصور القديمة، ومن أضخم ما شيَّد الإنسان على الإطلاق، إذ يبلغ طول كل جانب من جوانبه حوالي ٧٧٥ قدمًا، وارتفاعه عندما كان كاملاً ٤٨٠ قدمًا. وهذه الأهرام التي شيدت لإيواء القبور الملكية وحفظها وصيانتها بُنِيَت من الحجر الجيري كتلة فوق كتلة، ما عدا الحجرات الجنائزية والممرَّات المتعرِّجة التي تؤدي إليها.



صورة رقم (٣)
هرم سقارة المدرج

وتثير إقامة هذه الأبنية الضخمة منذ تسعة وأربعين قرنًا مضت معضلاتٍ فنيةً متعددة لم يتضح كثيرٌ منها حتى الآن؛ فلا يزال مما يحير الفكر مثلاً: كيف تمكن المعماريون أيام خوفو من ابتكار تصميم لهذا البناء، وكيف تمكَّنت رعيته من إقامته؟ مع أن أدواتهم الهندسية، بالغة ما بلغت من التقدم بالقياس إلى أدوات الشعوب القديمة - كانت بدرجاتٍ كثيرةٍ دون أدواتنا - والواقع أن الأهرام بالجيزة عجيبة جدًّا لدرجة أن بعض العلماء الذين حاولوا كشف أسرارها وقعوا فريسةً لنوع من الجنون، فنسبوا إلى بناتيها القدماء قدراتٍ سحريةً وميتافيزيقية [انظر صورة رقم ٤].



صورة رقم (٤)
الأهرامات

وقـــد فسَّر بعـــض المســـتخِفِّين مجهودات بناة الأهرام معجزة البناء هذه؛

بقولهم: «استخدم المصريون آلافًا كثيرة من الرجال لمدة طويلة من الزمن، فأحلُّوا القوة البشرية محلَّ القوة الآلية بأعداد لا تنتهي من العمال»، ولا ريب أنهم استخدموا آلافًا كثيرة من العمال، ولكن هذا لا يفسر المعجزات المعمارية والفنية، بل يضيف إليها معجزاتٍ بشرية تشبهها في صعوبة تفسيرها؛ ذلك أنه من السهل أن نتحدث عن حشد ٣٠ ألف رجلٍ، للقيام معًا بعمل شاق، ولكن كيف حدث ذلك بالضبط؟ إنَّ عدد الرجال الذين يمكن حشدهم للإفادة منهم في عمل معين في مكان محدود يتطلب أن يكون عددًا محدودًا، ومع التسليم بأنَّ من المستطاع أن نستخدم عددًا كبيرًا - عشرات الآلاف مثلاً - من العمال معًا في وقت واحد، فإن الإشراف على مثل هذا العدد من العمّال يحتاج إلى مهارة كبيرة وتدبير، كما أن إطعامها من جوع، وسدَّ حاجاتها الأخرى يستلزم خبرة إدارية، ومهارة بالغة في شئون التموين، وسواء أكانت القوة اللازمة لعملٍ من الأعمال مستوردةً من محركٍ مكني أم من كتلة بشرية، فإن ترتيب هذا العمل وتنفيذه يتطلب معرفة وذكاء وتنسيقًا بين العمل والعمال[1].

الرياضيات:

تتضمن الأعمال المعمارية والهندسية في مصر قدرًا كبيرًا من المعرفة بالحساب والهندسة، وأول ذلك أنهم كانوا في حاجة ضرورية لمعرفة الطرق البسيطة لإجراء الحسابات المعقدة، وقد استطاعوا سدَّ مثل هذه الحاجة منذ القدم، فهناك صولجان ملكي بمتحف (الأشموليان) بأكسفورد يرجع تاريخه إلى عهد الملك نارمر[2] قبل الأسرة الأولى (أي عام ٣٤٠٠ق.م). يسجِّل الاستيلاء على ١٢٠ ألف أسير، و٤٠٠ ألف ثور، و١,٤٢٢,٠٠٠ من الماعز، وهذه لا شك أعداد كبيرة منقوشة بطريقة قريبة إلى حدٍّ ما من طريقة الأعداد الرومانية، لوجود رموز تحيل المليون لأرقام عشرية يمكن تكرارها عدة مرات حسب العدد المطلوب، وعلى العموم كتب المصريون أكبر الوحدات أولاً، ثم أعقبوها بالوحدات الأخرى حسب أهميتها.

أما الحاجة إلى الهندسة فواضحة حتى في بناء آثار بسيطة في مظهرها الخارجي كالأهرام، وهذه تعود بنا إلى القرن الثلاثين قبل الميلاد، ذلك أنه تحتَّم على بناة الأهرام أن يقطعوا كتل الحجر الجيري على مقاسات مضبوطة قبل وضعها على مواضعها المطلوبة، وأكبر هذه الكتل هي التي

---

(١) سارتون: تاريخ العلم ١/ ٩٠.

(٢) موحد مصر في القرن الثاني والثلاثين قبل الميلاد، ومؤسس الأسرة الفرعونية الأولى.

ـتبت ترتيبًا معقدًا فوق المقبرة الملكية بمثابة دعامات لتحويل الضغط عن سقفها، ويوجد من هذه الدعامات ٥٦ دعامة لسقف المقبرة الملكية في الهرم الأكبر، يبلغ متوسط وزنها ٥٤ طنًا، وبلغت لدقة التي رُوعِيَت في بناء ذلك الهرم (خوفو- الأسرة الرابعة) درجة لا يمكن تصديقها[1].

ويدل قطع الأحجار التي تطلب تركيبها بعضها إلى بعض معرفة بالهندسة وقياس الأحجار (وسنرى الآن كيف ذهب المصريون بعيدًا في هذا المضمار). ومع أنه من المستطاع أن نقول في اطمئنان بوجود أجهزة رياضية كافية نوعًا ما لدى بناة الأهرام، وأنه لم يكن في الإمكان أن ينهضوا بالجانب العلمي من عملهم بدون هذه الأجهزة، فلا توجد لدينا نصوص رياضية من الدولة القديمة ولا غيرها قبل الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ – ١٧٨٨ ق.م) مع احتمال رجاع أهم نصين من النصوص المتأخرة التي وصلت إلينا إلى تلك الأسرة نفسها[2].

الطب:

لا حاجة إلى التأكيد بقدم الطب المصري، ففي كل حضارة من الحضارات يتطور الطب مبكرًا، لأن الحاجة إليه عامة ملحة دائمًا، بحيث لا يمكن إغفالها في أية بقعة من بقاع الأرض، وليس هناك من شك أن المصريين مارسوا نوعًا من الطب منذ أبعد العصور ما قبل التاريخ، أي قبل الميلاد بعدة آلاف من السنين، مثال ذلك أنَّ استعمال الملاخيت كحلاً وطلاءً للعين يرجع إلى عصر البداري (٤٥٠٠ ق.م)، وأن استعمال الجالينا (خام الرصاص) لأغراض مشابهة جاء بعد ذلك في عصور ما قبل الأسرات أيضًا، وكان الختان طقسًا من طقوس المصريين منذ عصر سحيق، دلت عليه آثاره في الجثث التي استُخرِجَت من مقابر عصر ما قبل التاريخ (أي منذ عام ٤٠٠٠ ق.م) وفي مقبرة من الأسرة السادسة (حوالي ٢٦٢٥- ٢٤٧٥ق.م).

وأقدم طبيب معروف باسمه هو إيمحتب وزير الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة في القرن الثلاثين قبل الميلاد، وكان إيمحتب رجلاً عالمًا وفلكيًا وطبيبًا ومهندسًا معماريًا، وصار إيمحتب في العصور التالية معبودًا عند المصريين، باعتباره بطلاً وطبيبًا منزهًا عن كل شائبة، ثم عبدوه بعد ذلك باعتباره إلهًا للطب. ونحن لا نعرف إلا نزرًا يسيرًا عن مدى معرفة إيمحتب بالطب، غير أنَّ رفعه إلى مقام الإله ينطوي على معانٍ واضحة، تجعلنا مطمئنين إلى

---

(١) السابق ٩٨.

(٢) سارتون: تاريخ العلم ١/ ٩٩.

تقدير المصريين له بأنه أول رجل عظيم في الطب.

ولم يقتصر الأمر في عصر الأهرام على وجود كثير من الأطباء فحسب، بل تعداه إلى وجود أخصائيين بينهم في بعض فروع الطب، وتظهر مهارة أحد أطباء الأسنان الأولين في فك سفلي وجد في مقبرة من الأسرة الرابعة، (٢٩٠٠- ٢٧٥٠ ق.م) أجريت فيه عملية لتصريف الإفرازات من خراج تحت الضرس الطاحن الأول، ويتضح من اللوحة الجنائزية الخاصة بالطبيب (غيري)، وهو رئيس أطباء أحد فراعنة الأسرة السادسة (٢٦٢٥- ٢٤٧٥ ق.م) أنه كان أيضًا «طبيب العيون بالقصر» و«الطبيب الباطني للقصر» وأنه كان يلقب بألقاب منها «العارف بالإفرازات الباطنية» و«حارس الدبر»[1].

ثم نرتفع في مصر من هذه الأعماق إلى الأطباء العظام والجراحين والأخصائيين الذين ساروا في صناعة الطب على قانون أخلاقي ظل يُتَوَارث جيلاً بعد جيل حتى وصل إلى القسم الذائع الصيت: قسم أبقراط الذي انتقل إليهم من الحضارة اليونانية. وكان من المصريين أخصائيون في التوليد وفي أمراض النساء؛ ومنهم من لم يكن يعالج إلا اضطرابات المعدة ومنهم أطباء العيون. وقد بلغ من شهرة هؤلاء أن قورش استدعى واحدًا منهم إلى بلاد الفرس. أولئك هم الأخصائيون، أما غير الأخصائيين منهم فقد تُرِكَ لهم جمع الفتات بعد هؤلاء وعلاج الفقراء من الناس؛ وكان من عملهم فوق هذا أن يحضِّروا أدهان الوجه وصبغات الشعر، وتجميل الجلد، وأعضاء الجسم، ومبيدات البراغيث.

وقد وصلت إلينا عدة برديات تبحث في الشئون الطبية، وأعظمها قيمة بردية أدون سميث وسميت كذلك نسبة إلى مستكشفها وهي ملف طوله خمسة عشر قدمًا، ويرجع تاريخها إلى عام ١٦٠٠ ق. م تقريبًا وتعتمد على مراجع أقدم منها كثيرًا. وحتى لو ضربنا صفحًا عن هذه المراجع الأولى لظلت هذه البردية نفسها أقدم وثيقة علمية معروفة في التاريخ وهي تصف ثماني وأربعين حالة من حالات الجراحة التطبيقية تختلف من كسر في الجمجمة إلى إصابة النخاع الشوكي، وكل حالة من الحالات الواردة فيها مبحوثة بحثًا دقيقًا في نظام منطقي في عناوين مرتبة من تشخيص ابتدائي مؤقت، وفحص، وبحث في الأعراض المشتركة بين أمراض مختلفة، وتشخيص العلة

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة المجلد الأول، الجزء الثاني ١٣٠.

والاستدلال بأعراضها على عواقبها وطريقة علاجها، ثم تعليقات على سطح المصطلحات العلمية الواردة فيها وشروح لها. ويشير المؤلف في وضوح لا نجد له مثيلاً قبل القرن الثامن عشر الميلادي عن أن المركز المسيطر على الطرفين السفليين من أطراف الجسم كائن في المخ.

وكان لدى الأطباء المصريين عدة وافية من الأقراباذينات (دساتير الأدوية) لمقاومة هذه الأمراض كلها. ففي بردية إيبرز ثَبْتٌ بأسماء سبعمائة دواء لكل الأدواء المعروفة، من عضة الأفعى إلى حُمَّى النِّفاس[1]. وتصف بردية كاهون (ويرجع عهدها إلى حوالي عام ١٨٥٠ ق.م) أقماع اللبوس، ولعلها كانت تستخدم لمنع الحمل. وقد عُثِرَ في قبر إحدى ملكات الأسرة الحادية عشرة على صندوق للأدوية يحتوي على مزهريات، وملاعق، وعقاقير جافة، وجذور. وقد انتقلت بعض هذه الوسائل العلاجية من المصريين إلى اليونان، ثم انتقلت من اليونان إلى الرومان، ومن الرومان إلى العالم بعد ذلك، ولا نزال إلى اليوم نتجرع في ثقة واطمئنان كثيرًا من الأدوية التي خلطها وجهَّزها لنا المصريون على شاطئ النيل في أقدم الأزمان.[2]

ولقد حاول المصريون أن يحافظوا على صحة أجسامهم باتِّباع الوسائل الصحية العامة، وختان الذكور، وبتعويد الناس أن يُكثِرُوا من استخدام الحقن الشرجية. ويقول ديودور الصقلي في هذا المعنى: «وهم يتَّقون الأمراض بالمحافظة على صحة أجسامهم وذلك باستخدام الملينات وبالصوم وبالمقيئات، كل يوم في بعض الأحيان وكل ثلاثة أيام أو أربعة في بعض الآخر؛ وذلك لأنهم يقولون: إن الجزء الأكبر مما يحلّ بالجسم من طعام يزيد على حاجته، وإن الأمراض إنما تنشأ من هذا القدر الزائد»[3].

ويعتقد (بلني) أن المصريين قد تعلَّموا عادةً استخدام الحقن الشرجية من الطائر المعروف «بأبي منجل» وهو طائر يقاوم الإمساك الناشئ من طبيعة ما يتناوله من الطعام بإدخال منقاره الطويل في دبره واستخدامه كالمحقن. ويروي هيرودوت أن المصريين كانوا «يطهرون أجسامهم مرة في كل شهر ثلاثة أيام متوالية، ويعملون على حفظ صحتهم بالمقيئات والحقن الشرجية، لأنهم يظنون أن جميع ما

---

(١) هي حدوث ارتفاع في درجة الحرارة في خلال أربعين يومًا من الولادة.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة المجلد الأول، الجزء الثاني، ١٣٢ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق نفسه.

يصيب الناس من الأمراض إنما ينشأ مما يـأكلون مـن الطعـام»[1]. وهـذا المؤرخ- وهـو أول مؤرخ للحضارة- يصف المصريين بأنهم بعد اللوبيين[2] أصح شعوب العالم أجسامًا.

التحنيط:

ومن الأمور التي تميزت بها الحضارة المصرية إيمانها بفكرة الحياة بعد الموت، تلـك التي دفعت أفرادها إلى التفكير بطريقة يحافظون بها على جسم الإنسان بعد موته، تمهيدًا لانتقاله إلى هذا العالم الآخر، الذي كان في معتقدهم عالم إله الموت (أوزوريس).

وكانوا يدرسون التفاصيل المادية لجسم الإنسان أثناء حياته، ويحاولون أن يحتفظوا به بعد موته، بما يكفل عدم تحللها، وانصب اهتمامهم الأسـاسي عـلى الجسـد، كيـف يحفظونه وذلك من خلال التحنيط الذي كان يقوم به الكهنة والأطباء أو الفيزيائيون في أماكن خاصة وفقًا للطقوس الدينية الجوهرية الخاصة بالدفن.

واتبعوا للتحنيط أسلوبًا علميًّا دقيقًا، يتلخص في تفريغ جسم الإنسان مما فيه باستخدام بعض الأدوات في ذلك، فكانوا يفرغون الصدر، ويغسلون الأحشاء، ويقومون بحشوها بالبصل، ثم يلفون الجسم بلفافات كتانية تُسرِع في تجفيف الجسم، كما يفرغون الدماغ مـن الأنـف، ويضـمدون الجسم بعناية، كل عضو على حدة، وتوضع الأصابع والأكف والأقـدام والأرجـل والأذرع متقاطعـة على الصدر، والجسم يغطى بضمادات طويلة جدًّا جدًّا مـن الكتـان المغطسة بمادة صمغية تحمي الجسم من الصـدمات ولا تسـمح للبكتريا بالدخول للجسم.


صورة رقم (٥)
جثة محنطة من زمن قدماء المصريين

و بفضل تلك الطريقة العلمية المبتكرة والفريدة جدًّا تمكنًّا من الوصول إلى عدد من الجثث المحنطة للعديد مـن الأسر الفرعونية القديمة [انظر صورة رقم ٥].

وهكذا كان العلم، والتفكـير العلمـي سـبيل قـدماء المصريين إلى تلك النهضـة العظيمـة، التـي لا تـزال آثارها باقية حتى يومنا هذا.

---

(١) انظر ول ديورانت : قصة الحضارة ١/ ٢ صـ ١٣٥. (٢) أقوام بدائيون لا حضارة لهم، عاشوا في أفريقيا.

المبحث السادس
دور العلم في بناء الحضارة اليونانية

عُـرِفَ اليونـان بالتقـدم العلمـي مبكـرًا في تـاريخ الحضـارة الإنسـانية، إذ يـذكر (ول ديورانت) في قصة الحضارة أن العصر الذهبي للحضارة القديمة كان عند«اليونـان»، حيث ظهر النشاط الثقافي في ثلاثة أشكال رئيسية هـي الفـن، والتمثيـل، والفلسـفة، ويـذكر أن الفلاسفة كانوا يخشون مهاجمة العقائد الدينية للشعب مهاجمـة صريحـة، ونشـط فـيهم علـماء كثيرون، وكان عصر (بركليز) تحديدًا هو عصر النهضة البارزة علميًّا عـلى مختلـف مجـالات العلوم[1].

علم الحساب والهندسة:

يكاد علم الحساب المتداول بين جمهرة اليونان قبل عصر بركليز أن يكـون علـمًا بـدائيًّا لم يدخل عليه إلا القليل من الصقل والتهذيب، فكان يُرْمَز لرقم ١ بشرطـة عموديـة ولـرقم ٢ بشرطتين، وبثلاث شُرَط لرقم ٣ وبأربع لـرقم ٤، وكانـت الأعـداد ٥، ١٠، ١٠٠، ١٠٠٠، ١٠ر٠٠٠ يرمز لها بالحروف الأولى من الكلمات اليونانية التي تُسمَّى بها هذه الأعداد وهـي: بنتي Pente، وديكا Deka، وهكتون Hekaton، وكليـوي Chilioi، ومريـوي Myrioi. ولم يضع علماء الحساب اليونان رمزًا للصفر. ومما يدل على أن علم الحساب اليوناني مصدره بلاد الشرق أنه أخذ عن المصريين النظام العشري فقد كان اليونان يَعدُّون بالعشرات، وأخـذ عـن البابليين في علمي الفلك وتقويم البلدان الطريقة الاثني عشرية والسِّتِّينية؛ فكانوا يعـدون في هذين العلمين بالاثني عشرات والستينات[2].

أمّا الهندسة النظرية، فكانـت مـن الدراسـات المحبَّـبة إلى الفلاسـفة، ولم تكـن تُـدرَس لفائدتها العملية بقدر ما كانت تدرس لفائدتها الذهنية النظرية وما فيها من استدلال منطقـي خلاّب، وما فيها من دقة ووضوح، وتفكير متتابع ينبني بعضـه عـلى بعـض. كـذلك كانـت دراسات الفيثاغوريين للقطع المكافئ، والقطع الزائـد، والقطـع النـاقص هـي التـي مهـدت السبيل إلى مؤلّف (أبولونيوس البرجي) Appolonius of Perga في القطاعات المخروطيـة،

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ١ صـ ١٧٤.
(٢) المصدر السابق: ١٧٥.

وهو المؤلف الذي كان عظيم الشأن في تاريخ العلوم الرياضية. وفي عام ٤٤٠ ق.م
أبقراط الطشيوزي (وهو غير أبقراط الطبيب) أول كتاب معروف في الهندسة النظرية و
مشكلة تربيع المساحة الكائنة بين قوسين متقاطعين . وفي عام ٤٢٠ق.م أفلح
الآليائي Hippias of Elia في تقسيم الزاوية ثلاثة أقسام متساوية بالاستعانة بالمنحنى.

وملاك القول أن براعة اليونان في الهندسة قد بلغت من العظمة ما بلغه ضعفهم
الحساب. وكان للهندسة شأن عظيم في جميع نواحي نشاطهم، وحتى فنونهم نفسها
تدخلت فيها فوضعت أشكالاً كثيرة للحلي المنقوشة على خزفهم وأبنيتهم[1].

علم الفلك:

وكان هذا العلم قد خطا خطوته الأولى في بلاد اليونان حين أعلن (أنبادوقليس
(أكرجاس) أن الضوء يستغرق بعض الوقت في انتقاله من نقطة إلى أخرى. ثم خطا خطوة
حين أعلن (بارمنيدس) في (إيليا) Elea أن الأرض كروية الشكل، ثم قسَّم هذا الكوكب الأ
إلى خمس مناطق، وعرف أن القمر يواجه الشمس بجزئه المنير على الدوام. ثم قام (فيلو
Philolaus الفيثاغوري في طيبة فخلع الأرض عن عرشها في مركز الكون وأنزلها منزلة كوكب
الكواكب الكثيرة التي تطوف حول «نار تتوسطها» جميعًا. وجاء (لوقيبوس) Leucippus
فيلولوس فقال: إن النجوم قد نشأت من الاحتراق المتوهج لمواد «تندفع في مجرى الحركة
للدوامة الدائرية» ومن تجمع هذه المواد وتركزها. وقام في (أبدرا) (دمقريطس) تلميذ لوقيبوس
بعد أن درس العلوم البابلية، فوصف المجرة بأنها مكونة من عدد لا يحصى من النجوم الصغيرة
ولخص التاريخ الفلكي بقوله: «إنه تصادم دوري وتحطيم لعدد لا يحصى من العوالم». وجملة
أن القرن الخامس كان في جميع المستعمرات اليونانية عصر تطور علمي عجيب في زمن يكاد
خلوًا من الآلات العلمية[2].

الطب.. وأبقراط:

لقد كان أهم الحوادث في تاريخ العلوم اليونانية في عصر (بركليز) نهضة الطب القائم على
لا على الخرافة؛ ذلك أن الطب اليوناني قبل ذلك الوقت حتى في القرن الخامس نفسه كان

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ١ صـ ١٧٧

(٢) السابق نفسه ١٧٨

لارتباط بالدين إلى حد كبير، وكان كهنة هيكل أسكلبيوس Asclepius لا يزالون يقومون بعلاج المرضى. وكان العلاج في هذا الهيكل يقوم على خليط من الأدوية التجريبية، والطقوس المؤثرة فرهيبة، والرُّقى السحرية التي تؤثر في خيال المريض وتطلقه من عقاله، وليس ببعيد أنهم كانوا يلجأون أيضًا إلى التنويم المغناطيسي وإلى بعض المخدرات. وكان الطب الدنيوي ينافس الطب الديني ويحاول أن يتغلب عليه. وكان أنصار هذا وذاك يعزون منشأ علمهم إلى أسكلبيوس، ولكن الأسكلبيسيين غير الدينيين كانوا يرفضون الاستعانة بالدين في عملهم، ولا يدَّعون أنهم يعالجون المرضى بالمعجزات، وقد أفلحوا شيئًا فشيئًا في إقامة الطب على قواعد العقل[1].

وتطور الطب الدنيوي في بلاد اليونان أثناء القرن الخامس في أربع مدارس كبرى: في كوس ونيدس من مدن آسية الصغرى، وفي كرتونا بإيطاليا، وفي صقلية. وفي أكرجاس اقتسم أنبادوقليس مفاخر الطب مع أكرون Acron الطبيب المفكر المنطقي. وقد وصلت إلينا أنباء مدونة ترجع إلى عام ٥٢٠ عن طبيب يدعى (دِمُسِديز) Democedes وُلِدَ في (كرتونا)، ومارس مهنة الطب في إيجينا، وساموس، وسوسة. وفي كرتونا أيضًا خرَّجت المدرسة الفيثاغورية أوسع أطباء اليونان شهرةً قبل أبقراط، ونعني به (ألقميون) Alcmaeon الذي يُلقِّبونه: الأب الحق للطب اليوناني. ولكنه لم يكن في واقع الأمر إلا اسمًا متأخرًا في ثبت طويل من أسماء الأطباء غير الدينيين ضاعت أسماؤهم فيما وراء أفق التاريخ، وقد نشر هذا الطبيب في أوائل القرن الخامس كتابًا في الطبيعة Peri Physeos- وكان ذلك هو العنوان المألوف في بلاد اليونان لأي بحث عام في العلوم الطبيعية، ومبلغ علمنا أنه كان أول من حدَّد من اليونان موضع العصب البصري وقناة إستاكيوس، وشرَّح الحيوانات، وفسَّر فلسفة النوم، وقرَّر أن المخ هو العضو الرئيسي في عملية التفكير، وعرَّف الصحة تعريفًا فيثاغوريًّا فقال: إنها التوافق بين أجزاء الجسم المختلفة. وكان أكبر رجال الطب في نيدس هو يوريفرون Euryphron الذي كتب في الطب خلاصة موجزة تعرف باسم الجمل النيدية Cnidian Sentences، وقال عن التهاب البلورا: إنه مرض من أمراض الرئتين، وإن الإمساك منشأ الكثير من الأمراض، وذاع صيته لنجاحه في عمليات التوليد.

ويبدو أبقراط- كما تراه في سيرته الموجزة التي كتبها سويداس Suidas- أعظم أطباء زمانه بلا منازع. وقد وُلِدَ في جزيرة كوس في السنة التي ولد فيها دمقريطس، وأصبح الرجلان صديقين

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ١ ص ١٨٤ ..

حميمين بالرغم من بُعْدِ موطنيهما، ولربما كان «للفيلسوف الضاحك» نصيب في توجيه الطب وجه
دنيوية. وكان أبقراط ابن طبيب، وقد نشأ ومارس صناعته بين آلاف المرضى والسياح الذين وفد
على كوس «لأخذ الماء من عيونها الساخنة». ووضع له معلمه هيرودكس السلمبري Herodicus of
Selymbria الأساس الذي بنى عليه فنَّه بتعويده الاعتماد على نظام التغذية وعلى الرياضة الجسم
أكثر من اعتماده على الأدوية. وذاعت شهرة أبقراط حتى كان من بين مرضاه حكام مثل بردكس
Percdiccas ملك مقدونيا، وأردشير الأول ملك الفرس، وفي عام ٤٣٠ ق.م. استدعته أثينا ليحول
وقف انتشار الطاعون فيها[1].

وليس في كل ما كُتِبَ في الطب، وفي كل ما يمكن أن يكتب فيه ما هو أكثر تنوعًا من
مجموعة الرسائل التي كانت تُعزَى في القديم إلى أبقراط؛ ففيها كتب مدرسية للأطباء
ونصائح لغير رجال الطب، ومحاضرات للطلبة، وتقريرات، وبحوث، وملاحظات
وتسجيلات سريرية (إكلينيكية) لحالات طريفة، ومقالات كتبها سوفسطائيون ممن يهتمون
بالناحيتين: العلمية والفلسفية في الطب. وكانت الاثنان والأربعون سجلاً سريريًا هي
السجلات الوحيدة من نوعها في السبعة عشر قرنًا التي أعقبت ذلك العهد، وكانت أعلى
الأمثلة في الأمانة باعترافها أن المرض أو العلاج قد أعقبه الموت في ستين في المائة من
الحالات. وأربعة لا أكثر من هذه المؤلَّفات هي التي انعقد إجماع المؤرخين على أنها من كتب
أبقراط؛ وهي «الحكم» و«الأدلة» و«تنظيم التغذية والعوائد في الأمراض الحادة»، ورسالة
«في جروح الرأس»، أمّا ما عدا هذه الأربعة من المؤلَّفات المعزُوَّة إلى أبقراط فمن وضع
مؤلِّفين مختلفين عاشوا في أوقات مختلفة بين القرنين الخامس والثاني قبل الميلاد.

والتشخيص أضعف النقط في طب أبقراط. فقد يبدو أنه لم يكن يعنى بقياس النبض
وكانت الحمى تعرف باللمس البسيط كما كان الاستماع يحدث بالأذن مباشرة. وكان يؤمن
بالعدوى في أحوال الجرب، والرمد، والسل. وفي كتابه عن (الجسم Corpus) صور
إكلينيكية كثيرة للصرع، والتهاب الغدة النكفية الوبائي، وحمى النفاس، والحمى اليومية
وحمى الثلث، وحمى الربع. ولم يرد في المجموعة ذكر للجدري أو الحصباء، أو الخناق
(الدفتريا) أو الحمى القرمزية أو الزهري، كما لم يرد فيه ذكر صريح للتيفود.

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ١ صـ ١٨٥ ..

وتنزع رسائل «التنظيم» نحو الطب الوقائي بدعوتها إلى دراسة أحوال الداء في أول ظهوره - وهي محاولة لمعرفة أولى علامات المرض والقضاء عليه قبل أن يستفحل. وكان أبقراط شديد الولع بمعرفة العواقب في الطب، ويرى أن الطبيب الماهر يعرف بتجاربه نتائج أحوال الجسم المختلفة، وفي مقدوره أن يتنبأ بسير المرض من مراحله الأولى، ويقول: إنَّ معظم الأمراض تصل إلى مرحلة يقضى فيها إمّا عليها، وإمّا على المريض ذاته، وإنَّ تقديره الحسابي - الذي يكاد يبلغ في دقته الحساب الفيثاغوري - الذي يصل فيه المرض إلى أشد حالاته لمن أخص خصائص النظرية الأبقراطية.

ويقول أبقراط: إنَّ الطبيعة - أي قوى الجسم وبِنيته - هي أهم علاج لكل مرض أيًّا كان نوعه، وإن كل ما يستطيع الطبيب أن يفعله هو أن يقلِّل أو يزيل العقبات القائمة في طريق هذين الطريقين الطبيعيين للشفاء؛ ولهذا فإنَّ الطريقة الأبقراطية لا تستخدم العقاقير في العلاج، وأكثر ما تعتمد عليه هو الهواء النقي، والمقيئات، والأقماع، والحقن الشرجية، والحجامة، والإدماء (إسالة الدم)، والكمّادات، والمراهم، والتدليك، والمياه المعدنية. ومن ذلك كان دستور الأدوية اليوناني جد صغير يتكون معظمه من المسَهِّلات. وكانت أمراض الجلد تُعالَج بالحمامات الكبريتية، وبالتدليك بدهن كبد الدلفين. ويسدي أبقراط هذه النصيحة: «عِشْ عيشةً صحية؛ تنجُ من الأمراض، إذا انتشر في البلد وباء أو أصابتك حادثة. وإذا مرضت ثم اتبعت نظامًا صالحًا في الأكل والحياة أتاح لك ذلك أحسن الفرص للشفاء». وكثيرًا ما كان يوصي بالصوم إذا سمحت بذلك قوة المريض لأنه «كلما أكثرنا من تغذية الأجسام المريضة زدنا بذلك تعريضها للأذى». ويمكن القول بوجه عام إن «الإنسان يجب ألا يتناول إلا وجبة واحدة من الطعام في اليوم إلا إذا كانت معدته شديدة الجفاف».

أما الجراحة فكانت لا تزال في معظم الأحوال عملاً لا يتخصص فيه الطلاب، ويشتغل بها كبار الأطباء، وإن كان من الموظفين في الجيوش جراحون.

وجملة القول: إن العلوم اليونانية قد بلغت الدرجة التي ينتظر الإنسان أن يبلغها علم من العلوم من غير الاستعانة بآلات دقيقة للرصد والملاحظة، ومن غير التجارب العلمية[1].

***

---

(1) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ١ صـ ١٩٤.

الفصل الثاني

دور العلم في بناء الحضارة الإسلامية

ويضم هذا الفصل المباحث التالية:

المبحث الأول: دور العلم في بناء الخلافة في أيام عمر بن عبد العزيز.

المبحث الثاني: دور العلم في بناء الخلافة صدر الدولة العباسية.

المبحث الثالث: دور العلم في بناء الخلافة الأموية بالأندلس (عبد الرحمن الناصر ونـ
الحكم - قرطبة كمثال تطبيقي).

المبحث الرابع: دور العلم في بناء الدولة الزنكية والأيوبية (نور الدين محمود - صلاح
الدين الأيوبي).

المبحث الخامس: دور العلم في بناء الخلافة العثمانية.

* * *

المبحث الأول
دور العلم في بناء الخلافة
في أيام عمر بن عبد العزيز

كان قبسًا من نورٍ أضاء سماء الأمة الإسلامية في فترة من الفترات التي ضعفت فيها همم، وفترت فيها العزائم، فقيَّضه الله عزَّ وجلَّ للأمة ليكون مجدِّد دينها على رأس المائة ثانية، وقد كان !!

نشأته العلمية:

اختار «عبد العزيز» - والد عمر - صالح بن كيسان ليكون مربيًا لعمر بن عبد العزيز، فتولى صالح تأديبه وتعليمه، وحبَّبه في العلم، وكان أبوه حريصًا على تقويمه، وتشجيعه على حب والاجتهاد؛ يروي ابن كثير عنه أنه كان يلزم الصلوات المفروضة في المسجد منذ نعومة أظفاره، فتأخَّر مرة عن صلاة الجماعة، فسأله مؤدبه «صالح بن كيسان» عمّا أخره، فذكر له أن خدمة كانت ترَجِّل له شعره، فقال له: بلغ منك حبك تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة، وكتب إلى والده في ذلك، فبعث أبوه له من يحلق رأسه[1]، هكذا كانت تربيته.

كما تأثر فيما بعد بشيوخ كبار مثل «عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود» الذي كان عمر يحترمه ويُجِلُّه كثيرًا، وأخذ عنه ونهل من علمه وأدبه، ولما تُوُفِّي والده ضمه إليه عمُّه «عبد الملك بن مروان» (الخليفة الفقيه)، مما دفعه إلى العلم دفعًا، وجعله يدرك - منذ فترة مبكرة - أن الحياة لا تقوم إلا بالعلم، وأن العلم «لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كُلَّك»..

وهكذا تربى عمر وتعلم على يد طائفة كبيرة من العلماء والفقهاء، بلغ عددهم ثلاثة وثلاثين عالمًا، فيهم ثمانية من الصحابة، وخمسة وعشرون من التابعين[2]، نهل من علمهم وتأدب بأدبهم، ولازم مجالستهم حتى ظهرت آثار هذا العلم وهذه التربية على تصرفاته، فتميز بشخصية علمية دقيقة...

---

(1) البداية والنهاية ١٢/٦٧٨.

(2) مسند أمير المؤمنين عمر ص ٣٤.

حبه للعلم:

كان من توفيق الله جلَّ وعلا له أن حبَّب إليه العلم منذ صغره، فرحل في طلب العلم وأطال الجلوس في حلقات الفقهاء، ومجالس المحدثين.. ومنذ كان واليًا للمدينة المنورة وهو حريص على تلقي العلم من الصحابة وكبار التابعين، يذكر أنه كان يكثر من مجالسة شيخه «عبيد الله بن عبد الله بن عتبة»، وكان من شيوخه أيضًا سعيد بن المسيب، الذي عُرِفَ عنه أنه كان لا يأتي أحدًا من الأمراء إلا عمر، وذلك لما عرفه عنه من حبه للعلم، وتوقيره للعلم ولمكانته العلمية وما حصله فترة شبابه من علم جعله معلمًا لكثير من معاصريه، ومن شيوخه سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وكان مجلس عمر – رحمه الله- يضم نخبة من كبار العلماء. يذكر الزهري (الإمام العالم) أنه كان مع «عمر بن عبد العزيز» في ليلة يتحادثان، فقال له عمر: «كل ما حدَّثته الليلة فقد سمعته، ولكنَّك حفظت ونسينا»[1]..

وهذا يبين رسوخ قدمه في طلب العلم، وكثرة سماعه، وسعة اطِّلاعه، حتى يصرِّح للإمام الزهري، بأنه سمع كلَّ ما حدَّث به...

ومن الدلائل الواضحة على سعة علمه:

أنه ما من كتاب من كتب السنة أو الفقه الاستدلالي، إلا وفيه ذكر لعمر بن عبد العزيز من حديث أو رأي، أو أمر، أو قضاء، ونحو ذلك الاحتجاج لرأيهم بقوله وفعله، من ذلك الرسالة الشهيرة التي بعث بها الليث بن سعد إلى الإمام مالك، وفيها يحتج الإمام الليث غير مرة لصحة قوله بقول عمر على مالك فيما ذهب إليه في بعض مسائله.

كذلك يرد ذكره في كتب المذاهب الأربعة، على سبيل الاحتجاج به، حتى إن الحنفية جعلوا له وصفًا متميزًا به، وهو « عمر الصغير» تمييزًا له عن جده الفاروق عمر ﷺ، والإمام مالك ذكره في «الموطأ» في زيادة على عشرين موضعًا، كما أنَّ أصحابه من بعده قد أكثروا من ذكر عمر في كتبهم، وكذلك فعل الشافعية، وأمّا الحنابلة فيكفي للدلالة على شأنه الكبير عندهم والاحتجاج بقوله، ما قاله إمام المذهب – رحمه الله-: «لا أدري قول أحد من التابعين حُجَّة إلا قول عمر بن عبد العزيز»[2].

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٥/ ٣٨٥.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ١٩٢.

ورسالته الطويلة العظيمة في الرَّد على القَدَرية[1]، وحُجَجه القوية فيها، وتفنيد آرائهم، شاهد واضح، ودليل ناصع، على غزارة علمه، وكبير شأنه، كذلك حِجاجه للخوارج، وكشف زيوف آرائهم، حيث ناظرهم فما ترك لهم حُجَّة إلا كسرها بمنطق قويم، ودليل قوي، وحُجَّة غالبة، ورأي قاهر[2].

أقوال العلماء في علمه:

اجتمعت آراء الأئمة وشهاداتهم على أن عمر بن عبد العزيز أحد الأفراد من العلماء الراسخين، ومن أبرز علماء زمانه المليء بكبار التابعين، وهذه شذرات من أقوالهم:

عن الزهري قال عبيد الله بن عبد الله: «كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذة»[3]. وهذه شهادة عظيمة من أستاذه وخاصة شيوخه.

وقال مجاهد: «أتينا عمر بن عبد العزيز ونحن نرى أنه سيحتاج إلينا، فما خرجنا من عنده حتى احتجنا إليه»، وقال أيضًا: «أتينا عمر نعلمه، فما برحنا حتى تعلمنا منه»[4].

وقال ميمون بن مهران: «كان عمر بن عبد العزيز معلِّم العلماء»، وقال فيه سيد العلماء أيوب السختياني- وكفى به-: «لا نعلم أحدًا ممن أدركنا كان أخذ عن النبي ﷺ أكثر منه»[5].

وأمّا الإمامان مالك وابن عيينة فقالا: «عمر بن عبد العزيز إمام»[6]. وقال الحافظ ابن سعد فيه: «كان ثقةً مأمونًا، له فقه وعلم وورع، وروى حديثًا كثيرًا، وكان إمام عدلٍ، رضي الله عنه ورضي عنه»[7]، ووصفه الحافظ ابن عبد البر بأنه: «كان أحد الراسخين في العلم»[8].

وقال الإمام الذهبي: «وكان إمامًا فقهيًا مجاهدًا، عارفًا بالسنن، كبير الشأن، ثبتًا، حجة، حافظًا»[9].

فهذه كلمة إجماع من هؤلاء الأئمة الثقات، وبذلك أصبح عمر موئل العلماء، وقبلة الطالبين،

(1) حلية الأولياء ٥/ ٣٤٦. (2) حلية الأولياء ٥/ ٣٠٩.

(3) انظر تاريخ الإسلام للذهبي ١٩٠، والكامل في التاريخ ٢/ ٣٧١، وغيرهما.

(4) الطبقات ٥/ ٣٩٨، و البداية والنهاية ٩/ ١٩٤... وغيره.

(5) تهذيب التهذيب ٧/ ٤١٩. (6) السابق ص ٤٢٠.

(7) سير أعلام النبلاء ٥/ ١١٥. (8) جامع بيان العلم ٢/ ١٣٠.

(9) تذكرة الحفاظ ١/ ١١٨.

روى الحديث فأكثر، ونظر في النصوص فاجتهد واستنبط، فأخذ عنه الفقهاء، واعتبروا رأيه حجة.

قال الليث بن سعد – رحمه الله-: حدثني رجل كان صحب ابن عمر وابن عباس، وكان عمر بن عبد العزيز يستعمله على الجزيرة، فقال: «ما التمسنا علمَ شيءٍ إلا وجدنا عمر بن عبد العزيز أعلم الناس بأصله وفروعه، وما كان العلماء عند عمر بن عبد العزيز إلا تلامذة»[1].

جهوده في نشر العلم وتدوينه:

لم يجلس أمير المؤمنين عمر في حلقات العلم ليبثَّ فيها ما عنده، ولم يتصدر المجالس للإفتاء ونشر الفقه؛ إلا أنَّ له سابقة عظيمة، ودورًا أكبر خطرًا، وأعظم أثرًا، وأكثر نفعًا للمسلمين في هذا المجال... ذلكم هو جهده العظيم في تدوين الحديث النبوي، وكذلك جهده الوافر في تسيير العلماء والفقهاء لتعليم الناس وتثقيفهم وإرشادهم، وكان من جهده العظيم في هذين الجانبين ما يأتي:

أولاً: تدوينه العلم وأمره بذلك:

كان رسول الله ﷺ قد نهى عن كتابة غير القرآن في أول الأمر، مخافة اختلاط غير القرآن به، واشتغال الناس عن كتاب ربهم بغيره، ثم جاء بعد ذلك الإذن النبوي بالكتابة والإباحة المطلقة لتدوين الحديث الشريف، فنُسِخَ النهي، وصار الأمر إلى الجواز.

قال الخطيب البغدادي: «إنَّ كراهة الكتاب في الصدر الأول إنما هي لئلاَّ يضاهى بكتاب الله تعالى غيره، أو يُشتَغَل عن القرآن بسواه.. ونهى عن كَتْبِ العلم في صدر الإسلام، لقِلَّة الفقهاء في ذلك الوقت، والمميزين بين الوحي وغيره؛ لأنَّ أكثر الأعراب لم يكونوا فقهوا في الدين، ولا جالسوا العلماء العارفين، فلم يُؤمَن أن يُلحِقوا ما يجدون في الصحف بالقرآن ويعتقدوا أنَّ ما اشتملت عليه كلامُ الرحمن»[2].

ولقد هَمَّ عمر بن الخطاب ﷺ بجمع السنة، وفكَّر طويلاً، ثم لم يلبث أن عَدَلَ عن ذلك، فعن عروة بن الزبير « أن عمر بن الخطاب ﷺ أراد أن يكتب السنة، فاستفتى أصحاب النبي ﷺ في ذلك، فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق عمر يستخير اللهَ فيها شهرًا، ثم أصبح يومًا وقد عزم الله له، فقال: إني أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قومًا كانوا قبلكم كتبوا كتبًا؛ فأكبّوا

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ١٩٤.

(٢) انظر محمد الخطيب: أصول الحديث ١٤٧:١٧٦.

عنها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبدًا»[1].

ولما أُمِنَ ذلك ودعت الحاجة لم تُكرَه كتابة العلم، وثبت أن كثيرًا من الصحابة قد أباحوا تدوين الحديث، وكتبوه لأنفسهم، وكتب طلابهم بين أيديهم، وأصبحوا يتواصون بكتابة الحديث وحفظه.

بَيْدَ أن التدوين الذي آتى ثمارَه هو ما قام به أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وقد تجلَّى ذلك في إرشاداته لكتابة العلم وتدوين الحديث، وأوامره للخاصة والعامة لذلك؛ فمن إرشاداته قوله: « أيها الناس، قيِّدوا النعم بالشكر، وقيدوا العلم بالكتابة»[2]. ولم يكتفِ أميرُ المؤمنين عمر بهذا الإرشاد العام، والحضِّ على حفظ العلم بكتابته، بل سعى - بحكمه خليفة المسلمين - إلى إصدار أوامره إلى بعض الأئمَّة العلماء بجمع سنن وأحاديث رسول الله ﷺ، وقد حمله على ذلك ما رآه عند كثير من التابعين من إباحة كتابة الحديث، وهم قد حملوا علمًا كثيرًا، فخشي عمر على ضياعه خاصة وأنه ليس دائمًا يتوفر الحفظة الواعون لنقله، دونما احتياج إلى كتابة الكتب والرجوع إليها للاستذكار.

وثمة سبب آخر يضاهي سابقه في الأهمية، وهو انتشار الوضع، ودس الأحاديث المكذوبة، وخلطها بالصحيح من كلام النبي ﷺ، بسبب الخلافات المذهبية والسياسية، وإلى هذا يشير كلام الإمام الزهري: «لولا أحاديث تأتينا من قِبَلِ المشرق ننكرها لا نعرفها، ما كتبتُ حديثًا، ولا أذِنتُ في كتابته»[3].

ورأي الزهري هذا كان رأي كثيرٍ من أئمَّة ذلك العصر؛ حيث خافوا على الحديث النبوي من الضياع، واختلاطه بالمكذوب، مما حفَّز العلماء على حفظ السنن بتدوينها.

وجاء رأي السلطة العليا ممثلاً بقرار الخليفة الورع المجاهد أمير المؤمنين عمر؛ فاتخذ خطوة حازمة حاسمة بتدوين سنن رسول الله ﷺ، وجعل من مسؤوليات الدولة حفظ السنة المطهرة[4]؛ فكتب إلى الإمام الثَّبْت، أمير المدينة وأعلم أهل زمانه بالقضاء، أبي بكر بن حزم، يأمره بذلك ففي صحيح البخاري: «وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم (ضياعه)، وذهاب العلماء،

(١) ابن عبد البر: جامع بيان العلم ١/ ٧٦ :٩٣.

(٢) ابن الجوزي: مناقب عمر بن عبد العزيز ٢٧٦.

(٣) الخطيب البغدادي: تقييد العلم ١ / ٢٥٧.

(٤) الخطيب: أصول الحديث ١٧٦، وما بعدها.

ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ، ولتُفْشُوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرًا»[1]، وعند ابن سعد عن عبد الله بن دينار: قال: «كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن محمد عمرو بن حزم: أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ، أو سنة ماضية، أو حديث عمرة بنت عبد الرحمن[2]، فاكتبه، فإني خِفْتُ دروس العلم وذهاب أهله»[3].

كذلك وجَّه كتابًا بهذا الشأن إلى الإمام الحجة ابن شهاب الزهري، فقد ذكر ابن عبد البر أن ابن شهاب قال: «أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن، فكتبناها دفترًا دفترًا، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترًا»[4]. ومن هنا قال الحافظ ابن حجر: «وأول من دون الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز، ثم كَثُرَ التدوين ثم التصنيف وحصل بذلك خير كثير، فلله الحمد»[5]، بل إنَّ عمر أرسل إلى أهل المدينة جميعًا يحثهم على جمع حديث رسول الله ﷺ؛ ليشارك في هذا كل من لديه علم، ولو كان بضعة أحاديث؛ فعن عبد الله بن دينار قال: «كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل المدينة: أن انظروا حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه، فإني قد خفت درس العلم وذهاب أهله»[6].

ولم يقف عمر عند ذلك، بل عمَّم أوامره إلى جميع الأمصار في الدولة الإسلامية؛ ليقوم كل عالم بجمع وتدوين ما عنده من حديث رسول الله ﷺ، وما سمعه من أصحابه الكرام، روى أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» فقال: «كتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق: انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه واحفظوه، فإني أخاف دروس العلم وذهاب العلماء»[7].

كذلك فإن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه اهتمَّ باللغة العربية؛ فشجَّع أهل البلاد المفتوحة على تعلمها وإتقانها، وكان يُغدِق عليهم – لذلك – العطايا، كما كان يعاقب من يَلْحَن بالعربية، وينقص من عطائه، لما يعلم من أهمية العربية في فهم كتاب الله تعالى والسنة الشريفة[8].

---

(١) فتح الباري ١/ ١٩٤.

(٢) وكانت من أثبت الناس بحديث أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، كما ذكر ابن حزم.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٣٧٨. (٤) جامع بيان العلم ١/ ٩١.

(٥) فتح الباري ١/ ٢٠٨.

(٦) الدارمي: باب من رخص في كتابة العلم (٤٨٨) قال حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

(٧) ابن حجر: فتح الباري ١/ ١٩٥. (٨) عبد الرحمن الشرقاوي: «عمر» ١٧٨.

منهجه وطريقته في التدوين:

اتبع عمر بن عبد العزيز ﷺ في جمع الحديث النبوي وتدوينه منهجًا سديدًا قويًا، ووضع ـه شروطًا صارمة، ويتجلَّى ذلك في أربعة أمور:

الأول: حُسْنُ اختياره للقائمين بهذا الأمر:

فقد اختار له (ابن حزم)، والزهري: فأمّا أبو بكر بن حزم فهو أحد أوعية العلم، ومن ـعلام عصره، قال فيه الإمام مالك: «ما رأيت مثلَ ابن حزمٍ أعظم مروءةً ولا أتم حالاً، ولا ـبت من أُوتِيَ مثل ما أوتي: ولاية المدينة، والقضاء، والموسم»[1].

وأما ابن شهاب الزهري فهو إمام العلم، حافظ زمانه، وشهرته ملأت الآفاق: قال فيه ـيث بن سعد: «ما رأيت عالمًا قطُّ أجمع من ابن شهاب: يحدِّث في الترغيب والترهيب؛ ـقول: لا يحسن إلا هذا، وإن حدَّث عن العرب والأنساب، قلت: لا يحسن إلا هذا، وإن حدَّث عن القرآن والسنة، كان حديثه»[2].

وقال عمر بن عبد العزيز: عليكم بابن شهاب، فإنه ما بقي أحدٌ أعلم بسُنَّةٍ ماضية منه»[3]، وقيل ـكحول: «مَنْ أعلم من لقيت؟ قال: ابن شهاب. قال: ثم من؟ قال: ابن شهاب»[4].

الثاني: أنه طلب ممن يدون له السُّنة جمع الأحاديث مطلقًا وتدوينها، وتتبع أحاديث ـس مخصوصين لما امتازوا به، وتدوين أحاديث معينة لأهميتها؛ فقد أمر ابن حزم بتدوين حديث عَمرة بنت الرحمن لأنها من أثبت الناس بأم المؤمنين عائشة[5]، والسيدة عائشة هي ـعم الناس بأحوال سيدنا رسول الله ﷺ وشؤونه الخاصة داخل بيته ومع أهله.

وذكرت إحدى الروايات أنه أمر ابن حزم بجمع وتدوين حديث «عمر بن الخطاب»، ـذلك لما يقصده ابن عبد العزيز من تتبع سيرة الفاروق، وأقضيته وسياسته في الصدقات، ـكتبه إلى عماله فيها، وقد طلب عمر ذلك أيضًا من سالم بن عبد الله بن عمر، وكل ذلك ـضح من النهج الذي سلكه عمر بن عبد العزيز في الاقتداء بجده ﷺ.

---

(1) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣١٣.

(2) انظر سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٢٦.

(3) تهذيب التهذيب ٩/ ٣٩٥.

(4) تذكرة الحفاظ ١/ ١٠٨.

(5) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/ ٣٨٧.

الثالث: أنه ألزم مَن يُدوِّن السنة النبوية أن يميز الصحيح من السقيم، ويتحرَّى الثبت من الحديث، وذلك واضح في رواية الدارمي؛ حيث يقول عمر لابن حزم: «اكتُبْ إليَّ بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله ﷺ، وبحديث عمر»[1]، وعند الإمام أحمد :«اكتب إليَّ من الحديث بما ثبت عندك عن رسول الله ﷺ، وحديث عَمْرة»[2].

وهذه نقطة عظيمة الأهمية في تأسيس منهج التدوين على أسسٍ راسخة، ثابتة صحيحة

الرابع: تَثَبُّته شخصيًا من صحة الحديث والتحديث:

فعمر من كبار العلماء، وليس بأقل شأنًا في العلم ممَّن أمرهم بالتدوين؛ لذلك قام بمشاركة العلماء في مناقشة بعض ما جمعوه، زيادةً في التثبت؛ من ذلك ما رواه أبو الزناد عبد الله بن ذكوان القرشي قال: رأيت عمر بن عبد العزيز جمع الفقهاء، فجمعوا له أشياء من السنن، فإذا جاء الشيء ليس العمل عليه؛ قال: هذه زيادة ليس العمل عليها»[3].

ثمرة هذا التدوين:

لقد آتَتْ هذه الجهود الباكرة المباركة أُكُلَها، وتمثَّل ذلك بتلك الدفاتر التي جمعها الإمام الزهري. فأمر عمر بن عبد العزيز بنسخها عدَّة نسخ، ثم أرسل إلى كل بلد في دولته الكبيرة دفترًا منها.

ويُلاحَظ أن كثيرًا من العلماء جمع لنفسه مسموعاته، ليعود إليها كلَّما وجد في نفسه الحاجة إلى إتقان حفظها، أما التدوين الرسمي، الذي تولَّته الدولة، وعُمِّمَت ثمرتُه على الأمصار، فكان بأمر عمر بن عبد العزيز.

ومن الثمرات الطيبة- أيضًا – ذلك المنهج السديد الذي اتبعه أمير المؤمنين عمر، بوضع الأسس والنقاط المهمة أثناء التدوين، فكانت نواة لمنهج واسع متكامل جاء بعده.

وهذا كله ناتج من دِقَّة فهمه، وغزارة علمه، ونفاذ بصيرته وقبل ذلك وبعده توفيق الله تعالى له

ولئن كان عمر بن الخطاب قد أشار على الصِّدِّيق بجمع القرآن، ففعل، فكان لهما الفضل الكبير على الأئمة، ثم جاء عثمان فجمع الناس على مصحف واحد، وحرف واحد، ولهجة واحدة هي لهجة قريش – فإن الله ﷻ قد ادَّخر لعمر بن عبد العزيز تلك المنقبة العظيمة

(١) الدارمي: باب في من رخَّص في كتابة العلم (٤٨٧).

(٢) أحمد بن حنبل: العلل ومعرفة الرجال ١/ ١٥٠.

(٣) محمد الخطيب: أصول الحديث ١٧٩.

والمكرمة الجليلة، في إصدار أوامر الخلافة بجمع السنة وتنقيحها وتدوينها، وجعل من واجبات الدولة حماية السنة التي هي المصدر الثاني للتشريع.

وهي سُنَّة حسنة له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، فلولا التدوين لضاع الكثير من الحديث النبوي، خاصة في العصور المتأخرة، بعد أن قلَّ الحفظ والرواية والسماع، بل حتى الاهتمام بالحديث الشريف.

ولِعُمَر بذلك مِنَّةٌ عظيمة على الأمة، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وهذا من توفيق الله للعظماء وكبار المصلحين، عندما تخلُص سرائرهم، يوفقهم الله للحق، ويدلهم على الخيرات، ويسدد خطواتهم ويهيئ لهم من أمرهم رشدًا.

ثانيًا: نشره العلم في الأمصار:

لما كان «من واجبات الدولة أن تُسهِّل تحصيل العلم لجميع القادرين على تحصيله، وهو من فروض الكفايات التي يجب على الدولة القيام به، وتمكين الناس من الوصول إليه»[1]، لم يأْلُ عمر - رحمه الله - جهدًا في القيام بهذا العبء خير قيام، وأداء هذا الواجب على الوجه الأكمل، فأرسل العلماء إلى الأمصار بل والبوادي، ليعلموا أهلها شرع الله، ويفقهوهم به.

فبعث إلى مصر الإمام المفتي الثبت، عالم المدينة «نافعًا» مولى لبن عمر وراويته؛ قال عبيد الله بن عمر: «بعث عُمر بن عبد العزيز نافعًا مولى ابن عمر إلى أهل مصر يعلمهم السنن»[2].

وأرسل عشرة من فقهاء مصر من رجال التابعين إلى إفريقية ليفقهوا أهلها ويعلموهم، وينشروا بينهم حديث رسول الله ﷺ، لينالهم من الخير مثل الذي يَعُمُّ إخوانهم من أهل الحجاز والشام والعراق، وكانت معاقل العلم، فلم يحتج عمر أن يسير لها العلماء، بل تطلَّع إلى أقاصي دولته، فأرسل العلماء إليها، بل إنه أرسل الفقهاء إلى البدو ليعلموا الناس في مضاربهم ويفقهوهم في دينهم؛ روى ابن الجوزي عن ابن أبي غيلان قال: «بعث عمر بن عبد العزيز يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث الأشعري يفقهان الناس في البدو، وأجرى عليهما رزقًا...»[3].

كذلك كان يرسل الكتب إلى الأمصار الإسلامية في دولته الكبيرة، يعلمهم فيها السنن

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ١/ ١١٩، وذكره الإمام أحمد في مقدمة مسنده.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٥/ ٩٧. (٣) سيرة ومناقب عمر، لابن الجوزي ٩٢.

والفقه، ويأمرهم بإحياء ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته، والالتزام بالشرع، وترك ما خالفه، وكانت الكتب تُوَجَّه إلى الولاة والأمراء ليعملوا بها، ويحملوا الناس على التزام ما فيها، وإذا أُشكِلَ على عمر أمرٌ بعث إلى المدينة يسألهم عن ذلك؛ يقول الإمام مالك: «كان عمر بن عبد العزيز يكتب إلى الأمصار يعلمهم السنن والفقه، ويكتب إلى المدينة يسألهم عما مضى، وأن يعملوا بما عندهم»[1]، ويقول الحسن البصري: «وما ورد علينا قَطُّ كتاب عمر بن عبد العزيز إلا بإحياء سنة، أو إماتة بدعة، أو رد مظلمة»[2].

وقد أمر - رحمه الله- بإفشاء العلم، وذمِّ كتمانه، وذلك واضح في كتابه إلى أبي بكر بن حزم «ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرًا»[3].

وقد عمل - رحمه الله- على تذليل الصعوبات أمام العلماء وطلبة العلم؛ ففرض المرتبات للعلماء، ولكلِّ مَنْ نَصَبَ نفسه للعلم وحبسها عليه؛ فقارئ القرآن الذي حفظه، وقام يُقرئه للناس، ويُعلِّمهم أحكامه، والمحدِّث الذي يعقد مجالس الإملاء وينشر الحديث النبوي. والفقيه الذي ينظر في الكتب ويستنبط منها، ويعلِّم الناس أمور دينهم ليعبدوا الله على بصيرة والطالب الذي يتفرغ للعلم أو البحث والدرس، كل أولئك قد يشغلهم أمر ذويهم وأبنائهم وسدُّ حاجاتهم، وتدبير أمور معاشهم، فقام عمر بقطع هذا الهاجس عنهم، وكفل لهم ولمن يعولون ما يعيشون به حياة كريمة، تتكفَّل به الدولة، ويُؤخَذ من بيت المال، ونعمًا فعل - رحمه الله-، فبذلك شجع كلَّ مَن وجد في نفسه الإمكانية لنشر العلم وخدمة الدين والأمة.

روى الإمام الثقة الحجة الخطيب البغدادي عن أبي بكر بن أبي مريم قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى والي حمص: «مُرْ لأهل الصلاح من بيت المال بما يغنيهم؛ لئلاً يشغلهم شيء عن تلاوة القرآن، وما حملوا من الأحاديث»[4].

اهتمامه - رحمه الله- بتعليم أولاده:

لم يقتصر اهتمام عمر بن عبد العزيز بالعلم على هذا القدر - على عِظَمِ شأنه - ، ولكنه كان نموذجًا مثاليًا في تربية أبنائه على العلم، وحُبِّ العلماء وتوقيرهم، واتبع إجراءاتٍ تعليمية جعل منها منهجًا جديرًا يلبي حاجة الناشيء المسلم، وكان يغرس في أبنائه حب العلم منذ الصغر.

(١) مقدمة مسند الإمام أحمد ص١٧.
(٢) السابق ص٦.
(٣) ابن حجر: فتح الباري ١/ ١٩٤.
(٤) الخطيب البغدادي: شرف أصحاب الحديث ١٥٥.

يتعاهدهم بالرعاية والعناية، فها هو يعلِّم ابنه (عبد الملك) مُذْ أصبح يجيد الكلام القراءة وبعض القرآن، قبل أن يدفع به للمعلمين، ويقول له ابن عمه في ذلك: (دعه يلعب مع الصبيان، فما زال طفلاً)، فأخذ عمر بيده وقال له: «يا بُنَيَّ كُنْ عالمًا، فإن لم تستطع فمتعلمًا»[1]...

ولما اطمأنَّ إلى أنَّ بنيه قد أخذوا حظهم من التربية المستقيمة في بيت الأبوة القويمة تعليمة، وأُسِّسَتْ أخلاقُهم على التقوى، وتشرَّبت نفوسُهم حبَّ العلم والتعلُّم، اختار لهم مؤدِّبًا عالمًا تقيًا، بعث به إليهم، وأرسل إليه رسالة يحدد له فيها الطريقة المثلى للتأديب فقال له: «فإني قد اخترتك على علمٍ منِّي بك، لتأديب ولدي، فصرفتهم إليك من غيرك من مواليَّ وذوِي الخاصة بي،.. وليفتتح كل غلام منهم بجزء من القرآن يثبت في قراءته، فإذا فرغ تناول قوسه ونبله وخرج للرمي...»[2].

وظلَّ - رحمه الله- يتابع أبناءه ويتعهَّدهم بالرعاية، ويُسدِّد خطاهم ويوجههم، فكتب إلى أحد أبنائه يقول: «يا بُني احذر الصرعة على الغفلة، حين لا تستجاب الدعوة، ولا سبيل إلى الرجعة، ولا تغترنَّ بطول العافية، فإنما هو أجل ليس دونه فناء، ولا بعد أن تستكمله بقاء»[3].

وقال لابنه عبد العزيز: «يا بُني إذا سمعت كلمة من امرئ مسلم، فلا تحملها على شيء من الشر، ما وجدت لها محملاً على الخير»[4].

وبلغه أن ابنًا له اتخذ خاتمًا، واشترى له فصًا بألف درهم، فكتب إليه عمر قائلاً: «أما بعدُ، فقد بلغني أنك اشتريت فصًا بألف درهم، فبعه، وأشبع به ألف جائع، واتخذ خاتمًا من حديد، واكتب عليه: رحم الله امرأً عرف قدر نفسه»[5].

رحم الله عمر بن عبد العزيز؛ كان طودًا من أطواد العلم، ونبراسًا لمن جاء بعده؛ فجزاه الله عن الأمة خير الجزاء !!

***

(١) انظر سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي،ص ٢١٩.

(٢) السابق ٢٢٠. (٣) أبو نعيم: حلية الأولياء ٤/ ٢٤٠.

(٤) انظر: السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٢٠٠، وما بعدها.

(٥) السابق نفسه.

المبحث الثاني
دور العلم في بناء الخلافة صدر الدولة العباسية
(هارون الرشيد والمأمون)

شكّلت «الخلافة العباسية» مرحلة مهمة واسعة التأثير في تاريخ الإسلام، و لايكـ المنشغلون بالحضارة الإسلامية يتحدثون عنها إلا وتأتي فترة الخلافة العباسية كواسطة العقـ وقمة المجد التي تشار إليها دائمًا، ولم يكن ذلك من فراغ، فقد اهتم الخلفاء العباسيون عـ بالنهضة والرقي بالأمة الإسلامية، بعد أن وطدوا أركان دولتهم، وكان أبرز اسمين في النهضة العلمية التي حدثت في العصر العباسي « هارون الرشيد» وابنه «المأمون».

نشأة الرشيد العلمية:

وُلِدَ هارون الرشيد ونشأ وتربَّى في بيت علمٍ وأدب؛ فقد اهتم والده (المهدي) بتعليمه وعهد بذلك لطائفة من كبار علماء عصره، كان منهم «الكسائي» الذي يُذكَر عنه أنه كان إمامًا في عددٍ من العلوم، وجلس الرشيد كذلك إلى إمام اللغة «الخليل بن أحمد»، وعلَّمه «المفضَّل الضبِّي»(وهو من أوثق رواة الشعر في زمانه) الشعرَ وأيام العرب، وملأه الأصمعي (راوية العرب) بنوادر العرب الأدبية، كما قرأ الرشيد القرآن على «حمزة الزيّات» أربع مرات، واختار لنفسه ـ منذ حداثة سنه ـ إحدى القراءات السبع فأتقنها وأجادها، فلا عجب أن يصبح ذا ثقافة واسعة، وأن يجمع إلى عقله الراجح أدبًا جمًا، ومعرفةً بشتَّى أنواع العلوم والمعارف. إلى الحدِّ الذي جعل معاصريه يقولون: «كان فهم الرشيد فهم العلماء»[1].

وكان الرشيد يحب العلماء، ويسعى لطلب العلم على أيديهم مهما بذل من جهد؛ قال القاضي الفاضل[2]: «ما أعلم أنَّ لملكٍ رحلةً قطُّ في طلب العلم إلا للرشيد؛ فإنّه رحل بولديه: الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك - رحمه الله-، قال: وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد في خزانة المصريين..»[3].

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ٢٤٧.

(٢) هو عبد الرحيم بن علي اللخمي، المعروف بالقاضي الفاضل: (٥٢٩ ـ ٥٩٦) وزير السلطان صلاح الدين الأيوبي ..(انظر معجم المؤلفين: ٥ / ٢٠٩ وابن خلكان: وفيات الأعيان ١: ٣٥٧ - ٣٥٩).

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ٢٤٩.

تقديره للعلماء:

كان الرشيد - رحمه الله- محبًا للعلم والعلماء، وكان يعرف للعلماء فضلهم؛ لذا لما بلغه موت عبد الله بن المبارك حزن عليه، وجلس للعزاء فعزاه الأكابر، و أمر الأعيان أن يعزوه فيه(١).

وعن أبي معاوية الضرير، قال: صبَّ على يدي بعد الأكل شخصٌ لا أعرفه؛ فقال الرشيد: تدري من يصب عليك؟ قلت: لا. قال: أنا؛ إجلالاً للعلم(٢).

وقد كان العلماء يبادلونه هذا التقدير، فقد رُوِيَ عن الفضيل بن عياض أنه قال: «ما من نفس تموت أشد عليَّ موتًا من أمير المؤمنين هارون، ولوددتُ أنَّ الله زاد من عمري في عمره»، قال عثمان بن كثير الواسطي: فكبُرَ ذلك علينا؛ فلمّا مات هارون، وظهرت الفتن، وكان من المأمون ما حمل الناس على القول بخلق القرآن؛ قلنا: الشيخ كان أعلم بما تكلَّم.(٣)

النهضة العلمية في عصر الرشيد:

كان لابد لهذه النشأة المفعمة بطلب العلم أن تثمر حياةً قوامها العلم، وتشجيع العلماء؛ - فقد عُرِفَ عصر الخليفة العباسي الرشيد بأنه عصر ازدهار الحركة العلمية في الدولة العباسية، لاسيما بعد انتشار حركة النقل والترجمة آنذاك...

بتولي الرشيد الحكم بدأ عصر زاهر كان واسطة العقد في تاريخ (الدولة العباسية) التي دامت أكثر من خمسة قرون، ارتقت فيه العلوم، وسمت الفنون والآداب، وعمَّ الرخاء ربوع الدولة الإسلامية؛ فقد أنشأ بيت الحكمة، وزوَّده بأعداد كبيرة من الكتب والمؤلَّفات من مختلف بقاع الأرض كالهند وفارس والأناضول واليونان. وكان يضم غرفًا عديدة يمتد بينها أروقة طويلة، خُصِّصَ بعضُها للكتب، والبعض الآخر للمحاضرات، في حين خُصِّص جزءٌ ثالث للناسخين والمترجمين والمجلِّدين، وعهد الرشيد إلى «يوحنا بن ماسويه» بالإشراف على بيت الحكمة، وكلَّفه بالقيام بترجمة كثيرٍ من الكتب التي قدمت لبغداد من حرب أنقرة، ووضعه أمينًا على الترجمة، وكان أكثر هذه الكتب يتجِّه إلى الطب والفلسفة وعلوم الفلك،

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ٢٤٢.   (٢) السابق نفسه.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٤/ ١٢.

وكان منها مؤلفات علماء اليونان كأرسطو وجالينوس وأبقراط.[1]

وغدت (بغداد) قبلة طلاب العلم من جميع البلاد، يرحلون إليها حيث كبار الفقهاء والمحدثين والقُرَّاء واللغويين، وكانت المساجد الجامعة تحتضن دروسهم وحلقاتهم العلمية التي كان كثير منها أشبه بالمدارس العليا، من حيث غزارة العلم، ودقة التخصص، وحرية الرأي والمناقشة، وثراء الجدل والحوار. وكان الرشيد نفسه يميل إلى أهل الأدب والفقه والعلم، ويحيط نفسه بهم.

وكان الرشيد وكبار رجال دولته يقفون وراء هذه النهضة، يصلون أهل العلم والدين بالصلات الواسعة، ويبذلون لهم الأموال تشجيعًا لهم، حتى إن ول ديورانت يذكر في «قصة الحضارة» : «ولسنا نعلم في التاريخ كله أن حاشية للملوك قد جمعت مثلما جمعت حاشية الرشيد من العلماء ذوي العقول الراجحة النابهين»[2]، ففي عصره اجتمع أبو يوسف (صاحب كتاب الخراج أول كتاب في منهج الاقتصاد الإسلامي)، وعبد الله بن المبارك (الزاهد المجاهد)، والفضيل بن عياض، واثنان من الأئمة الأعلام مالك والشافعي رحمهم الله جميعًا.

اهتمامه بعلماء الشرع:

لما كانت ثقافة الرشيد - رحمه الله- قائمة على الكتاب والسنة، وما يدور حولهما من شروح وإيضاحات، لم يكن غريبًا أن يختار وينتقي لمناصب الدولة خِيرَة علماء الشرع، فكان من أول ما قام في هذا الصدد أن اختص العلامة «أبا يوسف» بمكانة عالية، وجعله «قاضي قضاة» الدولة، بحيث لا يُعَيَّن أحدٌ من القضاة إلا بأمره وإشارته، وكان أبو يوسف يكثر من وصية الرشيد، ولم يكن الرشيد إلا مستمعًا له عاملاً بوصاياه، من ذلك وصيته الطويلة التي يحثه فيها على كل ما فيه مصلحته ومصلحة المسلمين.[3]

وكان يحفظ للإمام مالك بن أنس - رحمه الله- مكانته ومقامه، ويمنحه من السلطة بالمدينة ما يجعل أمره نافذًا على الوالي، بل ويستقبل منه رسالة طويلة في «وعظه» و إرشاده تشمل أجمل ما يهدى للملوك، والأمراء من النصائح والإرشادات، والسلوك في تعامله مع الرعية..[4]

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢/ ١٠٩ وما بعدها.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ٢.

(٣) الوصية مذكورة بالتفصيل في حسن التقاضي في سيرة أبي يوسف القاضي للكوثري ٩٤ ـ ١٠١.

(٤) انظر الرسالة مطولة: شوقي أبو خليل- هارون الرشيد- أمير الخلفاء ص ١٣٩ وما بعدها.

وذكرنا كيف كانت منزلته عند الفضيل بن عياض، وكيف أدرك فضله وعلمه، ذلك أن الرشيد كان يرفع من قدر العلماء دائمًا، فضلاً عن أنه نفسه كان من العلماء ..

علوم الحياة في عصره:

لقد بلغ التقدم في علوم الحياة في عصر الرشيد ذروةً سامقةً، في حين كان الغرب يعيش أشدّ عصوره تخلُّفًا، ومما يُذكَر في هذا الشأن أنَّ هارون الرشيد أرسل هدية عجيبة إلى شارلمان ملك الفرنجة، وكانت الهدية عبارة عن ساعة ضخمة بارتفاع حائط الغرفة تتحرك بواسطة قوة مائية، وعند تمام كل ساعة يسقط منها عدد معين من الكرات المعدنية بعضها في إثْرِ بعض عند الساعات فوق قاعدة نحاسية ضخمة، فيُسمَع لها رنينٌ موسيقيٌّ يُدَوِّي في أنحاء القصر..

وفي نفس الوقت يُفتَح بابٌ من الأبواب الاثني عشر المؤدية إلى داخل الساعة، ويخرج منها فارس يدور حول الساعة، ثم يعود إلى حيث خرج، فإذا حانت الساعة الثانية عشرة يخرج من الأبواب اثنا عشر فارسًا مرةً واحدةً، ويدورون دورةً كاملةً، ثم يعودون فيدخلون من الأبواب فتُغلَق خلفهم. كان هذا هو الوصف الذي جاء في المراجع الأجنبية والعربية عن تلك الساعة التي كانت تُعَدُّ وقتئذٍ أعجوبةً، وأثارت دهشة الملك وحاشيته.. ولكن رهبان القصر اعتقدوا أنَّ في داخل الساعة شيطانًا يحركها.. فتربصوا بها ليلاً، وأحضروا البُلَط، وانهالوا عليها تحطيمًا، إلا إنهم لم يجدوا بداخلها شيئًا [1].

وقد برز عدد كبير من علماء الحياة في عهد الرشيد، بفضل حَثِّه على العلم، وتقديره العلماء أيًا كانت دياناتهم، وإنزالهم منازلهم، فمن هؤلاء: طبيب الرشيد الخاص «جبرائيل بن بختيشوع» الذي تذكر كتب الطب أنه جمع ثروة عظيمة من الاشتغال بالطب (كطبيب خاص للرشيد)، ويُروَى أنه لما حضر قال له الرشيد: ما اسمك؟ قال: جبرائيل، قال له: أي شيء تعرف من الطب؟ فقال: أبرد الحار، وأسخن البارد، وأرطب اليابس، وأيبس الرطب الخارج عن الطبع، فضحك الخليفة، وقال: هذا غاية ما يحتاج إليه في صناعة الطب، وقال له ذات مرة وهو يحج بمكة: «لقد دعوتُ اللهَ لك في مواقف دعاء كثيرة، ثم التفت إلى أبنائه، وقال: عسى

---

(1) الشادياق: «كشف المخبا في فنون أوربا» ص ٢١٨ وما بعدها.

أن تكونوا كرهتم قولي!، ولكن تعرفون أنه يقوم على صلاح بدني، وقوامه بـه، وأقـوم عـو صلاح المسلمين، وقوام المسلمين بي. فقالوا: صدقت يا أمير المؤمنين»[1].

ومما أُثِرَ عنه - رحمه الله- أنه كان يجمع الأطباء، ويستشيرهم في أمور عديدة، فمن ذلك ما يذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد : جمع الرشيد من الأطباء أربعة: عراقيًا، ورومي، وهنديًا، ويونانيًا .فقال: ليصف لي كل واحد منكم الدواء الذي لا داء معه، فقال العراقي الدواء الذي لا داء معه حب الرشاد الأبيض، وقال الهندي: الإهليلج الأسود، وقال الرومي الماء الحار، وقال اليوناني ـ وكان أطبهم ـ: حب الرشاد الأبيض يولد الرطوبة، والماء الحـ يرخي المعدة، والإهليلج الأسود يرق المعدة، لكن الدواء الذي لا داء معه أن تقعد عن الطعام وأنت تشتهيه، وتقوم عنه وأنت تشتهيه، قال: صدقت [2].

هكذا كان - رحمه الله- حريصًا على العلم والعلماء، مدركًا لدورهم في نهضة الأمة الإسلامية ورقيها، فلا عجب ـ والحال كذلك- أن : ينشأ ناشيء الفتيان فينا على ما كان عوده أبوه، فنجد ابنه المأمون يسير على الخطى التي رسمها له، وعلمه إياها والده الرشيد في الحرص على العلم والتعلم ..

المأمون.. والنهضة العلمية

نشأة المأمون العلمية:

لاشك أن رجلاً يحب العلم ويُجِلُّ العلماء، ويقوم بكل تلك المنجزات الحضارية في وقت توليه الحكم، مثل الرشيد، لا شك أن اهتمامه بأبنائه، وتربيتهم، وتنشئتهم نشأة علمية رصينة، سيكون كبيرًا، ولذا لم يكن غريبًا أن تكون تلك التنشئة العلمية الفذة لولدي الرشيد «الأمين والمأمون»، بل إن بعض المؤرخين قد أطلقوا على المأمون لقب «الخليفة العالم» لما عُرِفَ عنه ـ منذ حداثة سِنِّه ـ من إقبال شديدٍ على العلم والتعلُّم، وقد كان الكسائي معلِّمه ومؤدبه هو وأخاه الأمين.

كذلك كان من مؤدبيه «أبو محمد اليزيدي» أحد كبار علماء عصره، كما سمع من «هشيم بن بشر» الحديث ومن عباد بن العوام، وأبي معاوية الضرير، وغيرهم من كبار العلماء[3]، وقد أكث

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ١٠٩. (٢) ابن عبدربه: العقد الفريد ٦/ ٣٠٧.

(٣) العصامي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ٢ / ٢١١.

ـأمون على دراسة الحديث حتى صار من رواته، فسمع منه الكثيرون ورووا عنه، ساعده على
ـتلك ما منحه الله من ذاكرة قوية، كانت مضرب المثل، وكان المأمون يقرأ الفقه على «الحسن
للؤلؤي»، ويذكر ابن تغري بردي أنه برع في الفقه على مذهب أبي حنيفة النعمان[1].

وقد قال عنه «الدينوري»: إنه نجم ولد العباس في العلم والحكمة، أخذ من جميع العلوم
بقسط، وضرب فيها بسهم، وهو الذي استخرج كتاب إقليدس من الروم، وأمر بترجمته
وتفصيله، وعقد المجالس في خلافته للمناظرة في الأديان والمقالات، وكان أستاذه فيها أبا
هذيل محمد بن الهذيل العلاف. ودخل بلاد الجزيرة والشام، فأقام بها مدة طويلة، ثم غزا
لروم، وفتح فتوحًا كثيرة، وأبلى بلاء حسنًا»[2]، ويصفه جمال الدين القاسمي بقوله: «عُرِفَ
خليفة المأمون بمحبته للعلم والعلماء، وشغفه بالحكمة والحكماء، بل لم يُرَ في أولاد الملوك من
تعشَّق العلوم الحكمية على حداثة سنه، وأقام بين العلماء لمناظرتهم في جميع أنواع العلوم مثله،
وكان مجلسه يضم عددًا من العلماء والحكماء، وقد ورث ذلك عن أبيه الرشيد..»[3].

وهكذا نشأ «المأمون» يقبل على فروع المعرفة ويستزيد منها، فهو يهوى العربية والأدب،
حتى نراه شاعرًا، ويهوى الفقه فيجادل فيه الثقات المتخصصين، ويهوى الحديث حتى يؤخذ
منه، ثم يهوى الفلسفة بعد ذلك، ويكون له معها شأن»[4]...

النهضة العلمية والحضارية في عصر المأمون:

شهد عصر المأمون نهضة حضارية كبيرة، فقد كان المأمون محبًا للعلم والأدب وكان
شاعرًا وعالمًا وأديبًا، يحب الشعر ويجالس الشعراء ويشجعهم، وكان يعجب بالبلاغة
والأدب، كما كان للفقه نصيب كبير من اهتمامه، وكان العلماء والأدباء والفقهاء لا يفارقونه
في حضر أو سفر، وقد أدى تشجيعه للشعراء في أيامه إلى إعطاء الشعر دفعة قوية، وكان
تشجيعه للعلوم والفنون والآداب والفلسفة ذا أثر عظيم في رقيها وتقدمها، وانبعاث حركة
أدبية وعلمية زاهرة، ونهضة فكرية عظيمة امتدت أصداؤها من بغداد حاضرة العالم
الإسلامي ومركز الخلافة العباسية إلى جميع أرجاء المعمورة، فقد استطاع المأمون أن يشيد

---

١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٤٤٥.

٢) القاسمي: تاريخ الحكمة والمعتزلة ١٦٥.

(٣) الدينوري: الأخبار الطوال ٤٠١.

(٥) محمد هدارة: المأمون الخليفة العالم ص١١٠.

صرحًا حضاريًا عظيمًا، وأن يعطي العلم دفعةً قويةً ظلّت آثارها واضحة لقرون عديدة: فقد أرسل البعوث إلى «القسطنطينية» و«الإسكندرية» و«أنطاكية» وغيرها من المدن للبحث عن مؤلَّفات علماء اليونان، وأجرى الأرزاق على طائفة من المترجمين لنقل هذه الكتب إلى العربية، وأنشأ مجمعًا علميًا في بغداد، ومرصدين أحدهما في بغداد والآخر في «تدمر»، و... الفلكيين برصد حركات الكواكب، كما أمر برسم خريطة جغرافية كبيرة للعالم[1].

ازدهار حركة الترجمة في عصر المأمون:

كان لتشجيع المأمون حركة الترجمة أكبر الأثر في ازدهارها في عهده، فظهر عدد كبير من العلماء الذين قاموا بدور مهم في نقل العلوم والفنون والآداب والفلسفة إلى العربية، والإفادة منها وتطويرها، ومن هؤلاء:

«حنين بن إسحاق» الطبيب البارع الذي ألَّف العديدَ من المؤلَّفات الطبية، كما ترجم عددًا من كتب أرسطو وأفلاطون إلى العربية[2].

«ويوحنّا بن ماسويه» الذي كان يشرف على «بيت الحكمة» في بغداد وكان يؤلف بالسريانية والعربية، كما كان متمكنًا من اليونانية، وله كتاب طبي عن الحميات اشتهر زمنًا طويلاً، ثم ترجم بعد ذلك إلى العبرية واللاتينية[3].

و«ميخائيل بن ماسويه» وكان طبيب المأمون الخاص، وكان يكرمه غاية الإكرام، وكان يثق بعلمه فلا يشرب دواءً إلا من تركيبه[4].

ولعل من أبرز الأسباب التي أدت إلى ظهور تلك النهضة الحضارية والعلمية في عصر المأمون، ذلك الهدوء الذي ساد الأجواء بين الخلافة العباسية والروم، والذي استمر لأكثر من عشرة أعوام.

وهكذا ازدهرت الحركة العلمية في عهد المأمون تأليفًا وترجمة، واستهل فيها أبو يوسف يعقوب «الكِنْدي» نشاطه العلمي، الذي لم يقتصر على التعريف بفلسفة أرسطو وأفلاطون

(١) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ١ / ١٢٠. (٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ١٦٤.

(٣) المصدر السابق ٢/ ١٠٩

(٤) السابق ٢/ ١٢٦.

عن طريق الترجمة، بل تعدَّى ذلك للتوسع في الآفاق العقلية بما أخرج من دراسات في التاريخ الطبيعي، وعلم الظواهر الجوية[1]..

هذا، ولم يكن نشاط المأمون العلمي مقتصرًا على شراء الكتب والتشجيع على التأليف والترجمة، بل كان يسعى إلى إحضار العلماء الأجانب للاستفادة من علمهم وخبرتهم، ولعلَّ أصدق ما يدل على ذلك إلحاح المأمون في طلب العالم الهندسي «ليون» الذي كان قد دفن نفسه في أحياء القسطنطينية الفقيرة، وأخذ يعيش عيشًا بسيطًا بتعليم الناس، فاتفق أن كان أحد تلامذته من بين أسرى المسلمين، فأظهر في إحدى المناسبات معرفته بالاستدلال الهندسي، فلما سُئِلَ عن مُعلمه دلَّ عليه، فأرسل «المأمون» إليه يدعوه للحضور إلى بغداد، فعرض «ليون» الرسالة على الجهات الرسمية في بلاده، وعلم الإمبراطور بها فمنعه من السفر، وكانت تلك الرسالة سببًا في شهرة هذا العالم، وتنبُّه بلاده إلى عبقريته، وظل المأمون يراسله ويسأله عن أمور في الهندسة والفلك[2].

اهتمامات المأمون العلمية:

لم يكن المأمون بعيدًا عن الإحاطة ببعض المسائل الهندسية، فقد كان واسع الاطِّلاع، شغوفًا بالعلم والمعرفة، يقول: «لا يعرف الهندسة من لم يقرأ كتاب إقليدس»[3]. وإلى جانب ثقافته في العلوم الحياتية، كان على دراية بالمسائل الفقهية، كما كان لتلقيه دروسًا في علوم القرآن والحديث دوره المهم في تكوينه العلمي.

ويدلنا يحيى بن أكثم (قاضي المأمون) على صورة من مجالس المأمون العلمية، فيقول: كان إذا حضر الفقهاء ومن يناظرونه من سائر العلماء، أدخلهم حجرة مفروشة، ثم أمرهم بالطعام والشراب، ثم أمر أن يتطيبوا ويتزينوا، حتى يدخلوا عليه فيدنيهم، ويناقشهم، ويناظرهم أحسن مناظرة[4].

وكان المأمون في سعيه لتثقيف الناس لا يفرق بين علم وآخر، وكانت غايته من كل علم

---

1) القفطي : إخبار العلماء ٢٤٠، وابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء (٢/ ١٧٩).
2) العصامي: النجوم العوالي ٢/ ٢١٤.
3) انظر الأعلام للزركلي ٨/ ١٣٨، ووفيات الأعيان ٦/ ١٤٧.
4) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣/ ٤٣٢.

التماس ما لا يسع جهله، أي الأخذ من

غ كل علم بطرف، ولهذا خاض في كل العلوم والمعارف، ولم يقتصر على شيء منها بعيـ
حتى إنه كانت له معرفة بالطب، روى أحد الفقهاء الذين كـانوا يحضرون مجلسـه أنـه تغـ
عنده يومًا فوُضِعَ على المائدة أصنافٌ متعددة من الطعام، فكلَّما وُضِع صنفٌ نظر إليه المأمو
وقال: هذا يصلح لكذا، وهذا نافع لكذا... يقول: فما زالت تلك حاله حتى رُفِعَـت المو
فقال له يحيى بن أكثم: يا أمير المؤمنين إن خضنا في الطب كنت «جالينوس» في معرفته، ئو
النجـوم كنـت لَبـرع مـن«هـرمس» في حسـابه، أو في الفقـه كنـت كعـلي بـن أبي طالـب
علمه[1]،.... فرَدَّ المأمون قائلاً: يا أبا محمد إنَّ الإنسان إنما فُضِّلَ على غيره مـن الهـوام بعـ
وعقله وتمييزه، ولولا ذلك لم يكن لحمٌ أطيب من لحم، ولا دمٌ أطيب من دم[2]!!.

وهكذا كان المأمون ـ ومن قبله والده الرشيد ـ مثالاً لحكام المسلمين الذين اتخذوا الع
طريقًا لرفعة أمتهم، ووصلوا بها إلى ذُرَى المجد..

***

---

(١) ولا شك أن مقارنته بعلي بن أبي طالب ﷺ فيها الكثير من المبالغة غير المقبولة.

(٢) ابن عساكر : تاريخ دمشق ٣٣ / ٢٩١.

المبحث الثالث
دور العلم في بناء الخلافة الأموية بالأندلس
(عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم)

يذكر المؤرخون أن النهضة العلمية في الأندلس بدأت متأخرة بعض الشيء، وهي التي قام عليها عماد تلك الحضارة العظيمة، التي قلَّما يجود الزمان بمثلها..

والحق أن بوادر تلك النهضة العلمية كانت مع الفاتحين الأوائل، الذين كان بينهم العديد من العلماء، في مختلف مجالات الحياة، ثم كان أن أنعم الله على الأندلس، وشعب الأندلس حكام علماء، نشأوا على حُب العلم وأهله، وعرفوا ما للعلم من أهمية وقيمة في الرقي بمجتمعهم وأمتهم، فساعدوا على قيام تلك النهضة العلمية، وكان من أعظم هؤلاء الخلفاء وأبرزهم «عبد الرحمن الناصر»، وابنه الحكَم المستنصر.

عبد الرحمن الناصر والنهضة العلمية:

كان لنشأة الناصر العلمية، وحبه للعلمغ منذ صغره دور بارز في النشاط العلمي الذي حدث للأندلس أثناء تولِّيه الخلافة، فقد درس عبد الرحمن القرآن والحديث وهو طفل لم يبلغ العاشرة بعدُ، وبرع في اللغة والحساب وفنون الفروسية، وتلقّى العلم على أيدي محدثين وفقهاء كبار، منهم «قاسم البياني»[1].

وعلى الرغم من تولِّيه السلطة في عهد مليء بالفتن والاضطرابات، إلاّ أنه استطاع بفطنته وذكائه أن يقضي على كل هذه الفتن، ويوحِّد البلاد تحت إمرته، ويعلن الخلافة الأموية بالأندلس، وتلقَّب بـ«أمير المؤمنين الناصر»[2]، وبدأ يركز على العلم والعلماء، ومحاولة الترقي العلمي بالأندلس؛ لذلك يذكر المؤرخون أن بلاط الناصر كان يحفل بالكثير من العلماء والأدباء، فمنهم ابن عبد ربه صاحب «العقد الفريد»، و«منذر بن سعيد»كبير فقهاء عصره، و«أبو القاسم الزهراوي»الطبيب والجراح الكبير ، وقد كان عبد الرحمن يكرم هؤلاء العلماء، ويُجِلُّهم، ويحرص كل الحرص على إنزالهم ما يليق بهم من مكانة، والسماع لرأيهم ومشورتهم

---

(١) محمد عنان: تراجم إسلامية ١٦٧.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٢ / ١٥٨.

دائمًا، كما اجتهد في تخير قضاته من أولي العلم والمعرفة[١].

هذا وقد بلغ من عناية «الناصر» بالعلم والمعرفة أن بذل جهدًا خارقًا في جمع الكتب. ثم وضع أساس المكتبة الأموية الكبرى[٢] التي ازدهرت في عهد ابنه «المستنصر»، ورفعت من شأن الأندلس كمنارة علمية كبرى يقصدها القاصي والداني.

ويُذكَر أنه اشتُهِرَ عنه اهتمامه بالكتب، وولعُه الشديد باقتنائها، حتى بلغ ذلك أحد ملوك عصره، وهو الإمبراطور البيزنطي (أرمانوس) الذي أرسل له هدية علمية، يتودَّده ويأمل أن يحوز رضاه، فأرسل إليه كتابين من تصانيف الأوائل، أحدهما في الطب: وهو كتاب «ديسقوريدس»، والآخر في التاريخ: وهو كتاب « رهوشيش»، وكان باللاتينية[٣].

وبذلك كان عهد الناصر بداية مجيدة، ودفعة قوية، لعصرٍ عظيمٍ ازدهرت فيه العلوم والآداب، وانصرف العلماء فيه لتحصيل العلم وتصنيف الكتب في شتى فروع المعرفة، ولا ريب في ذلك فإنَّ كثيرًا من كتب العلم التي أُلِّفت في عهده، لَتَدُل على ما اتَّسم به من مناخ خصب نمت فيه القدرات العلمية، فأعطت ثمارًا يانعة في ميدان الفكر، وجعلت من حاضرة الخلافة «قرطبة» دارًا للعلوم، ومركزًا ثقافيًا مهمًا استقطب العلماء من نواحي الأندلس المختلفة، بل ومن خارجها، في صورة تؤكد عظمة ذلك العصر، ومدى اهتمام الناصر بالعلم والعلماء حينئذٍ.

يُذكَر من اهتمامه بعلوم الحياة أن حركة الاشتغال بالطب ـ مثلاً ـ بدأت في عصره تأخذ أبعادًا جديدة، فتتابعت الخيرات في أيامه، ودخلت الكتب الطبية من المشرق، وقامت الهمم. وظهر الكثير من الأطباء المشهورين في دولته.

ومن أهم تلك الكتب كتاب «زاد المسافر» الذي نقله الطبيب العلاّمة (ابن بريق)، الذي كان من أمهر أطباء الأندلس، ودرس الطب في القيروان على يد (ابن الجزار) ستة أشهر، ثم عاد للأندلس بهذا الكتاب، فأحسن الناصر وفادته، وأجزل له العطاء..

وكان الخلفاء يحرصون على أن يكون في قصورهم عدد من الأطباء البارعين المهرة،

---

(١) الإشبيلي: ريحان الألباب وريعان الشباب ١١٣٩.   (٢) ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام ص١٢٢.

(٣) الإشبيلي: ريحان الألباب وريعان الشباب «مخطوطة» ١١٣٩.

حجتهم إليهم في التداوي، ولهذا اشتغل الكثير من الأطباء الأندلسيين، وعُرِفوا بخدمة الخلفاء، وممارستهم الطب في قصورهم، فمنهم «أصبغ القرطبي»، الذي خدم عبد الرحمن الناصر، وكذلك «ابن بريق»..، ومنهم «سليمان بن باج» الذي عرف الناصر عنه تمكُّنَه العميق في الطب وتركيب الأدوية، فقرَّبه منه، وأصبح طبيبه الخاص، وكذا نال «يحيى بن إسحاق» مكانة رفيعة عند الناصر نظرًا لما تمتع به من سعة العلم والسيرة الحسنة، مما جعله يوليه الوزارة[1].

تقديره للعلماء:

لما بنى الناصر مدينة «الزهراء» واستفرغ جهده في زخرفتها وتنميقها وإتقان قصورها، كان من انهماكه بذلك أن تخلَّف مرة عن شهود الجمعة في المسجد الجامع بقرطبة، وكان من عادته أن يشهدها في المسجد الجامع لا في غيره بحكم ولايته. فلمّا حضر لصلاة الجمعة- بعد صاح «الزهراء» - وكان القاضي «المنذر بن سعيد» يخطب في المسجد، بدأ خطبته بقوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٥:١٢٨].

ومضى في هذه الطريقة والتذكير الخاشع، والموعظة المؤثرة، والقول البليغ في النفوس والقلوب، وما زال بالقوم حتى أخذ منهم الخشوع كل مأخذ، وضَجَّ المسجد على رحبه بالبكاء، وأخذ الخليفة من تلك الكلمات الإيمانية الصادقة بأوفر نصيب، فبكى وندم على ما حصل من التفريط، وكانت كل كلمة بالنسبة إليه سلاحًا ماضيًا يعمل عمله متخطيًا كل الحواجز والاعتبارات. غير أن الخليفة - على كل تأثره - وجد بعض الشيء على المنذر، وشكا ذلك لولده الحكم وقال - وقد أتعبته نفسه -: والله لقد تعمَّدني منذر بخطبته، وما عنى بها غيري، فأسرف عليَّ، وأفرط في تقريعي، ولم يحسن السياسة في وعظي، ثُمَّ أقسم ألاّ يصلي خلفه صلاة الجمعة، فجعل يلزم صلاتها وراء «أحمد بن مطرف» صاحب الصلاة بقرطبة، ويجانب الصلاة في الزهراء؛ عند ذلك قال له ابنه الحكم: ما الذي يمنعك من عزل منذر عن

١) انظر ابن جلجل: طبقات الأطباء ١١٠.

الصلاة بك إذا كرهته؟ وهنا تبدَّت الأصالة وغلب الدين، إذ قال الخليفة للحكم بعد أن زجره: أمثل «منذر بن سعيد» في فضله وخيره وعلمه - لا أُمَّ لك - يُعزَل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون، وإني لأستحيي من الله ألا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعًا مثل منذر في ورعه وصدقه، ولكن أحرجني فأقسمت، ولوَدِدْتُ أن أجد سبيلاً إلى كفّ يميني بملكي، بل يصلِّي بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى، فما أظننا نعتاض عنه أبدًا.

فهذه مكانة العلماء عند الناصر، مكانة عظيمة، يعرف بها حقهم، ويقدِّر موعظتهم وإن كانت ثقيلةً عليه.

الحكم المستنصر ودور العلم في حياته:

كان لنشأة المستنصر العلمية، على يد والده الناصر، أثرٌ بالغٌ في تشكيل وعيه العلمي المبكر؛ فقد درس على أيدي نخبة من كبار علماء عصره، منهم «محمد القرطبي»، الذي درس عليه علوم اللغة والحساب، والأدب والنحو، وأفاد منه دراسة العلوم بطريقة تحليلية عميقة كما درس علوم الدين على يد العلامة «ابن أصبغ»، وأخذ علوم التاريخ عن «علي الرعيني». فكان لكل هؤلاء العلماء وغيرهم أعمق الأثر في تكوين شخصية «الحكم» العلمية[1]..

وقد نتج عن إقبال «الحكم» على دراسة العلوم والآداب، ومجالسته للعلماء أن أصبح شغوفًا بالعلم وتحصيله، مما كوَّن لديه شخصية علمية فذَّة، جعلت المؤرخين والعلماء يشيدون به، ويعتدُّون بآرائه، ومن الأمثلة على أن أقوال «الحكم» كانت حُجَّة لدى العلماء ما أشار إليه «الحميدي» عند ترجمته لابن عبد ربه، إذ قال: «هذا آخر ما رأيت بخط الحكم المستنصر - وخطه حجة عند أهل العلم - ؛ لأنه كان عالمًا ثبتًا[2]»...

ولا شك أنه إذا كان الخليفة «عالمًا ثبتًا»؛ فإن العصر سيكون عصر العلم والعلماء والرقي والازدهار للأندلس على نحو ما رأينا!!، وهكذا قدم المستنصر إلى الحركة العلمية في الأندلس دفعة كبرى من النشاط، بل إنه أسهم فيها إسهامًا ماديًّا، بأن وضع كتابًا في (أنساب الطالبيين والعلويين القادمين إلى المغرب)، وذلك لسعة معرفته بالتاريخ والأنساب[3]..

(١) المقَّري: نفح الطيب ١ / ٣٩٥.

(٢) الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ص١٠١.

(٣) المقَّري: نفح الطيب ٣ / ٦٠.

وكان لغلبة النشاط العلمي في عهد الحكم المستنصر أثر في ذهاب بعض المستشرقين إلى القول بأن انصراف «الحكم» إلى العلم واهتمامه بالكتب والعناية بها، قد أدَّى إلى عدم تطلعه للغزو والجهاد..»[1] وهذا الأمر غير صحيح على إطلاقه، فلم يكن خلفاء المسلمين وعلماؤهم يهتموا بجانب على حساب جانب آخر، ولو أمعنّا النظر في سيرة الحَكَم، لوجدناه قد اهتمَّ - إلى جانب اهتمامه بالعلم - بالجهاد والغزو، وهذا ما يثبته المؤرِّخون، فيذكر «الحميدي» أنه «واصل غزو الروم، ومن خالفه من المحاربين»[2]، ويؤكِّد «ابن الخطيب» أنه كان «ذا همة عالية في الجهاد، جعلت ملوك عصره يهادنونه ويسالمونه، لقوته وبأسه»[3]، هذا كله بالإضافة إلى أن عصر «الحكم» كان عصر سلام نسبي مع ممالك النصارى، واستقرار لشتى مناطق الأندلس، وذلك بعد جهود أبيه (الناصر) وما عقده من معاهدات صلح مع ملوك النصارى.

وقد اتبع الحكم وسائل عديدة لنشر العلم في البلاد فمنها:

١ـ العناية بالعلوم وتشجيع العلماء على البحث والتأليف: فقد سعى إلى تقريب أولي العلم والمعرفة وإكرامهم، وتهيئة المناخ الملائم الذي يمكِّنهم من الانصراف إلى العلم والبحث العلمي، وبالتالي فقد يسَّر السبل أمام إنتاجهم الفكري حسب تخصص كل منهم، وفي هذا يقول «الإشبيلي»: «وفي أيامه كثُرَ العلماء وأدلوا بما عندهم، وأُلِّفت التواليف، وصُنِّفَت التصانيف»[4]..

ولذلك لا غرابة أن نجد في عصره كثيرًا من العلماء المبرَّزين في شتى ميادين العلم، فبرز في علوم الدين: الليثي، والثغري، وابن الفخار، وغيرهم، وفي ميدان الأدب واللغة برز أبو علي القالي، وابن الصفّار، وغيرهما، وفي الطب: أحمد الحرّاني، والزَّهراوي، وفي الرياضيات والفلك والجغرافيا برع المجريطي، وابن السَّمْحِ وغيرهم من العلماء الذين أسهموا في ازدهار العلوم والآداب بما أضافوه من أنواع الإنتاج العلمي القيم..

٢ ـ اهتم الحكم اهتمامًا بالغًا بالكتب، وسار على نهج والده في ذلك، في الحرص على جمع كل

(١) لين بول: قصة العربي في إسبانيا، ترجمة علي الجارم ص١٤١.

(٢) الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ٦.

(٣) لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ١ / ٤٧٨.

(٤) الإشبيلي: ريحان الألباب « مخطوطة».

المؤلَّفات في مكان واحد، ذلك أنه رأى أنَّه لن يتم النشاط العلمي إلا بتوافر المؤلفات في شتى المجالات، وحتى يتمكن المشتغلون بالعلم وطلاب العلم على السواء من تحصيله بأيسر الطرق.

٣ـ توفير المكان المناسب لطلبة العلم.. تمثَّل ذلك في مكتبة «قرطبة» التي تحوَّلت إلى ما يشبه الجامعة بمفهومنا المعاصر، لأنها كانت بحق (دار العلوم)[1]، حيث كانت تستقبل أفواجًا من الكتب، التي كان المستنصر قد أوصى بها أعوانه المنتشرين في كل مكان من العالم الإسلامي يومئذٍ، وهكذا رسم المستنصر خطة لإنشاء مكتبة عامرة تكون عونًا لطلاب العلم ومرجعًا أساسيًا لكل من أراد الاستزادة، فقد ورث عن أبيه ثروة طيبة من الكتب كانت النواة والأساس لمكتبة قرطبة العظيمة، التي نمّاها «الحكم»، وأمدَّها بذخائر نفيسة من التآليف العلمية حتى أصبحت في صورة فريدة لم يجمع مثلها أيُّ خليفة في الإسلام، وبلغ من ضخامة محتويات تلك المكتبة أن اشتُهِرَ أمرُها في الأوساط العلمية في العالم الإسلامي، حتى أصبحت مثلاً بارزًا على الازدهار العلمي والنشاط الفكري، وغدت من أعظم خزائن الكتب في الإسلام[2]..

يذكر «ابن الأبار» في حديثه عن الحكم أنه: «كان حسن السيرة فاضلاً عادلاً مشغوفًا بالعلوم، حريصًا على اقتناء دواوينها، يبعث فيها إلى الأقطار والبلدان، ويبذل في أعلاقها ودفاترها أنفس الأثمان، ونفق ذلك لديه، فحُمِلَت من كل جهة إليه، والمُلْكُ سوق، ما نفق فيها جُلِبَ إليها، حتى غصَّت بها بيوته، وضاقت عنها خزائنه[3]».

قال ابن حيان عند ذكر «الحَكَم»: «كان من أهل الدين والعلم، راغبًا في جمع العلوم الشرعية من الفقه والحديث وفنون العلم، باحثًا عن الأنساب، حريصًا على تأليف قبائل العرب وإلحاق من درس نسبه أو جهله بقبيلته التي هو منها، مستجلبًا للعلماء ورواة الحديث من جميع الآفاق، يشاهد مجالس العلماء ويسمع منهم ويروى عنهم»[4]..

ولم يُسمَعْ في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ «الحكم» في اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والاهتمام بها، فلقد أفاء على العلم، ونوَّه بأهله ورغَّب الناسَ في طلبه، ووصلت عطاياه وصِلاته إلى فقهاء الأمصار النائية عنه، ومنهم أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان بمصر.

---

(١) انظر الفصل الخاص بقرطبة ص٣٤٢ من هذا الكتاب. (٢) القلقشندي: صبح الأعشى ١ / ٤٦٦.

(٣) ابن الأبار: الحلة السيراء ١ / ٢٠١.

(٤) الحميدي: جذوة المقتبس ٢ / ١٢٥.

بو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكِنْدِي وغيرهما؛ جرى ذِكْرُ هذا في كتب تواريخهم.

وكان له ورَّاقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف، ورجال يوجههم إلى الآفاق عنها. ومن وَرَّاقيه ببغداد محمد بن طرخان، ومن أهل المشرق والأندلس جماعة، وكان مع هذا كثير الاهتمام بكتبه والتصحيح لها والمطالعة لفوائدها، وقلَّما تجد له كتابًا كان في خزانته إلا وله فيه قراءة ونظر من أي فن كان من فنون العلم: يقرؤه ويكتب فيه بخطه – إما في أوله أو آخره و في تضاعيفه – نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به، ويذكر أنساب الرواة له، ويأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده، لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن. وكان موثوقًا به مأمونًا عليه. صار كل ما كتبه حُجَّة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم، ينقلونه من خطه ويحاضرون به»[1].

وقال أبو محمد بن حزم في كتاب جمهرة الأنساب من تأليفه، وذكر «الحكم»: «اتصلت ولايته خمسة عشر عامًا في هدوء وعلو. وكان رفيقًا بالرعية، محبًا في العلم، ملأ الأندلس بجميع كتب العلوم. وأخبرني تليد الفتى – وكان على خزانة العلوم بقصر بني مروان بالأندلس – أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، في كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط»[2].

فإذا كان هذا الحال مع الدواوين (تتجاوز الألفي ديوان) فما بالنا بمصنفات العلم وكتب المعرفة الأخرى، التي لا شك ستكون أعظم وأكثر عددًا!! بالإضافة إلى أن تلك المقولة تشير إلى ما امتازت به تلك المكتبة من تنظيم، إذ إنَّ مواد المكتبة مرتبة تبعًا لمواضيعها، ولكل موضوع فهرسه الخاص، وهو ما يعرف بالفهرسة الموضوعية الموجودة في مكتبات اليوم.

وذكر «المقَّرِي» عند حديثه عن مكتبة المستنصر: «أنه جمع من الكتب ما لا يحد ولا يوصف كثرةً ونفاسة، حتى قيل: إنها كانت أربعمائة ألف مجلد، وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها»[3].

---

(١) الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ٢ / ١٢٥.

(٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ١ / ٤٤ .

(٣) المقري: نفح الطيب ١/ ٣٩٥.

وقد أشار إلى هذا العدد الهائل من الكتب الكثير من الكُتّاب المحدثين ممكن كتبوا عـ
هذا الخليفة و تحدثوا عن سيرته العلمية، بل إن المستشرقة الألمانية «زيغريد هونكه» تشير
أن تلك المكتبة ضمت نصف مليون كتابٍ[1]...

وهكذا أسهمت هذه المكتبة، وذلك الاهتمام البالغ بالعلم والعلماء في نهضة غير مسبوقة
للأندلس، غدت دليلاً واضحًا على مدى ما حققه «الحكم» المستنصر للحركة العلمية من
جهود، وما حققه الأندلسيون في ميدان العلم، جعلتهم يصفون قصر الحكم بأنه «مصنع لا
يُـرَى فيه إلا النَّسَّاخون والمجلِّدون والمزخرِفون يُحَلُّون الكتب بالمنمنمات والرسوم
الجميلة»[2].

والجدير بالذكر أنَّ الورّاقين قد نالوا من وراء علمهم هذا منزلةً رفيعةً في المجتمع، كما
أنهم بلغوا درجةً طيبةً من الثَّراء، كل ذلك من اهتمام الخليفة بالعلم، والعلماء والكتب..

ولأهمية النسخ في النشاط العلمي باعتباره وسيلة من وسائل حفظ العلوم وصيانتها من
الضياع، ونشرها بين الناس، فقد اهتم الخلفاء باستقدام أمهر الكتاب، وأشدهم عنايةً بالعلم من
أجل ذلك، بل وتذكر صاحبة كتاب (فن التجليد عند المسلمين)[3]: إلى أن ذلك الاهتمام تعدَّى إلى
المجلِّدين المختصين بالشكل الخارجي للكتاب وتجليده، وإخراجه في أحسن صوره.

جهوده في نشر التعليم:

يضاف إلى ذلك جهود الخليفة المستنصر في رفع شأن التعليم في بلاده، وتيسيره لرعيته
فيذكر ابن عذاري أنه: «أمر بإنشاء سبعٍ وعشرين مكتبةً يُلحَق ثلاثٌ منها بالمسجد الجامع بقرطبة
والباقي فرَّقه على أنحاء قُرطُبة، وعيَّن فيها العلماء والفقهاء للقيام بتدريس النشء في تلك المكتبات
وأجرى عليهم المرتبات، وأغدق عليهم الصلات، وبالَغَ في تعليم أطفال المسلمين»[4].

ولم يقتصر الخليفة الحكم على ما تقدَّم، بل كان يسعى للأفضل في سبيل الترقي بالمستوى
العلمي لرعيته، فقد أنشأ «حوانيت خاصة» بقرطبة لتعليم أولاد الضعفاء والفقراء؛ مما يدل

---

(١) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ٣٥٣.

(٢) إنجل جونثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ترجمة: حسين مؤنس) ١٠.

(٣) اعتماد القصيري: فن التجليد عند المسلمين ص ٣٠.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٢٤٠.

على أن «الحكم» قد أتاح الفرصة لجميع أفراد المجتمع في الاستفادة مما هيأه لهم من سبل كتساب العلم والمعرفة، فلم يعد العلم مقصورًا على ذوي المقدرة المادية من الناس، بل غدت فرص التعليم متاحة لكل من يريد.

الحكم وعلماء الشرع:

ولم يقتصر اهتمام الحكم على حدِّ نشر العلم والمعرفة، والاهتمام بالعلوم الحياتية فحسب، بل كان - كما ذكرنا - يحمل كل الإجلال والإكبار لعلماء الشرع، ويوقِّرهم، ويستشيرهم في كل أموره، من ذلك أنه أراد - رحمه الله - أن يقطع شجرة العنب من الأندلس، في محاولة منه للقضاء على الخمور، فاستشار الفقهاء في ذلك، فذكروا له أنها قد تُصنَع من غيرها (أي الخمور)، فكَفَّ عن ذلك[1]، وفي ذلك إشارة دالَّة إلى مكانة هؤلاء العلماء، وما وصلوا إليه مما بلغوه من احترام وتعظيم.

كما كان حريصًا على تعليم ابنه «هشام المؤيَّد» على يد كبار علماء الفقه في الأندلس، وهو «يحيى الليثي» - رحمه الله -، الذي كان مجلسه من أشهر المجالس العلمية في قرطبة، وكان يفد عليه الطلاب من شتّى أقطار الأندلس لينهلوا من علمه، ومن بينهم ابن الخليفة، جلس مع طلبة العلم، كواحد منهم، وقد حمل في نفسه ما ربّاه عليه والده، من إجلالٍ وإكبارٍ للعلم والعلماء[2]..

ولما نبغ الفقيه «عبد الله بن القاسم الثغري»، وحصَّل العلم من أقطار المشرق والمغرب، حتى شبهه أصحابه بسفيان الثوري، لم يكن من الخليفة المستنصر إلا أن ولاّه القضاء على بلده، تقديرًا لدوره، وعلمه، بالإضافة إلى أنه كان يشجع العلماء على البحث والدرس، فهو الذي جعل الفقيه «محمد بن الحارث الخشني» يؤلِّف عددًا من الكتب يذكر ابن الفرضي أنها بلغت ألف كتاب[3]!!.

ولم يكن «الخشني» وحده من حَظِيَ بتأييد الخليفة، وتشجيعه، بل كان إلى جانبه عدد كبير من العلماء والفقهاء، منهم « أبو بكر محمد بن يحيى» الذي أظهر اهتمامًا كبيرًا بالدراسات

---

(١) المقري: نفح الطيب ١ / ٣٩٥.

(٢) الحميدي: جذوة المقتبس ٩٨.

(٣) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ١٩٠.

الفقهية، وألَّف كتبًا كثيرة في ذلك، منها كتاب خاص عن «فقه التابعين»، ولمعرفته الو... بالفقه وأحكام الشريعة، ولاّه الخليفةُ القضاءَ، وأجزل له العطاء[1].

كما يذكر ابن الفرضي (في تاريخ علماء الأندلس) أن «محمد بن عبد الله بن سيد... منزلة سامية لدى الخليفة الحكم، وبتشجيع منه كتب له كتاب (المستخرجة) وهو كتـ... فقهي في الفقه المالكي[2].

ومن علماء الحديث الذين قرَّبهم «الحكم» كان (قاسم بن أصبغ البياني) - رحمه ... الذي يُعَدُّ من كبار حفّاظ الحديث في زمانه، ومن ألمع مَنْ أخرجته الأندلس في هذا المي... رحل إلى المشرق فأخذ العلم من« القيروان ومصر وبغداد والمدينة» ثم عاد إلى الأنـ... فتهافت عليه طلاب العلم من كل مكان، وأُعجِبَ «المستنصر» بجهوده، فقرَّبه منه، بل و... بتأليف كتابٍ في الحديث، فصنَّف كتابًا في السنن المسندة فيه ٢٤٩٤ حديثًا[3].

كما شجَّع المستنصر المحدث «يعيش بن سعيد الوراق» على تأليف كتاب في الحديث ... (مسند ابن الأحمر) نسبة إلى «محمد بن معاوية القرشي»[4]، ولا شك أن في اهتمام المستـ... بإخراج مصنف في حديث (ابن الأحمر) ما يدل على مكانته العلمية، وما يتمتع به من ... علمية كبيرة بين أهل الحديث، ويدلنا كذلك على إحاطة الخليفة بكبار أهل الحديث ... عصره، وإنزالهم منازلهم[5].

وكان لابن الأحمر إسهام في حركة الإنتاج العلمي المتصل بالحديث، فقد ألَّف مـ... الحديث فيه أربعة آلاف وثلاثون حديثًا..

وكذلك ما فعله الحكم (وقت أن كان وليًا للعهد) من اهتمام بمحمد بن مفرح القرطـ... الذي كان قد رحل للمشرق في طلب العلم، فلمّا عاد للأندلس، أرسل في طلبه، وأكرمـ...

---

(١) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ١٩١. (٢) السابق ١٩٢.

(٣) المقري: نفح الطيب ٣/ ١٦٩

(٤) وهو غير سعيد بن الأحمر، ذكره الذهبي في تاريخه بأنه محدث الأندلس ومسندها الثقة، وكان الوراق مـ... الناس عنه، وانظر سير أعلام النبلاء ١٦/ ٦٨.

(٥) انظر سيرة ابن الأحمر المحدث في: جذوة المقتبس للحميدي ـ ٣٨٦، وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ـ و... خير الإشبيلي في«الفهرسة».

ـع مكانته بين علماء الحديث، فصنّف له مؤلفات عديدة في مختلف ضروب المعرفة[1].

وكان من متابعاته للعلماء، أن تابع النشاط العلمي للعلامة المقّرِي «عبد الملك البجانيك، الـذي حـ للمشرق، وأخذ عن علمائه، ثم عاد إلى الأندلس ومعـه كتـاب «الوقـف والابتـداء» عـن نـافع ـية (ورش)، وما إن علم الخليفة بذلك حتى بعـث في إحضـاره، وقرّبـه مـن مجلسـه، وأفـاد مـن ـه[2].

كما اهـتم المسـتنصر بتخصـيص جانـب مـن دار الملـك (قصر الخلافـة) لتكـون مركـزًا ـحوث والدراسات (كـما نطلـق عليهـا اليـوم)، يجتمـع فيهـا العلـماء والبـاحثون للبحـث ـدراسة والتأليف، من هذه الاجتماعات ما يـذكره الحميـدي في (جـذوة المقتـبس): «دعـا ـحكم المستنصر بعض علماء اللغة (محمد بن أبي الحسين، وأبو علي القالي، وابن سيده)؛ وذلك ـقصة كتاب «العين» للخليل بن أحمد، وأحضر لهم نسخًا كثيرة من هـذا الكتـاب، وانصرف ـؤلاء العلماء إلى دراسة تلك النسخ، ومعرفة وجوه الاختلاف بينها»[3]، وهو عمـل يُـذكّرنا ـيقوم به المحقّقون لكتب التراث هذه الأيام، ويدلُّنا على عقلية الحكـم المسـتنصر العلميـة، حرصه على التحقق من كتبه، وعنايته الفائقة بها.

كذلك يذكر ابن حبان في المقتبس، أنه - رحمه الله- اهتم بجهود (الزبيدي)[4] في علم اللغة، ـع عليه «خلعة سنية» بعد تصفحه لكتابه في اختصار كتاب «العين»، بل إن الزبيدي يـذكر في ـمقدمة كتاب (طبقات النحويين) (الذي ضمَّنه أشهر النحاة في المشرق والأندلس) يذكر أنه اتبع ـتأليف هذا الكتاب منهجًا علميًا أملاه عليه الخليفة المستنصر؛ يقول: «أَلّفتُ هذا الكتـاب عـلى ـحو الذي أمرني به (أي الخليفة المستنصر)، وأقمته على الشكل الـذي حـدَّه.. بعنايتـه وعلمـه، ـوسعني من روايته وحفظه، إذ هو البحر لا تُعبَرَ أواذيه، ولا تُدرَك سواحلُه...»[5].

وهو بذلك يشير أيضًا إلى سعة علم المستنصر، ومدى اهتمامه بالتأليف، وإدراكه لحاجـة ـتحـ لكتابة مثل هذا الكتاب، في طبقات النحويين.

---

(١) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ٢/ ٩١ وما بعدها. (٢) المراكشي: الذيل والتكملة لكتاب الصلة ٥/ ١٣.

(٣) انظر: الحميدي: جذوة المقتبس ص٥٠ وما بعدها.

(٤) العالم اللغوي الأندلسي الكبير، وصاحب معجم (تاج العروس)، وله العديد من المؤلفات الثرية.

(٥) الزبيدي: طبقات النحويين ٢٣١.

تقديره لعلماء الحياة:

وإذا كان هذا هو الحال مع علماء الشرع، فإن الحال لم يختلف كثيرًا مع علماء الحياة، لـ
اهتم بهم المستنصر اهتمامًا بالغًا، وأجزل لهم العطاء، بل يـذكر أنـه اسـتحدث نظامًـا جـ
للأطباء المشتغلين بخدمة الخلفاء، فقد أنشأ ديوانًا يضـم أولئـك الأطبـاء، وينـزلهم درجـ
متفاوتةً حسب قدرهم وكفاءتهم، فمنهم «أحمد بن حفصون» الذي اشـتغل بخدمـة الخـ
المستنصر، ونال مكانة عالية بين أطباء البلاط. ولحق بخدمة الخليفة كذلك «أبو بكر أحمـ
جابر»، وكان كبير المنزلة عند الخلفاء مُعظَّمًا لديهم، وكذا الطبيب «أبـو عبـد الملـك الثقفـ
الذي جمع بين المهارة في الطب والبراعة في الهندسة، وكان عالي المقام عند المستنصر[1].

وكان المستنصر على عادته في تقديرهم وتشجيعهم على تأليف الكتب المهمة، كلّ في مجا

فمن العلماء الذين حظوا بعناية المستنصر في مجال الطب (عريب بـن سـعد القرطبـي) و
مؤرخٌ طبيب، حظي بمكانة عالية عنده، جعلته يُهدي عمدة كتبه، وأجلَّها في هذا المجال للخـ
المستنصر، يقول في مقدمة كتابه (خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود): «وإنَّ أحق ما طرقت
إليه، واستعملت الأفكار فيه بعد حقوق الله ﷻ، واستيفاء حدود شكره طلب الزلفى إلى الإمـ
الحكم المستنصر.. ولما رأيت أنَّ أحظى الأعمال المقربة من رأيه - أيّده الله - وأقرب الوسائل إلـ
وأزكاها لديه تأليف كتب العلم، وجمع منثور الحكـم، وتجديـد آثـار الـذين سـبقوا إلى فضـ
تكلَّفت كتابًا يشتمل على أقاويل العلماء في ابتداء خلق الله تعالى الإنسان...»[2].

وفي ميدان طب العيون برع الأخوان أحمد وعمـر ابنـا يـونس الحـراني في عصر النـ
والمستنصر، حيث رحلا إلى المشرق ودرسا الطب على يد ثابت بـن سـنان وغـيره، ثـم عـ
للأندلس، فأحسن المستنصر استقبالهما، ورفع مكانتهما بين علـماء الطـب... وكـان أن تُـوفِّ
عمر، وبرع أخوه أحمد من بعده في الطب، فسمح لـه الخليفـة المسـتنصر بإقامـة خزانـة
بالقصر رتَّب فيها ١٢ صـبيًا لصـناعة الأدويـة، ولم يكـن يبخـل بشيء مـن العـلاج للفقـ
والمساكين الذين كانوا يترددون على هذه الخزانة (كأنها الصيدلية في أيامنا)[3].

---

(١) ابن جلجل: طبقات الأطباء ١١١.

(٢) عريب بن سعيد: خلق الجنين (مخطوطة) ورقة ٨٥ب... (٣) ابن جلجل: طبقات الأطباء: ١١٣.

كذلك ازدهر علم الفلك في عهد الخليفة المستنصر، فقد أولاه رعايته وأحاطه بتشجيعه، واستجلب من مصر والعراق أهم الكتب الأساسية فيه، قديمها وحديثها، مما أدَّى إلى نبوغ الكثير من الفلكيين الذين تخصصوا في مراقبة حركات النجوم واستخدام آلات المرصد، وأثبتوا نبوغهم وعبقريتهم في ذلك المجال بما قاموا به من تصحيح وتحسين للجداول الفلكية، وتقويم نتائج من سبقهم. كما كان له أثره البالغ - رحمه الله- في ازدهار الدراسات الرياضية، والبحث في مواضيعها المختلفة، إذ يُروَى عنه أنه كان يقدر العلاّمة (عبد الله السري) المعروف ببراعته في الحساب والهندسة، وألَّف كتابًا مشهورًا في (البيع)، وعلى الرغم من حرص المستنصر على تقريبه منه للاستفادة من علمه، إلا أنه كان - رحمه الله- حريصًا على الزهد والبعد عن مجالس الأمراء، إلا في حاجة[1]..

وتذكر المستشرقة (زيغريد هونكه) أن «الحكم» لم يكن - إلى ذلك كله - يقتصر في أخذ علوم الحياة عن العلماء المسلمين، بل كان من العلماء المقربين إلى مجلسه علماء نصارى، يقدرهم ويرفع من قدرهم لما لديهم من علم، كان أبرزهم (الأسقف القرطبي ابن زيد) الذي نال مكانة رفيعة لدى الحكم المستنصر، وصنَّف له كتابًا في الفلك أسماه (تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان) ذكر فيه منازل القمر، وما يتعلَّق بذلك مما يستحسن مقصده وتقريبه...»[2].

وهكذا كان اهتمام الخلفاء في الأندلس بالعلم، وبالكتب، وبالعلماء، لم يقتصر على حدِّ التحفيز والتشجيع، بل شمل شتى جوانب النهضة العلمية، وتيسيرها على طلبة العلم، ووصل إلى حدِّ الأمر بكتابة المؤلفات، والمكافأة على إنجازها، بل ووضع الخطط العملية، والخطوات المنهجية للباحث والعالم حتى يؤلِّف مؤلَّفاته، التي عُدَّتْ بحقٍّ ذُخرًا للإسلام والمسلمين، وخيرَ دليل على اهتمام هؤلاء الخلفاء رحمهم الله بنهضة أمتهم على أساس قوي من العلم، فلا عجب بعد ذلك أن نرى في الأندلس علماء نوابغ، أناروا العالم كله من مغربه إلى مشرقه، وبنوا في الأندلس حضارةً أضاءت الشرق والغرب، وبقيت حتى يومنا هذا مثالاً يُحتَذَى، ودليلاً راسخًا على أن العلم سبيل للنهضة والرقي والرفعة.

* * *

---

١) القفطي: أخبار الحكماء ص ٢٤٣

٢) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٥٠١.

قرطبة كمثال تطبيقي

مدينة قرطبة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)

في عمق التاريخ.. وفي غابر الزمن.. وفي أرض حُجبت فيها شمسُ العلم والحضارة بغيمٍ كثيف من ظلمات الجهل والتخلف..

وسط كل ذلك.. وامتدادًا لحضارة إسلامية إنسانية، طالت السماء وناطحتها؛ علمًا ورقيًا ومجدًا.. بزغ نجم مدينة قرطبة، كشاهدٍ حيٍ على ما وصلت إليه حضارة المسلمين وعز الإسلام في ذلك الوقت من التاريخ، وهو منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). يوم أن كانت أوروبا تغطّ في جهل عميق..

قرطبة.. ذلك الاسم الذي طالما كان له جرس معين، ووقع خاص في الأذن الإسلامية.. بل وفي أذن كل أوربي آمن بالنهضة والحضارة الإنسانية..

قرطبة.. تلك المدينة التي ينسب إلى عبد الرحمن الناصر أنه قال فيها:

هِمَمُ الملوك إذا أرادوا ذِكْرَها ... من بَعْدهم فَبِألْسُن البنيان

أَوَ ما تَرَى الهرمَيْن قد بقيا وكم ... مَلِكٌ محاه حوادث الأزمان

إن البناء إذا تعاظم شأنه ... أضحى يَدُلّ على عظيم الشان

والتي أنشد أبو البقاء الرندي يرثيها:

وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالمٍ قد سَمى فيها له شان؟!!

وتلك هي الحقيقة..

ولنبدأ بالبداية..

فهي مدينة تقع على نهر الوادي الكبير، في الجزء الجنوبي من إسبانيا.. وقد أرَّخت لها موسوعة المورد الحديثة فقالت: «أسسها القرطاجيون فيما يعتقد، وخضعت لحكم الرومان والقوط الغربيين»[1] (انظر خريطة رقم ٦).

---

(١) موسوعة المورد الحديثة (١٩٩٥).

وقد قام بفتحها القائد الإسلامي الشهيد طارق بن زياد - رحمه الله-، وذلك سنة (٩٣ هجرية - ٧١١ ميلادية).

ومنذ ذلك العهد بدأت مدينة قرطبة تخط لنفسها خطًا جديدًا، وملمحًا مهمًا في تاريخ الحضارة، فبدأ نجمها في الصعود كمدينة حضارية عالمية، لاسيما في عام ١٣٨هـ / ٧٥٦م، عندما أسس عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) لقيام الدولة الأموية في الأندلس، وذلك بعدما سقطت في دمشق على أيدي العباسيين..



خريطة رقم (٦)

وفي عهد عبد الرحمن الناصر (أول خليفة أموي في الأندلس) ومن بعده ابنه الحكم المستنصر، بلغت قرطبة أوج ازدهارها، وقمة ريادتها وحضارتها، خاصة أنه اتخذها عاصمة لدولته الفتية، ومقرًا له كخليفة للمسلمين في العالم الغربي.. وقد جعل منها منبرًا للعلوم والثقافة والمدنية.. حتى غدت تنافس القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية في قارتها، وبغداد عاصمة العباسيين في المشرق، والقيروان والقاهرة في إفريقيا.. وحتى أطلق عليها الأوروبيون «جوهرة العالم»..!!

وقد شمل اهتمام الأمويين بقرطبة اهتمامهم كذلك بنواحي الحياة المختلفة فيها، من زراعة وصناعة، وبناء الحصون، ودور الأسلحة وغيرها.. وقد شقوا الترع وحفروا القنوات، وأقاموا المصارف، وجلبوا للأندلس أشجارًا وثمارًا لم تكن تزرع فيها..!!

معالم من قرطبة:

في هذه السطور القادمة سنتعرف على بعض مظاهر الرقي والحضارة التي تميزت بها الأندلس عامة، وقرطبة خاصة؛ لنقف على الإسهامات الإسلامية لمسيرة الإنسانية..

١) قنطرة قرطبة:

كان من المعالم المهمة في قرطبة «قنطرة قرطبة» (انظر صورة رقم ٢)، والتي تقع على نهـ الوادي الكبير، وقد عرفت باسم «الجسر» وأيضًا «قنطرة الدهر»، وكان طولها سبعةً وثلاثـ مترًا تقريبًا، أما عرضها فثمانون ذراعًا (الذراع يساوي ٦٤ سم)، وارتفاعها ستون ذراعًا!!

وقد وصفها ابن الوردي فقال: وبمدينة قرطبة القنطرة العجيبة التي فاقت قناطر الدنيا حـ وإتقانًا، وعدد قسيها سبع عشرة قوسًا، كل قوس منها خمسون شبرًا وبين كل قوسين خمسون شبرًا[1].

ووصفها الإدريسي فقال: ولقرطبة القنطرة التي علت القناطر فخرًا في بنائها وإتقانها، وعـ قسيها سبع عشرة قوسًا، بين القوس والقوس خمسون شبرًا، وسعة القوس مثل ذلك خمسون شـ وسعة ظهرها المعبور عليه ثلاثون شبرًا، ولها ستائر من كل جهة تستر القامة، وارتفاع القنطرة مـ موضع المشي إلى وجه الماء في أيام جفوف الماء وقلته ثلاثون ذراعًا، وإذا كان السيل بلغ الماء منهـ نحو حلوقها، وتحت القنطرة يعترض الوادي رصيف سد مصنوع من الأحجار القبطية والعمـ الخاشنة من الرخام، وعلى هذا السد ثلاثة بيوت أرحاء، في كل بيت منها أربعة مطاحن[2]..

٢) مسجد قرطبة:

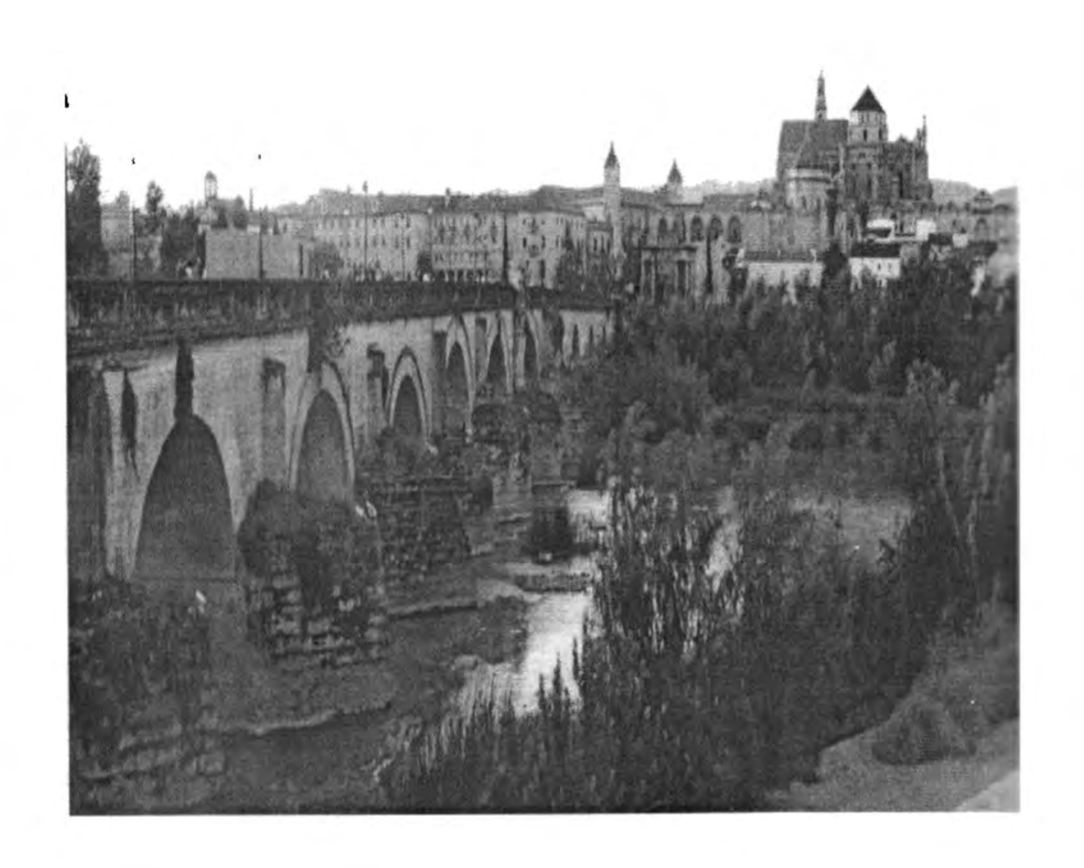
يعتبر الجامع الكبير من أهم معالم قرطبة وآثارها الباقية إلى اليوم.. وهو يُسمى بالإسبانـ Mezquita (وتنطق: ميتكيتا) وهي تحريف لكلمة (مسجد)، وقد كان أشهر مسـ بالأندلس (على اعتبار أنه الآن كاتدرائية)، ومن أكبر المساجد في أوروبا..!!

وقد بدأ بناؤه عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م ومن بعده ابنه هشام الأول وكان كل خليفة جديد يضيف لهذا الجامع ما يزيد في سعته وتزيينه.. ليكون أجمل المساجد في مدينة قرطبة، ومن أكبر المساجد وقت وجوده..!!

وفي وصف لهذا الجامع يقول صاحب الروض المعطار: «وبها (بقرطبة) الجامع المشهـ أمره الشائع ذكره، من أجلِّ مساجد الدنيا كبرَ مساحة، وإحكامَ صنعة، وجمالَ هيئة، وإتقـ بنية، تهمم به الخلفاء المروانيون فزادوا فيه زيادة بعد زيادة، وتتميمًا إثر تتميم، حتى بلغ الغـ في الإتقان، فصار يحار فيه الطرف ويعجز عن حسنه الوصف، وليس في مساجد المسلمـ مثله تنميقًا وطولاً وعرضًا!!».

---

(١) ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب ص١٢.   (٢) الإدريسي: نزهة المشتاق ٢/ ٥٧٩.



الصورة رقم (٦)
قنطرة قرطبة!!

طوله مائة باع وثمانون باعًا، ونصفه مسقف ونصفه صحن بلا سقف، وعدد قسي مسقَّفه أربع عشرة قوسًا، وسواري مسقفه بين أعمدته وسواري قببه صغارًا وكبارًا مع سواري القبلة الكبرى وما يليها ألف سارية، وفيه مائة وثلاث عشرة ثريا للوقيد، أكبر واحدة منها تحمل ألف مصباح، وأقلها تحمل اثني عشر مصباحًا، وجميع خشبه من عيدان الصنوبر الطرطوشي، ارتفاع الجائزة منه شبر في عرض شبر إلا ثلاثة أصابع، في طول كل جائزة سبعة وثلاثون شبرًا، وبين الجائزة والجائزة غلظ الجائزة، وفي سقفه من ضروب الصنائع والنقوش ما لا يشبه بعضها بعضًا، قد أحكم ترتيبها وأبدع تلوينها بأنواع الحمرة والبياض والزرقة والخضرة والتكحيل، فهي تروق العيون وتستميل النفوس بإتقان ترسيمها ومختلفات ألوانها وسعة كل بلاط من بلاط سقفه ثلاثة وثلاثون شبرًا، وبين العمود والعمود خمسة عشر شبرًا. ولكل عمود منها رأس رخام وقاعدة رخام.

ولهذا الجامع قبلة يعجز الواصفون عن وصفها، وفيها إتقان يبهر العقول تنميقها، وفيها من الفسيفساء المذهب والبلور مما بعث به صاحب القسطنطينية العظمى إلى عبد الرحمن الناصر لدين الله.. وفي جهتي المحراب أربعة أعمدة: اثنان أخضران واثنان زرزوريان، لا تُقوَّم بمال، وعلى رأس المحراب خَصّة رخام قطعة واحدة مسبوكة منمقة بأبدع التنميق من الذهب واللازورد وسائر الألوان، واستدارت على المحراب حظيرة خشب بها من أنواع النقش كل غريبة، ومع يمين المحراب المنبر الذي ليس بمعمور الأرض مثله صنعة، خشبه أبنوس وبقس وعود المجمر، يقال إنه صنع في سبع سنين، وكان صناعة ستة رجال غير من يخدمهم تصرفًا!!

وعن شمال المحراب بيت فيه عدد وطسوت ذهب وفضة وحسك، وكلها لوقيد الشمع في كل ليلة سبع وعشرين من رمضان، وفي هذا المخزن مصحف يرفعه رجلان لثقله فيه أربع أوراق من مصحف عثمان بن عفان ﷺ الذي خطه بيمينه، وفيه نقطة من دمه، ويخرج هذا المصحف في صبيحة كل يوم، يتولى إخراجه قوم من قَوَمة الجامع، وللمصحف غشاء بديع الصنعة منقوش بأغرب ما يكون من النقش، وله كرسي يوضع عليه، فيتولى الإمام قراءة نصف حزب فيه، ثم يرفع إلى موضعه.

وعن يمين المحراب والمنبر باب يفضي إلى القصر، بين حائطي الجامع في ساباط متصل.

وفي هذا الساباط ثمانية أبواب، منها أربعة تنغلق من جهة القصر وأربعة تنغلق من جهة الجامع، ولهذا الجامع عشرون بابًا مصفحة بصفائح النحاس وكواكب النحاس، وفي كل باب منها حلقتان في غاية الإتقان، وعلى وجه كل باب منها في الحائط ضروب من الفصّ المتخذ من الآجر الأحمر المحكوك، أنواع شتى وأصناف مختلفة من الصناعات والتنميق.

وللجامع في الجهة الشمالية الصومعة (المئذنة) الغريبة الصنعة، الجليلة الأعمال، الرائقة الشكل والمثال، ارتفاعها في الهواء مائة ذراع بالذراع الرشاشي، منها ثمانون ذراعًا إلى الموضع الذي يقف عليه المؤذن، ومن هناك إلى أعلاها عشرون ذراعًا، ويصعد إلى أعلى هذا المنار بدرجين: أحدهما من الجانب الغربي، والثاني من الشرقي، إذا افترق الصاعدان أسفل الصومعة لم يجتمعا إلا إذا وصلا الأعلى، ووجه هذه الصومعة مبطن بالكذّان منقوش من وجه الأرض إلى أعلى الصومعة، بصنعة تحتوي على أنواع من التزويق والكتابة.

وبالأوجه الأربعة الدائرة من الصومعة صفان من قسيّ دائرة على عقد الرخام، وبيت له أربعة أبواب مغلقة يبيت فيه في كل ليلة مؤذنان، وعلى أعلى الصومعة التي على البيت ثلاث تفاحات ذهبًا واثنتان من فضة وأوراق سوسنية، تسع الكبيرة من هذه التفاحات ستين رطلاً من الزيت، ويخدم الجامع كله ستون رجلاً، وعليهم قائم ينظر في أمورهم[(١)]. ا.هـ

وقريب من ذلك يصفه ابن الوردي في كتابه (خريدة العجائب وفريدة الغرائب)..

وقد كانت ساحته تملأها أشجار البرتقال والرمان، ليأكل منها الجائعون والقادمون إلى المدينة من شتى البقاع[(٢)].. (انظر صورة رقم ٣)!!

ومما يحزن له القلب وتدمع له العين أن هذا المسجد العظيم المهيب قد تحوّل عقب سقوط الأندلس إلى كاتدرائية، وأصبح تابعًا للكنيسة، مع احتفاظه باسمه، وتحولت مئذنته الشاهقة إلى برج تنتصب فوقه أجراس الكنيسة لإخفاء طابعها الإسلامي، كما لا يزال يعلو جدرانه المنيعة نقوشٌ قرآنية تعكس عبقرية فنية نادرة!! وهو الآن من أشهر المواقع التاريخية في العالم كله.. وتستطيع دخوله مقابل دفع ٦ يورو..!!

---

(١) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ١/ ٤٥٦، ٤٥٧.

(٢) ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب.



صورة رقم (٧)

جامع قرطبة من الداخل

وفي ذلك يقول إقبال يخاطبه:

إنَّ أرضًا أنت فيها لَسَمَاء للعيون
كيف لم يسمع آذانًا أهلها منذ قُرون؟

٣) جامعة قرطبة:

لم يقتصر دور مسجد قرطبة على العبادة فقط، وإنما كان أيضًا جامعة علمية تُعد من أشهر جامعات العالم آنذاك، وأكبر مركز علمي في أوروبا، ومن خلاله انتقلت العلوم العربية إلى الدول الأوروبية، وعلى مدى قرون..!!

وكان يُدرس في هذه الجامعة كل العلوم، وكان يُختار لها أعظم الأساتذة.. وكان طلاب العلم يفدون إليها من الشرق والغرب على السواء، مسلمين كانوا أو غير مسلمين..!!

وقد احتلت حلقات الدرس والعلم أكثر من نصف المسجد، وكان للشيوخ راتبٌ جيد ليتفرغوا للدرس والتأليف، وكذلك خصصت أموال للطلاب، ومكافآت ومعونات للمحتاجين..!!

وهو الأمر الذي أثرى الحياة العلمية بصورة ملحوظة في ذلك الوقت وفي تلك البيئة، واستطاعت قرطبة أن تخرج للمسلمين وللعالم الجم الغفير من العلماء، وفي جميع مجالات العلوم.. وفي السطور التالية نتعرف على بعض منهم..

علماء من قرطبة:

لا غرو بعد أن يكون في قرطبة تلك الجامعة العريقة، وهؤلاء الحكام المهتمون بالعلم بهذه الدرجة الكبيرة (سنتعرض لذلك وسنبين الحياة العلمية في قرطبة والمكتبات التي كانت بها) أن تنجب قرطبة الكثير من العلماء، الذين كانوا شعلة مضيئة في سماء العلوم ومحراب الإنسانية..

وهذان مثالان رائعان لعلماء هذه الفترة العظيمة من فترات التاريخ الإسلامي..

أولاً: الزهراوي:

يُعد خلف بن عباس أبو القاسم، الزهراوى، الزهراوي، الأندلسي (٣٢٥ -٤٠٤هـ / ٩٣٦ - ١٠١٣م) أشهر جراح، وطبيب، وعالم بالأدوية وتركيبها في ذلك الوقت.. وقد سبق أن

تحدثنا عنه في أكثر من موضع في هذا الكتاب..

وقد ولد الزهراوي بالزهراء، من ضواحي مدينة قرطبة، ونشأ بها، وتعلم الطب بجـ
قرطبة على أيدي أطبائها.. وقد برع فيه حتى أصبح طبيب الخليفة الأموي، الحكم الثاني

وللزهراوي في الطب إنجـازات وإبـداعات علميـة صـارت حـديث العلماء في الشـ
والغرب في عصره وبعد عصره.. فهو أول من أسس علم الجراحة العامة في العالم، وأول مـ
مارس الجراحة بيديه من بين الأطباء العرب السابقين له والمعاصرين؛ فقد كان الحجامون هـ
الذين يقومون بالعمليات الجراحية تحت إشراف الأطباء الباحثين كعلماء في الجراحة[1]..

كما يعد الزهراوي أول رائد لفكرة الطباعة في العالم؛ فلقد خطا الخطوة الأولى في صـ
الطباعة، وسبق بها الألماني يوحنا جوتنبرج بعدة قرون، وقـد سـجل الزهـراوي فكرتـه عـ
الطباعة ونفذها في المقالة الثامنة والعشرين من كتابه الفذ «التصريف»..

ففي الباب الثالـث مـن هـذه المقالـة، ولأول مـرة في تـاريخ الطـب والصـيدلة يصـ
الزهراوي كيفية صنع الحبوب (أقراص الدواء)، وطريقة صنع القالب الذي تصب فيه هـ
الأقراص أو تحضر، مع طبع أسمائها عليها في الوقت نفسه باستخدام لـوح مـن الأبنـوس
العاج مشقوق نصفين طولاً، ويحضر في كل وجه قدر غلظ نصف قرص، ويـنقش عـلى قـ
أحد الوجهين اسم القرص المراد صنعه، مطبوعًا بشكل معكوس، فيكـون الـنقش صـحيـ
عند خـروج الأقـراص مـن قالبهـا؛ وذلـك منعًـا للغـش في الأدويـة، وإخضـاعها للرقـ
الطبية[2]..!!

ويعد الزهراوي أيضًا المبتكر الأول لعملية القسطرة، وصاحب فكرتها والمبتكـ
لأدواتها.. وقد وصف عملية غسل المثانة وأدخل إليها بعض السوائل المطهرة بواسـ
الآلات.. وابتكر الزهراوي كذلك آلة دقيقة جدا لمعالجة انسداد فتحة البول الخارجية عنـ
الأطفال حديثي الولادة؛ لتسهيل مرور البول.. كما نجح في إزالة الدم من تجويف الصـ
ومن الجروح الغائرة كلها بشكل عام..!!

---

(١) انظر: جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٣١، ٣٣٢.

(٢) انظر علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية والإسلامية ص٢٦٦.

وفي الجراحة العامة يعد الزهراوي أول من أجري عملية شق القصبة الهوائية «تراكيو ستومي» علي خادمه، ونجح فيها، وكان الأطباء قبله، مثل ابن سينا والرازي، قد أحجموا عن إجرائها لخطورتها..

والزهراوي كذلك هو أول من نجح في إيقاف نزيف الدم أثناء العمليات الجراحية، وذلك بربط الشرايين الكبيرة، وسبق بهذا الربط سواه من الأطباء الغربيين بستمائة عام.. والعجيب أن يأتي من بعده من يدعي هذا الابتكار لنفسه، وهو الجراح إمبراطور باري عام ١٥٥٢ م!!

والزهراوي هو أول من استخدم خياطة الجراح بإبرتين، وبخيط واحد مثبت فيهما.!!

وهو أخيرًا أول من ابتكر التدريز، أو التخطيط المثمن في جراحات البطن.. وأول من مارس خياطة الجراح من الداخل كي لا تترك أثرا مرئيا للجراح، وقد أطلق علي هذا العمل اسم «إلمام الجروح تحت الأدمة».. وبذلك يعد الزهراوي الرائد الأول في عمليات جراحة التجميل[1]!!

هذا وقد خرَّجت قرطبة للمسلمين وللعالم أجمع - غير ما ذكرنا - علماء كثيرين، وفي شتى المجالات، ولا يتسع المجال هنا لجمعهم، ويكفي أن نذكر أنه كان منهم غير ما سبق: ابن باجه، وابن طفيل، ومحمد الغافقي (أحد مؤسسي طب العيون)، وابن عبد البر، وابن رشد والإدريسي، وأبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام الأزدي، والقاضي القرطبي النحوي، والحافظ القرطبي، وأبو جعفر القرطبي، وغيرهم كثير..

وإن هذا ليحدو بنا إلى أن نتعرف على السبيل الذي جعل قرطبة تُخرِّج كل هؤلاء العلماء، الذين أضاءوا عصور الظلام في أوروبا، وبددوا الجهل والتخلف، وأفادوا الإنسانية في أوروبا والعالم الإسلامي، وقادوها إلى الرفعة والمدنية..

وأعني: السبيل الذي جعل من قرطبة عاصمة عالمية للحضارة العلمية والمدنية..

التعليم والمكتبات في قرطبة:

كان للخلفاء دور كبير في إثراء الحياة العلمية في قرطبة، فلم يهملوا الجانب الثقافي والمعرفي، والذي ولعوا به ولعًا قبل غيرهم.. وكم كان في قرطبة من خلفاء علماء، ووزراء حكماء..!!

---

(1) شوقي أبو خليل: علماء الأندلس ص٣١.

فقد كان الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ/ ٩١٣ -٩٦٢م) ذا ولـع وحـ
شديد للعلم والمعرفة.. وفي صورة تعبر عن ذلك أن الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الـسـ
يجد شيئًا يتقرب به إلى قلب الناصر حينما عزم على عقد معاهـدة معـه سـوى أن يهديـه كتـ
جديدًا لم يعرفه من قبل، وهو كتاب ديسقوريدس، وكانت هذه النسخة رائعة، حيـث كتـ
بحروف من ذهب وزينت برسوم جميلة[1]!!

وإن حب الناصر للكتب هو الذي جعله يهتم بمكتبة القصر كثيرًا، ويقوم بتزويدها بكـ
ما هو نفيس من الكتب.

ولما تولى الحُكم الخليفة الحكم بن عبد الرحمن الناصر في سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦٢م جعل كـ
هدفه السير بالأندلس قدمًا في طريق العلم والمعرفة، فوجه جل اهتمامه إلى بناء وتعمير مكـ
قرطبة أو مكتبة القصر..

ولأنه لم يكن للمكتبات عند إنشائها أبنية مستقلة خاصة، بل كانـت المكتبـة جـزءًا غـ
مستقل من مبنى المؤسسة التي تنشأ في كنفها، فكانت مكتبة الحكم تشغل أحـد أجنحـة قصـ
الخلافة بقرطبة، وكان هذا الجناح هو ما يعرف في التاريخ باسم مكتبة الحكم، أو مكتبة قرطـ
الأموية..

وعندما ضاقت غرف المكتبة بما تحويه مـن كتـب، عـلاوة عـلى عـدم اسـتيعابها للزيـ
المطردة من الكتب، كان من الضروري أن تنقل المكتبة في مكان آخر، وقد اسـتغرقت عمليـة
النقل هذه ستة أشهر كاملة!!

وكان المبنى الجديد يضم عددًا من الأقسام، منها: قاعـة الكتـب، وهـي أصـل المكتبـة
ومركز البحث والتأليف، ومركز النقل والترجمة، ومركز التدقيق والمراجعة..

أما وظائفها الخاصة فكانت على النحو التالي:

١) المكتبة:

وتشمل القاعة الرئيسية في مبنى المكتبة، وكانت تحوي عددًا كبيرًا من الكتب التـي كـ
يجمعها الأمراء من كل حدب وصوب..

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١/ ٣٢٨.

ولقد جمع الحكم من الكتب ما لا يحد كثرة ولا يوصف نفاسة، ووصلت على وقته ٤٠٠,٠٠٠ مجلد، استغرق نقلها ستة أشهر.. ووصل عدد فهارس المكتبة فقط في أسماء دواوين الشعر ٤٤ فهرسا، بكل فهرسة عشرون ورقة..

واهتم الحكم بهذه الكتب عناية كبرى، فجمع في قصره حذاق النساخين، والمهرة في الضبط، والمجيدين في التجليد صيانة لكتبه.

وقد اعتمدت المكتبة على مجموعة مصادر في بناء وتنمية مجموعاتها من الكتب، كان منها: الشراء، ويعتبر المصدر الأهم في جمع الكتب؛ حيث كان الحكم ينفق في شراء الكتب ونوادر المخطوطات أموالا طائلة!!

وعلى سبيل المثال بعث الحكم في طلب كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني، ودفع إليه فيه ألف دينار، فأرسل إليه أبو الفرج نسخة مكتوبة من هذا الكتاب قبل أن يظهر في بغداد[1]!!

وكذلك ألف له كتابًا يتضمن أنساب قومه بني أمية، وقد فعل الحكم ذلك أيضًا مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم، ومع محمد بن القاسم بن شعبان بمصر، ومحمد بن يوسف الوراق الذي صنف له كتابًا ضخمًا في مسالك إفريقية وممالكها، وأبي عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرج[2].

وكان يعين هؤلاء الكتاب بالمال على كتابة مصنفاتهم، كما كان لا يتردد في مساعدتهم عن طريق إعارتهم ما كانوا يحتاجون إليه من مصادر؛ فقد أرسل إلى الكاتب المصري أبي سعيد عبد الرحمن بن يونس صاحب كتاب **(تاريخ مصر والمغرب)** كتابا، استعان به هذا المؤرخ في تصنيف كتابه المذكور، في القسم الخاص بالأندلس[3].

ولقد كان من المصادر أيضًا غير الشراء: الهبات والهدايا؛ فكان العلماء يهدون الكتب لمن يطلبها على سبيل الهبة، حتى ولو كان المطلوب مخطوطًا أصليًا نادرًا.. وفضلاً عن ذلك فقد كانت تأتي كتب أجنبية من البلدان الأخرى هدية إلى حكام المسلمين.

ومن المصادر أيضًا: الوقف؛ وكان يمثل مصدرًا مهمًا في إثراء المكتبة بالمجموعات القيمة

---

(١) جودة هلال، محمد محمود صبح: قرطبة في التاريخ الإسلامي ص٨٠.

(٢) ابن الأبار: الحلة السيراء ص٤٨. (٣) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ص٤٦.

من الكتب، حيث كان الحكام والمحكومون شديدي الرغبة في وقف الكتب على مختلف معاهد التعليم، وإنشاء المكتبات بها؛ حتى ينالوا الأجر والثواب من الله على ذلك، وإفادة طلاب العلم من جهة أخرى[1].

٢) مركز البحث والتأليف:

وهو يشمل فئات من الباحثين والمؤلفين، كل على حسب تخصصه، فكان فيها من العلماء المتخصصين في مختلف فروع المعرفة، وكان يتم تكليف بعض علماء الأندلس للتأليف في تخصصات معينة، ومن أمثلة ذلك: تكليف محمد بن الحارث الخشني لتأليف بعض الكتب للمكتبة، كان منها كتاب (**تاريخ قضاة قرطبة**)، وكتاب (**فضائل الإمام مالك**)، وغيرها كثير[2]..

٣) مركز النقل والترجمة:

كان مركز النقل والترجمة يُزود المكتبة بالمصنفات في الحضارة الأجنبية والفكر العالمي، ومن ثم اهتم القسم بترجمة أمهات الكتب من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية، وقد عمل في قسم الترجمة نخبة ممتازة من المترجمين الذين يجيدون اللغات الأجنبية، خاصة اليونانية واللاتينية، وكان منهم: **عبد الله الصقلي، ومحمد النباتي، ومحمد بن سعيد، وعبد الرحمن بن إسحاق بن الهيثم**، وغيرهم.. وكان أكثر العلوم التي ترجمت في المجالات العلمية: الطب والهندسة والفلك[3].

٤) مركز التدقيق والمراجعة:

كانت مهمة هذا القسم مراجعة الكتب وتصحيحها وتهذيبها، سواء المؤلفة أو المترجمة؛ حتى تصبح خالية من النقص العلمي أو العيب المادي، وكان يعمل في هذا القسم نخبة من العلماء المعروفين، والمشهود لهم بغزارة علمهم وتميزهم في كل تخصص.. وكان من هؤلاء العلماء: الرياض محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي، وأبو محمد بن أبي الحسن الفهري القرطبي، ومحمد بن معمر الجياني[4].

---

(١) انظر: ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٤٢، وانظر الجبرتي: عجائب الآثار ١/ ٥٦٦.

(٢) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ص٤٨.

(٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١/ ٣٢٨.

(٤) خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف ص ١٩٢.

٥) إدارة المكتبة:

شملت المكتبة فِئات من العاملين، منهم فئة المؤلفين، وفئة المترجمين، وفئة منتجي الكتب، وتشمل النساخين ومن في حكمهم، كالمراجعين والمجلدين والمزخرفين، وفئة المتخصصين في شئون المكتبات، كالقائمين بالأعمال الفنية والخدمات المكتبية، بالإضافة إلى فئة العمال والسعاة الذين يقومون بعمليات الأمن والحراسة، وتنظيم أثاث المكتبة.

وكان الأفراد في كل فئة يعملون تحت إشراف مسئول يتولى شئون العمل من حيث توزيعه عليهم وتجهيز مستلزماته، وكان يشرف على هؤلاء جميعًا من الناحية العلمية والإدارية «خازن».. كانت وظيفته تماثل وظيفة رئيس المكتبة أو مدير المكتبة، وكان يتولى وظيفة الخازن أحد أساطين العلماء، أو أحد مشاهير الأدباء، بحيث يسمح عمله وتتيح ثقافته وخبرته القيام بهذه المسئوليات الجسام على أكمل صورة.

وعلى هذا.. كان للحياة العلمية على المستوى العام في قرطبة لونٌ آخر.. وشأنٌ جديدٌ، لم تعهدهما تلك البقعة الجغرافية في زمانها..

قرطبة الألفية الثالثة:

للحال التي رأينا.. وللحياة التي شاهدنا.. لا غرو أن تصبح قرطبة (منتصف القرن الرابع الهجري- العاشر الميلادي) وكأنها مدينة عصرية، تضارع المدن العالمية في الألفية الثالثة..!!

ولماذا العجب وقد شهدت الحياة العلمية والتعليمية فيها نهضة قلما نراها في عصرنا هذا.. حتى انتشرت المدارس لتعليم الناس، وانتشرت المكتبات الخاصة والعامة، وصارت هي أكثر بلاد الله كتبًا، وغدت مركزًا ثقافيًا ومجمعًا علميًا لكل العلوم وفي شتى المجالات..

ومن عجيب ما يروى هنا أن ابن رشد تناظر يومًا مع أبي بكر بن زهر، فقال ابن رشد: إذا مات عالم بإشبيلية فأُريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات بقرطبة مطرب فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية[1]..!!

وقد كان الفقراء يتعلمون في المدارس القرطبية بالمجان على نفقة الحكام أنفسهم.. ولذا فليس عجيبًا أن تعلم أن جميع أفراد الشعب كان قد عرف القراءة والكتابة، ولم يوجد في

(١) المقري: نفح الطيب ١/ ١٥٥.

قرطبة شخص واحد لا يجيد القراءة والكتابة[1].. في حين لم يكن يعرفها أرفع الناس في أوروبا، باستثناء رجال الدين..!!

وجدير بالذكر أن هذه النهضة العلمية والحضارية في قرطبة في ذلك الوقت، واكبها أيضًا نهضة إدارية، وذلك من خلال عدد من المؤسسات والنظم الرائدة في الحكم، ومنها: الإمارة والوزارة، وقد تطورت أنظمة القضاء والشرطة والحسبة..

وواكبتها أيضًا نهضة صناعية عظيمة؛ إذ تطورت فيها الصناعة كثيرًا، واشتهرت صناعات مثل: صناعة الجلود، وصناعة السفن، وآلات الحرث، والأدوية وغيرها.. وكذلك استخراج الذهب والفضة والنحاس[2]!!

أما إذا نظرت إلى الحياة المدنية والعصرية فيها، فتراها مقسمة إلى خمس مدن، يقول المقري: «وبين المدينة والمدينة سور عظيم حصين حاجز، وكل مدينة مستقلة بنفسها، وفي كل منها من الحمامات، والأسواق، والصناعات.. ما يكفي أهلها»[3].

كما تميزت قرطبة - كما يذكر ذلك ياقوت في معجم البلدان، والإدريسي في نزهة المشتاق - بأسواقها الممتلئة بكافة السلع، وكان لكل مدينة سوقٌ خاص بها[4]..

وقد بلغ عدد ضواحي قرطبة ثمان وعشرين ضاحية، وكان فيها ثلاثمائة حمام، وثلاثة آلاف مسجد، وكان عدد سكان قرطبة في عهد عبد الرحمن الناصر خمسمائة ألف نسمة.. وتعتبر بذلك ثاني أكبر مدينة في تعداد السكان في العالم بأسره في ذلك الوقت، وذلك بعد بغداد المدينة الأولى، والتي كان تعداد سكانها يبلغ ثلاثة ملايين..!!

والجدير بالذكر أن عدد سكان قرطبة حاليا يبلغ ٣١٠,٠٠٠ نسمة تقريبًا[5]!!

وكانت قرطبة منذ عهد عبد الرحمن الناصر، والذي يعد عصره أزهى عصور الأندلس

---

(١) محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام ص ٩٩. ط ثانية ١٩٧٨م.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٥/ ٢١٨.

(٣) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ١/ ٥٥٨.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٣٢٤.

(٥) موقع ويكيبيديا الرابط:
http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%82%D8%B1%D8%B7%D8%A8%D8%A9_(%D8%A5%D8%B3%D8%A8%D8%A7%D9%86%D9%8A%D8%A7

جميعًا؛ إذ أنه حكم الأندلس خمسين عامًا أثبت خلالها أنه أكفأ الحكام، واستطاع أن يحرز نجاحًا تامًا في ميدان السياسة وفي ميدان الحضارة على السواء.. كانت قرطبة في عهده تُضاء بمصابيح ليلاً لمسافة ١٦ كم..!! وكانت مبلطة، ومحاطة بالحدائق الغناء..!! وكذلك انتشر فيها البريد..!!

وقد طرق قرطبة في حدود سنة ٣٥٠هـ ابن حوقل، التاجر الموصلي - كما يحكي ياقوت في معجمه - فقال يصفها: «وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة، وليس لها في المغرب شبيه في كثرة الأهل وسعة الرقعة، ويقال: إنها كأحد جانبي بغداد، وإن لم تكن كذلك فهي قريبة منها، وهي حصينة بسور من حجارة، ولها بابان مشرعان في نفس السور إلى طريق الوادي من الرصافة، والرصافة مساكن أعالي البلد متصلة بأسافله من ربضها وأبنيتها مشتبكة محيطة من شرقيها وشماليها وغربها وجنوبها، فهو إلى واديها، وعليه الرصيف المعروف بالأسواق والبيوع، ومساكن العامة بربضها، وأهلها متمولون متخصصون»[1].

بل إن سكان قرطبة قد تميّزوا خاصة بأنهم أشراف الناس وعلماؤهم، وأرفعهم مكانةً..!!

يقول في ذلك الإدريسي في نزهة المشتاق: «ولم تخلُ قرطبة قَطّ من أعلام العلماء وسادات الفضلاء، وتجارها مياسير لهم أموال كثيرة وأحوال واسعة، ولهم مراكب سنية وهمم علية..»[2]!!

ويقول الحِميري في الروض المعطار: «قرطبة: قاعدة الأندلس، وأم مدائنها، ومستقر خلافة الأمويين بها، وآثارهم بها ظاهرة، وفضائل قرطبة ومناقب خلفائها أشهر من أن تذكر، **وهم أعلام البلاد وأعيان الناس**، اشتهروا بصحة المذهب، وطيب المكسب، وحسن الزي، وعلو الهمة، وجميل الأخلاق، وكان فيها أعلام العلماء وسادات الفضلاء..»[3].

ويصفها ياقوت في معجمه فيقول: «مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها، وكانت سريرًا لملكها وقصبتها، وبها كانت ملوك بني أمية، ومعدن الفضلاءِ ومنبع النبلاءِ من ذلك الصقع..»[4].

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٣٢٤. (٢) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ٢/ ٥٧٥.

(٣) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ص٤٥٦.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٣٢٤.

ويقول أبو الحسن بن بسّام في كتابه الذخيرة: «كانت منتهى الغاية، ومركز الراية، القرى، وقرارة أهل الفضل والتقى، ووطن أولي العلم والنهى، وقلب الإقليم، وينبوع متفجر العلوم، وقبة الإسلام، وحضرة الإمام، ودار صوب العقول، وبستان ثمرة الخواطر، وبحر درر القرائح؛ ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر، وفرسان النظم والنثر، وبها انتشأت التأليفات الرائقة، وصنفت التصنيفات الفائقة؛ والسبب في ذلك، وتبريز أهلها قديمًا وحديثًا هنالك على من سواهم، أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط إلا على أهل البحث والطلب، لأنواع العلم والأدب[1].

وبالجملة فأكثر أهل بلاد هذا الأفق - يعني قرطبة خاصة والأندلس عامة - أشراف عرب المشرق افتتحوها، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها؛ فبقي النسل فيها بكل إقليم على عرقٍ كريم، فلا يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر، وشاعر قاهر..»!!

ويصفها وأهلها ابن الوردي في خريدة العجائب فيقول: «وأهلها أعيان البلاد، وسراة الناس في حسن المآكل والملابس والمراكب وعلو الهمة، وبها أعلام العلماء وسادات الفضلاء، وأجلاء الغزاة وأمجاد الحروب..»!!

ثم قال بعد أن وصف مسجدها وقنطرتها: «ومحاسن هذه المدينة أعظم من أن يحيط بها وصف»[2]..!!

كانت هذه هي إحدى مدن الحضارة الإسلامية في العالم الغربي.. وليست هي الوحيدة، بل لو كان حديثنا عن بغداد أو دمشق أو القاهرة أو البصرة أو غيرها وغيرها، لكان على الدرجة نفسها من العجب أو أشد.. ولا غرو؛ فهذه حضارة المسلمين، أعظم حضارات الدنيا، ودرة الجبين في تاريخ الإنسانية الطويل!!

* * *

---

(١) أبو الحسن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ١/ ٣٣، تحقيق: إحسان عباس.

(٢) ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب ص١٢.

المبحث الرابع

دور العلم في بناء الدولة الزنكية والأيوبية

(نور الدين محمود - صلاح الدين الأيوبي)

إنه المجاهد الكبير نور الدين محمود، الذي تولّى إمارة حلب بعد وفاة والده المجاهد -أيضًا- (عماد الدين زنكي)؛ فوضع نصب عينيه السير على منهاج أبيه في جهاد الصليبيين، الذين كانوا قد بدأوا في احتلال إمارات الشام، وتمكَّن من التغلُّب عليهم، في بعض المناطق، وتمكن من فرض سيطرته على عددٍ من قلاع الشام، كما استطاع - كذلك - أن يضم إنطاكية لإمارته، ثم دمشق بعد ذلك، ثم استطاع أن يضم إليه مصر، ودخلت تحت سيطرته.

لقد كان ذلك المجاهد قريبًا من العلم قربه من الجهاد؛ فيذكر (ابن عساكر) في حديثه عن (نور الدين محمود): «وكان حريصًا على تحصيل الكتب الصحاح والسنن، كثير المطالعة للفقه والحديث»[1].

جهوده في نشر العلم:

إنَّ من مآثر نور الدين محمود أن حياة الجهاد العظيمة التي عاشها لم تشغله عن الاهتمام بالعلم سواء بتعلمه أو الاهتمام بنشره؛ فقد أُثِرَ عنه -رحمه الله- اهتمامُه الشديد بالعلم، والمبالغة في العطاء عليه، رغبةً منه في إعادة بناء دولته (الزنكية) بناءً قويًّا على أساسٍ من العلم؛ من هنا حرص - رحمه الله- على نشر العلم والتعليم بين الناس، فأمر بإنشاء عدد من مدارس الفقه في شتى مذاهبه، لتكون قبلةً لطلاب العلم، فأمر بإنشاء (المدرسة العادلية) في المذهب الشافعي، والمدرسة (البدرية) للمذهب الحنفي، وكان أول مَنْ بنى مدرسةً للحديث هو نور الدين محمود[2]، فقد كان يؤمن أنه لا يمكن أن تقيم راية الجهاد إلا إذا أعددت الشعب بالتعليم؛ لذا كان يُعِدُّ الناس للجهاد بنفخ روح الإيمان في نفوسهم من ناحية، وبنشر العلم والثقافة من ناحية أخرى.

ولم يكن اهتمامه - رحمه الله- منصبًا على علوم الدين فحسب، بل كان يقدر لعلوم الحياة قدرها؛ فقد كان - رحمه الله- شديد الاهتمام بالابتكار في سائر المجالات كالفلك وعلم النجوم، وكان يحثُّ

---

١) ابن عساكر : تاريخ دمشق ٥٧/ ١١٨.

٢) انظر بالتفصيل: عبد القادر النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ١/ ١٤٩.

العلماءَ على الابتكار؛ من ذلك ما فعله مع رضوان بن رستم الساعاتي، الذي صنع الساعاتِ التي عـ
باب الجامع الأموي بدمشق، حيث كان يخصُّه بالكثير مـن المـال والعطايـا، حتـى يتقـدم في صـنـ
ويتقنها[1]..

كذلك اهتمَّ نور الدين محمود بإنشاء المستشفيات (البيمارستانات)، وجعلها تقدم الخـ
الطبية المجانية للشعب، وقد انتشرت في أغلب مدن الدولة الزنكية، وتُعتبَر البيمارستانات مـ
مفاخر الحضارة الإسلامية التي سبقت غيرها من الحضارات.

وكان الملك العادل نور الدين محمود وخلفاؤه من البيت الأيـوبي هـم أول مـن اسـتكـ
منها من الملوك والسلاطين، كما اهتموا بدراسة الطب وممارسته اهتمامًا بالغًـا وقايـةً لـبلادهـ
من الأوبئة والأمراض، وكانت حلب في عهد الملك نور الدين محمـود أحـد مراكـز تـدريـ
الطب في بلاد الشام، وكان ميدان ذلك البيمارستان النوري الذي كان يؤدي رسالة علمية هـ
أهميتها في تدريس الطب إضافة إلى قيامه بوظيفته الأساسية علاج المرضى ومتابعتهم[2].

أهم المؤسسات العلمية التي أنشأها:

١ - البيمارستانات:

أ- البيمارستان النوري: قال ابـن الشـحنة: إن الملـك نـور الـدين محمـود هـو الـذي بنـى هـ
البيمارستان داخل باب أنطاكية بالقرب من سُوق الهواء[3]. وقد ذكر ابن الشحنة أنَّ الملك نور الـديـ
حينما أراد بناء هذا البيمارستان طلب من الأطباء أن يختاروا من حلب أفضل بقعـة، صـحيحة الهـو
صالحة لإقامة البيمارستان بها، وذبحوا خروفًا وقطعّوه أربعة أرباع، وعلّقوها بأرباع المدينة ليلاً، فلـ
أصبحوا وجدوا أحسنها رائحة الرّبع الذي كان في هذا الموقع، فبنوا البيمارسـتان فيـه ، وهـذه خطة
حكيمة في اختيار المكان الصالح لبناء البيمارستان، ومما يذكر أن هذا الأمر شبيه بما فعله «الرازي» من
قبل في بغداد حينما أشرف على بناء المستشفى العضدي[4]، كل ذلك في وقت تنعدم فيـه آلات قيـا

(١) عبد القادر النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٤٣٣.
(٢) إبراهيم المزيني: الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٢.
(٣) ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ص٢٣٠ .
(٤) قام الرازي أيضًا بذبح خروف ، وتقطيعه أربعة أرباع، ووضع كل ربع في مكان، ولما أصبح نظر إلى أكثـر الأجـزاء التي لم تتغير رائحتها، فبنى فيها المستشفى. انظر السباعي: من روائع حضارتنا ١٠١ .

لأبعاد ودرجات الحرارة واختبارات الأجواء.

ويقع هذا البيمارستان حاليا في منطقة الجلوم الكبرى في الزقاق المعروف حاليا بزقاق بهرامية[1]، وقد وجد مكتوبًا عند باب البيمارستان: بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمله المولى الملك العادل المجاهد المرابط الأعز الكامل صلاح الدنيا والدين قسيم الدولة رضي الخلافة تاج الملوك والسلاطين ناصر الحق بالبراهين محيي العدل في العالمين قامع الملحدين قاتل الكفرة المشركين أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين أدام الله دولته[2]، وكان نور الدين قد أوقف على هذا البيمارستان عددًا كبيرًا من الأوقاف[3]؛ لكي تدرّ قدرًا وفيرًا من المال لتأمين نفقات هذا البيمارستان الكبير، وقد أشار محمد كرد إلى وجود مكتبة متخصصة داخل البيمارستان تشتمل على كثيرٍ من الكتب الطبية التي أوقفها الملك نور الدين محمود على هذا البيمارستان[4]؛ ممّا يؤكّد أثر هذا البيمارستان في النشاط العلمي في هذا العهد إلى جانب الوظيفة الطبية التي كان يقوم بها.

ب- البيمارستان النوري في دمشق: يُنسَبُ هذا البيمارستان إلى الملك نور الدين محمود زنكي. قال عنه ابن الأثير: وبنى البيمارستانات في البلاد، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق؛ يعني أنه لم يجعله وقفًا على الفقراء فحسب، بل على كافّة المسلمين من غني وفقير[5].

وقد اشتهر البيمارستان النوري في دمشق في عهد نور الدين محمود زنكي بتدريس الطب، وقد أشار إلى ذلك ابن أبي أصيبعة وهو يُترجم لشيخه الطبيب أبي المجد بن أبي الحكم المتوفى سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م؛ فالبيمارستان كان في ذلك العهد هو المكان الرئيسي لمهنة الطب والصيدلة من حيث التدريس والتطبيق، كما شاركه في ذلك مجالس العلم التي كان يعقدها الموصوفون بصناعة الطب وتدريسه لطلابهم، ولم تُشِرْ المصادر إلى وجود مدارس مستقلة بتدريس الطب في العهد الزنكي كما هو الشأن في العهد الأيوبي بعد ذلك، عندما أُنشِئت أول مدرسة خاصة

١) خير الدين الأسدي: أخبار حلب وأسواقها ص ١٦٧.
٢) كامل الحلبي: نهر الذهب في تاريخ حلب ٢/ ٦٥، ٦٦.
٣) ابن الشحنة: الدر المنتخب ص ٢٣١.
٤) محمد كرد علي: خطط الشام ٦/ ١٨٧.
٥) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ص ١٧٠.

لتدريس الطب سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م وهي المدرسة قبلي الجامع الأموي بدمشق[١].

٢- المدارس: كانت المساجد هي المراكز الأولى للتعليم في الإسلام، إلى جانب كونها عبادة المسلمين، ومقر اجتماعاتهم، ولكن مع مرور الزمن انتقل التعليم في بعض مظاهره عن المساجد إلى أماكن أخرى عُرِفَت بالمدارس، ولما تولى نور الدين حكم الدولة الزنكية شهد حركة بناء المدارس انتشارًا واسعًا فقد أخذ في إنشائها، واستدعى لها كبار العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية، وبنى لهم العديد من المدارس في شتى أرجاء مملكته، وكان يهدف من ذلك إلى دعم المذهب السني، ومقاومة التشيع في المنطقة، ومن أهم المدارس التي قام بإنشائها:

المدارس في حلب: بدأت الحركة العلمية تبرز في حلب في بداية حكم نور الدين محمود لها في عام ٥٤١هـ والذي ركز نشاطه منذ استلامه الحكم في تنفيذ سياسته الرامية إلى الوقوف بشدة أمام المذهب الشيعي الذي زاد انتشاره آنذاك في حلب، فحرص على تقويضه وإحلال المذهب السني مكانه، مما تطلب منه القيام بجهود علمية بارزة تجاه ذلك. كان منها تشجيع العلم والعلماء عن طريق إنشاء العديد من المدارس على مختلف المذاهب السنية، وتوجيه التعليم وجهة سنية عن طريق تشجيع تدريس العلوم الشرعية، وقد جلب عددًا من العلماء الأَكْفَاء لتولي المهمة، وبهذه السياسة نجح نور الدين في إنقاذ حلب من تأصُّل الفكر الشيعي بها، وتمكَّن من تحويلها إلى مركز من مراكز السنة بعد أن كانت قاعدة للمذهب الشيعي في المنطقة[٢]، وقد أثمرت تلك الجهود في دعم حركة التعليم في حلب حتى أصبحت من المراكز العلمية المشهورة التي جلبت أنظار العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية، بل ربما تفوَّقت عليها في بعض المجالات لما تميزت به حلب من موقع متوسط بين تلك المراكز، وإمكانات مادية وبشرية تفوق في بعض الأحيان إمكانات المراكز الأخرى، إضافة إلى استمرار النشاط العلمي بها في فترات لاحقة للحكم الزنكي في نفس القوة التي بدأ بها نظرًا لما لاقته تلك الإمارة من دعم وتشجيع مستمرين طيلة عصر نور الدين، والسلاطين الأيوبيين والمماليك من بعدهم»[٣]. وكانت أبرز المدارس التي أنشئت في حلب:

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١ / ٤١٣.

(٢) إبراهيم المزيني: الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٨٩.

(٣) انظر النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١٦٧ ومابعدها.

المدرسة النورية: أنشأها الملك العادل نور الدين محمود سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م) وكان الشيخ ـب الدين النيسابوري وهو أول من وُلِّي التدريس في هذه المدرسة، وكان قدم إليها من دمشق، ثم ـ تدريسها بعده مجد الدين طاهر بن جهبل المتوفى سنة (٥٩٧هـ/ ١٢٠١م)[١].

المدرسة العصرونية: كان موقع هذه المدرسة في الأصل دارًا لأبي الحسن علي بن أبي ـريّا وزير بني مِرداس أصحاب حلب، ولما جاء نور الدين محمود إلى حلب اشترى هذه ـار وحوّلها مدرسة، وجعل فيها مساكن للمدرسين بها من الفقهاء وذلك سنة ٥٥٠هـ ـسب ما جاء في بعض المصادر التاريخية[٢]، وبعد أن أتم نور الدين محمود بناء هذه المدرسة ـتدعى لها من نواحي سنجار الإمام شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون المتوفي سنة ـ٥هـ، وفوّض إليه مهنة التدريس بها والنظر في أوقافها، وهو أولّ من درّس بها فعُرِفَت به، ـسبت إليه[٣].

المدرسة الأَسَدِيَّة الجوّانية: تُنسب هذه المدرسة للأمير أَسَد الدين شيركوه بن شاذى بن ـروان المتوفي سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م الذي أنشاها بمحلة الرحبة بحلب للمذهب الشافعي[٤].

المدرسة الشُعيْبِيَّة: كان موقع هذه المدرسة مسجدًا يقال: إنه أول ما اختطَّه المسلمون ـند فتح حلب من المساجد، وعُرِفَ هذا المسجد بأبي الحسن الغضائِريّ المتوفَّى سنة ٣١٣هـ؛ ـم ملك نور الدين محمود حلب، وأنشأ بها المدارس وصل الشيخ شُعيب الأندلسي إلى حلب؛ فصير له هذا المسجد مدرسة، وجعله مُدَرِّسًا بها فعرفت به، ولم يزل الشيخ شعيب ـدرّسًا بها إلى أن توفي بطريق مكة سنة ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م[٥].

ب- في دمشق: كانت أول مدرسة أشارت المصادر إلى إنشائها في دمشق سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م هي المدرسة الصادرية الحنفية ثم تلا ذلك إنشاء العديد من المدارس، في حكم الزنكي لدمشق (٥٤٩هـ - ٥٦٩هـ/ ١١٥٤ - ١١٧٤م) وقد توزعت تلك المدارس

---

١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١ / ٢٦٢.

٢) ابن الشحنة: الدر المنتخب ص ١١٠.

٣) عز الدين بن شداد: الأعلاق الخطيرة ٢٤٤، والنعيمي: الدارس في تاريخ المدارس : ١/ ١٦٧ .

٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٥٥ ، وعز الدين بن شداد: الأعلاق ٢٥٣.

٥) عز الدين بن شداد: الأعلاق ٢٥٧.

على المذاهب السنية الأربعة، ولكن المذهب الحنفي والشافعي هما السائدان على مدارس دمشق في ذلك العهد يليهما المذهب الحنبلي، وأخيرًا المذهب المالكي، ومن أهم هذه المدارس

المدرسة النُورية الكبرى: ذكر ابن شداد أن هذه المدرسة تقع بخط الخواصين وأن الذي بناها هو نور الدين محمود زنكي[2]، وقد شاهد الرحالة الأندلسي ابن جبير هذه المدرسة في زيارته لدمشق سنة ٥٨٠هـ، ووصفها بأنها من أحسن مدارس الدنيا منظرًا، وتبدو قصر من القصور الأنيقة «ينصب فيها الماء وسط نهر عظيم ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار، فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين - رحمه الله -»[3].

وقد نالت هذه المدرسة مكانة علمية كبيرة في ذلك العهد؛ حيث كانت في مقدمة مدارس دمشق، وبخاصة في عصر مُنشئها الملك نور الدين محمود والسنوات التي أعقبتها، وحين تُذكَر حركةُ التعليم في بلاد الشام في تلك العصور يُشار إلى هذه المدرسة في مقدمة دور التعليم، وتتضح أهمية هذه المدرسة في الأثر العلمي الذي تركه شيوخها ومدرسوها ومُعيدوها، وفي الأعداد الوافرة من الطلاب الذين تخرَّجوا فيها، إضافةً إلى ما قامت به تلك المدرسة من نشاط سياسي واجتماعي كبير في ذلك العهد، وقراءة الكتابة المسجلة على الحجر الذي يُكَوّن العتبة العليا لباب المدرسة، وتُبيِّن لنا حجم الأوقاف التي أوقفها نور الدين على هذه المدرسة للإنفاق من رِيعها على الطلاب والمدرسين والعاملين بالمدرسة إنفاقًا سخيًا متواصلاً، ونَصُّ هذه الكتابة كالآتي: بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذه المدرسة المباركة العادل الزاهد نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي آق سنقر ضاعف الله ثوابه، ووقفها على أصحاب الإمام سراج الأمة أبي حنيفة رضي الله عنه، ووقف عليها، وعلى الفقهاء، والمتفقهة بها جميع الحمّام المُستجد بسوق القمح. والحمامين المستجدين بالوراقة ظاهر باب السلامة. والدار المجاورة والربع من بستان الجوزة بالأرزة، والإحدى والعشرين حانوتًا خارج باب الجابية، والساحة الملاصقة لها من الشرق، والستة حقول بداريا، على ما نُصَّ وشُرِط؛ فكتب

---

(١) يسميه أهالي دمشق حاليا: سوق الخياطين.

(٢) عز الدين بن شداد: الأعلاق الخطيرة ٢٤٨. وانظر: النعيمي: الدارس في المدارس١/ ٢٦٢.

(٣) رحلة ابن جبير: ١/ ١٠٧.

لوقف رغبة في الآخرة، وتقدمه بين يديه يوم الحساب: ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٨١] [١].

المدرسة العمادية: بناها نور الدين محمود – رحمه الله- تعالى برسم خطيب دمشق أبي البركات بن عبد الحارثي وهو أول من درَّس بها، ونسبت للعماد الأصفهاني لتدريسه بها بعده، وقد ذكر العماد خبر تدريسه في هذه المدرسة سنة ٥٦٧هـ فقال: وفي رجب من هذه السنة فوّض إليَّ المدرسة التي بحضرة حمام القصير، وعُوِّل عليَّ في التدريس بها والنظر في أوقافها[٢].

دور الحديث: على الرغم من انتشار حركة المدارس في العهد الزنكي، وشيوع لفظ «مدرسة» على المكان المخصص للتعليم والإقامة والرعاية، فقد وُجِد بجانبها دُورٌ تعليمية تؤدي الأغراض نفسها التي تنهض بها المدارس، وإن لم تحمل اسمها، فلفظ (دار) كان مرادفًا في المعنى والوظيفة لكلمة مدرسة، وقد ورد كثيرًا في ذلك العهد، فنور الدين محمود أنشأ دار الحديث بدمشق، وهي الأولى من نوعها في الإسلام، ولم يطلق عليها مسمّى مدرسة، ومن بعده تكاثرت دور الحديث كمدارس أحادية يخصصها لهذا العلم، وقد عُنِي المسلمون بدراسة الحديث الشريف عنايةً كبيرةً باعتباره المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، ومن مظاهر العناية به إنشاء تلك الدُّور التي تتولى مهمة تدريس أقوال النبي ﷺ، وأفعاله، وأحواله من حيث رواية الحديث والبحث عن كيفية اتصال الأحاديث بالرسول ﷺ من حيث أحوال رواتها ضبطًا وعدالة، ومن حيث كيفية السند اتصالاً وانقطاعًا، كما تتناول دراسة المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث، والمراد منها مبينًا على قواعد اللغة العربية، وضوابط الشريعة، ومطابقًا لأحوال النبي ﷺ[٣]. وكان الاتجاه إلى العناية بالحديث الشريف دراسة وتدريسًا، وتشييد دُوُر خاصة به من أبرز سمات التعليم في العهد الزنكي، وتُعد مبادرة نور الدين تلك إدراكًا منه للظروف المحيطة بالمنطقة في تلك المدة سواء ما يختص منها بالمذهب الشيعي، وتحمُّل عبء تقويضه من المنطقة، ونشر المذهب السني، أو ما يتمثل بالخطر الصليبي المحيط بالمنطقة، إذ كانت مهمة تلك المعاهد أن تقوم بدورها إلى

(١) الزيني: الحياة العلمية في العهد الزنكي ١٦٥.

(٢) العماد الأصفهاني: البرق الشامي ١/ ٣٠، وانظر: الدارس ١/ ١٧١.

(٣) حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ص ١٣٢.

جانب دور التعليم الأخرى في تهيئة الناس وإعدادهم للجهاد ضد العدوان، فكثرت الدراسات والتأليف حول فضائل الجهاد والحث عليه، وزاد الاهتمام بدراسة هذا التخصص. وكانت دور الحديث مقرًا لذلك النشاط[1].

أ- في حلب: أوردت بعض المصادر إشارات إلى وجود العديد من دور الحديث في حلب في هذا العهد، ولكن تلك المصادر لم تورد أية تفصيلات عن نشأة تلك الدور أو نشاطاتها أو مواقعها، واكتفت بنسبتها إلى مؤسسيها، وكان أبرز تلك الدور ما يأتي:

- دار للحديث تُنسب للملك العادل نور الدين محمود[2]، وهي غير الزاوية التي أوقفها نور الدين داخل جامع حلب لتدريس هذا العلم .

- دار أخرى أنشأها نائب نور الدين في حلب مجد الدين ابن الدّاية المتوفى سنة ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م[3].

- دار أنشأتها أم الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود في الخانِقاه التي بَنَتْها[4].

ب- في دمشق: كانت العناية بالحديث الشريف دراسة وتدريسًا، وإنشاء دُوُر خاصة به كان من أبرز سمات التعليم في هذا العهد، إذ بادر الملك نور الدين محمود بإنشاء أول دار للحديث في الإسلام، وهي دار الحديث النورية بدمشق، والتي أوكل مهمة التدريس فيها والإشراف عليها إلى أبرز أعلام عصره في هذا المجال، وهو الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر المتوفي سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م) ثم تلا ذلك إنشاء العديد من دور الحديث في العالم الإسلامي. ولم يكن في دمشق في هذا العهد سوى هذه الدار[5].

وبتشجيع من الملك العادل نور الدين محمود تم تأليف أكبر مصنف عن تاريخ دمشق، وهو (تاريخ مدينة دمشق) للحافظ ابن عساكر وقد جاء في مقدمة هذا الكتاب: «ورَقِيَ خبر جمعي له إلى حضرة الملك الكامل العادل الزاهد المجاهد المرابط الهمام، أبي القاسم محمود بن

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٣٣ .

(٢) ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٢٣.

(٣) عز الدين بن شداد: الأعلاق الخطيرة ٢٨٦ وما بعدها.

(٤) السابق نفسه.

(٥) ابن عساكر: تاريخ دمشق ١/ ٧.

زنكي بن آق سنقر ناصر الإمام... وبلغني تشوقه إلى الاستنجاز والاستتمام ليلّم بمطالعة ما تيسَّر منه بعض الإلمام، فراجعت العمل فيه راجيًا الظفر بالتمام، شاكرًا لما ظهر منه من حسن الاهتمام»[1]؛ مما يوضح حرص نور الدين محمود على الإطلاع على تاريخ عاصمته (دمشق)، وتشوقه إلى ذلك، كما أنه يؤرخ لنا زمن تصنيف ابن عساكر لهذا الكتاب، ويعد هذا العمل من الآثار العلمية المجيدة التي تبناها نور الدين محمود.

أثر العلماء في دولة نور الدين:

كان لبعض العلماء المشتغلين بالتعليم والتربية والوعظ والإرشاد دور بارز في دولة نور الدين تمثل في الآتي:

أ- الجهاد ضد الصليبيين: كان نور الدين محمود يعمل دائمًا بمشورة العلماء ومساندتهم؛ حيث كانت لهم الكلمة النافذة، والمكانة المرموقة، والحظ الوافر في كلٍّ من الموصل وبلاد الشام في ذلك العهد، ومن العلماء الذين كان لهم أثر بارز في الجهاد ضد الصليبيين، الحافظ المحدث أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر[2]، ومن أعماله التي قام بها لينضمَّ إلى العلماء المجاهدين توجيه الحديث الشريف لخدمة الجهاد ضد الصليبيين باعتباره شيخًا لأول دار تخصصية تنشأ لتدريس الحديث في الإسلام، وهي دار الحديث النُّورية بدمشق؛ فقد حرص الحافظ على تدريس ما يتعلَّق منه بباب الجهاد، والحثِّ على فضائله، ودراسة الأحاديث والآداب المتعلقة به، وقد جمع لنور الدين أربعين حديثًا في فضائل الجهاد في جزء واحد؛ دفعه إلى جمعه رغبتُه في حَثِّ الناس على فضائل الجهاد، والاستشهاد في سبيل الله[3]، كما كان للعماد الأصفهاني الأديب الكاتب المتوفَّى سنة ٥٩٧هـ أثر بارز في الجهاد ضد الصليبيين؛ فقد انتقل إلى دمشق سنة ٥٦٢هـ في أيام الملك نور الدين محمود، وكان سندًا لنور الدين؛ حيث تولَّى لديه العديد من الوظائف المهمة في الدولة التي مكّنته من الإسهام بالمشورة والتدريس والتأليف، فكانت أعماله صورة صادقة من تجاوب العلماء مع أحداث الجهاد في ذلك العهد[4].

ب- السفارة بين الدول: شارك بعض العلماء في العهد الزنكي في مهمة السفارة بين

---

(١) السابق في المقدمة ص ٤.

(٢) تُوُفِّي سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٦م.

(٣) معجم البلدان ١٣/ ٧٨.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان ١٩/ ١٤.

الدولة الزنكية والخلافة العباسية إمّا بهدف الاستنجاد ضد الصليبيين، أو لقضاء مصلحة بين الدولتين، ومن سفراء الاستنجاد، وطلب المعونة ضد الصليبيين القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري المتوفى سنة ٥٧٢هـ؛ إذ أرسله الملك عماد الدين زنكي سفيرًا من لدنه ليستنجد بالخليفة العباسي المقتفي لأمر الله، والسلطان السلجوقي مسعود عام ٥٣٢هـ أثناء الهجوم الصليبي البيزنطي المشترك على حلب وغيرها من مدن الشام[1].

كما واصل القاضي كمال الدين القيام بمهمة السفارة بين الدولة الزنكية والخلافة العباسية في عصر نور الدين محمود؛ إذ اعتمده نور الدين سفيرًا إلى الخليفة العباسي المستضيء يطلب منه تقليدًا بما في يده من البلاد (الشام ومصر والجزيرة والموصل)، وبما في طاعته كديار بكر، وما يجاوز ذلك كخلاط وبلاد أرسلان، يقول ابن الأثير: فأكرم الخليفة كمال الدين إكرامًا لم يكرمه رسولاً قبله، وأُجِيبَ إلى ما التمسه[2].

ونلاحظ في حديثنا عن مكانة العلماء في دولة نور الدين محمود أمورًا، منها:

١ – أن نور الدين – رحمه الله –، قد استفاد من العلماء على اختلاف مذاهبهم رغم أنه كان حنفي المذهب. فارتفع فوق عصبية المذهب، وكان لها سطوتها آنذاك.

٢– أن عصر الملك العادل، كان حافلاً بالحركة العلمية مزدهرًا بالعلماء والفقهاء والقضاة من ذوي العلم الغزير، والعاملين بعلمهم، ورغم ذلك كانوا يندهشون مما يبديه السلطان من الفهم لمسائل طال الخلاف حولها، وكان يناقشهم فيها، ويعود ذلك إلى ذكاء لمّاح ونيَّة حسنة، وعلمٍ غزير، مما مكَّنه من حلِّ مشكلات عصره بينما عجز عنها قبله فحول وأساطين.

٣– أن التعاون بين السلطان والعلماء العاملين، قد أدَّى إلى تغيير الأوضاع المتردية، وتجديد أحوال الأمة، والارتقاء بها نحو الأفضل، مع إقامة العدل وطرد الغزاة في أماكن كثيرة.

كانت تلك صورة من اهتمام الملك العادل نور الدين محمود بالعلم، وهي صورة مشرقة في كل جوانبها، تكشف عن عقلية عظيمة سعت إلى نهضة شاملة للعالم الإسلامي، وكان صاحبها ذا مشروع نهضوي عظيم، بدأ فيه، ثم أدركه القدر بعد أن مهَّد الطريق لمن جاء بعده.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ١٣٩.

(٢) السابق ١٢٥.

دور العلم في حياة صلاح الدين الأيوبي

كان صلاح الدين – رحمه الله – حريصًا على العلم، شديد الرغبة في سماع الحديث، يذكر كاتب سيرته القاضي العلامة بهاء الدين بن شدَّاد في كتابه (النوادر السلطانية):

كان – رحمه الله – متى سمع عن شيخٍ ذي رواية عالية وسماعٍ كثير، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع منه، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له، وكان يوقِّر العلماء، ويحفظ لهم مكانتهم دائمًا[1]..

وقد يظنُّ الكثير من الناس أن صلاح الدين شغلته أعمال الجهاد عن الانصراف إلى شئون الدولة الأخرى الحضارية، ولعلَّ صورة الفارس المحارب صلاح الدين قد طغت على جوانب الأخرى من شخصيته، فأخفت بعضًا من ملامحها المشرقة، وقسماتها المضيئة.

وأولُ عملٍ يلقانا من أعمال صلاح الدين هو دعمه للمذهب السني؛ بإنشائه مدرستين لتدريس فقه أهل السنة، هما المدرسة الناصرية[2] لتدريس الفقه الشافعي، والمدرسة القمحية لتدريس الفقه المالكي، وسُمِّيَت بذلك؛ لأنها كانت توزع على أساتذتها ومعيديها وتلاميذها قمحًا، كانت تُغِلُّه من أرض موقوفة عليها، وفي الوقت نفسه قَصَرَ تولي مناصب القضاء على أصحاب المذهب الشافعي، فكان ذلك سببًا في انتشار المذهب في مصر وما يتبعها من أقاليم.

وقد برز في عصر صلاح الدين عدد من الشخصيات العلمية والفكرية، مثل (القاضي الفاضل) المتوفَّى سنة ٥٩٦ هـ رئيس ديوان الإنشاء وصاحب القلم البديع في الكتابة[3]، وكان صلاح الدين يستشيره في أدق أمور الحرب والسياسة، و(العماد الأصفهاني) المتوفَّى سنة ٥٩١ هـ، صاحب المؤلَّفات المعروفة في الأدب والتاريخ[4]، الذي نجح مع القاضي الفاضل في تطوير ديوان الإنشاء في مصر، وهذا الديوان يشبه في وظيفته وزارة الخارجية.

---

(١) بهاء الدين بن شداد: النوادر السلطانية (١/ ١٣٠)

(٢) الدارس في تاريخ المدارس ١/ ١٩٥، وابن كثير: البداية والنهاية ١٤/ ١٠٤.

(٣) واسمه عبد الرحيم بن علي البيساني، انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٢٣٥، والسلوك لمعرفة دول الملوك (١/ ٢٥).

(٤) ذكر القنوجي: بلغ الرفعة عند نور الدين محمود بن أتابك زنكي والسلطان صلاح الدين، وتقلَّبت به الأحوال إلى أن عظُمَ أمرُه، وصنَّف التصانيف النافعة منها: كتاب خريدة القصر وفريدة العصر، جعله ذيلاً على: زينة الدهر للحظيري وجعله في عشر مجلدات، وله: كتاب البرق الشامي في سبع مجلدات في التاريخ، وكتاب الفتح القسي في فتح القدسي (انظر أبجد العلوم ٦٧٤).

وقد كان من مظاهر اهتمام صلاح الدين بالعلم؛ تدبير أمور الدولة على أساس علميٍّ؛ فقد استقرَّت النظم الإدارية؛ فكان السلطان يرأس الحكومة المركزية في العاصمة يليه نائب السلطان؛ وهو المنصب الذي استحدثه صلاح الدين لينوب عنه في أثناء غيابه، ثم الوزير، وكان يقوم بتنفيذ سياسات الدولة، ويلي ذلك الدواوين، مثل: (ديوان النظر) الذي يشرف على الشئون المالية، و(ديوان الإنشاء) ويختص بالمراسلات والأعمال الكتابية، و(ديوان الجيش) ويختص بالإشراف على شئون الجيش، و(ديوان الأسطول) الذي عُنِيَ به صلاح الدين عنايةً فائقةً لمواجهة الصليبيين الذين كانوا يستخدمون البحر في هجومهم على البلاد الإسلامية، وأفرد له ميزانية خاصة، وعهد به إلى أخيه العادل، وقد اشترك الأسطول في عدة معارك بحرية في سواحل مصر والشام، منها صدُّه لحملة أرناط على مكة والمدينة[1].

وعُني صلاح الدين بالمؤسسات الاجتماعية التي تعين الناس وتخفف عنهم بعض أعباء الحياة؛ فألغى الضرائب التي كانت تفرض على الحجاج الذين يمرون بمصر، وتعهد بالإنفاق على الفقراء والغرباء الذين يلجأون إلى المساجد، وجعل من مسجد (أحمد بن طولون) مأوى للغرباء من المغاربة.

كذلك لم يهمل صلاح الدين – رحمه الله- جانب العلوم الحياتية، إذ نراه اهتمَّ اهتمامًا بالغًا بالعلماء، والأطباء، وأقام عددًا من المستشفيات التي جلب لها الأطباء المتخصصين في شتى التخصصات، ومن أهم هذه المستشفيات (المارستان) [2] الذي أمر ببنائه في القاهرة وهو بناء ضخم متَّسع، وضع عليه صلاح الدين مشرفين من ذوي العلم والدراية، ووضع لديهم خزائن الأدوية، وكان هذا المستشفى مزودًا بأَسِرَّة كبيرة ومجهزًا لاستقبال المرضى..

و مما يُؤثَر عن صلاح الدين أنه كان يحب العلم، ويشجع العلماء، ولا يضن بمال أو جهد في سبيل إنعاش الحركة العلمية في البلاد، فأنشأ كثيرًا من المدارس، وقرَّب العلماء والكتَّاب والراسخين في العلم وفنون الثقافة المختلفة منه.

وكان نظام الكتاتيب موجودًا في عهد صلاح الدين، فكان الصبي إذا شَبَّ عن الطوق التحق بهذه الكتاتيب ليتعلَّم القرآن، ويحفظ طرفًا من الحديث، ثم أصول الحساب، واللغة

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ١٦٩.

(٢) السلوك في معرفة دول الملوك ١/ ١٢.

وهكذا حتى يبرع في علم من العلوم، وإذا شبَّ الغلام وترعرع وأراد أن يستزيد من العلم رحل إلى مواطن العلم في مصر والشام وبغداد ومكة، ليتقن علوم دينه وحياته[1].

هذا وقد قامت المدارس المختلفة في مصر والشام بدور كبير في تعليم المذاهب الفقهية على أوسع نطاق، وذلك إلى جانب المدارس التي أُنشِئَت في القدس عقب استردادها عام ٥٨٣هـ وقد بنى صلاح الدين عام ٥٧٢هـ أول مدرسة للحنفية عُرِفَت باسم (المدرسة السيوفية) (بجوار سوق السيوفيين) ، وبلغ من عناية صلاح الدين بهذه المدرسة أن أوقف عليها اثنين وثلاثين دكانًا، ولم يضنَّ بمال على الأساتذة الذين يقومون بالتدريس فيها، وبقيت هذه المدرسة قائمة يشع منها نور العلم حتى وضعت الحرب الصليبية أوزارها[2].

كما أنشأ صلاح الدين المدرسة الصالحية، وجعلها للمذهب الشافعي، وكان يهتم بشؤون هذه المدرسة اهتمامًا بالغًا، فأوصى أن تكون عظيمة البناء فسيحة الأرجاء، ووقف لها حمامًا بجوارها وحوانيت شتى، حتى يشجع الطلاب على تلقي العلم[3]..

أما مدرسة القدس، فقد بناها صلاح الدين عقب استرداد بيت المقدس عام ٥٨٣هـ وكلَّف القاضي العلاّمة (بهاء الدين بن شدَّاد) بالتدريس فيها، فكثرت وفود طالبي العلم إلى بيت المقدس، كما أمر صلاح الدين بتنظيم العمل في شتى المدارس التي أنشأها على اختلاف تخصصاتها في أمور العلم والدين، فكان القائمون بالتدريس ينقسمون إلى فريقين:

الفريق الأول: فريق المدرسين، وهم الأساتذة المتبحرون في العلم.

والفريق الثاني: فريق المعيدين، وهؤلاء يقومون بإعادة ما يلقيه المدرسون على الطلاب، ويشرحون لهم ما استغلق عليهم فهمه..وكان (المعيد) لا يبخل بوقته في سبيل شرح المادة العلمية، وتيسيرها على الطلاب[4].

ويتضح من مناهج المدارس التي أسسها صلاح الدين أنه كان يقتفي آثار معلمه (نور الدين) في التعمير من جهة، ونشر العلم من جهة أخرى، مع التركيز على تعليم المذهب السني..

---

(١) عبد الله ناصح علوان: صلاح الدين محرر فلسطين ١٠١.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٢/ ٣٢١. (٣) السابق ٤٤٠.

(٤) عبد الله ناصح علوان: صلاح الدين محرر القدس ١١٥، وما بعدها .

وكان من اهتمامهم بالعلم قيامهم بنشر وسائل العلم المختلفة، ولذا راجت لديهم سوق الكتب، وكان في مصر سوق كبير لها في الجانب الشرقي من جامع (عمرو بن العاص) وأسواق أخرى عديدة، تضم أنفس الكتب وأقيم الذخائر، كما كان يوجد بدمشق سوق كبير للكتب[1]...

واهتم - رحمه الله- اهتمامًا بالغًا بإصلاح جوانب العقيدة، و تعليم المسلمين عقيدتهم الصحيحة، يقول عنه القاضي (بهاء الدين): «وكان - رحمه الله- كثير التعظيم لشعائر الدين ومبغضًا للفلاسفة والمعَطِّلة، ومن يعاند الشريعة»[2] (أي مذهب أهل السنة والجماعة) فحارب إبّان وزارته لمصر كل عقائد الشيعة التي كان (الفاطميون) ينشرونها، وقد استطاع أن يستأصل - بفضل الله وتوفيقه - جذور هذا المذهب، ولما فتح المدارس المتبعة لمذهب أهل السنة والجماعة (كالمدرسة الكاملية) و(المدرسة الناصرية) أمر جميع طبقات الشعب أن يلتحقوا بهذه المدارس، ليدرسوا الدين الصحيح، ويتلقوا عقيدة أهل السنة والجماعة.

وهكذا أظهر لنا صلاح الدين الأيوبي خير مثال للخليفة العالم المجاهد القدوة، التي يجب أن يحتذى به في شتى جوانب حياته - رحمه الله-، لم يمنعه تصديه لجهاد الصليبيين وانشغاله بتوحيد أقطار العالم الإسلامي من محاربة الأعداء الداخليين، والسعي الحثيث على نشر العلم والعقيدة الصحيحة، ولم يتوقف عند ذلك، بل سعى لنشر العلم الحياتي، وتوفيره للمسلمين، حتى تنهض الأمة الإسلامية، تلك الأمة التي كانت ـ بعد كل تلك الجهود ـ قادرة على دحر الصليبيين ، وتحرير المسجد الأقصى ..

وهكذا ـ بالعلم والجهاد وتصحيح العقيدة ـ يمكن للأمة أن تقوم، وتنهض ، وتستعيد مجدها الغابر .

***

(١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ٣/ ٣٥٦.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية ٣٧ .

المبحث الخامس
دور العلم في بناء الخلافة العثمانية
(محمد الفاتح)

كيف فُتِحَت «القسطنطينية» بالعلم؟

ظلَّ (فتح القسطنطينية) حُلمًا يراود الفاتحين المسلمين، منذ سمعوا رسول الله ﷺ يُبَشِّر بفتحها؛ فعن عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: «سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلًا قُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلًا يَعْنِي قُسْطَنْطِينِيَّةَ»[1]، وروي عنه ﷺ: «لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ»[2]..

وتعاقبت دول الإسلام، واتسعت رقعة الفتوحات، حتى أذن الله بالفتح في عهد الدولة العثمانية، وعلى يد الأمير (محمد بن مراد الثاني) الذي حمل لقب (الفاتح)، فكيف صار هذا الأمير هو الأمير الخير، كما بشر به رسول الله، وكيف كان جيشه خير الجيوش؟

تذكر كتب التاريخ والسير أن محمد الفاتح حظي بتربية علمية خاصة، منذ طفولته، فقد اهتم والده السلطان (مراد الثاني) بتنشئته تنشئة علمية وجسدية جادة، فمرَّنه على ركوب الخيل والرمي والمبارزة، وجعله يتتلمذ على يد خيرة أساتذة عصره، ومنهم (أحمد بن إسماعيل الكوراني)[3] الذي ذكر السيوطي أنه كان أول معلمي الفاتح، وقال عنه: إنه «كان عالمًا فقيهًا، شهد له علماء عصره بالتفوق والإتقان، بل إنهم كانوا يسمونه: (أبا حنيفة زمانه)، وتشير الروايات التاريخية إلى أن الكوراني حبَّب الفاتح في العلم، وجعله يقبل عليه بهمَّة ونشاط، فما

---

(١) رواه أحمد ٢/ ١٧٦، والدارمي ١/ ١٢٦، وابن أبي شيبة في المصنف٢/ ٤٧/ ١٥٣ ، وأبو عمر الداني في السنن الواردة في الفتن ٢ / ١١٦ ، والحاكم ٤/ ٤٢٢ و ٥٠٨ و ٥٥٥ ، وقال : حديث حسن الإسناد . وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) رواه أحمد و ابنه في زوائده (٤ / ٢٣٥) و ابن أبي خيثمة في «التاريخ» (٢ / ١٠ / ١٠١ - مخطوطة الرباط)، والبخاري في «التاريخ الصغير» (ص ١٣٩)، والطبراني في «الكبير» ١/ ٢/ ١١٩، والحاكم (٤ / ٤٢٢)، وابن عساكر (٢/ ١٦/ ٢٢٣). وقال الألباني في «السلسلة الضعيفة والموضوعة» (٢ / ٢٦٨): ضعيف.

(٣) العالم الجليل، تولى قضاء العسكر، ثم منصب الفتوى، توفي بالقسطنطينية (٨١٣ ـ ٨٩٣) من مؤلفاته: شرح صحيح البخاري، كشف الأسرار عن قراءة الأئمة الأخيار، شرح جمع الجوامع في أصول الفقه، غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني، وقصيدة في علم العروض. (عمر كحالة: معجم المؤلفين ١/ ١٦٦).

مضى وقت حتى كان محمد الفاتح قد حفظ القرآن، ودرس التاريخ الإسلامي، وكان على اطِّلاع بالمحاولات الإسلامية السابقة لفتح القسطنطينية، وأسهمت تربيته في تنشئته على حُبِّ الإسلام، والعمل بالقرآن، وحب العلم، وتقدير العلماء، وقد تأثَّر الفاتح كذلك بالشيخ (آق شمس الدين سنقر)[1] الذي كان أول من زرع حُلْمَ (فتح القسطنطينية) في ذهنه منذ الصغر. وكبر الفتى وهو يصبو إلى تحقيق ذلك الحلم.. وقد درَّس الشيخ (آق شمس الدين) لمحمد الفاتح العلوم الأساسية (من قرآنٍ وحديث وسُنَّة نبوية وفقه)، وكذلك اللغات (العربية والفارسية والتركية)، كما درَّس له بعضَ علوم الحياة كالرياضيات والفلك والتاريخ..

وكان الشيخ آق شمس الدين صارمًا مع محمد الفاتح، حتى إنه بعد أن تولَّى السلطنة يقول لأحد وزرائه: «إنَّ احترامي لهذا الشيخ يأخذ بمجامع نفسي وأنا ماثل في حضرته مضطربًا ويداي ترتعشان!»[2]. وقد أثَّرت هذه المجموعة من العلماء، وهذه التنشئة العلمية في تشكيل الأمير الصغير، وتربيته سياسيًا وعسكريًا.

وما إن تولَّى محمد الثاني مهام السلطنة خلفًا لوالده مراد الثاني، حتى وضع فتح القسطنطينية هدفًا نصب عينه، واتخذ من أجل ذلك عددًا من الخطوات العملية العلمية:

في البداية بذل الفاتح جهودًا مختلفة للتخطيط والترتيب لفتح القسطنطينية، فاعتنى بتقوية الجيش العثماني ماديًا ومعنويًا، فحرص على نشر العلماء بينهم، حتى يغرسوا فيهم روح الجهاد، ويذكِّروهم بحديث رسول الله ﷺ في الثناء على جيش الفتح؛ حتى يجتهدوا في فتح القسطنطينية؛ عسى أن يكونوا هم الجيش المقصود، كما كان لانتشار العلماء بين الجنود أثر كبير في تقوية عزائم الجنود، وربطهم بالجهاد في سبيل الله..

وفي ذات الوقت أخذ بزمام الاستعداد المادي، والأَخْذ الأسباب؛ فأخذ يستعين بأهل الخبرة والعلم وسألهم: لم لا نستطيع أن نفتح القسطنطينية؟ فحددوا له ثلاثة أسباب:

١- عدم وجود حصون للمسلمين عند بداية الحصار.. مما يجعل المسلمين في العَرَاء أثناء الشتاء القارص... وأعلموه أنَّ بناء الحصن يستغرق سنة كاملة..

---

(١) هو محمد بن حمزة الدمشقي الرومي، (٧٩٢ ـ ٨٦٣) ارتحل مع والده إلي الروم، وطلب فنون العلم وتبحر فيها، وأصبح علمًا من أعلام المسلمين في العصر العثماني، تولى تربية الفاتح ... انظر (عمر كحالة: معجم المؤلفين ٩/ ٢٧١).

(٢) الشوكاني: البدر الطالع ٢ / ١٦٦.

٢- عدم وجود مدفع يستطيع أن يخترق سمك الأسوار أو يجوز ارتفاعها..

٣- امتداد سلسلة بعرض الخليج، تمنع سفن المسلمين من دخول الخليج، وتهديد الأسوار الضعيفة[1].

من هنا انطلق الفاتح، وبعقلية العالم الواعية، وبنفس يملؤها الطموح، وروح تملؤها الحيوية، في استقدام عدد من العلماء المختصين، وتكوين مجلس للبحث في كيفية التغلب على هذه العقبات، وبذل من أجل ذلك المال الكثير، وحثَّ الكثير من ذوي الدراية والخبرة في فنون الحرب على تقديم مقترحاتهم، وأفكارهم، حتى تكون محل مناقشة، مما أسفر بعد ذلك عن وضع حلول عاجلة، ساعدت في تكوين الخطة الأولى للفتح..

خطة فتح القسطنطينية:

لقد وضع محمد الفاتح خطة عبقرية، تحدث عنها المستشرقون بانبهار شديد، وقالوا: إن هذا الرجل سبق الإسكندر الأكبر ونابليون؛ فقد قام محمد الفاتح بعد تحديد أسباب امتناع الفتح... بحلِّها واحدًا تلو الآخر؛ فللتغلُّب على العائق الأول، وهو عدم وجود حصن للمسلمين أمام سور القسطنطينية؛ قرَّر بناء حصنٍ في مدة زمنية لا تتعدى الأشهر الثلاثة... فجمع العمال، واختار منهم المتقنين المهرة، وحفَّزهم بقوله: «أتحبون أن تكونوا من أتباع رسول الله يوم القيامة....وتكونوا من الذين قال فيهم «ولنعم الجيش ذلك الجيش؟» فتحفز العمال، وأنجزوا العمل في وقت قياسي، وتم بناء قلعة عظيمة يستغرق بناؤها سنة كاملة في ثلاثة أشهر فقط...

أمَّا العائق الثاني، وهو عدم وجود المِدفع الصالح لاختراق أسوار المدينة؛ فقد ضرب الفاتح المثل في تفعيل قاعدة «**الحكمة ضالَّة المؤمن؛ أنَّى وجدها؛ فهو أحقُّ الناس بها**»[2]؛ فقد استقدم الفاتحُ العالمَ المجري المهندس (أوربان)، والذي كان قد علم أنه أعدَّ مدافعَ ذات قوة خاصة، بإمكانها أن تدكَّ أسوار القسطنطينية، وكان (أوربان) قد عرض خدماته على إمبراطور القسطنطينية، فلم يمنحه ما كان يريده من مكافأة، فجاء للفاتح، فاستقبله استقبالاً حسنًا، وأغدق عليه الأموال، وعرف كيف يستفيد منه أكبر استفادة، بل ويسَّر له كل الوسائل

(١) محمد صفوت: فتح القسطنطينية ص٥٧.

(٢) الترمذي: باب العلم: كتاب فضل العلم على العبادة (٢٦٨٧)، وابن ماجه من حديث أبي هريرة (٤١٦٩)، وابن ابي شيبة ٧/ ٢٤٠، والقضاعي في الشهاب (١٤٦).

التي تمكّنه من إتمام اختراعه، ووضع تحت تصرفه ما طلبه من آلات وفنيين، وشرع (أوربان) في صنع المدافع، بمعاونة عدد من المهندسين العثمانيين الآخرين، وكان الفاتح يشرف عليه بنفسه، ولم تمضِ ثلاثة أشهر حتى كان (أوربان) قد صنع ثلاثة مدافع ، بينها مدفع ضخم عملاق كان يزن سبعمائة طن، وتزن القذيفة الواحدة فيه ألف وخمسائة كيلو جرام!!، يصل مداها إلى ميل يجرُّه ٦٠ ثورًا بمعاونة ٤٠٠ من الرجال الأشداء كل ٢٠٠ على جانب[1].

وعندما أرادوا أن يجربوه لأول مرة في (أدرنة) أنذر السلطان سكان المنطقة. ثم أطلقوه فسُمِعَ دَوِيُّه على بُعْدِ ثلاثة عشر ميلاً، وسقطت قذيفته على بُعد ميل، وتركت أثرًا بعمق ستة أقدام في الأرض، وقد قطع هذا المدفع - الذي أسماه العثمانيون بالمدفع السلطاني - الطريق من أدرنة إلى موضعه أمام أسوار القسطنطينية في شهرين اثنين، وسُرّ السلطان محمد الفاتح بنجاح التجربة، وتفاءل بالفتح، وأجزل العطاء لهذا المهندس المجري، ولكل المهندسين الذين عاونوه[2]..

أمَّا عن السلسلة الموجودة بعرض الخليج؛ فقدكانت هذه السلسلة تعوق دخول أسطول المسلمين إلى داخل الخليج حتى تصل إلى الأسوار... ولهذا قرَّر أن يقوم بعمل فريد من نوعه... فقام بعمل ممر تسير فيه السفن خلال الجبل حتى تصل مباشرة إلى داخل الخليج بدون المرور عبر السلسلة وهذه المسافة تقدر بثلاثة أميال.. واستعمل في ذلك قضبانًا خشبية دهنها بالزيت لتسهل من حركة السفن، وكان عددها سبعين سفينة.. واستعمل في جرِّها مئات الثيران ومئات الرجال... واستغرق نقل السفن من بعد غروب الشمس حتى ما قبل الفجر...حتى يفاجىء الروم.... وقد استمرَّ الحصار ثلاثةً وخمسين يومًا حتَّى قيض الله الفتح للجيش[3].

وهكذا كان العلم سبيلاً للتخطيط، وعاملاً مهمًا من عوامل فتح القسطنطينية، وتحقيق ذلك الحلم للمسلمين.

بيد أن دور العلم لم يقتصر على التمهيد للفتح ، أو استخدامه للحرب، بل ظل ملازمًا للنهضة العثمانية في عهد« محمد الفاتح» .

(١) محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة ص٢٤٠. (٢) عبد السلام فهمي: محمد الفاتح ص٨٢.

(٣) عبد السلام فهمي: محمد الفاتح ص٨٢.

النهضة العلمية بعد الفتح:

اهتمامه بالمدارس والمعاهد:

كان السلطان محمد الفاتح محبًا للعلم والعلماء؛ ولذلك اهتم ببناء المدارس والمعاهد في جميع أرجاء دولته، وقد كان السلطان أورخان (٧٢٦هـ / ٧٦١ هـ) أول من أنشأ مدرسة نموذجية في الدولة العثمانية، وسار بعده سلاطين الدولة على نهجه، وانتشرت المدارس والمعاهد في بورصة وأدرنة وغيرهما من المدن[١].

ولقد فاق محمد الفاتح أجداده في هذا المضمار، وبذل جهودًا في نشر العلم، وإنشاء المدارس والمعاهد، وأدخل بعض الإصلاحات في التعليم، وأشرف على تهذيب المناهج وتطويرها، وحرص على نشر المدارس والمعاهد في جميع المدن الكبيرة والصغيرة، وكذلك القرى، وأوقف عليها الأوقاف العظيمة، ونظَّم هذه المدارس، ورتَّبها على درجاتٍ ومراحل، وحدَّد العلوم والمواد التي تدرس في كل مرحلة، ووضع لها نظام الامتحانات فلا ينتقل الطالب من مرحلة إلى أخرى إلا بعد إتقانه لعلوم المرحلة السابقة، وخضوعه لامتحان دقيق، وكان السلطان الفاتح يتابع هذه الأمور ويشرف عليها، وأحيانًا يحضر امتحانات الطلبة، ويزور المدارس بين الحين والحين، ولا يأنف من استماع الدروس التي يلقيها الأساتذة، وكان يوصي الطلبة بالجد والاجتهاد، ولا يبخل بالعطاء على النابغين من الأساتذة والطلبة، وجعل التعليم في كل مدارس الدولة بالمجان، وكانت المواد التي تُدَرَّس في تلك المدارس هي: التفسير، والحديث، والفقه، والأدب، وعلوم اللغة، والهندسة، والرياضة وعلوم الفلك .. إلخ[٢].

كما أنشأ بجانب مسجده الذي بناه بالقسطنطينية ثماني مدارس على كل جانب من جوانب المسجد، وأربعة مساجد يتوسطها صحن فسيح، وفيها يقضي الطالب المرحلة الأخيرة من دراسته، وكانت مدارس المرحلة الأولى تدرس: مبادئ العلوم الدينية، والرياضيات والطبيعة، علاوة على حفظ أجزاء من القرآن، وتسمى في مجموعها «دروس الخارج»، والمرحلة الثانية كانت تدرس مقاصد هذه العلوم، ولا سيما الفقه، ويضاف إليها مواد التاريخ الإسلامي واللغة العربية، وهي في مجموعها عموميات ومدخل للتخصص، ويمكن لخريج المرحلة الثانية تولي الوظائف البسيطة ،

---

(١) الرشيدي: محمد الفاتح ص ٣٨٤ وما بعدها.

(٢) انظر « أبو الفتح السلطان محمد الثاني وحياته العدلية » علي همت بركي (تعريب: محمد إحسان) ص٨٤ - ٩٣ .

أما الطالب الذي كان يريد إكمال التعليم، فإنه يلتحق بالمرحلة العلمية الثالثة، وهي بمثابة «إعداد» للمرحلة الأخيرة، حيث يدرس على يد علماء متخصصين في العلوم العالية المقررة فيها، حتى إذا أتم الدراسة بنجاح تمكن من دخول المرحلة الرابعة «الصحن».

ومدارس الصحن هي بمثابة جامعة علمية كبرى، تتكون من المدارس الثماني المبنية حول جامع الفاتح، وبجوارها المدارس الموصلة للصحن، وهي ثماني مدارس أخرى.

وأُلحِقَت بهذه المدارس مساكنُ للطلبة ينامون فيها، ويأكلون فيها طعامهم، وخُصِّصَت لهم منحة مالية شهرية، وكان الموسم الدراسي طوال السنة في هذه المدارس، وأنشأ بجانبها مكتبة خاصةً، وكان يشترط في الرجل الذي يتولى أمانة هذه المكتبة أن يكون من أهل العلم والتقوى متبحرًا في أسماء الكتب والمؤلفين، وكان المشرف على المكتبة يعير الطلبة والمدرسين ما يطلبونه من الكتب بطريقة منظمة ودقيقة، ويسجل أسماء الكتب المستعارة في دفتر خاص، وهذا الأمين مسئول عن الكتب التي في عهدته، ومسئول عن سلامة أوراقها، وتخضع هذه المكتبة للتفتيش كل ثلاثة أشهر على الأقل[1].

وكانت مناهج هذه المدارس تتضمن نظام التخصص، فكان للعلوم النقلية والنظرية قسم خاص، وللعلوم التطبيقية قسم خاص أيضًا، وكان الوزراء والعلماء من أصحاب الثروات يتنافسون في إنشاء المعاهد والمدارس والمساجد والأوقاف الخيرية[2].

اهتمام السلطان محمد الفاتح بالعلماء:

لقد كان للعلماء والأدباء مكانة خاصة لدى محمد الفاتح، فقرَّب إليه العلماء ورفع قدرهم وشجَّعهم على العمل والإنتاج وبذل لهم الأموال، ووسَّع لهم في العطايا والمنح والهدايا؛ ليتفرغوا للعلم والتعليم ويكرمهم غاية الإكرام ولو كانوا من خصومه؛ فبعد أن ضم إمارة القرمان إلى الدولة أمر بنقل العمال والصناع إلى القسطنطينية غير أن وزيره روم محمد باشا ظلم الناس، ومن بينهم بعض العلماء وأهل الفضل، ومن بينهم العالم أحمد جلبي ابن السلطان أمير علي، فلما علم السلطان محمد الفاتح بأمره اعتذر إليه، وأعاده إلى وطنه مع رفاقه معززًا مكرمًا[3].

---

(١) الرشيدي: السلطان محمد الفاتح ١٥٨.

(٢) الشوكاني: البدر الطالع ١/ ٤١.

(٣) محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة ٢٤٧. (٢) عبد السلام فهمي: محمد الفاتح ص ٣٩٦.

وكان السلطان محمد الفاتح لا يسمع عن عالم في مكانه أصابه عوز وإملاق إلا بادر إلى مساعدته وبَذَلَ له ما يستعين به على أمور دنياه.

وكان من عادة الفاتح في شهر رمضان أن يأتي إلى قصره بعد صلاة الظهر بجماعة من العلماء المتبحرين في تفسير القرآن فيقوم في كل مرة واحدٌ منهم بتفسير آيات من القرآن الكريم وتقريرها، ويناقشه في ذلك سائر العلماء ويجادلونه، وكان الفاتح يشارك في هذه المناقشات ويشجع هؤلاء بالعطايا والهدايا والمكافآت المالية الجزيلة.

اهتمامه بالترجمة:

كان السلطان محمد الفاتح متقنًا للغة الرومية، ومن أجل أن يبعث نهضة فكرية في شعبه أمر بنقل كثير من الآثار المكتوبة باليونانية واللاتينية والعربية والفارسية إلى اللغة التركية، من ذلك كتاب (مشاهير الرجال) لبلوتارك، ونقل إلى التركية كتاب (التصريف في الطب) لأبي القاسم الزهراوي الطبيب الأندلسي مع زيادات في صور آلات الجراحة، وأوضاع المرضى أثناء إجراء العمليات الجراحية[1].

وعندما وجد كتاب بطليموس في الجغرافيا وخريطة له قام بمطالعته ودراسته مع العالم الرومي (جورج أميروتزوس)، ثم طلب إليه الفاتح وإلى ابنه (ابن العالم الرومي) - الذي كان يجيد اللغتين: الرومية والعربية - ترجمة الكتاب إلى العربية، وإعادة رسم الخرائط، مع التحقيق في أسماء البلدان وكتابتها باللغتين: العربية والرومية، وكافأهما على هذا العمل بعطايا واسعة جمَّة، وكان العلاّمة علي القوشجي وهو من أكبر علماء عصره في الرياضيات والفلك كلّما ألَّفَ كتابًا بالفارسية نقله إلى العربية وأهداه إلى الفاتح[2].

ودعم الفاتح حركة الترجمة والتأليف لنشر المعارف بين رعاياه بالإكثار من نشر المكاتب العامة، وقد كون الفاتح مكتبة خاصة في قصره غنية بنوادر الكتب، وروائع الآثار، فيها ١٢ ألف مجلد من مختلف اللغات (العربية، والتركية، والفارسية واليونانية..)، بالإضافة إلى المكتبات الأخرى الملحقة بمدارس الصحن، ومدرسة أيا صوفيا، وسار على هذا النهج وزراؤه، ثم السلاطين الآخرون من بعده، حتى أصبحت استنبول من أغنى العواصم

---

(٢) الرشيدي: محمد الفاتح ٤١٣.

الإسلامية بروائع الكتب والآثار الإسلامية، لحرص السلاطين والوزراء على اقتناء الكتب القيمة من أطراف العالم الإسلامي ، وتكوين مكتباتهم الخاصة بالجوامع الكبرى، ولا تزل هذه المكتبات تحتفظ بأكبر قدر من روائع المخطوطات العربية[1]..

اهتمامه بالعمران والبناء والمستشفيات:

كان السلطان محمد الفاتح مغرمًا ببناء المساجد والمعاهد والقصور والمستشفيات، والخانات والحمامات، والأسواق الكبيرة، والحدائق العامة، وقد أدخل المياه إلى القسطنطينية بواسطة قناطر خاصة، وقد حرص على تشجيع الوزراء وكبار رجال الدولة والأغنياء والأعيان على تشييد المباني وإنشاء الدكاكين والحمامات، وغيرها من المباني التي تعطي المدن بهاءً ورونقًا.

وقد اهتمَّ الفاتح بالعاصمة القسطنطينية (التي غيَّر اسمها إلى إسلام بول «استانبول الآن») اهتمامًا خاصًا من أجل أن يجعلها أجمل عواصم العالم، وحاضرة العلوم والفنون.

وفي عهده كَثُرَ العمران وانتشر، فاهتمَّ بدُورِ الشفاء، ووضع لها نظامًا مثاليًا في غاية الروعة والدقة والجمال، فقد كان يعهد بكل دار من هذه الدور إلى طبيب - ثم زيد إلى اثنين من حُذَّاق الأطباء من أي جنس - كان يعاونهما كحّال (أي طبيب عيون) وجراح وصيدلي وجماعة من الخدم والبوابين، ويشترط في جميع المشتغلين بالمستشفى أن يكونوا من ذوي القناعة والشفقة والإنسانية، ويجب على الأطباء أن يعودوا المرضى مرتين في اليوم، وأن لا تُصرَف الأدوية للمرضى إلا بعد التدقيق من إعدادها، وكان يشترط في طباخ المستشفى أن يكون عارفًا بطهي الأطعمة والأصناف التي توافق المرضى منها، وكان العلاج والأدوية في هذا المستشفى بالمجان ويغشاها جميع الناس بدون تمييز بين أجناسهم وأديانهم[2].

وهكذا، لم يكن للنهضة أن تتم، ولا للفتح أن يكتمل إلا بتضافر تلك الجهود، مع الإخلاص لله عز وجل، والأخذ بالعلم والنهضة بأبناء الأمة نهضة علمية حقيقية، لا تقتصر على جانب علوم الشرع فحسب، بل تأخذ علوم الحياة (من طب وهندسة وغيرهما) سبيلاً إلى رقيها وتقدمها...

* * *

---

(١) سيد رضوان: السلطان محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامي: ٨٣ .

(٢) السلطان محمد الفاتح ص ١٥٤.

الفصل الثالث

دور العلم في بناء بعض الحضارات الحديثة

ويضم هذا الفصل المباحث التالية:

المبحث الأول: دور العلم في بناء أمريكا.

المبحث الثاني: دور العلم في بناء اليابان.

المبحث الثالث: دور العلم في بناء كوريا الجنوبية.

المبحث الرابع: دور العلم في بناء ماليزيا.

المبحث الخامس: دور العلم في بناء الإمارات.

* * *

المبحث الأول:
دور العلم في بناء أمريكا

يخطئ من يظن أن سبب تفوق الولايات المتحدة الأمريكية وتفردها كقوة عظمى تُمـ
رغباتها على دول العالم أجمع هو قوتها العسكرية فقط، بل ومع اعترافنا بقدرة الآلة العسكريـ
الأمريكية إلا أن أهم ما يميز النهضة الأمريكية أنها نهضة شاملة قوامها هو العلم، فهي ـ
تقتصر على مجال دون الآخر بل إنها نهضة عسكرية واقتصادية وسياسية مما ساعدها ـ
هيمنتها على العالم كدولة لا نظير لها، وقد سجل التاريخ الخطوات الجادة نحو التقـ
الاقتصادي والصناعي التي بدأتها الولايات المتحدة خاصة في إعادة بناء هيكلها الاقتصـ
ليدعم موقعها العالمي بعد الدمار الشامل الذي لحق بالعديد من بلدان العالم من المحيـ
الأطلسي إلى الهادي عقب الحرب العالمية الأولى والثانية.

وقد استفادت الولايات المتحدة من مرحلة الحرب الباردة في إعادة بناء اقتصادها
واسترداد مكانتها الاقتصادية في الأسواق العالمية خاصة أوروبا الغربية واليابان وأيضًا كوريـ
الجنوبية وتايوان حتى وصلت إلى تفوق اقتصادي لم يسبق له مثيل، وأصبح اقتصادها الأكـ
على مستوى العالم وتعادل قيمته ثلث اقتصاديات العالم مجتمعة، حيث يقدر حجم الاقتصـ
الأمريكي بـ١٠ تريليونات دولار..

وكان العلم بمثابة القاعدة التي ارتكزت عليها النهضة الأمريكية، ويتضح ذلك إذ
نظرنا ما صاحب النهضة الأمريكية من مساهمات في مجال العلم والتكنولوجيا على مدى
القرنين السابقين، لقد أسهمت الولايات المتحدة خاصة في مجال الاختراعات التي غيرت
الحياة اليومية للإنسان العادي نوعًا وكيفًا بما يكشف عن أمة تُقدّر العلم وتَدْعَمُ العلمـ
وتُشجعهم..

وقد تخيّرنا بعض الأمثلة لهذه المخترعات الأمريكية في مختلف المجالات كمقدمة توضح
مدى الاهتمام الأمريكي بالعلم ودوره في صناعة نهضتها:

١- **في المجال الزراعي** قدمت الولايات المتحدة الأمريكية العديد من الاخترعات منها:

- اختراع ماكينة حلج القطن في عام ١٧٩٤م.

- اختراع شفرة المحراث المصنوعة من الحديد الزهر المصبوب في عام ١٧٩٧م.
- اختراع المحراث الزاحف في عام ١٩٠٤م، وقد كان هذا مقدمة للمحراث الآلي والذي يعتمد على البنزين كوقود للمحرك.

٢- في مجال الإعلام وهندسة الاتصالات:

- اختراع نموذج للتلغراف في عام ١٨٥٤م.
- قام الأمريكي وليام بالوك في عام ١٨٦٣م بتطوير أول ماكينة طباعة للجرائد، وتحتوي على نظام للتغذية بالورق.
- اختراع الآلة في عام ١٨٧٣م.
- قام الأمريكي توماس أديسون في عام ١٨٧٦م بتطوير الهاتف الآلي، وكان يعيش في ولاية بنسلفانيا في هذا الوقت.
- اختراع الحاكي الآلي للأسطوانات (الجرامافون) في عام ١٨٨٧م.
- اختراع أسطوانة الأوديون المستعملة في الإرسال الإذاعي في عام ١٩٠٦م.
- اختراع دائرة الإرسال الإذاعي المحددة في عام ١٩١٢م.
- اختراع البث الإذاعي على الموجات الطويلة في عام ١٩٣٣م.
- اخترع الأمريكي بيتر جلودمارك في عام ١٩٥٣م نظام المرشحات الثلاثة الذي ساعد على إنتاج التليفزيون الملون، كما أنه اخترع آلة تسجيل الفيديو الإلكترونية.

٣- في مجال الأحياء والطبيعة:

- اختراع أول جهاز بدائي للكشف المعدني في عام ١٨٨١م.
- اختراع السائل المستخدم كوقود للصواريخ في عام ١٩٢٦م.
- اخترع الثلاثي الأمريكي باردين وشوكلي وسراتان صمام الترانزيستور الإلكتروني في عام ١٩٤٧م، والذي استخدم فيما بعد في أجهزة الاستقبال الإذاعي.
- اكتشاف نموذج الهندسة الوراثية المعروف بالـ DNA في عام ١٩٦٠م.

٤- في مجال المواصلات:

- اختراع السفينة البخارية في عام ١٧٩٠م.
- اختراع سيارة مطافئ تسير بالبخار في عام ١٨٢٩م.
- اختراع أول ترام كهربائي ١٨٧٣م.
- اختراع أول طائرة تسير بالبنزين في عام ١٩٠٣م.
- اختراع المحرك الكهربائي لمحرك السيارة (المارش) في عام ١٩١٠م.

٥- في مجال الصناعات الحربية:

- اختراع المسدس الدوار في عام ١٨٣٦م.
- اختراع أول غواصة حربية في عام ١٨٦٢م.
- اختراع المدفع الرشاش في عام ١٨٩٠م.
- اختراع القناع الواقي من الغازات السامة في عام ١٩١٤م.
- تمكن الأمريكي روبرت أوبينهايمر بقيادته لفريق من العلماء والمهندسين من إنتاج أول قنبلة ذرية في عام ١٩٤٥م.

٦- في مجال العلوم الطبية:

- اختراع ضمادة الجروح (Band- Aid) في عام ١٩٢٠م.
- اختراع عقار لمرض سرطان الدم يتحكم في عملية تكاثر الخلايا السرطانية ١٩٥٣م
- اختراع عقار قادر على كبت النظام المناعي في الجسم البشري أثناء عملية زرع الأعضاء في عام ١٩٥٧م.

٧- في مجال الحاسب الآلي:

- اخترعت الأمريكية جريس هوبر أول حاسب آلى في عام ١٩٥٢م.
- اخترعت جريس هوبر أول لغة خاصة بالحاسب الآلى في عام ١٩٥٩م.

٨- في مجال التصنيع وهندسة الإنتاج:

- اختراع طريقة لغزل القطن باستخدام سلك معدني في عام ١٨٠٩م.

- اختراع ماكينة الخياطة في عام ١٨٤٦م.
- اخترع الأمريكي جورج إيستمان الفيلم المستعمل في آلات التصوير في عام ١٨٨٨م.
- اختراع آلة لتقطيع الجلد لتصنيع الأحذية في عام ١٨٧٩م.

٩- **في مجال الإنشاءات والمواد:**

- اختراع مادة المطاط في عام ١٨٣٥م، والذي استخدم فيما بعد في صناعة إطارات السيارات.
- إنتاج مادة الأسفلت في عام ١٨٧٢م، واختراع جهاز تكييف الهواء في عام ١٩٠٢م، واختراع جهاز الطباعة الفوتوغرافي في عام ١٩٣٧م[١]..

وغير هذه الاختراعات الكثير والكثير، وكما رأينا في مختلف المجالات وليس في العلوم العسكرية فقط، ولعل ذلك يفسر لنا سر التفوق الأمريكي، حيث إنه وبحق ما تم إنجازه في غضون المائة سنة الأولى بعد الاستقلال الأمريكي أمر مذهل للغاية!!

ففي عام ١٨٩٠م مثلاً، كانت الولايات المتحدة قد أصبحت تنتج من الحديد والفولاذ كميات تساوي إنتاج بريطانيا العظمى وألمانيا مجتمعتين، وفي العام ١٩٠٠ أصبحت الولايات المتحدة بحسب معايير عدة، أعظم دولة صناعية يتمتع شعبها بأعلى مستوى للمعيشة في العالم، وفي العام ١٩١٣ أنتجت الولايات المتحدة أكثر من ثلث المنتجات الصناعية في العالم، وفي الفترة الزمنية التي تلت الحرب العالمية الثانية، كانت الولايات المتحدة تنتج ٥٠٪ من الإنتاج العالمي الإجمالي، وإلى اليوم لا تزال الولايات المتحدة تنتج حوالي ٢٥٪ من المصنوعات العالمية والمنتجات الزراعية والخدمات، وقد تضاعف إنتاجها القومي الإجمالي ثلاث مرات منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، وهي رائدة في عدة ميادين عالمية مختلفة، مثل الهندسة الكيميائية، وهندسة علم الوراثة، والبحوث والإنماء في ميدان الأرض والفضاء والعلاقات العامة والكمبيوتر، وخدمات المعلومات، وحقول أخرى مماثلة في التكنولوجيا المتطورة، وما تزال الصناعات الأمريكية الخاصة تتمتع بنجاح متواصل، وللشركات الأمريكية التي تنتج طائرات الركاب وتبيعها، أو في مجال صناعة الكمبيوتر والمتاجرة به، أكبر

---

(١) د.صفي الدين حامد: الإمبراطورية الأمريكية، الجزء الثالث ص٣٤٩.

نصيب في السوق العالمية، ووادي السليكون بالقرب من مدينة سان فرانسيسكو الأمريكي خير شاهد على التطور التكنولوجي، حيث يعد الأول والأكبر على مستوى العالم للبحث في الكمبيوتر وإنتاجه، حيث تتواجد فيه أكثر من ٤٠٠٠ شركة تتمتع كلها بالتكنولوجي المتطورة، ومن المعلوم أن الولايات المتحدة الأمريكية تتمتع بمهارات صناعية وتقنية عالية ولكن ما لا يعرفه الكثيرون، ومنهم عدد كبير من الأمريكيين، هو أن الولايات المتحدة هي الدولة الرائدة في مجال الزراعة، فأمريكا هي الأولى في تزويد العالم بالحبوب، إذ تنتج حوالي ٢٠٪ من القمح والذرة والشوفان في العالم، كذلك يتولى المزارعون والفلاحون الأمريكيون أمر ١٤٪ من إنتاج الألبان في العالم، و١٧٪ من إنتاج اللحوم، و٢٧٪ من إنتاج الزيوت النباتية والسمن النباتي، وأكثر من ٦٠٪ من إنتاج فول الصويا، مع العلم أن حصة الولايات المتحدة الأمريكية من الأراضي الزراعية في العالم لا تتعدى ٨٪ من إجمالي مساحة الأراضي الزراعية في العالم[1]!!

كما أنه من الملاحظ ويثير الإعجاب في النموذج النهضوي الأمريكي الاستفادة الواسعة التي حققها قطاعا العمل والتجارة من الجامعات الكبرى وبحوثها الأساسية واستعدادهما لدعم وتبني المواهب، وقد شجّع هذا الدعم المبدعين وأصحاب المواهب وأعطاهم الثقة، ولِمَ لا وهم يرون الشركات العملاقة تجري وراءهم وتبحث عنهم وتتلقف أفكارهم لتطبيقها، بل وتغريهم هذه الشركات بالتوظيف في أعلى المناصب وبأعلى الأجور، ولذا فإنه من الطبيعي في هذا الجو الذي يُشجع على العلم ويُعلي من شأن العلماء-وهو عالٍ- أن نرى هذا الفيض من الابتكارات والاختراعات، بل ونرى تسابق العلماء من جميع أنحاء العالم إلى الهروب بعلمهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وكما استفادت الولايات المتحدة من دعم قطاع التجارة للعلماء فقد استفادت أيضًا من النجاح الذي حققته شركاتها بدعمها للعلماء وتجاربهم، لقد حفّز نجاح هذه الشركات المجتمع الأمريكي ككل وخاصة الشباب على إنشاء شركاتهم الخاصة وأعطاهم الجرأة على المغامرة والصبر وهم على ثقة بالنجاح، حتى بلغ عدد الأمريكيين الذين يديرون أعمالاً خاصة وذلك في عام ١٩٨٤م حوالي عشرة ملايين أمريكي، كما أسهم نحو أربعة

(١) د.ك. ستيفنسون: الحياة والمؤسسات في أمريكا،١١٥-١١٨.

أضعاف هذا العدد (حوالي ٤٢ مليونًا) في شركات وصناعات متفرقة[١].

وكما يقال إن النجاح يجلب النجاح، فما أن رأى الشعب الأمريكي ثمرة تقدمه ورأى بلاده تتجه نحو الصدارة إلا ونما بداخلهم حبهم وولاؤهم لبلادهم، التي رفعت شأنهم وأعزتهم بين كل شعوب العالم، وقد ترجم بعض كبار أغنياء الولايات المتحدة هذه المشاعر في شكل عملي، فمثلاً قام بعضهم بتوزيع قسم كبير من ثرواتهم قبل موتهم للمؤسسات الخيرية، والمستشفيات والجامعات والمكتبات والمتاحف وصالات العرض الفنية والمؤسسات الثقافية، ومنهم الأمريكي الفذ كارنيجي[٢] الذي بلغت قيمة تبرعاته خلال حياته ٣٧٠ مليون دولار من أصل ثروته المقدرة بـ ٤٠٠ مليون دولار وذلك من أجل مصلحة المجتمع، حيث أتاحت هذه التبرعات بناء ٢٨٠٠ مكتبة عامة مجانية، وقد أدت مثل هذه المبادرات الشخصية إلى أنه يوجد في الولايات المتحدة اليوم حوالي ٢٠٠ ألف مؤسسة كبيرة وصغيرة يتوقف دورها على دعم المشاريع البحثية المختلفة، وتقديم التبرعات إلى القضايا العامة والخيرية[٣]..

وبالتأكيد أن الشعب الأمريكي لم يبادر إلى مثل هذه الأفعال التي تمتلئ بأسمى معاني الولاء للوطن كما تكشف مقدارًا هائلاً من النضج العقلي، ولكن البداية كانت من جانب الإدارة الأمريكية التي تحكم البلاد حينما وضعت التفوق في كل المجالات كهدف استراتيجي مطلوب تحقيقه، واختارت العلم كوسيلة وحيدة لتحقيق هدفها، والأرقام هي بالفعل خير شاهد..

ورد في تقرير التنمية البشرية الصادر عن البنك الدولي لعام ٢٠٠٦م أن نسبة الإنفاق العام على التعليم في الولايات المتحدة الأمريكية ١ , ٥ ٪ من الناتج المحلي الإجمالي لعام ١٩٩١م، وزادت هذه النسبة فبلغت ٩ , ٥ ٪ من الناتج المحلي الإجمالي لعام ٢٠٠٤م، ولا ينبغي أن نستهين بهذه النسبة فإن الناتج المحلي الإجمالي للولايات المتحدة الأمريكية بلغ ٩٨ , ١٢ تريليون دولار في عام ٢٠٠٦م[٤]..

---

(١) د.ك. ستيفنسون: الحياة والمؤسسات في أمريكا، ١٢١، ١٢٠.

(٢) ديل كارنيجي (١٨٨٨-١٩٥٥): مؤلف أمريكي، ومدير معهد كارنيجي للعلاقات الإنسانية.

(٣) د.ك. ستيفنسون: الحياة والمؤسسات في أمريكا، ١٢٤، ١٢٥.

(٤) صفحة الولايات المتحدة الأمريكية في كتاب الحقائق، الصادر عن وكالة المخابرات الأمريكية، والمنشور على شبكة الانترنت، الرابط الإلكتروني
https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/geos/us.html#Econ

كما زادت نسبة الالتحاق بالتعليم الثانوي من ٨٥٪ عام ١٩٩١م إلى نسبة ٩٠٪ في عام ٢٠٠٤م، وأيضًا قفز عدد مستخدمي الانترنت من ثمانية أشخاص من كل ألف فرد أمريكي في عام ١٩٩٠م، إلى ٦٣٠ مستخدمًا للانترنت من كل ألف أمريكي في عام ٢٠٠٣م..

أمَّا بالنسبة لما تنفقه الولايات المتحدة على البحث والتطوير فقد بلغ نسبة ٢,٦٪ من الناتج المحلي الإجمالي لعام ٢٠٠٣م، كما قدّرت ثروة الولايات المتحدة الأمريكية من الباحثين في الفترة (١٩٩٠ - ٢٠٠٤م) بحوالي ٤٤٨٤ باحثًا من كل مليون فرد أمريكي أو مقيم في الولايات المتحدة الأمريكية..

وبالإضافة إلى ذلك فقد بلغت الصادرات المصنّعة التي تحتوي على تكنولوجيا عالية نسبة ٣٢٪ من إجمالي الصادرات الأمريكية المصنعة في عام ٢٠٠٤م[1]..

ولعل حداثة الإحصائيات يبرهن بالدليل العملي أن الولايات المتحدة الأمريكية مازالت تُقدِّر أهمية العلم والعلماء، ومازالت تنفق بسخاء على مختلف المجالات العلمية وذلك للمحافظة على تفوقها وريادتها على كل دول العالم.

وقد كشفت الإحصائية السابقة حجم الأموال الهائل الذي تنفقه الولايات المتحدة على قطاع التعليم، وهو قطاع متميز يشهد الجميع بكفاءته، ولكن الأمر اللافت والذي نود أن نشير إليه ونستخلص منه العبرة هو المعايير التي تم وضعها للتأكد والاطمئنان على مستوى الطلاب الخريجين من المدارس الأمريكية، فعلى الرغم من الشهرة الواسعة التي حققتها المدارس الأمريكية والثقة التي حازتها إلا أنه في الولايات المتحدة لا تكفي الشهادة المدرسية كبطاقة تخوِّل لحاملها دخول الجامعة تلقائيًا، إذ يجب على الطالب عند تقديم طلبات الدخول إلى الكليات والجامعات أن يجتاز العديد من الامتحانات المركّزة في جميع المجالات الثقافية تقريبًا، وبالتحديد ثمة امتحانان يُجريان لتلاميذ الصفوف الثانوية الذين يودون الانتساب إلى كلية أو جامعة ما، وهما امتحانان رفيعا المستوى تتولى منظمات غير حكومية إجراءهما في جميع أنحاء البلد، أحدهما «امتحان الكفاءة المدرسية» (SAT) وهو يهدف إلى اختبار التلميذ في القدرات اللغوية والحاسبية الضرورية للتحصيل الجامعي، والثاني هو «اختبار الكلية

---

(١) تقرير التنمية البشرية للبنك الدولي، والمنشور على شبكة الانترنت، الرابط الإلكتروني
http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_USA.html

لأمريكية» (ACT) وهدفه أن يختبر قدرات الطالب في اللغة الانجليزية والرياضيات والعلوم الاجتماعية والطبيعية، ويجري هذان الامتحانان في مواعيد محددة في كل مكان من لولايات المتحدة وتشرف عليهما هيئات غير تجارية وغير حكومية، وتستخدم الجامعات نتائج هذين الامتحانين كمقاييس محددة للمقارنة، فلا يجوز البتة اعتبارها امتحانات رسمية، ويتقدم حوالي مليوني تلميذ إلى امتحان (SAT) كل سنة، علمًا بأن نصف هذا العدد من تلاميذ الصف الثانوي الأخير (أي الثالث)، أما النصف الباقي فمن تلاميذ السنة الثانوية لثانية، أما امتحان (ACT) وهو يُعتمد أساسًا في الجزء الغربي من الولايات المتحدة، فيتقدم إليه سنويًا حوالي مليون تلميذ ثانوي أيضًا، وتوفر نتائج هذين الامتحانين مقاييس مشتركة وقومية النطاق، رغم التنوع الواسع الموجود في المدارس الثانوية من حيث برامجها ومقرراتها لتعليمية ومستوياتها، وتنشر عدة جامعات المجموع العام للعلامات التي أحرزها التلاميذ لمتقدّمون إلى هذه الامتحانات، مما يبيّن «النوعية» أو مستوى القدرة المطلوب.

كذلك توجد أيضًا برامج اختبار مماثلة على مستويات أعلى، فكل من أنهى سنوات الجامعة لأربع ويَوَدّ الالتحاق بكليات الطب أو الحقوق، يجب أن يجتاز امتحانًا رفيع المستوى، وقد جرى لاتفاق على هذه الامتحانات بين عدد من كليات الحقوق والطب ولذلك تجري على نطاق قومي وفي أوقات محددة، إلا أنها شأن امتحاني (SAT ACT) لا تعتبر رسمية أو حكومية، إنما هنالك نوع آخر من الامتحانات لرسمية يتميز بالصعوبة، فإذا درس شخص ما لعدة سنوات مثلاً ونال شهادة طبية من الجامعة، فهذا لا يعني أن من حقه أن يباشر ممارسة الطب الفعلية في الولايات المتحدة، إذ أن كل ولاية تطلب اجتياز امتحانات إضافية خاصة[1]..[انظر صورة رقم ٨].



(صورة رقم ٨) جامعة هارفارد

(١) د.ك. ستيفنسون: الحياة والمؤسسات في أمريكا، ١٠٦-١٠٨.

أمّا عن الجهود التي بذلتها الإدارات الأمريكية المتعاقبة في مجال تيسير سبل المعرفة والتثقيف والحث على القراءة والاطلاع فيكفي أن نقول إنه تَصدُر في الولايات المتحدة من ١١ ألف مجلة ونشرة دورية، بينها أكثر من أربعة آلاف تصدر شهريًا، وأكثر من ٣٠٠ تصدر أسبوعيًا..

وأنه في عام ١٩٨٦م بلغ عدد الصحف الصادرة نحو ٩١٤٤ صحيفة بـ ٣٤ لغة مختلفة وبلغ عدد النسخ التي تباع من الصحف اليومية في الولايات المتحدة يوميًا نحو ٦٣ مليون نسخة[1]..

وكل هذا بجانب ثروة حقيقية من الكتب والمجلدات في شتى فروع العلم، ويكفي في الحديث عن هذه النقطة ذِكر مكتبة الكونجرس الأمريكي، ومكتبة جامعة هارفارد التي تعد مكتبتها من أعظم المكتبات الجامعية في العالم..

ونتمنى من خلال الموجز اليسير الذي عرضناه أن نكون أسهمنا في توضيح الدور المحوري للعلم في النموذج النهضوي للولايات المتحدة الأمريكية..

* * *

(١) د.ك. ستيفنسون: الحياة والمؤسسات في أمريكا، ١٦٥، ١٦٦.

المبحث الثاني
دور العلم في بناء اليابان

كانت الضربة القاصمة التي تلقتها اليابان في الحرب العالمية الثانية وأدَّت إلى استسلامها وهي في حالة انهيار كامل؛ إذ خلَّفت الحرب وراءها سبعة ملايين عاطل، ومسحت من على وجه الأرض تمامًا رُبُعَ الطاقة الصناعية، وخرَّبت كل المدن الرئيسية تقريبًا، وذلك بجانب الكارثة الإنسانية التي سببتها قنبلتا هيروشيما وناجازاكي مِن قتلى وجرحى وتلوثٍ بيئيٍّ وإشعاعي، كانت هذه الضربة كفيلةً باختفائها كدولة، ونهاية دورها إلى الأبد [انظر صورة رقم ٩]..


صورة رقم ٩

ولكنَّ اليابان أَبَتْ إلا أن تضرب المثل لكل دول العالم، وتُعَلِّمها معاني العزيمة والإصرار، وتلقِّن الجميع درسًا في التخطيط الدقيق والمثابرة حتى تحقيق الأهداف، كما أوضحت تجربة اليابان بما لا يدع مجالاً للشك الدور الذي يمكن للعلم أن يؤديه في حياة البشر..

وللحق فإن اهتمام اليابان بالعلم والأخذ بأسباب التطور يسبق الحرب العالمية الثانية بسنوات طويلة، مع اعترافنا بأن هذه الأزمة هي التي فجرت طاقات الشعب الياباني ودفعته إلى الانتصار على الجميع حتى على نفسه، إلا أن النهضة العلمية اليابانية قد نضجت ثمارها قبل ذلك بكثير، فمنذ القرن التاسع عشر واليابان تمتلك سكك حديد وخطوط برق، وصناعة حديثة خاصة الصناعات الثقيلة الأساسية كالتعدين وصناعة الصُّلب وبناء السفن لسد الحاجات العسكرية، وصناعات خفيفة واعدة كصناعة المنسوجات، مع قاعدة عريضة من الأيدي العاملة الماهرة، والكثير من خبراء الأجانب الذين استقدمتهم اليابان بهدف نقل التكنولوجيا المتقدمة، ومنذ عام ١٨٧٠م ظهرت آلات الغزل الميكانيكية الحديثة في المصانع اليابانية، وغيرها الكثير من

وسائل التكنولوجيا الصناعية الحديثة، وبدأت عجلة التنمية اليابانية في الإسراع وأصبح اليابان قوة ناشئة وواعدة، وقد بلغ هذا التطور ذروته في عام ١٩١٣م[١]..

وقد اعتمدت النهضة العلمية باليابان خلال هذه المرحلة على ثلاثة أعمدة رئيسية:

١- الاستعانة بالعلماء والمعلمين الأوروبيين سواء كانوا أعضاء البعثات التبشيرية ـ العلماء المتخصصين في اللغات الأوروبية، وخاصة اللغتين الهولندية والإنجليزية، كما دُعِيَ ـ اليابان الخبراء الفنيون من كل الدول المتقدمة، وقد حملت السفن القادمة إلى اليابان مئـ المعلِّمين والمستشارين والفنيين الأجانب، وقد خصصت الحكومة اليابانية لهؤلاء الخبـ ـ الأجانب في مجال التعليم إلى جانب المبعوثين اليابانيين في الخارج ما يوازي ٣٠٪ من ميزانيـ وزارة التعليم اليابانية في ذلك الوقت..

٢- ترجمة الكتب الأجنبية إلى اللغة اليابانية، وإنشاء المدارس الحديثة، وكانت أهـ الكتب التي نقلت العلم إلى اليلبانيين مؤلفات كل من جان جاك روسو، وهيوم ودستوفسكي، وتولستوي، وغيرهم من كبار المفكرين العالميين في ذلك الوقت، والـتي ساعدت أفكارهم في زيادة وعي اليابانيين بأحوال العالم المحيط بهم.

٣- إرسال البعثات اليابانية إلى الدول الأوروبية المتقدمة لينهل أفرادها من العلو الحديثة، وكانت وزارة التعليم تدقق في اختيار أعضاء البعثات من أفضل العناصر الوطنيـ وكانت معظم هذه البعثات يتم إرسالها إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وإلى بعض الدو الأوروبية مثل ألمانيا وفرنسا، وعندما شعر قادة الإصلاح الياباني أن أسلوب التربية الألمـ الذي يركز على الجوانب الخلقية - التي تؤمن بأن هدف التعليم خَلْق الإدارة المستنيرة التي تميز بين الصواب والخطأ - هو ما يناسب الطبيعة اليابانية الاجتماعية، بدأت المناهج الألمانيـ تحل محل المناهج الأمريكية على يد أعضاء البعثات اليابانيين.

أما عن التعليم الجامعي في اليابان خلال تلك الفترة، فقد تم إنشاء العديد من المعاهـ والكليات العليا حتى عام ١٨٧٧م الذي تجمعت فيه هذه المعاهد والكليات فيما عُرِف بجامعة طوكيو الإمبراطورية التي ضمت كليات الآداب والعلوم والحقوق والطب

(١) د. إسماعيل أحمد ياغي: تاريخ شرق آسيا الحديث، ١٤٢، ١٤٣.

والهندسة، ثم افتتحت عام ١٨٩٧م جامعة «كيوتو»، وفي عام ١٩٠٠م تأسست أول كلية تعليم اللغة الإنجليزية للبنات، وفي نفس العام أدارت الدكتورة «يوشيو كايابوي» - كأول طبيبة يابانية - أول كلية طب للنساء[1]..

وبذلك طوَّرت اليابان نظامها التربوي، واستطاعت في زمن قصير أن تسد الفجوة التي كانت تفصل بينها وبين الدول الأوروبية في مجال العلم، وقد حدث ذلك بسبب إيمان اليابانيين بأن نقل العلم والتكنولوجيا مع أهميته إلا أنه لا يتعدَّى كونه مرحلة أولى يجب أن تتبعها مراحل وخطوات، وكانت الخطوة التالية هي إعداد كوادر علمية وطنية يمكن الاعتماد عليها في بناء الدولة اليابانية الحديثة، وبالفعل أعادت الحكومة اليابانية النظر في نُظُم التعليم اليابانية بحيث تترسَّم خطى أحسن النظم التعليمية الأجنبية، فاستدعت الحكومة الإمبراطورية عددًا كبيرًا من رجال العلم الأجانب للإسهام في إنشاء المدارس والجامعات لجميع الطلاب، وأرسلت البعثات العلمية إلى الخارج للتخصص، ثم استقبلت اليابان مبعوثيها في الخارج ليشاركوا في النهضة التعليمية في البلاد، وليقوموا بالتدريس في المدارس الجديدة[2].

فمنذ منتصف القرن التاسع عشر وأكثر من ٤٥٪ من سكان اليابان الذكور يجيدون القراءة والكتابة، ونحو ١٥٪ من الإناث يجيدونها، وهذه النسب لم تكن تقل بحال من الأحوال عنها في أشد دول العالم الغربي تقدمًا في ذلك الوقت، وفي عام ١٩٠٧م تمكنت اليابان من إدخال أغلب أبنائها إلى المدارس، وكان الالتحاق بالتعليم إجباريًا وبالمجان تمامًا خلال السنوات الدراسية السِّت الأولى (المرحلة الابتدائية)، وبعد اجتياز الطالب لهذه السنوات الست ينتقل إلى مرحلة تعليمية أخرى مدتها خمس سنوات، ثم ينتقل الطلبة إلى المرحلة العالية ومدتها ثلاث سنوات والتي تعادل المرحلة الثانوية الآن، ثم ينتقل إلى مرحلة التعليم الجامعي لثلاث سنوات أو أربع طبقًا لنوع التخصص[3].

ويُعدُّ من أشهر علماء اليابان في هذه الفترة عالم البكتيريا (كيتا صاطو) الذي أسهم بجهود كبيرة في هذا المجال من العلوم، وقام كذلك بإنشاء مركز لبحوث البكتيريا في عام

(١) د. رأفت غنيمي الشيخ، تاريخ آسيا الحديث والمعاصر، ٤٠، ٤١.

(٢) تاريخ شرق آسيا الحديث، ١٤٣.

(٣) د. فوزي درويش: الشرق الأقصى الصين واليابان، ٢٥٧.

١٩١٥م، ويحمل هذا المركز اسم هذا العالم الكبير، وقد كان أول من تولَّى عمادة كلية الطب في جامعة كيتو العريقة، وكان قبل ذلك قد تولَّى رئاسة مركز بحوث الأمراض المعدية، أيضًا من أعلام هذه الفترة العالم الكبير شيجا كيوشي (١٨٧١-١٩٥٧م) الذي قام باكتشاف أحد أنواع بكتيريا الدوسنتاريا في عام ١٨٩٨م وسميت (بكتريا دوسنتاريا شيجا)، كذلك قام بالبحث في أسباب وكيفية علاج أمراض السُّل، وقد حصل هذا العالم على لقب الموصى الفخرية وحصل أيضًا على جائزة الثقافة اليابانية. نذكر أيضًا من علماء اليابان البارزين العالم نوجوتشي هيديو الذي سافر للدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٠٠م، وهناك قام بأبحاث عديدة، ولكنه أظهر براعة واضحة في أبحاثه على مرض الزهري والبكتيريا المسببة له، وأوضح المتاعب المختلفة المصاحبة لهذا المرض الخطير، وذلك بجانب أبحاثه المهمة عن مرض الحُمَّى الصفراء؛ حيث نجح بالفعل في تصنيف الجرثومة المسببة لهذا المرض، وكذلك نجح في إنتاج البلازما المناسبة لهذا المرض[(١)]..

وأمّا عن علم المعادن فلا يمكن تجاوز دور العالم هوندا كوطارو (١٨٧٠- ١٩٥٤م) الذي استحدث هذا العلم، وقام باكتشاف معدن النيكل كما اشتُهِرَت أبحاثُه على معدن الحديد. وتدرج هذا العالم الكبير في المناصب العلمية حتى وصل لأن يصبح رئيسًا لجامعة (طوهوكو) العريقة[(٢)]..

ولعل هذه النبذة من التاريخ الياباني الحديث تساعدنا على فهم المعجزة اليابانية. وما نقصده بالمعجزة هو ما فعلته اليابان بعد كارثة الحرب العالمية الثانية؛ إذ عادت لتبدأ من الصفر بل وأقل من الصفر لتصبح رقمًا صعبًا ومثلاً يُحتَذَى به في التقدم والعلم والرخاء..

لقد قامت اليابان بتقليد الغرب في بادئ الأمر، ثم ما لبثت أن سبقته وتفوقت عليه، فقد نقلت عنه أحدث نظرياته العلمية، ثم بدأت في تأصيل نفسها في العلوم والتكنولوجيا؛ فكثفت جهودها في برامج البحث والتطوير لتخرج جيشًا كبيرًا من العلماء في إطار ما سُمِّيَ «بالتفوق السلمي»، واستند اليابانيون إلى نظام تعليمي غاية في الدقة يدعمه حُبٌّ أصيل لنقل العلم والمعرفة كامن في الشخصية اليابانية، وإلى جانب تخريج العلماء والباحثين من المهندسين ركزت اليابان في

(١) تاريخ اليابان الحديث والمعاصر، ١٠٥، ١٠٦. (٢) المصدر السابق ١٠٦.

مقام الأول على مرحلة التعليم الأساسي باعتباره المستودع الأول لإمداد الدولة بكوادرها الفنية والأكاديمية، وحقيقة الأمر فإن اندفاع اليابانيين لتوسيع نطاق التعليم وتجويده كان بنفس اندفاعهم لزيادة ناتجهم القومي، ففي عام ١٩٥٥م كان نصف الشباب الياباني بالكاد يدرس في مرحلة التعليم الثانوي، ونسبة أقل من ١٠٪ يستكملون التعليم فيما بعد المرحلة الثانوية، وعند حلول السبعينيات صار أكثر من ٩٠٪ من كلا الجنسين يُتِمّون مرحلة تعليمهم الثانوي مقارنةً بنسبة ٨٠٪ للشباب الأمريكي، وفي عام ١٩٧٥ على سبيل المثال كان ٩٧٪ من الطلبة اليابانيين الذين التحقوا بالتعليم الثانوي قد أتموا دراستهم فيه ليلتحقوا بالتعليم العالي[1]..

والأمر المثير للإعجاب أن الطلبة اليابانيين لا يكتفون بمجرد الحضور في الفصول المدرسية، بل نجد ما يزيد على نصف الشبان اليابانيين يلتحقون لبعض الوقت في مدارس تكميلية خاصة بالتوازي مع دراستهم في المرحلتين الابتدائية والثانوية لمزيد من التدريب، وهذه المدارس التكميلية لها أشكال وأحجام متعدّدة، والهدف منها تحسين الفرص أمام الطالب للدخول في مسابقات تعقدها المدارس ذات الشهرة في مستوى تعليمها والتي يتوق الطلاب إلى الانتساب إليها، وقد أصبح نظام المسابقات هذا سمة معروفة في نظام التعليم الياباني، واللافت للنظر أن هذه المسابقات تهدف إلى قياس مدى المعلومات المكتسبة تأسيسًا على فرضية تَلْقَى قبولاً عامًا في اليابان، وهي أن النجاح لا يعتمد على الإمكانات الفطرية للطالب ولا على مدى استعداده العام، ولكن يعتمد بالأحرى على مدى استخدامه لهذه الإمكانات الفطرية في الدراسة المنتظمة، حيث إنه من وجهة النظر اليابانية ليس هناك سوى طريق واحد لتحقيق الفوز هو الاستذكار والاجتهاد في تحصيل العلم[2]..

والجدير بالملاحظة أن الطالب الياباني يحضر في المدرسة ما يزيد عن الطالب الأمريكي بمقدار الثلث؛ فهو يحضر بالمدرسة ٢٤٠ يومًا في السنة في حين يحضر الطالب الأمريكي ١٨٠ يومًا فقط، أيضًا من السمات المميزة لنظام التعليم الياباني هو أن المدارس اليابانية تُشتَهَر بحرصها المفرط على احتواء الطلاب، وغير مسموح فيها بأي نسبة تَفَلُّت أو تسرُّب تعليمي في أي مرحلة من المراحل، أو أية فرقة من الفرق، رغم أن ذلك يشكِّل عبئًا إضافيًا على مُعَلِّميها، ونجد الأمريكيين مثلاً أكثر استعدادًا للقبول بحرمان الطلبة المتعثرين من التعليم في حين يبذل المدرس الياباني قصارى جهده ليطمئن إلى

(١) تاريخ اليابان القديم والحديث ٢٥٤.

(٢) الشرق الأقصى الصين واليابان، ٢٥٤.

أن كل طالب من طلابه قد حقَّق مستوى تعليميًّا مطمئنًا قبل نهاية العام الدراسي، ويلجأ المدرس في هذا الخصوص إلى حشد جهود أولياء أمور الطلبة المتعثرين لمساعدة أبنائهم؛ وذلك لأن المدرس الياباني يعتبر نفسه ليس مسئولاً فقط عن تقديم المادة العلمية للطالب، وإنما مسئول – أيضًا – عن التأكد من أن الطالب قد استوعب علومه بالفعل.[1]

وبالتأكيد كان لهذه النهضة التعليمية أعظم الأثر في إعداد وتجهيز كوادر علمية قادرة على العطاء، وقد انعكس أثر ذلك على الاقتصاد الياباني، فقد بلغ متوسط النمو الاقتصادي لليابان في الفترة من عام ١٩٥٠ وحتى عام ١٩٧٣م معدلاً غير عادي، حيث بلغ ١٠ في المئة سنويًا، والتفسير العلمي لذلك هو أن هذا النمو قد نبع من الزيادة الاستثنائية السريعة التي قامت بها اليابان في تعبئة العمالة ورأس المال والتكنولوجيا، وكذلك نتيجة لتحول الموارد بعيدًا عن الاستثمار في الزراعة، وقد قام مركز اليابان للبحوث الاقتصادية بتقدير معدل النمو السنوي بنسبة ٩,٢ في المائة سنويًا في الفترة من ١٩٧٠ حتى ١٩٨٥م[2]..

وازداد الاهتمام الياباني بالعلم والتعليم، فزادت نسبة المصروفات الحكومية على التعليم من إجمالي الناتج المحلي من ٤,٥٪ سنة ١٩٧٥ إلى ٥٪ سنة ١٩٩٣م، وانعكس ذلك إيجابيًا على «العملية التعليمية» حيث بلغت نسبة المقيدين في المدارس الابتدائية من الأطفال (ذكورًا وإناثًا) في سن الدراسة إلى ٩٩- ١٠٠٪، وبلغت نسبة الطلاب في المدارس الثانوية إلى إجمالي الأفراد في سن الدراسة ٩١٪ في الفترة ما بين سنة ١٩٧٠م وسنة ١٩٧٥م، ثم ارتفعت إلى ٩٥٪ بين سنة ١٩٨٠م و ١٩٨٥م، ثم إلى ٩٧٪ بين سنة ١٩٩٠ وسنة ١٩٩٣م، وتحسنت نسبة الأساتذة إلى الطلاب فارتفعت من مدرس واحد لكل ٢٤ طالبًا بين السنة ١٩٨٠م وسنة ١٩٨٥م إلى مدرس واحد لكل ٢٠ طالبًا بين سنة ١٩٩٠م وسنة ١٩٩٣م[3].

ولاشك في أن اهتمام دولة اليابان بصفة رسمية وجموع المواطنين بصفة شعبية بالعملية التعليمية قد أثَّر بشكل مباشر في تقدُّم العلم، وأدَّى إلى انتشار المراكز البحثية في اليابان بشكل ملحوظ، فقد

---

(١) الشرق الأقصى الصين واليابان ص٢٥٦.

(٢) روبرت جرام: ترويض النمور، ترجمة سمير كريم،مركز الأهرام للترجمة والنشر، ٣٦، ٣٧.

(٣) أ. أماني مسعود الحديني: العلاقة بين الديمقراطية والتنمية في آسيا، ١١٣.

كان لزيادة عدد الجامعات والمدارس أثره في إعطاء الفرصة للعلماء أن يواصلوا أبحاثهم ودراساتهم في شتى المجالات، كما أننا لا نستطيع إغفال دور الحرب العالمية الأولى في تقدم العلوم وذلك لشعور اليابانيين بأن عليهم بذل قصارى جهدهم من أجل أن تقف بلادهم في مصافّ البلدان المتقدمة، ففي مجال العلوم التطبيقية والطبيعية واصل العلماء عطاءهم الذي بدأوه في هذه المرحلة التاريخية[١]..

ولعلّنا نخلص بنتيجة في نهاية كلمتنا الموجزة عن دور العلم في بناء النهضة اليابانية، وهذه النتيجة تتلخص في أن دور العلم ظل بارزًا طوال مراحل التاريخ الياباني الحديث..

كما بيّنَّا أن الاهتمام بالتطوير والتجديد التكنولوجي كان أمرًا يشغل بال القائمين على الصناعات اليابانية منذ القرن التاسع عشر، فكثير من براءات الاختراع والأساليب التكنولوجية الأحدث كانت اليابان تستجلبها من الخارج بصفة مستمرة في تلك الآونة مع سعي متواصل لصنع منتجات يابانية بتصميمات جديدة.. ثم تضاعف اهتمام اليابان بالعلم ووصل ذروته خلال الفترة التي تبعت هزيمتها في الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م في محاولة جادة للنهوض وإثبات الوجود، وقد نجحت اليابان في تحقيق هدفها بكل تأكيد، ففي خلال النصف الثاني من الستينيات تجاوز الناتج القومي لليابان نظيره في كل من الدول الصناعية الكبرى في غرب أوروبا، وغزت صادرات اليابان أسواق الدول الصناعية الكبرى، بدءًا من الصُّلب، والسفن، مرورًا بالمركبات، والآلات والمعدات، وانتهاءً بالإلكترونيات التي تفوقت على مثيلاتها في كل دول العالم، وسيطر المنتج الإلكتروني الياباني على أسواق المستهلكين في العالم[٢].

ومن أهم الاختراعات الإلكترونية اليابانية:

١- اختراع الفيديو كاسيت videocassette recorder في عام ١٩٦٩م[٣].

٢- اختراع الووكمان stereo personal في عام ١٩٧٩م.

٣- اختراع السي دي (compact disc CD) في عام ١٩٨٠م.

٤- اختراع (digital videodisc DVD) في عام ١٩٩٥م.

---

(١) هشام عبد الرءوف حسن، تاريخ اليابان الحديث والمعاصر، ١٠٥.

(٢) الشرق الأقصى الصين واليابان ص٢٤٩.

(٣) الموسوعة البريطانية، الرابط http://corporate.britannica.com/press/inventions.html

وها هو تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٦م يبرهن بالأرقام الواضحة أن الاهتمام بالعلم مازال هو ديدن اليابان حتى يومنا هذا، وجاء فيه أن نسبة التحاق الأطفال بالمدارس الابتدائية مستقرة عند ١٠٠٪ منذ عام ١٩٩١م، مما يدل على أن الحرص على التعلُّم أصبح من مسلَّمات الشعب الياباني..

كما ارتفعت نسبة الالتحاق بالتعليم الثانوي من ٩٧٪ عام ١٩٩١ إلى نسبة ١٠٠٪ عام ٢٠٠٤م.

ووصل عدد مستخدمي شبكة الانترنت إلى ٥٧٨ من كل ١٠٠٠ فرد في اليابان..

ويقدَّر عدد الباحثين في اليابان بحوالي ٥٢٨٧ باحثًا من كل مليون فرد في اليابان، علمًا بأن عدد سكان اليابان بلغ ١٢٧,٤٣٣,٤٩٤ مليون نسمة حسب تقديرات ٢٠٠٧م[1] - حيث تنفق اليابان على أنشطة البحث والتطوير ٣,١٪ من إجمالي ناتجها القومي البالغ ٤.٢٢ تريليون دولار عام ٢٠٠٦م[2]..

كما بلغت الصادرات التي تحتوي على تكنولوجيا عالية نسبة ٢٤٪ من إجمالي صادرات اليابان حسب تقديرات عام ٢٠٠٤م[3].

إنَّ ما قامت به اليابان من إنجازات علمية وتقنية واقتصادية جعلها قدوةً ونموذجًا لمعظم دول شرق آسيا التي استطاعت تحقيق طفراتٍ اقتصادية وتقنية فيما بعدُ، فقد كان النموذج الياباني مصدر الإلهام لقادة شرق آسيا الذين أرادوا لبلادهم وشعوبهم مستقبلاً زاهرًا.

***

---

(١) كتاب الحقائق السنوي الصادر عن وكالة المخابرات الأمريكية لسنة ٢٠٠٧، والمنشور على شبكة الانترنت، الرابط
https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/geos/ja.html#People

(٢) كتاب الحقائق ٢٠٠٧م.

(٣) تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٦م، والمنشور على صفحة الإنترنت، الرابط الإلكتروني
http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_JPN.html

المبحث الثالث

دور العلم في بناء كوريا الجنوبية

لقد أصبحت كوريا الجنوبية دولة صناعية من الطراز الأول؛ حيث تصنع كل شيء تقريبًا، فهي تصنع الطائرة F-١٦ الأمريكية بأسعار أرخص من أمريكا ذاتها، وتصنع القطع البحرية والأسلحة المختلفة، وتصنع الأقمار الصناعية المختلفة، وجميع أنواع الكهربائيات والإلكترونيات، بالإضافة إلى تصنيعها للآلات الصناعية نفسها، والأهم من ذلك أن القاعدة الصناعية الكورية يمكنها التحول من صناعة إلى أخرى بسرعة فائقة حسب السوق الدولي للسلع وفي سهولة تامة(١)..

ويكفينا في هذا المقام أن نقول: إنَّ كل ما يسير على أرض كوريا مصنوعٌ بمصانعها، من القطارات، والأتوبيسات العامة والخاصة، والسيارات، واللوريات المختلفة من جميع الأحجام، ومترو الأنفاق...، وبالفعل يصعب على الناظر داخل السوق الكوري أن يجد أيَّة ماركة أجنبية في الطريق، أو أية سلعةٍ مستوردة، هذا بالإضافة إلى حقيقة مهمة، وهي أن الشعب نفسه حريص على تشجيع منتجه المحلي، فالمحلات مكتظة بالسلع المستوردة بناء على حرية السوق السلعي داخل الدولة، ومع هذا نجد الأثرياء الكوريين يركبون السيارات الكورية، ويستعملون المنتج الكوري حتى لو كان من إنتاج شركة منافسة كورية، ولا يشترون السلع المستوردة(٢)..

كما تحتل الصناعات الإلكترونية الكورية المركز السادس في العالم بالنسبة للإنتاج، والخامس بالنسبة للتسويق، وتحتل كوريا المركز الثاني بعد اليابان في إنتاج الأدوات المنزلية الكهربائية المعمِّرة بمختلف أنواعها، وتحتل كوريا المركز الثالث على العالم بعد اليابان والولايات المتحدة في صناعة الذاكرات الإلكترونية للكمبيوترات(٣) [انظر صورة رقم٦]..



صورة رقم ٦

(١) أ. محمد أمين شلقامي، فهم التجربة الكورية وسبل الاستفادة منها، ٤٥.

(٢) المصدر السابق،٤٥.

(٣) المصدر السابق ،٤٦.

واللافت في تجربة النهضة الكورية هو الدور المحوري للعلم فيها؛ فلقد أدركت كوريا مبكرًا أنه لا أمل لنهضتها إلا بتحقيق طفرة علمية وتكنولوجية تمكّنها من تعويض افتقارها الشديد للموارد الطبيعية..

كما أنَّ من أهم الدروس الجليّة التي يمكن استخلاصها من النهضة العلمية لكوريا الجنوبية - أيضًا - عملها بقاعدة: البداية من حيث انتهى الآخرون، وقد قادتها هذه القاعدة إلى اتِّباع سياسة نقل التقنية الحديثة، ثم دراستها والاستفادة منها، وأخيرًا تطوير هذه التقنية وسبقها..

وإذا نظرنا لعملية نقل التقنية في كوريا، نجد أنها تبدأ بمرحلة التخطيط، وقد اضطلعت الحكومة الكورية بتلك المرحلة بمشاركة ثانوية للمؤسَّسات الكورية الخاصة العملاقة، والتي خضعت لها في معظم الأحيان، وقد كانت الحكومة في البداية تختار أفضل الشروط التي يقدمها المورِّد لنقل التقنية وليس أفضل تقنية بالضرورة، ثم قامت الحكومة الكورية بعد خطوة نقل التقنية بخطوة مهمة أخرى وهي إدماج التقنية الحديثة في المصانع الكورية، ثم تلي تلك الخطوة مرحلة البحث والتطوير لإنتاج تقنية محلية أكثر تقدمًا[1]..

ومن أبرز الأمثلة العملية التي توضح كيفية نقل كوريا للتقنية الحديثة هو خطوتها لإنتاج أول سيارة كورية الصنع، حيث قامت كوريا باستيراد سيارات تويوتا وفورد ثم مفككة ثم بدأت بتجميعها محليًا، وبعد القيام بدراسات علمية على مكونات هذه السيارات ودراسة إمكانية استبدال أجزاء محلية الصنع ببعض الأجزاء، تمكنت كوريا من تصنيع السيارة (هيونداي) محليًّا بنسبة ٩٦٪[2]، ومن هذا المثال تتضح لنا السياسة التي اختارتها كوريا في مجال البحث والتطوير ذاته، فهي إذا قورنت بالدول المتقدمة نجدها لم تستثمر بالصورة الكافية في تطوير تقنية مستقلة، ولكنها اعتمدت على التقنية المستوردة؛ حيث كانت تستوعبها وتُحسِّنها، ثم تُقدِّم بديلاً محليًّا لبعض مكوناتها أو تُطورها لتَخْرُج بمنتج جديد تمامًا، وبهذا وقفت كوريا في منتصف الطريق تقنيًا؛ فهي أكثر تقدمًا من الدول الأخرى المصنعة حديثًا وأقل من اليابان والولايات المتحدة..

---

(١) د. محمد السيد سليم: النموذج الكوري للتنمية ص٢١٠. (٢) المصدر السابق ص٢٠٨.

كما قامت كوريا الجنوبية في خطتها الأولى بالتركيز على تصنيع السلع ذات القبول الدولي الواسع لضمان سهولة تسويقها، مثل: صناعة النسيج، وصناعة الأحذية، وقد تم استخدام التقنية العالية في تلك الصناعات لزيادة الميزة التنافسية للسلعة الكورية على مثيلاتها في السوق الدولي، وقد تم إنشاء المعهد الكوري لتنمية العلوم والتقنية الذي يرأسه رئيس الجمهورية الكورية بنفسه، للقيام بتلك المهمة، كما تم إنشاء مدينة كاملة لمعاهد الأبحاث والتقنية اسمها مدينة (تدوك)، وبها ٣٤ معهد أبحاث بعضها تابع للحكومة الكورية، وأغلبها تابع الشركات الخاصة، وتقوم تلك المعاهد بتخريج الفنيين المطلوبين للعمل في الشركات المختلفة، وفيها يتم عزل الدارسين عن العالم الخارجي للتفرغ للدراسة والأبحاث فقط، وذلك بإقامة المدينة بين سلسلة من الجبال، وأقرب مدينة لها على بعد ٢٠ كيلومترا تقريبًا[1]..

لم يكن ممكنًا النجاح في تحقيق الأهداف الكورية بمجرد نقل التقنية المتقدمة؛ ولذا اتجهت الدولة إلى إعداد كوادر قادرة على استقبال هذه العلوم المتقدمة والاستفادة منها، ثم تحمُّل عبء التطوير والابتكار، ومن هذا المنطلق قامت الحكومة الكورية بمراجعة شاملة لنظامها التعليمي ليصبح مؤهَّلاً لإمدادها بالكفاءات العلمية المطلوبة..

وللحق فقد كان التعليم الكوري يواجه العديد من المشاكل، وهو في ذلك مثل العديد من الأنظمة التعليمية في مختلف أنحاء العالم، ولكن دولة مثل كوريا تريد النهوض والتقدم تَعْظُمُ في عين المسؤولين بها هذه المشاكل، وتصبح في نظرهم كوارث يجب معالجتها والاحتراز من آثارها، وعلى سبيل المثال نجد أن مرحلة التعليم الثانوي الكورية، كانت تعاني من كونها أكاديمية التوجه وجسرًا للجامعة أساسًا، مع انفصالها عن الاقتصاد، وكانت المدارس المهنية ملتقى الطلبة الفاشلين انتظارًا لدخولهم امتحان القبول بأحد المعاهد أو الجامعات، كما كانت المدارس المهنية المختلفة وخاصة الفنية منها غير مرتبطة بالقطاع الصناعي ومفتقرة للتسهيلات اللازمة، وظل الوضع هكذا حتى بداية السبعينيات؛ حيث أُدْخِل عدَّة تعديلات على النظام التعليمي فلعبت المعاهد المتوسطة المهنية دورًا مهـمًا في سَدِّ الاحتياجات للعمالة الفنية المدربة في ظل تزايد الطلب عليها عامًا بعد عام، وكانت الدراسة في هذه المعاهد تمتد لثلاثِ سنوات بعد المرحلة الثانوية، وقد بلغ عدد هذه المعاهد في تلك

---

(١) أ. محمد أمين شلقامي: فهم التجربة الكورية وسبل الاستفادة منها ص٣٧.

الفترة حوالي ١١٨ مؤسسة لتخريج الفنيين، بينما يُكرَّس ٢٠- ٥٠٪ من حصة الدعـ للجامعات لهؤلاء الخريجين الذين يريدون استكمال دراستهم في ذات المجال، ومن ثمـ النقاط الإيجابية التي تساعد هذه المعاهد على أداء رسالتها التعاون الوثيق بينها وبـ المؤسسات الصناعية العملاقة لتسهيل التدريب العملي في المواقع الصناعية، وذلك بجنـ تشكيل حوالي ٦٤١ لجنة تعاونية في مختلف المجالات مهمتها التنسيق بين المصنع وبـ التعليمية، مما أدى إلى تخريج كوادر فنية مدربة على أعلى مستوى وقادرة على استيعـ الوسائل الحديثة في الصناعة[1]..

وأُنشئت مدرسة العلوم والتقنية في عام ١٩٨٣م، مع السماح لخريجيها بالالتحاق بجمـ العلوم والتقنية، وإعطاء هؤلاء الطلاب الأولوية في المنح والبعثات، وذلك بجانب إنشـ مدارس للنابغين علميًا، و١٢ معهدًا علميًا، و٧٩ مركزًا للأبحاث، وإنشاء صندوق للتعـ العلمي وإنشاء شبكة معلومات بين المعاهد البحثية، وقد أسفرت الجهود الحكومية في النهـ بالجانب التطبيقي للتعليم في الجامعات إلى ارتفاع عدد المهندسين الخريجين من ٥,٠٠٠ في عام ١٩٧١م إلى ١٥,٠٠٠ في عام ١٩٨٢م[2]..

وقد بلغ الإنفاق على التعليم المهني في كوريا ٥٩٪ من ميزانية التعليم في عـ ١٩٩١م، وفي عام ٢٠٠٢م كان هناك ٧٤١ مدرسة ثانوية مهنية يدرس فيها ٣٦٣,٥٣٥ ألف طالب[3]..

وقد تأثرت السياسات التعليمية الكورية كثيرًا بالنظام التعليمي في اليابان والولايـ المتحدة الأمريكية، كما بعثت أمريكا بمساعداتها وخبرائها إلى كوريا، ويعتبر معهد كوريـ لتنمية التعليم من أهم المؤسسات الكورية التي أسهمت في تطوير نظام جديد للتدريس مثـ البرامج المرئية ومواد التعليم الذاتي[4]..

---

(١) د. محمد السيد سليم: النموذج الكوري للتنمية ص ١٨٧.

(٢) المصدر السابق، ١٩٢.

(٣) الصفحة الرسمية للجمهورية الكورية الجنوبية على شبكة الانترنت، الرابط
http://www.arab٢korea.net/default.asp.

(٤) النموذج الكوري للتنمية،١٩٩،١٩٧.

أمّا عن مراحل التعليم المختلفة، فالتعليم الابتدائي في كوريا إلزاميٌّ، وتصل نسبة التسجيل فيه إلى ١٠٠٪، وكذلك أصبح التعليم الإعدادي إلزاميًا في كل أنحاء كوريا اعتبارًا من عام ٢٠٠٢م، وقد كانت نسبة الطلاب للمعلمين في المدارس الابتدائية ٥٨,٨ طالب للمعلم الواحد في عام ١٩٦٠م، إلا أن هذه النسبة انخفضت إلى ٢٨,١ طالب للمعلم الواحد في عام ٢٠٠٢م، ثم تم إنشاء جامعة كوريا المفتوحة الوطنية للشباب والبالغين العاملين[١]..

هذا وقد وصلت نسبة الطلبة إلى عدد السكان في كوريا الجنوبية عام ١٩٩١م إلى ٣٩٥ لكل ١٠,٠٠٠ وهي من أعلى النسب في العالم بجانب الولايات المتحدة وكندا[٢]..

كما يُعَدُّ من أهم إنجازات السياسة التعليمية في كوريا الجنوبية - والذي أسهم بقوة في النهضة العلمية - المضمون المعنوي الذي تحتويه الكتب المدرسية، ففي ظلِّ نظام الرئيس (بارك شونج) عملت المناهج على التقليل من أهمية القيم الفردية، وركزت الكتب على أهمية الطاعة والتعاون والولاء للوطن، كما أكّدت كتب الأخلاق للمرحلة الوسطى من التعليم على أنَّ العمل الدءوب والدراسة والزهد وتهذيب ومراقبة النفس من أهم صفات الفرد، وقد اعتبر البعض أن هذه القيم المقدَّمة في المناهج الدراسية الكورية هي أهم الأساليب التي حققت بها كوريا إعجازها التنموي[٣]..

ويعتبر علم الإدارة العامة من أهم العلوم التي أسهمت مباشرة في المعجزة الكورية، فالتعليم الإداري أفرز القيادة القادرة على التخطيط التي أسهمت في وضع السياسات المختلفة سواء في المؤسسات الصناعية العملاقة أو في الحكومة، بالإضافة إلى العمالة الماهرة المنظمة، كما أسهم علم الإدارة في تحديد المهارات اللازمة لصنع القرار والتخطيط المركزي وتعبئة الموارد، ووضع البرامج التنموية، وهي كُلُّها مهام لازمة لدولة تأخرت في التصنيع مثل كوريا[٤]..

---

(١) الصفحة الرسمية للجمهورية الكورية الجنوبية على شبكة الانترنت، الرابط
http://www.arab٢korea.net/default.asp.

(٢) النموذج الكوري للتنمية،١٩٦.

(٣) د. محمد السيد سليم، النموذج الكوري للتنمية،١٩١.

(٤) المصدر السابق،١٩٣.

وبجانب الاهتمام بالتعليم أَوْلَت كوريا عناية خاصة للمُعلِّم الكوري الذي هو بمثابة المنفذ للخطط والتعديلات التعليمية التي طرأت خلال المراحل السابق عرضها، لقد كان المدرس هدفًا كما كان منفذًا لتلك السياسات؛ فمنذ الستينيات تم الارتقاء بالمعاهد المتوسطة الخاصة بتأهيل معلمي المرحلة الابتدائية، كما موَّلت الحكومة كلياتِ المعلمين، بل حرصت على أن يُلحَق بها مدرسةٌ ابتدائية ومتوسطة وثانوية؛ وذلك كي يتم تدريب المعلم بصورة عملية، كما اشتملت التعديلات الكيفية في الثمانينيات على ضرورة فرض امتحان قدرات ومقابلة شخصية للمتقدمين لمعاهد المعلمين، هذا مع إعفاء الطلبة في كليات المعلمين من بعض المصاريف بنسبة قد تصل إلى ٤٠٪ من قيمة المصروفات الدراسية، وفي إطار تحسين ظروف المعلم والارتقاء بمستواه العلمي – أيضًا – تم توفير دورات تدريبية خلال العمل لتحسين المستوى أو للحصول على شهادات إضافية للترقية أو للتأقلم، هذا بالإضافة إلى قيام وزارة التعليم الكورية بإرسال بعثات من المعلمين إلى الخارج للاستفادة من الجديد في طرق التدريس، وقد تم بالفعل إرسال ٢١١٩ مدرسًا من عام ١٩٧٨ إلى ١٩٨٨م في تلك البعثات. أما المدرس الجامعي فهو محل للتقييم المستمر من قِبَل الطلاب كنوع من الرقابة على مستواه[1]..

أمّا عن تثقيف المجتمع ونشر المعرفة فنجد في كوريا العديد من المكتبات بأنواعها المختلفة، كالمكتبات القومية والعامة والمتخصصة وغير المتخصصة، ومكتبات التعليم العالي والمدارس، وقد بلغ عدد المشتركين بها في أوائل التسعينيات حوالي ٢٤ مليون فردٍ، وبها حوالي ٦٨ مليون كتابٍ، وهي معدلات عالية بالنسبة لدولة حديثة النمو[2]..

وقد جاء في تقرير التنمية البشرية الصادر عن البنك الدولي لعام ٢٠٠٦م أنَّ كوريا الجنوبية نجحت في تحقيق نسبة محو للأمية في شبابها مابين ١٥ – ٢٤ عامًا وصلت إلى ٩٩,٢ ٪ طبقًا لتقديرات ١٩٩١م[3]..

كما وصل عدد مستخدمي الانترنت إلى ٦٥٧ من كل ألف مواطن كوري في عام ٢٠٠٣م..

---

(١) د. محمد السيد سليم، النموذج الكوري للتنمية، ١٨٩، ١٩٠.

(٢) المصدر السابق ،١٩٦.

(٣) تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٦م، الرابط

http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_KOR.html

وبلغ عدد براءات الاختراع الممنوحة للمقيمين في كوريا الجنوبية ٧٣٨ لكل مليون نسمة في عام ٢٠٠٤م..

كما أنفقت الحكومة الكورية في عام ٢٠٠٣م على البحث والتطوير نسبة ٢,٦٪ من إجمالي ناتجها المحلي، وهي تمثل نسبة كبيرة في ظل التزايد المستمر لقيمة الناتج المحلي الإجمالي لكوريا الجنوبية والذي بلغ ١,١٨ تريليون دولار في عام ٢٠٠٦م[١]..

ووصل عدد الباحثين إلى ٣١٨٧ باحثًا من كل مليون فرد في عام ٢٠٠٣م..

كما بلغت الصادرات المصنعة نسبة ٩٢٪ من إجمالي الصادرات الكورية عام ٢٠٠٤م، وهذا مع العلم أن الصادرات التي تحتوي على تقنية عالية مثّلت ٣٣٪ من إجمالي الصادرات المصنَّعة في عام ٢٠٠٤م.

***

(١) كتاب الحقائق الدولي لعام ٢٠٠٧م.

المبحث الرابع
دور العلم في بناء ماليزيا

تُمثل ماليزيا - بحق - حالة فريدة ومتميزة بين الدول الإسلامية، ليس فقط بسبب نجاحها بامتياز في عملية التنمية والنهضة، وبالتالي بلوغها مرتبة متقدمة بين الأمم الصاعدة وإنما أيضا بسبب براعتها في التعامل مع كل المعضلات والتحديات التي واجهتها..

وبداية؛ فإن ماليزيا الشقيقة تقع في قلب جنوب شرق آسيا، وتبلغ مساحتها ٣٤٣, ٣٠ ألف كم٢، وعاصمتها مدينة كوالالمبور، ويبلغ عدد سكان ماليزيا ٨٥٨, ٣٨٥, ٢٤ مليون نسمة (عام ٢٠٠٦)، يمثل المسلمون نسبة ٦٠٪ تقريبًا منهم [انظر خريطة رقم ٨][1]، وتعتبر ماليزيا هي يابان العالم الإسلامي.. لماذا؟



خريطة رقم ٨

لقد وصلت ماليزيا إلى المرتبة الثامنة عشرة على مستوى العالم اقتصاديا، وبنظرة سريعة إلى الأرقام التي حققتها دولة ماليزيا على العديد من الأصعدة، ومن واقع التقارير والدراسات العالمية المعتمدة، نستطيع أن نرى وبوضوح المكانة التي استطاعت الشقيقة المسلمة - والتي تعتز بانتمائها إلى الأمة الإسلامية - أن تحفرها لنفسها بين دول العالم المتقدم.

---

(١) كتاب الحقائق الدولي لعام ٢٠٠٧م.

فالناتج القومي لماليزيا ٣٠٨,٨ مليار دولار، ومعدل النمو السنوي للناتج القومي ٥,٥ ٪ (تقديرات ٢٠٠٦)، ووصلت قيمة صادراتها إلى ١٤٧,١ بليون (ألف مليون) دولار (تقديرات ٢٠٠٥) وتصل نسبة الصادرات المصنعة ٧٩ ٪ من إجمالي الصادرات، بينما الصادرات المصنعة عالية التقنية والتكنولوجيا تمثل ٥٨ ٪ من إجمالي الصادرات المصنعة الماليزية، بما يوضح التقدم الملموس في الصناعات التي تحتوي على تقنية عالية، مثل الكمبيوتر ووسائل الاتصال ..

وإذا نظرنا - مثلاً - إلى دولة متقدمة مثل ألمانيا، نجد أن صادراتها الصناعية تمثل ٨٤ ٪ من إجمالي صادراتها، بينما تمثل الصادرات عالية التقنية ١٧٪ من إجمالي الصادرات المصنعة.. بينما في مصر تمثل الصادرات المصنعة عالية التقنية نسبة ١ ٪ فقط من إجمالي الصادرات الصناعية ..

وتبلغ نسبة البطالة في ماليزيا ٣,٦ ٪ (تقديرات ٢٠٠٥)، بينما هي في فرنسا - مثلاً - ٤,٣ ٪ وفي ألمانيا ٥ ٪ مما يوضح لنا مقدار الندِّيَّة مع الدول الصناعية الكبرى..

أمّا عن قضية العلم ومكافحة الأمية، فقد جاء في نفس المصدر السابق أن ٨٨,٧ ٪ من عدد السكان فوق سن الخامسة عشر عامًا يستطيع القراءة والكتابة، وقد وضح التقرير أن هذه النسبة كانت ٨٠ ٪ في عام ١٩٩٠م، مما يوضح استمرار وتواصل الجهود للقضاء على هذه الظاهرة تمامًا..

ولعل من اللافت للنظر أن الإناث ما بين سن ١٥-٢٤ عامًا تصل نسبة معرفتهن للقراءة والكتابة إلى ٩٧,٣٪ ولا يخفي أن هذا هو سن الزواج وتكوين الأسرة، وبالتأكيد ستكون الأم المتعلمة أحرص على تعليم أبنائها..

أما نسبة ما تنفقه ماليزيا على التعليم، فإنه يعادل ٢٨٪ من إجمالي نفقاتها الحكومية، كما جاء أيضًا في تقرير التنمية لعام ٢٠٠٦، في حين أن ما تنفقه إسرائيل على التعليم ١٣,٧٪ من إجمالي نفقاتها الحكومية..

كما أنّه من كل ألف شخص في ماليزيا يوجد ٣٩٧ من مستخدمي الانترنت.. كما يوجد ٢٩٩ باحثًا لكل مليون نسمة[1]..

---

(١) تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٦م، الرابط
http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_MYS.html

ولا نريد أن نستفيض في هذه النقطة - رغم أهميتها - أكثر من ذلك، بل نجد أنه من المهم جدًّا أن نجيب على سؤال مُلِحٍّ، وهو:

كيف استطاعت دولة مثل ماليزيا أن تحقق هذا التقدم..؟! وماهو دور العلم في هذا النجاح المذهل؟

وسؤالنا هذا ليس القصد منه التقليل من شأن ماليزيا، بقدر ما هو مبعث إعجاب ودهشة، وشعور بالامتنان والفخر نوعًا ما، وخاصة أنها دولة ذات إمكانيات محدودة.. فلا تملك - مثلاً - احتياطياتٍ نفطيةً هائلة، مثل السعودية والعراق، ولا تمتلك طاقات بشرية ضخمة، مثل إندونيسيا، وكذلك فهي لا تمتلك ٣٠ مليون فدان صالحة للزراعة مثل السودان الشقيق، وفضلاً عن ذلك، فمساحتها ليست شاسعة مثل دولة الجزائر التي تقترب من ٢.٥ مليون كم٢[1]!! بل وعلى العكس من ذلك!!

فقد اجتمعت في دولة ماليزيا عدة عوامل، يكفي أي عامل منهم ليكون حجة للتكاسل والقعود عن العمل، فضلا عن التنافس مع الدول المتقدمة ومضارعتها..

لقد طرق الاستعمار أبواب ماليزيا منذ القرن السادس عشر، بدءًا بالاستعمار البرتغالي ثم الهولندي، وأخيرًا الاستعمار البريطاني، الذي بدأ في منتصف القرن السابع عشر. وبالتحديد في عام ١٦٦٥م، واستمر الاحتلال البريطاني جاثمًا على ماليزيا، يستنزفها بدون انقطاع، ولمدة تقترب من ثلاثة قرون.. فعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية وقعت ماليزيا تحت الاحتلال الياباني خلال عام ١٩٤١م وحتى استسلمت اليابان في شهر سبتمبر ١٩٤٥م، ثم عادت بعدها الإدارة البريطانية لحكم ماليزيا مرة أخرى، حتى حصلت على كامل استقلالها في عام ١٩٥٧م، وأُعلن قيام دولة ماليزيا في ١٦ مارس ١٩٦٣م[2]..

وبالإضافة إلى ما عانته من مرارة الاستعمار، فقد واجهت ماليزيا مشكلة خطيرة، وهي التنوع، بل والاختلاف بين عناصر تركيبتها العرقية والدينية..

فنجد أن التركيبة العرقية مقسمة ما بين ٥٨ ٪ من عدد السكان لهم أصول تعود إلى منطقة

---

(١) كتاب الحقائق الدولي الأمريكي لعام ٢٠٠٧م.

(٢) د. رأفت غنيمي الشيخ، تاريخ آسيا الحديث والمعاصر، مرجع سبق ذكره،١٦١-١٦٧.

الملايو، و٢٧٪ تعود أصولهم إلى الصين، و٨٪ من أصول هندية، ٧٪ لهم أصول مختلفة أخرى..

ولهذه التركيبة العرقية أثر واضح في التركيبة الدينية لماليزيا، حيث نجد أن المسلمين يمثلون ٦٠ ٪ من عدد السكان، ومعظمهم من الملاويين السكان الأصليين، ويأتي بعدهم البوذيون بنسبة ١٩ ٪ ومعظمهم من الصينيين، ثم النصارى بنسبة ٩ ٪، والهندوس ٦ ٪، والباقي ديانات أخرى، مثل الكونفوشسية والسيخية[1]..

أيُّ خليط هذا..!؟

وبجانب هذه المصاعب فقد خرجت ماليزيا إلى العالم بعد حصولها على الاستقلال سنة ١٩٥٧م وهي تعاني من جروح غائرة في جسدها الوليد، المتمثل في دولة صغيرة تتكون من اتحاد ١٣ ولاية، وكان أكبر جراح الدولة الوليدة هو جرح الفقر الذي استعاذ منه النبي ﷺ، فكان قرابة نصف الشعب الماليزي يعاني الفقر المدقع، ولم تكن هناك صناعات تكاد تذكر أو تشتهر بها ماليزيا في ذلك الوقت، بل كان أبرز أنشطتها يتركز على تصدير المطاط، ويليه في التصدير معدن القصدير، مع القليل من المواد النفطية، وكان يحترف بعض سكان ماليزيا مهنة الصيد، ويعمل بعضهم بالزراعة، مع تدني رهيب في مستوى التعليم..!!

وتلك شيمة البلاد التي تعرضت للاحتلال، والذي كان - ولا زال - من طبيعة عمله أن يحرص ليل نهار على نشر الجهل والتخلف؛ حتى يضمن استقراره، وسهولة قيادة فريسته.. وذلك هو المشهد - إن لم يكن هناك ما هو أسوأ منه - حين حصول دولة ماليزيا على الاستقلال..!!

ومن فور الحصول على الاستقلال أعطت الدولة اهتمامها الأول بقضية التعليم كهدف لا غنى عنه لتحقيق النهضة، وذلك لأنها تدرك أن التعليم هو الذي يكفل تنمية وصقل الموارد البشرية للدولة، ولذا حرصت الإدارة الماليزية منذ استقلال البلاد في ١٩٥٧م على تقديم خدمات التعليم الأساسي - لمدة إحدى عشرة سنة - مجانًا كما أولت الحكومة عناية كبيرة بتأسيس معاهد خاصة لتدريب المعلمين وتأهيلهم على المستوى القومي..

ولقد ركزت الحكومة في مطلع الستينيات على هدف واضح، وهو إحلال الواردات،

---

(١) كتاب الحقائق الدولي لعام ٢٠٠٧م.

بمعنى التصنيع المحلي للسلع التي يتم استيرادها من الخارج، وبالفعل تكونت نواة صناعية عبارة عن صناعات صغيرة كصناعة الأغذية، ثم تطور الأمر لصناعة مواد البناء والطباعة والبلاستيك والكيميائيات، وساندت الدولة هذه الخطوة الناجحة بإصدار قانون تشجيع الاستثمار في سنة ١٩٦٨م؛ لجذب الاستثمارات الأجنبية بهدف زيادة القاعدة الصناعية وبالفعل حدث توسع في إنتاج زيت النخيل والخشب والمطاط والكاكاو، كما شهد القطاع النفطي تطورًا كبيرًا؛ مما وضع ماليزيا على خارطة الدول المصدرة للبترول والغاز..

وفي مطلع السبعينيات شجعت الحكومة دخول الاستثمارات الأجنبية في مجال الإلكترونيات وصناعة النسيج، وذلك بتوفير العمالة الماليزية وتقديم حوافز ضريبية مغرية وإصدار تراخيص منتجات أجنبية، وإنشاء مناطق تجارة حرة، كما بدأت الحكومة تستضيف الشركات الكبرى متعددة الجنسيات لتشغيل خطوط إنتاجية في ماليزيا، فشهدت هذه المرحلة الانتقال من سياسة إحلال الواردات إلى سياسة التصنيع المُوَجَّه إلى التصدير..

ومن ثم أصبحت الأرض الماليزية ممهدة وجاهزة للانطلاق واللحاق بركب الدول المتقدمة، لا ينقصها إلا قائد ماهر طَمُوح يقودها ويُحسنُ إدارتها وتوجيهها.. وكان هذا الرجل هو مَهَاتير محمد، صانع المعجزة الماليزية، فكيف فعلها؟!

بدأ ظهور الدكتور مهاتير محمد في الحياة السياسية في عام ١٩٧٠م، وذلك عندما أَلَّفَ كتاب بعنوان «معضلة الملايو»، انتقد فيه بشدة شعب الملايو واتهمه بالكسل، والرضا بأن تظل بلاده دولة زراعية متخلفة دون محاولة تطويرها، وكان في ذلك الوقت عضوًا في الحزب الحاكم والذي يحمل اسم منظمة الملايو القومية المتحدة، وقرر الحزب منع الكتاب من التداول نظرًا للآراء العنيفة التي تضمنها، وأصبح مهاتير محمد في نظر قادة الحزب مجرد شاب متمرد لابد أن تحظر مؤلفاته!!

غير أن مهاتير سرعان ما أقنع قادة الحزب بقدراته، مما يدل على حنكته السياسية؛ فهو لم يغضب ويترك الحزب، وبالفعل صعد نجمه في الحياة السياسية بسرعة، حتى تولى رئاسة وزراء بلاده في عام١٩٨١م، وأتيحت له الفرصة كاملة ليحوِّل أفكاره إلى واقع عملي[١]..

---

(١) موقع بي بي سي، مهاتير محمد: من شاب متمرد إلي بطل قومي ، الرابط
http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/news/newsid_3238602/3238000/.stm

لم يكن مهاتير محمد مجرد رجل سياسة، بل كان أيضا مفكرًا له كتبه ومؤلفاته، وكان صاحب رؤية لما ينبغي أن تكون عليه بلاده، ولقد استفاد مهاتير من كل ما حققته ماليزيا منذ الاستقلال من نجاحات واستثمرها وجعلها قاعدة لانطلاقته، ولم يرد الدكتور مهاتير أن يكون انطلاقه عشوائيًا، بل بدأ يبحث في تجارب الدول الأخرى وخاصة الآسيوية، حيث سُميت سياسته بالاتجاه شرقًا، واستقر اختياره على المعجزة اليابانية فجعلها أمامه قدوة ومثلاً أعلى.. وقد كان توجه مهاتير محمد ناحية اليابان مستلهمًا من تجربة نجاحها ملحوظًا بشكل كبير، وقد صرح بذلك في العديد من المناسبات[1] [انظر صورة رقم ١١]..

اختارت ماليزيا اليابان التي تحتل مكانة عالمية وإقليمية على كل المستويات وخاصة التصنيعية، حيث تجاوز حجم إجمالي الناتج المحلي الياباني عدة مرات إجمالي الناتج المحلي لدول شرق آسيا مجتمعة، بما فيها الصين خلال فترة الثمانينيات، وكانت اليابان من الأسباب الجوهرية التي أسهمت في يقظة وتوعية الشعب الآسيوي مما أطلق عليه «وهم التفوق الأوروبي».



صورة رقم ١١
مهاتير محمد

وتعتقد ماليزيا أن الاستراتيجية التي انتهجتها اليابان في إنتاج سلع جيدة بأسعار زهيدة ساهمت بشكل كبير في تحقيق تفوقها على المنتجات الأوروبية والأمريكية ذات الأسعار المرتفعة، وبالتالي نجحت في السيطرة على أسواق آسيا وأفريقيا، بالإضافة إلى إتباع سياسة منهجية في التصنيع، وإيجاد قيادات تتمتع بمستوى علمي فائق، وتتميز بالتطور والإبداع، وعلى المستوى المعنوي نجد في اليابان الالتزام الأخلاقي والمهني بقيم العمل الآسيوية، مما يستتبعه التفاني والجدية في الأداء المهني[2]..

لقد تَسَلَّم مهاتير محمد السلطة بعد مرور أكثر من عقدين على الاستقلال، وفي هذه

(١) ماجدة علي صالح: عظماء آسيا في القرن العشرين ص١٢٢، ١٣٢ بتصرف.

(٢) عبد الرحيم عبد الواحد: مهاتير محمد عاقل في زمن الجنون ص٨٤-٨٦.

الفترة تم قطع خطوات مهمة في طريق الإصلاح والبناء؛ مما وَفَّر له قاعدة تصلح للارتكاز عليها، وباختياره لليابان كنموذج تنموي تَكَشَّف أمامه الطريق نحو المستقبل، وجاء دوره المفصلي في تاريخ ماليزيا، وهو كيفية إدارته للدولة، والقفز بها إلى مصاف الدول الصناعية الكبرى..

ولعل أبرز ما يميز المرحلة المهاتيرية تلك الطفرة الاقتصادية اللافتة، حيث أصبحت فيه ماليزيا دولة صناعية متقدمة، يسهم قطاعا الصناعة والخدمات فيها بنحو ٩٠٪ من الناتج المحلي الإجمالي، وفي عهده بلغت نسبة صادراتها من السلع المصنعة ٨٥٪ من إجمالي صادراتها. وأنتجت ٨٠٪ من السيارات التي تسير في طرقاتها، وأصبحت من أنجح البلدان في جنوب آسيا، بل وفي العالم الإسلامي بأكمله، فكيف فعل هذا[1]؟!

إذا نظرنا لهذه المرحلة نظرة تحليلية متعمقة نجد أن الدكتور مهاتير محمد انطلق في عدة محاور وفي وقت واحد، ولكنه قام بالتركيز على ثلاثة محاور بصفة خاصة، وهي:

محور التعليم، ويوازيه محور التصنيع، ويأتي في خدمتها المحور الاجتماعي..

وكان اهتمامه بالتعليم منذ مرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية؛ فجعل هذه المرحلة جزءًا من النظام الاتحادي للتعليم، واشترط أن تكون جميع دور الرياض وما قبل المدرسة مسجلة لدى وزارة التربية، وتلتزم بمنهج تعليمي مقرر من الوزارة..

كما تم إضافة مواد تُنمي المعاني الوطنية، وتُعزِّزُ روح الانتماء للتعليم الابتدائي.. أي في السنة السادسة من عمر الطفل..

ومن بداية المرحلة الثانوية تصبح العملية التعليمية شاملة، فبجانب العلوم والآداب تدرَّس مواد خاصة بالمجالات المهنية والفنية، والتي تتيح للطلاب فرصة تنمية وصقل مهاراتهم..

وإلى جانب ذلك كان إنشاء الكثير من معاهد التدريب المهني، التي تستوعب طلاب المدارس الثانوية وتؤهلهم لدخول سوق العمل في مجال الهندسة الميكانيكية والكهربائية وتقنية البلاستيك، وكان من أشهر هذه المعاهد معهد التدريب الصناعي الماليزي، والذي ترعاه وزارة الموارد البشرية، وقد أصبح له تسعة فروع في مختلف الولايات الماليزية..

---

(١) موقع بي بي سي، مهاتير محمد: من شاب متمرد إلى بطل قومي.

وقد واكب هذا الاهتمام بالتعليم دخول ماليزيا مرحلة التصنيع الثقيل، كما في صناعات الأسمنت والحديد والصلب، بل وتصنيع السيارة الماليزية الوطنية (بروتون)، ثم التوسع في صناعة النسيج وصناعة الإلكترونيات، والتي صارت تسهم بثلثي القيمة المضافة للقطاع الصناعي، وتستوعب ٤٠٪ من العمالة..

وكانت التسعينيات من القرن الماضي مرحلة نضج الثمرة، حيث وُضعت ماليزيا في قمة الدول المتقدمة..

ففي مجال التعليم[1]، وتوافقًا مع ثورة عصر التقنية، قامت الحكومة الماليزية في عام ١٩٩٦م بوضع خطة تقنية شاملة، من أهم أهدافها إدخال الحاسب الآلي والارتباط بشبكة الإنترنت في كل مدرسة.. بل في كل فصل دراسي!!

وبالفعل بلغت نسبة المدارس المربوطة بشبكة الإنترنت في ديسمبر ١٩٩٩م أكثر من ٩٠٪، وبلغت هذه النسبة في الفصول الدراسية ٤٥٪، كما أنشأت الحكومة الماليزية العديد مما يعرف بالمدارس الذكية التي تتوفر فيها مواد دراسية تساعد الطلاب على تطوير مهاراتهم واستيعاب التقنية الجديدة، وذلك من خلال مواد متخصصة عن أنظمة التصنيع المتطورة وشبكات الاتصال، ونظم استخدام الطاقة التي لا تحدث تلوثًا بالبيئة..

كما تنفذ عملية التدريس والتعليم في هذه المدارس وفقًا لحاجات الطلاب وقدراتهم ومستوياتهم الدراسية المختلفة، ويتم اختيار مدير المدرسة من القيادات التربوية البارزة، ويساعده فريق من الأساتذة ممن لديهم قدرات مهنية ممتازة،كما تتيح مشاركة الطلاب في اختيار البرامج الدراسية، بجانب حرص هذه المدارس على التنويع والتطوير في أساليب التدريس، مثل الرحلات العلمية والأيام الترفيهية..

لقد حددت الدولة أولوياتها بدقة، فإذا نظرنا إلى إجمالي ما أنفقته الحكومة الماليزية على التعليم في عام ١٩٩٦م على سبيل المثال نجده ٢,٩ مليار دولار، بنسبة ٢١,٧٪ من إجمالي حجم الإنفاق الحكومي، وازداد هذا المبلغ إلى ٣,٧ مليار دولار عام ٢٠٠٠م بما يعادل نسبة ٢٣,٨٪ من إجمالي النفقات الحكومية..

---

(١) دراسة د. محمد شريف بشير، منشورة على موقع إسلام أون لاين، بعنوان استثمار في البشر في ماليزيا، الرابط:
http://www.islamonline.net/arabic/economics/05/2002/article11.shtml

وكان إنفاق هذه المبالغ على بناء مدارس جديدة، وخاصة المدارس الفنية، وإنشاء معم للعلوم والكمبيوتر، ومنح قروض لمواصلة التعليم العالي داخل وخارج البلاد.. وبالإضافة إلى الدعم والتسهيلات الكبيرة التي تقدمها الدولة، فإن إلزامية التعليم أصبحت من الأمور التي لا جدال فيها، وأصبح القانون الماليزي يعاقب الآباء الذين لا يرسلون أبناءهم في المدارس!!

كل ذلك بجانب الحرص على الانفتاح، والاستفادة من النظم التعليمية المتطورة في الدول المتقدمة.. وفي هذا السياق تم إنشاء أكثر من ٤٠٠ معهد وكلية جامعية خاصة، تقدم دراسات وبرامج توأمة مع جامعات في الخارج، كما أتاحت الفرصة للطلاب المانحين لمواصلة دراستهم في الجامعات الأجنبية[1]..

إلا أن ما يستحق التسجيل ويدعو إلى الإعجاب، تلك الفكرة الجديدة التي قامت بها الحكومة الماليزية، عندما عملت على تقوية العلاقة بين مراكز البحوث والجامعات وبين القطاع الخاص.. بمعنى فتح المجال لاستخدام أنشطة البحث الجامعية لأغراض تجارية!!

وقد كان لتلك الفكرة أعظم الأثر على الجميع؛ فلم تعد الحكومة الآن مطالبة بدعم كل الأنشطة البحثية بمفردها، بل شاركتها في ذلك المصانع والمؤسسات المالية والاقتصادية، كل حسب حاجته.. وفي ذات الوقت لا تكاد تجد مركز أبحاث يشكو من قلة الدعم الحكومي وهذا بالإضافة إلى أن الدولة استطاعت أن توجه ما كان يمكن أن يصرف على هذه الأنشطة إلى مصارف أخرى مهمة..

ومن جرَّاء ذلك امتلكت المصانع الماليزية القدرة على التطوير، بل والابتكار والمنافسة وإثبات وجودها في الأسواق المحلية والعالمية..

ولم تنس الحكومة المرأة الماليزية، والتي حصلت على نصيبها من التعليم كالرجل تمامًا. بل تقدم الحكومة قروضًا بدون فوائد لتمكين الآباء من إرسال بناتهم إلى المدارس وتوفير مستلزمات المدرسة، وتعطى الفقراء مساعدات مجانية لهذا الغرض..

وبالتوازي مع الاهتمام بالتعليم، فقد دخلت ماليزيا في التسعينيات مرحلة صناعية

(١) دراسة د. محمد شريف بشير، موقع إسلام أون لاين.

مهمة، وذلك حين شجعت الصناعات ذات التقنية العالية وأولتها عناية خاصة، وقد كان ذلك بعد أن توافر لديها جيل جديد من العمالة الماهرة المتعلمة، والمدربة بأحدث الوسائل، فأصبح في مقدورها إثبات وجودها، بل والمنافسة على الصدارة ..

ومن أبلغ ما يبين نجاح الأداء الاقتصادي لماليزيا في الفترة المهاتيرية، ذلك التوسع الذي حدث في استثمارات القطاع الصناعي، حيث أنشئ أكثر من ١٥ ألف مشروع صناعي، بإجمالي رأس مال وصل إلى ٢٢٠ مليار دولار، وقد شكلت المشروعات الأجنبية حوالي ٥٤٪ من هذه المشاريع، بما يوضح مدى الاطمئنان الذي يحمله المستثمر الأجنبي لماليزيا من ناحية الأمان، وبالتأكيد ضمان الربحية العالية، بينما مثلت المشروعات المحلية ٤٦٪ من هذه المشاريع..

وقد كان لهذه المشروعات عظيم الأثر والنفع على الشعب الماليزي؛ حيث وفرت مليوني وظيفة للمواطن الماليزي، إلى جانب الفائدة الكبرى المتمثلة في نقل التقنية الحديثة وتطوير مهارات العمالة الماليزية..

وقد بلغ عدد الشركات الأجنبية التي تستثمر أموالها في ماليزيا حوالي ٥ آلاف شركة، تساعدهم الدولة الماليزية بتنفيذ سياسة الصداقة مع رجال الأعمال والمستثمرين، والتي يقصد بها تسهيل الإجراءات المكتبية والإدارية، وزيادة الحوافز الاستثمارية، إضافة إلى وضوح القوانين وسهولة الإجراءات[١]..

كما تبنَّت ماليزيا العديد من مشروعات التقنية الحديثة بصورة لافتة للنظر، كان آخرها إطلاق ثالث قمر صناعي لها في عام ٢٠٠٤ مخصصًا للقارة الأفريقية في مرحلته الأولى، ثم يمتد إلى القارة الأوروبية والشرق الأوسط، ويحمل اسم (S.M.Sat) وهي التجربة الأولى التي تنفذها دولة آسيوية ..

أيضًا تحققت في فترة ولايته طفرة ملحوظة في مشروعات الاتصالات والمعلومات التي كانت تحظى باهتمام ودعم حكومته كعنصر مهم من عناصر خطته التنموية، وكان يسميه

(١) موقع إسلام أون لاين: ماليزيا... اليابان قدوتنا، الرابط
http://www.islamonline.net/arabic/economics/07/2003/article07b/shtml.

«الاقتصاد المعرفي». وبالفعل أصبحت ماليزيا محطة إقليمية وعالمية في مجال صنـ
الاتصالات والمعلومات والانترنت..

كما أقامت ماليزيا مدينة ذكية خاصة بالتكنولوجيا خارج العاصمة كوالالمبور، حيث
ترتبط هذه المدينة بشبكة اتصالات ذكية تخدم العاصمة المستقبلية لماليزيا، وتضم أضخـ
الشركات التكنولوجية في العالم وتسمى هذه المدينة «بوتراجايا»[1] ..

وبعد هذا السرد السريع والموجز لتجربة النهضة الماليزية، والتي يحق لأي مسلم أن يفخر
بها، وبعد أن بينّا قدر المعوقات التي واجهتها وكيف تغلبت عليها، بالعلم والعمل، يتضح
للجميع بما لا يدع مجالاً للشك أن العلم كان دائمًا هو العامل المشترك الذي أخذت به أي
دولة استطاعت تحقيق النجاح...

***

(١) عبد الرحيم عبد الواحد: مهاتير محمد عاقل في زمن الجنون، ٤٧٠.

المبحث الخامس
دور العلم في بناء الإمارات

تُعَدُّ دولةُ الإمارات العربية المتحدة من أكثر الدول العربية التي استطاعت لفت الانتباه في العقدين الأخيرين، لاسيما بمشاريعها النهضوية التي تصب بالأخصّ في المجال الاقتصادي، ولكنها تقوم في الأساس على الأخذ بأحدث وسائل العلم الحديث..

تقع دولة الإمارات في شرق الجزيرة العربية مُطِلَّةً على الخليج العربي، وتبلغ مساحتها ٣٨,٦٠٠ ألف كم٢، ويبلغ عدد سُكّان الإمارات والمقيمين فيها ٤,٤٤٤,٠١١ مليون نسمة حسب تقديرات عام ٢٠٠٧م[١]..

وقد استطاعت الإمارات تحقيق معدلات نمو جيدة في مختلف المجالات، ولكن ما حققته الإمارات في مجال التعليم وتكنولوجيا المعلومات يُعدُّ قفزةً هائلة؛ جعلتها إحدى مناطق التكنولوجيا المتطورة المعدودة على المستوى العالمي..

وخير شاهد على المكانة التي حققتها دولة الإمارات، والتقدير العالمي الذي حازته أنها تأتي في صدارة الدول العربية في أي تقرير عالمي يهتم بقياس معدلات النهوض لدى مختلف الدول، وعلى سبيل المثال فقد سبقت دولة الإمارات العربية المتحدة دولاً عربيةً كبرى مثل المملكة العربية السعودية ومصر في تقرير التنمية البشرية الصادر عن البنك الدولي لعدة سنوات، ولا شك أن السبب الرئيسي لهذا التفوق هو معدلات التنمية السريعة لدولة الإمارات..

لقد جاء في تقرير التنمية البشرية الصادر في عام ٢٠٠٦م أنَّ الإمارات تنفق على التعليم ما يعادل ٢٢,٥٪ من إجمالي النفقات الحكومية، كما بلغ عدد مستخدمي الانترنت ٣٢١ من كل ألف شخص في الإمارات[٢]..

وقصة اهتمام الإمارات بالعلم والتعليم ليست وليدة اليوم بل تعود إلى قديم الزمن،

---

(١) كتاب الحقائق الدولي الأمريكي، الرابط
https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook

(٢) تقرير التنمية البشرية عام ٢٠٠٦م، الرابط
http://hdr.undp.org/hdr2006/statistics/countries/data_sheets/cty_ds_ARE.htm

ولكنها كسائر الدول العربية لم تنمُ وتزدهر إلا بعد التخلُّص من المستعمر الأجنبي، ونستطيع أن نقسِّم تاريخ الاهتمام بالعلم في الإمارات إلى أربعة أنواع من النظم التعليمية، كان أولها نظام الكتاتيب الذي اعتمد في الأساس على تعليم العلم الشرعي مثل حفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية إلى جانب التدريب على الكتابة والخط والإلمام بأركان الإسلام.

أمّا النوع الثاني من أنواع التعليم فكان نظام تعليم الحلقات العلمية، وكان يمارسه عددٌ قليلٌ من الفقهاء والعلماء الذين توفَّرت لديهم معرفة واسعة في أصول العقيدة والفقه والتفسير والنحو والإملاء والتاريخ والدروس الدينية المختلفة، وكانت هذه الحلقات تُعقَد في زاوية أو رُكْن في أحد المساجد، أو يُخصَّص لها مكانٌ أو موضع معروف في بيت الفقيه نفسه، وقد شهدت مدن الإمارات العديد من أَرْوِقَة العلم التي قام بإحيائها علماءٌ كبار زاروا البلاد آنذاك، وجلسوا يعلمون الطلبة النابهين، وظلت الحلقات العلمية مصدرًا للعلم والفقه وقد تخرج فيها الرعيلُ الأول من رُوَّاد الإمارات.

وكان النوع الثالث هو النظام التعليمي شبه النظامي الذي ظهر خلال الفترة ما بين ١٩٠٧م إلى ١٩٥٣م، وكان السبب الرئيسي لوجود هذا النوع هو التأثر بحركات الإصلاح واليقظة التي شهدها العالم العربي، وفي هذه الفترة تم إنشاء العديد من المدارس، وقد شهدت هذه الفترة تأسيس أوّل دائرة للمعارف في الإمارات عام ١٩٣٦م في إمارة دبي، وقد ترأسها الشيخ مانع بن راشد آل مكتوم رائد حركة الإصلاح في الثلاثينيات.

والنوع الرابع والأخير من مراحل التطور التاريخي للتعليم في الإمارات هو التعليم النظامي الحديث، وهو المستمر حتى الآن. وقد تطور التعليم النظامي في الإمارات على مرحلتين: المرحلة الأولى كان الاعتماد فيها على الحكومات المحلية ودوائر المعارف التي تأسست خلال عقد الستينيات، أما المرحلة الثانية والتي تمثل الانطلاقة الكبرى للتعليم الإماراتي فبدأت منذ الثاني من ديسمبر عام ١٩٧١م وهو اليوم الذي أُعْلِنَ فيه عن قيام دولة الإمارات المتحدة[1]، حيث تأسست الوزارات الاتحادية، ومنها وزارة التربية والتعليم والشباب التي تولَّت مسئولية الإشراف على التعليم في مراحله المختلفة، وانتشرت خلال تلك الفترة المدارس الحكومية ذات الطراز المعماري الراقي، والمجهزة بأحدث الأجهزة والوسائل، واستقدمت الدولة البعثات التعليمية من مختلف

---

(١) د. محمد حسن عيدروس، الإمارات بين الماضي والحاضر ص٥٩، دار العيدروس للكتاب الحديث، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

البلدان العربية لتسهم في تطوير التعليم الحديث[1]..

وقد اعتمدت الدولة خلال فترة السبعينيات وثيقة الأهداف العامة الرئيسية للتنمية والتي جاءت شاملة للجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية؛ حيث تضمنت كل الطموحات سواء بالنسبة للفرد أو المجتمع، ومن أهم المباديء التي تضمنتها الوثيقة تشديدها على أنَّ الإنسان في دولة الإمارات هو الغاية، وإقرار كفالة التعليم للجميع، وكفالة الرعاية الصحية كذلك، والتأكيد على أهمية البحث العلمي، وذلك بالإضافة إلى تنمية القوى العاملة الوطنية، وتكوين الكوادر المدربة منها والقادرة على النهوض باحتياجات التنمية، والعمل على رفع مستوى الكفاية الإنتاجية، وتحقيق العرض المناسب للعمل دائمًا حسب مراحل النمو المختلفة..

وقد قامت الإمارات في هذه المرحلة بإقامة مراكز لتدريب المدرسين والإداريين والموظفين الفنيين، مع استحداث برامج تشارك فيها المدارس وأولياء الأمور، ووضع مناهج دراسية لا تكتفي بالتركيز على العلوم الأكاديمية فحسب. كما تَرَتَّب على هذه النهضة التعليمية أن تضاءلت النسبة بين عدد المدرسين إلى عدد الطلاب إلى مدرس لكل ١٢ طالبًا، وصار عدد المدارس ١١٠٥ مدرسة من بينها ٧١٠ مدارس حكومية، أمّا عدد الجامعات الحكومية والأهلية فقد بلغ ستَّ جامعاتٍ في عام ١٩٩٩م، وارتفع العدد إلى ثماني جامعاتٍ في عام ٢٠٠٦م[2]..

وقد باتت الإمارات تتصدر دول الشرق الأوسط جميعها في أهم مؤشرات التنمية، وتحديدًا في مجالات الاقتصاد والصحة والتعليم والتقنية والثقافة، فالملامح التنموية لدولة الإمارات تتغير شكلاً ومضمونًا على مدار الساعة، حيث لا يكاد يمر يوم دون الإعلان عن واحد أو أكثر من مشاريع التنمية والبناء الاقتصادي في الإمارات، التي استطاعت أن تطرح نفسها كتجربة اقتصادية ناجحة وفريدة في منطقة تموج بالصراعات السياسية والأمنية، رغم أن مجموع سكانها لا يتجاوز ٢٪ من إجمالي سكان العالم العربي، كما تخطط الإمارات لتصبح مركزًا إقليميًّا للاقتصاد العالمي، وتتجه لتحوز موقع الرِّيادة في مختلف الميادين الاقتصادية

---

(١) د.عبد الله الطابور، الموقع الرسمي لوزارة التربية والتعليم الإماراتية، الرابط
http://www.moe.gov.ae/newmoe/uae_edu_history/uae_history.htm

(٢) الموقع الرسمي لمجلس التعاون الخليجي، الرابط
http://library.gcc-sg.org/Arabic/Books/ArabicPublish-30.htm

والاستثمارية والصناعية والتكنولوجية والعلمية[1]..

وقد أَوْلَت دولة الإمارات العربية المتحدة الجانب الاستثماري اهتمامًا خاصًا باعتبار الأساس في التنمية الاقتصادية، وتوليد الدَّخْل وخلق فرص العمل، حيث تم خلال السنوات الماضية تخصيص نسبٍ عالية من الإيرادات العامة لتمويل عدد كبير من مشاريع التنمية، كما قامت الحكومة الاتحادية بالإمارات بتقديم الدعم والتسهيلات للقطاع الخاص في استثماراته وعملياته بهدف زيادة كفاءته في تنفيذ بعض المشروعات الاستثمارية التي اتسمت في أغلبها بالطابع التقني..

وإذا أردنا أن نعطي أمثلة على المشاريع التي تحمل طابعًا تقنيًّا، وتحتوي على تكنولوجيا عالية فلابد أن نذكر مدينة (دبيّ) للإنترنت[2]..

إنَّ فكرة مشروع مدينة دبي للإنترنت لم تنطلق من فراغ، بل كانت تعبر عن سياسة دولة تريد أن تخطو نحو المستقبل، فهذا المشروع ليس الأول من نوعه، بل يعمل جنبًا إلى جنب مع مشاريع أخرى مُكَمِّلة له مثل الحكومة الإلكترونية، وسوق دبي الإلكترونية التي بدأ العمل بها مع بداية عام ٢٠٠٠م..

وقد قُصِدَ بمدينة دبي للإنترنت أن تكون مركزًا للأنشطة والشركات المتعددة المرتبطة بصناعة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات ووسائط الإعلام المتعددة، ومشاريع الإنترنت والشركات المتخصصة في تقديم المساندة عن بُعْد، والمؤسسات التي تسعى إلى احتضان الأفكار الجديدة وتطويرها، بالإضافة إلى احتواء رؤوس الأموال المستثمَرَة في المشاريع الجديدة والشركات المهنية والمتخصصة وغيرها..

ولوضع هذا المشروع موضع التنفيذ وُضِعَت أهدافٌ واضحة ومحددة، منها:

١ - تجهيز بنية تحتية بمقاييس عالمية، ونظم اتصالات قادرة على استيعاب كمٍّ هائلٍ من المعلومات بسرعة عالية، كما يجب أن تكون هذه البنى التحتية آمنة تعتمد على آخر

---

(١) افتتاحية دراسة لمركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، الرابط

http://www.ecssr.ac.ae/CDA/ar/Publications/ShowAkbarAlSaahIssue/02432161800.html

(٢) الموقع الرسمي لمدينة دبيّ للانترنت، الرابط

http://www.dubaiinternetcity.com/

ما توصَّلَت إليه التكنولوجيا الحديثة وبتكلفة منخفضة.

٢- أن تكون المدينة متطورة وبمقاييس تنافسية، مع توفير المكاتب المجهزة بأحدث التسهيلات والوحدات السكنية ذات المستويات العالمية والمزودة بالمرافق الطبية والتعليمية [انظر صورة رقم ١٢].



صورة رقم ١٢

٣- استقطاب الكفاءات العالمية، والعمالة المدرَّبة.

٤- وضع قوانين وإجراءات مبسطة وميسرة وسريعة لتسجيل الشركات وغيرها من المعاملات الحكومية.

٥- خلق أجواء مشجعة، ومبادرات حكومية لدعم الأعمال الإلكترونية، ورعاية الأفكار الإبداعية والمشاريع الجديدة، وإنشاء صناديق لدعم المشاريع وبرامج التعليم الإلكترونية.

وتُعتبَر مدينة دبي للإنترنت، أول منطقة حُرَّة للتجارة الإلكترونية في العالم، وقد تم افتتاحها في ٢٨ من أكتوبر ٢٠٠٠م، وقد قُدِّرَت تكلفةُ إقامة هذا المشروع بـ٢,٥ مليار دولار، ويعمل فيه أكثر من ٥٠٠ شركة عالمية وإقليمية ومحلية من بينها مجموعة من الشركات العملاقة[1]..

(١) موقع النادي العربي للمعلومات، الرابط

http://www.arabcin.net/arabic/5nadweh/pivot_5/information_technic2.htm

كما تأسس في الإمارات في شهر ديسمبر عام ٢٠٠٠م المؤسسة العربية للعلوم والتكنولوجيا[١]، وتهدف المؤسسة إلى الارتقاء بالعلوم والتكنولوجيا في جميع أنحاء الوطن العربي، والاستفادة من الكفاءات العلمية وتشجيعها، وهي مؤسسة علمية مستقلة لا تهدف إلى الربح، ومقرها إمارة الشارقة، وتعمل المؤسسة على تحقيق أهدافها من خلال تشكيل شبكات علمية تخصصية من العلماء العرب، مع تشكيل شبكات داعمة تهيئ الغطاء المادي لدعم إنجاز المشاريع البحثية والتكنولوجية المتميزة في المؤسسات والمراكز البحثية داخل الوطن العربي، ومن أكثر الأبحاث التي شاركت فيها المؤسسة الأبحاث المتعلقة بحل مشكلتي الطاقة والمياه..

وقد جاء تأسيس المؤسسة بناءً على توصية المشاركين في الندوة حول «آفاق البحث العلمي والتطوير التكنولوجي في العالم العربي»، والتي نظمتها جامعة الشارقة بتاريخ ٢٤-٢٦ من نيسان/ إبريل ٢٠٠٠م، وشارك فيها ٣٧٥ عالمًا وعالمةً من داخل وخارج الوطن العربي، ويتألَّف مجلس إدارتها ومجلسها الاستشاري من كوكبة من العلماء العرب ذوي الإنجازات العلمية المتميزة على المستويين الوطني والعالمي..

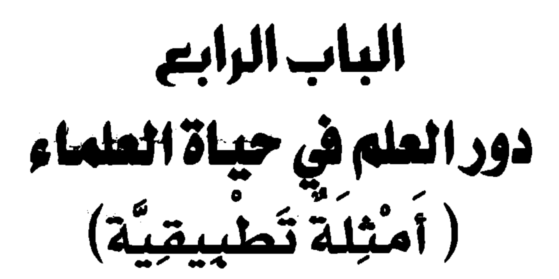
وتعتبر المؤسسة العربية للعلوم والتكنولوجيا هي أول منظمة ضمت العلماء العرب من داخل وخارج الوطن العربي بهدف الاستفادة من الخبرات العربية المحلية وتلك الموجودة في المهجر لخدمة العالم العربي والإنسانية عامة، وتتطلع المؤسسة أن تكون هيئة عربية ودولية مؤثرة، تدعم جهود العلماء والباحثين العرب، وتدافع عن مصالح الإقليم في التطور العلمي والتكنولوجي، مع العمل على توفير الحماية للإنسانية من التأثيرات السلبية المحتملة لذلك التطور، كما تسعى المؤسسة أيضًا إلى توطيد الصلات بين الجامعات ومراكز البحوث داخل وخارج الوطن العربي، كما تسعى إلى جذب الشركات والأفراد نحو توفير التمويل للأبحاث المنفَّذة في مراكز البحث والجامعات، وبالأخص في المجالات التي تُعتبَر حيوية بالنسبة للدول العربية[٢].

***

(١) الموقع الرسمي للمؤسسة العربية للعلوم والتكنولوجيا، الرابط

http://www.astf.net/site/arabic/index.asp.

(٢) المصدر السابق.



أمثلة ونماذج واقعية في حياة العلماء، نعرضها في الفصول التالية:

الفصل الأول: دور العلم في حياة علماء الشرع القدامى

الفصل الثاني: دور العلم في حياة علماء الحياة القدامى

الفصل الثالث: دور العلم في حياة علماء الشرع المعاصرين

الفصل الرابع: دور العلم في حياة علماء الحياة المعاصرين

الفصل الخامس: دور العلم في حياة العلماء غير المسلمين

الفصل الأول

دور العلم في حياة علماء الشرع القدامى

ويضم هذا الفصل المباحث التالية:

المبحث الأول: دور العلم في حياة الإمام البخاري.

المبحث الثاني: دور العلم في حياة الإمام الطبري.

المبحث الثالث: دور العلم في حياة الإمام النووي.

المبحث الرابع: دور العلم في حياة الإمام ابن تيمية.

المبحث الخامس: دور العلم في حياة الإمام ابن خلدون.

المبحث السادس: دور العلم في حياة الإمام السيوطي.

* * *

المبحث الأول
دور العلم في حياة الإمام البخاري

لأنه الدين الخاتم، ولأنه الدين الذي ارتضاه رب العالمين لعباده على الأرض، فقد تكفّل سبحانه بحفظه وإلى قيام الساعة، ومن ثَمَّ سخّر من خلقه من يَذُبّ عنه قرآنًا وسنةً..

وبالنسبة إلى السنة ممثلة في الحديث النبوي الشريف، فكونها المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، والمنهل البياني له في تفصيل الأحكام المجملة التي وردت فيه، وتقييد المطلق وتخصيص العام، وتأسيس الأحكام التي لم ينص عليها القرآن.. فقد انبرى لتدوينها وتمييز صحيحها من ضعيفها علماء أجلاء، علموا قيمة العلم، فبذلوا فيه جهدهم، ونذروا له نفوسهم ونفيسَهم..

اشترك في ذلك العرب وغير العرب، ولم تمنعهم أصولهم من أن يقوموا بدورهم على أكمل وجه، حتى في ذلك المجال الصعب..

وفي هذا السياق كان لنا أن نتوقف مع أمير أهل الحديث، الإمام الجليل والمحدث العظيم، **أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري**.. أمير أهل الحديث، وصاحب أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، والذي احتل مكانته في القلوب؛ حتى كان يقرأ في المساجد كما تُتلى المصاحف.. قال هو عنه: «ما وضعت في كتاب «الصحيح» حديثًا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين»، وقال أيضًا: «صنفت «الصحيح» في ست عشرة سنة، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى»[1].

إنَّ تاريخ الإسلام لم يشهد مثله في قوة الحفظ، ودقة الرواية، والصبر على البحث، **مع قلة الإمكانات**، حتى أصبح منارة في الحديث، وفاق أقرانه وشيوخه على السواء، بل فاق كل العرب مع كونه ليس عربيًّا..!!

البخاري.. تربيةُ أمٍّ صالحة:

كانت البداية في بُخارى (إحدى مدن أوزبكستان الآن)، وتحديدًا في ليلة الجمعة ١٣ من شوال، سنة ١٩٤هـ حيث ولادته – رحمه الله – [2]..

(١) أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ٢٤/ ٤٤٣،٤٤٩.

(٢) الذهبي: الكاشف ٢/ ١٥٦.

وقد عرفت أسرته الإسلام عن طريق جده «المغيرة بن بردذبة»، فكان أول من أسلم من أجداده، وكان إسلامه على يد والي بخارى «اليمان الجعفي»؛ ولذلك نُسِب إلى قبيلته، وانتمى إليها بالولاء، وأصبح «الجعفي» نسبًا له ولأسرته من بعده.

وكان قدر الله أن يموت والد البخاري وهو ما يزال طفلاً صغيرًا، لينشأ يتيمًا في حجر أمه، التي قامت على تربيته أحسن تربية.. لتُرِيَ أمهات المسلمين - والأرامل منهن خاصة - كيف تكون تربية الأبناء.. وما هو دور الأم في جهادها لرفعة الأمة والنهوض بها..؟!

لم تكن بداية البخاري الطفل ككل الأبناء؛ إذ ابتلاه الله ﷻ في صباه بفقدان بصره، ولكنَّ أمه الصالحة لم تنقطع صلتُها بربها، وكانت تتودد إليه ليل نهار، وهي تدعوه سبحانه راجية أن يرد على صبيها بصره.. ويشاء الله أن يسمع دعاءها، فيأتيها إبراهيم عليه السلام يبشرها في المنام يقول لها: «يا هذه، قد ردَّ الله على ابنك بصره لكثرة دعائك»!!

فأصبح البخاري وقد ردّ الله عليه بصره، بحسن صلة أمه بربها، وبركة دعائها له[1]..

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد أنعم الله ﷻ عليه وهو مازال في طفولته بالنجابة والذكاء، ووهبه سبحانه ذاكرةً قويّة، قلَّما وهبها غيرَه، حتى كان آية في الحفظ..

وقد زادت أمه من العناية به، وتعهدته بالرعاية والتعليم والصلاح، فكانت تدفعه إلى العلم وتحببه فيه، وتزين له أبواب الخير.. فنشأ البخاريُّ مستقيمَ النفس، متين الخلق، محبًا للعلم، مقبلاً على الطاعة.. حتى ما كاد يُتِمّ العاشرة إلا وكان قد حفظ القرآن الكريم، وبدأ يتردد على الشيوخ والمحدثين..

يقول محمد بن أبي حاتم: قلت لأبي عبد الله (البخاري): «كيف كان بدء أمرك؟ قال: أُلهِمتُ حفظ الحديث وأنا في المكتب (الكُتَّاب). فقلت: كم كان سِنُّك؟ فقال: عشر سنين أو أقل، ثم خرجت من المكتب بعد العشر، فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره، فقال يومًا فيما كان يقرأ للناس: سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم. فقلت له: إن أبا الزبير لم يروِ عن إبراهيم، فانتهرني، فقلت له: ارجع إلى الأصل، فدخل فنظر فيه ثم خرج فقال لي: كيف هو يا غلام؟ قلت: هو الزبير بن عدي عن إبراهيم، فأخذ القلم مني وأحكم (أصلح) كتابه، وقال

---

(١) ابن حجر: فتح الباري ١/ ٤٧٨.

صدقت. فقيل للبخاري: ابن كم كنت حين رددت عليه؟ قال: ابن إحدى عشرة سنة!![1].

وما كاد البخاري يبلغ السادسة عشرة من عمره حتى حفظ كتب ابن المبارك ووكيع، وغيرها من كتب الأئمة المحدّثين، حتى بلغ محفوظه آلاف الأحاديث وهو لا يزال غلامًا.. وكانت بخارى آنذاك مركزًا من مراكز العلم، تمتلئ بحلقات المحدِّثين والفقهاء[2].

رحلة العلم.. ومازال دور الأم:

في مرحلة جديدة.. وفي دور جديد لأمه في إحكام تربيته ونشأته.. أخذته وهو في سن السادسة عشرة هو وأخًا له يدعى أحمد إلى مكة للحج..

كانت فرصة عظيمة عند البخاري الصغير ليحج، ثم تتفتح له آفاقٌ أوسع من أبواب العلم ينهل منها.. وقد تمَّ له ذلك؛ فلما أدَّوا جميعًا مناسك الحج، تخلَّف هو لطلب الحديث والأخذ عن الشيوخ، ورجعت أمه وأخوه إلى بخارى[3]..

وعلى ما يبدو؛ فإن أمه هي التي كانت صاحبة هذه الفكرة، في أن يحج، ثم يظل يأخذ العلم بلسان العرب ومن منبعه وروافده الأول.. فهي بصدد إعداده لا ليرجع فيعلم قومه وأهل بلده فقط، وإنما ليعود فيُعلِّم الدنيا..

وفي الحرمين الشريفين، كانت بداية رحلة البخاري في طلب العلم، وقد ظل بهما ستة أعوام، ينهل من الشيوخ والعلماء، انطلق بعدها متنقلاً بين حواضر العالم الإسلامي.. يجالس العلماء ويحاور المحدِّثين، ويجمع الحديث، ويعقد مجالس للتحديث، ويتكبد مشاق السفر والانتقال.. لم يترك حاضرة من حواضر العلم إلا نزل بها وروى عن شيوخها، وربما حلَّ بالبلد الواحد مرات عديدة، يغادره ثم يعود إليه مرة أخرى..

وكان من الحواضر الإسلامية التي نهل منها وأخذ من شيوخها غير مكة والمدينة، بغداد وواسط، والبصرة، والكوفة، ودمشق، وقيسارية، وعسقلان، وخراسان، وبلخ، ونيسابور، ومرو، وهراة، ومصر، وغيرها..

وفي مثال يدل على عجب أقرانه منه وهو خارج موطنه، يقول محمد بن أبي حاتم الوراق:

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/ ٦،٧. (٢) المصدر السابق ٢/ ٦،٧.

(٣) ابن حجر: فتح الباري ١/ ٤٧٨.

سمعت حاشد بن إسماعيل وآخر يقولان: «كان أبو عبد الله البخاري يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلام فلا يكتب، حتى أتى على ذلك أيام، فكنا نقول له: إنك تختلف معنا ولا تكتب، فما تصنع؟ فقال لنا يومًا بعد ستة عشر يومًا: إنكما قد أكثرتما عليّ وألححتما، فاعرضا عليّ ما كتبتما، فأخرجنا إليه ما كان عندنا، فزاد على خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلها عن ظهر قلب، حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه، ثم قال: أترون أني أختلف هدرًا وأضيع أيامي؟! فعرفنا أنه لا يتقدمه أحد»[1].

وعن رحلاته في طلب العلم يقول البخاري: «دخلت إلى الشام ومصر والجزيرة مرتين، وإلى البصرة أربع مرات، وأقمت بالحجاز ستة أعوام، ولا أحصي كم دخلت إلى الكوفة وبغداد»[2].

فلم يكن غريبًا إذن أن يزيد عدد شيوخه عن ألف شيخ من الثقات الأعلام!! وتراه هو يعبر عن ذلك فيقول: «كتبت عن ألف شيخٍ وأكثر، ما عندي حديث إلا أذكر إسناده»!![3]

ويحدد عدد شيوخه فيقول: «كتبت عن ألف وثمانين نفسًا، ليس فيهم إلا صاحب حديث، كانوا يقولون الإيمان قول وعمل يزيد وينقص»[4].

وكان من شيوخه المعروفين والذين روى عنهم: أحمد بن حنبل، ويذكره البخاري فيقول: «قال لي في آخر ما ودَّعته: يا أبا عبد الله، تدع العلم والناس وتصير إلى خراسان؟ قال: فأنا الآن أذكر قوله. وكان من شيوخه أيضًا يحيى بن معين، وإسحاق بن راهويه، وعلي بن المديني، وقتيبة بن سعيد، وأبو بكر بن أبي شيبة، وأبو حاتم الرازي، وغيرهم[5]..

البخاري.. منهج خاص:

كان للبخاري منهج خاص في حياته كلها، وبالأخص في العلم وتدوين الحديث.. فقد ظل ستة عشر عامًا يجمع الأحاديث الصحاح في دقة متناهية، وعمل دؤوب، وصبر على البحث، وتَحَرٍ للصواب، قلما توافر لباحث قبله أو بعده، وكان بعد كل هذا لا يدون الحديث إلا بعد أن يغتسل ويصلي ركعتين!!

---

(١) ابن حجر: فتح الباري ١/ ٤٧٨.

(٢) السابق ١/ ٤٧٨.

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٢/ ٥٨.

(٤) ابن حجر: فتح الباري ١/ ٤٧٩.

(٥) السابق: ١/ ٤٧٨، ٤٧٩.

وقد بات عنده أحد تلامذته ذات ليلة، فأحصى عليه أنه قام وأسرج يستذكر أشياء يعلقها في ليلة ثماني عشرة مرة!!

وقال محمد بن أبي حاتم الوراق: كان أبو عبد الله إذا كنت معه في سفر يجمعنا بيت واحد إلا في القيظ أحيانًا، فكنت أراه يقوم في ليلة واحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة، في كل ذلك يأخذ القداحة فيوري (يشعل) نارًا ويسرج، ثم يخرج أحاديث فيعلم عليها[1].

وروي عن البخاري أنه قال: لم تكن كتابتي للحديث كما كَتَبَ هؤلاء؛ كنت إذا كتبت عن رجل سألته عن اسمه وكنيته ونسبته، وحمله الحديث إن كان الرجل فهمًا، فإن لم يكن سألته أن يخرج إلى أصله ونسخته..

وكان العباس الدوري يقول: ما رأيت أحدًا يحسن طلب الحديث مثل محمد بن إسماعيل، كان لا يدع أصلاً ولا فرعًا إلا قلعه، ثم قال لنا: لا تدعوا من كلامه شيئًا إلا كتبتموه!

وكان من كلامه – رحمه الله-: «ما جلست للحديث حتى عرفت الصحيح من السقيم، وحتى نظرت في عامة كتب الرأي، وحتى دخلت البصرة خمس مرات أو نحوها، فما تركت بها حديثًا صحيحًا إلا كتبته، إلا ما لم يظهر لي»[2].

وقال بكر بن منير: سمعت أبا عبد الله البخاري يقول: أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحدا، قلت: صدق – رحمه الله-، ومن نظر في كلامه في الجرح والتعديل علم ورعه في الكلام في الناس وإنصافه فيمن يضعفه؛ فإنه أكثر ما يقول: مُنْكر الحديث، سكتوا عنه، فيه نظر ونحو هذا، وقَلَّ أن يقول: فلان كذاب أو كان يضع الحديث، حتى إنه قال: إذا قلت: فلان في حديثه نظر، فهو مُتَّهمٌ واه، وهذا معنى قوله: «لا يحاسبني الله أني اغتبت أحدًا»، وهذا هو – والله – غاية الورع[3].

البخاري.. مؤلفات في محراب العلم:

بعد أن تهيأت له الأسباب، من موهبة الذكاء، وقوة الحافظة، والصبر على العلم، والمثابرة في تحصيله، والمعرفة الواسعة بالحديث النبوي وأحوال رجاله، من عدل وتجريح،

(١) أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ٢٤/ ٤٤٧.
(٢) ابن حجر: فتح الباري ١/ ٤٨٨.
(٣) أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ٢٤/ ٤٤٦.

وخبرة تامة بالأسانيد؛ صحيحها وفاسدها.. كان له أن يكثر من التأليف والتصانيف، والتي ما برحت تخلد اسمه في سماء العلم، وقد بدأ هذا الطريق وهو في الثامنة عشرة من عمره!!

وقد صنَّف البخاري – رحمه الله – ما يزيد على عشرين مصنفًا، منها: «الأدب المفرد» و«التاريخ الكبير»، وهو كتاب كبير في التراجم، رتب فيه أسماء رواة الحديث على حروف المعجم، و«التاريخ الصغير»، وهو تاريخٌ مختصرٌ للنبي ﷺ وأصحابه ومن جاء بعدهم من الرواة إلى سنة ٢٥٦هـ = ٨٧٠م، و«خلق أفعال العباد»، و«رفع اليدين في الصلاة»، و«الكُنى»، وغيره.

غير أن أشهر كتبه، بل أشهر كتب الحديث النبوي قاطبة، هو كتابه «الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه»، وهو المعروف بـ«الجامع الصحيح» أو «صحيح البخاري»، ويُعدُّ أول كتاب صُنِّفَ في الحديث الصحيح المجرّد، وقد قال فيه الإمام البخاري: ما أدخلت فيه حديثًا إلا بعدما استخرت الله تعالى، وصليت ركعتين، وتيقنت صحّته[1].

وقد بذل فيه البخاري جهدًا خارقًا، واستمر في تأليفه وجمعه وترتيبه وتبويبه ستة عشر عامًا، هي مدة رحلته الشاقة في طلب الحديث.

ويذكر البخاري السبب الذي جعله ينهض إلى هذا العمل، فيقول: كنت عند إسحاق بن راهويه، فقال: لو جمعتم كتابًا مختصرًا لصحيح سنة رسول الله ﷺ؛ فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع «الجامع الصحيح»[2].

وقال أيضًا: رأيت رسول الله ﷺ وكأنني واقف بين يديه وبيدي مروحة أذب عنه، فسألت بعض المعبِّرين، فقال لي: أنت تذبّ عنه الكذب؛ فهو الذي حملني على إخراج «الجامع الصحيح»[3].

وقد ابتدأ البخاري تأليف هذا الكتاب في المسجد الحرام والمسجد النبوي، ولم يتعجل إخراجه للناس بعد أن فرغ منه، ولكن عاود النظر فيه مرة بعد أخرى، وتعهده بالمراجعة والتنقيح؛ ولذلك صنَّفه ثلاث مرات حتى خرج على الصورة التي عليها الآن.

ويحوي الكتاب ٧٢٧٥ حديثًا، اختارها البخاري من بين ستمائة ألف حديث كانت تحت

---

(١) ابن حجر: فتح الباري ١/ ٤٨٩.

(٢) أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ٢٤/ ٤٤٢.

(٣) السيوطي: تدريب الراوي ١/ ٨٨.

يديه؛ لأنه كان مدقِّقًا في قبول الرواية، وكان قد اشترط شروطًا خاصة في قبول رواية راوي الحديث، وهي أن يكون معاصرًا لمن يروي عنه، وأن يكون قد سمع الحديث منه، إلى جانب: الثقة، والعدالة، والضبط، والإتقان، والعلم، والورع!!

وقد استحسن شيوخ البخاري وأقرانه من المحدِّثين كتابه هذا بعد أن عرضه عليهم، وكان منهم جهابذة الحديث، مثل: الإمام أحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، ويحيى بن معين؛ وقد استحسنوه وشهدوا له بصحة ما فيه من الحديث، إلا في أربعة أحاديث!! قال العقيلي: والقول فيها قول البخاري، وهي صحيحة!! ثم تَلَقَّته الأمة بعدهم بالقبول باعتباره أَصَحَّ كتاب بعد كتاب الله تعالى[1].

وتلقف الكتاب علماء أجلاء بالشرح والتعليق والدراسة، بل امتدت العناية به إلى العلماء من غير المسلمين؛ حيث دُرس وتُرجم، وكُتبت حوله عشرات الكتب.

وكان من أشهر شروح صحيح البخاري: **«أعلام السنن»** للإمام أبي سليمان الخطابي (ت ٣٨٨هـ)، و**«الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري»** لشمس الدين الكرماني (ت ٧٨٦هـ / ١٣٤٨م)، و**«فتح الباري في شرح صحيح البخاري»** للحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م)، و**«عمدة القاري شرح صحيح البخاري»** لبدر الدين العيني (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م)، **«إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري»** للقسطلاني (ت ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م).

البخاري.. عرفانٌ بالجميل:

تبوأ البخاري – رحمه الله- مكانة عالية ومنزلة رفيعة في العلم وبين العلماء، وقد شهد له العلماء والمعاصرون له بذلك، حتى إنهم لقَّبوه بأمير المؤمنين في الحديث.. وهي أعظم درجة ينالها عالم في الحديث النبوي، وقد أثنوا عليه ثناءً عاطرًا..

فيقول عنه ابن خزيمة: **«ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من محمد بن إسماعيل البخاري»**[2].

وقال أبو جعفر: سمعت يحيى بن جعفر يقول: «لو قدرت أن أزيد في عمر محمد بن إسماعيل من عمري لفعلت؛ فإن موتي يكون موت رجل واحد، وموته ذهاب العلم»[3]!!

---

(١) ابن حجر: فتح الباري ١/ ٧.

(٢) ابن حجر: فتح الباري ١/ ٤٨٥.

(٣) أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ٢٤/ ٤٦٠.

وقال قتيبة بن سعيد: «جالست الفقهاء والعبّاد والزهّاد؛ فما رأيت منذ عقلت مثل محمد بن إسماعيل، وهو في زمانه كعمر في الصحابة»[1].

وقال أبو عيسى الترمذي (صاحب جامع الترمذي): «لم أرَ بالعراق ولا بخراسان في معنى العلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد أعلم من محمد بن إسماعيل».

وقد قبّله تلميذه النجيب «مسلم بن الحجاج» (صاحب صحيح مسلم) بين عينيه، وقال له: «دعني أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذِين، وسيد المحدِّثين، وطبيب الحديث في علله»[2].

البخاري.. مِحَنة العلماء:

على الرغم من تلك المكانة العظيمة، وهذه المنزلة العالية الرفيعة للبخاري، والتي جعلها الله فقط للعلماء، إلا أن ذلك لم يكن يمنع غِيرة الحاسدين أو حقد الحاقدين؛ إذ هي سنة الله في خلقه، والنفس تأبى على من يعلوها إلا من عصم ربي..

فبعد رحلته الطويلة الشاقة، والتي لقي فيها الشيوخ ووضع مؤلفاته العظيمة، وقد ذاع صيته بين الناس.. رجع البخاري إلى نيسابور للإقامة بها، إلا أن بعض العلماء غيرة وحسدًا سعوا به إلى والي المدينة، وألصقوا به تهمًا مختلقة، مما اضطروه إلى أن يغادر نيسابور إلى مسقط رأسه بخارى، وهناك استقبله أهلها استقبال الفاتحين؛ فنُصبت له القباب على مشارف المدينة ونُثرت عليه الدراهم والدنانير.

ولأنها سنة قائمة؛ فلم يكد يستقر البخاري في موطنه الأصلي حتى طلب منه أميرها «خالد بن أحمد الذهلي» أن يأتي إليه ليُسمعه الحديث؛ فقال البخاري لرسول الأمير بعزة العالِم: «قل له إنني لا أُذِلُّ العلم، ولا أحمله إلى أبواب السلاطين، فإن كانت له حاجة إلى شيء فليحضرني في مسجدي أو في داري، فإن لم يعجبك هذا فأنت سلطان، فامنعني من المجلس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة أني لا أكتم العلم»[3].

وبعزة مضادة آثمة، ما كان من الحاكم إلا أن أخذ يحرض عليه ويسيء إليه، وقد أغرى

---

(١) ابن حجر: فتح الباري ١/ ٤٨٢.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٦.
(٣) أبو الحجاج المزي: تهذيب الكمال ٢٤/ ٤٦٤.

بعض السفهاء ليتكلموا في حقه، ويثيروا عليه الناس، وفي نهاية الأمر قام بنفيه من المدينة (بخارى) إلى «خرتنك»!!

وفي **«خرتنك»** (من قرى سمرقند، وتعرف الآن بقرية **«خواجة صاحب»**) ظل البخاري بعيدًا عن وطنه، صابرًا على محنته، حتى توفاه الله ﷺ في ليلة عيد الفطر المبارك ٣٠ رمضان ٢٥٦هـ/ ٣١ أغسطس ٨٦٩م.. مخلِّفًا علمًا ونورًا تستضيء به الإنسانية، وتظل تنهل منه، وتُعَوِّل عليه، إلى يوم القيامة[1]، فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

* * *

(١) الذهبي: الكاشف ٢/ ١٥٦.

المبحث الثاني
دور العلم في حياة الإمام الطبري
[٢٢٤هـ - ٣١٠هـ = ٨٣٨ - ٩٢٢م]

ميلاده ونشاته:

هو «أبو جعفر» محمد بن جرير الطبري، وُلِدَ بطبرستان في آخر سنة ٢٢٤هـ[1]. حفظ القرآن وله سبع سنين، وصلَّى بالناس وهو ابن ثماني سنين، وكتب الحديث وهو في التاسعة ثم ارتحل إلى الرَّي، ثم إلى بغداد ليأخذ العلم على أحمد بن حنبل؛ إلا أن الإمام أحمد مات قبل أن يصل الطبري إلى بغداد، فاتجه إلى البصرة فأخذ عن شيوخها، ثم انتقل إلى واسط فالكوفة، ثم رجع إلى بغداد مرة أخرى، ثم رحل إلى مصر سنة ٢٥٣هـ واجتمع بمحمد بن إسحاق بن خزيمة، العالم المؤرّخ، ثم عاد إلى بغداد بعد رحلة طويلة وانقطع للدرس والتأليف.

تلامذته:

لم يحصر الطبري نفسه بين الجدران والكتب، ولم يبتعد عن الحياة والمجتمع والأمة، ولكن كان منفتحًا على الحياة؛ يُفْتي الناس، ويُمْلي على طلابه وتلامذته، ويُقْرئ القرآن والقراءات ويُحدِّث بآثار رسول الله ﷺ، ويُصَلي بالناس إمامًا، ويُنَاظر الأئمة.. لذلك لا ينحصر إنتاجه في كتبه ومصنفاته، بل يشمل طلابه وتلامذته وأتباعه ومواقفه..

ومن أشهر تلامذته:

القاضي أبو بكر بن كامل؛ أجلّ أصحاب الطبري، وكان يتفقّه على مذهب أبي جعفر الطبري[2]، وكتب عدَّة كتب على مذهبه، وهارون بن عبد العزيز (أهم رواة كتب الطبري). وابن بشار الأَحْوَل (أستاذ ابن سريج)[3]..

---

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ١٨/ ٤٨. (٢) المصدر السابق ١٨/ ٥٤.

(٣) انظر: ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ٣/ ١٢١.

ومن تلامذته في الفقه:

أبو الفرج المعافي (المعروف بابن الطرَّار) وقد شرح كتاب «الخفيف» للطبري[1]، وعلي بن عبد العزيز الدولابي، وأبو بكر بن أبي الثلج الكاتب، وأبو القاسم بن العرَّاد، وأبو محمد بن جعفر الفرغاني، وله كتاب «الذيل على تاريخ الأمم للطبري»[2].

ومن تلامذته في الحديث:

قاضي الكوفة أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة البغدادي، وسليمان اللخمي الشامي، وأبو شعيب الحرَّاني، ومحمد بن أحمد بن سنان، والفقيه المحدِّث محمد بن شعيب النيسابوري، ومخلَّد بن جعفر الباقرحي، والقاضي أبو بكر المايَنجي[3].

إسهاماته العلمية:

كان الطبري ذكيًّا نابغة، سريع الحفظ، ذا قدرةٍ هائلة على التعلُّم؛ فقد حدَّث عن نفسه؛ فقال: «جاءني يومًا رجلٌ فسألني عن شيء في علم العروض، ولم أكن نشطتُ له قبل ذلك؛ فقلت له: إذا كان غدًا فتعال إليَّ»، وطلب سِفْرَ العروض للخليل بن أحمد، فجاءوا له به فاستوعبه وأحاط بقواعده وكُلِّياته في ليلة واحدة، يقول: «فأمسيت غير عروضي، وأصبحت عروضيًّا»[4].

ولم يقتصر الطبري على فن أو علم واحد، بل جمع مختلف العلوم الشرعية واللغوية وغيرها، وكان إمامًا فيها؛ فكان إمامًا في السنة وعلوم الحديث، وعدَّه النووي – رحمه الله- من طبقة الترمذي والنسائي، وسمع الحديث من كثيرين، بعضهم من شيوخ البخاري ومسلم.

وكان الطبري – كذلك - إمامًا في القراءات وعلوم القرآن، صنَّف فيها، وتعمَّق في دراسة التفسير، وصنَّف تفسيره، وضمَّنه علوم القرآن، حتى اعتُبِرَ إمامَ المفسرين وشيخهم.

وكان إمامًا في الفقه، وعلم الخلاف، والفقه المقارن، واختلاف العلماء، وكان من الأئمة

---

(١) ابن النديم: الفهرست ص ٣٢٨، ٣٢٩.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧١، ١٦/ ١٣٢، فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي ١/ ٢/ ١٦٤، تاريخ الأدب العربي ٣/ ٤٧.

(٣) (أبو بكر) يوسف بن القاسم المايَنجي (ت ٣٧٥هـ)، قاضي دمشق، ومُسند الشام في وقته.

(٤) المصدر السابق نفسه ١٨/ ٥٦.

المجتهدين، وصاحب مذهب مستقل، وتبعه بعض الناس على مذهبه، وصنف كتبًا في الفقه العام، والفقه المقارن، والفقه المذهبي.

ويُعَدُّ إمامًا في علم التاريخ، وهو شيخ المؤرخين، وله فيه كتب عظيمة.

كما كان مبرَّزًا في علوم العربية؛ من المعاني واللغة والنحو والصرف والعروض والبيت وكان عالمًا بالفلسفة والمنطق والجدل، وكان عنده شيء من الطب والجبر والرياضيات، ونـ نَظْمٌ وشعر.

وكان عالمًا بأصول الدين والتوحيد وعلم الكلام، وله كتب في ذلك.

وكان عالمًا بالحديث، فهو حافظ مُحَدِّث، وصَنَّفَ كتبًا في علم الحديث ومصطلحه والتزم بمنهج المحدِّثين في معظم كتبه.

وكان عالمًا بأصول الفقه وقواعد الاجتهاد والاستنباط، وصنَّف فيه وعمل به.

وكان عالمًا بآداب النفس وعلم الأخلاق والتربية، وصنف فيها[1].

من مؤلَّفات الطبري[2]:

تدلُّ مؤلَّفات الطبري على غزارة علمه، وسَعَة ثقافته، ودقته في اختيار العلوم الشرعية والأحكام المتعلقة بها، وطول نَفَسِه، وصبره على البحث والدرس؛ فقد ذكر الخطيب في تاريخه أنَّ محمد بن جرير مكث أربعين سنة يكتب في كل يومٍ منها أربعين ورقة[3]، ومن أشهر هذه المؤلَّفات:

١ - «جامع البيان عن تأويل القرآن» المعروف بتفسير الطبري، قال السيوطي عن تفسير

---

(١) محمد الزحيلي: الإمام الطبري ص ٤٦ - ٤٧.

(٢) لمعرفة مؤلفات الطبري؛ انظر: ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٨/ ٤٢ وما بعدها، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/ ١٦، طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٢١، تذكرة الحفاظ ٢/ ٧١١، مفتاح السعادة ١/ ٤١٦، ٢/ ٢٦ تاريخ التراث العربي ١/ ٢/ ١٦٢، تاريخ الأدب العربي ٣/ ٤٥ وما بعدها، كشف الظنون ١/ ٦٤، ٣٠٣، إنباه الرواة ٣/ ٩٠، الطبري للحوفي ص٨٩، الفهرست ص٣٢٦، الطبري للمصلح ص ٣٨، الطبري للزحيلي ص٥١ وما بعدها.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/ ١٦٣.

الطبري: «وكتابه أجلُّ التفاسير وأعظمها»[1]، وقال النووي: «أجمعت الأمة على أنه لم يُصنَّف مثل تفسير الطبري»[2]، وقال أبو حامد الإسفراييني: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل نه كتاب تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيرا».[3]

٢- «تاريخ الأمم والملوك» المعروف بتاريخ الطبري.

٣- «اختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع الإسلام» المعروف بـ«اختلاف الفقهاء»، وهو في علم الخلاف.

٤- «تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار»، وسمّاه القفطي: «شرح الآثار»، وهو كتاب في الحديث.

٥- «آداب القضاة»، وهو في الفقه عن أحكام القضاء وأخبار القضاة.

منهجه العلمي والفكري:

منهجه في التفسير:

لم يُقدِم الطبري على تفسير كتاب الله تعالى إلا بعد نضوج الفكر، واكتمال العقل، وتحصيل العلوم، والتزود بآلات التفسير ووسائله، ولم يكن ليفسِّر القرآن بمجرد الهوى والتَّشهِّي والرأي، بل سار على منهجٍ واضحٍ وخطةٍ حكيمة، وفوق ذلك فقد رسم الخطوط العريضة لتفسير القرآن الكريم، ووضع القواعد الصحيحة، واستنَّ القوانين الحكيمة، ووضع السياج الأمين للحفاظ على مقاصد الشريعة.

وقد قدَّم الطبري مقدمة مستفيضة لكتابه، تحتوي أصول التفسير في الإسلام؛ ليلتزم بها بنفسه، ويرسم الطريق لمن يأتي بعده، ويحدّد الحدود لتناول كتاب الله تعالى؛ وقد عرض الطبري منهجه بإيجاز، بعد أن بيَّن فضل محمد بالنبوة والمعجزات، وفَضْل الله على هذه الأمة بحفظ كتابها ومعجزة نبيها، ثم بيَّن فَضْل العناية بكتاب الله، ثم قال: «ونحن في شرح تأويله، وبيان ما فيه من معانٍ مُنشِئون كتابًا مستوعبًا، لكل ما بالنَّاس إليه الحاجة من علمه جامعًا، ومن سائر الكتب غيره في ذلك كافيًا، ومخبرون في كل ذلك، بما انتهى إلينا من اتفاق الحُجَّة فيما اتفقت عليه الأمة، واختلافها فيما اختلفت فيه منه، ومبينو عِلَل كلِّ مذهب من مذاهبهم،

---

(١) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن ٢/ ١٨٦.

(٢) النووي: تهذيب الأسماء ١/ ٧٨.

(٣) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٨/ ٤٢.

وموضحو الصحيح لدينا من ذلك، بأوجز ما أمكن من الإيجاز في ذلك، وأخصر ما أمكن من الاختصار فيه»[1]، ثم شرع الطبري بتفصيل منهجه في أصول التفسير مع ذكر الأدلة الشرعية واللغوية، وضرب الأمثلة العملية من القرآن الكريم والسنة وكلام العرب واللغة والشِّعر[2].

وتفسير الطبري ذو منهج خاص، يذكر فيه الآية أو الآيات من القرآن، ثم يَعقُبُها بذكر أشهر الأقوال التي أُثِرَت عن الصحابة والتابعين في تفسيرها، ثم يُورد بعد ذلك روايات أخرى متفاوتة الدرجة في الثقة والقوة في الآية كلِّها أو بعض أجزائها، بناءً على خلافٍ في القراءة، أو اختلافٍ في التأويل، ثم يعقِّب كل ذلك بالترجيح بين الروايات، واختيار أولاها بالتقدمة، وأحقّها بالإيثار، ثم ينتقل إلى آية أخرى، فينهج نفس النهج عارضًا ثم ناقدًا ثم مُرجّحًا؛ وهو إذ ينقد أو يرجّح، يردُّ النقد أو الترجيح إلى مقاييس تاريخية من حال رجال السند في القوة والضعف، أو إلى مقاييس علمية وفنية: «من الاحتكام إلى اللغة التي نزل فيها الكتاب، نصوصها وأقوال شعرائها، ومن نقد القراءة وتوثيقها أو تضعيفها، ومن رجوع إلى ما تقرَّر بين العلماء من أصول العقائد، أو أصول الأحكام أو غيرهما من ضروب المعارف التي أحاط بها ابن جرير، وجمع فيها مادة لم تجتمع لكثير من غيره من كبار علماء عصره»[3].

وبعد أن بين الطبري ذلك وضع قواعد التفسير، وأصول التأويل، وحذَّر من التفسير بالرأي، والتلاعب في كلام الله تعالى بحسب الأهواء والأغراض، وأورد الأحاديث الكثيرة بأسانيدها في تحريم ذلك، وتجنَّب التفسير بالرأي المجرّد، وقال: «إن ما كان من تأويل آي القرآن الذي لا يُدْرَك علمه إلا بنص بيان رسول الله ﷺ، أو بنصبه الدلالة عليه، فغير جائز لأحد القيل فيه برأيه؛ لأن إصابته ليست إصابة مُوقن أو محقٍّ، وإنما هو إصابة خارِصٍ وظانّ، والقائل في دين الله بالظن قائل على الله ما لم يعلم، وقد حرَّم الله ذلك»[4].

ويلتزم الطبري بما اتفق عليه المسلمون في درجات التفسير؛ فيلجأ أولاً إلى تفسير القرآن بالقرآن، ثم إلى تفسيره بالسُّنة البيانية وما ثبت عن رسول الله ﷺ، ثم يُتْبِعُ ذلك بالآثار الواردة عن الصحابة رضوان الله عليهم، وعن التابعين..

---

(١) الطبري: جامع بيان تأويل آي القرآن ١/ ٥. (٢) محمد الزحيلي: الإمام الطبري ص١٢٠.

(٣) انظر: كلمة (الناشر) أ. محمد محمود الحلبي: الطبعة الثالثة، تفسير الطبري ١/ ٤.

(٤) الطبري: جامع البيان في تأويل آي القرآن ١/ ٣٥.

منهجه في التاريخ:

يُعتبَر الطبريُّ أبا التاريخ، وهو عمدة المؤرخين عند العرب والمسلمين، وهو أوّل مؤرِّخ وصل إلينا كتابه العام والكامل في التاريخ، ويَعتمِدُ عليه كل من كتب في التاريخ على الإطلاق، وكان ثقة في نقله[1].

وللطبري في التاريخ كتابان:

تاريخ الأمم والملوك:

ويسمى أيضًا التاريخ الكبير[2]، وذكره ياقوت الحموي باسم «تاريخ الرسل والأنبياء والملوك والخلفاء»[3]، ويُعرَف بتاريخ الطبري، وبه اشتهر ولمع صيته، وفرغ منه في (٢٧ ربيع الأول ٣٠٣هـ)[4]، وقد وصل تاريخ الطبري إلى قمة التأليف التاريخي عند العرب والمسلمين في القرون الثلاثة الأولى، وتظهر أهمية الكتاب في كونه[5]:

- أوّلَ كتاب في التاريخ العام، وأقدم مصدر كامل للتاريخ العربي واللغة العربية منذ أوائل الزمان إلى أول القرن الرابع الهجري؛ وحافلاً بالنصوص الأدبية وتراجم الشعراء والخطباء وغيرهم..

- جمعَ الكثير من أخبار العرب في الجاهلية وحفظها من الضياع، وأرَّخ للقرون الأولى في الإسلام.

- ذَكرَ تاريخ الفرس، وتاريخ الرومان بدقة شديدة.

- مصدرًا لمن جاء بعده من المؤرِّخين، مثل مسكويه (٤٢١هـ)، وابن الأثير (٦٣٠هـ)، وابن خلدون (٨٠٨هـ).

تاريخ الإسلام:

وقد عرضه بناءً على منهج محدد، تتلخص معالمه فيما يلي[6]:

---

(١) مفتاح السعادة ١/ ٢٥٣، وابن خلكان: فيات الأعيان ٣/ ٣٣٢.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٨/ ٦٨.

(٣) المصدر السابق ١٨/ ٤٤.

(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/ ١٦٣.

(٥) محمد الزحيلي: الإمام الطبري ٢٠٧ وما بعدها.

(٦) السابق: ص٢٣١- ٢٣٨ باختصار وتصرُّف.

- نظام الحوليات؛ الترتيب الزمني للأحداث عامًا بعد عام.
- نقل الروايات؛ سواء كانت موافقة لرأيه أم لا، مع ذكر السند موصولاً كما في الحديث.
- الاعتماد على المصادر التي صُنِّفت قبله، وجمع الأخبار وضبط النصوص؛ فيـ[illegible] أحداث كل سنة في شكل أخبار، ويذكر للحادثة الواحدة رواياتٍ مختلفة.
- الاستطراد في ذكر الأسباب والتفصيلات المصاحبة، ووضع العناوين للأحد[illegible] وخاصة الأحداث المهمة، والتوسع في سيرة الخلفاء؛ بإعطائهم أولوية خاصة وأ[illegible] متميزة.
- الإكثار من الوثائق التاريخية؛ لذا اعتبر تاريخه أوثق مصادر التاريخ الإسلامي[illegible] وتسجيل النصوص الأدبية؛ كالشعر والخطابة والرسائل والمحاورات ذات الصلة
- الحياد والواقعية؛ لورعه وتقواه ودقته، والجرأة في العرض؛ حيث عرض حوادث [illegible] تُرضي العباسيين، وهم الخلفاء في عصره(٢).

منهجه في الفقه:

كانت شخصية الطبري الفقهية أقوى وأشهر وأرسخ من شخصيته كمُفسِّر أو مُؤرِّ[illegible] وقد عاش مع الفقه، ومارس الاجتهاد، وأفتى الناس والوزراء والخلفاء، وبدأ حياته بتصنيـ[illegible] كتاب «اختلاف الفقهاء»، وظلَّ يكتب في الفقه ويدرِّسه طيلة حياته، ولم يصنِّف التفسير [illegible] عندما قارب الستين(٣)، ولعلَّ السبب في هذه الصورة الباهتة لشخصيته الفقهية فيما بعـ[illegible] يرجع إلى انقراض تلاميذه، وغياب مذهبه الفقهي، بسبب قِلَّة أتباعه وخمولهم في حمله ونشـ[illegible] ولكنَّ ذلك لا يقلِّل من أهمية فقه الطبري واجتهاده وآرائه وإمامته، حتى إنَّ العلاَّمة [illegible] العباس بن سريج قال عنه: «محمد بن جرير الطبري فقيه العالَم»(٤)، والطبري حـ[illegible] اصطلاح ابن عابدين: هو من طبقة المجتهدين في الشرع، وهو مجتهد مستقل، استقل بوضـ[illegible]

---

(١) ظهر الإسلام ٢/ ٢٠٤. ويقول أحمد أمين: «وكتابه هذا، مع أنه تاريخي في أصله، فالقارئ له يقف على ثروة كبـ[illegible] في الأدب؛ لأنه في حكايته للروايات المختلفة يقصها في لغة رصينة بليغة، غاية في القوة».

(٢) السابق: ٢/ ٢٠٤. (٣) معجم الأدباء ١٨/ ٤٢.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٢٣.

قواعد لنفسه وأصول لاجتهاده، ليبني عليها أقواله وفقهه»[1]، كما ذكره الشيرازي في «طبقات الفقهاء» وعدَّه في جملة المجتهدين المستقلين، ولم يعُدَّه من طبقات أصحاب المذهب الشافعي[2]، وقال عنه ابن خِلِّكان: «وكان من الأئمَّة المجتهدين، لم يقلِّد أحدًا، وكان أبو الفرج المُعَافي على مذهبه»[3].

ولمذهبه الفقهي قواعد محدَّدة للاستنباط، ومنهج معين للاستدلال؛ وقد حدَّد الطبري منهجه وقواعده، ونصَّ على المصادر التشريعية التي يعتمد عليها، ولكن كتب الطبري في أصول الفقه قد فُقِدت، ولم يصل إلينا منها شيء، ولم نضع أيدينا على التحديد الصريح والكامل لأصول مذهبه ومنهجه في الاستنباط، وقواعده في البيان والاستدلال[4]، ولكن يظهر لنا من كتبه المطبوعة (التفسير والتاريخ وغيرها..) أن أصول الأحكام، ومصادر التشريع عند الطبري هي: القرآن الكريم، السنة، الإجماع، القياس، اعتبار مقاصد الشريعة بتحقيق مصالح الناس، العرف[5].

منهجه في الحديث:

ويتضح منهج الطبري في كتابه تهذيب الآثار؛ حيث رتَّبه ترتيبًا خاصًا بحسب الأسانيد، وتناول كل حديث بتدقيق السند، وما في المتن من الفقه، وذِكْر غريب الألفاظ، وغريب المعاني، وما يُسْتنبط من الحديث من الأحكام الشرعية، وما يثور حوله من اختلاف الفقهاء، مع إيراد حُجَجِهم وأدلَّتِهم، ومناقشة الأدلة، وبيان القول الراجح، وبيان مذهبه في المسألة، وحُجَّته فيما ذهب إليه[6].

دراسات عن الطبري:

الطبري: د. أحمد محمد الحوفي.

---

(١) انظر: حاشية ابن عابدين ١/ ٧٧، الفقه الإسلامي وأدلته ١/ ٤٧.

(٢) الشيرازي: طبقات الفقهاء ص٩٣.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٣٣٢، وانظر: روضات الجنات ٧/ ٢٩٢.

(٤) محمد الزحيلي: الإمام الطبري ص ١٦٩.

(٥) انظر بحث «الجانب الفقهي في تفسير الطبري» للدسوقي ص٣١- ٣٢، وبحث «فقه الطبري» لقلعجي ص ٢٦.

(٦) انظر تهذيب الآثار مسند علي بن أبي طالب ص١١- ١٣.

الطبري: عبد الله بن عبد العزيز المصلح.

الإمام الطبري شيخ المفسرين، وعُمدة المؤرِّخين، ومُقدَّم الفقهاء المحدثين د. محمد الزحيلي.

موسوعة عباقرة الإسلام: د. رحاب خضر عكاوي.

نوابغ المسلمين: مصطفى وهبة.

وفاته:

تُوُفِّي الطبري في يوم ٢٦ من شهر شوال سنة ٣١٠ هـ، وعمره (٨٦ سنة)[1]؛ فرحمه الله رحمةً واسعةً، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

***

(١) محمد الزحيلي: الإمام الطبري ص ٣٣.

المبحث الثالث

دور العلم في حياة الإمام النووي

[٦٣١هـ - ٦٧٦هـ/ ١٢٣٣- ١٢٧٧م]

هو «أبو زكريا، محيي الدين» يحيى بن شرف النووي. وُلـد في قريـة نـوى عـام ٦٣١هـ لأبوين صالحين، ولما بلغ العاشرة من عمره بدأ في حفظ القرآن وقراءة الفقه على بعض أهـل العلم. وفي سنة ٦٤٩هـ قَدِمَ مع أبيه إلى دمشـق لاسـتكمال تحصـيله العلمـي في مدرسـة دار الحديث، وسَكنَ المدرسة الرواحية، وهي ملاصقة للمسجد الأموي. وفي عام ٦٥١ هـ حـجَّ مع أبيه ثم رجع إلى دمشق، وهناك أكب على علمائها ينهل منهم ..

أخلاقه وصفاته:

كان الإمام النووي مهيبًا، قليل الضحك، عديم اللعب، يقـول الحـق وإن كـان مـرًّا، لا يخاف في الله لومة لائم، وكان الزهد والورع أهم ملامـح شخصـيته؛ حيـث أجمـعَ أصـحابُ كتب التراجم أنه كان رأسًا في الزهد، قدوة في الورع، عديم النظير في مناصحة الحكام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وكان – رحمه الله- لا يأكل في اليوم والليلة إلا أكلة واحدة بعـد العشاء الآخرة، وكان لا يأخذ من أحـد شـيئًا، وكـان كثـيرًا مـا يكاتـب الأمـراء والـوزراء، وينصحهم لما فيه خير البلاد والعباد..

حياته العلمية:

تميزت حياته العلمية بعد وصوله إلى دمشق بثلاثة أمور:

الأول: الجدّ في طلب العلم والتحصيل في أول نشأته وفي شبابه.

والثاني: سعَة علمه وثقافته، وقد جمع إلى جانب الجدّ في الطلـب غـزارة العلـم والثقافـة المتعددة، فقد كان يقرأ كلَّ يوم اثني عشر درسًا على المشايخ شرحًا وتصحيحًا.

الثالث: غزارة إنتاجه، فقد بدأ به عام ٦٦٠ هـ، أي في الثلاثين من عمره، وقد بـارك اللهُ له في وقته وأعانه، فأذاب عُصارة فكره في كتب ومؤلفـات عظيمـة ومدهشـة، تلمـسُ فيهـا سهولةَ العبارة، وسطوعَ الدليل، ووضوحَ الأفكـار. ومـا زالـت مؤلفاتـه حتـى الآن تحظـى باهتمام كل مسلم.

وكان النووي لا يُضيّع وقتًا في ليل أو نهار إلا في الاشتغال بالعلم، حتى في ذهابه في الطريق ومجيئه كان يشتغل في تكرار أو مطالعة، وبقي على التحصيل على هذا الوجه نحو ست سنين؛ ثم اشتغل بالتصنيف والمناصحة للمسلمين وولاتهم، مع ما هو عليه من المجاهدة لنفسه، والعمل بدقائق الفقه والاجتهاد على الخروج من خلاف العلماء، وكان بعيد المراقبة لأعمال القلوب وتصفيتها من السوء، يحاسب نفسه على الخطرة بعد الخطرة، وكان مُحَقِّقًا في علمه وفنونه، مدققًا حافظًا لحديث رسول الله ﷺ عارفًا بأنواعه كلها؛ من صحيحه وسقيمه وغريب ألفاظه وصحيح معانيه واستنباط فقهه، كما صرف أوقاته كلها في أنواع العلم والعمل؛ فبعضها للتصنيف، وبعضها للتعليم، وبعضها للصلاة، وبعضها للتلاوة وبعضها للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكان سريع الحفظ؛ حفظ عدة كتب في مُدَدٍ وجيزة، فنال إعجاب وحبَّ أستاذه أبي إبراهيم إسحاق بن أحمد المغربي، فجعلَه مُعيد الدرس في حلقته. ثم درَّس بدار الحديث الأشرفية، وغيرها. وقد حدَّثَ تلميذُه علاء الدين ابن العطار – على لسان النووي – عن فترة التحصيل والطلب، أنه كان يقرأ كلَّ يوم اثني عشر درسًا على المشايخ شرحًا وتصحيحًا. درسين في الوسيط، وثالثًا في المهذب، ودرسًا في الجمع بين الصحيحين، وخامسًا في صحيح مسلم، ودرسًا في اللمع لابن جنّي في النحو، ودرسًا في إصلاح المنطق لابن السكّيت في اللغة، ودرسًا في الصرف، ودرسًا في أصول الفقه، ودرسًا في أسماء الرجال، ودرسًا في أصول الدين، وكان يكتبُ جميعَ ما يتعلق بهذه الدروس من شرح مشكل وإيضاح عبارة وضبط لغة

وسمع منه خلق كثير من الفقهاء، وسار علمه وفتاويه في الآفاق، وانتفع الناس في سائر البلاد الإسلامية بتصانيفه، وأكبوا على تحصيل مؤلفاته .

شيوخه:

سمع النووي أبا الفرج عبد الرحمن بن أبي عمر، ومحمد بن أحمد المقدسي وهو أجل شيوخه، وأبا إسماعيل بن أبي إسحاق إبراهيم ابن أبي اليسر وأبا العباس أحمد بن عبد الدائم وأبا البقاء خالد النابلسي، وأبا محمد عبد العزيز بن عبد الله محمد بن عبد المحسن الأنصاري والضياء بن تمام الحيصي، والحافظ أبا الفضل محمد بن محمد البكري، وأبا الفضائل عبد الكريم بن عبد الصمد خطيب دمشق، وأبا محمد عبد الرحمن بن سالم بن يحيى الأنباري

وأبا زكريا يحيى بن الفتح الصيرفي الحراني، وأبا إسحاق إبراهيم بن على بن أحمد بن فاضل الواسطي وغيرهم.

إسهاماته العلمية:

النووي فقيهًا:

يقول ابن العطار: «كان حافظًا للمذهب الشافعي وقواعده وأصوله وفروعه، ومذاهب الصحابة والتابعين، واختلاف العلماء ووفاقهم وإجماعهم، وما اشتهر من ذلك جميعه وما هجر، سالكًا في كلها طريقة السلف».

النووي مُحَدِّثًا:

كلَّما جاءت فترة من الزمن جاء لها محدِّثون ووجدوا في الحديث شغلاً جديدًا: استدراكًا أو شرحًا أو تصحيحًا؛ وفي فترة العصور الإسلامية الوسطى وُجِدَ أمثال ابن الصلاح والنووي والمِزِّيّ والذهبي؛ وامتاز النووي من بينهم بأنه فقيه الأمة، وقلما اجتمع لعالم تبحرٌ في الفقه وإتقانٌ لعلوم الحديث[1].

ويروي ابن العطار أن النووي سمع الصحيحين (البخاري ومسلمًا) وسنن أبي داود والترمذي، والنسائي، وموطأ مالك، ومسند الشافعي، ومسند أحمد بن حنبل، والدارمي، وأبي عوانة الإسفراييني، وأبي يعلى الموصلي، وسنن ابن ماجه، والدارقطني، والبيهقي، وشرح السنة للبغوي، ومعالم التنزيل له في التفسير، وكتاب الأنساب للزبير بن بكار، والخطب النباتية، ورسالة القشيري، وعمل اليوم والليلة لابن السني، وكتاب آداب السامع والراوي للخطيب، وأجزاء كثيرة غير ذلك.. نقلت ذلك جميعه من خط الشيخ – رحمه الله –».

النووي وفقه الحديث:

ما كان النووي يحبس علمه في الحديث في نطاق الرواية التي هي كالنوافل للمُحَدِّثين، وإنما كان هَمُّه في الحديث معرفة ما ذكره في مقدمة شرحه لصحيح مسلم، ثم الانصراف إلى فِقْهِهِ. وقد سمع منه الكثيرون؛ منهم أبو الفتح، والمِزِّيّ، وابن العطار..

---

(١) عبد الغني الدقر: الإمام النووي ص٥٥.

النووي وعلم اللغة:

لا يَقْوَى أحدٌ على فهم الكتاب والسنة والتفقه بهما واستنباط الأحكام منهما، ويستوعب عبارات أئمة الدين من المتقدمين بل المتأخرين، حتى يتقن العربية: نحوها وصرفها واشتقاقها، ومعاني مفرداتها، وهذا ما يراه النووي ويحث عليه، يقول -رحمه الله- في مقدمة كتابه تهذيب الأسماء واللغات: «ولا حاجة إلى الإطالة في الحث عليها، فالعلماء مجمعون على الدعاء إليها، بل شرطوها في المفتي والإمام الأعظم والقاضي لصحة الولايات، واتفقوا على أن تعلمها من فروض الكفايات»[1].

وكتابا النووي «تحرير التنبيه»، «تهذيب الأسماء واللغات» يدلان على تمكن الإمام بعلم اللغة تمكنًا قل نظيره في نظرائه في عصره.

محاولة اشتغال النووي بالطب:

يقول النووي: «وخطر لي الاشتغال بعلم الطب، فاشتريت القانون (لابن سينا) وعزمت على الاشتغال فيه، فأظلم عليَّ قلبي، وبقيت أيَّامًا لا أقدر على الاشتغال بشيء، ففكرت في أمري: من أين دخل عليَّ الداخل، فألهمني الله أن اشتغالي بالطب سببه، فبعت في الحال الكتاب المذكور، وأخرجت من بيتي كل ما يتعلق بعلم الطب فاستنار قلبي ورجع إليَّ حالي وعدت لما كنت عليه أولاً»[2]؛ ولعلَّ الظلمة التي أصابت قلبه مرجعها إلى أنه لم يَأْلَف الطب أو لعلَّه استغلقت عليه مسائله. ويجوز أن يكون النووي قد تأثر -في رغبته دراسة الطب- بمقولة إمامه الشافعي: «لا أعلم علمًا -بعد الحلال والحرام- أنبلَ من الطب»[3].

أهم المناصب:

باشر النووي التدريس في المدرسة الإقبالية، نيابة عن ابن خلكان إلى آخر سنة ٦٦٩هـ[4].

كما ناب النووي -أي صار نائبًا- في مدرستي الفلكية والركنية[5].

---

(١) النووي: تهذيب الأسماء و اللغات، ١/ ٣.

(٢) السخاوي ص٦، ٧، والتذكرة ٤/ ١٤٧٠.

(٣) انظر: عبد الغني الدقر: الإمام الشافعي ص٢٧٣.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٢٧٩.

(٥) السابق نفسه.

وتولى النووي دار الحديث الأشرفية في الفترة (٦٦٥- ٦٧٦هـ)؛ وهي أشهر دار في بلاد الشام لعلم الحديث، والمتعارف عليه ألا يلي مشيختها إلا عظيم وقته في العلم، وخصوصًا علم الحديث، ومن لقب بشيخ دار الحديث، نال في العلم أجل الألقاب، وقد وليها قبل النووي: تقي الدين بن الصلاح، وشهاب الدين أبو شامة المقدسي.

وقال التاج السبكي: «قال والدي: إنه ما دخلها - أي دار الحديث الأشرفية - أعلم ولا أحفظ من المزي، ولا أورع من النووي وابن الصلاح»[1].

مؤلَّفاته:

عاش النووي (٤٦ سنة) فقط، ورغم هذا فقد ترك من المؤلفات ما لو قسم على سني حياته لكان نصيب كل يوم كراستين[2]؛ فإذا علمنا أنه لم يبدأ العلم إلا في سن (١٨ سنة)، فأيّ مضاء وأيّ عزيمة وقدرة وبركة في العمر آتاه الله إياها!!

ومن أشهر ما صنَّف النووي:

شرح مسلم: يبحث السند، واللغة وتسمية ما يجهل اسمه، وشرح المعنى، وما يستنبط من الحديث، ومن قال بظاهر الحديث ومن خالف وما حجته، مع فوائد كثيرة أخرى.

الروضة «روضة الطالبين»: والروضة من الكتب الكبيرة المعتمدة في المذهب الشافعي، اختصرها النووي من كتاب الإمام الرافعي «الشرح الكبير»، وأثنى عليها الأئمة.

المنهاج: من أكثر كتب النووي تداولاً، اختصره من «المحرَّر» للرافعي، وله فيه تصحيحات واختيارات.

رياض الصالحين: لم يبلغ كتاب من كتب الحديث والوعظ من الانتشار والثقة ما بلغه هذا الكتاب، وشرحه العلامة محمد بن علي الصديقي الشافعي في كتاب «دليل الفالحين لطريق رياض الصالحين».

الأذكار: ذكر فيه عمل اليوم والليلة، وزاد عليها أذكار المناسبات مع كثير من الأحكام المتناسبة مع الذكر.

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ٦/ ٣٦.

(٢) والكراسة: كتيب أو فصل في كتاب؛ تقول: قرأت كراسة في كتاب سيبويه، حوالي ٤٠ صفحة.

كتب أخرى للنووي:

التبيان، تحرير التنبيه، تصحيح التنبيه، الإيضاح في المناسك، الإرشاد، التقريب الأربعين، بستان العارفين، مناقب الشافعي، مختصر أُسْد الغابة، الفتاوى، أدب المفتي والمستفتي، مختصر آداب الاستسقاء، رؤوس المسائل، تحفة طلاب الفضائل، الترخيص في الإكرام والقيام، مسألة تخميس الغنائم، مختصر التذنيب، مسألة نية الاغتراف، دقائق المنهج والروضة، التقريب والتيسير.

وفاته:

توفي سنة (٦٧٦هـ) بعد أن رجع إلى نَوى، وردَّ الكتب المستعارة من الأوقاف، وزار مقبرة شيوخه، فدعا لهم وبكى، وزار أصحابه الأحياء وودّعهم، وزار والدَه وزار بيت المقدس والخليل، ثم عاد إلى نوى؛ فمرض بها، ومات في ٢٤ من رجب؛ فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

* * *

المبحث الرابع
دور العلم في حياة الإمام ابن تيمية
[٦٦١ - ٧٢٨هـ / ١٢٦٣ - ١٣٢٨م]

ميلاده ونشأته وعصره:

هو أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تَيْمِيَّة[1]، الحَرَّاني، الدمشقي. ولد بِحَرَّان بدمشق في (الاثنين ١٠ من ربيع الأول ٦٦١هـ)، نشأ في بيت علمٍ وفقهٍ ودين، فأبوه وأجداده وإخوته وكثير من أعمامه كانوا من العلماء المشاهير. ولما بلغ السابعة انتقل مع والده إلى دمشق؛ هربًا من التتار، وبدأ طلب العلم أولاً على أبيه وعلماء دمشق، فحفظ القرآن صغيرًا، ودرس الحديث والفقه والأصول والتفسير، وعُرِفَ بالذكاء وقوة الحفظ والنَّجابة منذ صغره، ثم توسَّع في دراسة العلوم والتبحّر فيها، وقبل بلوغه الثلاثين اجتمعت فيه صفات المجتهد وشروط الاجتهاد، فصار إمامًا يعترف له الجهابذة بالعلم والفضل والإمامة.

وجاء ابن تَيْمِيَّة – رحمه الله – على فترةٍ من المصلحين في تاريخ الإسلام، وكان المجتمع الإسلامي فيها قد وصل إلى صورة يعجز الواصف عن تصويرها؛ فوقف الشيخ آمرًا وناهيًا، وناصحًا، ومُبَيِّنًا، حتى أَصْلَحَ الله على يديه الكثير من أوضاع المسلمين، ونَصَرَ بِهِ السُّنَّةَ وأَهْلَهَا.

أخلاقه نموذج للعلماء:

كانت خصاله وأخلاقه نموذجًا لكلّ مُشتغِلٍ بالعلم، واشتُهِر بالمهابة والقوة في الحق، وكان كثير العبادة والذكر وقراءة القرآن، ورعًا زاهدًا لا يكاد يملك شيئًا من متاع الدنيا، كما عرف بالصبر وقوة الاحتمال في سبيل الله، وكان ذا فراسة، وكان مستجاب الدعوة.

جهاده ونصحه لتطبيق علمه:

كان نصيب ابن تيمية من الأذى والسجن وافرًا؛ فقد سجن في مصر، ونفي إلى

---

(١) جاء في سبب تسميته عدة أقوال، خلاصتها جميعًا: أن تَيْمِيَّة هو اسم جَدَّته، وقد سماها أبوها بذلك لشبهها لجارية صغيرة رآها بتيماء وهو يحج، وكانت جدته هذه واعظة، فَنُسِبَ إليها وعرف بها.

الإسكندرية، وكذلك سجن بالشام عدة مرات[1]، ومنذ عودته من منفاه سنة (٧٠٩هـ) وحتى حين عودته إلى دمشق سنة (٧١٢هـ) كان بصحبة ابن قلاوون الذي سجنه أربع مرات بسبب فتاواه وخلاف العلماء معه، وتحريضهم ضده، ورغم ذلك أصدر ابن قلاوون خلال هذه الفترة القصيرة كثيرًا من الأوامر والمراسيم التي أبطل بها أوضاعًا فاسدة، كان ابن تَيْمِيَّة قد وجَّه إليها نقدًا شديدًا؛ كالرِّشوة، التي أصدر ابن قلاوون سنة (٧١١هـ) أمرًا بإلغائها، فتقرر أن لا يُولَّى أحدٌ بمال ولا برشوة، وهذا ما عَلَّقَ عليه ابن كثير بقوله: «وكان سبب ذلك الشيخ تقي الدين ابن تَيْمِيَّة»[2].

ويرجح «هنري لاوست[3]» في ترجمته لكتاب «السياسة الشرعية» إلى الفرنسية، أنَّ ابن تَيْمِيَّة صنَّفه ما بين (٧٠٩- ٧١٢هـ)، في أعقاب استدعاء ابن قلاوون له من منفاه بالإسكندرية، وبناءً على طلبه كما فعل هارون الرشيد مع أبي يوسف. ويرى «لاوست» بالاستناد إلى ما كتبه ابن كثير في «البداية والنهاية» أن هناك مطابقة واضحة بين الخطط المرسومة في كتاب «السياسة الشرعية» والإصلاحات المقترحة فيه، والتدابير والإصلاحات التي قام بها محمد بن قلاوون في هذا الوقت.

أشهر تلاميذه:

١- الإمام الجليل شمس الدين ابن قيم الجوزيّة (٦٩١-٧٥١هـ)؛ الذي ذكر البعض أن مؤلفاته بلغت (٩٨ مؤلفًا)؛ أشهرها: زاد المعاد، ومدارج السالكين، وهداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، وإغاثة اللهفان من مصايد الشيطان.

٢- الإمام الجليل أبو عبد الله شمس الدين الذهبي (٦٧٣- ٧٤٨هـ)؛ من أشهر مؤلفاته: سير أعلام النبلاء (٢٥ مجلدًا)، وميزان الاعتدال، وطبقات القُرَّاء، وطبقات الحفاظ، وتراجم الأعيان.

٣- أبو الفداء إسماعيل بن كثير (٧٠١- ٧٧٤هـ)؛ من أشهر مؤلفاته: البداية والنهاية.

(١) إبراهيم محمد العلي: شيخ الإسلام ابن تيمية ص٢٩٦. (٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٤/ ٧٥.

(٣) هنري لاوست: مستشرق فرنسي يُعَد أهم من تخصصوا في ابن تَيْمِيَّة، وأكثر المستشرقين إنصافًا له، قضى أكثر من ثلاثين سنة في دراسة عصر المماليك، والحنابلة، وابن تَيْمِيَّة بوجه خاص، وتَرْجَمَ كتاب «السياسة الشرعية» إلى الفرنسية، وقَدَّمَ له مقدمة قيمة، وله دراسة بعنوان: «شرائع الإسلام في منهج ابن تَيْمِيَّة».

وتفسير القرآن العظيم، والباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث، والتكميل في الجرح والتعديل.

ومنهم أيضًا محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي، وأبو العباس أحمد بن الحسن المشهور بقاضي الجبل، وزين الدين عمر الشهير بابن الوردي، وأبو حفص عمر الحَرَّاني، وأبو عبد الله محمد بن مفلح، وغيرهم.

إسهاماته العلمية:

«إن ابن تَيْمِيَّة من المؤلفين الذين لهم تأثير كبير على أهل الإسلام من الزمان الغابر إلى الآن وخاصة على أهل السُّنَّة»[1]، وله تراث ضخم ثمين، لا يزال العلماء والباحثون ينهلون منه معينًا صافيًا، من مؤلفات ورسائل وفتاوى ومسائل وغيرها، هذا من المطبوع، وما بقي مجهولاً ومكنوزًا في عالم المخطوطات فكثير.

صعوبة استقصاء مؤلفاته:

ذكر ابن القيّم من مؤلفات الشيخ ابن تَيْمِيَّة (٣٣٧ مصنفًا)؛ وهناك أسباب عدَّة، جعلت من الصعوبة بمكان حصر أسماء مؤلفات ابن تَيْمِيَّة، من أهمها:

- تتابع الفتن والامتحانات التي تعرَّض لها الشيخ.

- كان الشيخ يكتب الجواب لمن سأله، فإن وجد من ينقل الجواب ويبيّضه، وإلا أخذ السائل الجواب وذهب[2].

- تَفَرُّقُ أَتْبَاعِهِ لَمَّا حُبِس، فَتَفَرَّقَتْ كُتبه، وتَخَوَّف أصحابُه من إظهارها؛ فذهب كلٌّ بما عنده، وبِيع البعض، ووُهِب البعض، وسُرِق البعض، وأُخْفِي الكثير، ولم يقدر الشيخ على تحصيلها مرة أخرى..

- صُودِرت كتب الشيخ وهو في السجن، فَتَوَزَّعَهَا أعداؤه وخصومه؛ فمنها ما جحدوه وأتلفوه، ومنها ما أُجبِروا على رَدِّه إلى أخيه زين الدين.

- بَذَلَ أعداؤه فيما بعد وفاته، جهودًا كبيرة وأموالاً طائلة لشراء مؤلفاته لإتلافها.

---

(١) الندوة العالمية عن شيخ الإسلام ص ٢٠٧.

(٢) ابن عبد الهادي: العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ص٦٥.

وقد حاولت بعض المصادر استقصاء مصنفات الشيخ، منها محاولته هو في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، وقد أحصى (٧٠٢ مصنفًا)، وأحصى بعضهم مصنفات الشيخ فكانت (٩٢٣ مصنفًا)[1].

مؤلَّفاته:

من مؤلَّفاته في التفسير: رسالة في منهاج التفسير وكيف يكون، تفسير سورة الإخلاص، جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن من أنَّ ﴿قل هو الله أحد﴾ تعدل ثلث القرآن، تفسير المعوذتين..

ومن مؤلفاته في العقائد: الإيمان، الاستقامة، اقتضاء الصراط المستقيم، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، رسالة في علم الباطن والظاهر، التوسُّل والوسيلة، الرسالة الحموية، الرسالة التدمرية، العقيدة الواسطية، الجواب الصحيح فيمن بدَّل دين المسيح، معتقدات أهل الضلال، معارج الوصول، السؤال عن العرش، بيان الفرقة الناجية، درء تعارض العقل والنقل، منهاج السنة النبوية، إبطال قول الفلاسفة بإثبات الجواهر العقلية، شرح حديث النزول، نقض المنطق، الرَّدُّ على المنطقيين، رفع الملام عن الأئمة الأعلام، الواسطة بين الحق والخلق، فتوى ابن تَيْمِيَّة عن كتاب فصوص الحكم..

ومن مؤلفاته في الفقه: مجموع الفتاوى (٣٥ مجلدًا)، الفتاوى الكبرى (٦ مجلدات)، رسالة القياس، القواعد، رسالة الحسبة، الأمر بالمعروف، العقود، المظالم المشتركة، حقيقة الصيام..

وله مجموعة من القصائد؛ من أشهرها: ياسائلي عن مذهبي وعقيدتي، والقصيدة التائية.

غزارة عطائه العلمي:

إن ما قام بتصنيفه شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة -رحمه الله-، يعجز الكثيرون عن القيام به مجتمعين. فيقول الحافظ البزَّار -رحمه الله- عن مؤلفات ابن تَيْمِيَّة: «وأمّا مؤلفاته ومصنفاته، فإنها أكثر من أن أقدر على إحصائها، أو يحضرني جملة أسمائها، بل هذا لا يقدر عليه -غالبًا- أحد؛ لأنها كثيرة جدًا، كبارًا وصغارًا، وهي منشورة في البلدان، فقلَّ بلد نزلته إلا ورأيت فيه من تصانيفه»[2]، وقال الإمام

(١) إبراهيم محمد العلي: شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة رجل الإصلاح والدعوة ص٣٧٦.

(٢) أبو حفص البزار: الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية ص٥٣.

البرزالي: «إن تصانيفه في هذا الوقت أربعة آلاف كراس أو أكثر»[1].

ولا شك أن توفيق الله تعالى وفضله أولاً وآخرًا، كانا يصاحبانه، علاوةً على الأسباب الفطرية والمكتسبة التي توافرت فيه، ومن هذه الأسباب:

البدء بالتأليف في سن مبكرة:

يقول الحافظ الذهبي – رحمه الله- عن ابن تَيْمِيَّة: «... وأفتى وله تسع عشرة سنة، بل أقل، وشرع في الجمع والتصنيف منذ ذلك الوقت، وأَكَبَّ على الاشتغال»[2]، ويقول ابن رجب الحنبلي – رحمه الله-: «شرع الشيخ في الجمع والتصنيف من دون العشرين، ولم يزل في علوٍّ وازدياد من العلم والقدر إلى آخر عمره»[3]؛ فإذا كان الشيخ قد عاش (٦٧ عامًا)، واشتغل بالتأليف في تلك السن المبكرة، فهذا يعني أنه ظل يُؤَلِّف ما يقرب من نصف قرن؛ مما يبرر كثرة مؤلفاته.

غزارة علومه ومعارفه:

استطاع الشيخ أن يُلِمَّ بفنون الثقافة في عصره في وقت مبكر، ساعده في ذلك حافظة خارقة، فقد كان يحفظ كل ما يقع تحت عينيه، وكان مع ذلك حريصًا على الوقت جدًّا، لا يضيع منه شيئًا، ولم يكفَّ عن الدراسة والقراءة والبحث والتأليف طول عمره وفي مختلف أحواله[4].

وقد مهر في سائر العلوم التي عرفت في عصره، «وأمدَّه الله بكثرة الكُتُبِ، وسرعة الحفظ، وقوة الإدراك والفهم، وبطء النسيان؛ حتى قال غير واحد من أهل العلم: إنه لم يكن يحفظ شيئًا فينساه»[5].

وشهد له معاصروه بذلك؛ قال الحافظ ابن سيد الناس – رحمه الله-: «ألفيته ممن أدرك من العلوم حظًا، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظًا، وإن تكلَّم في التفسير فهو حامل رايته،

---

(١) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات عن المنجد ص ٦١- ٦٢.

(٢) ابن عبد الهادي: العقود الدرية ص٤.

(٣) ابن رجب الحنبلي: ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٣٨٨.

(٤) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ١/ ٦٤.

(٥) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب: ٦/ ٨١.

أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذكر في الحديث فهو صاحب علمه وذو روايته، أو حاضر بالملل والنحل لم يُرَ أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من رايته، برز في كل فنٍّ على أبناء جنسه، ولم تَرَ عينٌ مَن رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه»[1].

سرعته في الكتابة والتأليف:

قال تلميذه ابن القيم – رحمه الله-: «إنه كان يحرِّر أربعين فتوى في ساعة»، وقال الحافظ الذهبي – رحمه الله-: «ويكتب في اليوم والليلة من التفسير أو من الفقه أو من الأصلين أو من الرد على الفلاسفة الأوائل نحوًا من أربعة كراريس أو أزيد، وما يبعد أنَّ تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلد، وله في غير مسألة مصنف مفرد في مجلدة»[2].

ومن الأمثلة التي ذكرت في سرعته في الكتابة، يقول ابن عبد الهادي وابن سيد الناس عن شيخ الإسلام: «كتب الرسالة الحموية (سنة ٦٩٨هـ) في قعدةٍ بين الظهر والعصر[3]»، «وكتب الرسالة الواسطية في قعدة بعد العصر»[4]، وذكر ابن عبد الهادي: «كان يكتب مجلَّدًا لطيفًا في يوم»[5].

منهجه العلمي:

وكان للشيخ منهج محدد واضح لم يتخلَّ عنه، ويتلخص فيما يلي[6]:

١- الاعتماد على الكتاب والسنة وأقوال السلف: يقول ابن تَيْمِيَّة في هذا: «فقد وجب على كل مسلم تصديقه ﷺ فيما أخبر به عن الله ﷻ من أسماء الله وصفاته مما جاء في القرآن وفي السُّنَّة الثابتة عنه، كما كان عليه السابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان»[7].

٢- الاستدلال العقلي فيما يستطيع العقل الإحاطة به: وتلك من صور التوازن العجيبة عند ابن تَيْمِيَّة؛ فمع توقيره العظيم للنصوص لا يهمل العقل ولا يزدريه، بل يرى أن العقل

(١) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ١/ ١٥٤.

(٢) تاريخ ابن الوردي: ٢/ ٤٠٦- ٤٠٧، فوات الوفيات عن المنجد ص ٦٣.

(٣) العقود الدرية: ص ٦٤، ٦٧، فوات الوفيات عن المنجد ص ٦٦.

(٤) ابن تيمية: مجموع الفتاوى: ٣/ ١٦٤، والعقود الدرية: ص ٣١١.

(٥) ابن تيمية: العقود الدرية: ص ٦٤.

(٦) إبراهيم محمد العلي: شيخ الإسلام ابن تيمية ص٣٦٠- ٣٦٤.

(٧) ابن تيمية: مجموع الفتاوى: ١٩/ ٦٨.

السليم لابد أن يوافق النقل الصحيح، وأن الدين يأتي بما تحار منه العقول لا بما تُحيله، أي تراه مستحيلاً؛ وهو مع هذا التوقير للعقل لا يقدسه، بل يرى أن له قدرة محدودة ينطلق فيها كما يشاء، ويعجز عن إدراك بعض قضايا الدين.

٣- حرصه الشديد على ضبط المصطلحات: وهو يعتني بذلك أشد العناية ويرى أنَّ كثيرًا من خلاف السلف خلاف تنوع لا خلاف تضاد أي أنهم يختلفون لفظيًا فقط، كما أن المتأخرين يستخدمون مصطلحات محدثة فيها الحق والباطل ثم ينفونها ليتوصلوا بها إلى نفي معنى صحيح.

٤- الاعتماد على اللغة الصحيحة: فالشيخ يعتمد على اللغة كما كانت عند العرب المتقدمين، ويميز بعبقريته بين معاني الألفاظ في أصل وضعها واستخدام المتأخرين لها.

٥- النقل الموثوق: فهو عندما يريد محاجَّة خصم، فإنه يعتمد على كلامه، إمّا المكتوب، وإمّا المنقول شفهيًا عن الخصم من مصادر موثوقٍ بها؛ ولذلك نجده في كثيرٍ من كتبه في الرد على الخصوم، يذكر أولاً كلام الخصم بنصِّه وبأمانة ولا يتدخل فيه حتى ينتهي من سرده، ثم يبدأ في نقده وبيان عِلله، وهذه الطريقة جعلت من كتبه مرجعًا مهمًا موثوقًا به في الفِرَق، وخاصة تلك التي لم يأتنا شيء من مؤلَّفات زعمائها كالكلابية.

٦- التأصيل: وهو يذكر أسباب ضلال من ضَلَّ، وكيف زَلَّتْ أقدامهم، وجذور انحرافهم، ويتتبعها بعبقرية فذَّة، ويتتبَّع التسلسل التاريخي لانحراف المنحرفين، مع نقدٍ داخليٍّ للنصوص والأسانيد، مع نقدٍ بنَّاء يُبْطل الباطل، ويُحِقُّ الحقَّ في أنصع صوره، مع اطِّرادٍ في المنهج لا يحيد عنه، وأدب جَمٍّ، كما أنَّ له طريقته الخاصة في نقد المتكلمين؛ التي أخذت من جهده ووقته وكتبه الشيء الكثير، ويبدو أنه فعل ذلك لأنَّه يرى أنهم أكثر الناس أنصارًا، بينما تقلَّصت المدارس الأخرى أو انقرضت نهائيًا. وكان في منهجه لنقدهم لا يعطي أحكامًا عامّة تسلكهم في نظام واحد، بل كان يميز بينهم، ويُفَصِّلُ نقد كل متكلم منهم بعينه، لأنه رأى أن كل فرد منهم قد يكون له آراء لا يشاركه فيها الآخرون، فمن الظلم والحالة هذه مؤاخذتهم بما قاله بعضهم، كما كان أيضًا في نقده لهم يراعي حال الشخص الواحد، فهو على سبيل المثال لا يهاجم الأشعري بما كتبه في فترة الاعتزال.

أقواله في باب العلم:

ولابن تَيْمِيَّة في باب العلم أقوال جامعة؛ منها: «العلم إمّا نقلٌ مُصَدَّق، وإمّا استدلالٌ مُحَقَّقٌ»[1]، «الإمامة في الدين مَوْرُوثة عن الصبر واليقين»[2]، «لا ريب أنَّ لَذَّة العلم أعظم اللذَّات، واللذَّة التي تبقى بعد الموت، وتنفع في الآخرة هي لَذَّة العلم بالله والعمل له، وهو الإيمان به»[3]، «من فارق الدليل ضلَّ السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول»[4]، «حصول العلم في القلب كحصول الطعام في الجسم، يحس بالطعام والشراب، وكذلك القلوب تحس بما تُنْزِلُ إليها من العلوم التي هي طعامها وشرابها»[5]، «لا يُنال الهدى إلا بالعلم، ولا ينال الرشاد إلا بالصبر»[6].

منهجه في مؤلفاته:

بالنظر في مؤلفات ابن تَيْمِيَّة، التي تبرز شخصيته ومنهجه بشكل واضح، نخلص إلى هذا المنهج في نقاط[7]:

- الارتباط بالحياة والواقع من خلال عَيْش الأحداث وتسجيلها ومناقشتها، ووضع الرأي السديد والصائب فيه؛ مما أكسب كتبه ومصنفاته قوةً وحيويةً وتأثيرًا عميقًا في النفوس، ويندر أن تجد ذلك في كتب غيره من المؤلفين.

- استعماله الأسلوب العلمي في إقناع الخصوم، وإلزامهم الحُجَّة من خلال الاحتجاج عليهم بكلام أئمتهم، واستخدام أساليبهم الجدلية والمنطقية مما يضيق دائرة المناظرة على الخصم.

- الوضوح فهي في أغلب الأحيان ردود على مجادلات، أو نقد لنواحٍ واجتهادات شرعية.

- الأسلوب الموسوعي في جمع أطراف الفكرة الواحدة؛ مما أكسب مؤلفاته ميزة خاصة تجعل قارئها يستغني بما فيها من معلومات قيمة عن كتبٍ كثيرة، بل عن مكتبة

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٤٤.

(٢) السابق نفسه: ١٠/ ٣٨.

(٣) السابق نفسه: ١٤/ ١٦٢.

(٤) مفتاح دار السعادة: ١/ ٣٠٤.

(٥) مجموع الفتاوى: ٤/ ٤١.

(٦) السابق نفسه: ١٠/ ٤٠.

(٧) إبراهيم محمد العلي: شيخ الإسلام أحمد بن تَيْمِيَّة رجل الإصلاح والدعوة، سلسلة أعلام المسلمين (٧٩)، دار القلم- دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م ص٣٦٠- ٣٦٣ بتصرف يسير.

ضخمة.

- الإكثار من النقل عن الأئمة؛ مما أكسب مؤلفاته القوة والأصالة، ثم إلحاقه هذه النقول بتعليقاته وإيضاحاته، مع بيان المنزلة العلمية التي كان يتمتع بها هذا الإمام الذي نقل عنه.

- تُبرز هذه المؤلفات اطِّلاعه المدهش على الخلافيات، ودراساته المقارنة للمسائل التي يعرضها؛ مما جعل أحكامه أقرب إلى السلامة الكاملة، والدقة المتناهية، وندرة الخطأ.

- خلو منهجه من الجفاف والتعقيد في عرض القضايا الفقهية؛ لأنها سمة سيطرت على مؤلفات المتأخرين في الجانب الفقهي؛ فلما ابتعد عنها في مصنفاته الفقهية، أعطى الفقه دفعة قوية، وقبولاً في نفوس الناس.

- الأمانة العلمية وتحرِّي الدقة في النقل، والنقل بالنص مع العزو للمصدر والقائل.

- الاستطراد في النقل أحيانًا، لحاجة تدعو إلى ذلك؛ كشرح أو توضيح أو تفريع..

- التجرد للحق وقبوله واتباعه الموضوعية والعدالة مع المخالفين، وذكر جوانبهم الإيجابية.

- التكرار وإعادة البحث للموضوع الواحد ففي بعض تصانيفه يكاد ينقل كثيرًا مما قال في مواطن أخرى، ولعلَّ ذلك ناتج من حرصه على التأكيد على أهمية الموضوع الذي يبحثه.

- سعة أفقه واطلاعه المدهش على مختلف العلوم والفنون في عصره.

- سرعة بديهته، وقوة استحضاره للدليل؛ حتى قال الحافظ الذهبي متعجبًا: «ما رأيت أسرع انتزاعًا للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه»[1].[2]

دراسات عن ابن تَيْمِيَّة:

كُتِبَ عن ابن تَيْمِيَّة وعلمه ومنهجه ونظرياته عدد كبير من الرسائل العلمية والكتب

(١) الدرر الكامنة: ١/ ١٦٠.

(٢) محمد أبو زهرة: ابن تيمية ص٥٢١ - ٥٢٤، الندوي: ابن تيمية ص١٣٣ - ١٣٩، مقدمة الحموية: ص٧٢ - ٧٩.

والمقالات، منها:

- نظريات ابن تَيْمِيَّة في السياسة والاجتماع؛ للمستشرق الفرنسي هنري لاوست.
- شرائع الإسلام في منهج ابن تَيْمِيَّة لهنري لاوست.
- ابن تَيْمِيَّة للدكتور عبد الرحمن النحلاوي.
- ابن تَيْمِيَّة للدكتور محمد يوسف موسى.
- حياة شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة لمحمد بهجة البيطار.
- الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة خلال سبعة قرون لمحمد العمران.
- ابن تَيْمِيَّة السلفي للدكتور محمد خليل هراس.
- ابن تَيْمِيَّة العالم الجريء لعبد المنعم الهاشمي.
- ابن تَيْمِيَّة والتصوف للدكتور مصطفى حلمي.
- ابن تَيْمِيَّة والتنظير السياسي للدكتور عبد الحكيم الفيتوري.
- الإمام ابن تَيْمِيَّة وموقفه من قضية التأويل للدكتور محمد السيد الجليند.
- تكامل المنهج المعرفي عند ابن تَيْمِيَّة لإبراهيم عقيلي.
- شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة والعمل الجماعي لعبد الرحمن عبد الخالق.
- دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة «عرض ونقد» للدكتور عبد الله بن صالح الغصن.
- سد الذرائع عند شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة (رسالة ماجستير) لإبراهيم بن مهنا المهنا.
- منهج ابن تَيْمِيَّة التجديدي السلفي ودعوته الإصلاحية لسعيد عبد العظيم.
- منهج ابن تَيْمِيَّة في مسألة التكفير لعبد المجيد المشعبي.
- منهج شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة في التأليف ومراحله المتعددة لعبد الله بن سعد الحجيلي.
- منهج ابن تَيْمِيَّة في الرد على المتكلمين لعبد العزيز التميمي.
- منطق ابن تَيْمِيَّة لمحمد حسني الزين.
- مقاصد الشريعة عند ابن تَيْمِيَّة ليوسف البدوي.

وفاته:

مرض الشيخ في سجنه الذي دخله وابتُلِيَ به نتيجة تأليب الفقهاء والعلماء المخالفين له، وتحريضهم السلطان ضده، وكان مرضه بسبب فقده لكتبه، ومنعه من الكتابة، وضياع الكثير من كتبه، ومصادرة بعضها، وكان قد أخبر صديقه وصاحبه في السجن الشيخ عبد الله الزرعي في آخر لحظاته أنه سامح جميع أعدائه وحلَّلهم من عداوته وسبِّه، ثم تفرغ لتلاوة القرآن وختمه ثمانين مرة، ووصل إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٤، ٥٥]، ثم اشتدت علته، وفاضت روحه إلى بارئها وهو مسجون بسجن القلعة بدمشق ليلة الاثنين (٢٠ من ذي القعدة ٧٢٨هـ)[1] وعمره (٦٧) سنة، فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

* * *

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٤/ ١٥٩.

المبحث الخامس

دور العلم في حياة الإمام ابن خلدون

[٧٣٢ -٨٠٨هـ /١٣٣٢- ١٤٠٦م]

ميلاده ونشأته:

هو «أبو زيد»، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، الحضرمي، الإشبيلي. وُلِدَ بتُونُس سنة (٧٣٢هـ = ١٣٣٢م)، ويعود أصله إلى عائلة يمنية هاجرت إلى إشبيلية ولعبت دورًا كبيرًا في التاريخ العربي لهذه المدينة، وشاع ذكرها على امتداد القرن الثامن إلى أن أصبحت في القرن العاشر من أعرق العائلات بإشبيلية. ولما تمكّن ملوك الصليبيين من السيطرة على هذه المدينة نزح أجداده إلى سبتة ثم إلى تُونُس.

وفي كتاب (التعريف) لابن خلدون، يشير إلى أنه حفظ القرآن الكريم وألمّ بالقراءات السبع وعني بالتفسير والحديث، وتعمّق في النحو والفقه، ولم يقتصر في تلقي هذه العلوم عن أبيه محمد، بل اتصل بكبار علماء تُونُس، ولم يبلغ الثامنة عشرة حتى أصبح طويل الباع في الفقه وعلوم الدين، كما درس علم الحديث وأحاط بأصول المنطق وآراء الفلاسفة وكتبهم[(١)].

وبعد قضائه سنوات في خدمة حكّام إفريقية، ركب البحر مهاجرًا إلى أرض أجداده (الأندلس) لينزل عند سلطان غرناطة آخر الممالك الأندلسية، وبعد سلسلة من المكايد والفتن التي حِيكت ضده آثر الرجوع إلى إفريقية، واختار قلعة ابن سلامة بالجزائر ليقيم بها، ويباشر كتابة مؤلَّفه الشهير المعروف بتاريخ ابن خلدون، الذي قَدّم فيه نظريات جديدة في علمي الاجتماع والتاريخ[(٢)].

حياته:

عاش هذا العلاّمة الكبير في عصر مضطرب؛ تميز بالهزائم والانكسارات ليس على مستوى العالم فقط بل على مستوى الشخص أيضًا، فقد نُكِبَ أكثرَ من مرة بأحبائه وأسرته، ولم يشأ له القدر أن يسكن بلدًا واحدًا، أو أن يمتهن عملاً محددًا؛ فقد تنقَّل من الأندلس حتى بلاد الشام، وشهد بنفسه تسليم غرناطة ودمشق، ورأى بأمِّ عينه انهيار الحضارات، وسيطرة القوي وغطرسته عند النصر، وقد التقى ابن خلدون ملكَ قشتالة

---

(١) عمر فاروق الطباع: ابن خلدون ص٣١- ٣٢. (٢) السابق: ابن خلدون ص ٣٣- ٤٥.

(بدرو) أثناء محاولته بسطَ نفوذه على ما تبقّى من مدنٍ قليلة ومنعزلة للمسلمين في الاندلس، والتقى أيضًا (تيمور لنك) وهو يحاصر مدن الشام وينهبها، ثُمَّ يحرقهَا، أي أنه رأى الانهياراتِ في شرق العالم الإسلامي وغربه، كما رأى كيف تموت الدول وكيف تنشأ، أمّا على المستوى الشخصي فلم يهنأ بمنصب، ولم يستَطِبْ مقامًا لكثرة الحسّاد والواشين، لكنه ورغم هذه الحياة القاسية والمضطربة استطاع أن يكون مثقفَ عصره، وشاهدًا عليه، واستطاع أن ينتزع وقتًا للكتابة والتأليف، وأن يقدم للأجيال من بعده عصارة ذهنه ورحيق روحه.

وظائفه العلمية:

عمل ابن خلدون بالتدريس في بلاد المغرب، بجامعة القرويين في (فاس)، ثم في الجامع الأزهر في القاهرة، والمدرسة الظاهرية.. وغيرها؛ وخلال إقامته في مصر نحوًا من ربع قرن تولّى ابن خلدون القضاء أكثر من مرة[(١)].

مؤلَّفاته:

يُعتبَر «ابنُ خلدون» واحدًا من أعظم المفكّرين المسلمين، وأبرز من كَتَبَ في علم التاريخ، وعنون كتابه بـ «كتاب العِبَر، وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، وينقسم هذا الكتاب إلى ثلاثة أجزاء: الأول: المقدِّمة؛ وفيها تأمُّلات عميقة حول الحضارة الإنسانية، والثاني: يهتمّ بتاريخ الأمم المهالك، والثالث: سيرة ابن خلدون الذاتية. وقد تُرجِمَت مقدمتُه إلى مختلف لغات العالم عدَّة مرات.

كتاب (تاريخ ابن خلدون):

(تاريخ ابن خلدون) هو الكتاب الذي رفعت مقدمتُه ابنَ خلدون إلى مصافِّ كبار فلاسفة العالم. وهي كما قال توينبي[(٢)] - مستعيرًا كلمة المقريزي[(٣)] - : (عملٌ لم يقم بمثله

---

(١) عمر فاروق الطباع: ابن خلدون ص ٤٦- ٥٢.

(٢) أرنولد جوزيف توينبي (١٨٨٩ - ١٩٧٥م): أستاذ الدراسات اليونانيَّة والبيزنطيَّة في جامعة لندن، ومدير دائرة الدراسات في وزارة الخارجية البريطانية؛ من أشهر مؤرخي القرن العشرين، أهم أعماله «موسوعة دراسة للتاريخ».

(٣) (تقي الدين) أحمد بن علي المقريزي (٧٦٦- ٨٤٥هـ): شيخ المؤرخين المصريين، عاش زمن المماليك، من أشهر كتبه: السلوك لمعرفة دول الملوك، والمواعظ والاعتبار بذكر الخطط و الآثار (المعروف بخطط المقريزي).

إنسان في أي زمان ومكان)[1]. وفيها أرسى قواعد فقه التاريخ وعلم العمران، وهو علم أعثره عليه الله كما يقول[2]، وموضوعه: (البحث في أسباب انهيار الدول وازدهارها)[3] وأراد أن تجد به الملوك ما يغني عن (سِرّ الأسرار) الذي ألَّفه أرسطو للإسكندر، وأنجزه أولاً في مدة خمسة أشهر، من عام (٧٧٩هـ) أثناء إقامته عند بني العريف في قلعة بني سلامة بوهران، ثم نقَّحه بعد ذلك، وهذَّبه، وألحق به تاريخ العرب وأخبار البربر وزناتة، وأهداه إلى المستنصر أبي العباس، الذي تولَّى إمارة تونس من سنة (٧٧٢ حتى ٧٩٦هـ). وكانت هذه النسخة موجودة حتى عام (١٨٥٨م)، فلمّا ترك تُونُس إلى مصر عكف على تهذيب الكتاب والزيادة عليه، زُهاء عشرين سنة، فأضاف إليه الجزء الخاص بملوك العجم، وأقسامًا أخرى ألحقها بمواضعها، وأهدى هذه النسخة للسلطان برقوق؛ فنَحَلَه لقب: (ولي الدين)، (وفرغ منها سنة ٧٩٧هـ) وانتسخ منها نسخة وقفها على طلبة العلم في جامع القرويين بفاس[4].

ومن مؤلَّفاته الأخرى: شرح قصيدة البردة، تلخيص مجموعة من كتب ابن رشد، تلخيص محصّل الإمام فخر الدين الرازي، كتاب في الحساب، تعريف مفيد في المنطق، لباب المحصول في أصول الدين، شرح أرجوزة ابن الخطيب، شفاء السائل لتهذيب المسائل[5].

آراؤه ومنهجه العلمي والفكري:

منهجه العلمي:

يقوم المنهج العلمي لابن خلدون على قاعدة أنَّ الواقع المادي هو موضوع العقل في ظواهره المختلفة؛ فعندما قام بتحليل وتفسير الفتوحات الإسلامية الكبرى خلال القرنين السابع والثامن استند إلى مفاهيمه العلمية التي تختلف عن مفاهيم القديس أوغسطين الذي اعتبر أنَّ الأسباب العميقة لمجمل مظاهر الحضارة القديمة تكمن في نظرات العناية الإلهية.

ومنهج ابن خلدون يقتضي أن يلتمس لكل شيء عِلَلَه وأسبابه؛ ويقوده هذا الأمر إلى أن يرد

---

(١) نقلاً عن: زهير ظاظا، شبكة الوراق: http://www.alwaraq.net

(٢) السابق نفسه.

(٣) انظر: محمد أمين فرشوخ: موسوعة عباقرة الإسلام ١/ ٦٨-٧١.

(٤) عبد الرحمن بدوي: مؤلفات ابن خلدون.

(٥) عمر فاروق الطباع: ابن خلدون ص ٥٤- ٥٦.

سلسلة الأسباب والمسببات إلى عِلَّة أولى؛ وبذلك يبرهن على وجود الله، ويتضمن هذا -كما يقول ابن خلدون- الاعتراف بعجز الإنسان عن معرفة كل شيء معرفة عملية تجريبية، وعلى أن شعور الإنسان بجهله في مواضع معينة هو نفسه ضَرْبٌ من العلم بلغة ذلك العلاّمة الكبير.

افكاره:

أشار باحثون عِدَّة في فكر ابن خلدون إلى ريادته في الإشارة إلى مسألتين مهمتين تنبَّه إليهما الفكر الحديث، وهما:

أولاً- أن القيمة الاقتصادية للسلعة يحددها الجهد الإنساني/ العمالي المبذول فيها، وليس مجرد قيمتها المادية. وهي مسألة انبنى عليها الفكر الاجتماعي الحديث - الاشتراكي بخاصة - في دعوته إلى إنصاف العمال الذين يضيف جهدهم إلى قيمة السلعة، وهي قيمة يستفيد منها الرأسماليون عادة. والواقع أنه لم يصل إلى هذه الدعوة الصريحة لكنه اقترب كثيرًا من مضمونها الفكري[1].

ثانيًا- أومأ ابن خلدون إلى شيء قريب من الفكرة القومية الجامعة، عندما تحدث عن «دولة العرب»، ثم «دولة الفرس»، ثم «دولة الترك» في سياق التاريخ الإسلامي. صحيح أنه بنى فكره في تفسير الاجتماع والتاريخ لدى العرب على «العصبية القبلية» - وهو واقع لا يستطيع أي مفكر حقيقي تجاهله - لكنه أشار أيضًا إلى أن تلك العصائب القبلية إذا تحالفت، خاصة في ظل «دعوة دينية»، تستطيع أن تؤسس تحالفًا أوسع بينها يستند إلى حقيقة كونها منتمية إلى «قوم» متميز من الأقوام.

إلا أن أهمية ابن خلدون وطرافة فكره، وإن تمثّلت في إيماءات فكريّة تتخطى عصرها كالفكرة الاقتصادية، والفكرة القومية؛ فإنه كان محدّدًا وواضحًا في أفكار أخرى، ما زالت واقعًا لا يمكن إنكاره في حياتنا العربية الراهنة؛ ومن ذلك تحذيره من اشتغال رجال السلطة بالتجارة، ومنافستهم لأهل البلد وتجّاره، بما يؤدّي إلى عرقلة الاقتصاد وتدميره، وانعكاس ذلك وبالاً على الدولة نفسها في نهاية الأمر؛ يقول ابن خلدون: «إن التجارة من السلطان مُضِرَّةٌ بالرعايا ومُفْسِدَةٌ للجباية»[2].

---

(١) محمد جابر الأنصاري: ابن خلدون وسيطًا بين العروبيين والإسلاميين، مجلة «العربي»: مارس ١٩٨٣.

(٢) محمد جابر الأنصاري: الرومانسية جميلة.. لكنها تجهل حقيقة التاريخ والعالم، جريدة الوطن.

كما لخّص رؤيته لآثار الاستبداد والتسلط بمقولته: «الظلم مُؤْذِنٌ بخراب العمران»، ونبَّه إلى أن كثرة العصبيات يُنذر بزوال الدولة: «إن الأوطان الكثيرة العصائب، قلّ أن تستحكم فيها دولة».

وبالرغم من أنَّ عصر ابن خلدون كان عصرًا معاديًا للفلسفة في المجتمع الإسلامي، وهو ما ينعكس في الفصل الذي عنوانه: «في إبطال الفلسفة وفساد منتحليها»، فقد حوّل ابن خلدون عمل العقل من الانشغال بالميتافيزيقيا (ما وراء الطبيعة) إلى إعماله في شئون المجتمع والتاريخ والعلم، أي إنزاله من السماء، فيما يتجاوزه من غيب، إلى واقع الأرض، وما فيها من شواهد ومشاهدة. ومن منطلق عقلانيته، انتقد السحر والطلسمات، وكتب في إبطال صناعة التنجيم وضعف مداركها، وفساد غايتها، وعرض لعلم المنطق بحياد موضوعي ولم يهاجمه، كما أنّ نقده للفلسفة الميتافيزيقية لم يصل لديه إلى حَدِّ تحريمها، وإنما اكتفى بتنبيه من يريد الاطلاع عليها إلى الإلمام بعلوم «الملة» من فقه وشرعيات[1].

إن التصالح الذي أقامه ابن خلدون بين نظرته المادية ونظرته الإيمانية شمل الكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية؛ فقد حاول بكل قواه إظهار التكامل بين ما هو رُوحي وما هو مادي، بين ما هو طبيعي وما هو اجتماعي، بين ما تقتضيه طبائع العمران، وبين ما تقرره المشيئة الإلهية.

ثناء العلماء عليه:

قال إيف لاكوست عن مؤلَّف ابن خلدون (المقدمة): «التحليل والتأليف والبحوث التي حققها هذا المغربي العبقري في القرن الرابع عشر تُساعدنا اليوم على إجادة فهم القضية التي هي بلا ريب أوسع القضايا وأشدّها مأساوية في عصرنا؛ ألا وهي التخلف»[2].

وقال كارّا دو فو: «إنَّ نزعة الاهتمام بالبحث في تاريخ النشوء والتطور تضع ابن خلدون في مصافِّ أرقى العقليات في أوروبا الحالية»[3].

ووصف كثير من الكتاب الغربيين سرد ابن خلدون للتاريخ بأنه أول سرد علمي منهجي للتاريخ[4]، وهذا تقدير كبير عندهم.

---

(١) نقلاً عن: محمد جابر الأنصاري: «مراجعات في الفكر القومي»، كتاب العربي رقم ٥٧ بتاريخ ١٥ يوليو ٢٠٠٤م.

(٢) ايف لاكوست: العلامة ابن خلدون ص٢٤٨. (٣) عمر فاروق الطباع: ابن خلدون، المقدمة.

(٤) نقلاً عن: زهير ظاظا، شبكة الوراق: http://www.alwaraq.net

دراسات عن ابن خلدون:

كُتب عن ابن خلدون وفكره ومنهجه ونظرياته العمرانية والاجتماعية وغيرها، مئات الكتب، منها:

العمران البشري في مقدمة ابن خلدون: سفتيلانا باتسييفا.

العلامة ابن خلدون: إيف لاكوست.

السياسة والدين عند ابن خلدون: جورج لابيكا.

فلسفه ابن خلدون الاجتماعية - تحليل ونقد: طه حسين.

النظرية الإسلامية لابن خلدون دراسة مقارنة: محمد محمود ربيع.

الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته: مصطفى الشكعة.

ابن خلدون إسلاميًا: عماد الدين خليل.

وفاته:

تُوُفِّي ابن خلدون بمصر سنة (٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)، عن عمر يناهز (٧٨)[١]، ودفن في مقابر الصوفية عند باب النصر شمال القاهرة؛ فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

* * *

(١) عمر فاروق الطباع: ابن خلدون ص ٥١.

المبحث السادس
دور العلم في حياة الإمام السيوطي
[٨٤٩هـ - ٩١١هـ / ١٤٤٥ - ١٥٠٥م]

ميلاده ونشأته:

هو «أبو الفضل» عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي. وُلِدَ بأسيوط في سبتمبر ١٤٤٥م لأسرة اشتُهِرَت بالعلم والتدين، وكان أبوه من العلماء الصالحين ذوي المكانة العلمية الرفيعة

نشأ يتيمًا؛ إذ تُوفي أبوه وله ست سنوات، وأَتَمَّ حفظ القرآن الكريم وهو دون الثامنة. ثم حفظ بعض الكتب في تلك السن المبكرة مثل: العُمدة، ومنهاج الفقه والأصول، وألفية ابن مالك، فاتسعت مداركه وزادت معارفه، وكان محل العناية والرعاية من عدد من العلماء من رفاق أبيه، وتولّى بعضهم أمر الوصاية عليه، ومنهم «الكمال بن الهمام الحنفي»[1] أحد كبار فقهاء عصره، الذي تأثّر به السيوطي تأثّرًا كبيرًا خاصة في ابتعاده عن السلاطين وأرباب الدولة[2].

شيوخه:

عاش السيوطي في عصرٍ كَثُرَ فيه العلماء الأعلام؛ فتأثر السيوطي بهذه النخبة، فابتدأ في طلب العلم سنة [٨٦٤ هـ/ ١٤٥٩م]، ودرس الفقه والنحو والفرائض، ولم يمضِ عامان حتى أُجيز بتدريس العربية، وألَّف في تلك السنة أول كتبه «شرح الاستعاذة والبسملة» وهو في سن السابعة عشرة، فأثنى عليه شيخه «علم الدين البلقيني».

وللسيوطي نحو ست مئة شيخ[3]؛ من أبرزهم: الحافظ ابن حجر، شمس الدين القياتي، الشيخ باكير، جلال الدين المحلي الشافعي، محمد الجيلاني[4].

---

(١) الكمال بن الهمام الحنفي (٧٩٠- ٨٦١هـ): هو محمد بن عبد الواحد الكمال بن همام الدين، اشتهر بالكمال بن الهمام، ولد بالإسكندرية، أحد أقطاب المذهب الحنفي، وإذا أطلق الحنفية كلمة «المحقق» عنوه بها.

(٢) مصطفى عاشور: السيوطي صاحب العلوم السبعة، حدث في العام الهجري، www.islamonline.net

(٣) إياد الطباع: جلال الدين السيوطي ص٤٧.

(٤) إياد الطباع: جلال الدين السيوطي ص ٣٢.

تلاميذه:

وتلاميذ السيوطي من الكثرة والنجابة بمكان، وأبرزهم «شمس الدين الداودي» صاحب كتاب «طبقات المفسرين» الذي كتبه بمساعدة أستاذه «السيوطي» ، و«شمس الدين بن طولون»، و«شمس الدين الشامي» محدِّث الديار المصرية، والمؤرِّخ الكبير «ابن إياس» صاحب كتاب «بدائع الزهور»[(١)].

ومنهم كذلك قاضي القضاة برهان الدين بن ظهيرة الشافعي، وقاضي القضاة نور الدين ابن أبي اليمن المالكي، ونور الدين السنهوري شيخ مالكية عصره، وفخر الدين المقسي فقيه الشافعية، ومحب الدين بن مصيفح، وزين الدين عبد القادر بن شعبان[(٢)].

رحلاته:

سافر السيوطي لطلب العلم إلى الفيوم ودمياط والمحلة وبلاد الشام واليمن والهند والمغرب[(٣)] والتكرور (تشاد حاليا)، ورحل إلى الحجاز سنة (٨٦٩هـ)[(٤)] وجاور بها سنة كاملة، وشرب من ماء زمزم ليصل في الفقه إلى رتبة سراج الدين البلقيني، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر العسقلاني[(٥)].

اعتزال الحياة العامة والسلاطين:

عاصر السيوطي ثلاثةَ عشرَ سلطانًا مملوكيًا، إلا أن علاقته بهم كانت متحفظة، وطابعها العام المقاطعة، وإن كان ثمة لقاء بينه وبينهم، وضع نفسه في مكانته التي يستحقها، وسلك معهم سلوك العلماء الأتقياء، فإذا لم يقع سلوكه منهم موقع الرضا قاطعهم وتجاهلهم، وكان بعض الأمراء يأتون لزيارته، ويقدمون له الأموال والهدايا النفيسة فيردها، ورفض مرات عديدة دعوة السلطان لمقابلته، وألَّف في ذلك كتابًا أسماه «ما وراء الأساطين في عدم التردد على السلاطين».

وقد أعانه على كثرة تأليفه انقطاعه التام للعمل وهو في سن الأربعين حتى وفاته، وثراء

---

(١) مصطفى عاشور: السيوطي صاحب العلوم السبعة، حدث في العام الهجري، www.islamonline.net

(٢) إياد الطباع: جلال الدين السيوطي ص ٣٣.

(٣) محمد سعيد مرسي: عظماء الإسلام عبر أربعة عشر قرنًا من الزمان ص ٣٤٤.

(٤) إياد الطباع: جلال الدين السيوطي ص ٤١.

(٥) مصطفى عاشور: السيوطي صاحب العلوم السبعة، حدث في العام الهجري، www.islamonline.net

مكتبته وغزارة علمه وكثرة شيوخه ورحلاته، وسرعة كتابته، فقد اتسع عمره التأليفي لـ خمسٍ وأربعين سنة، حيث بدأ التأليف وهو في السابعة عشرة من عمره، وانقطع له اثنين وعشرين عامًا متواصلة، ولو وُزِّع عمره على الأوراق التي كتبها لأصاب اليومُ الواحد أربعين ورقة، وقد تمنَّى أن يكون إمام المائة التاسعة من الهجرة، فيقول: «إني ترجَّيت من نعمة الله وفضله أن أكون المبعوث على هذه المائة، لانفرادي عليها بالتبحُّر في أنواع العلوم»[1].

إسهاماته العلمية:

عطاء علمي نادر:

إنَّ ما أنجزه السيوطي – رحمه الله- من مؤلفات تعجز اليوم عن إنجازه مؤسسات ومراكز بحوث، رغم ما يتوافر لها عادة من مال ورجال وعلماء، ومصادر معلومات من الكتب والمراجع والحواسب ونحوها.

ولا شك أن توفيق الله كان فوق الأسباب جميعها التي هيأت للسيوطي تأليف هذه الكتب، بالإضافة إلى تبحره في العديد من العلوم؛ يقول السيوطي عن نفسه: «رُزِقتُ التبحُّر في سبعة علوم: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع»[2]، بالإضافة إلى أصول الفقه والجدل، والقراءات التي تعلَّمها بنفسه، والطب.

وأهم أسباب هذا العطاء العلمي النادر[3]:

طموح السيوطي، ورغبته بالتفوق، والتصدر في ساحة الحياة، كما كان لبُعده عن الحياة العامة، والمجاملات الاجتماعية الفارغة التي لا تليق بأهل العلم دور كبير.

وكثرة المصادر بين يديه؛ فقد ترك له أبوه مكتبة زاخرة بالمصنفات، وكان يتردد منذ صغره على المدرسة المحمودية، وبها مكتبة كبيرة من أنفس الكتب الموجودة في القاهرة، كما أنَّ أسلوبه في التأليف قد مكَّنه من ذلك؛ فهو قد يختار مسألة من مسائل العلم، ولو صغيرة فيفردها في رسالة مستقلة.

(١) مصطفى عاشور: السيوطي صاحب العلوم السبعة، حدث في العام الهجري، www.islamonline.net

(٢) مصطفى عاشور: السيوطي صاحب العلوم السبعة، حدث في العام الهجري، www.islamonline.net

(٣) سعدي أبو جيب: حياة جلال الدين السيوطي مع العلم من المهد إلى اللحد ص٤٧.

وقد تميز السيوطي – رحمه الله- بالموسوعية، وجمع الأقوال والنُّقول في المسألة الواحدة، بحيث يُشَعِّبها تحريرًا، سواء كان الموضوع مخترَعًا أم مجموعًا.

منهجه في التأليف:

للسيوطي – رحمه الله- منهج في التأليف، يمكن إيراده على الوجه التالي:

أمانته في النقل، فهو يلتزم بعزو كل قولٍ إلى مَن قاله، كما يتبين من مؤلفاته العديدة.

نقله عن كتبٍ اندثرت الآن؛ مما ساعد على حفظ نصوصها لنا.

ذكره الأقوال المختلفة في الموضوع، مسندها إلى من قالها، ومناقشة الأدلة، وبيان ترجيحه، أو توقفه عن الترجيح.

مؤلَّفاته:

ذكر السيوطي في مؤلَّفَيْه «حُسْنُ المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة»، و«التحدُّث بنعمة الله» – وهو ترجمة ذاتية للسيوطي -؛ ذكر قائمة تضم عناوين مؤلفاته، كما ورد في فهرس مؤلفات السيوطي، وبهجة العابدين بترجمة حافظ العصر جلال الدين، وغيرها.. ما يصل بعدد كتبه إلى (١١٩٤) عنوانًا، طبع منها (٣٣١) عنوانًا، وما يزال (٤٣١) عنوانًا مخطوطًا، والمفقود هو (٤٣٢) عنوانًا[1].

ولتنوع معارف السيوطي؛ نجده يُصَنِّفُ في كل الفنون، فقد صَنَّف في التاريخ، وعلوم القرآن، والتفسير، والحديث وعلومه، والفقه، واللغة، والطبقات..

فمن أمثلة ما صنَّف في التاريخ:

«حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة»، و«تحفة المذاكر في المنتقى في تاريخ ابن عساكر»، و«التحفة الظريفة في السيرة الشريفة»، و«تاريخ الخلفاء».

وفي الطبقات:

ألَّف أكثر من (٥٥) كتابًا ورسالة يأتي في مقدمتها: «عين الإصابة في معرفة الصحابة»، و«بُغية الوعاة في طبقات النحاة».

---

(١) إياد الطباع: الإمام السيوطي ص٣١٢،٣١٣.

ومما صَنَّف في علوم القرآن:

«الإتقان في علوم القرآن» وقد جمع فيه ثمانين نوعًا من علوم القرآن، وما زال هذا الكتاب عمدة الدراسات القرآنية، و«التحبير في علوم التفسير»، و«متشابه القرآن»، و«الإكليل في استنباط التنزيل»، و«طبقات المفسرين»، و«الألفية في القراءات العشر»، «الناسخ والمنسوخ في القرآن»، وغير ذلك كثير..

وفي تفسير القرآن :

«الدُّرُّ المنثور في التفسير بالمأثور»، والتفسير المسند المسمي «ترجمان القرآن»، و«تفسير الجلالين»؛ الذي ابتدأه جلال الدين المحلي من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس، ثم ابتدأ بتفسير الفاتحة وبعد إتمامها مات المحلي، فأتم السيوطي ما ابتدأه شيخه منتهجًا نفس منهجه.

وفي الحديث وعلومه:

كان يحفظ مائتي ألف حديث كما روى عن نفسه، وكان مغرمًا بجمع الحديث واستقصائه؛ لذلك ألَّف عشراتِ الكتب في هذا المجال؛ ومن كتبه: «إسعاف المبطأ في رجال الموطأ»، و«تنوير الحوالك في شرح موطأ الإمام مالك»، و«جمع الجوامع»، و«الدُّرَر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة»، و«المنتقى من شعب الإيمان للبيهقي»، و«أسماء المدلسين»، و«آداب الفتيا»، و«طبقات الحفاظ».

وفي الفقه:

«الحاوي في الفتاوى»، و«الجامع في الفرائض»..

ومن كتبه في اللغة وعلومها:

«المزهر في اللغة»، و«الأشباه والنظائر في اللغة»، و«الاقتراح في النحو»، و«التوشيح على التوضيح»، و«المهذب فيما ورد في القرآن من المعَرَّب»، و«البهجة المرضية في شرح ألفية ابن مالك»، وفي ميدان البديع كان له: «عقود الجمّان في علم المعاني والبيان»، وغيره..

خصائص مؤلَّفاته :

١ - ضمُّ مؤلفاته لعدد من عناوين كتبه مثل كتابه «الحاوي للفتاوى» الذي يضم نحو سبعين رسالة له.

٢- تنوُّع موضوعات كتبه في الفنون المختلفة.

٣- اختلاف حجم كتبه ما بين الورقة الواحدة والمجلدات الكبيرة.

مناصبه:

الإفتاء:

تصدى السيوطي للإفتاء من سنة (٨٧١هـ) وعمره اثنان وعشرون عامًا، على مذهب الإمام الشافعي، واستمر في الفُتيا إلى أن اعتزل التدريس، وعمره قد قارب الأربعين، وبيَّن عذره في ذلك في «المقامة اللؤلؤية»[١].

التدريس:

بدأ التدريس من شوال سنة (٨٧٠هـ)، وما مرَّ عام حتى لزمه الفضلاء والكبراء، ومنهم الشيخ بدر الدين حسن القيمري أحد علماء الفرائض، وأحد المشاركين في الفقه والعربية، فلزمه عشر سنين، ومنهم الشيخ سراج الدين الأنصاري؛ شيخ القرَّاء، الذي لزمه نحو عشرين سنة[٢].

وبدأ إملاء الحديث الشريف، مستهل سنة (٨٧٢هـ)، بعد موت الحافظ ابن حجر العسقلاني[٣].

القضاء:

تقلَّد القضاء في عهد المتوكل العباسي سنة (٩٠٢هـ)[٤].

مشيخة الخانقاه:

تولاها سنة (٨٩١هـ) بعد وفاة الشيخ جلال الدين البكري، واستمر في هذا المنصب حتى سنة (٩٠٦هـ)؛ حين عزله طومان باي[٥].

دراسات عن السيوطي:

- إسهام السيوطي بالإفتاء: د. محمد الزحيلي.

---

(١) طبعت ضمن شرح المقامات ٢/ ٩٩٦.

(٢) إياد الطباع: الإمام السيوطي ص ٤٢٧.

(٣) السيوطي: التحدث بنعمة الله (مخطوط).

(٤) عبد القادر الشاذلي: بهجة العابدين (مخطوط).

(٥) الشعراني: الطبقات الصغرى ص ٣٤، ٣٥.

- الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي وجهوده في الحديث وعلومه: د. بديع السيد اللحام.
- الإمام السيوطي وجهوده في علوم القرآن: محمد يوسف الشربجي (رسالة دكتوراه).
- الإمام السيوطي وفن السيرة الذاتية: د. عبد الإله نبهان.
- جلال الدين السيوطي: منهجه وآراؤه الكلامية، د. محمد جلال أبو الفتوح.
- جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ومنهجه في الكتابة التاريخية: د. محمد عبد الوهاب فضل.
- دور الإمام السيوطي في إحياء حركة الاجتهاد الفقهي: د. محمد الدسوقي.
- جلال الدين السيوطي: مصطفي الشكعة.

وفاته:

تُوُفِّيَ السيوطي - رحمه الله- في (١٩ من جمادى الأولى ٩١١هـ/ ٢٠ من أكتوبر ١٥٠٥ م)[١] بعد حياةٍ حافلة بالعلم والتعليم؛ فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

***

(١) نجم الدين الغزي: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة.

الفصل الثاني

دور العلم في حياة علماء الحياة القدامى

ويضم هذا الفصل المباحث التالية:

المبحث الأول: دور العلم في حياة جابر بن حيان.

المبحث الثاني: دور العلم في حياة الخوارزمي.

المبحث الثالث: دور العلم في حياة الرازي.

المبحث الرابع: دور العلم في حياة الإصطخري.

المبحث الخامس: دور العلم في حياة البيروني.

المبحث السادس: دور العلم في حياة ابن النفيس

* * *

المبحث الأول
دور العلم في حياة جابر بن حيان

جابر بن حيّان.. مؤسس علم الكيمياء:

وصفه ابن خلدون في مقدمته وهو بصدد الحديث عن علم الكيمياء فقال: «إمـ المدونين فيها جابر بن حيان، حتى إنهم يخصونها به فيسمونها: «علم جابر»، وله فيها سبعو رسالة»[1].

إنه أبو موسى جابر بن حيان بن عبد الله الأزدي، نسبة إلى قبيلة أزد اليمنية التي هـجر البعض منها إلى الكوفة بعد انهيار سد مأرب. وُلِدَ في (طوس) واستقرَّ في بغداد بعد قيـ الدولة العباسية، وتوثقت علاقته بأسرة البرامكة الفارسية، وامتدت حياته ما بين (١٠٣ - ٢٠٠هـ/ ٧٢١ – ٨١٥م)[2].

يُعَد مؤسس علم الكيمياء التجريبي؛ فهو أول من استخلص معلوماته الكيميائية مـ خلال التجارب والاستقراء والاستنتاج العلمي، وكان غزير الإنتاج والاكتشافات، حتى إ الكيمياء اقترنت باسمه فقالوا: «كيمياء جابر»، و«الكيمياء لجابر»، وكذلك: «صنعة جابر» كما أُطلق عليه أيضًا: «شيخ الكيميائيين» و«أبو الكيمياء».

فقبل جابر كان هناك مجموعة من المهن البدائية القديمة، وقد اختلطت مع كثير مـ الحرف، كالتحنيط (في مصر القديمة) والدِّباغة، والصباغة والتعدين واستخلاص الزيوت لكن جابر بن حيان استطاع أن يطوِّر الكيمياء ويرفعها من تلك المنزلة البدائية التي كانت عليها إلى منزلة عالية، وذلك بإضافته للكثير من المعارف النظرية والعلمية، وإرسائه أسسَ وأصولَ تحضير المواد الكيميائية والتعامل معها؛ لذلك يُعتبَرُ ابنُ حيان شيخ الكيميائيين بلا منازع[3].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١/ ٣٢٢.

(٢) راجع ابن النديم: الفهرست ص ٤٢٠، الزِّركلي: الأعلام ٢/ ١٠٣، محمد علي عثمان: مسلمون علَّموا العـ ص٦٤، أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص١٧.

(٣) انظر أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ١٧.

بداية الكيمياء والمنهج العلمي عند جابر:

بدأت الكيمياء خرافية تستند على الأساطير البالية، حيث سيطرت فكرة تحويل المعادن الرخيصة إلى معادن نفيسة؛ وذلك لأن العلماء في حضارات ما قبل الإسلام كانوا يعتقدون أن المعادن المنطرقة مثل الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقصدير من نوع واحد، وأن تباينها نابع من الحرارة والبرودة والجفاف والرطوبة الكامنة فيها، وهي أعراض متغيرة (نسبة إلى نظرية العناصر الأربعة: النار والهواء والماء والتراب)؛ لذا يمكن تحويل هذه المعادن من بعضها البعض بواسطة مادة ثالثة وهي الإكسير. ومن هذا المنطلق تخيل بعض علماء الحضارات السابقة للحضارة الإسلامية أنه بالإمكان ابتكار إكسير الحياة أو حجر الحكمة الذي يزيل علل الحياة ويطيل العمر[1]، وهذا ما كان يُسَمَّى بعلم الخيمياء.

وقد تأثَّر بعض العلماء العرب والمسلمين الأوائل كجابر بن حيان وأبي بكر الرازي بنظرية العناصر الأربعة التي ورثها علماء العرب والمسلمين عن اليونان، لكنهما قاما بدراسة علمية دقيقة لها؛ أدَّت هذه الدراسة إلى وضع وتطبيق المنهج العلمي التجريبي في حقل العلوم التجريبية.

وعن هذا المنهج التجريبي يقول جابر بن حيان: «وملاك كمال هذه الصنعة العمل والتجربة؛ فمن لم يعمل ولم يجرِّب لم يظفر بشيء أبدًا»[2].

وفي كتاب الخواص الكبير المقالة الأولى يقول: «إننا نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط دون ما سمعناه، أو قيل لنا وقرأناه، بعد أن امتحنّاه وجرَّبناه، فما صحَّ أوردناه، وما بطل رفضناه، وما استخرجناه نحن أيضًا قايسناه على أحوال هؤلاء القوم»[3].

ولذلك يُعَد جابر أول من أدخل التجربة العلمية المخبرية في منهج البحث العلمي الذي أرسى قواعده، وكان أحيانًا ما يُسمي التجربة بالتدريب، فكان يقول: «فمن كان دَرِبًا كان عالمًا حقًّا، ومن لم يكن دَرِبًا لم يكن عالمًا، وحسبُك بالدربة في جميع الصنائع أن الصانع الدَّرِب

---

(١) انظر علي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية ص ٢٧٤، وانظر في الموضوع أيضًا: جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي، مكتبة الخانجي - القاهرة ص ٢٦٨، ٢٦٩ .

(٢) جابر بن حيان: كتاب التجريد، ضمن مجموعة حققها ونشرها هوليارد بعنوان: مصنفات في علم الكيمياء للحكيم جابر بن حيان، باريس ١٩٢٨م.

(٣) جابر بن حيان: كتاب الخواص الكبير ص ٢٣٢، ضمن مجموعة كراوس.

يحذق، وغير الدَّرِب يعطل»[1]!!

وعليه قطع جابر خطوة أبعد مما قطع اليونان في وضع التجربة أساس العمل لا اعتماد على التأمل الساكن.

لقد كانت أعمال جابر القائمة على التجربة المعملية أهم محاولة جادة قامت آنذاك لدراسة الطبيعة دراسة علمية دقيقة؛ فهو أول من بشَّر بالمنهج التجريبي المخبري، وتكاد الإجراءات التي كان يتبعها في أبحاثه تطابق ما يقوم به المشتغلون بالمنهج العلمي اليوم؛ وتتلخص إجراءاته في خطوات ثلاث:

الأولى- أن يأتي الكيميائي بفرض يفرضه من خلال مشاهداته، وذلك حتى يفسر الظاهرة التي يريد تفسيرها.

الثانية- أن يستنبط مما افترضه نتائج تترتب عليه نظريًا.

الثالثة- أن يعود بهذه النتائج إلى الطبيعة ليتثبت ما إذا كانت ستصدق على مشاهداته الجديدة أم لا؛ فإن صدقت تحولت الفرضية إلى قانون علمي يُعوَّل عليه في التنبؤ بما يمكن أن يحدث في الطبيعة إذا توافرت ظروف بعينها[2].

ولقد اهتم هولميارد Holmyard بأعمال جابر ومنهجه العلمي ومؤلفاته، وعكف على إبراز القيمة العلمية لعمله، وتراه بعد ذلك يقول: «إن الصنعة الخاصة عند جابر هي أنه قد عرف وأكَّد على أهمية التجريب بشكل أوضح من كل من سبقه من الخيميائيين[3]».

جابر بن حيان.. أوَّليات وإنجازات:

قام جابر بإجراء كثير من العمليات المخبرية، كان بعضها معروفًا من قبلُ فطوَّره وأدخل عملياتٍ جديدة. ومن الوسائل التي استخدمها: التّبخُّر، والتقطير[4]، والتبلُّر[5].

---

(١) جابر بن حيان: كتاب السبعين ص ٤٦٤، ضمن مجموعة كراوس.

(٢) انظر حكمت نجيب: دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ص٢٦٦ - جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص ٢٧٨، ٢٧٩ - أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ١٧.

(٣) عمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب ص٢٥١.

(٤) هو فصل الجسم المراد تحضيره بتصعيده إلى بخار ثم تكثيفه إلى سائل.

(٥) هو فصل البلورات من ماء البحر المالح والحالات المشابهة.

والتسامي[1]، والترشيح[2]، والصَّهر، والتكثيف، والإذابة، ودرس خواص بعض المواد دراسة دقيقة؛ فتعرف على أيون الفضة النشادري المعقد[3].

كما قام بتحضير عدد كبير من المواد الكيميائية، فهو أول من حضَّر حمض الكبريتيك بالتقطير من الشَّب، وحضَّر أكسيد الزئبق، وحمض النتريك؛ أي ماء الفضة، وكان يسميه الماء المحلل أو ماء النار، وحضر حمض الكلوريدريك المسمَّى بروح الملح، وهو أول من اكتشف الصودا الكاوية، وأول من استخرج نترات الفضة وقد سمّاها حجر جهنم، وثاني كلوريد الزئبق (السليماني)، وحمض النتروهيدروكلوريك (الماء الملكي)، وسُمِّي كذلك لأنه يذيب الذهب ملك المعادن.

وهو أول من لاحظ رواسب كلوريد الفضة عند إضافة ملح الطعام إلى نترات الفضة، كما استخدم الشب في تثبيت الأصباغ في الأقمشة، وحضَّر بعض المواد التي تمنع الثياب من البلل؛ وهذه المواد هي أملاح الألومنيوم المشتقة من الأحماض العضوية ذات الأجزاء الهيدروكربونية، ومن استنتاجاته أن اللهب يُكسِب النحاس اللون الأزرق، بينما يكسب النحاس اللهب لونًا أخضر. وهو أول من فصل الذهب عن الفضة بالحل بوساطة الحمض، وشرح بالتفصيل عملية تحضير الزرنيخ، وتنقية المعادن، وصبغ الأقمشة[4].

ويُعزَى إليه أنه أولُ من استعمل الميزان الحساس والأوزان متناهية الدقة في تجاربه المخبرية؛ وقد وزن مقادير يقل وزنها عن ١/ ١٠٠ من الرطل، ويُنسَب إليه تحضير مركبات كل من كربونات البوتاسيوم والصوديوم والرصاص القاعدي والإثمد (الأنتيمون)، كما استخدم ثاني أكسيد المنجنيز لإزالة الألوان في صناعة الزجاج، كما بلور جابر النظرية التي مفادها أن الاتحاد الكيميائي يتم باتصال ذرات العناصر المتفاعلة مع بعضها، ومثَّل على ذلك بكلٍّ من الزئبق والكبريت عندما يتحدان ويكونان مادة جديدة. وقد كان يجري معظم تجاربه

---

(١) هو فصل الجسم الطيار بتسخينه حيث يتكاثف بخاره إلى مادة صلبة دون المرور على الحالة السائلة.

(٢) تمكُّن بواسطة منخل أو قطعة قماش أن يرشح كثيرًا من المواد.

(٣) انظر حكمت نجيب: دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ص٢٦٦، جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٢٨٠، ٢٨١.

(٤) انظر في ذلك: جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٢٨١.

في مختبر خاص اكتُشِف في أنقاض مدينة الكوفة في أواخر القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي[1].

مؤلَّفات جابر:

في مجمل مصنفاته يقول لوبون G. Lebon: «تتألف من كتب جابر موسوعة علمية تحتوي على خلاصة ما وصل إليه علم الكيمياء عند العرب في عصره، وقد اشتملت كتبه على بيان مركبات كيميائية كانت مجهوله قبله»[2].

فقد كان لجابر بن حيان العديد من المؤلفات العلمية، والتي تأثر بها الغرب ونقل عنه. حتى قرر ابن النديم أن له ٣٠٦ كتب في الكيمياء بأسلوبه الخاص في أنحاء العالم، ورغم أن معظمها قد فُقِد، إلا أنه يوجد منها الآن ثمانون كتابًا محفوظًا في مكتبات الشرق والغرب، وقد تَرْجم معظمَ كتبه إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي روبرت الشستري (ت ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م) وجيرار الكريموني (ت ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) وغيرهما، ومثّلت مصنفاته المترجمة الركيزة التي انطلق منها علم الكيمياء الحديث في العالم[4].

ويُعَدُّ كتاب (السموم ودفع مضارها) أشهر مؤلفات جابر ويقع في خمسة فصول، وفيه قسَّم السموم إلى حيوانية ونباتية وحجرية، وذكر الأدوية المضادة لها وتفاعلها في الجسم. وهذا الكتاب يعتبر همزة وصل بين الطب والكيمياء.

ومن أشهر كتبه أيضًا كتابه (الخواص الكبير)، ونسخته الأصلية موجودة في المتحف البريطاني.

وله أيضًا كتاب (التدابير)، وتعني العمل القائم على التجربة، وكتاب (الموازين)، وكتاب (الحديد) وفيه يصف جابر عملية استخراج الحديد الصلب من خاماته الأولى، كما

---

(١) راجع في إنجازات جابر: الأعلام ٢/ ١٠٤، أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص١٧، علي عبد الله الدفاع: روائع الحضارة العربية الإسلامية ص٢٧٥، عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ص١٠٥، ١٠٦.

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص ٢٥.

(٤) راجع ابن النديم: الفهرست ص٤٢٠، الأعلام ٢/ ١٠٣، محمد علي عثمان: مسلمون علموا العالم ص٦٤، أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ١٧.

يصف كيفية صنع الفولاذ بوساطة الصهر بالبواتق. ومن كتبه كذلك (نهاية الإتقان) وهو مؤلف رائد في الكيمياء، ورسالة (في الأفران).

وله أيضًا رسائل عن المرايا، كما ألَّف كتاب (السبعين) والذي يشمل سبعين مقالة حول أهم تجاربه في الكيمياء والنتائج التي توصل إليها، ويمكن اعتباره خلاصة ما وصل إليه علم الكيمياء عند العرب في عصره.

وله كذلك كتاب (الرحمة) ألَّفه في الخيمياء وتطرق فيه إلى إمكانية تحويل المعادن إلى ذهب، وكتاب (الجمل العشرون) و(أسرار الكيمياء) (وأصول الكيمياء)، وهذا غير مؤلفات أخرى في الرياضيات والفلسفة والشعر، وقد ترجمت بعض كتبه إلى اللاتينية مثل كتاب السبعين وكتاب الرحمة، وهناك كتب له باللاتينية لم يتم العثور على أصولها العربية، مثل: (البحث عن الكمال) و(كتاب العهد) و(كتاب الأتون)[1].

ولقد تُرجِمت كتب جابر إلى اللاتينية، وظلَّت المرجع الأوفى للكيمياء زهاء ألف عام، وكانت مؤلفاته موضع دراسة مشاهير علماء الغرب، أمثال: كوب، وبرثوليه، وكراوس، وهولميارد الذي أنصفه ووضعه في القمة، وبدَّد الشكوك التي أثارها حوله العلماء المغرضون. وأيضًا سارتون الذي أرَّخ به حقبة من الزمن في تاريخ الحضارة الإسلامية، يقول: «ما قدَّر جابر أن الكتب التي ألَّفها لا يمكن أن تكون من وضع رجل عاش في القرن الثاني للهجرة لكثرتها ووفرة ما بها من معلومات»[2].

***

(١) انظر في مؤلفاته: ابن النديم: الفهرست ص٤٢١ وما بعدها، الزركلي: الأعلام ٢/ ١٠٣، أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ١٧، رحاب خضر عكاوي: موسوعة عباقرة الإسلام ٤/ ٢٩ وما بعدها.

(٢) انظر عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ص ١٠٦.

المبحث الثاني
دور العلم في حياة الخوارزمي

«إذا انتقلنا إلى الرياضيات والفلك فسنلتقي منذ البدء بعلماء من الطراز الأول، ومن أشهر هؤلاء العلماء أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي»!!

ليست تلك المقولة من تعبيري، وإنما هي لأحد المستشرقين الذين عُنُوا بعلوم المسلمين وعرفوا فضل إسهاماتهم، وهو المستشرق «ألدو ميلي».

فالخوارزمي الرياضي والجغرافي والفلكي يُعَدُّ من أكبر علماء المسلمين، ومن العلماء العالميين الذين كان لهم تأثير كبير على العلوم الرياضية والفلكية. وهو مؤسس ومبتدع علم الجبر كعلمٍ مستقلٍّ عن الحساب، وقد أخذه الأوروبيون عنه، كما أنَّه أول من استعمل كلمة «جبر» للعلم المعروف الآن بهذا الاسم، فحتى الآن ما زال الجبر يعرف باسمه العربي في جميع اللغات الأوروبية، وترجع كل الكلمات التي تنتهي في اللغات الأوروبية بـ «algorism/algorithme» إلى اسم الخوارزمي، كما يرجع إليه الفضل في تعريف الناس بالأرقام العربية؛ ولهذا كان الخوارزمي أهلاً لتسميته بأبي الجبر[1].

وتعود أصول الخوارزمي إلى خوارزم (أوزبكستان اليوم)، وعاش في بغداد فيما بين سنة ١٦٤ وسنة ٢٣٥ هجرية (الموافق ٧٨٠ - ٨٥٠ ميلادية) وتُوُفِّي هناك. وبرز في زمن خلافة المأمون (مدة خلافته من ١٩٨ - ٢١٨هـ)، ولمع في علم الرياضيات والفلك.

لما كان والد المأمون (الخليفة هارون الرشيد) يريد توطيد العلم في أنحاء العالم الإسلامي المترامي الأطراف، فقد سار على دربه ابنه (المأمون) وأسَّس بيت الحكمة، والذي كان يحتوي على مكتبة تضم نصوصًا مترجمة لأهم الكتب اللاتينية، ثم عيَّن الخوارزمي رئيسًا له، وعهد إليه بجمع الكتب اليونانية وترجمتها، الأمر الذي أفاد الخوارزمي كثيرًا؛ حيث درس الرياضيات، والجغرافيا، والفلك، والتاريخ، إضافةً إلى إحاطته بالمعارف اليونانية والهندية.

---

(١) راجع محمد علي عثمان: مسلمون علَّموا العالم ص٧٤، ٧٥ - أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص٢٠.

حتى كان نبوغه في حدود سنة ٢٠٥ هجرية[١].

وقد حدثت تغييرات عديدة في اسمه عند الغربيين بعد وفاته، حيث عُـرِف بــ (alchwarizmi) و(al-karismi) و(algoritmi) و(algorismi) و(algorism) وقــد أصــبحت الكلمــة الأخــيرة (algorism) تعني الحساب في اللغة الإنجليزية الحديثة[٢].

الخوارزمي وعلم الجبر:

كلمة جبر تعبير استخدمه (الخوارزمي) من أجل حَلِّ المعادلات بعد تكوينها، ومعناه أن طرفًا من طرفي المعادلة يكمل ويزداد على الآخر وهو الجبر، والأجناس المتجانسة في الطرفين تسقط منها، وهو المقابلة أي أنَّ: ب س + ج= أ س٢ + ٢ب س- جـ

تصبح بعد الجبر ب س+ ٢جـ= أ س٢+٢ب س.

وتصبح بالمقابلة ٢جـ= أ س٢+ ب س.

واسم الجبر في جميع لغات العالم مشتق من الكلمة العربية (الجبر)، وهي التي استخدمها (الخوارزمي) في كتابه (الجبر والمقابلة) كما سيأتي الحديث عنه.

وقد اشتغل المسلمون بالجبر واستعملوه حتى نبغوا فيه، بينما كان بمثابة الألغاز بالنسـبة للأوروبيين؛ يقول الدكتور ديفيـد يـوجين سـميث في كتابـه (تـاريخ الرياضـيات - المجلـد الثاني): «إنَّ الجبر عُرِفَ في اللغة الإنجليزية في القرن السادس عشر الميلادي بالجبر والمقابلـة، ولكنَّ هذا الاسم اختُصِرَ في النهاية من مخطوطة محمد بن موسى الخـوارزمي الـذي نـال الشـهرة العظيمة عام ٨٢٥م، وذلك في بيت الحكمة في بغداد حيث أَلَّف هناك كتابه القيم «الجبر والمقابلة»، وفيه حلَّ الكثير من المعادلات ذات الدرجة الأولى والثانية من ذات المجهول الواحد».

واعترف رام لاندو في كتابه (مآثر العرب في الحضارة) بأنَّ الخوارزمي «ابتكر علم الجبر،

(١) انظر ابن النديم: الفهرست ص٣٣٣، إليان سيركيس: معجم المطبوعات ١/ ٨٤١، أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص٢٠، علي عبد الله الدَّفّاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية ص ١٤٨.

(٢) انظر علي عبد الله الدفاع: مبتكر علم الجبر.. محمد بن موسى الخوارزمي، مجلة البحوث الإسلامية - الرياض، العدد الخامس، الإصدار من المحرم إلى الثانية لسنة ١٤٠٠هـ ٥/ ١٧٣، أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص٢٠.

ونقل العدد من صفة البدائية الحسابية لكمية محدودة إلى عنصر ذي علاقة وحدود لا نهاية لها من الاحتمالات، ويمكننا القول بأن الخطوة من الحساب إلى الجبر هي في جوهرها الخطوة من الكينونة إلى الملاءمة، أو من العالم الإغريقي الساكن إلى العالم الإسلامي المتحرك الأبدي الرباني»[1].

وقد طوَّر الخوارزمي علم الجبر كعلمٍ مستقل عن الحساب؛ ولذا ينسب إليه هذا العلم في جميع أنحاء المعمورة، فقد ابتكر الخوارزمي في بيت الحكمة الفكر الرياضي بإيجاد نظرية لتحليل كل معادلات الدرجة الأولى والثانية ذات المجهول الواحد بطرق جبرية وهندسية[2].

ولذا فقد سمَّى جورج سارتون في كتابه (مقدمة من تاريخ العلوم) النصف الأول من القرن التاسع بـ «عصر الخوارزمي»؛ وذلك لأن الخوارزمي كان أعظم رياضيٍّ في ذلك العصر على حَدِّ تعبير سارتون، ويستطرد سارتون فيقول: «وإذا أخذنا جميع الحالات بعين الاعتبار فإنَّ الخوارزمي أحد أعظم الرياضيين في كل العصور».

وإضافة إلى ذلك أكَّد الدكتور أي وايدمان أن أعمال الخوارزمي تتميز بالأصالة والأهمية العظمى وفيها تظهر عبقريته، كما قال الدكتور ديفيد بوجين سميث ولويس شارل كاربينسكي في كتابهما (الأعداد الهندية والعربية): «إنَّ الخوارزمي هو الأستاذ الكبير في عصر بغداد الذهبي؛ إذ إنه أحد الكُتَّاب المسلمين الأوائل الذين جمعوا الرياضيات الكلاسيكية من الشرق والغرب، محتفظين بها حتى استفادت منها أوروبا المتيقظة آنذاك. إنَّ لهذا الرجل معرفة كبيرة، ويدين له العالم بمعرفتنا الحالية لعلمي الجبر والحساب»[3].

وقد وجد الخوارزمي متسعًا من الوقت لكتابة علم الجبر حينما كان منهمكًا في الأعمال

---

(١) انظر علي عبد الله الدفاع: مبتكر علم الجبر.. محمد بن موسى الخوارزمي، مجلة البحوث الإسلامية – الرياض – العدد الخامس، الإصدار من المحرم إلى الثانية لسنة ١٤٠٠هـ ٥/ ١٧٣.

(٢) انظر كرم حلمي فرحات أحمد: التراث العلمي للحضارة الإسلامية في الشام والعراق خلال القرن الرابع الهجري ص٦٤٢، ٦٤٣، وانظر أيضًا المصدر السابق: ص١٧٢.

(٣) انظر علي عبد الله الدفاع: مبتكر علم الجبر.. محمد بن موسى الخوارزمي، مجلة البحوث الإسلامية ٥/ ١٧٢- ١٧٣، وله أيضًا: العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية ص ١٤٩ وانظر أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص٢٠.

الفلكية في بغداد، ويختص كتابه «الجبر والمقابلة» بإيجاد حلول لمسائل عملية واجهها المسلمون في حياتهم اليومية[1].

إنَّ الرياضيات التي ورثها المسلمون عن اليونان تجعل حساب التقسيم الشرعي للممتلكات بين الأبناء معقدًا للغاية إن لم يكن مستحيلاً، وهذا هو ما قاد الخوارزمي للبحث عن طرق أدق وأشمل، وأكثر قابلية للتكيف فابتدع علم الجبر.

وقد استعمل الخوارزمي الطريقة البيانية لإيجاد جذر المعادلة بكل نجاح؛ لذا فإن الخطأ بين موضعين يُعتبر من ابتكاره، وهذه الطريقة لعبت دورًا مهمًا في التحليل العددي، وتُعرَف في اللغة الإنجليزية باسم (false positions).

وعرف الخوارزمي الوحدة المستعملة في المساحات، واستخدم (التكسير) ويقصد بذلك المساحة، سواء كانت سطحية أو حجمية، كما تطرق إلى إيجاد مساحات بعض السطوح مستقيمة الأضلاع والأجسام، والدائرة، والقطعة، والهرم الثلاثي والرباعي، والمخروط والكرة، كما استعمل النسبة التقريبية وقيمتها ط = $\frac{٢٢}{٧}$ أو ١٠، لذا فإن الخوارزمي أثرى علم الجبر باستعماله بعض الأفكار الجبرية لمعرفة المساحة.

وكان الخوارزمي يعرف أن هناك حالاتٍ يستحيل فيها إيجاد قيمة للمجهول (الكميات التَّخيُّلية) وسماها: (الحالة المستحيلة)، وبقيت معروفةً بهذا الاسم بين علماء الرياضيات حتى بدأ العالم السويسري (ليوناردو أويلر leonhard euler (١٧٠٧-١٧٨٣م) في تعريف الكميات التخيلية بأنها: الكمية التي إذا ضربت بنفسها كان الناتج مقدارًا سالبًا، وأعطى كثيرًا من الأمثلة على هذا.

ثم جاء العالم الألماني كارل قاوس (١٧٧٧ – ١٨٥٥م) فركز على دراسة الكميات التخيلية وخواصها. والجدير بالذكر أن الكميات التخيلية قادت في النهاية إلى معرفة علم التحليل المركَّب الذي يُعتبر من أهم العلوم الرياضية في العصر الحديث، ومما لا يقبل الجدل والتأويل أن الفضل في ذلك يرجع أولاً للعالم المسلم محمد بن موسى الخوارزمي.

ولم يكتشف الخوارزمي علم الجبر ونظرية الخطأين (وهما أداة أساسية في التحليل

---

(١) علي عبد الله الدفاع: مبتكر علم الجبر.. محمد بن موسى الخوارزمي، مجلة البحوث الإسلامية ٥/ ١٨٧، وله أيضًا: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٧٦.

العلمي الرياضي) فحسب، وإنما وضع كذلك أسس البحث التجريبي الحديث باستخدام النماذج الرياضية، كما نشر أول الجداول العربية عن المثلثات للجيوب والظلال، وقد تُرجمت إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر[1].

وإضافةً إلى إسهاماته الكبرى في الحساب، أبدع الخوارزمي أيضًا في علم الفلك، وأتى ببحوث جديدة في المثلثات، ووضع جدولاً فلكيًا (زيجًا)، وقد كان لهذا الزيج الأثر الكبير على الجداول الأخرى التي وضعها العرب فيما بعد، إذ استعانوا به واعتمدوا عليه وأخذوا منه. وكان من أهم إسهامات الخوارزمي العلمية التحسينات التي أدخلها على جغرافية بطليموس سواء بالنسبة للنص أو الخرائط[2].

مؤلَّفات الخوارزمي:

يقول محمد خان في كتابه (نظرة مختصرة لمآثر المسلمين في العلوم والثقافة): «إنَّ الخوارزمي يقف في الصف الأول من صفوف الرياضيين في جميع العصور، وكانت مؤلفاته هي المصدر الرئيسي للمعرفة الرياضية لعدة قرون في الشرق والغرب»[3].

وقد اهتم الخوارزمي في بداية الأمر بالاكتشافات في علم الرياضيات والفلك، ثم بعده بدأ التأليف فصنَّف كتبًا كثيرة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

١ - كتاب (الجبر والمقابلة)، وهو الكتاب الرئيسي ذو الأثر الحاسم، والذي درس فيه تحويل المعادلات وحلها، وقد ترجمه إلى اللاتينية «جيراردو دي كريمونا» ونشر النص العربي (روزن) مع ترجمة إنجليزية في لندن سنة ١٨٥١م.

وترجم له أيضًا «يوحنا الإسباني» الذي ترجم من العربية إلى اللاتينية عدة مؤلفات في الفلك والنجوم، من بينها كتب للخوارزمي، بفضلها انتقل الحساب الهندي والنظام العشري في الحساب إلى أوروبا؛ حتى عرفت العمليات الحسابية باسم Alguarismo. والغريب أنه ترجمت إلى العربية باسم «اللوغاريتمات» وهي في الأصل منسوبة إلى الخوارزمي!! والصحيح

(١) انظر علي عبد الله الدفاع (مبتكر علم الجبر)، أكرم عبد الوهاب ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم.

(٢) انظر أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص٢٠ - عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ص١٠٨ .

(٣) علي عبد الله الدفاع: مبتكر علم الجبر.. محمد بن موسى الخوارزمي، مجلة البحوث الإسلامية ٥/ ١٧٢.

أن تترجم «الخوارزميات» أو «الجداول الخوارزمية».

وقد أصبح الكتاب مصدرًا أساسيًا في الرياضيات في الجامعات الأوروبية حتى القرن السادس عشر، وكان معظم ما ألَّفه مَنْ جاء بعده في علم الجبر مستندًا عليه، وقد نقله من اللغة العربية إلى اللاتينية روبرت أوف شستر (Robert of chester) فاستنارت به أوروبا.

وحديثًا حقق الدكتوران علي مصطفى مشرفة ومحمد مرسي هذا الكتاب، والمطبوع في سنة ١٩٦٨م[1].

٢ - كتاب في الجغرافيا شرح فيه آراء بطليموس.

٣ - كتاب جداول للنجوم وحركاتها من مجلدين.

٤ - كتاب شرح فيه طريقة معرفة الوقت بواسطة الشمس.

٥ - كتاب جمع فيه بين الحساب والهندسة والموسيقى والفلك، ويقول البروفيسور جورج سارتون في كتابه (المدخل إلى تاريخ العلوم) عن هذا الكتاب: إنه «يشتمل على خلاصة دراساته لا على ابتكاراته العظيمة».

٦ - كتاب العمل بالإسطرلاب.

٧ - كتاب صنع الإسطرلاب.

٨ - كتاب وضح فيه طريقة الجمع والطرح.

٩ - كتاب صورة الأرض وجغرافيتها.

١٠ - كتاب صورة الأرض، نشر سنة ١٩٢٩م.

١١ - كتاب المعرفة، وهو يبحث في علم النجوم.

١٢ - كتاب زيج الخوارزمي الأول.

١٣ - كتاب زيج الخوارزمي الثاني، وهو جداول فلكية سماه (السند هند)، جمع فيه بين مذهب الهند والفرس.

---

(١) الدفاع: مبتكر علم الجبر.. محمد بن موسى الخوارزمي، مجلة البحوث الإسلامية ٥/ ١٨٧، وله أيضًا: روائع الحضارة العربية الإسلامية في العلوم ص٧٧، ومحمد علي عثمان: مسلمون علَّموا العالم ص ٧٧، وعبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ص٦٥.

١٤ - رسالة عن النسبة التقريبية وقيمتها الرياضية.

١٥ - رسالة وضح فيها معنى الوحدة المستعملة في المساحات والحجوم.

١٦ - رسالة ذكر فيها برهانًا آخر لنظرية فيثاغورس مستخدمًا مثلثًا قائم الزاوية ومتساوي الساقين.

١٧ - رسالة مفصلة وضح فيها قوانين لجمع المقادير الجبرية وطرحها وضربها وقسمها

١٨ - رسالة شرح فيها طريقة إجراء العمليات الحسابية الأربع على الكميات الصُّم.

١٩ - كتاب رسم الربع المعمور.

٢٠ - كتاب الجمع والتفريق.

٢١ - كتاب الرُّخامة (الرخامة قطعة من الرخام مخططة تساعد على معرفة الوقت عن طريق الشمس).

٢٢ - كتاب هيئة الأرض.

٢٣ - كتاب المعاملات، ويتضمن المعاملات التي يقوم بها الناس من بيع وشراء[1].

لقد عاش الخوارزمي – رحمه الله- حياةً عمادُها العلمُ؛ بحثًا واكتشافًا وتأليفا ابتغاء مرضاة الله ﷻ، وسعيًا وراء راحة البشرية، ورقي الحضارة، وظلَّ كذلك حتى وافته المَنِيَّة سنة ٢٣٥هـ/ ٨٥٠م؛ فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

***

(١) انظر ابن النديم: الفهرست ص ٣٣٣، إليان سيركيس: معجم المطبوعات ١/ ٨٤١، علي عبد الله الدفاع: مبتكر علم الجبر.. محمد بن موسى الخوارزمي، مجلة البحوث الإسلامية ٥/ ١٨٦، ١٨٧، وله أيضًا: العلوم البحتة ص١٧٢، ١٧٣.

المبحث الثالث
دور العلم في حياة الرازي

الرازي.. معجزة الطب عبر الأجيال:

لم يكن الرازي طبيبًا فحسب، ولا معلمًا فقط.. ولكنه أبدع كذلك في مجالات الأخلاق والقيم والدين.. كما أبدع - ولا شك في ذلك - في مجال الإنسانية.. حتى أصبح علمًا من أعلام الفضيلة، كما كان علمًا من أعلام الطب.. ولا شك أن هذا الرجل العظيم من أعظم صور الحضارة الإسلامية..

فهو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي.. وقد وُلِدَ في مدينة الرَّي وإليها نُسِب.. ومدينة الري تقع على بعد ستة كيلومترات جنوب شرقي طهران وكان ميلاده في سنة ٢٥٠هـ (٨٦٤م)، وكان منذ طفولته محبًا للعلم والعلماء، فدرس في بلدته «الري» العلوم الشرعية والطبية والفلسفية[١]، ولكن هذا لم يُشْبِع نَهَمَه لطلب العلم؛ فلم تكن مدينة الري - على اتساعها وكثرة علمائها - بالمدينة التي تحوي علوم الأرض في ذلك الوقت.. ولذلك يمَّم الرازي وجهه شطر عاصمة العلم في العالم في ذلك الوقت وهي «بغداد» عاصمة الخلافة العباسية، فذهب إليها في شِبه بعثة علمية مكثفة، تعلم فيها علومًا كثيرة، ولكنه ركَّز اهتمامه في الأساس على الطب، وكان أستاذه الأول في هذا المجال هو «علي بن زين الطبري»، وهو صاحب أول موسوعة طبية عالمية (فردوس الحكمة)[٢]..

اهتمَّ الرازي أيضًا بالعلوم التي لها علاقة بالطب، كعلم الكيمياء والأعشاب[٣]، وكذلك علم الفلسفة؛ لكونه يحوي آراء الكثير من الفلاسفة اليونان والذين كانوا يتكلمون في الطب أيضًا.. وكان أستاذه الأول في الفلسفة هو «البلخي»[٤]، وهكذا أنفق الرازي عدة سنوات من عمره في تعلم كل ما يقع تحت يديه من أمور الطب، حتى تفوق في هذا المجال تفوقًا ملموسًا..

ثم عاد الرازي بعد هذا التميز إلى الري فتقلَّد منصب مدير مستشفي مدينة الري، وكان

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١/ ٦٣.

(٢) مصطفى وهبة: نوابغ المسلمين ١/ ١١٧.

(٣) القنوجي: أبجد العلوم ٣/ ١١٤.

(٤) ابن النديم: الفهرست ١/ ٤١٦.

من المستشفيات المتقدمة في الإسلام، وذاعت شهرته، ونجح في علاج الكثير من الحالات المستعصية في زمانه، وسمع بأمره الكبير والصغير والقريب والبعيد.. حتى سمع به «عضد الدولة بن بويه» كبير الوزراء في الدولة العباسية فاستقدمه إلى بغداد ليتولى منصب رئيس الأطباء في المستشفى العضدي، وهو أكبر مستشفي في العالم في ذلك الوقت، وكان يعمل به خمسون طبيبًا[1]..

والحق أنه لم يكن مستشفى فقط بل كان جامعة علمية وكليَّة للطب على أعلى مستوى وقد أصبح الرازي فيه مرجعية علمية لا مثيل لها، ليس في بغداد فقط، وإنما في العالم كله وليس على مدى سنوات معدودة، ولكن لقرون متتالية.. فكان معجزة الطب عبر الأجيال؟"

ولعلَّه من المهم جدًّا أن نقف وقفة ونتساءل: كيف وصل الرازي إلى هذا المجد.. وإلى هذه المكانة؟

لابدَّ أن نعلم أن النجاح لا يأتي مصادفة، وأن التفوق لا يكون إلا بجهد وتعب وبذل وتضحية.. كما أن الإبداع لا يكون عشوائيًا أبدًا.. إنما يحتاج إلى تخطيط وتدريب ومهارة وهكذا كانت حياة الرازي – رحمه الله-.

لقد بحث الرازي عن العلم في كل مصادره، واجتهد قدر استطاعته في تحصيل كل ما يقع تحت يده من معلومات، ثم أتبع ذلك بتفكير عميق وتجارب متعددة ودراسة متأنية.. حتى بدأ يعدِّل في النظريات التي يقرؤها.. وأخذ ينقد ويحلل.. ثم وصل إلى الاختراع والإبداع..

لقد انتشر في زمان الرازي الطب اليوناني والفارسي والهندي والمصري نتيجة اجتهاد العلماء في ترجمة كتب تلك الأمم، فقرأها الرازي جميعًا، لكنه لم يكتف بالقراءة بل سلك مسلكًا رائعًا من أرقى مسالك العلم وهو الملاحظة والتجربة والاستنتاج..

فقد كان الطب اليوناني هو أهم طب في تلك الفترة، ولكنه كان يعتمد في الأساس على النظريات غير المجرَّبة.. وكان كل أطباء اليونان يعتمدون هذه الطريقة حتى عرفوا بفلاسفة الطب، فهم لم يُخضعوا نظرياتهم لواقع الحياة إلا قليلاً، ولا يُستثنَى من ذلك أحدٌ من أطباء

---

(١) الدفاع: رواد في الحضارة الإسلامية ص٢١٨.

اليونان حتى العمالقة منهم أمثال جالينوس وأبقراط!! ولكن الرازي قال كلمته المشهورة التي تعتبر الآن قانونًا من قوانين العلم بصفة عامة والطب بصفة خاصة.. قال: «عندما تكون الواقعة التي تواجهنا متعارضة والنظرية السائدة يجب قبول الواقعة، حتى وإن أخذ الجميع بالنظرية تأييدًا لمشاهير العلماء..»[1]!!

فهو يذكر أنه ليس لعالم مشهور أو غير مشهور أن يقرر نظرية تتعارض مع المشاهدة الفعلية والتجربة الحقيقية والواقعة الحادثة، بل تُقَدَّم الملاحظة والتجربة؛ وبذلك يُبْنَى الاستنتاج على ضوء الحقائق لا الافتراضات الجدلية..

ما أروعه حقًا من مبدأ، وما أبدعها من طريقة!!

ولذلك نجد أن الرازي كثيرًا ما انتقد آراء العلماء السابقين نتيجة تجاربه المتكررة، بل إنه أَلَّف كتابًا خصِّيصًا للرد على جالينوس أعظم أطباء اليونان وسمَّى الكتاب «الشكوك على جالينوس» وذكر في هذا الكتاب الأخطاء التي وقع فيها جالينوس، والتصويب الذي قام هو به لهذه الأخطاء، وكيف وصل إلى هذه النتائج[2]..

وكان الرازي حريصًا على سؤال المريض عن كل ما يتعلق بالمرض تقريبًا من قريب أو بعيد وكان يقول: «إن الطبيب ينبغي ألا يدع مُساءَلة المريض عن كل ما يمكن أن يقوله عن علَّته»[3]، وهذه أول خطوة في التعامل مع المريض في الطب الحديث، وهي معرفة تاريخ المرض والأمور المحتملة التي قد تكون سبَّبت المرض، ثم يقوم الرازي بالكشف على المريض وقياس الحرارة والنبض، وإذا استلزم الأمر أن يدخل المريض المستشفى فإنه يضعه تحت الملاحظة الدقيقة المستمرة لتسجيل كل معلومة قد تكون مفيدة في كشف سبب المرض أو في وصف العلاج.. وقد كان الرازي من الدقة إلى درجة أذهلت من قرأ تعليقاته على الحالات المرضية التي وصفها..

بل إن الرازي وصل إلى ما هو أروع من ذلك، حيث أرسى دعائم الطب التجريبي على الحيوانات، فقد كان يجرب بعض الأدوية على القرود فإن أثبتت كفاءة وأمانًا جربها مع الإنسان، وهذا من أروع ما يكون، ومعظم الأدوية الآن لا يمكن إجازتها إلا بتجارب على

---

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ٧٧، ٧٨. (٢) المصدر السابق ١/ ٦٨.

(٣) المصدر السابق ٣/ ٢٧.

الحيوانات كما كان يفعل الرازي – رحمه الله –[1]..

ولقد كان من نتيجة هذا الأسلوب العلمي المتميز للرازي، أن وصل إلى الكثير من النتائج المذهلة، وحقق سبقًا علميًا في كثير من الأمور..

فالرازي هو أول مبتكر لخيوط الجراحة، وقد ابتكرها من أمعاء القطة! وقد ظلت تستعمل بعد وفاته لعدة قرون، ولم يتوقف الجراحون عن استعمالها إلا منذ سنوات معدودة في أواخر القرن العشرين، عند اختراع أنواع أفضل من الخيوط، وهذه الخيوط هي المعروفة بخيوط أمعاء القط.. «cat gut»[2]..

والرازي هو أول من صنع مراهم الزئبق[3]..

وهو أول من فرَّق بين النزيف الوريدي والنزيف الشرياني، واستخدام الضغط بالأصابع لإيقاف النزف الوريدي، واستخدم الربط لإيقاف النزيف الشرياني، وهذا عين ما يستخدم الآن!!

وهو أول من وصف عملية استخراج الماء من العيون[4]..

وهو أول من استخدم الأفيون في علاج حالات السعال الجاف..

وهو أول من أدخل المليِّنات في علم الصيدلة..

وهو أول من اعتبر الحمَّى عرضًا لا مرضًا[5]..

وكان – رحمه الله – يهتم بالتعليق على وصف البول ودم المريض للخروج منهما بمعلومات تفيده في العلاج[6]..

كما نصح بتجنب الأدوية الكيميائية إذا كانت هناك فرصة للعلاج بالغذاء والأعشاب،

---

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ٧٨.

(٢) محمود الحاج قاسم محمد: الموجز لما أضافه العرب في الطب ص٤٣.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ٤.

(٤) محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص٣٠٨ نقلا عن عبد المنعم عبد الحميد: مجلة جامعة الموصل عدد ١٥، السنة الثاني ص٦٧.

(٥) انظر: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص٧٢.

(٦) الرازي: الحاوي ١٠/ ١٠.

وهو عين ما ينصح به الأطباء الآن[1]..

ولم يكن الرازي مبدعًا في فرع واحد من فروع الطب، بل قدم شرحًا مفصلاً للأمـراض الباطنية والأطفال والنساء والولادة والأمراض التناسلية والعيون والجراحة وغير ذلك..

وقد منحه الله ذكاء فوق العادة، ويؤكد ذلك وسيلته في اختيار المكـان المناسـب لإنشـاء مستشفي كبير في بغداد.. فقد اختار أربعة أماكن تصلح لبناء المستشفى ، ثم بـدأ في المفاضـلة بينها، وذلك بوضع قطعة لحم طازجة في الأماكن الأربعة.. ثم أخذ يتابع تعفُّن القطع الأربع، ثم حدد آخر القطع تعفنًا، واختار المكان الذي وُضعت فيه هذه القطعة لبناء المستشفى ؛ لأنه أكثر الأماكن تميزًا بجو صحي، وهواء نقي يساعد على شفاء الأمراض[2]..

ولم يكن الرازي مجرد طبيب يهتم بعلاج المرض، بل كان معلمًا عظـيمًا يهـتم بـنشر العلـم وتوريث الخـبرة، وكـان رحمـه الله يـدرس لتلامذتـه الطـب في المدرسـة الطبيـة العظيمـة في المستشفى العضـدي ببغـداد، وكـان يعتمـد في تدريسـه عـلى المنهجـين: العلمـي النظـري، والتجريبي الإكلينيكي؛ فكان يدرس الكتب الطبية، وبعض المحـاضرات، ويـدير الحلقـات العلمية، وفي ذات الوقت يمر مع طلبته على أسِرَّة المرضى.. يشرح لهم ويعلمهـم وينقـل لهـم خبرته، وكان يُدرِّس لهم الطب في ثلاث سنوات، ويبدأ بالأمور النظرية ثم العملية، تمامًا كما يحدث في كليات الطب الآن، وكان في آخر السنوات الثلاث يعقد امتحانًا لطلبة الطب مكونًا من جزأين: الجزء الأول في التشريح، والثاني في الجانب العملي مع المرضى، ومن كان يفشل في الجانب الأول «التشريح» لا يدخل الامتحان الثاني، وهذا أيضًا ما نمارسه الآن في كليات الطب[3]..

ولم يكن الرازي يكتفي فقط بالتدريس والتعليم والامتحانـات لنقـل العلـم، بـل اهـتم بجانب آخر لا يقل أهمية عن هذه الجوانب وهو جانب التأليف، فكـان – رحمـه الله– مُكثـرًا من التأليف وتدوين المعلومات وكتابة الكتب الطبية، حتـى أحصى لـه ابـن النـديم في كتابـه «الفهرست» ١١٣ كتابًا و٢٨ رسالة، وهذا عدد هائل، خاصةً وأنها جميعًا في مجال الطب[4]..

وقد كان من أعظم مؤلفات الرازي كتاب «الحاوي في علـم التـداوي»، وهـو موسـوعة

(١) مصطفى وهبة: نوابغ المسلمين ١/ ١٢١.

(٢) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٣/ ١٣.

(٣) سامي حمارنة: الصناعة الطبية ص٣٠٣.

(٤) انظر: ابن النديم: الفهرست ١/ ٤٢٠.

طبية شاملة لجميع المعلومات الطبية المعروفة حتى عصر الرازي، وقد جمع فيه – رحمه الله- كل الخبرات الإكلينيكية التي عرفها، وكل الحالات المستعصية التي عالجها، وتتجلى في هذا الكتاب مهارة الرازي – رحمه الله-، ودقة ملاحظاته، وغزارة علمه، وقوة استنتاجه..

وقد تُرجِم هذا الكتاب إلى أكثر من لغة أوروبية، وطُبع لأول مرة في بريشيا بشمال إيطاليا سنة ٨٩١هـ (١٤٨٦م)، وهو أضخم كتاب طُبع بعد اختراع المطبعة مباشرة، وكان مطبوعًا في ٢٥ مجلدًا، وقد أُعيدت طباعته مرارًا في البندقية بإيطاليا في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ويذكر المؤرخ «ماكس مايرهوف» أنه في عام ١٥٠٠ ميلادية كان هناك خمس طبعات لكتاب الحاوي مع عشرات الطبعات لأجزاء منه..

ومن كتبه أيضًا «المنصوري»، وقد سماه بهذا الاسم نسبة إلى المنصور بن إسحاق حاكم خراسان وقد تناول فيه موضوعات طبية متعددة في الأمراض الباطنية والجراحة والعيون، وقد تعمَّد الرازي الاختصار في هذا الكتاب فجاء في عشرة أجزاء!! لذلك رغب العلماء الأوروبيون في ترجمته عدة مرات إلى لغات مختلفة، منها اللاتينية والإنجليزية والألمانية والعبرية! وقد تم نشره لأول مرة في ميلانو سنة ١٤٨١م، وظل مرجعًا لأطباء أوروبا حتى القرن السابع عشر الميلادي[١].

ومن أروع كتبه كذلك كتاب «الجدري والحصبة»، وفيه يتبين أن الرازي أول من فرق بين الجدري والحصبة، ودوَّن ملاحظات في غاية الأهمية والدقة للتفرقة بين المرضين، وقد أُعيدت طباعة هذا الكتاب في أوروبا أربع مرات بين عامي (٩٠٣ - ١٢٨٣هـ) (١٤٩٨ - ١٨٦٩م)[٢]..

ومن كتبه أيضًا كتاب «الأسرار في الكيمياء»، والذي بقي مدة طويلة مرجعًا أساسيًّا في الكيمياء في مدارس الشرق والغرب[٣].

ومن كتبه المهمة كذلك كتاب «الطب الروحاني» الذي ذكر فيه أن غايته من الكتاب هو إصلاح أخلاق النفس.. وحضَّ في كتابه هذا على تكريم العقل، وعلى قمع الهوى ومخالفة الطباع السيئة وتدريب النفس على ذلك[٤]..

---

(١) محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٩٢.

(٢) انظر: محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين ص٧٣.

(٣) محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١٩١.

(٤) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص٩٥.

إلا أن أهم ما ميز الرازي في ذلك كله، هو البُعد الأخلاقي عنده..

فقد تميز – رحمه الله– بالأمانة العلمية التامة في كتاباته؛ فكان لا يذكر أمرًا من الأمور اكتشفه غيره إلا أشار إلى اسم المكتشف الأصلي، ولذلك حفلت كتبه بأسماء جالينوس وأبقراط وأرمانسوس وغيرهم، كما ذكر في كتبه المحدثين من الأطباء أمثال يحيى بن ماسويه وحنين بن إسحاق...

وكان الرازي يحض تلامذته على اتباع نهج الكتابة والتأليف، فكان يقول لهم: «إذا جمع الطالب أكبر قدر من الكتب وفهم ما فيها، فإن عليه أن يجعل لنفسه كتابًا يضمنه ما غفلت عنه الكتب التي قرأها»..

فهو ينصح كل طلبته أن يسجلوا المعلومات التي يلحظونها في أثناء دراستهم وعلاجهم للمرضى - والتي لم تُذكر في الكتب السابقة - وبذلك يستفيد اللاحقون بعلمهم وتأليفهم..

ولم يكن الرازي عالمًا فقط، بل كان إنسانًا خلوقًا من الدرجة الأولى، فقد اشتهر بالكرم والسخاء وكان بارًّا بأصدقائه ومعارفه، عطوفًا على الفقراء وبخاصة المرضى، فكان ينفق عليهم من ماله الخاص، ويجري لهم أحيانًا الرواتب الثابتة[1]!

وكان يوصي تلامذته أن يكون هدفهم هو إبراء المرضى أكثر من نيل الأجور منهم، ويوصيهم كذلك بأن يكون اهتمامهم بعلاج الفقراء تمامًا كاهتمامهم بعلاج الأمراء والأغنياء.. بل إنه من شدَّة اهتمامه بالفقراء ألَّف لهم كتابًا خاصًا سماه «طب الفقراء»، وصف فيه الأمراض المختلفة وأعراضها ثم وصف طرق علاجها عن طريق الأغذية والأعشاب الرخيصة بدلاً من الأدوية مرتفعة الثمن أو التراكيب النادرة[2]..

ومن شدة اهتمامه بالأخلاق الحميدة ألَّف كتابًا خاصًا بهذا الأمر سماه **«أخلاق الطبيب»** يشرح فيه العلاقة الإنسانية بين الطبيب والمريض، وبين الطبيب والطبيب، وضمَّنه كذلك بعض النصائح للمرضى في تعاملهم مع الأطباء[3].

---

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ٣/ ١٣.

(٢) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص١١٥، ١١٦.

(٣) انظر: مقدمة أخلاق الطبيب للرازي، لمحققه عبد اللطيف محمد العبد ص٦.

هذا.. وقد اعترف القاصي والداني لأبي بكر الرازي بالفضل والمجد والعظمة والعلم والسبق، ولا نقصد بذلك المسلمين فقط، بل اهتم غير المسلمين أيضًا بإنجازات الرازي وابتكاراته..

فنجد فضلاً عن ترجمة كتبه إلى اللغات الأوروبية وطبعها أكثر من مرة.. نجد إشارات لطيفة وأحداثًا عظيمة تشير إلى أهمية ذلك العالم الجليل، ومن ذلك أن الملك الفرنسي الشهير لويس الحادي عشر، والذي حكم من عام ١٤٦١م إلى ١٤٨٣م، قد دفع الذهب الغزير لينسخ له أطباؤه نسخة خاصة من كتاب «الحاوي»؛ كي يكون مرجعًا لهم إذا أصابه مرض ما!!

ونجد أن الشاعر الإنجليزي القديم «جوفري تشوسر» قد ذكر الرازي بالمدح في إحدى قصائده المشهورة في كتابه «أقاصيص كونتربري»!!

ولعله من أوجه الفخار أيضًا أنه رغم تطور العلم وتعدد الفنون إلا أن جامعة بريستون الأمريكية ما زالت تطلق اسم الرازي على جناح من أكبر أجنحتها[1]، كما تضع كلية الطب بجامعة باريس نصبًا تذكاريًا للرازي، بالإضافة إلى صورته في شارع سان جيرمان بباريس..

لقد كان الرازي بحق صورة رائعة من صور الحضارة الإسلامية، قلَّما تتكرر في التاريخ. لقد كان طبيبًا وعالمًا ومعلمًا وإنسانًا.. عاش حياته لخدمة الإسلام والعلم والبشرية، ومات عن عمر بلغ ستين عامًا، وكانت وفاته في شعبان ٣١١هـ/ نوفمبر ٩٢٣م.

لكن من الصعب أن نقول: إنه مات؛ فالمرء يُكتَب له الخلود بقدر ما ينفع الناس، وصدق الرسول الكريم ﷺ عندما ذكر في الحديث الذي رواه أبو هريرة ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ**... وذكر منها: «.. **عِلْمًا يُنْتَفَعُ بِهِ**»[2]..

***

(١) أحمد علي الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ص١٣٨.

(٢) مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان بعد وفاته (١٦٣١)، وأبو داود (٢٨٨٠)، وأحمد (٨٨٣١)، وأبو يعلى (٦٤٥٧).

المبحث الرابع
دور العلم في حياة الإصطخري

الإصطخري.. عالم يسبق عصره!!

لعل من الصعوبة بمكان أن نختار عالمًا واحدًا من علماء الجغرافيا المسلمين لنتوقف أمام سيرته وإنجازاته توقفًا خاصًا؛ ذلك أن عبقريات المسلمين في ذلك المجال كثيرة عددًا.. غزيرة إنتاجًا.. وواسعة سبقًا وريادةً..

ومن ثَمَّ سنكتفي هنا بالتوقف أمام أحد أبرز عباقرة الجغرافيا المسلمين.. وهو «أبو إسحاق الإصطخري»..

وقد ولد الرحالةُ عالِمُ الأرضِ والجغرافيا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري (الذي يُعْرَفُ في بعض الأحيان باسم الكرخي) بمدينة **إصطخر**، وهي مدينة **برسيبوليس** القديمة في بلاد فارس.

وعاش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وإن كنا لا نعرف الكثير عن نشأته الأولى؛ فالموسوعات أو كتب تاريخ العلوم لم تحدد عام ميلاده، وكذلك لم تذكر شيئًا عن سيرة حياته.. إلا أنه كان رحالة زار الكثير من أقطار العالم الإسلامي؛ فقد زار أكثر أقطار آسيا حتى بلغ سواحل المحيط الهندي، ودخل الهند وتوفي بها بعد عام (٣٤٠هـ/ ٩٥١م)[1].

وعن منهجه العلمي الذي اتبعه في كتابه «المسالك والممالك»، والذي يُعَدُّ من أشهر مؤلفاته، فإن «**الإصطخري**» يستعرض ذلك فيقول: «فإني ذكرت في كتابي هذا أقاليم الأرض على الممالك، وقصدت منها بلاد الإسلام، وتفصيل مدنها، وتقسيم ما يعود بالأعمال المجموعة إليها.. ولم أقصد الأقاليم السبعة التي عليها قسمة الأرض، بل جعلت كل قطعة أفردتها مفردة مصورة، ثم ذكرت ما يحيط به من الأماكن، وما في أصقاعه من المدن والبقاع المشهورة والبحار والأنهار، وما يحتاج إلى معرفة من جوامع ما يشتمل عليه ذكر الإقليم.. لأن الغرض من كتابي هذا تصوير هذه الأقاليم التي لم يذكرها أحد علمته..».

وقد نهج «**أبو إسحاق الإصطخري**» منهجًا علميًا يدل على قدرته الفائقة في تصوُّر شكل

---

(١) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص١٩٩.

الأرض؛ فلم يتجاهل الناحية الفلكلورية أو الاقتصادية أو الإثنوغرافية!! (الإثنوغرافيا هو علم في وصف السلالات البشرية وعادات وأخلاق الشعوب).. والحق أن هذه الطريقة التي سار عليها «الإصطخري» هي ذات الطريقة التي ينتهجها العلماء المعاصرون في مثل هذا النوع من الدراسات- وهو ألا تقتصر الدراسات الجغرافية على الجوانب الطبيعية فقط، دون التفات إلى الأبعاد الاقتصادية والثقافية والسلالية وغيرها مما يخص البشر الذين يحيون في هذه البقعة من الأرض..

كما يُحسَب للإصطخري – رحمه الله– أنه ركَّز على المدلول الجغرافي والسياسي والإداري- وتجنب النظريات التقليدية التي تنُصُّ على تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم، وأخذ كل إقليم بذاته كوحدة جغرافية مستقلة.

لقد فهم «الإصطخري» منهج علماء المسلمين في مجال علم الجغرافيا فهمًا جيدًا مُحكمًا- وطبَّقه في مؤلفاته بدقة واستنباط ذكي؛ وبهذا عَرَفَ أصول المنهج العلمي التجريبي القائم على القياس والاستقراء، والمستند على المشاهدة والتجربة والتمثيل.

وإضافة إلى كل هذا فقد اشتهر **أبو إسحاق الإصطخري** بالإنصاف لمن سبقوه من علماء الجغرافيا، كما اتَّصف بالصدق والأمانة العلمية وتقوى الله، وهي صفات - كما ترى - نحن في أمَسِّ الحاجة إليها في ميادين العلوم التجريبية وغيرها، وهي الصفات التي - كما رأينا من قبل كثيرًا - كانت تميِّز البحث العلمي في عصور الحضارة الإسلامية.. ولم تكن ثمار تلك الصفات مقصورة على الأمة الإسلامية.. بل أفادت منها الإنسانية جمعاء.

أما عن مؤلَّفات «الإصطخري» فإنه لم يكن صاحب مؤلفات كثيرة، وكل ما وصلنا من أعماله كتابان، هما: (صور الأقاليم)، والثاني: (المسالك والممالك).. ولعل تأثُّر «الإصطخري» واضح بعالم الجغرافيا السابق عليه «ابن خرداذبة» الذي ألَّف كتابًا بنفس العنوان (المسالك والممالك)..

كذلك اعتمد على كتاب «البلخي» (تقويم البلدان)؛ فماثل «الإصطخري» كتاب البلخي في مخططه، ولكن بتوسع ومراجعة وتصحيح لكثير مما جاء فيه، وهذان المؤلفان للإصطخري يعدان من المراجع الأمهات في علم الجغرافيا بالأخص.

وقد كان اعتماده الأكبر في تصنيف مؤلَّفَيْهِ السابقَيْن على رحلاته العديدة في طلب العلم في شتى الآفاق الإسلامية؛ فجاء وصف تلك البلدان بإطناب، إضافة إلى تزيينه كتابه الأول

(صور الأقاليم) بالخرائط والأشكال التوضيحية[1].

أما مؤلَّفُه الأشهر (المسالك والممالك) فقد ظل في معظم مكتبات العالم كمخطوط حتى جاءت سنة (١٢٨٧هـ - ١٨٧٠م) وطبعه المستشرق (دي خويه) في ليدن بهولندا، وقد أُعِيدَ طبعه بالصور سنة (١٣٤٦هـ - ١٩٢٧م)، وقام بتحقيقه **محمد جابر عبد العال الحسيني** سنة (١٣٨١هـ - ١٩٦١م) ونشرته وزارة الثقافة المصرية بالقاهرة آنذاك؛ ولعل ذلك كان السبب في انتشار الكتاب وتداوله من قِبَل القراء في جميع أنحاء المعمورة.. ومنه عُرفت مكانة **الإصطخري** في ميدان علم الجغرافيا الإقليمية[2].

والحقيقة أن إنجازات **الإصطخري** في علم الجغرافيا كانت أكبر بكثير من أن ينظر إليها على أساس مؤلفاته.. **فالإصطخري** يعد من أوائل العلماء الذين جمعوا بين الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا السكانية في كتبهم، وإذا كان قد اقتصر في مؤلفيه على وصف العالم الإسلامي، فقد قسَّمَهُ إلى عشرين إقليمًا، وكان يتحدث عن الإقليم لا بوصفه نطاقًا يضم عددًا من درجات خطوط العرض، ولكن بوصفه منطقة جغرافية واسعة، لها خصائصها الطبيعية والسكانية والثقافية والاقتصادية التي تُمَيِّزُها..

وقد تحدث في البداية عن الرُّبع المعمور من الأرض وأبعاده.. ثم تحدَّث عن البحار.. ثم بدأ بوصف جزيرة العرب والخليج العربي مع المحيط الهندي.. ثم السند والهند وأنهار سجستان.. ثم المغرب مع الأندلس وصقلية.. ومصر مع بلاد الشام وبحر الروم والجزيرة.. وإيران الجنوبية والوسطي والشمالية مع أرمينيا وأذربيجان وبحر الخزر (قزوين).. ومدن برطس في تخوم البحر المذكور وأعمالها وكورها وجبالها وأنهارها وعمائرها.. ثم يختم بحثه أخيرًا بوصف بلاد ما وراء النهر (التركستان).

ويذكر «**الإصطخري**» عن كل قطر معلومات تتعلق بالحدود والمدن والمسافات وطرق المواصلات، ويذكر تفاصيل متفرقة عن المحاصيل والتجارة والصناعة، وعن أجناس السكان، ولكن معظم التفاصيل تتعلق بالأقطار التي زارها[3].

وقد أولى «**الإصطخري**» عناية خاصة لموضوع المد والجزر؛ فله نظريات جزئية في هذا

(١) علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية والإسلامية ص١٠٤،١٠٥.

(٢) محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٧٦،٢٧٧..

(٣) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص١٩٩.

المضمار؛ مما يدل على طول باعه في علم الأنـواء، والمعـروف بـين العلـماء في المـاضي أن علـم الأنواء جزء لا يتجزأ من علم الجغرافيا.

ولا ننسى في حديثنا عن إنجازات «**الإصطخري**» أنه حاول بكل ما يملـك أن يصـحح الأخطاء الجغرافية التي وقع فيها علماء الجغرافيا السابقون له، واتخذ من الخرائط التي زخرت بها مؤلفاته وسيلة لشرح وإبراز الأفكار الجغرافية التصـحيحية.. ومـن أبـرز تلـك الخـرائط (خريطة بحر قزوين) التي شـهد المستشرقون بـدقتها.. كـما ركـز عـلى طريقـة المقارنـة بـين المدن[1]..

إلى غير ذلك مـن الإنجـازات المبدعـة التـي تحملـك عـلى الاعتقـاد بأنـك أمـام سـيرة وإنجازات لعالم من القرن العشرين الميلادي (الخامس عشر الهجري)، إلا أنه كان يعيش بـين علماء القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي)!!.

وقد عرف قدره **المقدسي** (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) حين أُتيح له أن يرى بعض كتبه؛ فـأكثر النقل عنه في (أخبار السند)، وقال يثني عليه: «.. ورأيت ببخارى مترجَمًا لإبراهيم بـن محمـد الفارسي (يعني: **الإصطخري**)..» ثم يُعلِّق عليه بقوله: «..وهو كتاب قد أجاد أشكاله..»[2]

كما يُذكَر أن «**أبا إسحاق الإصطخري**» ساح العالم الإسلامي؛ لذا استفاد من رحلاته في تصنيف كتابه (المسالك والممالك) الذي يكتسب أهمية بالغة؛ إذ يعتبر رائدًا للكتب الإقليميـة التي أُلِّفَتْ بعده في منهجه ومعلوماته وتبويبه[3].

فرحم الله عالمنا العظيم الإصطخري، ونسأل الله أن يهبنا أمثاله من العلماء الـذين غـيروا بجهودهم وعقولهم حركة التاريخ ومسيرة البشرية..

***

---

(١) على بن عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية و الإسلامية ص١٠٤.

(٢) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص١٩٩.

(٣) على بن عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية والإسلامية ص١٠٣.

المبحث الخامس
دور العلم في حياة البيروني

[٣٦٢- ٤٤٠هـ / ٩٦٣- ١٠٤٨م]

عرَّفه جورج سارتون في كتابه (مقدمة لدراسة تاريخ العلم) بقوله: «كان رحّالة وفيلسوفًا، ورياضيًا، وفلكيًا، وجغرافيًا، وعالمًا موسوعيًا، ومن أكبر عظماء الإسلام، ومن أكابر علماء العالم». ووصفه المستشرق الألماني سخاو بقوله: «أعظم عقلية عرفها التاريخ»[١].

إنه أبو الريحان أحمد بن محمد البيروني الخوارزمي، الذي وُلِدَ في بلدة بيرون، إحدى ضواحي مدينة (كاث) عاصمة الدولة الخوارزمية، سنة ٣٦٢هـ - ٩٦٣م، والذي اطَّلع على فلسفة اليونانيين والهنود، وعَلَتْ شهرته، وارتفعت منزلته عند ملوك عصره[٢].

كان لمؤلَّفاته اليد الطُّولى في صناعة أمجاد عصر النهضة والثورة الصناعية في العالم الغربي؛ فقد حدَّد بدقة خطوط الطول وخطوط العرض، وناقش مسألة ما إذا كانت الأرض تدور حول محورها أم لا، وسبق في ذلك جاليليو وكوبرنيكوس، إضافةً إلى اكتشافاتٍ أخرى عديدة..

وقد رحل البيروني إلى الهند وأقام فيها بضع سنين، نتج عنها كتابه (الطائر الصيت)، المعروف بكتاب الهند، والمعروف بـ (كتاب البيروني في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) أودع فيه نتيجة دراساته من تاريخ وأخلاق وعادات وعقائد وآداب وعلوم الهند، ومن جملتها ما كان عندهم من المعرفة بصورة الأرض.

ويصف المستشرق (روزن) منذ أكثر من سبعين عامًا هذا الكتاب بأنه «أثر فريد في بابه، لا مثيل له في الأدب العلمي القديم أو الوسيط، سواء في الغرب أم في الشرق»[٣].

وغير كتابه السابق كان للبيروني أيضًا كتب أخرى كثيرة ومهمة في ضروب مختلفة من

---

(١) راجع: كتاب نوابغ المسلمين ٢/ ٥٣، ٦٤، ٦٥ .

(٢) انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١/ ١٠٧٠، الزِّركلي: الأعلام ٥/ ٣١٤، عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص ٣٤٠، موسوعة العرب: أبو الريحان البيروني ص٢٦.

(٣) انظر: عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص٣٤١.

العلم؛ ففي الجغرافيا ألَّف: تصحيح الطول والعرض لمساكن المعمور من الأرض، وتحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن، أمَّا في التاريخ؛ فله: تصحيح التواريخ، والآثار الباقية عن القرون الخالية، وفي الفلك كان له مؤلفات عديدة، مثل: الاستشهاد باختلاف الأرصاد، واختصار كتاب البطليموس القلوذي، والزيج المسعودي، والاستيعاب للوجوه الممكنة في صنعة الإسطرلاب، وتعبير الميزان لتقدير الأزمان، وقانون المسعودي في الهيئة، وفي الرياضيات أُثِرَ عن البيروني مؤلَّفات عِدَّة؛ كاستخراج الكعاب والأضلاع وما وراءه من مراتب الحساب، وكتاب الأرقام. ورغم اهتمامه بالعلم فإنه كان ذا باعٍ طويل في الأدب؛ نحو كتب شرح ديوان أبي تمام، ومختار الأشعار والآثار، وفوق كل ذلك كانَ له مؤلَّفات عديدة في الفلسفة، مثل: كتاب المقالات والآراء والديانات، ومفتاح علم الهند، وجوامع الموجود في خواطر الهنود، وغير ذلك العشرات من المؤلَّفات الضخمة[1].

وبهذه المؤلفات يكاد البيروني يكون قد ألَّف في كل فروع المعرفة التي عهدها عصره؛ فقد كتب في الرياضيات والفلك والتنجيم والحكمة والأديان والتاريخ والجغرافيا والجيولوجيا والأحياء والصيدلة.

أما في مجال الطبيعيات فقد اهتم بالخواص الفيزيائية لكثير من المواد، وتناولت أبحاثه علم ميكانيكا الموائع والهيدروستاتيكا، ولجأ في بحوثه إلى التجربة وجعلها محورًا لاستنتاجاته[2]، كما انضم مع ابن سينا إلى الذين شاركوا ابن الهيثم في رأيه القائل بأن الضوء يأتي من الجسم المرئي إلى العين[3].

ومن أبرز ما توصل إليه البيروني تحديده الثقل النوعي لـ ١٨ عنصرًا ومركبًا بعضها من الأحجار الكريمة، وقد أجرى تجاربًا لذلك، استعمل فيها وعاءً مصبه متجه إلى أسفل، ومن وزن الجسم في الهواء تمكن من معرفة مقدار الماء المزاح، ومن هذا الأخير ووزن الجسم في الهواء حسب الوزن النوعي، وكانت حساباته دقيقة إلى حد كبير، وهي لا تختلف كثيرًا عن النتائج الحديثة[4].

---

(١) انظر الباباني: هدية العارفين ١/ ٤٨٠، الصفدي: الوافي بالوفيات ١/ ١٠٧٠، الزركلي: الأعلام ٥/ ٣١٤.

(٢) محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص١١٤،١١٥.

(٣) قدري طوقان: العلماء العرب وما أعطوه للحضارة ص١٦٣.

(٤) انظر: مصطفى وهبة: نوابغ المسلمين ٢/ ٦٣ بتصرف.

وفي ظاهرة الجاذبية كان البيروني، مع ابن الحائك، من الرواد الذين قالوا بأن للأرض خاصية جذب الأجسام نحو مركزها، وقد تناول ذلك في آراء بثَّها في كتب مختلفة، ولكنَّ أشهر آرائه في ذلك ضمَّنها كتابه **القانون المسعودي**[1].

ومن المسائل الفيزيائية التي تناولها البيروني في كتاباته ظاهرة تأثير الحرارة في المعادن، وضغط السوائل وتوازنها، وتفسير بعض الظواهر المتعلقة بسريان الموائع، وظاهرة المد والجزر وسريان الضوء، فقد لاحظ أن المعادن تتمدَّد عند تسخينها، وتنكمش إذا تعرضت للبرودة[2].

وأولى ملاحظاته في هذا الشأن كانت في تأثير تباين درجة الحرارة في دقة أجهزة الرصد، حيث تطرأ عليها تغيرات في الطول والقصر في قيظ النهار وصقيع آخر الليل، وتعرض في كتابه **الآثار الباقية عن القرون الخالية** لميكانيكا الموائع؛ فشرح الظواهر التي تقوم على ضغط السوائل واتزانها وتوازنها، وأوضح صعود مياه النافورات والعيون إلى أعلى مستندًا إلى خاصية سلوك السوائل في الأواني المستطرقة. كما شرح تجمع مياه الآبار بالرشح من الجوانب حيث يكون مصدرها من المياه القريبة منها، وتكون سطوح ما يجتمع منها موازية لتلك المياه، وبيَّن كيف تفور العيون وكيف يمكن أن تصعد مياهها إلى القلاع ورؤوس المنارات. وتحدث عن ظاهرة المد والجزر في البحار والأنهار وعزاهما إلى التغير الدوري لوجه القمر[3].

أما فيما يختص بسريان الضوء فقد فطن إلى أن سرعة الضوء تفوق سرعة الصوت[4]، واتفق مع ابن الهيثم وابن سينا في قولهما بأن الرؤية تحدث بخروج الشعاع الضوئي من الجسم المرئي إلى العين وليس العكس[5]، كما يقرر أن القمر جسم معتم لا يضيء بذاته وإنما يضيء بانعكاس أشعة الشمس عليه، وكان البيروني يشرح كل ذلك بوضوح تام، ودقة متناهية في تعبيرات سهلة لا تعقيد فيها ولا التواء[6].

---

(١) انظر: مصطفى وهبة: نوابغ المسلمين.

(٢) انظر: مصطفى وهبة: نوابغ المسلمين ٢/ ٦٣ بتصرف.

(٣) قدري طوقان: العلماء العرب وما أعطوه للحضارة ص١٧٦ بتصرف.

(٤) حسن نافعة، كليفورد بوزورث: تراث الإسلام ٢/ ١٩٣.

(٥) قدري طوقان: العلماء العرب وما أعطوه للحضارة ص١٦٣.

(٦) انظر موقع الموسوعة العربية العالمية (موثقة).

كما وضع البيروني قاعدة حسابية لتسطيح الكرة، أي نقل الخطوط والخرائط من الكرة إلى سطح مسطح وبالعكس.. وبهذا سهل رسم الخرائط الجغرافية[1].

ويعتبر البيروني بعدُ أحدَ ألمع الوجوه التي يمكن أن تعتز بها الثقافة العربية من خلال تاريخ الفكر الإسلامي وأكثرها جاذبية. فعلى الرغم من أن اسم البيروني يحتل مكانته من الأدب العربي في ميدان الجغرافيا والرحلات، إلا أنه يتبين لنا من خلال المصنفات السابقة أنه لم يكن جغرافيًا فحسب، بل كان رياضيًا وفلكيًا، وفيلسوفًا، وشاعرًا وأديبًا، وعالم اجتماع ومؤرخًا!!

نعم كان كلَّ أولئك، وبرز في كل فروع المعرفة الإنسانية هذه، وبعبارة أخرى: كان مؤلفًا انتظم نشاطه كل دائرة العلوم المعاصرة له، والتي تحتل بينها العلوم الرياضية والفيزيائية مكانة الصدارة عنده[2].

وفي رجب سنة ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م توفي البيروني، وكانت وفاته ختام حياة حافلة لرجل حكيم وعظيم، وفي وفاته يحكي أبو الحسن علي بن عيسى - كما ذكرنا من قبل - فيقول: دخلت على أبي الريحان وهو يجود بنفسه، فقال لي: كيف قلتَ لي يومًا في حساب الجدّات الفاسدة؟ فقلت له إشفاقًا عليه: أفي هذه الحالة؟ قال: يا هذا، أودِّع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألاَ يكون خيرًا من أن أخلّيها وأنا جاهل بها؟ فأعدتُ ذلك عليه وحفظ، وعلّمني ما وعد، وخرجت من عنده، وأنا في الطريق فسمعت الصراخ عليه[3]!!

***

(١) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص ٤٥٩، جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص٣٩٧.

(٢) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ص٣٤١، ٣٤٢.

(٣) الصفدي: الوافي بالوفيات ١/ ١٠٧٠ .

المبحث السادس
دور العلم في حياة ابن النفيس
(٦٠٧ - ٦٨٧هـ / ١٢١٠ - ١٢٨٨م)

أعلم الناس في عصره، وأعظم وأشهر عالم بوظائف الأعضاء في القرون الوسطى برمتها، والرَّائد الذي مهَّد الطريق أمام وليام هارفي، العالم الفسيولوجي الإنجليزي مكتشف الدورة الدموية الكبرى سنة ١٦٢٨م؛ حيث استطاع ابن النفيس اكتشاف الدورة الدموية الصغرى، وأن يصفها لأول مرة ليكون رائدًا لمن أتوا بعده!!

وبحقٍ كان مثالاً للعالم الورع التقي المنقطع إلى العلم، وواحدًا من أكبر الأطباء العرب والمسلمين الذين حققوا اكتشافات عظيمة وجليلة، يفتخر بها الطب الإسلامي والحضارة الإسلامية إلى يومنا هذا.

قال عنه السبكي: وأما الطب فلم يكن على وجه الأرض مثله قبلُ، ولا جاء بعد ابن سينا مثله، قالوا: وكان في العلاج أعظم من ابن سينا، وقال الإسنوي: كان إمام وقته في فنه شرقًا وغربًا بلا مدافعة، أعجوبة فيه وفي غاية الذكاء(١).

وكان قد أُشكِل على جالينوس فادَّعى أنَّ في الحاجز الذي بين الجانب الأيمن والجانب الأيسر في القلب ثقوبًا غير منظورة يتسرب فيها الدم من الجانب الواحد إلى الجانب الآخر، وما وظيفة الرئتين إلا أن ترفرفا فوق القلب فتبردا حرارته وحرارة الدم، ويتسرب شيء من الهواء فيها بواسطة المنافذ التي بينهما وبين القلب فيغذي ذلك القلب والدم.

فجاء هو وعارض هذه النظرية معارضة شديدة، وأثبت بما لا يدع مجالا للشك أن اليونان لم يفهموا وظيفة الرئتين والأوعية التي بين القلب والرئتين، وأنه فهم وظيفتها وأوعيتها وتركيب الرئة والأوعية الشَّعْرية التي بين الشرايين والأوردة الرئوية، وشرح الفُرَج الرئوية شرحًا واضحًا، كما فهم أيضًا وظائف الأوعية الإكليلية، وأنها تنقل الدم ليتغذى القلب به، ونفى التعليم القائل بأن القلب يتغذى من الدم الموجود في البطين الأيمن.

ثم كرَّر تعاليمه في الدورة الدموية الصغرى وطريقة عملها؛ ذلك أنه كرَّر هذه التعاليم

---

(١) انظر ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ١/ ١٠٧.

في خمسة مواضع متفرقة، ذاكرًا آراء ابن سينا، ومكررًا أقوال جالينوس التي اعتمد عليها ابن سينا، ثم عارضها بمنتهى الحماسة.. وكان حقيقًا بعدُ بأن يصفه جورج سارتون بأنه أول من اكتشف الدورة الدموية، ليكون بذلك الرائد لوليام هارفي الذي يُنسب إليه هذا الاكتشاف[1].

إنه الفقيه الطبيب العلامة علاء الدين علي بن أبي الحزم، القَرْشي (نسبة إلى قرية قَرْش) الدمشقي، الملقَّب بابن النفيس، وهو سوري ولد في قرية «قَرْش» بالقرب من دمشق سنة (٦٠٧هـ ١٢١٠م)[2].

نشأة ابن النفيس العالِم:

كغيره من علماء المسلمين بدأ ابن النفيس حياته العلمية بحفظ القرآن الكريم، وكذا درس النحو واللغة، والفقه والأصول والحديث، والمنطق والسيرة وغيرها، ثم وفي سنة (٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) وهو في الثانية والعشرين من عمره اتجه إلى دراسة الطب، وذلك بعد أزمة صحية ألّمت به.. وتراه يحكي ذلك فيقول: «قد عرض لنا حميات مختلفة، وكانت سِنُّنا في ذلك الزمان قريبة من اثنتين وعشرين سنة، ومن حين عُوفينا من تلك المرضة حَمَلنا سوء ظنّ بأولئك الأطباء (الذين عالجوه) على الاشتغال بصناعة الطب لننفع بها الناس».

وكان تعليمه الطب في دمشق على يد طبيب العيون البارع مهذب الدين عبد الرحمن المشهور باسم الدخوار، وهو أحد كبار الأطباء في التاريخ الإسلامي، وكان في ذلك الوقت كبير الأطباء في البيمارستان النوري العظيم، الذي أنشأه نور الدين محمود واجتذب إليه أمهر أطباء العصر الذين توافدوا عليه من كل مكان. وكان من أساتذته في الطب أيضًا عمران الإسرائيلي، ورضي الدين الرجي.

---

(١) انظر جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي ص ٣٤٦، ٣٤٧، علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٤٥١، محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٠٥- ٢٠٧، مصطفى لبيب عبد الغني: دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ص١٧٠، محمد علي عثمان: مسلمون علموا العالم ص٥١، ٥٢، أحمد علي الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ص١٤٠.

(٢) انظر ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ١/ ١٠٧، البابانى: هدية العارفين ١/ ٣٧٨، إدوارد فينديك: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص ٧٩ - كحالة: معجم المؤلفين ٧/ ٥٨، الزِّركلي: الأعلام، ٤/ ٢٧١، محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص ٢٠٥.

وكان رفيق دراسته ابن أبي أُصَيْبعة (صاحب طبقات الأطباء)، وقد رحلا معًا إلى القاهرة سنة ٦٣٣هـ، وعملا في البيمارستان الناصري الذي شغل فيه ابن النفيس منصب الرئاسة، وعميدًا للمدرسة الطبية الملتحقة به، وشغل ابن أبي أصيبعة رئيس قسم الكحالة.

ولم يكتفِ ابن النفيس بما درسه على أساتذة عظام في البيمارستان النوري، بل إنه انكبَّ أيضًا على كتب ابن سينا وأبقراط وجالينوس وغيرهم، وقال البعض: إنه كان يحفظ كتاب القانون في الطب لابن سينا عن ظهر قلب.

كما أنه اهتم أيضًا بدراسة الفلسفة والمنطق والبيان، وتعمق في دراسة الفقه، وعلوم الشريعة، حتى إنه أصبح أستاذًا لفقه الشافعي في المدرسة المسرورية بالقاهرة، إلى جانب نبوغه وعبقريته في الطب[1].

العالم المغمور:

لم يكن ابن النفيس مجهولاً في عصره؛ فقد أطنب في الحديث عنه العمري في مسالك الأبصار، والصفدي في الوافي بالوفيات، وابن أبي أصيبعة في إحدى مخطوطاته (طبقات الأطباء)، إلا أنَّ ابن النفيس لم يأخذ حقه من الذيوع والشهرة بما يوازي ويضارع إنتاجه واكتشافاته، ولعلَّ ذلك بسبب عدم التقدير أو عدم الإحاطة بهذه الاكتشافات في ذلك الوقت.

وقد تناول ابنَ النفيس من المستشرقين الأجانب لكلير في كتابه (الطب العربي)، والمستشرق الألماني مايرهوف في كثير من مقالاته، ووضع الدكتور بول غليونجي كتابًا وافيًا، يُعَدُّ أجمعَ كتاب عن ابن النفيس[2].

ويقرِّر بول في كتابه هذا أنَّ أول من كشف عن ابن النفيس في وقتنا الحاضر، ورَدَّ إليه اعتباره، هو الطبيب المصري الدكتور محيي الدين التطاوي؛ حيث عثر على نسخة من مخطوطة (شرح تشريح القانون) لابن النفيس في مكتبة برلين، وقام بإعداد رسالة في الدكتوراه عنها، وعُنِيَ فيها بجانب واحد من جوانب هذا الكتاب العظيم، ألا وهو موضوع: (الدورة

---

(١) راجع في ذلك: ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ١/ ١٠٧، البابانى: هدية العارفين ١/ ٣٧٨، كحالة: معجم المؤلفين ٧/ ٥٨، الزركلي: الأعلام ٤/ ٢٧١، أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص٤١، محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٠٥، محمد علي عثمان: مسلمون علموا العالم ص ٤٩.

(٢) انظر: ابن النفيس (أعلام العرب، رقم ٥٧).

الدموية تبعًا للقرْشي)، وذلك سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م.

وقد ذُهل أساتذتُه والمشرفون على الرسالة، وأصابتهم الدهشة حين اطَّلعوا على ما فيه وما كادوا يصدقونه!!

ولجهلهم باللغة العربية بعثوا بنسخة من الرسالة إلى الدكتور «مايرهوف» المستشرق الألماني الذي كان آنذاك يقيم بالقاهرة، وطلبوا رأيه فيما كتبه الباحث، وكانت النتيجة أن أيد مايرهوف الدكتور التطاوي، وأبلغ حقيقة ما كشفه من جهود ابن النفيس إلى المؤرِّخ «جورج سارتون»، فنشر هذه الحقيقة في آخر جزء من كتابه المعروف «تاريخ العلم»، ثم بدر مايرهوف إلى البحث عن مخطوطات أخرى لابن النفيس وعن تراجم له، ونشر نتيجة بحوثه في عدة مقالات.. ومنذ ذلك الحين بدأ الاهتمام بهذا العالم الكبير وإعادة اكتشافه[1]!!

ابن النفيس والدورة الدموية:

اقترن اسم ابن النفيس باكتشاف الدورة الدموية الصغرى، والتي سجلها بدقة في كتابه «شرح تشريح القانون»، غير أن هذه الحقيقة ظلت مختفية قرونًا طويلة، ونُسِبت وهمًا إلى الطبيب الإنجليزي وليام هارفي (ت ١٠٦٨هـ/ ١٦٥٧م) الذي بحث في دورة الدم بعد وفاة ابن النفيس بأكثر من ثلاثة قرون، وظل الناس يتداولون هذا الوهم حتى أبان عن الحقيقة الدكتور محيي الدين التطاوي في رسالته كما أشرنا سابقًا.

وكان الطبيب الإيطالي ألباجو قد ترجم في سنة ٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م أقسامًا من كتاب ابن النفيس «شرح تشريح القانون» إلى اللاتينية، وهذا الطبيب أقام ما يقرب من ثلاثين عامًا في «الرُّها» وأتقن اللغة العربية لينقل منها إلى اللاتينية، وكان القسم المتعلق بالدورة الدموية في الرئة ضمن ما ترجمه من أقسام الكتاب، غير أن هذه الترجمة فُقِدَت، واتفق أن عالما إسبانيا ليس من رجال الطب كان يدعى «سيرفيتوس» كان يدرس في جامعة باريس اطَّلع على ما ترجمه ألباجو من كتاب ابن النفيس، ونظرًا لاتهام سيرفيتوس في عقيدته، فقد طُرِد من الجامعة، وتشرَّد بين المدن، وانتهى به الحال إلى الإعدام حرقًا هو وأكثر كتبه في سنة ١٠٦٥هـ / ١٥٥٣م. على أنَّ الله ﷻ شاء أن تبقى بعض كتبه دون حرق، وكان من بينها ما نقله من

---

(١) محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص ٢٠٨، علي عبد الله الدَّفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٤٥١.

ترجمة ألباجو عن ابن النفيس فيما يخص الدورة الدموية، واعتقد الباحثون أن فضل اكتشافها يعود إلى هذا العالم الإسباني ومن بعده هارفي حتى سنة ١٣٤٣ / ١٩٢٤م حتى صحَّح الطبيب المصري هذا الوهم، وأعاد الحق إلى صاحبه.

وقد أثار ما كتبه الطبيب التطاوي اهتمام الباحثين، وفي مقدمتهم مايرهوف المستشرق الألماني الذي كتب في أحد بحوثه عن ابن النفيس: «إن ما أذهلني هو مشابهة، لا بل مماثلة بعض الجمل الأساسية في كلمات سيرفيتوس لأقوال ابن النفيس التي تُرجِمت ترجمة حرفية... أي أن سرفيتوس، وهو رجل دين متحرِّر وليس طبيبًا، قد ذكر الدورة الدموية في الرئة بلغة ابن النفيس الذي عاش قبله بما يزيد على القرن والنصف»!!

ولما اطلع «ألدو ميلي» على المتنين قال: «إن لابن النفيس وصفًا للدوران الصغير تطابق كلماته كلمات سيرفيتوس تمامًا، وهكذا فمن الحق الصريح أن يُعْزَى كشف الدوران الرئيسي إلى ابن النفيس لا إلى سيرفيتوس أو هارفي»[1].

ويُعتبَر اكتشاف الدورة الدموية الصغرى واحدًا فقط من إسهامات واكتشافات ابن النفيس العديدة؛ فهو - بحسب ما كُتِب عنه حديثًا - يُعَد مكتشف الدورتين الصغرى والكبرى للدورة الدموية، وواضع نظرية باهرة في الإبصار والرؤية، وكاشف العديد من الحقائق التشريحية، وجامع شتات المعرفة الطبية والصيدلانية في عصره، وقد قدَّم للعلم قواعد للبحث العلمي، وتصورات للمنهج العلمي التجريبي.

مؤلَّفات ابن النفيس:

خلَّف ابن النفيس مؤلفاتٍ علمية عديدة، نُشِرَ بعضُها ومازال البعض الآخر في غياهب المكتبات، وحبيس رفوف المخطوطات لم يرَ النورَ بعد، ومن مؤلفاته ما يلي:

١ - (شرح تشريح القانون)، وهو من أهم كتب ابن النفيس، وقد نشر في القاهرة سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م بتحقيق الدكتور سلمان قطابة، وتبرز قيمته في وصفه للدورة الدموية الصغرى، واكتشافه أن عضلات القلب تتغذى من الأوعية المبثوثة في داخلها لا من الدم

---

(١) راجع علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية ص٤٥١، محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص٢٠٩، ٢١١، أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص٤١.

الموجود في جوفه، كما يظهر في الكتاب ثقة ابن النفيس في علمه؛ حيث نقض كلام أعظم طبيبين عرفهما العرب في ذلك الوقت، وهما: جالينوس، وابن سينا.

٢- (الشامل في الصناعة الطبية)، ويُعَد أعظم مؤلفاته، كما يعتبر أضخم موسوعة طبية يكتبها شخص واحد في التاريخ الإنساني، وقد نجح الدكتور يوسف زيدان في مصر في جمع أجزاء الكتاب المخطوطة، كما تطلَّع المجمع الثقافي في أبو ظبي إلى تلك الموسوعة، وأخذ على عاتقه نشر الكتاب محققًا، حتى خرج إلى النور ثلاثة أجزاء منه، وذلك في سنة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م..

وكان ابن النفيس قد عكف على إعداد هذه الموسوعة وهو ينوي أن يجعلها مرجعًا طبيًّا شاملاً، لولا أن وافته المنية بعد أن أعدَّ منها ثمانين جزءًا، وهي تمثل صياغة علمية لجهود المسلمين في الطب والصيدلة على مدى خمسة قرون من العمل المتواصل.

٣- (الموجز في الطب)، ويعتبر هذا الكتاب مرجعًا لكل من أراد دراسة الطب، وممارسة هذه المهنة العظيمة، وقد تناقله العلماء بعضهم من بعض، وكَثُرَت شروحُه والتعليقات عليه لما نال من منزلة بين علماء العصور كلها حتى يومنا هذا، ويذكر بول غليونجي في كتابه (ابن النفيس) أنَّ كتاب الموجز في الطب لابن النفيس عبارة عن شرح مختصر جدًّا لكتاب القانون بالطب لابن سينا، تناول كل أجزاء القانون بلغة علمية سهلة ما عدا الجزء الخاص بالتشريح ووظائف الأعضاء، الأمر الذي جعله محبوبًا محبة بالغة من الوجهة العلمية لممارسي الطب.

الجدير بالذكر أنه يوجد نسخ منه على شكل مخطوط في كل من باريس وأكسفورد وفلورنسا وميونيخ والأسكوريال، ويقع (الموجز في الطب) في أربعة أجزاء، وقد نال تقدير وإجلال أطباء العالم؛ لذا فقد كثُرَت ترجمته إلى اللغات الأجنبية وتعدَّدت التعليقات عليه، وقد نُشِر سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م في القاهرة بتحقيق عبد المنعم محمد عمر، وكانت قد سبقته نشرة ماكس مايرهوف ويوسف شاخت ضمن منشورات أكسفورد سنة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

٤- (شرح فصول أبقراط)، وقد طبع في بيروت سنة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، بتحقيق ماهر عبد القادر ويوسف زيدان.

٥- (المهذَّب في الكُحل المجرب)، ونشر في الرباط سنة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، بتحقيق ظافر الوفائي ومحمد رواس قلعة جي.

٦- (المختصر في أصول علم الحديث)، ونشر بالقاهرة سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م بتحقيق يوسف زيدان[١].

ولاشك أنَّ لكتب ابن النفيس قيمةً كبيرة بالنسبة لتاريخ الطب العربي والغربي على حدٍّ سواء وإضافة إلى ذلك فإنه ألَّف في السيرة وعلم الحديث والنحو والفلسفة والمنطق[٢].

أما عن طريقته في التأليف يقول ابن قاضي شهبة: «وكانت تصانيفه يمليها من حفظه ولا يحتاج إلى مراجعة لتبحُّرِه في الفن، وقال السبكي: صنَّف شرحًا على التنبيه، وصنَّف في أصول الفقه، وفي المنطق، وكان مشاركًا في فنون[٣]».

وقال صاحب الأعلام: «وكانت طريقته في التأليف أن يكتب من حفظه وتجاربه ومشاهداته ومستنبطاته، وقلَّ أن يراجِع أو ينقل»، ثم تراه يقول آخرًا: وخلَّف مالاً كثيرًا، ووقف كتبه وأملاكه على البيمارستان المنصوري بالقاهرة»[٤]!!

وفي أيامه الأخيرة مرض ابن النفيس مرضًا شديدًا، وقد حاول الأطباء أن يعالجوه بالخمر إلا أنه دفعها عن فمه وهو يقاسي عذاب المرض قائلاً: «لا ألقى الله تعالى وفي جوفي شيءٌ من الخمر»!! ولم يدم في مرضه هذا طويلاً حتى وافته المنية، وكان ذلك سنة ٦٨٧هـ - ١٢٨٨م[٥]؛ فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

***

---

(١) انظر ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ١/ ١٠٧، الباباني: هدية العارفين ١/ ٣٧٨، إدوارد فينديك: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص ٧٩، كحالة: معجم المؤلفين ٧/ ٥٨، الزركلي: الأعلام، ٤/ ٢٧١، محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص ٢٠٧، علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب ص٤٥٢، ٤٥٣، عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ص١٣٣، أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ٤٢.

(٢) انظر أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ٤١، وراجع أيضًا ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ١/ ١٠٧.

(٣) ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ١/ ١٠٧.

(٤) الزركلي: الأعلام، ٤/ ٢٧١.

(٥) انظر الزركلي: الأعلام ٤/ ٢٧١، عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ص ١٣٣، ١٣٤، محمد علي عثمان: مسلمون علَّموا العالم ص ٥١، ٥٢، أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ٤١.

الفصل الثالث

دور العلم في حياة علماء الشرع المعاصرين

ويضم هذا الفصل المباحث التالية:

المبحث الأول: دور العلم في حياة مالك بن نبي.

المبحث الثاني: دور العلم في حياة أبي الأعلى المودودي.

المبحث الثالث: دور العلم في حياة محمد الغزالي.

المبحث الرابع: دور العلم في حياة عبد العزيز بن باز.

المبحث الخامس: دور العلم في حياة الندوي.

***

المبحث الأول
دور العلم في حياة مالك بن نبي
[١٩٠٥- ١٩٧٣م]

ميلاده ونشأته:

هو «مالك» بن عمر بن الخضر بن مصطفى بن نبي. وُلِدَ في مدينة (تبسة) التابعة لولاية قسنطينة شرقي الجزائر في (ذي القعدة ١٣٢٢هـ/ يناير ١٩٠٥م) زمن الاحتلال الفرنسي لها، وتأثر بأمه التي عملت بالحياكة، وباعت بعض أثاث البيت لتعلم أولادها(١).

كانت (تبسة) التي قضى فيها معظم طفولته أقرب إلى البداوة وذات حضور فرنسي ضعيف؛ فاستمرَّ في تلقي الدروس في المساجد مع التحاقه بمدرسة فرنسية، وقد تأثَّر بصديقٍ له دائم الاستشهاد بآيات القرآن وتفسيرها تفسيرًا اجتماعيًّا، كما تأثر بأبناء مدينته المعتصمين بالإسلام والعربية حتى لا تذوب هويتهم في هوية المستعمر.

انتقل مالك بعد حصوله على الابتدائية إلى (قسنطينة) ليكمل تعليمه، وهناك تأثر بمعلمه الفرنسي «مارتان» في تذوقه للقراءة، كما تأثر بمجلة «الشهاب» التي تصدرها جمعية العلماء المسلمين، برئاسة عبد الحميد بن باديس.

طالع مالك في تلك الفترة كتابين كان لهما أبلغ الأثر في حياته، هما «الإفلاس المعنوي هل هو للسياسة الغربية في الشرق؟» لـ«أحمد محرم» الشاعر الإسلامي المعروف، و«رسالة التوحيد» للإمام محمد عبده. وساعده هذان الكتابان على رؤية أوضاع العالم الإسلامي في تلك الفترة، كما قرأ كتاب «أم القرى» للكواكبي، وتعرَّف على تلاميذ المصلح الكبير «عبد الحميد بن باديس»، كما قرأ لعددٍ من الكُتّاب الفرنسيين، وكان يتردد - أيضًا - على إحدى البعثات التبشيرية الإنجيلية، فتعرَّف على الإنجيل، وناقش هؤلاء المبشرين في أدق الأفكار(٢).

---

(١) مالك بن نبي: مذكرات شاهد على القرن، ترجمة: مروان القنواتي ص٦٠.

(٢) مصطفى عاشور: مالك بن نبي.. فيلسوف مشكلات الحضارة، حدث في العام الهجري: http://www.islamonline.net

وموقع مالك بن نبي: http://www.binnabi.net

كان لهذه الثنائية الثقافية (الإسلامية والغربية) أثرها في تكوينه الفكري، وانعكاساته الواضحة في كتاباته التي تميزت بالمزاوجة بين المصدرين: بين الانتماء لحضارة الإسلام والرغبة في التطور[1]، ثم سافر مالك في العشرين من عمره إلى باريس، ولم يلبث أن رجع إلى الجزائر بعدما عانى البطالة هناك، لكنه قرر مواصلة دراسته في فرنسا؛ فوصل باريس في (جمادى الأولى ١٣٤٩هـ = سبتمبر ١٩٣٠م)، واستطاع خلال فترة وجوده في فرنسا أن ينهل العلم من حقول متعددة، ويسهم في الكثير من الفعاليات العلمية والثقافية، ولكن تحطمت آماله عندما رُفِضَ طلبُه دراسةَ الحقوق بمعهد الدراسات الشرقية؛ فاتجه إلى دراسة الهندسة[2]..

في هذه الفترة خاض مالك في باريس نقاشاتٍ كثيرة في العقائد مع المسيحيين، وتزوَّج في عام (١٣٥٠هـ/١٩٣١م) من امرأةٍ فرنسية أسلمت على يديه، واستطاع مالك أن يوسع شبكة علاقاته الفكرية والثقافية في باريس، فالتقى هناك شكيب أرسلان وغاندي، وصار له حضور متميز في أوساط المغاربة والجزائريين، حتى لُقِّب بزعيم الوحدة المغربية، كما استطاع أن يقيم جسور التواصل والتعارف مع أبناء دول أخرى محتلة[3].

في سنة (١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م) تخرَّج مالك مهندسًا كهربائيًّا؛ وعندما عاد إلى الجزائر لم تَرُقْ له الحياة فيها بعدما تحولت عن زراعة القمح إلى زراعة العنب الذي تُصنَع منه الخمور للفرنسيين المحتلين، فقرر العودة إلى فرنسا سنة (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م). وهناك تفرَّغ مالك للعمل الفكري، فعمل صحفيًّا في جريدة اللوموند، وأصدر أول كتبه «الظاهرة القرآنية»، ثم «شروط النهضة» سنة (١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م)، و«وجهة العالم الإسلامي» الذي عرض فيه مفهوم «القابلية للاستعمار»، و«لبَّيك»، و«فكرة الأفريقية الآسيوية»[4].

رأى مالك في مصر - التي احتضنت في تلك الفترة قضايا التحرر والعروبة - أنها أحد مواقع التغيير المهمة في العالم الإسلامي، فنزلها وعاش فيها الفترة (١٩٥٦ - ١٩٦٣م) فأتقن العربية، وحاضر في عدد من الجامعات والمعاهد، وأصبح منزله أشبه بمنتدى فكري يرتاده

(١) السابق نفسه.

(٢) مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، الطفل والطالب ٢/ ٢٨.

(٣) مصطفى عاشور: مالك بن نبي.. فيلسوف مشكلات الحضارة، مرجع سبق ذكره.

(٤) السابق نفسه.

المثقفون، وأصدر أول كتاب باللغة العربية بخط يده وهو «الصراع الفكري في البلاد المستعمرة»، ثم كتاب «تأملات في المجتمع العربي»، وكتاب «ميلاد مجتمع»، و«حديث البناء الجديد»، وتم اختياره مستشارا للمؤتمر الإسلامي بالقاهرة[١].

عاد مالك إلى الجزائر سنة (١٣٨٣هـ- ١٩٦٣م) بعد استقلالها وتنقَّل في عدد من المناصب، تركزت جميعها في حقل التعليم، كما تركزت كتاباته في تلك الفترة على عمليات التغيير وإعادة البناء الاجتماعي في الدول الإسلامية، وأصدر عدة كتب، منها: «مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي»، و«المسلم في عالم الاقتصاد»، و«يوميات شاهد قرن»[٢].

مارس مالك بن نبي أنشطةً ثقافية متعددة؛ كان منها ندوته الأسبوعية التي كان يعقدها في بيته، وكان يقصدها الشباب المثقف، ومع استمرار هذه الندوات ونجاحها، وتكريمًا لشخصية مالك حولتها الجزائر إلى ملتقى للفكر الإسلامي يُقام كل عام.

في عام (١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م) استقال مالك من مناصبه، وتفرَّغ للعمل الفكري، وألقى محاضرة مهمة في سوريا عام (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م) تحت عنوان «دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين» اعتبرها الكثيرون أنها وصيته للعالم الإسلامي قبل الموت.

منهجه العلمي والفكري:

كان مالك بن نبي مفكرًا مبدعًا، وصاحب نظرية عميقة في البناء الحضاري، وامتلكت أفكاره مكونات القوة، بتركيزها على القضايا الأساسية والمحورية في العالم الإسلامي؛ فاهتم بمشكلة الحضارة، والنهضة، والثقافة، والاستعمار، والتبعية؛ فدرسها بكل أبعادها في كل مؤلَّفاته، وأبدع فيها، وطوَّر بعض مفاهيمها، وهذا ما جعله متخصصًا في العمل الفكري، وصاحب أفكار تتجاوز الحساسيات الطائفية والمذهبية، وتتمتع بالانتشار والقبول، إضافة إلى أن أفكاره غلّبت جانب البناء على الهدم باعتبار أن ذلك هو الأصلح للأمة الإسلامية.

انطلق مالك من فكرة محورية هي أن نهضة أي مجتمع تتم في نفس الظروف التي شهدت ميلاده، وعلى هذا فإن إعادة بناء المجتمع المسلم الحديث لا بد أن تنطلق من الفكرة الدينية كأساس لأي تغيير اجتماعي، لهذا كانت الآية الكريمة ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا

(١) السابق نفسه. (٢) السابق نفسه.

﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، نقطة ارتكاز مهمة في منظومته الفكرية.

ولمالك بن نبي مجموعة من الأفكار المهمة، التي تبين منهجه الفكري، ومنها:

فكرة الحضارة:

رأى مالك أنَّ الحضارة إنتاج بشري؛ لذا فالتخلُّف الذي يعيشه المسلمون ينبع في الأساس من داخلهم، ويعود إلى طبيعة تشكيل عقليتهم وشخصيتهم التي ترسبت فيها مفردات الثقافة السلبية، وفرق بين المجتمع الفعّال والمجتمع غير الفعّال، فاعتبر أن فاعلية المجتمع تنطلق من فاعلية الإنسان، لهذا كان يقول: «إذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن سكن المجتمع والتاريخ»[١].

وشرط الفاعلية الأساسي عند مالك أن ينظر الإنسان إلى نفسه على أنه صانع التاريخ ومحرِّكه، فالتاريخ نتائج عملية، وليس مقولاتٍ نظرية، ورأى أن مشكلة المسلم أنه لا يفكر ليعمل بل يفكر ليقول ويتكلَّم، وقد أدّى ذلك إلى ضياع الاستفادة من المال والوقت والعلم[٢].

مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي:

ينبني مفهوم الحضارة عند ابن نبي على اعتقاده الراسخ بأن «مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها»[٣].

وانطلاقا من هذا الاعتقاد الراسخ بأهمية الحضارة وضرورة «فقه» حركتها منذ انطلاقتها الأولى إلى أفولها يحاول ابن نبي إعطاء تعريف واسع للحضارة، يتحدد عنده في ضرورة «توفر مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقسم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه»[٤].

---

(١) مصطفى عاشور: مالك بن نبي.. فيلسوف مشكلات الحضارة، مرجع سبق ذكره.

(٢) مصطفى عاشور: مالك بن نبي.. فيلسوف مشكلات الحضارة، مرجع سبق ذكره.

(٣) إبراهيم رضا: مالك بن نبي وفلسفة الحضارة الإسلامية الحديثة، موقع الإسلام:
http://www.islamonline.net

(٤) مالك بن نبي: شروط النهضة ص ١٩-٢٠.

وعلى هذا فكل ما يوفره المجتمع لأبنائه من وسائل تثقيفية وضمانات أمنية، وحقوق ضرورية تمثل جميعها أشكالا مختلفة للمساعدة التي يريد ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه[١].

والعناصر الضرورية التي تتشكل منها كل الحضارات - حسب مالك بن نبي - هي ثلاثة: الإنسان + التراب + الوقت[٢].

الأفكار الميتة والأفكار المميتة:

تحدّث مالك عن قضيتين خطيرتين: الأولى تتعلق بالأفكار التي تعوق النهضة الإسلامية، وسماها بالأفكار الميّتة والأفكار المميتة، ورأى أن الأفكار الميتة تسكن العقول ولا تدفع حاملها إلى أي مجهود أو نشاط، فهي معلومات عقيمة متوارثة، وهي أحد أسباب انحطاط الخط البياني الحضاري للأمة الإسلامية. أما الأفكار المميتة فهي الأفكار التي تقتل الإبداع في النفوس بما لها من قدرة على الإخماد وكبح جماح العقول والهمم.

وهذه الأفكار المميتة تخلق العقلية الاستسهالية، وتغيب القدرة التحليلية في فهم المشكلات المعقدة[٣].

القابلية للاستعمار:

أما الفكرة الثانية فهي القابلية للاستعمار (القابلية للاحتلال)، وهذا المفهوم يُعَدُّ من أشهر مفاهيم مالك التي أبدعها؛ إذ أدرك أن الأمة الإسلامية في خطر، لا لأنها تحت الهيمنة الغربية، ولكن لأنها فقدت كثيرًا من الدوافع التي رفعت من شأنها في القرون الماضية، وأصبح موقعها زمنيًّا في عهد ما قبل الحضارة؛ فالقابلية للاستعمار هي جملة خواص اجتماعية تسهِّل سيطرة الغزاة على الأمة، وتؤدي إلى استمرار الوضع المنحل للحضارة، فهناك مجتمعات تعرضت للاحتلال العسكري لكنها مجتمعات غير قابلة للاستعمار مثل احتلال ألمانيا عقب الحرب العالمية الثانية، وفي المقابل توجد مجتمعات لم تتعرض للاستعمار لكنها قابلة للاستعمار.

---

(١) مالك بن نبي: آفاق جزائرية ص ٣٨.

(٢) مالك بن نبي: تأملات ص ١٦٨.

(٣) مصطفى عاشور: مالك بن نبي.. فيلسوف مشكلات الحضارة، مرجع سبق ذكره.

انتقد مالك فرض التسييس للنهضة الاجتماعية، والنظر المتمحور حول دور السلطة في الإصلاح الاجتماعي، ورأى أن هذين الخطأين كانا من أسباب تأجيل عمليات النهضة الاجتماعية.

يعتبر مالك بن نبي ومدرسته من أكثر المدارس الفكرية التي كان لها أثر واضح في تحديد وصنع ملامح الفكر الإسلامي الحديث، خاصة أن هذه المدرسة اهتمت أكثر من غيرها من المدارس الأخرى بدراسة مشكلات الأمة الإسلامية؛ انطلاقًا من رؤيةٍ حضاريةٍ شاملة ومتكاملة؛ فقد كانت جهوده لبناء الفكر الإسلامي الحديث، وفي دراسة المشكلات الحضارية عمومًا متميزة؛ سواء من حيث المواضيع التي تناولها أو المناهج التي اعتمدها في ذلك التناول[1]؛ «وكان بذلك أول باحث حاول أن يحدد أبعاد المشكلة، ويحدد العناصر الأساسية في الإصلاح، ويبعد في البحث عن العوارض، وكان كذلك أول من أودع منهجًا محددًا في بحث مشكلة المسلمين على أساسٍ من علم النفس والاجتماع وسُنَّة التاريخ»[2].

ابن خلدون العصر:

من الدارسين للفكر الإسلامي الحديث من يعتبر مالك بن نبي ابنَ خلدون العصر الحديث، وأبرز مفكر عربي عُنِيَ بالفكر الحضاري منذ ابن خلدون، ومع أنه قد تمثَّل فلسفاتِ الحضارة الحديثة تمثلاً عميقًا، واستلهم في أحايين كثيرة أعمال بعض الفلاسفة الغربيين فإن ابن خلدون بالذات يظل أستاذه الأول وملهمه الأكبر[3]. ومالك نفسه لا يخفي تأثره بفكر ابن خلدون ونظرياته حول العمران البشري، بل أشار إلى ذلك في مواضع شتّى من كتبه، كما ذكر ذلك في مذكرات حياته «شاهد القرن»[4].

هكذا ظهر «مالك بن نبي» وكأنه صدى لعلم ابن خلدون، يهمس في وعي الأمة بلغة القرن العشرين، فأظهر أمراض الأمة مع وصف أسباب نهضة المجتمعات، ووضع الاستعمار تحت المجهر؛ فحلَّل نفسيته، ورصد أساليبه الخبيثة في السيطرة على الأمم المستضعفة، وخاصة

---

(١) إبراهيم رضا: مالك بن نبي وفلسفة الحضارة الإسلامية الحديثة، موقع الإسلام:
http://www.islamonline.net

(٢) جودت سعيد: «مذهب ابن آدم الأول» ص١٤-١٥.

(٣) فهمي جدعان: «أسس التقدم عند مفكري الإسلام» ص٤١٠.

(٤) ذكر مالك بن نبي في مذكراته شاهد القرن: الطفل والطالب، «جملة من المفكرين المسلمين وغيرهم الذين كان لهم تأثير فكري في حياته» ينظر إلي مذكراته، ترجمة مروان القنواتي.

المسلمين، ووضع لهم معادلات وقوانين «الإقلاع الحضاري»..

ولكن الأمة لم تقلع حضاريًا؛ وذلك إمّا لثقل حجم التخلف بين أفرادها ومؤسساتها، وإمّا لضعف المحرِّك المقرَّر أن يقلع بها، وإمّا لاجتماع السببين معًا. ومع ذلك فقد بقيت هذه المعادلات والقوانين «نظريات» مفيدة للمحرِّكين الذي يهتمون بانطلاق «المشروع الحضاري» للأمة[1].

وفاته:

تُوُفي مالك بن نبي في الجزائر في (٤ من شوال ١٣٩٣هـ/ ٣١ من أكتوبر ١٩٧٣م) وهو في الثامنة والستين من عمره[2]؛ فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

***

(١) خالد أبو الفتوح: مقال «نحو وعي سنني»، مجلة البيان، العدد ٨٩.

(٢) مصطفى عاشور: مالك بن نبي.. فيلسوف مشكلات الحضارة، مرجع سبق ذكره.

المبحث الثاني

دور العلم في حياة أبي الأعلى المودودي

[٣ رجب ١٣٢١- غرة ذي القعدة ١٣٩٩هـ]

[٢٥ من سبتمبر ١٩٠٣- ٢٢ سبتمبر ١٩٧٩م]

ميلاده ونشأته:

هو «أبو الأعلى» ابن سيد أحمد، المودودي. ولد في ٢٥ من سبتمبر ١٩٠٣م، ينتمي لِـ أسرة تمتد جذورها إلى شبه جزيرة العرب، فقد هاجرت أسرته إلى الهند في أواخر القرن التاسع الهجري، ونشأ في جو صوفي، وتفتحت عيناه على حياة تفيض بالزهد والورع والتقوى، وقضى طفولته الأولى في مسقط رأسه في مدينة «أورنك آباد الدكن»، بمقاطعة حيدر آباد، وكان أبوه معلمه الأول؛ فَعَلَّمَهُ اللغة العربية، والقرآن الكريم، والحديث الشريف والفقه، وحَفَّظَهُ مُوَطَّأَ الإمام مالك، كما عَلَّمَهُ اللغة الفارسية، يقول المودودي عن والده: «لقد أحسن تربيتي، وعلمني النطق السليم، وكان يحكي لي كل مساء قصص الأنبياء والمرسلين، ووقائع التاريخ الإسلامي، وحوادث الهند، واهتم بأخلاقي؛ وكان يأخذني معه دائمًا عند رفاقه، وكُلُّهُم على درجة عالية من الثقافة والاتزان، فانتقلت إِلَيَّ من مجالستهم العادات الفاضلة الحسنة»(١). وأقبل المودودي على التعليم بجدٍّ واهتمام حتى اجتاز امتحان مولوي، وهو ما يعادل الليسانس.

أخلاقه نموذج للعلماء:

الاعتماد على النفس:

عندما أصيب أبوه بالشلل، وأصبح قعيدًا بلا حراك، وضاقت سبل العيش بالأسرة والأبناء، كان على المودودي أن يكافح من أجل لقمة العيش؛ فقرر أن يجعل قلمه وسيلة للرزق.

الاجتهاد الحثيث:

ورغم ضيق العيش، والكد في طلب الرزق، سعى المودودي إلى تعلم اللغة الإنجليزية حتى أتقنها، وصار بإمكانه الاطلاع على كتب التاريخ والفلسفة والاجتماع ومقارنة الأديان

---

(١) مجلة المختار الإسلامي، ربيع الأول ١٤٠٠هـ ص ٨٤.

باللغة الإنجليزية دون أية صعوبة في فهمها واستيعابها.

حبه للعلماء وارتباطه الروحي بهم:

ارتباطه الروحي بالشهيد سيد قطب:

روى الشيخ «خليل الحامدي» سكرتير الشيخ المودودي، قال: في أحد أعوام الستينيات بمكة المكرمة دخل شاب عربي مسلم على الأستاذ المودودي، وقدم له كتاب «معالم في الطريق» لمؤلِّفه «سيد قطب»، وقرأه الأستاذ المودودي في ليلة واحدة، وفي الصباح قال لي: «كأني أنا الذي أَلَّفْتُ هذا الكتاب»[1]، وأبدى دهشته من التقارب الفكري بينه وبين سيد قطب، ثم استدرك يقول: «لا عجب؛ فمصدر أفكاره وأفكاري واحد، وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ».

أمّا عن علاقة الحب والإخاء التي كان يُكِنُّهَا المودودي لقطب رغم بُعد المسافة بينهما؛ فيحكي خليل الحامدي قائلاً: غداة تنفيذ حكم الإعدام بالشهيد سيد قطب، دخلنا على المودودي في غرفته، وكانت الصحافة الباكستانية قد أبرزت الخبر على صفحاتها الأولى، إلا أنه لم يكن قد قرأه بعد، فسبقنا المودودي وقصَّ علينا كيف أنه أحس فجأة باختناق شديد، ولم يدرك لذلك سببًا.. فلمّا عرف وقت إعدام الشهيد سيد قطب من الصحف قال: «أدركت أن لحظة اختناقي هي نفس اللحظة التي شُنق فيها سيد قطب».

ارتباطه الروحي بمحمد إقبال:

وكان شاعر الهند الكبير محمد إقبال من المعنيين بكتابات المودودي، وكتب ذات مرة: «إنّ هذا الشيخ يعرض دين الرسول ﷺ بقلم مداده الدم»، أما المودودي، فيقول: «كان بيني وبين إقبال انسجام كبير في الآراء، والمخطَّط الذي كان في ذهني كان نفسه في ذهن إقبال»، وحين بلغته وفاة إقبال بكى قائلاً: «فقدتُ أكبر سندٍ لي في الدنيا بموت هذا الرجل العظيم».. وبعدها بوقت قصير ذهب إلى لاهور وقبل عرضًا من كلية «حماية الإسلام» بأن يكون محاضرًا شرفيًّا، وألقى محاضراتٍ عن الإسلام لمدة عام، كما ألقى محاضراتٍ في عدة جامعات أخرى.

---

(١) عبد الله العقيل: من أعلام الدعوة والحركة المعاصرة ص٣٣٦ بتصرف.

رحلة كفاحه:

عمل المودودي في الصحافة في وقت مبكر ، وكان ينتقل من صحيفة إلى أخرى ، ويكتب لها افتتاحيات نارية ، دفاعًا عن الخلافة الإسلامية الآيلة إلى السقوط ، وصار رئيس تحرير مجلة (المسلم) التي تصدرها جمعية العلماء وهو ابن سبع عشرة (١٩٢٠ - ١٩٢٣) وبكتابته هذه جمع بين السياسة والإعلام والانكباب على قضايا الإسلام والمسلمين ، شارحًا ومنافحًا.

وبدأ بالكتابة في بعض الجرائد، ثم اشترك مع مدير جمعية علماء الهند في إصدار جريدة «المسلم»، وصار مديرًا لتحريرها لمدة ثلاث سنوات حتى أُغْلِقَتْ عام (١٩٢٢م) فانتقل إلى بهو بال، ثم عاد مرة أخرى إلى دلهي سنة (١٩٢٣م)؛ حيث تولى الإشراف على إصدار جريدة تصدرها جمعية علماء الهند تحمل اسم الجمعية، وظل يتحمل وحده عبء إصدارها حتى سنة (١٩٢٨م)، التي أتم فيها كتابه «الجهاد في الإسلام» الذي حقّق شهرة عالمية، وقد كتبه ردًّا على مزاعم غاندي التي يدعي فيها أن الإسلام انتشر بحد السيف، وفي عام (١٩٣٢م) أصدر «ترجمان القرآن» من حيدر آباد الدكن، وكان شعارها: «احملوا أيها المسلمون دعوة القرآن وانهضوا وحَلِّقُوا فوق العالم».

وكان تأثير المودودي عبر «ترجمان القرآن» من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار التيار الإسلامي في الهند، وزيادة قوته، وقد تبلور ذلك في حزب الرابطة الإسلامية، وتأكد ذلك من خلال دعوته أثناء المؤتمر الذي عُقد في لنكو سنة (١٩٣٧م) إلى الاستقلال الذاتي للولايات ذات الأغلبية الإسلامية.

ونتيجة لشهرة المودودي واتساع دائرة تأثيره الفكري في العالم الإسلامي؛ دعاه المفكر والفيلسوف الهندي الكبير محمد إقبال سنة (١٩٣٧م) إلى لاهور ليمارس نشاطه الإسلامي البارز بها، فَلَبَّى المودودي الدعوة؛ وعند وفاة إقبال في العام التالي تاركًا فراغًا كبيرًا في مجال الفكر والدعوة اتجهت الأنظار إلى المودودي ليملأ هذا الفراغ؛ فبدأ تأسيس الجماعة الإسلامية في لاهور، وتم انتخابه أميرًا لها في (أغسطس ١٩٤١م)، وبعد ذلك بعامين نَقَلَتْ الجماعة الإسلامية مركزها الرئيسي من لاهور إلى دار السلام - إحدى قرى بتها نكوت - وكان المودودي طوال هذه الفترة لا يكف عن الكتابة والتأليف.

وفي (نوفمبر ١٩٧٢م) بعد نحو ثلاثين عامًا من الكفاح طلب المودودي إعفاءه من منصبه كأمير للجماعة الإسلامية لأسباب صحية، وانصرف إلى البحث والكتابة، وفي عام (١٩٧٩م) فاز المودودي بجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام؛ فكان أول من حصل على تلك الجائزة تقديرًا لجهوده المخلصة في مجال خدمة الإسلام والمسلمين.

منهجه الفكري:

شَكَّلَ الفكر الإسلامي باتساعه وشموله ومنهجيته إطارًا عامًا لفكره، ومنطلقًا لنظرته. وكان للمودودي موقف ورؤية من كل ما يحيط به في الحياة؛ وتجاوز مرحلة الدعوة باللسان والقلم إلى مرحلة العمل الحقيقي، حين ألف الجماعة الإسلامية لتقوم بتطبيق ما دعا إليه من آراء نظرية في مجال التشريع الإسلامي حكمًا وقيادةً ومعاملات، وقد بدأ ذلك بإصدار بيان رنان قال فيه:

«لا بد من وجود جماعة صادقة في دعوتها إلى الله، جماعة تقطع صلتها بكل شيء سوى الله، جماعة تتحمّل السجن والتعذيب والمصادرة وتلفيق الاتهامات، وحياكة الأكاذيب، وتقوى على الجوع والعطش والحرمان والتشريد، وربما القتل والإعدام، جماعة تبذل الأرواح رخيصة وتتنازل عن الأموال بالرضا والخيار، وتقدّم كل ما تملك قربانًا في سبيل إقامة مجتمع الإسلام ونظامه، وإن الذين تتوفر لديهم الرغبة في ذلك عليهم أن يجتمعوا في لاهور يوم الخامس والعشرين من شهر أغسطس عام ١٩٤١م؛ لبحث إجراءات تأسيس حركة إسلامية في شكل منظّم»[١]. ثم سارع بطرح دستور الجماعة، تاركًا المجال للمناقشة الصريحة، حيث انتهوا إلى الموافقة التامة، وبدأ الكيان الإسلامي يتمثل في تجمع جديد، يقوم بتطبيق ما جاء في دستور الجماعة.

كان المودودي مفحمًا في منطقه، فجذب انتباه أنصار الفكرة الإسلامية، واندفعوا يترجمون مقالاته القوية إلى العربية والفارسية والإنجليزية والفرنسية، حتى انتشرت تعاليم الإسلام على يده صحيحة صريحة في ربوع بذل أصحابها جهد الجبابرة في تشويه هذه التعاليم، ثم توَّج ذلك كله بوضع دستور شامل للحكم الإسلامي لا يزال إلى الآن أهم

---

(١) محمد رجب البيومي: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، دار القلم والدار الشامية ١/ ٥١٤.

مرجع معاصر للدارسين[1].

لقد عَبَّرَ الإمام المودودي عن إحساسه بأهمية وجود جماعة مؤمنة مجاهدة تكون أداة للتغيير بقوله: «إنَّ نظام الاستخلاف في الأرض لا يمكن أن يتغير ويتبدل بمجرد وجود فرد صالح أو أفراد صالحين مشتتين في الدنيا، ولو كانوا في ذات أنفسهم من أولياء الله تعالى، بل ومن أنبيائه ورسله، إن الله تعالى لم يقطع ما قطع من المواعيد لأفراد متفرقين مشتتين، وإنما قطعها لجماعة منسقة متمتعة بحسن الإدارة والنظام، بل إن مما لا مندوحة عنه لهذه الفئة المؤمنة أن تستمر في المكافحة والمناضلة لقوى الكفر والفسق على كل خطوة، من كل حلبة من حلبات الحياة الدنيا، وتثبت ما في نفسها من حب للحق، وكفاءة للاضطلاع بأعباء إمامة الأرض، ببذل التضحيات والمساعي في سبيل إقامة الحق، وذلك شرط لم يُستثن منه حتى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، فَأَنَّى لأحدٍ اليوم أن يتمنَّى على ربه أن يستثنيه منه».

لم يكن المودودي ليسكت على الخطأ، بل كان يبادر إلى النقد الهادف، جريئًا في الحق، لا يخشى في الله لومة لائم، لا يغتر بالبهرج الكاذب، ولا ينخدع بالبريق الظاهر؛ فواجه بريق الحضارة الغربية، ودرسها دراسة متأنية، فوجدها تنحصر في العلمانية، والقومية، والديمقراطية، وهي أصنام ثلاثة صارت تعبد من دون الله، وقد أنحى المودودي بمعوله حتى تحولت إلى أنقاض[2].

وفي مجال الاجتهاد التشريعي، أفاض المودودي في أصول إسلامية ممتازة، وما أكثر ما خاض المودودي في تشخيص الدواء لما يشيع في جسم العالم الإسلامي من داء، كاتبًا ومحاضرًا ومؤلفًا ومحاورًا ومناظرًا، يقول: «الإسلام لا يزال يعطي الدليل على قوته، فما قامت ثورة من ثورات التحرير الصادقة إلا اعتمدت على آيات القرآن وتوجيهات التشريع، وفي هذه الحركات التحريرية انتفاضات صادقة تحب الدين باطنًا وظاهرًا، وانتفاضات ادّعائية تنادي بالدين لتجتذب إليها أعناق المؤمنين، وهي في باطنها الدّفين تخاصمه وتُظهر له العداء، ودليل ذلك أنها لا تعمل على تنفيذ شريعته»[3].

---

(١) السابق نفسه ص ٥١٤.   (٢) السابق نفسه ص ٥١٧.

(٣) السابق نفسه ص ٥٢١.

إسهاماته العلمية:

درس المودودي هذه الحضارة من مصادرها.. وبين لأبناء أمته بأسلوب مشرق متين أن الإسلام شيء آخر إنساني حضاري.. واستطاع أن يعيد إلى المسلمين ثقتهم بدينهم واعتزازهم بشخصيتهم. يقول المودودي: من عام ١٩٢٩م إلى عام ١٩٣٩ أفرغت العديد من خزانات الكتب والمراجع في ذهني، استعدادًا للمهمة الجديدة؛ مهمة الدعوة إلى الإسلام في عصر مُلئ بالأفكار والتيارات يفرض على الداعية أن يتزود بزاد كمي علمي سامٍ، وأن يحظى بعصا من البرهان يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه، ويحقق بها المآرب الأخرى.

في هذه المرحلة أَلَّفَ الإمام المودودي مجموعة من أهم كتبه مثل: نحن والحضارة الغربية، والمسلمون وحركة تحرير الهند، ومبادئ الإسلام، كما ألف كتابه الشهير (الجهاد في الإسلام)، في نحو الخامسة والعشرين من عمره.

بلغ عدد مؤلفات المودودي (١٤٠) مصنفًا ما بين كتاب ورسالة، وأكثر من ألف محاضرة، ومن أبرز تلك المؤلفات:

«الجهاد في الإسلام» (١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨م)؛ وكان سبب تأليفه لهذا الكتاب أن المهاتما غاندي نقل عنه قوله بأن الإسلام انتشر بحد السيف. وخطب الإمام «محمد علي الجوهري» خطبة في الجامع الكبير بدهلي، وصدح بقولته: «ليت رجلا من المسلمين يقوم للرد»؛ فأراد المودودي أن يكون هذا الرجل، وغربل أمهات الكتب في هذا الموضوع، وأخذ يطالع تاريخ الحروب عند جميع الشعوب قديمًا وحديثًا، وكتب حلقات متواصلة في جريدة الجمعية، ثم صدرت في كتاب عام ١٩٢٨، وكان الدكتور «محمد إقبال» ينصح دائمًا الشباب المسلمين باقتناء هذا الكتاب، وكان تأليف هذا الكتاب نقطة تحول كبيرة للمودودي.

ومن كتبه أيضًا «مبادئ الإسلام»، وقد تُرجم إلى ثلاثين لغة عالمية ونال رواجًا كبيرًا في أوروبا، واعتنق كثيرون بسببه الإسلام.. وسبب تأليفه أن إدارة التربية والتعليم في ولاية «حيدر آباد الدكن» كلفت المودودي بوضع منهج التربية الإسلامية في مدارسها، والطريف أنه لم يكتب شيئا حتى جاءه إخطار بضرورة تسليم الكتاب خلال أسبوع فأنجزه بالفعل في هذا الوقت اليسير.

وله مجموعة كبيرة من الكتب الشهيرة التي غيرت الكثير من الأفكار وتربى عليها جيل

بكامله، منها: الحضارة الإسلامية (أصولها ومبادئها) (١٣٥٠ هـ/ ١٩٣٢م)، نظرية الإسلام السياسية (١٣٥٨ هـ/ ١٩٣٩م)، تجديد وإحياء الدين (١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م)، الاصطلاحات الأربعة الأساسية في القرآن (١٣٦٠هـ - ١٩٤٠م)، الإسلام والجاهلية (١٣٦٠هـ / ١٩٤١م)، الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية (١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥م)، الدين الحق (١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧م)، نظام الحياة في الإسلام ومبادئه الأساسية (١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨م)، حقوق أهل الذمة (١٣٦٧ هـ/ ١٩٤٨م)، مطالب الإسلام تجاه المرأة المسلمة (١٣٧٢ هـ ١٩٥٣م)، قضية القاديانية (١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣م)، تفسير تفهيم القرآن: ويقع في سبعة مجلدات؛ بدأه (١٣٦٠ هـ / ١٩٤١م)، وأتمه (١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م)، سيرة النبي صلى الله عليه وسلم؛ بدأه (١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢م)، وأتمه قبيل وفاته، وهو آخر مؤلفاته..

ومن مؤلفاته كذلك: أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة، معضلات الإنسان الاقتصادية وحلها في الإسلام، إلى أي شيء يدعو الإسلام، الربا، الحجاب، الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، الإسلام والمدنية الحديثة، تذكرة دعاة الإسلام، في محكمة العقل، قضية كشمير المسلمة، مبادئ أساسية لفهم القرآن، مسألة ملكية الأرض في الإسلام، مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة، نحن والحضارة العربية الرأسمالية والشيوعية، نظرة عابرة على حقوق الإنسان الأساسية..

فضلاً عن مؤلفات أخرى عديدة، حظيت بشهرة عريضة في جميع أنحاء العالم ولقيت قبولا واسعًا في قلوب المسلمين في شتى البقاع؛ فترجم الكثير منها إلى العديد من اللغات..

وقد بلغ عدد اللغات التي ترجمت مصنفات المودودي إليها ست عشرة لغة، منها: الإنجليزية، والعربية، والألمانية، والفرنسية، والهندية، والبنغالية، والتركية، والسندية.... ونالت استحسان ورضا المسلمين على شتى مستوياتهم واتجاهاتهم.

أقوال العلماء عن المودودي:

الشهيد سيد قطب

كان الشهيد سيد قطب يسمي المودودي «المسلم العظيم».[1]

---

(١) عبد الله العقيل: من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة ص ٣٣٢.

العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي

«إنني لا أعرف رجلا أَثَّرَ في الجيل الإسلامي الجديد، فكريًا وعمليًا مثل المودودي، فقد قامت دعوته على أسس علميَّة، أعمق وأمتن من تلك التي تقوم عليها الدعوات سياسية، أو ردود فعل للاستعمار الأجنبي، وكانت كتاباته وبحوثه موجهة إلى معرفة طبيعة هذه الحضارة الغربية، وفلسفتها في الحياة وتحليلها تحليلا علميا، قلما يوجد له نظير في الزمن القريب، ولقد عرض الإسلام ونظم حياته وأوضاع حضارته وحكمة سياسته وصياغته للمجتمع والحياة، وقيادته للركب البشري والمسيرة الإنسانية في أسلوب علمي رصين، وفي لغة عصرية تتفق مع نفسية الجيل المثقف، وتملأ الفراغ الذي يوجد في الأدب الإسلامي من زمن طويل... ومن مآثره الخالدة .. أنه حارب «مُرَكَّب النقص» في نفوس الشباب الإسلامي فيما يتصل بالعقائد والأخلاق ونظام الحياة الإسلامية.. وكان لكتاباته فضل كبير لإعادة الثقة إلى نفوس هؤلاء الشباب بصلاحية الإسلام لمسايرة العصر الحديث»[1].

العلامة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي

يقول: «المفكر المجدد، صاحب النظر العميق، والتحليل الدقيق، ناقد الحضارة الغربية على بصيرة، والداعي إلى نظام الإسلام على بينة، صاحب الكتب والرسائل التي ترجمت إلى عشرات اللغات، الذي وقف في وجه دعاة (التغريب) وأعداء (السنة)، والمنادين بنوبة جديدة (القاديانية)، و(المرتزقة) من الخرافيين والقبوريين و(مشوشي الفكر) من المقلدين الجامدين.. مؤسس كبرى الجماعات الإسلامية في شبه القارة الهندية»[2].

المستشار عبد الله العقيل

«والعلامة المودودي علم من أعلام الإسلام المعاصرين، ومفكر من مفكريه، وداعية من دعاته، آتاه الله الحكمة وبعد النظر، والعمق في الفهم، والصبر على العلم، والتأمل في الواقع، والدراسة الميدانية للأفكار الرائجة، والأوضاع السائدة، والتتبع لمصادر المعرفة وتمييزها وتوثيقها، والنقد الموضوعي لحضارة الغرب، بأخذ الصالح منها وطرح الضار، وتقديم

---

(١) مجلة الاعتصام، العدد ١٢، ذو الحجة، سنة ١٣٩٩هـ.

(٢) عبد الله العقيل: من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة ص ٣٣٩- ٣٤٠.

الإسلام كحل لمشكلات الحياة في جميع جوانبها».[1]

جائزة الملك فيصل العالمية

مُنح العلامة المودودي جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام، وهي أول جائزة تمنح لداعية إسلامي ومفكر، وتسلمها بالنيابة عنه ابنه فاروق في حفل كبير، رعاه الملك خالد بن عبد العزيز، بمدينة الرياض، في ربيع الأول سنة ١٣٩٩هـ.

دراسات عن المودودي:

- أبو الأعلى المودودي: حياته وفكره العقدي: حمد بن صادق الجمال (١٤٠١هـ/ ١٩٨٦م).
- أبو الأعلى المودودي فكره ودعوته: د. سمير عبد الحميد إبراهيم (١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩م).
- أبو الأعلى المودودي والصحوة الإسلامية: د.محمد عمارة (١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م).
- من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة: المستشار عبد الله عقيل سليمان العقيل (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م).
- أبو الأعلى المودودي حياته ودعوته: أليف الدين الترابي.
- في ذكرى الإمام أبي الأعلى المودودي: مصطفى الطحان، مركز الدراسات الإسلامية.

وفاته:

توفي المودودي في (غُرَّة ذي القعدة ١٣٩٩ هـ = ٢٢ من سبتمبر ١٩٧٩م)، وهو مؤمن بمبدئه ثابت عليه؛ فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

***

(١) عبد الله العقيل من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، ص ٣٣٥، ٣٣٦.

المبحث الثالث

دور العلم في حياة محمد الغزالي

[٥ من ذي الحجة ١٣٣٥ – ١٩ من شوال ١٤١٦هـ]

[٢٢ من سبتمبر ١٩١٧ - ٩ من مارس ١٩٩٦م]

ميلاده ونشأته:

هو محمد الغزالي أحمد السقا. وُلِدَ في قرية (نكلا العنب) بإيتاي البارود بمحافظة البحيرة في مصر في (٥ من ذي الحجة ١٣٣٥هـ/ ٢٢ من سبتمبر ١٩١٧م)، وقد سُمِّي الشيخ محمد الغزالي بهذا الاسم تيمنًا من والده بالإمام أبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)[(١)].

نشأ الشيخ محمد الغزالي في أسرة كريمة ملتزمة بتعاليم الإسلام فأتمَّ حفظ القرآن بكُتّاب القرية في العاشرة ويقول الغزالي عن نفسه وقتئذٍ: «كنت أتدرب على إجادة الحفظ بالتلاوة في غُدُوِّي ورواحي، وأختم القرآن في تتابع صلواتي، وقبل نومي، وفي وحدتي، وأذكر أنني ختمته أثناء اعتقالي، فقد كان القرآن مؤنسًا في تلك الوحدة الموحشة»[(٢)].

ثم التحق بمعهد الإسكندرية الديني الابتدائي حتى حصل على شهادة الكفاءة، ثم الثانوية الأزهرية ثم انتقل إلى القاهرة سنة (١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م) فالتحق بكلية أصول الدين بالأزهر الشريف وبدأت كتاباته في جريدة (الإخوان المسلمون) أثناء دراسته بالسنة الثالثة في الكلية سنة (١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م) وظلَّ الإمام حسن البنا يشجِّعه على الكتابة حتى تخرَّج سنة (١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م)، ثم حصل على درجة العالمية سنة (١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م) وعمره ست وعشرون سنةً ثم بدأت بعدها رحلته في الدعوة في مساجد القاهرة[(٣)].

شيوخه:

تلقَّى الشيخ الغزالي العلم عن الشيخ عبد العظيم الزرقاني والشيخ محمود شلتوت والشيخ محمد أبي زهرة، والدكتور محمد يوسف موسى وغيرهم من علماء الأزهر الشريف..

---

(١) يوسف القرضاوي، الشيخ الغزالي كما عرفته، نقلاً عن موقع القرضاوي على الشبكة الدولية:
http://www.qaradawi.net

(٢) موقع الشيخ الغزالي على الشبكة الدولية: http://www.alghazaly.org/

(٣) موقع الشيخ الغزالي على الشبكة الدولية: http://www.alghazaly.org/

وقد انضم في شبابه إلى جماعة الإخوان المسلمين وتأثّر بمرشدها الأول حسن البنّا.

ويقول الشيخ الغزالي عن هذه الفترة من حياته: «وإني أعترف - رَادًّا الفضل لأهله - بأني واحد من التلامذة الذين جَلسوا إلى حسن البنّا، وانتصحوا بأدبه، واستقاموا بتوجيهه واستفادوا من يقظاته ولَمَحَاته»[1].

وقد ظهر أول مؤلَّفاته للنور تحت عنوان (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) سنة ١٩٤٧م، وفي العام التالي تم حلُّ جماعة الإخوان المسلمين، واعتقال أعضائها ومنهم الشيخ الغزالي حيث أُودِعَ معتقلَ الطور، ثم خرج الشيخ - رحمه الله - من المعتقل عام ١٩٤٩م[2].

جوائز:

نال الشيخ - رحمه الله - العديد من الجوائز والتكريم الذي كان أهلاً له؛ ومن أهم الجوائز التي حصل عليها: جائزة الملك فيصل العالمية للعلوم الإسلامية عام ١٩٨٩م[3].

من مؤلَّفاته:

أثرى الشيخ - رحمه الله - المكتبة الإسلامية بالعديد من الكتب التي لا نظير لها في تنوعها، وسهولتها مع عمقها الفكري، وبلاغتها، وجِدَّة مواضيعها، ونفاذها إلى القلب، كل ذلك في آنٍ واحد، ومن هذه المؤلَّفات: عقيدة المسلم، وكيف تفهم الإسلام؟، وهموم داعية، وخلق المسلم، ومع الله، والحق المر.

كما كان الشيخ مجاهدًا في سبيل نشر حقائق الإسلام، ومواجهة خصومه؛ فألَّف: معركة المصحف، والإسلام المفترى عليه، والإسلام والمناهج الاشتراكية، والاستعمار أحقاد وأطماع، والإسلام في مواجهة الزحف الأحمر، والتعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، وقذائف الحق، وصيحة التحذير من دعاة التنصير، ومن هنا نعلم.

وكان من القضايا التي نذر الشيخ لها نفسه القضاء على سلبية المسلمين في مواجهة

---

(١) الغزالي: في موكب الدعوة ص ١١.

(٢) محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم، ج١، نقلاً عن موقع الشيخ الغزالي على الشبكة الدولية: http://www.alghazaly.org /

(٣) موقع الشيخ الغزالي على الشبكة الدولية: http://www.alghazaly.org/

الاستبداد والتخلُّف؛ فألَّف لذلك: الإسلام والطاقات المعطلة، والإسلام والاستبداد السياسي، والإسلام والأوضاع الاقتصادية، وسِرّ تأخر العرب، والكثير من الأعمال المهمة؛ حيث بَلَغت مؤلَّفاته أكثر من خمسين عملاً، وكان لها تأثير قوي على الأمة الإسلامية كلها.

منهجه العلمي والفكري:

يُعَدُّ الغزالي أحد أهم أعلام الفكر الإسلامي في النصف الثاني من القرن العشرين؛ وقد عُرِفَ عنه تجديدُه في الفكر الإسلامي، ويتميز فكر الغزالي بأنه يعتز بالمصلحين ويُقِرُّ بفضلهم، ويُقَدِّرُ مواقفهم، ويتخير من آرائهم ولكنه لا يتحيز لفكرهم.

كان من منهج الشيخ الغزالي – رحمه الله – رفض دخول العوام، وأنصاف العلماء حلبة الإفتاء، وكان يراهم مدَّعين، وكثيرًا ما تعرَّض – رحمه الله – لتطاولهم، وإساءاتهم؛ يقول الغزالي: «وَدِدتُ لو أُعِنتُ على محاكاة أبي حامد الغزالي مُؤَلِّفِ «إلجام العوام عن علم الكلام»؛ فَأَلَّفتُ كتابًا عنوانه «إلجام الرِّعاع والأغمار عن دقائق الفقه ومُشكِلِ الآثار»؛ لأمنعهم عن مناوشة الكبار، وأشغلهم بما يصلحون له من أعمال تناسب مستوياتهم، وتنفع أممهم بهم»[1].

«ورغم أن الغزالي كان شديد الإعجاب بالأفغاني وفكره في الإصلاح السياسي إلا أنه لا يعتبر تغيير الحكومات هو الحل الجذري لأن رفع مستوى الشعوب لا يتأتى إلا بالتربية الصحيحة التي تمثل القوة الفعلية لنهضة الأمم»[2].

وكان الشيخ – رحمه الله – يرى الجهاد التربوي - كما فعل محمد عبده - هو أقرب مناهج الإصلاح للصواب ويتفق الغزالي مع محمد عبده في تقديم العمل التربوي الجماهيري على العمل السياسي الضيق «فالفساد يهبط من أعلى إلى أدنى، والإصلاح يصعد من أدنى إلى أعلى»[3].

وقد توجَّه نحو دراسة أحوال المجتمع المسلم فجاءت قضية المرأة، وتوسيع دائرة تعليمها، وفتح المجال لإسهاماتها في مقدمة منهاجه العملي في الإصلاح الاجتماعي. وهو مسار طويل بدأه ابن باديس والإمام محمد عبده، وتلميذه رشيد رضا وجاء الغزالي بعد حسن

(١) الغزالي: علل وأدوية ٨١– ٨٢.

(٢) الغزالي: الحق المر ٢/ ١٦٢.

(٣) محاضرات الشيخ الغزالي ص ١٣٩.

البنا فوسَّعه وعمق نطاقه دون التقليل من شأن الإصلاح السياسي.

يؤيد الغزالي ابن باديس المصلح الجزائري الكبير الذي آمن بحق المرأة في التعلم وطالب بمشاركتها في عملية بناء الأمة»[1].

كما يُعد الغزالي من أبرز الدعاة المنافحين عن اللغة العربية في هذا العصر، وكان يصرخ بحرقة: «اللغة العربية في خطر، أدركوها قبل فوات الأوان»[2]؛ وقد اقترح الشيخ عدة مقترحات عملية لخدمة اللغة العربية في مجالات النحو والمعجم[3].

وكان الغزالي يتذوق الشعر ويحفظه، ويستشهد به في كلامه وفي كتاباته وفي مواقفه المختلفة، ومع أنه كان مولعًا بالشعر القديم ـ وبخاصة شعر المتنبي ـ إلا أنه كان يحفظ أيضًا الشعر الحديث ـ وبخاصة شعر أحمد شوقي ـ وكان يتابع كل جديد ينشر في مجال الأدب والشعر ويقرأ للمعاصرين له، ولكنه يمقت الشعر المرسل، وقد برر موقفه النقدي هذا في قوله: «قد ظل العرب أقل من عشرين قرنًا يصوغون شعرهم حسب البحور المأثورة عنهم. حتى جاء هذا العصر الأنكد بما يسمى: الشعر المرسل، محاكاة للشعر الأوروبي كما يقولون.. »[4]، «لماذا أيها القوم تسمون أنفسكم شعراء إذا كنتم لا تحسنون قرض الشعر وبناء القصيد. لماذا لا تحاولون أن تكونوا ناثرين بعد استكمال القدرة العقلية واللغوية»[5].

ولا أدل على تجديده الفكري من الضجة التي أثارتها بعض كتبه؛ ومن ذلك كتاب السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، الذي يُعَدُّ من أشهر كتب الغزالي، وقد أحدث ضجة فكرية كبيرة بين الباحثين؛ إذ جمع فيه المؤلف الكثير من أفكاره النقدية في موضوع المرأة.

ومن خلال استقراء فكر الغزالي نجد فلسفته التربوية تركز على ضرورة الإصلاح الشامل وضرورة تقديم الفكر الإسلامي المنفتح عن طريق السلوك الحميد وعن طريق التعاون مع كل من يمكن التعاون معهم؛ لأن الحكمة لا وطن لها، فأينما وجدها المسلم فهو أحق الناس بها. حاول الغزالي في تفسيره للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والتراث

---

(١) تراثنا الفكري ص ٤٨.

(٢) محمد الغزالي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ص ١٠٧.

(٣) السابق نفسه ص٨٩- ٩٠.

(٤) السابق نفسه ص ١٠٣.

(٥) السابق نفسه ص ١٠٥.

الإنساني الضخم أن يرسم معالم التربية الإسلامية السليمة ويستخلص جوهر المنهج المتفتح الذي أرساه الإسلام، فجاءت أطروحات الغزالي ومقالاته المتفرقة، وكتبه الكثيرة، وأشرطته السمعية المتنوعة لحل المشكلات الثقافية والاجتماعية المعاصرة.

تقوم فلسفة الغزالي التربوية على الإيمان بالفروق الفردية ورعاية المواهب الإنسانية وتشغيل الطاقات المعطلة.

أقوال العلماء عن الغزالي:

قال عنه العلامة القرضاوي: «قائد كبير من قادة الفكر والتوجيه، وإمام من أئمة الفكر والدعوة والتجديد.. بل نحن أمام مدرسة متكاملة من مدارس الدعوة والفكر والإصلاح، لها طابعها وأسلوبها ولها مذاقها الخاص، وتحتاج إلى دراسات عديدة لإبراز خصائصها ومواقفها وآثارها؛ فليس الغزالي ملك نفسه ولا ملك جماعة أو حركة ولا ملك قطر أو شعب بل هو ملك الأمة الإسلامية جمعاء»[1].

قال العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي: «كنت حريصًا على الاجتماع بالشيخ محمد الغزالي، فهو من شخصيات الإخوان المسلمين البارزة، وأحد كتاب النهضة الدينية بمصر»[2].

الدكتور عبد الصبور شاهين: « قَرَأَتِ الدنيا له عشرات الكتب في الإسلام ودعوته، وتلقّت عنه ما لم تتلقَّ عن أحد من معاصريه، حتى إن عصرنا هذا يمكن أن يطلق عليه في مجال الدعوة: عصر الأستاذ الغزالي»[3].

الدكتور جابر قميحة: «لقد جسَّم الغزالي الرضا، والأمر، والتكليف، والضيق والتقزز.. فبدت في صورة حسية مجسَّدة، كما شخص: النفس والمشاعر؛ فإذا بها في صورة حية نابضة»[4].

---

(١) القرضاوي: في الذكرى الحادية عشرة لرحيل الغزالي، على موقع القرضاوي: http://www.qaradawi.net

(٢) أبو الحسن الندوي: مذكرات سائح في الشرق العربي، نقلاً عن: عبد الله العقيل: من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية ص ٢٨.

(٣) وصفي عاشور أبو زيد، كيف ندعو إلى الإسلام في زمن العولمة وعصر الهجوم على الإسلام (في فكر الشيخ محمد الغزالي)، مجلة الوعي الإسلامي، العدد رقم: ٤٩٣، بتاريخ ٢٣ ديسمبر ٢٠٠٦م.

(٤) جابر قميحة: عشر سنوات على رحيل الغزالي الأديب، على موقع الغزالي، ورابطه:
http://www.alghazaly.org

تلاميذه:

تتلمذ على الغزالي عدد كبير من طلبة العلم الذين صاروا فيما بعد علماء أجلاء طبقت شهرتهم الآفاق، ومن هؤلاء العلامة الدكتور يوسف القرضاوي، والشيخ منّاع القطان. والدكتور أحمد العسّال.. وغيرهم.

دراسات عن الغزالي:

- الشيخ الغزالي كما عرفته.. رحلة نصف قرن: أ.د يوسف القرضاوي.
- كيف نتعامل مع القرآن. في مدارسة مع الشيخ محمد الغزالي: عمر عبيد حسنة.
- هكذا علمني محمد الغزالي: علاء الدين آل رشي.
- الشيخ محمد الغزالي: صور من حياة مجاهد عظيم ودراسة لجوانب من فكره: عماد الدين خليل عبدالحليم عويس وآخرون.
- دفع الشبهات عن الشيخ محمد الغزالي: أحمد حجازي السقا.
- الشيخ محمد الغزالي: تاريخه جهوده وآراؤه: عبدالحليم عويس.
- خطب الشيخ الغزالي في شؤون الدين والحياة: دار الاعتصام.
- الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية: أ.د محمد عمارة.
- الداعية الناجح في فكر الغزالي، وصفي عاشور أبو زيد.
- الشيخ الغزالي كما عرفته في الجزائر: عمار الطالبي.
- ملامح الفكر السياسي للشيخ محمد الغزالي: محمد وقيع الله.

وفاته:

تُوُفِّي يوم السبت (١٩ من شوال ١٤١٦هـ/ ٩ من مارس ١٩٩٦م) في السعودية أثناء مشاركته في مهرجان الجنادرية الثقافي بالمملكة العربية السعودية، حول موضوع (الإسلام وتحديات العصر)، ودُفِنَ بالبقيع، وكان قبلها قد صرَّح بأن أمنيته أن يُدفَنَ في البقيع، وقد تحقَّق له ما تمنى[1]؛ فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

(١) محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم ج١، موقع الشيخ الغزالي على الشبكة الدولية:
http://www.alghazaly.org. /

المبحث الرابع
دور العلم في حياة عبد العزيز بن باز

[ذو الحجة ١٣٣٠ - المحرم ١٤٢٠هـ]

[نوفمبر ١٩١٢ - مايو ١٩٩٩م]

ميلاده ونشأته :

هو عبد العزيز بن عبد الله بن باز. وُلِدَ في ذي الحجة سنة ١٣٣٠هـ بمدينة الرياض وكان مبصرًا ثم أصابه مرض في عينيه عام ١٣٤٦هـ فضَعُف بصره ثم فقده بالكلية عام ١٣٥٠هـ ولكنه اجتهد فحفظ القرآن الكريم قبل سِنِّ البلوغ[1].

شيوخه :

جَدَّ الشيخ في طلب العلم على أيدي أفاضل علماء المملكة، ومن أبرزهم: محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وصالح بن عبد الوهاب، وسعد بن حمد بن عتيق (قاضي الرياض)، وحمد بن فارس (وكيل بيت المال في الرياض)، ومحمد بن إبراهيم آل الشيخ (مفتي المملكة العربية السعودية الأسبق - رحمه الله-)، الذي لازم ابن باز حلقاته صباحًا ومساءً، وتلقَّى عنه جميع العلوم الشرعية ابتداءً من سنة ١٣٤٧هـ، وحتى سنة ١٣٥٧هـ حين رشحه آل الشيخ للقضاء وأخذ علم التجويد عن الشيخ سعد وقّاص البخاري (من علماء مكة المكرمة) عام ١٣٥٥هـ[2].

جمعه صفات أهل العلم :

لقد حوى الشيخ - رحمه الله- العديد من أخلاق أهل العلم؛ فقد كان شديد التعظيم للسُّنة والتطبيق المستمر لها، كما كان يتصف بالرِّقة وكثرة البكاء عند سماع القرآن، أو بعض الحديث، أو سِيَرِ العلماء الأجلاَّء، أو أخبار المستضعفين من المسلمين، أو الشعر الجيد المؤثر، ولم يدفعه علمه الغزير للكِبْر؛ فكان شديد التواضع، مع علوِّ مكانته ومنزلته، يتصف بالحِلم العجيب الذي يفوق الحدّ. واتصف - رحمه الله- بالأدب الجم، والذوق الرفيع، وكان واسع

---

(١) محمد الحمد: جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز ص ٣٣.

(٢) الإنجاز في ترجمة الإمام عبد العزيز بن باز، نقلاً عن موقع الشيخ ابن باز على الشبكة الدولية:
http://www.bin-baz.org.sa

الكرم والسخاء، سواء بالمال أو الوقت أو العلم أو الإحسان أو الشفاعة، ورفض أن يكتب القصر الذي بُنِيَ خصيصًا له باسمه - عندما تولى رئاسة الجامعة الإسلامية - وقال: «يبقى القصر باسم رئيس الجامعة الإسلامية؛ وكل من تولى رئاسة الجامعة فالقصر سكنٌ له»[1].

وقد وهبه الله ﷺ ذاكرةً قويةً كانت تزيد مع تقدمه في السن، كما كان صاحب همَّة عالية. وعزيمة قوية لا تستصعب شيئًا، وكان ديدنه العدل في الأحكام سواء مع المخالفين أو الموافقين، ومن مآثره العظيمة، وأخلاقه الجليلة الثبات على المبدأ وعلى الحق، وكان يجمع إلى ذلك سعة الأفق، وبُعد النظر، والوفاء ودقة الموعد[2].

أعماله وإنجازاته:

كان القضاء أول عمل تولاّه سماحة الشيخ في مدينة الخرج في الفترة (١٣٥٧-١٣٧١هـ)، إضافة إلى إمامة الناس، وخطبة الجمعة، وإلقاء الدروس في حلقات مستمرة أيام الأسبوع عدا يومي الثلاثاء والجمعة ولديه طلاب كثيرون متفرغون لطلب العلم.

انتقل إلى الرياض في عام ١٣٧٢هـ للتدريس في معهد الرياض العلمي، ثم في كلية الشريعة بعد إنشائها سنة ١٣٧٣هـ إلى أن صار نائبًا لرئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ١٣٨١هـ وقد أسس حلقة التدريس في الجامع الكبير بالرياض منذ انتقل إليها ولازمها كثير من طلبة العلم وأثناء وجوده بالمدينة المنورة من عام ١٣٨١هـ نائبًا لرئيس الجامعة، ثم رئيسًا لها (١٣٩٠هـ - ١٣٩٥هـ)، عقد حلقة للتدريس في المسجد النبوي[3].

حَجَّ الشيخ ابن باز اثنتين وأربعين حِجَّة؛ أولها عام (١٣٤٩هـ)، ثم حَجَّ بعدها أربع حِجّات متفرِّقات، ثم لم يترك حجة - (٣٧ حجة متتابعة) - في الفترة (١٣٧٢-١٤١٨هـ)[4].

إسهاماته العلمية:

جمع الشيخ ابن باز علومًا شتّى؛ فإذا رأيته يتكلم في علم من العلوم ظننت أنه تخصصه،

(١) عمر عبد الله: قبسات وعظات من حياة العلامة الزاهد ابن باز، مجلة الفرقان، العدد ٤٤٧.

(٢) محمد الحمد: جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز ص ٣٩- ٤١.

(٣) السابق نفسه ص ٤٥- ٤٨.

(٤) السابق نفسه ص ١١٣.

وأنه لا يحسن غيره، فهو إمام في الحديث وعلومه، ومعرفة رجاله وأحوال رواته، ومعرفة صحيحه من ضعيفه، وهو فقيه من الطراز الأول، وإذا نُوقِش في العقيدة ظننت أنه لا يحسن غير هذا الفن، وهو هكذا إذا تحدث في التفسير، ويتعجب السامع له من دروسه في علم الفرائض، وضبط مسائله، وقسمة التركات، وكأنه يقرأ من كتاب.

مؤلَّفاته:

ترك الشيخ ابن باز مؤلَّفاتٍ وآثارًا علمية كثيرة تناولت جوانب عديدة؛ وكان منها المخطوط، ومنها المسموع، ومنها المطبوع، ومن أهمها:

الفوائد الجلية في المباحث الفرضية؛ وهو من أوائل مؤلفاته، وكانت طبعته الأولى في (١٣٥٨هـ)، واهتم الشيخ – رحمه الله- بتوضيح العبادة الصحيحة؛ فألَّف: التحقيق والإيضاح لكثير من مسائل الحج والعمرة والزيارة (توضيح المناسك)؛ وقد جمعه عام (١٣٦٣هـ)، حين كان قاضيًا في الخرج، وطُبِعَت منه طبعات كثيرة، وتُرْجِمَ إلى عدة لغات، وثلاثَ رسائل في الصلاة، ورسالتين موجزتين في الزكاة والصيام، كما أنَّ له مجموع فتاوى ومقالات؛ جمعها الدكتور محمد بن سعد الشويعر، وخرج منها للنور ثمانية عشر مجلدًا، واهتم الشيخ ببيان العقيدة الصحيحة، وحذَّر من البدع، وأبان أضرارها؛ فأخرج: كتاب العقيدة الصحيحة وما يضادُّها، والتحذير من البدع، ووجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه، كما أدلى بدلوه في مواجهة الحملة ضد سُنَّة رسول الله ﷺ فأخرج كتاب وجوب العمل بسنة الرسول ﷺ وكفر مَن أنكرها.

وكان له إسهاماته في مجال التأليف الدعوي؛ فقد ألَّف: الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة، حكم السفور والحجاب، ونكاح الشِّغار، نقد القومية العربية، الجواب المفيد في حكم التصوير، الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته وسيرته، حاشية مفيدة على فتح الباري، الجهاد في سبيل الله.

ولسماحة الشيخ بحوث علمية، وردود فقهية واجتماعية نشرت في العديد من المجلات والصحف داخل المملكة وخارجها، هذا إلى جانب الأعداد الضخمة من الفتاوى التي ردَّ بها على مستفتيه المنتشرين في مختلف أنحاء العالم.

إجلاله لأهل العلم:

لأهل العلم منزلة خاصة عند الشيخ؛ إذ كان يحبهم ويقدرهم حقَّ قدرهم، ويُنزلهم منازلهم اللائقة بهم[1]، ومن مواقفه المشهودة في ذلك؛ ما رواه الشيخ محمد المجذوب (من علماء المغرب) عن غضب الشيخ ورعدته وخطابه الذي أرسله إلى الحكومة المصرية عند إعلان قرار المحكمة بإعدام العالم الجليل سيد قطب وإخوانه رحمهم الله، وكانت برقيةً تقطر نارًا، ختمها الشيخ بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣][2]، وكانت البرقية الوحيدة من أنحاء العالم الإسلامي التي تحمل أشد العبارات قسوةً.

ومما يذكر في هذا المقام أيضًا؛ طلبه الاطلاع على رسائل الشيخ حسن البنا؛ فلما قرئت عليه أبدى إعجابه ببعضها، وعلق تعليقًا يسيرًا على البعض الآخر[3].

ثناء العلماء عليه:

كان لسماحة الشيخ منزلة عظيمة سامية عند الجميع كبارًا وصغارًا وفي كل مكان من أرض الإسلام؛ وقد زاره الشيخ محمد الغزالي مرة، ولما همَّ بالخروج قال: «نحن بخيرٍ ما دام فينا هذا الرجل»[4].

وقال عنه عبد الله بن سليمان بن منيع: «ولقد تقلَّد القضاء - حفظه الله - في آخر شبابه ومستهل كهولته ، فكان نِعْمَ القاضي العادل، ونعم القاضي العالم، ونعم القاضي المرضي، فما من حكم يصدر من سماحته في قضائه إلا هو موضع التسليم والرضا والقناعة من طرفي الخصومة ، لما يتمتع به - حفظه الله - من القبول لدى الجميع، والقناعة به من الجميع، والاطمئنان إلى ما يحكم به من الجميع»[5].

---

(١) السابق نفسه ص ٢٤٥.

(٢) محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم، ١/ ٧٧- ١٠٦.

(٣) محمد الحمد: جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز ص ٢٦٣.

(٤) السابق نفسه ص ٢٨١.

(٥) محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم، ١/ ٧٧- ١٠٦.

منهجه العلمي والفكري:

منهجه في العقيدة:

يرى الشيخ الإيمان بصفات الله تعالى على ما وردت دون تكلف لتأويل أو تعطيل، ويرى الشيخ أنه لا وسيلة لتثبيت العقيدة كالدلالات الحاسمة من الكتاب والسنة، وكل تعويل على ما سواها مما ذهب إليه علماء الكلام مؤدٍّ إلى الاضطراب والتشويش[١].

منهجه في الفقه:

يأخذ بأصول الإمام أحمد، غير أنه لا يتقيد بالمذهب، إذا ظهر له الدليل على خلافه، ويفضل الاجتهاد في تقصي الأدلة[٢].

منهجه في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر:

كان الشيخ داعيًا إلى الله عاملاً بما يقول، يغار على دين الله، يُجِلُّ أهل العلم، وينصح لهم، ولا يُفوِّت فرصة للخير إلا سعى إليها سعيًا حثيثًا، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويفعل الخير، ويحث الناس عليه.. فكان إذا ثبت لديه وقوع منكر من شخص أو جهة كتب إليهم، وخاطبهم مشافهة، أو استدعى من يعنيه الأمر، ثم أنكر عليه بلطف، وبيّن له الأدلة على ما يقول، ورغّبه في الخير، وحذره من الشر؛ فما يكاد يقوم بهذا الأمر إلا ويجد قبولاً واستجابة، وكم درأ الله بمنهجه هذا من مفسدة! وكم قضى على منكر! وكم أحيا من سنة! وقمع من بدعة![٣]

وكان من منهجه – رحمه الله– مع طلابه؛ تربيتهم على مكارم الأخلاق، وتدريبهم على البحث والنظر في الأدلة واتباعها، واحترام العلماء، وتنزيلهم منازلهم[٤].

أهم المناصب التي تولاّها:

تولى الشيخ – رحمه الله– رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ثم منصب مفتي عام المملكة ورئيس هيئة كبار العلماء وإدارة البحوث العلمية والإفتاء، كما كان

---

(١) السابق نفسه ١/ ٧٧– ١٠٦.

(٢) السابق نفسه ١/ ٧٧ – ١٠٦.

(٣) محمد الحمد: جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز ص ٣٤٣.

(٤) محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم، ١/ ٧٧– ١٠٦.

رئيس وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وكذلك رئيس المجلس الأعلى العالمي للمساجد.

ومن مسؤولياته الجِسام: رئاسة المجمع الفقهي الإسلامي بمكة المكرمة التابع لرابطة العالم الإسلامي، وكان عضوًا بالمجلس الأعلى للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وعضو الهيئة العليا للدعوة الإسلامية.

وتولَّى الشيخ – رحمه الله- القضاء في منطقة الخرج سنة ١٣٥٧هـ لأكثر من أربعة عشر عامًا، وتولَّى التدريس في المعهد العلمي بالرياض سنة ١٣٧٢هـ وكلية الشريعة بالرياض سنة ١٣٨١هـ في علوم الفقه والتوحيد والحديث، وقد عُيِّن في عام ١٣٨١هـ نائبًا لرئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ثم تولَّى رئاسة الجامعة الإسلامية في سنة ١٣٩٠هـ[١].

وفاته:

توفِّي الشيخ ابن باز يوم الخميس (٢٧ من المحرم ١٤٢٠هـ) عن عمر يناهز ٨٩ سنة بعد حياة عامرة بالعلم تعلُّمًا وتعليمًا؛ فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه الله ﷻ عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء[٢].

***

(١) السابق نفسه ١/ ٧٧- ١٠٦.

(٢) محمد الحمد: جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز، ٥٨٧.

المبحث الخامس
دور العلم في حياة الندوي

[٦ من المحرم ١٣٣٣ - ٢٣ من رمضان ١٤٢٠هـ]

[١٩١٤ - ٣١ من ديسمبر ١٩٩٩م]

ميلاده ونشاته :

هو «أبو الحسن» علي بن فخر الدين، ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي ﷺ. ولد بقرية «تكية» بمديرية «راي بريلي» في الولاية الشمالية بالهند في (٦ محرم ١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م)، كان والده[١] علامة الهند ومؤرخها، وكانت والدته[٢] من السيدات الفاضلات؛ تحفظ القرآن الكريم وتقول الشعر، وتؤلف الكتب، توفي والده وهو دون العاشرة فأشرف أخوه الكبير على تربيته، فحفظ القرآن، وتعلم الأردية والإنجليزية والعربية، ثم التحق بجامعة لكهنؤ، وهي جامعة تدرس العلوم المدنية باللغة الإنجليزية، وفيها قسم لآداب اللغة العربية، اختاره أبو الحسن عن شوق، ثم التحق بدار العلوم لندوة العلماء عام ١٩٢٩م، ليلاقي كبار علماء الهند، وليحضر دروس الشريعة عليهم، ولكنه لم يرتو بعد؛ فالتحق بـ«ديوبند» مدة شهور، ثم سافر إلى «لاهور»، وقرأ التفسير القرآني على كبار علمائها، وتحققت أمنيته بلقاء شاعر الإسلام محمد

---

(١) والده هو (العلامة السيد عبد الحي الحسني) ولد في (١٨ رمضان ١٢٨٦هـ= ٢٢ ديسمبر ١٨٦٩م) وكان من كبار العلماء في (ق ١٤هـ= ق ٢٠م)، عاش في عصر يعد من أكثر العصور اضطرابا فكريا وسياسيا واجتماعيا في بلاد الهند، كان رئيسًا لحركة ندوة العلماء، وله مؤلفات كثيرة، أهمها (نزهة الخواطر) في ثمانية مجلدات في تراجم علماء الهند (٤٥٠٠ شخصية) جمعها في ثلاثين سنة، وكتابه (الثقافة الإسلامية في الهند)، وكتابه (الهند في العهد الإسلامي)، وله كتب في الحديث والفقه منها (تهذيب الأخلاق)، و(قانون في انتفاع المرتهن بالمرهون) و(الغناء وحكمه في الشرع) وكلها بالعربية. وله كتاب (ياد أيام) في تاريخ إقليم حجرات وكتاب في تاريخ الشعر الأردي باسم (كل رعنا) أي الوردة الرشيقة يدرس في عدة جامعات، هذا بالإضافة إلى رسائل في التعليم الديني والإصلاح الخلقي والاجتماعي بالأردية، منها رسالة (إصلاح) في صلة الرحم، وله كتب مفيدة لأبناء المسلمين منها (تعليم الإسلام) و (نور الإيمان) وغيرهما.

(٢) والدته هي (السيدة خير النساء بنت ضياء النبي الحسني) كانت تحفظ القرآن الكريم، ونشرت لها عدة كتب إسلامية ومجموعتان في الشعر، ومجموعة قصائد في الدعاء والمناجاة باسم (باب الرحمة)، ومجموعة قصائد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم باسم (مفتاح باب الرحمة)، ولها كتب في تعليم النساء والأولاد في الأمور الاجتماعية منها كتاب (الذائقة) وكتاب (حسن المعاشرة) وكتاب (الدعاء والقدر) وتميزت بقيام الليل وكثرة الدعاء والمناجاة إلى الله، توفيت في ١٣٨٨هـ.

إقبال، فجالسه وأفاد منه، وعين – بعد ذلك – مدرسًا بدار العلوم لندوة العلماء في عام ١٩٣٤م.

همة باكرة:

يُعَدُّ الندوي من أشهر العلماء المسلمين في الهند، وله كتابات وإسهامات عديدة في الفكر الإسلامي، وكان كثير السفر إلى مختلف أنحاء العالم لنصرة قضايا المسلمين والدعوة للإسلام وشرح مبادئه، وإلقاء المحاضرات في الجامعات والهيئات العلمية والمؤتمرات.

دفعته همته الباكرة – صغيرًا – إلى كتابة مقال تاريخي، وعمره (١٨ سنة) يتحدث فيه عن جده المجاهد أحمد بن عرفان شهيد الإسلام، وبعث به إلى (مجلة المنار) المصرية التي يقوم عليها العلامة محمد رشيد رضا فنشره، وبدأ الندوي الدعوة إلى الله على المنابر خطيبًا.

ثم سافر إلى (دلهي) في رحلة علمية، فالتقى بعالمها الكبير الشيخ محمد إلياس؛ فعزم الندوي أن يكون داعية بلسانه، كما يكتب بقلمه، ولكنه رأى أن يدعو ويرحل إلى العالم الإسلامي كله، بدلاً من الدعوة في الهند فقط كما فعل شيخه إلياس، فرحل إلى الحجاز مرات، وإلى مصر، والمغرب، والشام، وتركيا، وزار أمريكا، والدول الأوروبية، وطوف بأكثر عواصم العالم الإسلامي، وكانت رحلاته عظيمة التأثير.

إسهاماته العلمية:

مؤلفاته:

بلغ مجموع مؤلفاته وترجماته نحو ٧٠٠ عنوان، منها ١٧٧ عنوانًا بالعربية، ترجم عدد منها إلى الإنجليزية والفرنسية والتركية والبنغالية والإندونيسية وغيرها..

وكان كاتبًا غزير الإنتاج، صاحب منهج متميّز عن غيره من المفكّرين والباحثين المعاصرين بسبب معرفته لعدد من اللغات كالعربيّة والأرديّة والإنجليزيّة والفارسيّة، وسعة اطّلاعه على مصادر الحضارات غير الإسلاميّة، فضلاً عن تعمقه في التاريخ الإسلامي، وقد تميّزت مؤلّفاته كلّها بالغوص العميق في فهم أسرار الشريعة، والتحليل العميق لمشاكل العالم الإسلامي.

أهم مؤلفاته:

نُشِرَ أوَّلُ مقالٍ للندوي بالعربية في مجلة «المنار» – يرأسها العلامة محمد رشيد رضا –

(١٩٣١م) حول حركة الإمام السيد أحمد بن عرفان (الشهيد في بالاكوت عام ١٨٣١م)، ثم توسع في هذا المقال فظهر له أوَّلُ كتاب بالأردية (١٩٣٨م)، بعنوان «سيرة سيد أحمد شهيد» ونال قبولاً واسعاً في الأوساط الدينية والدعوية، وألّف بعدها كتابه «مختارات في أدب العرب» (١٩٤٠م)، ثم ألف سلسلة «قصص النبيين» للأطفال في خمسة أجزاء، وسلسلةً أخرى للأطفال باسم: «القراءة الراشدة» في ثلاثة أجزاء، في الفترة مابين ١٩٤٢-١٩٤٤م.

ثم بدأ الندوي في تأليف كتابه المشهور «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» (١٩٤٤م)، وأكمله (١٩٤٧م)، وقد طُبِعت ترجمتُه الأرديةُ في الهند قبل رحلته الأولى للحج عام ١٩٤٧م، وقدم لهذا الكتاب الأستاذ سيد قطب، وقال عنه العلامة القرضاوي: «الكتاب نظرة جديدة إلى التاريخ الإسلامي، وإلى التاريخ العالمي من منظور إسلامي، وهو منظور عالم مؤرخ مصلح داعية، يعرف التاريخ جيداً، ويعرف كيف يستخدمه لهدفه ورسالته».

وألَّف رسالة بعنوان: «إلى مُمثِّلي البلاد الإسلامية» (١٩٤٧م)، وجَّهها إلى المندوبين المسلمين والعرب المشاركين في المؤتمر الآسيوي المنعقد في دلهي- بدعوة من رئيس وزراء الهند وقتها: جواهر لال نهرو - فكانت أولَ رسالةٍ له انتشرت في الحجاز عند رحلته الأولى.

كما كلَّفته الجامعة الإسلامية في عليكره (A.M.U.) الهند (١٩٤٢م)، بوضع منهاج لطلبة الليسانس في التعليم الديني أسماه «إسلاميات»، وألقى في الجامعة المِلِّيَّة بدلهى محاضرةً طُبعت بعنوان: «بين الدين والمدنيَّة».

وقد دُعِي أستاذاً زائراً في جامعة دمشق (١٩٥٦م)، وألقى محاضرات بعنوان: «التجديد والمجدِّدون في تاريخ الفكر الإسلامي»، ضُمَّت - فيما بعد- إلى كتابه الكبير «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» (أربعة أجزاء)، كما ألقى محاضرات في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بدعوة من نائب رئيسها سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز (١٩٦٣م)، طُبِعت بعنوان: «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن».

وسافر إلى الرياض بدعوة من وزير المعارف السعودي (١٩٦٨م)؛ للمشاركة في دراسة خِطَّة كلية الشريعة، وألقى بها عدَّةَ محاضرات في جامعة الرياض وفي كلية المعلِّمين، وقد ضُمَّ بعضُها إلى كتابه: «نحو التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية».

كما ألّف - بتوجيهٍ من شيخه عبد القادر الراي بوری - كتاباً حول القاديانية (١٩٥٨م). بعنوان: «القادياني والقاديانية»، وألّف كتابه «الصِّراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية» (١٩٦٥م)، وكتابه «الأركان الأربعة» (١٩٦٧م)، و«العقيدة والعبادة والسلوك» (١٩٨٠م)، و«صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم والمسلمين الأوائل عند أهل السنة والشيعة» (١٩٨٤م)، و«المرتضى» في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (١٩٨٨م).

ومن مؤلّفاته أيضًا:

(العرب والإسلام) و(مذكّرات سائح في الشرق العربي) و(الإسلام والحياة) و(المسلمون وقضية فلسطين) و(المسلمون في الهند) و(روائع إقبال) و(الصراع بين الإيمان والماديّة) و(إلى الإسلام من جديد) و(الطريق إلى المدينة) و(العاقبة للعرب والمسلمين) و(العرب يكتشفون أنفسهم) و(روائع من أدب الدعوة) و(التفسير السياسي للإسلام) و(إذا هبت ريح الإيمان) و(بين الصورة والحقيقة) و(الإسلام والعلم) و(حديث من الغرب).

آراؤه ومنهجه العلمي والفكري:

تلقى الندوي تربيته الروحيّة على الشيخ عبد القادر الرائي فوري، وتأثّر بفكر الإمام أحمد بن حنبل، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وأحمد بن عبد الأحد السرهندي، وشاه ولي الله الدهلوي، وكان الشيخ محمد إلياس من أعظم أساتذته تأثيرًا فيه.

ورأى الندوي أن الأحداث التي عاصرها وعلى رأسها سقوط الخلافة، دعمت إيمانه ويقينه بأن الإسلام لا بدّ أن يتولّى الزمام لإنقاذ العرب والعالم؛ لأن الحل الوحيد لمأساة الإنسان يكمن في تحوّل قيادة العالم إلى أيد مؤمنة بقيم الإنسانيّة، وكان محور إصلاحه: مكافحة الغزو الفكري، وبثّ روح الاعتزاز بالإسلام في المسلمين، ومقاومة الردّة وآثارها، وخاطب العرب وركّز عليهم اهتمامه، لأنّهم يحملون استعدادًا روحيًّا ومعنويًّا وماديًّا لقيادة العالم الإسلامي، وبالتالي لقيادة العالم أجمع، وكان حريصًا على نهضة العرب بمواهبهم وكفاءاتهم .

وحدّد واجب العلماء والطبقة المثقفة في مقال نُشِرَ بمجلّة (البعث الإسلامي) قائلاً: «إنّ مسئولية العلماء والمفكّرين المسلمين في العصر الحديث ـ بعد مواجهتهم للتحدّيات المعاصرة

وإثباتهم أن الإسلام قادر على قيادتها وترشيدها والسموّ بها – هي أن يفضّلوا الإسلام على كل جماعة، ومؤسّسة، ومدرسة، وطائفة، وحزب، وليكن مصلحة الدين والعقيدة مفضّلة على عمل كل مصلحة حزبيّة، أو جماعيّة».

ومن أبرز تأمّلاته: قضيّة الإصلاح والتغيير؛ حيث رأى أنّ المنهج الإصلاحي الذي نريده ينبع أساسًا من تكوين الفرد تكوينًا نوعيًّا، ويحمل على بعض المصلحين الذين خلطوا الواقع الإصلاحي بالتجربة والروح الغربيّة، وكان يندهش من المسلمين الذين اطمأنّوا لتدريس أبنائهم في المؤسسات العلميّة الغربيّة، وغفلوا عن هدف الغرب في القضاء على الهويّة الإسلاميّة لهم، وتنبّه إلى ضرورة إحداث تغيير شامل في الجامعات الإسلاميّة من خلال ربط العلم بالتربية؛ وأولى اهتمامًا كبيرًا بالمنهل العلمي الذي يتلقّاه الشباب، فلا بدّ من تصفية هذا المنهل من خلال توحيد التعليم ليكون وحدة شاملة تجمع بين الوسائل والغايات.

ثم إنه أكّد على عالميّة الرسالة وإنسانيّتها، وفي ذلك ما يبعث على الغيرة، وما يبعث على أن يتنافس العرب، وأن يسبقوا لأنّهم أهل الفضل وأهل الرسالة، وأهل الدعوة، وأشاد بدور العرب لأنهم الذين أشركونا في هذه الثروة السماويّة السامية الأخيرة، وأنّ هذه الدعوة قد لبيّت تلبية حسنة، وكانت مستجابة استجابة كريمة تليق بإخواننا العرب وبشرفهم وبمكانتهم وبزعامتهم وقيادتهم .

ركائز فقه الدعوة عند أبي الحسن الندوي:

حدد الدكتور يوسف القرضاوي ركائز عشرين لفقه الدعوة عند أبي الحسن الندوي، هي:

١- تعميق الإيمان في مواجهة المادية.

٢- إعلاء الوحي على العقل.

٣- البناء لا الهدم، والجمع لا التفريق.

٤- إحياء روح الجهاد في سبيل الله.

٥- استيحاء التاريخ الإسلامي وبطولاته.

٦- نقد الفكرة الغربية والحضارة المادية.

٧- تأكيد دور الأمة المسلمة واستمراره في التاريخ.

٨- التنويه بقضية فلسطين وتحريرها.

٩- العناية بالتربية الإسلامية الحرة.

١٠- دعوة غير المسلمين.

أهم أعماله ومناصبه:

بدأ الندوي رحلاته الدعوية عام ١٩٣٩م في الهند، وأسس مركزًا للتعليم الإسلامي عام ١٩٤٣م، ثم اختير عضوًا في المجلس الانتظامي لندوة العلماء عام ١٩٤٨م، ثم أسس حركة رسالة الإنسانية عام ١٩٥١م، والمجمع الإسلامي العلمي عام ١٩٥٩م، في لكنو بالهند. واختير أمينًا عامًا لندوة العلماء عام ١٩٦١م – التي ظل بها حتى وفاته –، وأدار الجلسة الأولى لتأسيس رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة عام ١٩٦٢م نيابةً عن رئيسها سماحة مفتي عام المملكة العربية السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ – وقد حضر أوّلها جلالةُ الملك سعودُ بن عبد العزيز آل سعود كما حضرها الملك إدريس السنوسي حاكم ليبيا، وشخصيات أخرى ذات شأن – وقدَّم فيها مقالَه القيِّمَ «الإسلام فوق القوميات والعصبيات».

اختير الندوي عضوًا في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام ١٩٦٢م، وظلَّ عضوا فيه إلى انحلال المجلس وانضمام الجامعة في سلك بقية الجامعات السعودية تابعةً لوزارة التعليم العالي، كما دعا إلى تأسيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية عام ١٩٨٤م، واختير أول رئيس لها عام ١٩٨٦م.

حصل الندوي على عضوية كثير من الهيئات والمؤسسات الدعوية العلمية والعالمية منها: رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها، والمجمع العلمي بدمشق، ومجمع اللغة العربية الأردني عام ١٩٨٠م، والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) بالأردن، عام ١٩٨٣م، كما مُنح درجة الدكتوراة الفخرية في الآداب من جامعة كشمير عام ١٩٨١م، واختير رئيسًا لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية[1] عام ١٩٩٣م، وبعد وفاته صار

(١) مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية في بريطانيا: معهد أكاديمي يرتبط بجامعة أكسفورد، تأسس عام ١٩٨٥م، برعاية ولي العهد البريطاني (الأمير تشارلز)، ويشارك خبراء المركز في التدريس أو الإشراف على البحوث، في الأقسام المناسبة في جامعة أكسفورد ومنها: العلوم الاجتماعية، والتاريخ الحديث، والعقائد، والدراسات الشرقية، والتعليم، فضلاً عن برامجه لتدريس اللغة العربية، كما يقود المركز مشاريع البحث حول موضوعات تتعلق بالعالم الإسلامي.

بالمعهد درجة زمالة (أبو الحسن الندوي)، وممن منح هذه الزمالة أ.د. وهبه الزحيلي عام ٢٠٠٠م.

وذلك عدا عضويته في كثير من الجامعات الإسلامية، والمنظمات الدعوية، ولجان التعليم والتربية.

جوائز:

- منح جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام، سنة ١٤٠٠هـ= ١٩٨٠م.
- منحته إمارة دبي جائزة شخصية العام الإسلامية لعام ١٤١٩هـ؛ في دورتها الثانية، بعد أن منحت في دورتها الأولى لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي.
- منحه معهد الدراسات الموضوعية بالهند جائزة الإمام ولي الله الدهلوي لعام١٩٩٩م - والتي تم منحها لأول مرة - وكان قد تقرر اختياره لهذه الجائزة في حياته ولكن وافته المنية قبل الإعلان الرسمي، وقد تسلم هذه الجائزة باسمه - رحمه الله- ابن أخته وخليفته فضيلة الشيخ محمد الرابع الحسني النَّدْوي في دلهي في (٧ من شعبان ١٤٢١هـ= نوفمبر٢٠٠٠م).
- منحته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسسكو ISESCO) -تقديرًا لعطائه العلمي المتميز وإكبارًا للخدمات الجليلة التي قدمها إلى الثقافة العربية الإسلامية - وسام الإيسسكو من الدرجة الأولى. وقد تسلم هذا الوسام نيابة عنه سعادةُ الدكتور عبد الله عباس النَّدْوي في الرباط في ٢٥/ من شعبان ١٤٢١هـ.
- منح جائزة السلطان حسن بلقية العالمية في موضوع «سير أعلام الفكر الإسلامي» من مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية عام (١٩٩٨م= ١٤١٩هـ).

ثناء العلماء عليه:

قال عنه الدكتور يوسف القرضاوي: «كان الندوي يمثل نسيجًا مميزًا من العلماء المسلمين ينضم إلى العلماء الكبار..»، إنه رجل جعل الرسول الكريم أسوته في هديه وسلوكه وحياته كلها، واتخذ سيرته نبراسًا له، في تعبده وزهده، وإعراضه عن زخارف الحياة، وزينة الدنيا، فهو يعيش في الخلف عيشة السلف، لا يهتم بما يهتم به أمثالنا من متاع وتملك ورياض وزينة، تحسبه إذا رأيته سلمان الفارسي أو أبا الدرداء». «الندوي.. مثال للعالم المسلم، والداعية المجدد، ومثال جمع بين رقة الربانيين، وتوحيد السلفيين، والتزام السنيين، وثقافة المعاصرين».

كتب عنه الشيخ الغزالي في مذكراته، وقال: «إن رسائل الندوي هي التي لفتت النظر إلى موقف ربعي بن عامر -رضي الله عنه- بين رستم قائد الفرس وكلماته البليغة له.. أبو الحسن الندوي - فيما أعلم - هو أول من نبهنا إلى قيمة هذا الموقف وهذه الكلمات، ثم تناقلها الكاتبون بعد ذلك وانتشرت».

وصفه الشيخ علي الطنطاوي لما زاره سنة (١٣٧٣هـ=١٩٥٤م) في لكهنؤ فقال: وجدته في الأحوال كلّها، مستقيمًا على الحق، عاملاً لله، زاهدًا حقيقيًا زهد العالم العارف بالدنيا وأهلها .

ووصف الدكتور ليث القيسي الإمام الندوي بأنّه رمز بارز من رموز الدعوة الإسلاميّة. ومعلم ظاهر في الحقبة التاريخيّة التي عاشها، وطاقة فعّالة وجذوة لم تنطفئ، قضاها كاتبًا ومحاضرًا ومشاركًا في الندوات والمؤتمرات ؛ وتحدّث القيسي عن جهوده في خدمة السيرة النبويّة فأشار إلى أنّ جهود الندوي في السيرة لا تفهم إلاّ من خلال خلفيّة تاريخيّة ميّزت كتاباته وتزامنت مع طبيعة التحوّلات الفكريّة السياسيّة التي مرّت بها الأمّة الإسلاميّة خلال القرن العشرين الذي علت فيه الفكرة الغربيّة في صراعها للفكرة الإسلاميّة، و شخّص العلّة وبيّن ما خسره العالم بتراجع المسلمين عن القيادة إلى التبعيّة ثقافيًا وفكريًا وسياسيًا، وانطلق إلى طرح قضايا الأمّة معالجًا لها من خلال توظيف السيرة توظيفًا فعّالاً، وكان منطلقه من (الطريق إلى السنّة) وثمرته كتاب (السيرة النبويّة) الذي ضمّنه منهجًا خاصًا في كتابة السيرة ؛ أمّا منهجه في كتابة السيرة فينطلق من خلال البعد التاريخي، والبعد الحضاري، والبعد الإنساني، والبعد الدعوي والتربوي، والبعد العقائدي، والتكامليّة بين العلوم.

مصطفى السباعي: الندوي.. ذخر للإسلام ودعوته. وكتبه ومؤلفاته تتميز بالدقة العلمية وبالغوص العميق في تفهم أسرار الشريعة وبالتحليل الدقيق لمشاكل العالم الإسلامي ووسائل معالجتها.

سيد قطب: الندوي.. رجل عرفته في شخصيته وفي قلمه، فعرفت فيه قلب المسلم، والعقل المسلم، وعرفت فيه الرجل الذي يعيش بالإسلام وللإسلام على فقه جيد للإسلام.. هذه شهادة لله أؤديها.

محمد الرابع الحسني الندوي: الندوي.. قدوة أبناء المسلمين في الغيرة للدين والكفاح

لإعزاز الإسلام والذَّب عن حوزته، وإقرار روحه وطبيعته الحقيقية.

محمد حميد الدين الحسامي: الندوي.. أمة وحده، وشخصية عظيمة فذة، وموسوعة فكرية متنوعة الجوانب والمباحث، قلَّما يجود الزمان بمثله.

عبد الحليم عويس: الندوي.. رجل لم يتاجر يومًا بمبادئه، ولم يقف يومًا على باب أحد، ولم ينافس يومًا على الدنيا.

وقال عنه الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر عبد الحليم محمود: أخلص أبو الحسن الندوي وجهه لله تعالى، وسار في حياته سيرة المسلم المخلص لله تعالى ورسوله ﷺ، فدعا إلى الإسلام بالقدوة الحسنة، ودعا إلى الإسلام بكتبه النقية، ودعا إلى الإسلام بسياحته التي حاضر فيها، ووجه وأرشد، فجزاه الله خير ما يجزي عالما عن دينه.

دراسات عن الندوي:

من المشايخ الذين درسوا العلامة الندوي؛ الشيخ الدكتور تقي الدين الهلالى المراكشي، والشيخ حيدر حسن خان، والشيخ حسين أحمد المدني، والشيخ عبد القادر الراي وهو المربي الروحي للندوي..

كما كتب عن الندوي الكثيرون؛ ومنهم د. مصطفى السباعي، وسيد قطب، وعلي الطنطاوي، ومحمد المجذوب.. وغيرهم، ومما كُتِبَ عنه أيضًا:

- أبو الحسن الندوي كما عرفته: أ.د. يوسف القرضاوي.
- النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: د. محمد رجب البيومي (الجزء الثالث)[1]
- علماء ومفكرون عرفتهم: محمد المجذوب .
- علماء العرب في شبه القارة الهندية: يونس السامرائي .
- الدراسات القرآنية المعاصرة: محمد السديس .

---

(١) سلسلة البحوث الإسلامية: السنة ١٣ الكتاب الأول: مجمع البحوث الإسلامية – القاهرة: (١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢م). وطبعة دار القلم والدار الشامية (خمسة مجلدات)، (١٤١٥هـ – ١٩٩٥م).

- أدب الصحوة الإسلامية: واضح الندوي.
- ذكريات علي الطنطاوي.
- أبو الحسن الندوي مفكر وداعية: عبد الحليم عويس، مقال منشور بمجلة الفيصل. العدد (٣٩)، رمضان ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠.
- أبو الحسن الندوي شاهد القرن: مجلّة المجتمع، العدد (١٣٩٧)، ٢٥ أبريل ٢٠٠٠م.

وفاته:

توفي الندوي في (٢٣ رمضان ١٤٢٠هـ = ٣١ ديسمبر ١٩٩٩م)، عن ٨٦ عامًا.

توفي في العشر الأواخر من رمضان، وفي يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع، وقبل صلاة الجمعة أفضل الساعات، وقد توضأ واستعد للصلاة، وشرع يقرأ سورة الكهف كما تعوّد كل جمعة، فوافاه أجله على أفضل حال- رحمه الله-.

***

الفصل الرابع

دور العلم في حياة علماء الحياة المعاصرين

ويضم هذا الفصل المباحث التالية:

المبحث الأول: دور العلم في حياة علي مصطفى مشرفة.

المبحث الثاني: دور العلم في حياة جمال حمدان.

المبحث الثالث: دور العلم في حياة عبد القدير خان.

المبحث الرابع: دور العلم في حياة أحمد زويل.

* * *

المبحث الأول
دور العلم في حياة علي مصطفى مشرفة

علي مصطفى مشرَّفة.. عالم الذرة الفريد!!

لما سمع أينشتين بخبر موته لم يصدق، ثم قال: «كلا.. كلا، لا تقولوا: إنَّ مشرَّفة مات.. إنها خسارة جسيمة»!! ووصفه بواحد من أعظم علماء الفيزياء[1]. ونعته الإذاعة في أمريكا على أنه «واحد من سبعة علماء في العالم يعرفون أسرار الذرة»[2]!!

إنه العالم المصري المسلم الدكتور علي مصطفى عطية أحمد مشرفة.. من روّاد علوم الرياضيات والفيزياء..

نشأته ورحلته العلمية:

وُلِدَ مشرفة سنة ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م في حي المظلوم بمدينة دمياط. وكان والده من ذوي اليسر والجاه، وهو ما جعل مشرفة يقضي سنواته الأولى في رغد من العيش وهناءة البال، غير أن تلك الحياة الرغدة لم تدم طويلاً.. ففي سنة ١٩٠٩م توفي والده بعد تعرضه لأزمة مالية أودت بكل ما تملك الأسرة، وكان ذلك قبل امتحان الشهادة الابتدائية لمشرفة بثلاثة أشهر، ولكنه تغلب على الصدمة ونال الابتدائية بتفوق وكان ترتيبه الأول على القُطْر المصري!!

انتقلت الأسرة بعد ذلك إلى القاهرة، وقبل امتحان البكالوريا بشهرين توفيت والدته، ولكنه بنفس العزيمة حصل على شهادة البكالوريا بتفوق، وكان ترتيبه الثاني على القطر المصري، وذلك سنة ١٩١٤م[3]!!

آثر مشرفة أن يلتحق بمدرسة المعلِّمين العليا؛ فحصل على دبلومها سنة ١٩١٧م، وكان ترتيبه الثاني على الدبلوم. وقد أهَّله هذا التفوق ليُختار ضمن بعثة علمية إلى إنجلترا، فالتحق بكلية «نوتنجهام» Nottingham بجامعة لندن، فحصل منها على درجة البكالوريوس في

---

(١) انظر أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ١٧٩.

(٢) انظر محمد الجوادي: مشرَّفة بين الذرة والذروة، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٢م ص ٥٦.

(٣) أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ١٧٩ - محمد الجوادي: مشرفة بين الذرة والذروة ص ٥٢، ٢٦.

الرياضة مع مرتبة الشرف، وكان الحصول على هذه الشهادة يحتاج أربع سنوات من الدراسة، إلا أن مشرفة اختصرها في ثلاث سنوات فقط، فحصل عليها سنة ١٩٢٠م[١]!!

وفي فبراير سنة ١٩٢٣م حصل مشرفة على درجة الدكتوراه في فلسفة العلوم (ph. D.) من جامعة لندن في أقصر مدة تسمح بها قوانين الجامعة، وأصبح عضوًا في الجمعية الملكية البريطانية، وأخذ يحاضر العلماء من أعضاء الجمعية ولم يتجاوز بعدُ الخامسة والعشرين من عمره[٢]!!

على أن آمال مشرفة في الحصول على درجة «الدكتوراه في العلوم (D. Sc) ظلت تُلِحُّ عليه، فواصل ليله بنهاره في صيف سنة ١٩٢٣م حتى انتهى من إعداد أطروحة دكتوراه العلوم في شهر سبتمبر، فعرضها على أستاذه السير ريتشاردسون (أكبر علماء الطبيعة في عصره)، ولم تكن جامعة لندن تسمح بدخول امتحان هذه الدرجة إلا بعد مرور عامين - على الأقل - من حصول الطالب على درجة دكتوراه الفلسفة في العلوم، وتقدم مشرَّفة - بناء على نصيحة أساتذته - يلتمس إذنًا خاصًا من مجلس إدارة الجامعة يمكِّنه من دخول الامتحان في أقرب فرصة؛ نظرًا لأنه نشر أبحاثًا عملية جليلة القدر، وفي الحادي والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٢٣م وافق مجلس إدارة جامعة لندن للدكتور مشرفة على أن يؤدي هذا الامتحان بصفة استثنائية في الرابع والعشرين من يناير سنة ١٩٢٤م، وأدَّى مشرفة الامتحان في الموعد المحدد، وأُعلِنَت نتيجةُ الامتحان في مارس سنة ١٩٢٤م بحصول الدكتور مشرفة على الدكتوراه في العلوم؛ وبذلك أصبح مشرفة العالِم الحادي عشر في العالَم الذي يحصل على هذه الدرجة، وأول عالم مصري يحصل على هذه المكانة الرفيعة[٣]!!

رجع مشرفة إلى مصر؛ وعُيِّن مدرِّسًا للرياضيات التطبيقية بكلية العلوم بجامعة القاهرة، ثم مُنِح درجة «أستاذ» في عام ١٩٢٦م رغم اعتراض قانون الجامعة على منح اللقب لمن هو أدنى من الثلاثين!! وكان بذلك أول أستاذ مصري في كلية العلوم، ولمّا يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره!! وقد اعتُمِدَ عميدًا للكلية في عام ١٩٣٦م، وانتُخِبَ للعمادة أربع مراتٍ

(١) محمد الجوادي: مشرفة بين الذرة والذروة ص ٢٧، أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ١٧٩.

(٢) محمد الجوادي: مشرفة بين الذرة والذروة ص ٢٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٨، ٢٩ .

متتاليات، كما انتُخِبَ وكيلاً للجامعة سنة ١٩٤٥م[١].

وقد تمتعت كلية العلوم في عصره بشهرة عالمية واسعة؛ حيث عني عناية تامة بالبحث العلمي وإمكاناته، فوفَّر كل الفرص المتاحة للباحثين الشباب لإتمام بحوثهم.. ووصل به الاهتمام إلى مراسلة أعضاء البعثات الخارجية، وسمح لأول مرة بدخول الطلبة العرب الكلية، وكان من أهم أعماله أيضًا أنه أنشأ قسمًا للترجمة العلمية بالكلية؛ لأن الدراسة كانت باللغة الإنجليزية، وكان يهدف من وراء ذلك إلى ترجمة المراجع العلمية إلى اللغة العربية. حتى يمكن تمصير الكلية والمعاهد العليا بوجه عام، وحتى تكون اللغة العربية هي لغة التعليم بدلاً من الإنجليزية. كما حوّل مشرفة الدراسة في قسم الرياضيات التطبيقية الذي يرأسه والرياضيات البحتة باللغة العربية[٢]!!

سمْتُه وثقافته:

أبرز ما كان يميز مشرفة ما كان من تمسكه بدينه منذ صغره، وبعد سفره، وقد تجسَّد ذلك في حفظه القرآن الكريم والصحيحين، واستشهاده بذلك في سائر كلامه، كما عُرِف عنه مواظبته على أداء فروض الدين، وكان يحتفظ في جيبه بمصحف صغير على الدوام، وكان يؤتي الزكاة مضاعفةً ما استطاع، وفي الخفاء، ولما مات جاءت مجموعة من الطلبة الصوماليين يواسون أسرته، وهم يبكون على مشرَّفة وعلى مستقبلهم الذي ظنوه سيضيع بوفاة عائلهم الذي تكفَّل بنفقات تعليمهم من دون أن يعلم أحدٌ عن ذلك شيئًا.. ولم يكن هذا التدين غريبًا عن مشرفة وهو العالم الذي تعمق في العلوم، ووقف على أسرار الكون وخلق الله[٣].

وكانت ثقافة مشرَّفة الدينية مثلاً فريدًا، ليس عند العلماء الذين تستهويهم الثقافات الدينية، ولكن عند علماء الدين أنفسهم، فقد حفظ مشرفة الكتب السماوية الثلاثة، واستطاع أن يدرس الديانات السماوية دراسة مقارنة، وكان عقله جاهزًا في كل حين لاستحضار الصورة الكاملة للمفاهيم الدينية المختلفة في أية قضية من القضايا، ولم يكن مشرفة يبهر علماء الأديان بثقافته تلك فحسب، وإنما كان يناظرهم ويقارعهم الحجَّة وينتصر عليهم في كثير من الأحيان!!

---

(١) محمد الجوادي: مشرفة بين الذرة والذروة ص ٣٠، محمد علي عثمان: مسلمون علموا العالم ص ٧٠.

(٢) انظر محمد علي عثمان: مسلمون علموا العالم ص ٧٠، ومحمد الجوادي: مشرفة بين الذرة والذروة ص ١٣٦.

(٣) انظر محمد الجوادي: مشرفة بين الذرة والذروة ص ٤٥.

والذين يتتبعون مشرفة في حياته كلها يجدون في نفوسهم إحساسًا قويًا بأن مشرفة عمل ودرس، وسعى وجاهد، وقرأ وبحث، وكشف وكتب وحاضر ابتغاءَ مرضاةِ الله، على أن الأمر في مثل هذه النية لا يقف عند الإحساس الذي يجده المتتبعون، وإنما حفظ لنا الدهر عبارةً في خطابٍ كتبه مشرَّفة إلى صديقٍ لوالده يقول فيه: «أمَا وقد تطوَّرت في طَوْر جديد من أطوار حياتي أسأل الله أن يجعله سبيلاً إلى تقواه، ومعينًا على طاعته، ومقرِّبًا من جنة رضوانه»[1]!!

وقد أجاد الدكتور مشرفة اللغة الإنجليزية، لا إلى الحد الذي يعبر عنه الناس فيقولوا: «أتقنها كواحد من أهلها» فحسب، ولكن إلى الحدِّ الذي شجع الإنجليز أنفسهم على اختياره رئيسًا لجمعية المناقشات في الكلية الملكية، وكان مشرفة بالطبع أول أجنبي يُختار لهذا المنصب، وقد عُرِفَ مشرفة في هذه الجمعية بلقب Pat وهو اختصار للاسم الأيرلندي Patrick وقد اختار له الإنجليز هذا الاسم تقديرًا لقدراته وملكاته الجدلية[2].

دور العلم في حياته:

آمن مشرفة إيمانًا عميقًا بالعلم، وبأهمية تطبيقه في الحياة، وكانت هذه هي الفكرة الغالبة على أعماله ومؤلَّفاته، وكان مشرَّفة يستنهض الهمم في كل حين إلى العناية بأمر العلم والبحوث العلمية والتطبيقية واستغلال ثرواتنا البحرية والصحراوية، وتنظيم استغلال ثرواتنا الزراعية والتجارية، وكان الساسة يظنُّون مشرفة مغاليًا في دعوته، وما كان مشرفة مغاليًا، وإنما كان مقدرًا للأمر قدره الغالي[3].

وكان مشرفة يعمل ما لا يقل عن ثلاثة أرباع اليوم، وكثيرًا ما كان يكتفي من النوم بثلاث ساعات: ساعة في العصر بين الرابعة والخامسة، ويقوم بعدها فيتناول الشاي مع أسرته، وساعتين بعد الفجر من الخامسة إلى السابعة أو من السادسة إلى الثامنة صباحًا، وكان المحيطون به يشفقون عليه من هذا الكفاح الذي لا يستريح معه، ولكنه كان معتقدًا أنه إن استراح فقد تقاعس، والتقاعس لا يليق بسيرة العلماء الذين كان يرى أن عليهم واجبًا نحو

---

(١) انظر المصدر السابق ص ٤٦ .

(٢) انظر محمد الجوادي: مشرفة بين الذرة والذروة ص ٤٨ .

(٣) انظر المصدر السابق ص ٣٩ .

الإنسانية، ورسالة لا ينبغي أن يتخلّوا عنها طلبًا للراحة(١).

ولم يكن مشرفة من العلماء الذين يحول اشتغالهم بالعلم بينهم وبين الجمهور، ولعل في هذا سرًّا لدعوته الملحة إلى الاتصال بين معاهد العلم وجماهير الشعب، وهي الدعوة التي صدرت عن تقديره لمدى الفوائد الإيجابية التي تعود نتيجة لهذا الاتصال، وعن تقديره لمدى السلبيات التي تنتج عن غياب هذا الاتصال، والتي تتمثل على حد تعبيره في أن يتحول العلم إلى ضرب من ضروب السحر، ويتحول العلماء إلى نوع من الكهنة الذين يُقرَأ عنهم في تاريخ مصر القديمة(٢).

وقد ترجم الدكتور مشرفة أفكاره في هذه الناحية إلى واقع عملي، فكان من السبّاقين إلى نشر الثقافة العلمية المبسطة عن طريق الإذاعة، ولم يسلك مشرفة في عمله هذا مسلكًا فرديًا بغيةَ مجدٍ شخصي، وإنما استطاع أن ينظم سلسلة من الأحاديث الدورية أطلق عليها اسم: «**أحاديث كلية العلوم**» يلقيها على الناس في الراديو أساتذة كلية العلوم، وكان مشرَّفة يعتقد أن قيام كلية العلوم بهذا العمل إنما هو جزء من رسالتها في إتاحة الفرصة أمام الجمهور المثقَّف للوقوف على أحدث الآراء العلمية، والإلمام بما كشف عنه الباحثون من خفايا الكون وأسرار الطبيعة، وكان يعتقد كذلك أن في هذه الأحاديث فرصة عظيمة لطائفة العلماء ليتحدثوا عن دراساتهم، ويعبروا عن وجهات نظرهم، ويتبسَّطوا في هذه الأحاديث بلغة سهلة، خالية على قدر ما يتيسر من المصطلحات الغريبة، والرموز المريبة.

غير أن الهدف الأسمى الذي سعى مشرفة إليه من وراء هذه الأحاديث لم يكن إلا إشاعة العقلية العلمية في رُوح الشعب؛ حتى تصبح هذه العقلية عادة في تفكيرنا القومي، فإذا ما عنَّت للناس مشكلة من المشكلات استطاعوا التغلب عليها بالأسلوب العلمي، غير متأثرين بهوى نفسٍ أو غرض في التفكير.

وقد حرص الدكتور مشرفة في الوقت نفسه على أن يبين للناس في الأحاديث التي قام هو بإلقائها كثيرًا من الأمور الأساسية في العلوم، والاكتشافات الحديثة في دنيا الاختراع، والعناصر الرئيسية في التفكير العلمي، والعلامات البارزة في تاريخ البحث والصناعة. وقد اتسعت دائرة العلوم التي تناولتها هذه الأحاديث، كما تزايد عدد الأساتذة الذين شاركوا في

(١) انظر محمد الجوادي: مشرفة بين الذرة والذروة ص ٤٤ .

(٢) انظر المصدر السابق ص ٤٦ .

هذا البرنامج الإذاعي حديثًا بعد حديث[1].

وعلى الجانب الآخر كان مشرفة يتمنَّى للوظائف العامة أن يتولاها أساتذة الجامعات، ولم يكن من أنصار الرأي القائل بأنه على أساتذة الجامعات أن يترفَّعوا عن مثل هذه الوظائف، وكان يقول في الرد على ذلك: كيف يلام أساتذة الجامعة وهم صفوة المتعلمين في الأمة إذا طلبوا ذلك الجاه لكي يُسمَع صوتهم فلا يظلوا بعيدين عن تيارات الحياة في الأمة[2]؟!

آثاره ومؤلفاته:

لعلي مصطفى مشرفة أبحاثٌ متعددة في نظرية الكم، وتفسير كثير من الظواهر الفيزيائية، وكذلك في المادة والإشعاع، وكان من أول القائلين بأنه يمكن اعتبارهما صورتين لشيء واحد، تتحول إحداهما للأخرى، وقد اقترن اسمه بهذه النظرية.

كما أن له نظرية في مجال الذرة سهلت فيما بعدُ اقتحام مجال العلوم الذرية، والدخول إلى أعماقها[3]!!

والحقيقة أن أبحاث الدكتور مشرفة بدأت تأخذ مكانها في الدوريات العلمية وعمره لم يتجاوز الخامسة والعشرين عامًا؛ ففي الجامعة الملكية بلندن (King's College) نُشِرَ له أول خمسة أبحاث حول النظرية الكمية التي نال من أجلها درجتي (Ph.D دكتوراه الفلسفة وD.sc. دكتوراة العلوم)، كما أنَّ له ٢٦ بحثًا مبتكرًا في الطبيعة.

وقد كان من مؤلَّفاته العديدة التي خلَّفها ما يلي:

١- كتاب الميكانيكا العلمية والنظرية، وقد ظهر هذا الكتاب سنة ١٩٣٧م.

٢- كتاب الهندسة الوصفية، وقد ظهر سنة ١٩٣٧م.

٤- كتاب الهندسة المستوية والفراغية، وظهر سنة ١٩٤٤م.

٥- كتاب حساب المثلثات المستوية، وظهر سنة ١٩٤٤م.

٦- كتاب الذرة والقنابل الذرية، وظهر سنة ١٩٤٥م.

---

(١) انظر محمد الجوادي: مشرفة بين الذرة والذروة ص ٤٧ .

(٢) انظر المصدر السابق ص ٥٠ .

(٣) انظر أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ١٧٩ .

٧- كتاب العلم والحياة، وظهر سنة ١٩٤٦م.

٨- كتاب الهندسة وحساب المثلثات، وظهر سنة ١٩٤٧م.

على أن مشرفة كان له إسهاماته الخاصة في مجال إحياء التراث الإسلامي أيضًا، وكان من أشهر تحقيقاته: كتاب الجبر والمقابلة (للخوارزمي)، وهو الكتاب الذي ظل عمدة ومرجعًا لعلماء الشرق والغرب طيلة قرون عديدة، وقد قدم مشرفة لهذا الكتاب بمقدمتين: الأولى عن «الجبر قبل الخوارزمي»، والثانية عن «الخوارزمي وكتابه في الجبر والمقابلة»، ثم عرض كتاب الخوارزمي؛ فشرح الجزء الخاص بالجبر، وعلّق عليه، وحلّل مسائله، وعبر عن المعاني العلمية والفنية بعبارات الاصطلاح الحديث، أما المسائل التي لا ترتبط بصُلب العلم فقد اكتفى فيه بالنقل دون التعليق، وهكذا أخرج لنا مشرفة من كنوز العرب دُرَّة فجلاّها خير تجلية[1].

وفاته:

وبعد أن أضاء جنبات الحياة العلمية وأثراها في عصره، تُوُفي الدكتور علي مصطفى مشرفة سنة ١٩٥٠م؛ فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

***

(١) محمد الجوادي: مشرفة بين الذرة والذروة ص ١٨٦ - محمد علي عثمان: مسلمون علموا العالم ص ٧٣ - أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ١٨٠ .

المبحث الثاني
دور العلم في حياة جمال حمدان

سبق عصره بعطائه العلمي، واستطاع أن يترك بصماته الفريدة على الدراسات الجغرافية في العصر الحديث، والتي ربط فيها التاريخ بحقائق الأرض والجغرافيا..

تفوق منذ النشأة:

وُلِدَ «**جمال محمود صالح حمدان**» في قرية «ناي» **بمحافظة القليوبية بمصر** في (١٢ شعبان ١٣٤٦هـ/ ٤ فبراير سنة ١٩٢٨م)، ونشأ في أسرة كريمة تنحدر من قبيلة «بني حمدان» العربية التي نزحت إلى مصر في أثناء الفتح الإسلامي[١].

كان والده أزهريًا ومدرّسًا للغة العربية.. وقد اهتم بتحفيظ أبنائه السبعة القرآن الكريم، وتجويده وتلاوته على يديه؛ مما كان له أثر بالغ على شخصية «**جمال حمدان**»، وعلى امتلاكه نواصي اللغة العربية؛ مما غلَّب على كتاباته الأسلوبَ الأدبيَّ المبدع.

حصل «**جمال حمدان**» على الثانوية العامة عام (١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م)، وكان ترتيبه السادس على القطر المصري، ثم التحق بقسم الجغرافيا بكلية الآداب، وكان طالبًا متفوقًا ومتميزًا خلال مرحلة الدراسة الجامعية؛ حيث كان منكبًّا على البحث والدراسة، متفرغًا للعلم والتحصيل.

وبعد تخرجه عام (١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م) تم تعيينه معيدًا بالكلية، ثم أوفدته الجامعة في بعثة إلى بريطانيا سنة (١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٩م)، حصل خلالها على الدكتوراة في (فلسفة الجغرافيا) من جامعة «ريدنج» عام (١٣٧٢ هـ ـ ١٩٥٣م)، وكان موضوع رسالته: «سكان وسط الدلتا قديمًا وحديثًا»، ولم تترجم رسالته تلك حتى وفاته.

بعد عودته من بعثته العلمية انضم إلى هيئة التدريس بقسم الجغرافيا في كلية الآداب جامعة القاهرة، ثم رُقّي أستاذًا مساعدًا.. وأصدر في فترة تواجده بالجامعة كتبه الثلاثة الأولى: «جغرافيا المدن»، و«المظاهر الجغرافية لمجموعة مدينة الخرطوم»، و«دراسات عن العالم

---

(١) عبد الحميد صالح حمدان: جمال حمدان وتراثه الفكري ص٨.

العربي» وقد حصل بهذه الكتب على جائزة الدولة التشجيعية سنة (١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م). وقد لفتت كتبه أنظار الحركة الثقافية عامة، كما أنها صوبت إليه سهام الغيرة من قِبَل بعض زملائه وأساتذته داخل الجامعة.. حتى اضطر في عام (١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م) إلى التقدم باستقالته من الجامعة؛ احتجاجًا على ظلم إداري تعرَّض له[1]..

وباستقالة «جمال حمدان» من الجامعة تبدأ مرحلة طويلة من التبتل في طلب العلم، والانقطاع للتأليف.. أثمرت نتاجًا علميًّا غزيرًا، يأتي في القمة منه موسوعته الفريدة «شخصية مصر.. دراسة في عبقرية المكان»[2]..

ومن الإنصاف أن نؤكد – كما أشار عدد من الباحثين – أن «جمال حمدان» لم ينعزل تلك الفترة الطويلة ذلك النوع السلبي من العزلة.. وإنما عَزَلَ ضجيج الحياة وصغائر همومها وتهافت صراعاتها عن فكره الراقي وعقله الثاقب؛ ليطلق لهما العنان في آفاق العلم الرحبة وغير المحدودة..

نظرة «جمال حمدان» إلى الجغرافيا:

لا يرى «جمال حمدان» في علم الجغرافيا ذلك العلم الذي يقف على حدود الموقع والتضاريس.. وإنما هو علم تنصهر في بوتقته علوم مختلفة؛ فالجغرافيا هي: «تلك التي إذا عرفتها عرفت كل شيء عن نمط الحياة في هذا المكان أو ذاك.. جغرافيا الحياة التي إن بدأت من أعلى آفاق الفكر الجغرافي في التاريخ والسياسة فإنها لا تستنكف عن أن تنفذ أو تنزل إلى أدق دقائق حياة الناس العادية في الإقليم»[3].

وإذا كانت الجغرافيا – كما يقول في تقديمه لكتاب «شخصية مصر» – هي علم «التباين الأرضي»، أي التعرف على الاختلافات الرئيسية بين أجزاء الأرض على مختلف المستويات؛ فمن الطبيعي أن تكون قمة الجغرافيا هي التعرف على «شخصيات الأقاليم».. والشخصية الإقليمية شيء أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص وتوزيعات الإقليم.. إنها تتساءل

(١) موقع إسلام أون لاين الرابط: http://www.islamonline.net/arabic/famous/

(٢) عبد الحميد صالح حمدان: جمال حمدان وتراثه الفكري ص٨.

(٣) موقع إسلام أون لاين الرابط: http://www.islamonline.net/arabic/famous/

أساسًا عما يعطي منطقة ما تفرّدها وتميُّزها بين سائر المناطق، كما تريد أن تنفذ إلى روح المكان لتستشف عبقريته الذاتية التي تحدد شخصيته الكامنة[١]..

ولئن بدا أن هذا يجعل للجغرافيا نهجًا فلسفيًا متنافرًا، يتأرجح بين علمٍ وفنٍّ وفلسفةٍ؛ فيمكن أن نضيف للتوضيح: إنها كذلك؛ فهي علمٌ بمادتها، وفنٌّ بمعالجتها، وفلسفةٌ بنظراتها.. والواقع أن هذا المنهج المثلث يعني ببساطة أنه ينتقل بالجغرافيا من مرحلة المعرفة إلى مرحلة التفكير، من جغرافيا الحقائق المرصوصة إلى جغرافيا الأفكار الرفيعة[٢].

وكانت رؤية **جمال حمدان** للعلاقة بين الإنسان والطبيعة في المكان والزمان متوازنة؛ فلا ينحاز إلى طرف على حساب الآخر.. يظهر ذلك واضحًا في كتابه العظيم «شخصية مصر»، والذي تبرز فيه نظرته الجغرافية المتوازنة للعلاقة بين الإنسان المصري والطبيعة بصفة عامة، و«النيل» – كمكوِّن أساسي للطبيعة المصرية – بصفة خاصة، وكيف أفضت هذه العلاقة إلى صياغة الحضارة المصرية على الوجهين: المادي والروحي[٣].

آثاره وإنجازاته:

كان لعبقرية جمال حمدان ونظرته العميقة الفضل – بعد توفيق الله تعالى – في الوصول إلى كثير من التحليلات والآراء التي استُغرِبَت وقت إفصاحه عنها، إلا أن الأيام أكدتها بعد ذلك؛ فقد أدرك بنظره الثاقب كيف أن تفكك الكتلة الشرقية واقع لا محالة، وكان ذلك عام (١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م)، فإذا الذي تنبأ به يتحقق بعد إحدى وعشرين سنة، عام (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م)، حيث حدث الزلزال الذي هز أركان أوروبا الشرقية، وانتهى الأمر بانهيار أحجار الكتلة الشرقية، وتباعد دولها الأوروبية عن الاتحاد السوفيتي، ثم تفكك وانهيار الاتحاد السوفيتي نفسه عام (١٤١١هـ ـ ١٩٩١م)[٤].

وفي عام (١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م) أصدر «**جمال حمدان**» كتابه المهم (اليهود أنثروبولوجيًا) والذي أثبت فيه أن اليهود المعاصرين الذين يدَّعون أنهم ينتمون إلى فلسطين ليسوا هم أحفاد

---

(١) انظر: جمال حمدان: شخصية مصر: المقدمة.

(٢) جمال حمدان: شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان ص٩. كتاب الهلال ـ العدد ٥٠٩ ـ مايو ١٩٩١.

(٣) انظر عبد الحميد حمدان: جمال حمدان وتراثه الفكري ص١٣، ١٤.

(٤) جمال حمدان: إستراتيجية الاستعمار والتحرير ص ١٩٨، ١٩٩. دار الشرق القاهرة

اليهود الذين خرجوا من فلسطين قبل الميلاد، وإنما ينتمي هؤلاء إلى إمبراطورية «الخزر التترية» التي قامت بين «بحر قزوين» و«البحر الأسود»، واعتنقت اليهودية في القرن الثامن الميلادي.. وهذا ما أكده بعد ذلك «آرثر بونيسلر» مؤلف كتاب (القبيلة الثالثة عشرة) الذي صدر عام (١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م)(١).

وقد ترك «جمال حمدان» تسعةً وعشرين كتابًا وتسعةً وسبعين بحثًا ومقالةً، يأتي في مقدمتها كتاب «شخصية مصر.. دراسة في عبقرية المكان»، الذي أصدر الصياغة الأولى له سنة (١٣٨٧هـ ١٩٦٧م) في نحو ٣٠٠ صفحة من القطع الصغير.. ثم تفرغ لإنجاز صياغته النهائية لمدة عشر سنوات، حتى صدر مكتملاً في أربعة مجلدات خلال السنوات بين (١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م/ ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م)(٢).

الجوائز والوفاة:

حظي «جمال حمدان» بالتكريم داخل مصر وخارجها:

- فقد حصل عام (١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٩م) على جائزة الدولة التشجيعية في العلوم الاجتماعية.
- ومُنح جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية سنة (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م)
- وحصل كذلك على وسام العلوم من الطبقة الأولى عن كتابه (شخصية مصر) عام (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).
- كما منحته الكويت جائزة التقدم العلمي سنة (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م) قبيل وفاته(٣)..

لقد كان بمقدور «جمال حمدان» أن يحيا حياة منعمة، وأن يتقلب في صنوف الجاه والرفاهية؛ فقد عُرضت عليه كثيرٌ من المناصب التي يلهث وراءها كثير ممن يبتغون المغنم من

---

(١) مصطفى عبد الجواد: مقال جمال حمدان : صاحب مقولة «الصراع الحتمي بين أمريكا وأوروبا» عام ١٩٩١ موقع وكالة نبأ الإخبارية الرابط:

http://www.islamicnews.net/Document/ShowDoc08.asp?DocID=60066&TypeID=8&TabIndex=2

(٢) عبد الحميد صالح حمدان: جمال حمدان وتراثه الفكري ص٩، ١٠.

(٣) انظر عبد الحميد حمدان: جمال حمدان وتراثه الفكري ص١٠ .

وراء العلم، وكان يقابل هذه العروض بالاعتذار؛ فقد كان للانقطاع إلى العلم لذة ونعيم لا يُحسن تذوقها إلا أمثال **«جمال حمدان»**.. فقد تم ترشيحه - على سبيل المثال - عام (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م) لتمثيل مصر في إحدى اللجان المهمة بالأمم المتحدة، ولكنه اعتذر عن ذلك، رغم المحاولات المتكررة لإثنائه عن الاعتذار. كما اعتذر بأدب ورقة عن عضوية مجمع اللغة العربية، وكذلك عن رئاسة جامعة الكويت... وغير ذلك الكثير.

وفي الخامس والعشرين من شوال ١٤١٣هـ ـ السابع عشر من إبريل ١٩٩٣م، انتقل العالم الجليل الدكتور **«جمال حمدان»** إلى جوار ربه، إثر تسربٍ غامض للغاز في منزله[1].. وكما شيَّد تراثه العلمي الخالد في هدوء فقد شاء الله له أن يرحل في هدوء.. ويبقى على الأجيال اللاحقة أن تُحسن الالتفات إلى النماذج العلمية الشامخة التي يمتلئ بها تاريخ أمتنا القديم والحديث على حدٍّ سواء..

***

(١) عبد الحميد حمدان: جمال حمدان وتراثه الفكري ص١٠.

المبحث الثالث
دور العلم في حياة عبد القدير خان
[١٩٣٥م - ...]

ميلاده ونشأته:

هو «عبد القدير» بن عبد الغفور خان. وُلِدَ في ولاية بهوبال الهندية سنة ١٩٣٥م، لأسرة متواضعة، هاجرت إلى كراتشي في جنوب باكستان، كان أبوه عبد الغفور خان مدرسًا تقاعد عام ١٩٣٥م، وتفرَّغ لتربية ولده ورعايته، وكانت أمه «زليخة بيجوم» امرأة تقيَّة مؤمنة تتقن اللغة الأُرْدِية والفارسية(١)؛ وبعد سنوات تخرَّج عبد القدير خان في مدرسة الحامدية الثانوية ببوبال، ثمَّ توفي والده سنة ١٩٥٧(٢).

تخرج عبد القدير في كلية العلوم بجامعة كراتشي سنة ١٩٦٠م، وتقدم لوظيفة مفتش للأوزان والقياسات (وظيفة حكومية من الدرجة الثانية)، وكان عبد القدير أحد اثنين قُبِلُوا بهذه الوظيفة من بين مئتي متقدِّم، وكان راتبه مائتي روبية في الشهر، ولكنَّه استقال منه رفضًا لما يتقاضاه مديره من رشاوى(٣)، ولما لم يجد وظيفة قرَّر السفر إلى الخارج لاستكمال دراسته، وتقدم لعدة جامعات أوروبية؛ وانتهى به الأمر في جامعة برلين التقنية؛ فأتم دورة تدريبية لمدة عامين في علوم المعادن، ثم نال الماجستير سنة ١٩٦٧م من جامعة (دلفت) التقنية بهولندا، ثم درجة الدكتوراه من جامعة (لوفين) البلجيكية سنة ١٩٧٢م(٤)، وشغل بعدها وظيفة كبير خبراء المعادن بشركة FDO الهندسية الهولندية، والتي كانت يومها على صلة وثيقة بمنظمة «اليورنكو» المهتمة بتخصيب اليورانيوم(٥).

وحين فجرت الهند القنبلة النووية عام ١٩٧٤م كتب الدكتور عبد القدير خان رسالة إلى رئيس وزراء الباكستان في حينها «ذو الفقار علي بوتو» قال فيها: «إنه حتى يتسنَّى للباكستان

---

(١) نادية العوضي، عبد القدير خان.. أبو القنبلة الباكستانية.
http://www.islamonline.net/iol-arabic/dowalia/mashaheer-Sep-2000/mashaheer-5.asp
(٢) السابق نفسه. (٣) السابق نفسه.
(٤) السابق نفسه.
(5)http://www.islamicnews.net/Document/ShowDoc07.asp?DocID=62847&TypeID=7&TabIndex=

البقاء كدولة مستقلة فإن عليها إنشاء برنامج نوويّ». ولم يستغرق الرد على هذه الرسالة سوى عشرة أيام، والذي تضمَّن دعوة للدكتور عبد القدير خان لزيارة رئيس الوزراء بالباكستان، والتي تمت بالفعل في ديسمبر عام ١٩٧٤م. قام رئيس الوزراء بعدها بالتأكد من أوراق اعتماده عن طريق السفارة الباكستانية بهولندا، وفي لقائهما الثاني عام ١٩٧٥م طلب منه رئيس الوزراء عدم الرجوع إلى هولندا؛ وذلك حتى يرأس برنامج الباكستان النووي(١).

عاد خان إلى إسلام أباد سنة ١٩٧٦م؛ حيث كلَّفه ذو الفقار علي بوتو بتأسيس «البرنامج النووي المدني»، وفي ١٩٨١م أُطلِقَ على المختبر الرئيسي للأبحاث الذرية الباكستانية «مختبرات أبحاث الهندسة» في (كاهوتا) قُرب إسلام أباد اسم «مختبرات خان للأبحاث» تكريمًا له.

وفي عام ١٩٩٨ أصبح خان (أبو القنبلة النووية الباكستانية) بطلاً قوميًا عندما أعلنت جمهورية باكستان الإسلامية رسميًا نفسها قوة نووية بعد أسابيع من جارتها الهند عقب امتلاك السلاح النووي(٢).

أهمُّ أعماله:

بدأ أعماله العظيمة؛ عندما عهد إليه بتأسيس المفاعل النووي الباكستاني؛ فأحدث ثورة إدارية على الأسلوب المتبع عادةً من فكرة، ثم قرار، ثم دراسة جدوى، ثم بحوث أساسية، ثم بحوث تطبيقية، ثم عمل نموذجًا مصغرًا، ثم إنشاء المفاعل الأوَّلي، والذي يليه هندسة المفاعل الحقيقي، وبناؤه وافتتاحه.. حيث قام فريق الدكتور خان بعمل كل هذه الخطوات دفعة واحدة، وتمكنت معامل كاهوتا من ابتكار تقنية تستهلك عُشْر الطاقة المستخدمة في الأساليب القديمة!!

ثم قام الفريق الباكستاني بقيادة عبد القدير خان بتصميم النابذات، وتنظيم خطوط الأنابيب الرئيسية، وحساب الضغوط، وتصميم البرامج والأجهزة اللازمة للتشغيل، حتى حين اشتد الهجوم على البرنامج النووي، وطُبِّقَ الحظر والعقوبات الاقتصادية، بحيث لم

(١) نادية العوضي، مرجع سبق ذكره.

(٢) انظر: http://www.islamicnews.net

يتمكن الفريق من شراء ما يلزمه من مواد.. بدأ المشروع في إنتاج جميع حاجياته بحيث أصبح مستقلاً تمامًا عن العالم الخارجي في صناعة جميع ما يلزم المفاعل النووي.

وقد تَوَّج الدكتور عبد القدير خان حياته العلمية وخدماته الجليلة لوطنه بالرد على تفجير الهند النووي في مايو سنة ١٩٩٨م، بتفجير نووي مماثل، بعد أسبوعين فقط من التفجير الهندي، لتنضم باكستان إلى النادي النووي.

ولعلَّ أعظم إنجاز لعبد القدير خان يتمثل في تمكُّنه من إنشاء مفاعل «كاهوتا النووي» في ستة أعوام فقط؛ بينما يستغرق إنشاؤه عادةً عَقدين من الزمان - في أكثر دول العالم تقدمًا في مجال الصناعة النووية -، كما أنَّ المختبرات التي أشرف عليها خان أنتجت أفضل يورانيوم مخصَّب في العالم!!

وامتدت أنشطة معامل خان البحثية لتشمل بعد ذلك برامج دفاعية مختلفة؛ حيث تصنع صواريخ وأجهزة عسكرية أخرى كثيرة وأنشطة صناعية وبرامج وبحوث تنمية، وأنشأت معهدا للعلوم الهندسية والتكنولوجية ومصنعًا للحديد والصلب، كما تدعم المؤسسات العلمية والتعليمية[1].

جوائز:

نال عبد القدير خان ثلاث عشرة ميدالية ذهبية من معاهد ومؤسسات قومية مختلفة، كما نال أعلى وسام مدني تمنحه دولة الباكستان «وسام هلال الامتياز» سنة ١٩٨٩م، ووسامًا آخر عام ١٩٩٦م تقديرًا لإسهاماته المهمة في العلوم والهندسة.

من مؤلَّفاته:

نشر عبد القدير خان سنة ١٩٨١م كتاب «القنبلة الإسلامية» بالإنجليزية، وهو الكتاب الذي أحدث ثورة كبرى في الغرب، كما نشر حوالي ١٥٠ بحثًا علميًا في مجلات علمية عالمية[2]

---

(١) نادية العوضي،
http://www.islamonline.net/iol-arabic/dowalia/mashaheer-Sep-2000/mashaheer-5.asp
(٢) (عبد القدير خان.. أبو القنبلة الباكستانية) من إسلام أون لاين.

منهجه العلمي والفكري:

سخَّر عبد القدير خان علمه وفكره في سبيل قضية الإسلام الأساسية، والخروج بالمسلمين من مهاوي الذلة إلى مراقي العزة بين الأمم، ولعبد القدير خان منهجه العلمي والفكري الخاص؛ الذي ينبني على مجموعة من الأسس، أهمها السيادة الإسلامية الخالصة على أراضي الإسلام، وإخراج المحتل من أراضي المسلمين.

ويرى خان أنه لا مكان لليأس في نفس المسلم أيًا كانت الظروف المحيطة، وأن العرب هم قادة الركب ورأس الحربة والصف الأمامي، فيقول: «إن رسالتي إلى الأمة في هذا الوقت هي أن تتحد في مواجهة عدوها، ومسئولية النهوض تقع أولاً على عاتق الناس الذين يواجهون العدو، وهم العرب والمسلمون، فهم يطلقون النار على العرب أنفسهم، إنهم لا يقتلون أناسًا من عرق آخر أو جنس أو دين آخر، فعلى العرب أن يتحرَّكوا أولاً».

وما زال العالم الكبير د. عبد القدير خان يقدم لوطنه وأمته كل ما يستطيع، ويخدم الإسلام بعلمه، وهذا سمت العالم المسلم دائمًا.

***

المبحث الرابع
دور العلم في حياة أحمد زويل

أحمد زويل.. رائد كيمياء الفيمتو:

لأول مرة يمكننا أن نلاحظ بالتصوير البطيء ما يحدث خلال أي تفاعل كيميائي، وبذلك نستطيع أن نشرح العديد من المعادلات والصيغ الكيميائية الصعبة التي لم نفهمها من قبل، ونستطيع تفسير أسباب حدوث بعض التفاعلات الكيميائية وأسباب عدم حدوث بعضها، كما يمكننا تفسير سبب تأثر تلك التفاعلات من حيث سرعتها ونتائجها بالحرارة.

إنه ميلاد علم كيمياء الفيمتو «FemtoChemistry» وفيه تستخدم كاميرات خاصة، فائقة السرعة، لرصد حركة الجزيئات عند نشوئها، وعند التحام بعضها ببعض، وملاحظة التفاعلات الكيميائية بسرعة «ثانية الفيمتو» وهي أقل وحدة زمنية في الثانية الواحدة!!

ويستخدم العلماء حول العالم الآن «ثانية الفيمتو» في دراسة وتحليل العديد من المواد الكيميائية بمختلف أشكالها، السائلة والصلبة والغازية، وتفاعلاتها مع بعضها البعض، وتغطي تطبيقاتها العديد من المجالات، بدءًا من دراسة العوامل المساعدة في التفاعلات الكيميائية، وكيف يتم تصميم المكونات الإلكترونية للجزيئات، ووصولاً إلى أدق العمليات المتعلقة بالحياة، مثل الطب وكيفية تطويره في المستقبل[1]..

بقي أن نعرف أن ميلاد «كيمياء الفيمتو» الذي أذهل العالم، وأحدث انقلابًا مدويًا في كل الأوساط العلمية، وخاصة في الكيمياء، إضافة إلى العلوم التي تتعلق بها؛ كان على يد العالم المصري المسلم الدكتور أحمد زويل!!

ولد زويل في ٢٦ فبراير سنة ١٩٤٦م في مدينة دمنهور بمصر، وتلقى فيها تعليمه الأوَّلي، ثم حصل على بكالوريوس العلوم قسم الكيمياء من كلية العلوم بجامعة الإسكندرية، نال

---

(١) انظر هشام الحديدي: زويل أمير الكيمياء، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦م ص ١٦٨، تحت عنوان: «ماذا فعل زويل بالضبط؟!».

بعدها درجة الماجستير من نفس الجامعة في علم الأطياف سنة ١٩٦٩م[1].

وفي الولايات المتحدة الأمريكية أكمل دراساته العليا؛ فحصل على درجة الدكتوراه من جامعة بنسلفانيا سنة ١٩٧٤م، وهي عن «أطياف الرنين الضوئي والمغناطيسي للأكسيتونات والحالات الموضعية في البلورات الجزيئية»، والأكستيون - كما يعبر زويل - هو الاسم الذي أعطي ليعني حركة جسيم يمكن حفره بالضوء[2].

انتقل زويل بعدها إلى جامعة بيركلي بكاليفورنيا سنة ١٩٧٤م، وعن أثر تلك الجامعة فيه يقول: «أما جامعة بيركلي فقد فتحت الطريق أمامي للولوج في علم جديد حاسم، والذي قاد بدوره إلى اكتشافات علمية وتكنولوجية حاسمة أيضًا»؛ ذلك أن تلك الجامعة كانت تضم مجموعات بحثية مميزة، أكسبتها مكانة مرموقة، وكان يطلق على كثير من تلك المجموعات اسم: «المجموعات فائقة القوة»[3].

وبعد بيركلي عمل زويل أستاذًا مساعدًا للطبيعة الكيميائية بمعهد كاليفورنيا التقني (كالتك) من سنة ١٩٧٦م حتى عام ١٩٧٨م، ثم أستاذًا في الفيزياء الكيميائية بنفس المعهد من سنة ١٩٨٢م وحتى الآن، ومنه خرجت أعظم إنجازاته[4].

زويل وكاميرا الفيمتو:

كانت أهم إنجازات أحمد زويل قاطبة ذلك الفتح العلمي العظيم في مجال الكيمياء (الفيمتو ثانية)؛ فقد استطاع لأول مرة في تاريخ العلم تصوير عملية التفاعل الكيميائي التي لا تستغرق سوى لحظة من مليون بليون جزء من الثانية؛ فغير بذلك علم الكيمياء الحديثة!! فلم يكن العالم يعرف بالضبط ماذا يحدث أثناء تلك اللحظة، ولا الوقت الذي تستغرقه، وسلم العلماء طيلة السنوات الخمسين الماضية بالصورة التقريبية التي وضعها «ماكس بورن» و«روبرت أوبنهايم» بما يسمى باللحظة الانتقالية التي تنفك خلالها الروابط الكيميائية للجزئيات، وتقرن بجزئيات مادة أخرى، ويولد عنها جزئ جديد لمادة جديدة. وهذا الاكتشاف من شأنه أن يستخدم بكثرة في العديد من

(١) انظر هشام الحديدي: زويل أمير الكيمياء ص ٣٤، وأحمد زويل: عصر العلم، دار الشروق، الطبعة السادسة، ٢٠٠٧م ص ٢٩ وما بعدها.

(٢) انظر أحمد زويل: عصر العلم ص ٨٢. (٣) انظر المصدر السابق ص٩١.

(٤) انظر هشام الحديدي: زويل أمير الكيمياء ص ٣٤، وأحمد زويل: عصر العلم ص١٠١، ١١٦.

المجالات، مثل الطب والآليكترونيات وعلوم الفضاء والكيمياء والفيزياء وغيرها.

صمم زويل كاميرا جزئية لرصد الذرات وهي في حالة حركة، وتصوير عملية التفاعل التي تحدث في وقت مثل ثانية واحدة في فيلم يستغرق عرضه ٢٣ مليون سنة[١]، وقام بنشر تجاربه في ذلك مع فريقه في مجلة العلوم الأمريكية، والتي نشرتها تحت عنوان: «ميلاد الجزيئات»، وقد نوهت لجنة جائزة نوبل إلى هذا البحث بقولها: «والآن فإنه بإمكاننا أن نرى حركة الذرات المنفردة كما نتصورها، ومن ثم لم تعد تلك الجسيمات أشياء غير مرئية..»[٢].

وعن نتيجة ميلاد هذا العلم الجديد يقول زويل: «وترتب على ذلك ميلاد علوم جديدة، مثل «الفمتوكيمياء» و«الفمتوبيولوجيا»، وفي ذلك الوقت تولدت قناعة بأن عالم «الفمتوثانية» (جزء من مليون بليون جزء من الثانية، أو واحد على واحد أمامه ١٥ صفرًا من الثانية) سوف يؤدي إلى اكتشافات وتطورات علمية وتكنولوجية تساهم في ترويض المادة وقياس الزمن»[٣].

كما يعلّق أيضًا على اكتشافه أيضًا بالقول: «هذا الاكتشاف أسهم في تطوير دراسات الهندسة الوراثية والعلوم الطبية... ولازال المركز القومي لعلوم الليزر والجزئ بالولايات المتحدة الأمريكية يقوم بتجارب في النظام العصبي والبروتين والعيون وأساسيات الخلية التي يطلق عليها (DNA) لتطبيق هذا الفتح العلمي... ونتيجة لذلك رصدت اليابان لعلم «الفيمتو» ما يقدر بـ ٢٥٠ مليون دولار؛ لأنهم يفكرون في تحديث التجارب الإلكترونية، وتصنيع مواد خام جديدة، وتحقيق الفائدة في الاتصال المرئي»[٤].

ولعل السر في وصول زويل إلى ما وصل إليه هو ما ظهر في قوله: «إن نشوة العلم، والفرصة المتاحة لكشف أشياء جديدة، جعلتني مستغرقًا استغراقًا تامًا في البحث العلمي، وكنت أواصل العمل ليل نهار، طوال الأربع والعشرين ساعة، باستثناء فترات قصيرة آخذ فيها بعض النوم»[٥].

واتضح أكثر حين قال: «حب العلم، والافتتان بالمعرفة، وعشق تلك الجزئية من العلم التي هي بين يديك، والاستغراق فيها بكل جوارحك، كفيلٌ بأن يحملك إلى شطآن معرفية لم تحلم يومًا أن تطأها قدماك»[٦].

---

(١) انظر هشام الحديدي: زويل أمير الكيمياء ص٣٥. (٢) أحمد زويل: عصر العلم ص ١٢٨، ١٢٩.

(٣) أحمد زويل: عصر العلم ص ١٢٩ . (٤) هشام الحديدي: زويل أمير الكيمياء ص ١٧٧.

(٥) أحمد زويل: عصر العلم ص١١٣. (٦) هشام الحديدي: زويل أمير الكيمياء ص ٥٢.

زويل.. والتفوق عالميًا:

نال زويل جائزة بنيامين فرانكلين لإنجازاته وإسهاماته العلمية لخدمة العلم والعلوم عن اكتشافه العلمي المذهل هذا، وكان ذلك في سنة ١٩٩٨م(١). وفي عام ١٩٩٠م تم تكريمه بالحصول على منصب الأستاذ الأول للكيمياء في معهد لينوس بولينج.

ثم تُوج أخيرًا بمنحه جائزة نوبل للكيمياء سنة ١٩٩٩م؛ وفي هذه المناسبة قال البروفيسور بنجت نوردن رئيس لجنة جائزة نوبل للكيمياء بالأكاديمية السويدية للعلوم: «إن استخدام زويل لتقنية الليزر فائقة السرعة (فمتوسكوب) يمكن وضعه في سياقه التاريخي جنبًا إلى جنب مع استخدام جاليليو للتلسكوب، والذي صوبه شطر كل شيء مضى في القبة السماوية الزرقاء، أما زويل فقد صوب ليزر الفيمتو ثانية على كل شيء يتحرك في عالم الجزيئات. لقد انتقل زويل بتلسكوبه هذا إلى آفاق العلم»(٢).

وإنها لحقيقة؛ فقد وصل زويل بعلم الكيمياء إلى ما كان يبدو مستحيلاً قبل ظهوره، وحين يشير علم الكيمياء إلى رجلين كان لهما الإسهام الأكبر في بنائه واستعلائه طيلة القرن العشرين، فليس غير لاينوس بولينج (الحائز على جائزة نوبل)، وأحمد زويل.

وهو الرأي الذي يجمله السير جون ميرج توماس (المدير السابق للمؤسسة الملكية لبريطانيا العظمى، ورئيس ماستر بيترهاوس بجامعة كمبردج) بقوله: «إن زويل هو خليفة الكيميائي الأعظم في القرن العشرين لاينوس بولينج؛ فقد منح جائزة نوبل في الكيمياء منفردًا من أجل إنجاز علمي كبير - ابتداعه لعلم الفمتو كيمياء الجديد، والذي من المحتم أن يغير من علوم القرن الحادي والعشرين»(٣).

وغير جائزة بنيامين فرانكلين وجائزة نوبل وقبلهما فقد حصل زويل على جائزة بحوث الكيمياء المتميزة (N.R.C) ببلجيكا سنة ١٩٨٢، واختارته الجمعية الأمريكية للطبيعة زميلاً لها سنة ١٩٨٢م(٤).

ومُنح زويل جائزة الكسندر فون هومبولت من ألمانيا الغربية، وهي أكبر جائزة علمية

(١) أحمد زويل: عصر العلم ص ١٥٠.

(٢) أحمد زويل: عصر العلم ص ٢٢.

(٣) أحمد زويل: عصر العلم ص ٢١.

(٤) انظر هشام الحديدي: زويل أمير الكيمياء ص ٣٥.

هناك، وذلك في سنة ١٩٨٣م[١]، ثم جائزة الملك فيصل في العلوم والفيزياء سنة ١٩٨٩م، وهو بذلك يُعد أول عربي يحصل على هذه الجائزة في العلوم أو الطب[٢].

كما منح زويل أيضًا جائزة (وولف)، والتي حصل عليها في بداية سنة ١٩٩٣م، وقد جاء في الحيثيات الرسمية لمنحه الجائزة ما يلي: «من أجل التطوير الرائد لفمتوكيمياء الليزر، وباستخدام الليزرات والأحزمة أو الباقات الجزيئية، فإن الفمتوكيمياء جعلت بالإمكان رصد تطور التفاعلات الكيميائية كما تحدث بالفعل في زمن حقيقي»[٣].

مُنح زويل أيضًا جائزة ويلش، والتي تخصصت في تقدير الإنجازات التي يتوصل إليها العالِم طوال حياته، وتمنح لأجل الإضافات العلمية البارزة في الكيمياء، والهادفة لرفاهية وإسعاد الجنس البشري[٤].

وفي سنة ١٩٩٣م منحته الجامعة الأمريكية في مصر أول دكتوراه فخرية، وفي سنة ١٩٩٥م منحه الرئيس حسني مبارك وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى، وبعد تسلمه جائزة نوبل منحه مبارك قلادة النيل العظمى - أعلى وسام مصري، وأصدرت هيئة البريد المصرية طابعين يحملان صورته، تكريمًا لإنجازاته العلمية، كما أُطلق اسمه على شارع كبير في دمنهور، وأيضًا على المدرسة الثانوية التي تخرج فيها[٥].

في نهاية ذلك كله، وبعد ما كان من إنجازات وتتويجات، ترى زويل يقف صادقًا مع نفسه معبرًا عن حقيقة أكيدة، وقاعدة أصيلة قائلاً: «كل ما أعرفه: هو أنني عاشقٌ لعلمي، ولا يوجد عندي رغبة في التوقف والاستمتاع بالمجد»[٦].

***

---

(١) أحمد زويل: عصر العلم ص ١١٦ .

(٢) أحمد زويل: عصر العلم ص ١٤٢ .

(٣) أحمد زويل: عصر العلم ص ١٤٨ .

(٤) أحمد زويل: عصر العلم ص ١٤٨ .

(٥) أحمد زويل: عصر العلم ص ١٥٠، ١٥١، ١٦٠ .

(٦) أحمد زويل: عصر العلم ص ٨٧ .

الفصل الخامس

دور العلم في حياة علماء الحياة غير المسلمين

ويضم هذا الفصل المباحث التالية:

المبحث الأول: دور العلم في حياة جيمس وات.

المبحث الثاني: دور العلم في حياة أديسون.

المبحث الثالث: دور العلم في حياة ماركوني.

المبحث الرابع: دور العلم في حياة ألبرت أينشتين.

المبحث الخامس: دور العلم في حياة جورج سارتون.

المبحث السادس: دور العلم في حياة ستيفن هوكينج.

* * *

المبحث الأول
دور العلم في حياة جيمس وات
(١٧٣٦- ١٨١٩م)

اسمه مطبوع على لمبات الإضاءة (Watt).. ويعني وحدة قياس القوة، وهو ما أطلقته هيئة الطاقة البريطانية في سنة ١٨٨٢م على وحدة القياس تكريمًا له؛ مما دعَّم من شهرته.. كما أنه أول من استخدم مصطلح (حصان) للتعبير عن قوة الماكينات.. وهو يُعَد بحق رائد الثورة الصناعية!!

إنه جيمس وات، وُلِدَ في بريطانيا سنة ١٧٣٦م، وكان منصرفًا عن دروسه إلى إشباع رغبته في علوم الميكانيكا والرياضيات حتى إنه قرأ في صغره كثيرًا من كتبها.

والحقيقة أن جيمس وات لم يكن هو مخترع المحرك البخاري، وإنما كان توماس نيوكومن قد حقق هذا الإنجاز قبل مولد جيمس بربع قرن، أما المحركات التي اخترعها وات فكانت ذات تأثير أكبر، حيث اقتصر استخدام محرك نيوكومن في أعمال التعدين فقط وضخ الماء من المناجم، بينما استخدمت المحركات التي صنعها جيمس في كل الصناعات[1].

وإنه إذا كان نيوكومن قد اشتهر لاختراعه محركًا محدود الاستخدام، فإن جيمس وات هو من جعله متاحًا لكل الصناعات؛ فكانت الثورة الصناعية.

وقد بدأ اهتمام جيمس بالآلات البخارية في سنة ١٧٦٤م عندما كان يصلح إحدى الآلات البخارية القديمة[2]؛ فقد طُلِبَ من وات أن يصلح أحد محركات نيوكومن وكان يستخدم في أغراض التدريس في جامعة جلاسجو، وكانت نقطة الضعف التي اكتشفها وات في المحرك هي تسخين ثم تبريد أسطوانات المحرك في كل دورة، وهذا يهدر وقودًا بدون داعٍ، كما أنه يهدر الوقت أيضًا، وهو الوقت الذي تستغرقه الاسطوانة لترتفع حرارتها بدرجة كافية لإنتاج البخار؛ ما يقلل عدد مرات الدوران؛ وبناء على ذلك بدأ وات في عمل التعديلات

---

(١) انظر مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله، ترجمة أنيس منصور، الشخصية رقم ٢٥ ص ١٠٣، أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ٨٧ .

(٢) مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ص ١٠٤ .

لتحسين تصميم محرك نيوكومن، ويقال: إنه صادف الحل في سنة ١٧٦٥م بينما كان يتجول في جلاسجو، وقد وُضِعَ نصبٌ تذكاريٌّ في المكان الذي توصل فيه وات إلى ذلك الحل الذي أدَّى إلى حدوث الثورة الصناعية!!

فقد توصل وات إلى المفتاح الذي قاده إلى رفع كفاءة المحرك، وهو ضغط البخار في حاوية خاصة؛ مما يسمح للأسطوانة والمكبس بالبقاء في حالة سخونة دائمة[١]..

يقول مايكل هارت: من الإنصاف أن يقال: إنه هو المخترع الحقيقي للآلة البخارية[٢].

صنع وات المحرك المعدَّل في سنة ١٧٦٨م، وعند ذلك بدأ عمله التجاري، وذلك بالمشاركة مع جون ريبوك؛ وذلك لكي يموِّل إنتاج المحركات ويسوِّقها، ثم بعد ذلك حصلت الشركة على براءة اختراع تحت اسم (طريقة مبتكرة جديدة لتقليل استهلاك الوقود والبخار في المحركات النارية) وبدءوا في بيعه لأصحاب مناجم الفحم، ولكن لسوء الحظ في سنة ١٧٧٢م أفلس ريبوك، لكنه مع ذلك مكَّن وات من أن يدخل في شراكة جديدة أكثر نجاحًا مع ماثيو بولتون في عام ١٧٧٥م.

وسرعان ما تقدم الشريكان الجديدان وات وماثيو بولتون إلى البرلمان بطلب جديد يُمكِّنهم من أن يكونوا المنتِج والبائع الوحيد لمحرك وات في البلاد لمدة خمسة وعشرين عامًا. وقد أدى نجاح تلك الفكرة إلى أن يكونا محتكرين للمحرك، وإلى نمو الثروة الشخصية لوات نفسه.

ولم تمنع براءة الاختراع وات من إدخال تعديلات جديدة على الآلة البخارية، بما يجعلها أكثر فاعلية، وقد وصل إلى أفضل صورة لها في سنة ١٧٩٠م، وقد مكنته تلك التعديلات من أن يجعل المحرك يدور على محور؛ إذ كانت المحركات التي صنعها من قبل هو ونيوكومن ذات حركة من أسفل إلى أعلى، وهي مفيدة فقط في ضخ المياه خارج المناجم، لكن فائدتها كانت أقل في أماكن أخرى، وعندما أصبحت الحركة دائرية داخل المحرك أمكن استخدامه في صناعات أخرى[٣].

---

(١) أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ٨٧ .

(٢) الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ص ١٠٤ .

(٣) انظر أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ٨٨ .

وعن أهمية الآلة البخارية أيضًا يحدثنا مايكل هارت فيقول: باختراع الآلة البخارية تزايدت خطورة وأهمية الثورة الصناعية في كل اتجاه؛ فقد تضاعفت الطاقة الضرورية للإنتاج، وبذلك تضاعف الإنتاج نفسه.

ويتابع فيقول: ولا شك أن الحظر على البترول الذي فرضته حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م قد جعل الغرب يدرك خطورة النقص المفاجيء للطاقة، وكيف أن هذا النقص من الممكن أن يربك الصناعة والإنتاج، وهذا يجعلنا ندرك أهمية اختراع وات بالنسبة للثورة الصناعية في أوروبا[1].

وبالإضافة إلى فوائد الآلة البخارية في الصناعة، فقد ظهرت لها فوائد أخرى؛ حيث استطاع المركيز دابانز أن يستخدم الآلة البخارية في دفع أحد الزوارق، وفي سنة ١٨٠٤م صنع ريتشارد تريفيك أول طائرة بخارية، ولكن هذه الاختراعات لم تنجح تجاريًا، ولكن بعد عشرات السنين تطورت القاطرات والزوارق البخارية، وأحدثت وحدها ثورة على الأرض وفي الماء[2].

وقد كان لنشوب الثورة الصناعية في وقتٍ تزامن مع الثورة الأمريكية والفرنسية الأثر في عدم إحساس الناس بتأثيرها عليهم؛ يقول مايكل هارت: وعلى الرغم من أن الثورة الصناعية لم تتضح خطورتها في ذلك الوقت، فإننا الآن ندرك بوضوح كيف أنها أثرت على الحياة اليومية لكل الناس في العالم، أكثر مما كان لثورتي أمريكا وفرنسا، ولذلك فجيمس وات يعتبر من أكبر الشخصيات في التاريخ[3].

***

(١) مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ص ١٠٥ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٥ .

(٣) الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ص ١٠٥ .

المبحث الثاني

دور العلم في حياة أديسون

توماس أديسون.. مَنْجَم الاختراعات (١٨٤٧ - ١٩٣١م)

«إنَّ أمي هي التي صنعتني؛ لأنها كانت تحترمني وتثق في، أشعرتني أني أهم شخص في الوجود، فأصبح وجودي ضروريًا من أجلها، وعاهدت نفسي ألا أخذلها كما لم تخذلني قَطّ»..

كلمات تحمل في طياتها حجر الزاوية والركن الركين في صناعة المخترع الأمريكي «أديسون» صاحب الـ ١٠٩٣ اختراعًا المنفَّذة، والآلاف الأخرى التي احتوت عليها مفكرته ولم يمهله العمر لتنفيذها، كما أنها تفسر البدايات الأولى له، والتي لم تكن بدايات عادية.. وربما لأن أمه كانت غير عادية!!

البدايات الأولى.. ودور الأم:

في مدينة ميلان بولاية أوهايو الأمريكية، وفي سنة ١٨٤٧م وُلِدَ **توماس ألفا أديسون**، ومن المفارقات العجيبة أنه أُخرج من المدرسة بعد ثلاثة شهور فقط من دخوله؛ حيث وجده ناظر المدرسة طفلاً بليدًا، ومتخلفًا عقليًا[١]!!

وهنا جاء دور أمه التي لم تغب عنها المشكلة، فقامت بسحب توماس من المدرسة، وواسته بكل ما تملك، وبدأت تعلمه بنفسها في البيت، وتنمي بداخله حب الدراسة، حتى كان أول مشروع له هو: «قراءة كل كتاب في البيت»، وكان ذلك المشروع هو بداية الطريق نحو التعليم الذاتي، وكان البيت يحوي مكتبة كبيرة في مختلف أنواع العلوم[٢].

لم تملَّ أمه أبدًا من تعليمه ودفعه للتعلم ومساعدته في ذلك، يقول أحد جيرانهم: «كنت أمر عدة مرات يوميًا أمام منزل آل أديسون وكثيرًا ما شاهدت الأم وابنها توماس جالسين في الحديقة أمام البيت» فقد كانت تخصص بعض الوقت يوميًا للتدريس للفتى الصغير وتعليمه.

وإن ذلك الصنيع لم يرحل عن ذاكرة أديسون يومًا ما؛ إذ تراه يقول عن أمه: «لقد

(١) انظر مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله، ترجمة أنيس منصور، الشخصية رقم ٣٨ ص ١٦٣ .
(٢) انظر محمد المنسي قنديل: عظماء في طفولتهم، دار المعارف - القاهرة ص ٩٧ .

اكتشفت مبكرًا في حياتي أن الأم هي أطيب كائن على الإطلاق؛ لقد دافعت أمي عني بقوة عندما وصفني أستاذي بالفاسد وفي تلك اللحظة عزمت على أن أكون جديرًا بثقتها. كانت شديدة الإخلاص واثقة بي كل الثقة، ولولا إيمانها بي لما أصبحتُ مخترعًا أبدًا»، وقد بان ذلك التأثر الشديد بأمه حين وفاتها سنة ١٨٧١م؛ إذ تركت تلك الصدمة في نفسه تأثيرات عميقة حتى كان يصعب عليه الحديث عنها دون أن تمتلئ عيناه بالدموع!!

وإتمامًا واستكمالاً لدورها، فإنه لما كان للطفل (أديسون) أسئلته الكثيرة، والتي باتت تتخطى إمكاناتها التي ما فتئت تمنحه إياها، ما كان منها إلا أن انتدبت له مدرسًا ليعلمه.. لكن المعلم لم يستطع أن يجارى رأس توماس وسرعة منطقه في تفنيد النظريات، فكان أن رحل تاركًا عند أديسون العقيدة الأكيدة وهي: «**التجريب أفضل شيء في طريق العلم**».

ومن يومها بدأ نبوغ أديسون الطفل يظهر.. ولم يمانع قط في بذل أي مجهود لكسر أي تحدٍ مهما كان!!

ليس هناك عائق للتفوق!!

كانت عائلة أديسون عائلة فقيرة، ومن ثم فقد أقنع توماس والديه بأن يسمحوا له بالعمل، فكان يبيع الجرائد في محطات القطار[1]..

ولما كانت هناك حرب أهلية أمريكية مشتعلة ابتدأت سنة ١٨٦١م استغل فرصة عمله في محطة القطار، والتي كان فيها مقر التلغراف الرئيسي الذي يتم إرسال الأخبار إليه والمراسلات، ليقوم بطباعة منشور بسيط فيه أحدث تطورات الأزمة ويبيعه للركاب.. فكان بمثابة أول جريدة من نوعها في العالم تكتب وتطبع وتوزع في قطار، وقد سماها: «Grand Trunk Herald». وحين انتصر إبراهام لينكولن قام أديسون بجمع معلومات عنه وطبعها في كتيب صغير، ووزَّعه على ركاب القطارات[2]..

ولم يكن الفقر هو المعوق الوحيد في حياة أديسون، وإنما كان المرض أيضًا، وقد تمثَّل ذلك في فقدانه لحاسة السمع.. وكما تغلَّب على الفقر، فإن أديسون ربما اعتبر هذا الصمت الذي

---

(١) انظر أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ١٣١.

(٢) انظر محمد المنسي قنديل: عظماء في طفولتهم ص ٩٧.

يلف الكون حوله فرصة لتنمية قدراته على التركيز!! ولطالما وجد لنفسه وسيلة للتغلب على أية مشكلة والاستفادة منها.

وفي إحدى مرات تواجده في محطة القطار رأى أديسون طفلاً يكاد يسقط على القضبان، فقفز - وهو المراهق الشاب - لينقذه ولم يَدُرْ بخَلَدِه أن هذا الطفل هو ابن رئيس المحطة، وكمكافأة لهذه الشجاعة النادرة عيَّنه رئيس المحطة في مكتب التلغراف، وعلَّمه قواعد لغة مورس!!

التطوير في العمل.. بداية الاختراعات:

كان تعيين أديسون في مكتب التلغراف وتعليمه لغته بمثابة فتح كبير له؛ إذ كانت فرصته الكبرى في أن يجرب تطوير هذا الشيء الذي بين يديه، والذي نتج عنه ولادة أول اختراعاته.. إنه «التلغراف الآلي»، والذي لا يحتاج إلى شخص في الجهة الأخرى لاستقباله، بل يترجم العلامات بنفسه إلى كلمات مرة أخرى.

تقدم أديسون في عمله وانتقل إلى مدينة بوسطن بولاية ماساشوستس، وأسس مختبره هناك في عام ١٨٧٦م، واخترع برقية آلية تُستخدَم في إرسال العديد من البرقيات عبر خط واحد، ثم اخترع الـ [كرامفون] الذي يقوم بتسجيل الصوت ميكانيكيًا على أسطوانة من المعدن، وبعدها بسنتين قام باختراعه العظيم «المصباح الكهربائي»(١).

ومما يستحق النظر هنا هو أن أديسون أجرى ألف تجربة فاشلة قبل الحصول على المصباح النهائي أو الحقيقي، وكان تعليقه في كل مرة: «هذا عظيم.. لقد أثبتنا أن هذه أيضًا وسيلة فاشلة في الوصول للاختراع الذي نحلم به».. قالها نحو ألف مرة، ولم يتوقف، ولم يملَّ، ولم يُحبَط!!

والحقيقة أيضًا أن أديسون لم يكن أول من اخترع المصباح الكهربائي، إنما سبقه إلى ذلك كثيرون، كما أن المصابيح الكهربائية قد استخُدِمت لإضاءة شوارع باريس، ولكن مصباح أديسون مع نظام توزيع الكهرباء الذي اخترعه، جعل المصابيح الكهربائية - كما يقول مايكل هارت - صالحة للاستعمال في كل البيوت، وقامت شركة أديسون سنة ١٨٨٢م بإنتاج الكهرباء لمدينة نيويورك، وبعد ذلك انتشرت الكهرباء في أمريكا والعالم(٢).

---

(١) انظر أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ١٣٢ .

(٢) مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ص ١٦٤ .

وبعد دخول الكهرباء إلى كل البيوت، وضع أديسون الأساس الحقيقي لتطور الصناعة في العالم، كما أدّت الأسس التي وضعها لتوزيع الكهرباء على البيوت والمصانع إلى أن أصبحت الكهرباء حدثًا عظيمًا في تاريخ الإنسان.

وقد أسهم أديسون في تطوير كاميرات السينما، وأسهم في اختراع التليفون، خصوصًا أنه هو الذي اخترع الكربون الذي ينقل الصوت، كما أسهم في اختراع أجهزة التلغراف والآلة الكاتبة، واختراع البطاريات الجافة والميكروفونات.

ومن اكتشافاته أيضًا سنة ١٨٨٢م أنه يمكن أن تتحرك الكهرباء في داخل «فراغ» بين سلكين غير متصلين، وقد أدى هذا الاكتشاف إلى اختراع اللمبات الكهربية المفرغة تمامًا، ووضع أساس صناعة الإلكترونيات[١].

وفي عام ١٨٨٧م نقل أديسون مختبره إلى ويست أورنج في ولاية نيو جيرسي، وفي عام ١٨٨٨م قام باختراع kinetoscope وهو أول جهاز لعمل الأفلام، كما قام باختراع بطارية تخزين قاعدية، وفي عام ١٩١٣م أنتج أول فيلم سينمائي صوتي.

وإبان الحرب العالمية الأولى اخترع نظام لتوليد البنزين ومشتقاته من النباتات، وخلال هذه الفترة عُيِّن مستشارًا لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد أكمل أديسون بعد ذلك اختراعاته ليسجل أكثر من ١٠٠٠ براءة اختراع!! وهو عدد لا يصدقه العقل.

وعن أسباب عظمة أديسون في اكتشاف هذا السيل الهائل من الاختراعات يقول مايكل هارت: إنه أنشأ لنفسه معملاً خاصًا في سن مبكرة، وقد عيَّن في هذا المعمل عددًا من المساعدين، وكان هذا المعمل نموذجًا للمعامل التي أقامتها المؤسسات الكبرى بعد ذلك. ثم يستطرد مايكل معلقًا: ومما لا شك فيه أن إقامة هذا النوع من المعامل المنظمة والتي يعمل فيها عدد كبير من الناس بروح الفريق، هو من أعظم اختراعات أديسون، ومن علامات العصر أيضًا، وهو الاختراع الوحيد الذي لا يستطيع أن يسجله، ولا أن يحتكره[٢]!!

(١) مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ص ١٦٤ .

(٢) انظر المصدر السابق ص ١٦٥ .

أما الأوسمة والميداليات التي حصل عليها، فقد مُنِحَ وسام ألبرت للجمعية الملكية من بريطانيا العظمى، وفي سنة ١٩٢٨م استلم الميدالية الذهبية من الكونجرس.

وكان قد مُنِحَ جائزة نوبل سنة ١٩١٢م بالاشتراك مع زميله تسلا، إلا أنَّ رفْض تسلا أنْ يقترن اسمه باسم أديسون جعلهما لم يحصلا على الجائزة[1]!!

وإذا كان أديسون قد توفي سنة ١٩٣١م عن أربعٍ وثمانين سنة، فإنه سيظل مؤسس التطور الحديث الذي نعيشه.. وإنه إذا كان العالم يذكره على أنه مخترع المصباح الكهربائي، فإن اختراعاته الكثيرة الأخرى ليست أبدًا بأقل منه أهمية!!

* * *

(١) أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ١٣١ .

المبحث الثالث

دور العلم في حياة ماركوني

ماركوني.. رائد تطوير الإرسال البرقي اللاسلكي (الراديو)

(١٨٧٤- ١٩٣٧م)

كما أن هناك اكتشافات رائعة يقوم بها الكثيرون من النابغين العظماء، فإن هناك أيضًا من هؤلاء العظماء من يجيدون الاستفادة من الاكتشافات التي لغيرهم.

وذلك هو ما ينطبق على جويلمو ماركوني، مخترع الراديو!!

وُلِدَ ماركوني في مدينة بولونيا بإيطاليا سنة ١٨٧٤م لأسرة غنية، وقد تعلَّم في بيته، وعندما بلغ العشرين من عمره قرأ تجارب هينريش هرتز التي قام بها قبل ذلك بسنوات، وتجارب هرتز قد أثبتت وجود موجات كهربية مغناطيسية غير مرئية، وهذه الموجات تتحرك في الهواء بسرعة الضوء. وآمن ماركوني بأن هذه الموجات يمكن استخدامها في إرسال إشارات صوتية إلى مسافات بعيدة دون حاجة إلى أسلاك، وهذا يجعل الاتصال أسهل من استخدام التلغراف، فعن طريق هذه الموجات يمكن أن يبعث رسائل إلى السفن في المحيط[١].

وقد استفاد ماركوني من ممتلكات عائلته طويلة المساحة (ميل ونصف)، وذلك كي يجري تجاربه عن إرسال الموجات اللاسلكية في مكان خاص لا ينازعه فيه أحد.. وبحلول سنة ١٨٩٥م، وبعد سنة واحدة من العمل الشاق، كان قد صنع أجهزة معقدة يمكنها أن تذيع وتستقبل وتغطي مساحة ممتلكات العائلة[٢].

وبينما كان ماركوني مقتنعًا بأهمية ما توصل إليه خلال تجاربه، كان هناك القليلون جدًّا في إيطاليا مقتنعين بذلك!! ولذلك قرر الانتقال إلى لندن في محاولة للبحث عن دعم أعماله هناك، وذلك في سنة ١٨٩٦م.

وفي لندن حقق ماركوني نجاحًا كبيرًا، حيث اهتمت الحكومة وهيئة البريد والجيش بالاستخدامات العملية التي يمكن جَنْيُها من وراء هذه التكنولوجيا الجديدة خلال عدة

---

(١) انظر مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله، ترجمة أنيس منصور، الشخصية رقم ٤١ ص ١٧٥ .

(٢) انظر أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ١٥٩ .

سنوات، وكان ذلك بعد أن قام ماركوني بأول عرض له للبث اللاسلكي بين بريطانيا وفرنسا في عام ١٨٩٩م، وبعد هذا العرض أصبح محط أنظار العامة والخاصة.

وخلال هذه الفترة انشغل ماركوني في إقامة شركة تعتني بمخترعاته وسميت شركة (ماركوني للاسلكي المحدودة) في عام ١٩٠٠م، وكان قد أجرى تجارب لاسلكية ناجحة على سفن تابعة للبحرية البريطانية[١].

نجح ماركوني بعد ذلك في تجربة بث لاسلكي باستخدام شفرة مورس عبر الأطلنطي (ألفي ميل)؛ فقضى بذلك على كل الشكوك حوله وحول نجاح فكرته، وأسكت كل المشككين في أعماله، ونال شهرة عالمية.

وكان الكثيرون يعتقدون بأن ذلك عملٌ مستحيلٌ، وقالوا: إن تقوُّس سطح الكرة الأرضية عائق كبير، لكن ماركوني كان يعتقد أن ذلك ممكن. وقبل ذلك الحدث وبعده كان ماركوني قد حصل على عدة براءات لاختراعه الذي صنعه بنفسه وأدخل عليه عدة تعديلات[٢].

وقد ظهرت أهمية هذا الاختراع عندما وقع حادث غرق السفينة (ريبابليك) سنة ١٩٠٩م، وأيضًا السفينة الشهيرة (تايتانك) سنة ١٩١٢م، وكان ذلك من بين ما أسكت المشككين في مدى فائدة اختراع ماركوني؛ فقد ظلَّ اثنان من المسئولين عن البث اللاسلكي على السفينة تايتانك (وكان المسئول عن اللاسلكي على أية سفينة يُسمّى: رجل ماركوني) في حجرة البث يرسلان استغاثة باستخدام اللاسلكي، مما تسبب في إنقاذ عددٍ من الركاب، حتى تحطم جزء السفينة الموجود به غرفة اللاسلكي، وقد نجا أحدهما وهو هارولد بريد، والتحق بعد ذلك بالبحرية الملكية، ولقي الآخر حتفه مع الغارقين، وهو جاك فيليبس.

وقد أدت هذه الحوادث إلى صدور القوانين التي تقتضي بأن يكون بسفن الركاب أجهزة لاسلكية[٣].

نال ماركوني جائزة نوبل في الفيزياء عمّا قام به، وذلك سنة ١٩٠٩م.

---

(١) انظر المصدر السابق ص ١٥٩، ١٦٠ .

(٢) أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ١٦٠ .

(٣) انظر المصدر السابق، نفس الصفحة، وانظر أيضًا: «الموسوعة العربية العالمية» على شبكة الإنترنت، الرابط: http://www.mawsoah.net/gae_portal/maogen.asp?main2&articleid.-131910 !ماركوني.

وفي السنة التالية نجح في أن يبعث برسائل لاسلكية بين أيرلندا والأرجنتين، أي عبر مسافة ستة آلاف ميل. وهذه الرسائل جميعًا قد انتقلت بطريقة مورس، أي نقطة وشرطة، وكان ماركوني يتصور أنه يمكن نقل الصوت أيضًا عبر هذه المسافات الهائلة، ولكن ذلك لم يتحقق إلا في سنة ١٩١٥، ولم يعرف العالم الإذاعة على نطاق تجاري واسع إلا في ١٩٢٠م.

وقد قضى بقية حياته منشغلاً في تطوير تقنية الراديو (المذياع)، وقد حقَّق تقدمًا ملحوظًا في تقنية الموجات القصيرة؛ مكنت من إقامة شبكة عالمية للإذاعة في عام ١٩٢٧م.

وفي سنة ١٩٣٢م صمّم ماركوني أول جهاز هاتف يعمل بالموجات الدقيقة (الموجات المتناهية الصغر أو المايكرو ويف)..

وفي السنوات الأخيرة من حياته قام بتصوير استخدام الموجات القصيرة والموجات شديدة القِصَر، وتُوُفِّي ماركوني في روما سنة ١٩٣٧م[١].

ومادام ماركوني قد اكتسب شهرته كمخترع فإن أهميته تتناسب مع أهمية الراديو وما أسفر عنه من نتائج مهمة؛ فمن المؤكد أن الراديو مهم جدًّا في الاتصالات الحديثة، فالراديو يستخدم في الإذاعة والأخبار ولخدمة البوليس وللأبحاث العلمية.. وعلى الرغم من أن التلغراف قد اختُرِع قبل ذلك بقرن ونصف قرن، فإن التلغراف لا يستطيع أن يحل محل الراديو، فالراديو يربط السفن والسيارات والطائرات وسفن الفضاء[٢].

وتجدر الإشارة إلى أن اختراعات ماركوني، وخاصة فيما يتصل بالتجارب الخاصة بالموجات القصيرة والموجات الدقيقة (المايكرو ويف) قد ساعدت على فتح الطريق أمام حدوث ثورة في مجال الاتصال الإلكتروني بالموجات الدقيقة!!

***

---

(١) انظر مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ص ١٧٦ ، والموسوعة العربية العالمية.

(٢) انظر مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ص ١٧٧ .

المبحث الرابع
دور العلم في حياة ألبرت أينشتاين
(١٨٧٩- ١٩٥٥م)

لم يتمكن من الكلام حتى سنِّ الثالثة، وفي شبابه كان يقوم بجهد كبير لإيجاد المفردات المناسبة للتعبير، وكان يجد صعوبة في المدرسة، وخاصة في مادة الرياضيات، ولم يكن قادرًا على التعبير عن نفسه كتابة، حتى إنه كان يُعتقَد أنه أبله.. إلى أن بدءوا يكتشفون إنجازاته!!

وُلِدَ أينشتاين في مدينة (أولم) في ألمانيا، وأكمل دراسته في سويسرا، وتجنَّس بالجنسية السويسرية، ودرس في معاهدها، ثم بعد إعلان نظرية النسبية الأولى انتقل إلى العمل في ألمانيا في جامعتها، ثم مديرًا لمعهد الإمبراطور الفلكي[(١)].

ويُعَد أينشتاين أعظم علماء القرن العشرين وأكثرهم شهرة، وقد ارتبط اسمه بنظرية النسبية، وهناك نظريتان تحملان هذا الاسم: واحدة أعلنها سنة ١٩٠٥م وهي نظرية «النسبية الخاصة»، وكان قد فكَّر فيها وهو شاب دون العشرين، والثانية أعلنها سنة ١٩١٥م واسمها «النسبية العامة»، وكلتاهما في غاية التعقيد، ولا يستطيع أي إنسان أن يشرحهما في مجلة أو لعامة الناس مهما أوتي من القدرة على التوضيح[(٢)].

وفي تبسيط ذلك يضرب مايكل هارت مثلاً؛ فيقول: ولكن سوف أضرب مثلاً على ذلك، وإن لم يكن واضحًا فهو واضح الغموض، أو هو دليل واضح على صعوبة وغموض هذه النظرية، المثل: لنفرض أن سفينة فضاء انطلقت بسرعة مائة ألف ميل في الثانية بعيدًا عن الأرض، والذي يراقبها من الأرض، والذي يراقب الأرض من السفينة سوف تتطابق معلوماتها تمامًا، وإذا انطلقت سفينة أخرى بسرعة مائة وثمانين ألف ميل في الثانية بعيدًا عن الأرض، فإن الذي يرقبها من الأرض ورائد السفينة الذي يرقب بعدها من الأرض ستكون معلوماتها متطابقة تمامًا.

---

(١) انظر أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ١٦١.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة، ومايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله، ترجمة أنيس منصور، الشخصية رقم ١٠ ص ٤٥.

ولكنَّ رائد السفينة الأولى سيلاحظ أن السفينة الثانية تسبقه بثمانين ألف ميل في الثانية - هذا ما نقوله نحن، ولكن نظرية أينشتاين تؤكد أن هذا خداع، وأن الحقيقة أن السفينة الثانية تسبقها بمائة ألف ميل في الثانية، كيف؟ هذا هو لغز الحقيقة التي أرهقت العلماء في القرن العشرين، ولم تثبت صحتها إلا بعد ذلك بعشرات السنين عندما رصد الفلكيون كسوف الشمس من أماكن مختلفة في العالم[1].

ولأينشتاين أيضًا نظريات أخرى هزَّت الرياضيات والفيزياء، فمن اكتشافاته المهمة في الفيزياء قانون معادلة الطاقة والكتلة، وبهذه المعادلة يمكن حساب كمية الطاقة المنطلقة من ذرة يورانيوم بمعلومية كتلتها.

ومن اكتشافات أينشتاين أيضًا اكتشافه لظاهرة كهربائية، وهي ظاهرة انبعاث إلكترونات من أسطح الفلزات نتيجة سقوط ضوء ذي ترددٍ مناسب عليها، وقد أثبت أن الضوء في هذه الحالة كالجسيمات.

وهو صاحب المعادلة المشهورة التي تقول:

الطاقة = الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء!

وهذه المعادلة تقيس بالضبط كمية الطاقة التي تنطلق من ذرة يورانيوم، أي عندما تتحول الذرة إلى طاقة حرارية[2]!

وفي سنة ١٩٢١م حصل أينشتاين على جائزة نوبل في الفيزياء؛ تقديرًا لأبحاثه عن الظاهرة الكهروضوئية.

ولأينشتاين أبحاث كثيرة، من أهمها: (معنى النسبية) الذي نُشِرَ سنة ١٩٢٣م، وكتاب (بُناة الكون) ونُشِرَ سنة ١٩٣٢م[3].

وأينشتاين هو أول من طلب إلى الحكومة الأمريكية أن تعجل بإكمال القنبلة الذرية قبل أن يهتدي إليها الألمان، ويقال: إنه ندم على ذلك فيما بعد!

---

(١) انظر مايكل هارت: الخالدون مائة ص ٤٦ .

(٢) انظر مايكل هارت: الخالدون مائة ص ٤٦ .

(٣) انظر أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم ص ١٦١ .

ولأنه يهودي فقد هرب من النازية سنة ١٩٣٣م إلى أمريكا، وحصل على الجنسية الأمريكية، وظل أستاذًا في جامعة برنستون حتى وفاته سنة ١٩٥٥م[1].

وقد ذكرنا قصة هذا الرجل مع اختلافنا الشديد معه في آرائه السياسية؛ فقد كان يهوديًا متعاطفًا كثيرًا مع دولة إسرائيل، وصهيونيًا متطرفًا، وكان من أكبر من أيَّدوا إقامة دولة إسرائيل على أرض فلسطين، وقد تمكن من جمع دعم مالي كبير من كل أنحاء العالم للعصابات اليهودية الثلاث التي شاركت في بناء دولة إسرائيل، ونظير ذلك طلب منه اليهود أن يكون أول رئيس لدولتهم الغاصبة لكنه رفض.. فذكرنا قصته العلمية لنأخذ العبرة والعِظَة منها، والحكمة ضالَّة المؤمن..

***

(١) انظر مايكل هارت: الخالدون مائة ص ٤٦، ٤٧ .

المبحث الخامس
دور العلم في حياة جورج سارتون

(١٣٠٢ - ١٣٧٥هـ / ١٨٨٥ - ١٩٥٦م)

يُعدُّ بحق - كما يصفه الدكتور إبراهيم مذكور في تقديمه لكتابه (تاريخ العلم) - رأس المشتغلين بتاريخ العلم في نصف القرن الأخير، اتجه نحوه منذ عهد الشباب، ووقف عليه حياته كلها، وقلَّ أن تفرَّغ باحثٌ لموضوع مثلما فعل[١]!!

وفي وصف بليغ وترجمة دقيقة له من قِبَل مجلة (المجمع العلمي العربي) الذي هو عضو فيها جاء عنه النص التالي: «أخلص الحب للعرب ولغتهم، وجلا فضل علمائهم على العالم القديم في تجرُّد وإنصاف»[٢].

إنه جورج سارتون «Georges Sarton» المستشرق البلجيكي، والذي يُعَدُّ في مصافِّ كبار العلماء، حتى كان رئيسًا للاتحاد الدولي لتاريخ العلوم، ورئيس شرفيًّا لجمعية تاريخ العلوم الأمريكية، وكان عضوًا في عشرة مجامع علمية دولية، إضافة إلى منحه ست شهادات دكتوراه فخرية!!

تقدَّم إلى جامعة «جان» البلجيكية، حيث مسقط رأسه برسالة للدكتوراه موضوعها «ليونارد الفنسي» وكانت هذه نقطة البدء في حياته العلمية الحافلة، ومنذ ذلك التاريخ أخذ يحاضر ويؤلِّف في العلم وتاريخه؛ فحاضر في بلجيكا وإنجلترا، ثم رحل إلى الولايات المتحدة عام ١٩١٦م، فكان مدرس (تاريخ العلوم) في جامعة هارفارد (١٩١٧ - ١٩٤٩)، وهناك امتدَّ نشاطُه إلى كبريات الجامعات الأمريكية، يحاضر فيها ويراسل، وينشيء جيلاً من الباحثين.

وزار سارتون مصر وبلاد الشام وأفريقيا الشمالية سنة (١٩٣١ - ١٩٣٢م)، وألقى محاضرات حول بيان (فضل العرب على التفكير الإنساني)[٣].

مصنَّفاته:

أما عن مصنَّفاته فقد كتب وألَّف كثيرًا، ولعلَّه لم يكتب في شيء إلا في العلم وتاريخه، أو

---

(١) جورج سارتون: تاريخ العلم، تصدير إبراهيم مذكور ص ١٠.

(٢) مجلة المجمع العلمي ٣١/ ٦٧٨ - ٦٨٠ - الزركلي: الأعلام ٢/ ١٤٥.

(٣) انظر: الأعلام ٢/ ١٤٥، تاريخ العلم، تصدير إبراهيم مذكور ص ١٠، ١١.

ما يتصل بهما عن قرب، وكان أجَلَّ كتبه: (المدخل إلى تاريخ العلوم) بالإنجليزية، وهو يقع في خمس مجلدات، خصَّ منه تاريخ العلوم عند العرب بجزء وافر.

وله أيضًا: (حضانة الشرق الأوسط للثقافة الغربية)، محاضرة ترجمها إلى العربية عمر فروخ.

وله كذلك: (تاريخ العلم) الأول والثاني، وقد ترجمتهما إلى العربية لجنة نشر مؤسسة فرانكلين.

وكان سارتون أيضًا قد أنشأ مجلتين إنجليزيتين علميتين، وُقِفَتا على تاريخ العلم، هما: (إيـزيس) و(أوزيريس)، فأصدر منهما ٤٣ مجلدًا، وتخلَّى عن الإشراف عليهما بعد ذلك لبعض العلماء[١].

منهجه العلمي:

وأما عن **منهجه وطبيعة عمله في مصنَّفاته**؛ فيقول الدكتور إبراهيم مدكور: «وسارتون أخيرًا عالمٌ بأوسع معاني الكلمة، يعرض لقضايا العلوم فيعالجها معالجة الملِمّ بأطرافها، الخبير بدقائقها، تراه أحيانًا كيماويًا متخصصًا، وأخرى طبيبًا متبحرًا، ثم ينتقل إلى الرياضة والفلك، فيبسط نظرياتها بسطًا شافيًا، ولم يقف عند العلوم الطبيعية والرياضية، بل جاوزها إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية من تاريخ وجغرافيا، واقتصاد واجتماع، وأدب وسياسة، باحثًا في ذلك كله عن أصوله الدينية والخرافية، وموجهًا إياه وجهة فلسفية عامة، ومحاولاً ربطه بالتكنولوجيا والتطبيقات العلمية التي لجأ إليها الإنسان منذ فجر التاريخ، ومع هذا فهو لا يؤرِّخ لعلمٍ بذاته، وإنما يتتبَّع تطور العلم البشري منذ بدء الخليقة إلى اليوم»[٢].

والحقيقة أن **أهمية سارتون في كتاباته** لم تكمن فقط في أنه أكثر المستشرقين إنصافًا، وإنما لأنه لا يمثل عالمًا واحدًا أو كاتبًا واحدًا، بل هو فريق ضخم من العلماء والباحثين، وموسوعته الضخمة (تاريخ العلم) أصبحت المرجع الرئيسي والمنهل الأكثر اعتمادًا لدى جميع المستشرقين والكتاب ومراكز البحث العلمي، بل أيضًا لمؤلِّفي الموسوعات العامة في الغرب!!

ففي هذه الموسوعة يحدثنا سارتون عن العلم في التاريخ الإنساني، وفي العالم كله، في أوروبا وآسيا وأفريقيا، ولا يترك شعبًا واحدًا أسهم في الحضارة الإنسانية - ولو بالقليل - إلا ويذكر فضله ودوره بالحق.

---

(١) انظر المصدرين السابقين.

(٢) انظر: تاريخ العلم، تصدير إبراهيم مدكور ص ١٣.

ويسير سارتون بالتطور العلمي ابتداء من عصور الفراعنة، ثم الإغريق، ثم الدولة البيزنطية، حتى يصل إلى ظهور الحضارة الإسلامية.

ويقسِّم سارتون عصور التاريخ بأسماء أبرز العلماء وأصحاب الفضل على الحضارة الإنسانية في عصرهم:

فالنصف الثاني من القرن الثامن الميلادي يسمى: «عصر جابر بن حيان».

والنصف الأول من القرن التاسع الميلادي يسمى: «عصر الخوارزمي».

والنصف الثاني من القرن التاسع الميلادي يسمى: «عصر الرازي».

والنصف الأول من القرن العاشر الميلادي يسمى: «عصر المسعودي».

والنصف الثاني من القرن العاشر الميلادي يسمى: «عصر أبي الوفا البوزجاني».

والنصف الأول من القرن الحادي عشر يسمى: «عصر البيروني».

والنصف الثاني من القرن الحادي عشر يسمى: «عصر الخيّام».

والنصف الأول من القرن الثاني عشر يسمى: «عصر ابن زهر الأندلسي».

والنصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي يسمى: «عصر ابن رشد».

والنصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي هو: «عصر الترجمة من العربية إلى أوروبا».

يقول الدكتور أحمد شوقي الفنجري معلِّقًا: «ولهذا التقسيم وهذه الأسماء مغزى كبير يجب أن لا يفوتنا؛ فمعناه أن الحضارة الإسلامية كانت في تلك العصور سيدة الدنيا بغير منافس ولا منازع، مما حدا بسارتون أن يسميها بعصور العلم الإسلامي»[1]. وفي ذلك يقول (سارتون) بعد أن يستعرض كل الحضارات المعاصرة من اليابان والصين حتى إنجلترا وإسكندنافيا: «ولننتقل الآن إلى الإسلام، فكأننا انتقلنا فجأة من الظِّلِّ إلى الشمس الساطعة، ومن العالم النائم إلى عالم يعج بالحركة والطاقة والحيوية والإنتاج»[2].

ويستطرد سارتون بأن العالم الإسلامي نفسه كان في سباق مع نفسه نحو قمة الحضارة.. فكانت هناك منافسة حضارية علمية بين مسلمي الغرب الإسلامي وبين مسلمي الشرق الإسلامي، بل كان هناك سباق بين أبناء الدولة الواحدة الذين ينتمون إلى عناصر مختلفة، من

(١) انظر أحمد شوقي الفنجري: علوم المسلمين ص٢٤.

(٢) سارتون: مقدمة في تاريخ العلم ١/ ٦٩٥.

عرب وفرس وأتراك وبربر وغيرهم؛ فقد دفع الإسلام في هؤلاء جميعًا طاقة لا تعرف الكلل.

ويرد سارتون على بعض المؤرخين الذين طغت لديهم الروح العنصرية والصليبية على روح العلم والتفتح؛ فيقول: إن بعض المؤرخين يحاولون أن يبخسوا ما قدمه العرب والمسلمون للعالم، ويصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا إليها شيئًا، ويرد عليهم قائلاً: إن هذا الرأي خطأ جسيم؛ فقد كان العرب أعظم معلِّمين في العالم، وأنهم زادوا على العلوم التي أخذوها ولم يكتفوا بذلك بل أوصلوها إلى درجة جديرة بالاعتبار من حيث النمو والارتقاء[1].

وقد ظهرت قضية العلم ودوره البارز في حياة سارتون حين قال: إنه عندما وصل في تأريخه إلى القرنين السابع والثامن الميلاديين، حيث بدأت الحضارة الإسلامية تصعد بسرعة مذهلة، ويطغى نورها على كل ما سواها في شتى أنحاء المعمورة، لم يستطع أن يكتفي بمعلومات مساعديه، رغم أنهم فريق كبير من علماء التاريخ الإسلامي، فاضطر أن يدرس اللغة العربية في هذه السِّن الكبيرة حتى يستطيع بنفسه أن يلاحق هذا الفيض المتفجر من العلم والإنتاج[2].

وفاته:

على أن سارتون بقي شعلة وهّاجة في سماء العلم وإلى أن لفظ النفس الأخير، حتى إنه بعد أن اعتزل التدريس عام ١٩٥١م، ويوم وفاته كان قد أعدَّ العُدَّة لرحلة قصيرة كي يلقي محاضرة في مونتريال، ولكنه اضطر أن يعود من الطريق إلى منزله ليسافر السفر الأخير سنة ١٩٥٦م[3].

* * *

(1) science from homer to omar khayam. The life of science (Essays in the history of civilization)

(٢) سارتون: مقدمة في تاريخ العلم ١/ ٤٥.

(٣) انظر: تاريخ العلم تصدير إبراهيم مدكور ص١٠.

المبحث السادس

دور العلم في حياة ستيفن هوكينج

ستيفن هوكينج.. أستاذ الكونيات ومتحدّي الإعاقة:

يُعَدُّ ستيفن هوكينج أحد ألمع فيزيائيي القرن العشرين، ومن أبرز علماء الكونيات الذين تصدَّوا لأصعب الأسئلة على مرّ التاريخ: «خلق الكون ومصيره»، حتى لُقِّب بـ «العقلية الفيزيائية الثانية بعد نيوتن»، وقد اعتبرت نظريته عن أصل الكون ونهايته تحولاً في هذا الاتجاه، خاصة وأنه ركز جهوده طوال العقود الماضية على التوحيد بين «فيزياء الكم» و«نسبية إينشتاين»، وكانت له أبحاث في العلاقة بين الثقوب السوداء والديناميكا الحرارية، ودراسات في التسلسل الزمني.

ورغم أنه «معاق» وعاجز عن الحركة وعن الكلام إلا إنه كان يقول (إليكترونيًا) في تحدٍ: «لا أشعر بأنني شخص معاق، وإنما مجرد شخص مصاب بتعطل العصب الحركي، وذلك كما لو كنت مصابًا بعمى الألوان. أظن أن من الصعب وصف حياتي بأنها عادية، لكنني أشعر أنها عادية روحيًا»[1]!! فكان مثالاً وأنموذجًا في التحدي والصبر ومقاومة المرض، وإنجاز ما عجز عنه الأصحاء.

وكان هوكينج قد أصيب بمرض عصبي وهو في الحادية والعشرين من عمره، جعله مقعدًا تمامًا غير قادر على الحراك، وهو مرض التصلب الجانبي «ALS» المميت والذي لا دواء له، حتى إن الأطباء ذكروا أنه لن يعيش أكثر من سنتين، إلا أنه عاش مدة أطول من ذلك، واستطاع أن يتفوق على أقرانه الأصحّاء رغم أن أيديهم كانت سليمة، وكانوا يستطيعون كتابة المعادلات المعقَّدة، وإجراء الحسابات الطويلة على الورق، وكان هو - وبطريقة لا تصدق - يجري هذه المعادلات وتلك الحسابات في ذهنه، حتى جاءه اليوم الذي كان يفخر فيه بأنه حظي بذات اللقب وكرسي الأستاذية الذي حظي به من قبل السير إسحق نيوتن!

ويستخدم هوكينج صوتًا إلكترونيًا بعد إجراء عملية للقصبة الهوائية، وأصبح مرتبطًا

---

(١) انظر ناصر أسعد منذر: (ستيفن هوكينج العالم والإنسان) من محاضرة ألقيت في كلية الآداب جامعة حلب يوم الثلاثاء ١٩/ ١٢/ ٢٠٠٦ ضمن نشاطات المنتدى الثقافي لذوي الاحتياجات الخاصة، بمناسبة يوم المعاق العالمي ٢٠٠٦م.

بجهاز إلكتروني خاص موصول مع الكرسي، يتلقى الأوامر عن طريق حركة العين والرأس ليعطي بيانات مخزَّنة في الجهاز، وهذا الجهاز هو كمبيوتر قامت بتطويره له بشكل خاص شركة (إنتل)[1]!!

وقد حظي هوكينج بعائلة متميزة، وخصوصا زوجته «جين وايلد» التي تزوجها سنة ١٩٦٥م، وإضافة إلى رصيده العلمي فقد كان يتميز بالدعابة، ومساعدة الأطفال وتدعيم مشاريع تنمية الطفولة، وشارك في مظاهرات ضد الحرب على العراق، ولم تكن محاضرة «العودة بالتاريخ إلى الوراء»، في جامعة (بيرزيت) بفلسطين في سنة ٢٠٠٦م هي نهاية محاضراته التي يجوب بها العالم.

نشاته وتعليمه:

وُلِدَ هوكينج سنة ١٩٤٢م أثناء الحرب العالمية الثانية في أكسفورد - إنجلترا، وكان والده باحثًا في طب الأمراض الاستوائية، ومنه أخذ اهتمامه فيما بعدُ بالبحث العلمي، لكنه وجد الطب والبيولوجيا علمين وصفيين وغير دقيقين، وكان هو يبحث عن شيء أكثر جوهرية، فوجد ذلك فيما بعد في الفيزياء. كما درست والدته أيضًا في أكسفورد في ذات الجامعة التي درس فيها والده، والتي سيدرس هو أيضًا فيها فيما بعد.

لم يكن هوكينج في المدرسة أفضل من المتوسط أبدًا، وعِلمه لم يكن مرتبًا، وكان خط يده مثار يأس أساتذته، وهو الذي كان يقول عن نفسه: «كنتُ أكثرَ مهارة في أداء الامتحانات والاختبارات من الأداء أثناء الدرس»، ورغم ذلك فإن زملاءه أطلقوا عليه اسم «أينشتاين» لذكائه وتميزه في حل المعادلات وموهبته الاستثنائية في الفيزياء والرياضيات، والتي ظهرت في سن مبكرة، حتى كان قادرًا على حلِّ مسائل رياضية في بضع ساعات لم يكن زملاؤه الطلاب قادرين على حلِّها في أسابيع[2]!!

وفي سنة ١٩٦٢م حصل هوكينج على درجة البكالوريوس في الفيزياء من جامعة

---

(١) انظر موقع ويكيبيديا على شبكة الإنترنت، الرابط:
http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B3%D8%AA%D9%8A%D9%81%D9%86_%D9%87%D9%88%D9%83%D9%8A%D9%86%D8%BA

(٢) انظر المصدرين السابقين.

أكسفورد، وفي سنة ١٩٦٦م حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من قسم الرياضيات التطبيقية والفيزياء النظرية في جامعة كمبريدج، وفي سنة ١٩٧٤م أصبح عضوًا في الجمعية الملكية، والتي هي إحدى أقدم المنظمات العلمية على وجه البسيطة، ثم تسلَّم في العام ١٩٧٩م كرسيَّ الرياضيات اللوكاسي في جامعة كمبردج، وهو منصب كان يحتله العالم العظيم إسحق نيوتن، وشغله أيضًا العالم بول ديراك، وهما من أكابر العلماء الذين اهتموا باللامتناهي في الكبر واللامتناهي في الصغر، وقد كان هوكينج - كما يقول كارل سيغان - : «خليفتهما بكل جدارة»[1].

أهم إنجازاته:

في سنة ١٩٦٠م نشر هوكينج نظريته الكبرى الموحدة عن أصل الكون، وفي سنة ١٩٧١م وبالتزامن مع عالم الرياضيات روجر بنروز، أصدر نظريته التي تثبت رياضيًا، وعبر نظرية النسبية العامة لاينشتاين، أنَّ الثقوب السوداء، أو النجوم المنهارة بالجاذبية، هي حالة تفرُّدية في الكون «أي أنها حدث له نقطة بداية في الزمن».

وفي سنة ١٩٧٤م أثبت نظريًا أن الثقوب السوداء تصدر إشعاعًا على عكس كل النظريات المطروحة آنذاك، وسُمِّي هذا الإشعاع باسمه «**إشعاع هوكينج**»، واستعان بنظريات ميكانيكا الكم وقوانين الديناميكا الحرارية.

ومع معاونه جيم هارتل من جامعة كاليفورنيا، طوَّر هوكينج نظرية اللامحدود للكون التي غيرت من التصور القديم للحظة الانفجار الكبير عن نشأة الكون، إضافة إلى عدم تعارضها مع أن الكون نظام منتظم ومغلق.

وعمل ستيفن هوكينج على القوانين الأساسية التي تحكم الكون، ومن المنشورات التي صدرت له هناك: «النسبية العامة»، و«٣٠٠ عام من الجاذبية».

وكان تقديم آخر ما توصل له العلم، بخصوص خلق الكون وتطوره، إلى الجمهور العريض شغل هوكينج الشاغل، فقرَّر بعد سلسلة المحاضرات التي ألقاها في هارفارد تأليف كتاب شعبي عن الزمان والمكان يستهدف الجمهور العريض، فكان الكتاب «موجز تاريخ

---

(١) انظر ناصر أسعد منذر: (ستيفن هوكينج العالم والإنسان).

الزمن»، والذي حقق أرقام مبيعات وشهرة عالية، وعُدَّ من أكثر الكتب العلمية شعبية على الإطلاق، ودخل في موسوعة جينيس للأرقام القياسية بسبب طول الفترة التي بقي فيها على لائحة الكتب الأكثر مبيعًا[1].

وفي تقديمه للكتاب يقول كارس ساغان: «إنه أول كتاب مليء بالهدايا من كل نوع يقدمها هوكينج للجمهور العادي من غير المختصين، إنه ينبيء عن العمل الفكري الذي بذله مؤلفه، وفيه من التشويق بمقدار ما فيه من التنويع. إن هذا الكتاب حافل بالرؤى النفاذة فيما يخص حدود الفيزياء وعلم الفلك وعلم الكون..»[2].

ويعرض هوكينج في هذا الكتاب، وبلغة علمية بسيطة، مسيرة تطور فهم الإنسان للكون، وأحدث ما اكتشفته علوم الكونيات، كما يعرض للنظريتين الرئيسيتين في القرن العشرين: النسبية العامة وميكانيكا الكم، والمحاولات الرامية لتوحيد الفيزياء عبر دمجهما بنظرية واحدة. والكتاب متوافر باللغة العربية، وقام بترجمته الدكتور أدهم السمان.

وفي سنة ١٩٩٣م قدم كتابًا ثانيًا هو «الثقوب السوداء والأكوان الطفلة ومواضيع أخرى»، وهو كتاب يتضمن مجموعة من المواضيع المتفرقة كتبها هوكينج على مدى ستة عشر عامًا، تعكس حالته المعرفية في أوقاتها، وهو متوفر أيضًا باللغة العربية، كما قدَّم سنة ٢٠٠١م كتاب «الكون في قشرة جوز».

ومتابعةً لإصداراته القيمة في مجال الكون، كان هناك أيضًا كتاب «كون ستيفن هوكينج» الأكثر تبسيطًا، والذي قرَّر زميله في قسم الفيزياء في كامبريدج العالم «ديفيد فيلكن» تأليفه بعد أن أنجز ستَّ حلقات مع هوكينج في محطة الـ«بي بي سي» عن الكون ونظرية كل شيء، وكانت هذه الحلقات قد لاقت رواجًا كبيرًا، وقد نُشِر هذا الكتاب أيضًا باللغة العربية سنة ٢٠٠٦م.

ويذكر فيلكن في مقدمة كتابه حادثة تدل على تواضع هوكينج، حيث يقول: «.. أرسلت له بعض الملاحظات ليبدي أفكاره وتصويباته حولها، وكان منها ما كتبت: (ستيفن هوكينج، المعترف به كأحد رواد المرجعيين في الثقوب السوداء)، إلا أن الأوراق المنسوخة قد أُعيدت

---

(١) موقع ويكيبيديا على الرابط السابق.

(٢) انظر ناصر أسعد منذر: (ستيفن هوكينج العالم والإنسان).

إليَّ مدونًا بهامشها ملحوظات واضحة بخط سو مازي، ممثلة لأمانة ستيفن العلمية، حيث وضعت علامة بحذف السطر الذي كتبته وأُضِيف بدلاً منه: (ستيفن هوكينج، الذي شارك في دراسة الثقوب السوداء)»[1].

الجوائز:

صنع هوكينج لنفسه اسمًا في عالم الابتكارات والعلماء، على الرغم من إعاقته الجسدية الكبيرة التي تمنع أي شخص غيره من القيام بأي عمل أو كسب للرزق، ناهيك عن الاختراع ومقارعة العلماء، وإثبات نظريته أمام الكثير من كبار العلماء في هذا العصر.

وقد استحق أن يحصل على اثنتي عشرةَ مرتبةَ شرفٍ علمية، والعديد من الأوسمة والجوائز، إضافة إلى عضويته في الجمعية الملكية، وجمعية العلوم الوطنية[2].

وفي النهاية يقول هوكينج: «... بالتأكيد أنا أسعد الآن؛ فقد كنت قبل إصابتي بمرض العصب الحركي ضجرًا من الحياة، لكن فكرة الموت المبكر جعلتني أعي أن الحياة تستحق أن تعاش فعلاً، فثمة الكثير الكثير مما يمكن للمرء أن يفعله فيها. إنَّ لدي شعورًا بأنني أنجزتُ شيئًا متواضعًا، لكنَّه إسهام ذو مغزى في المعرفة الإنسانية، أنا محظوظ جدًّا، لكن كل شخص يستطيع تحقيق شيء إذا حاول ذلك بجدية كافية»[3].

***

---

(١) ناصر أسعد منذر: (ستيفن هوكينج العالم والإنسان).

(٢) انظر جريدة الأيام الفلسطينية، عدد السبت ١٦ كانون الأول ٢٠٠٦ = ٢٦ من ذي القعدة ١٤٢٧ مقال ليوسف الشايب، بعنوان: «يعود بالتاريخ إلى الوراء» في جامعة بيرزيت، البروفيسور ستيفان هوكينج .. عبقريته في الفيزياء وحكاية تحديه للمرض مثار إعجاب العالم! وذلك بعد قدوم هوكينج ستيفن جامعة بيرزيت.

(٣) انظر ناصر أسعد منذر: (ستيفن هوكينج العالم والإنسان).

خاتمة الكتاب

وهكذا نطوي صفحات هذا البحث الذي قادنا إلى نتيجةٍ مفادها أنَّ العلم عمادٌ لا تنهض الأمم إلا به.

ولا شكَّ في أنَّ ما أوردناه من قصص العلماء النابغين، ونماذج الدول المتقدمة لَيَقودنا إلى حقائق ودروس عِدَّة لا بد أن يكون لها أثرٌ عملي في حياتنا، ومن هذه الدروس أربعة دروسٍ نركِّز عليها، ونُوليها اهتمامًا بالغًا، وهي:

أولاً: أنَّ العلم طريق لا غنى عن سلوكه لمن أراد عزًّا ورفعةً من الأفراد والأمم؛ فالجاهلون لا مكان لهم بين السادة والقادة، والأمم الخاملة التي أدمنت الجهل هي الأمم المقودة التي لا يعبأ بها أحد، ولا يقيم لها أحدٌ وزنًا، والتي تتنافس على قيادتها، ونهب خيراتها الأممُ القوية؛ والحاضر دليل على ذلك؛ فقد ظلت الأمة الإسلامية قرونًا عديدة تقود البشرية نحو التمدُّن والرُّقي متسلِّحةً بالعلم، ثم تلقَّى الغرب ذلك الفيض من العلم عن طريق الاحتكاك بالمسلمين من طريق الأندلس خاصةً، واستطاع هضمه، والاستفادة منه، ثم تطويره؛ فكانت نهضته القوية، ووثبته نحو آفاق المستقبل، في حين غفل العالم الإسلامي برهةً عن سبيل العلم، وترك المنهج العلمي؛ فكانت النتيجة ضعفًا يعاني منه حتى الآن، واعتمادًا على الغرب في أغلب الاحتياجات؛ مما جعل علماء المسلمين يتململون، ويسعون إلى الخروج من دائرة الغرب بالاجتهاد في البحث العلمي، الذي نرجو أن يستمرَّ بتوفير الأجواء المناسبة له؛ كي ينضج وينتج ثمرًا طيبًا.

ثانيًا: أن طريق العلم طريق شاق وطويل، سواء على الأفراد أو الأمم؛ لا تعرف الراحة لمن سلكه سبيلاً، وكما قيل: «لاَ يُسْتَطَاعُ الْعِلْمُ بِرَاحَةِ الْجِسْمِ»[1].

وقد ضرب العلماء المسلمون أعظم النماذج في الجهاد من أجل تحصيل العلم كما تبيَّنَّا من خلال هذا البحث، كما كان العديد من الدول نماذج عالية في هذه السبيل؛ فنهضة اليابان بعد انهيارها كان عمادها العلم الذي لم تدَّخر اليابان وأبناؤها في سبيل تحصيله جهدًا، ولا عرفوا

(١) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب أوقات الصلاة (٦١٢).

طريق الراحة حتى أصبحوا في مقدمة الأمم[1] والولايات المتحدة التي لم تكن شيئًا يُذكَر منذ حوالي مائتي عام صارت أقوى دولةٍ في العالم بالاجتهاد في سبيل تحصيل العِلم[2].

ثالثًا: أنَّ طريق العلم كما هو شاق؛ فإنَّه يجزي صاحبه عمّا يلاقيه من مشقة أحسن الجزاء؛ ففوق الرفعة في الدنيا يرفع الله صاحب العلم في الآخرة ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، ولم يُسَوِّ رب العالمين سبحانه بين أهل العلم وغيرهم؛ فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

بل إنَّ لتحصيل العلم وتدريسه لذَّة تعادل – إن لم تفُقْ – لذة تحصيل المال؛ وهذا ما دفع كثيرًا من العلماء إلى هجر المال، والتجارة، والكسب للتفرُّغ لطلب العلم وتحصيله، ثم تدريسه وتعليمه لمن يحرص عليه دون مقابل[3].

وأمام تلك التضحية فإنَّ أممهم لا تنسى دورهم أبدًا؛ فالتاريخ حافل بقصص البارزين من العلماء الذين قادوا أممهم إلى سبيل الرفعة والمجد قديمًا وحديثًا، وسجَّلوا بحروف من نورٍ قصص عظمتها ونهضتها، سواء في الأمة الإسلامية، من أمثال: **الرازي**[4]، **وجابر بن حيان**[5]، **والخوارزمي**[6]، **وعلي مصطفى مشرَّفة**[7]، **وجمال حمدان**[8]، **والطبري**[9]، **والسيوطي**[10]، **والغزالي**[11]، أو في الأمم غير الإسلامية، من أمثال: **أديسون**[12]، **وجيمس وات**[13]، **وأينشتاين**[14]، وغيرهم...

---

(١) راجع دور العلم في بناء اليابان ص٤٣٩.

(٢) راجع دور العلم في بناء أمريكا ص٤٣٠.

(٣) انظر قصة الحسن بن الهيثم مع الأمير الذي جاء طالبًا للعلم ص٢١٢.

(٤) انظر: دور العلم في حياة الرازي ص٥٣٥.

(٥) انظر: دور العلم في حياة جابر بن حيان ص٥٢٢.

(٦) انظر: دور العلم في حياة الخوارزمي ص٥٢٨.

(٧) انظر: دور العلم في حياة علي مصطفى مشرفة ص٥٩٨.

(٨) انظر: دور العلم في حياة جمال حمدان ص٦٠٥.

(٩) انظر: دور العلم في حياة الطبري ص٤٨٢.

(١٠) انظر: دور العلم في حياة السيوطي ص٥١٤.

(١١) انظر: دور العلم في حياة الغزالي ص٥٧٥.

(١٢) انظر: دور العلم في حياة أديسون ص٦٢٣.

(١٣) انظر: دور العلم في حياة جيمس وات ص٦٢٠.

(١٤) انظر: دور العلم في حياة أينشتاين ص٦٣١.

رابعًا: أنَّ الأمة لا تنهض إلا إذا قام كل واحدٍ من أفرادها بواجبه نحو النهضة العلمية، وكما قدَّمنا فهناك غير دور الأفراد دور الأسرة التي هي الأساس الأول في تنشئة العلماء؛ من خلال دور الأم والأب والزوجة، وهناك دور الدولة التي تجعل من اختراعات واكتشافات العلماء واقعًا ملموسًا، وتجعل للعلماء قيمةً عاليةً في بلادهم. كما أن هناك دورًا لرجال الأعمال الذين يرعون العلماء وطلاب العلم، وييسرون لهم التفرُّغ لطلب العلم وتعليمه، ويخصصون الجوائز لأفضل الباحثين. وهناك دور المجتمع الذي يرفع قيمة العالم أو يخفضها، ويوفر له التقدير المناسب؛ فيجعل لطلبه العلم معنى يشجعه على الاستمرار في سبيله. وكذلك هناك دور للعلماء والدعاة والمفكرين برعاية طلاب العلم، وكفالتهم علميًّا وماديًّا – إن استطاعوا – ليجعلوا منهم علماء وأئمة ينيروا للأمة طريقها نحو القمة التي يرجوها لها المخلصون من أبنائها.

وهكذا في نهاية هذه الرحلة السريعة بين العلم والعلماء يتبين لنا أنَّ العلم لا واسطة فيه؛ فمن كان مخلصًا مجتهدًا في سبيل العلم نال العلا والمجد، ومن كان مدَّعيًا للعلم أو منشغلاً عنه بغيره لم يكن له من العلم إلا أقل مما فرَّغ له من نفسه؛ فقد قيل: «العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كُلَّك»[1]، وحين يكون أبناء أيَّة أمَّة على اهتمامٍ كبير بالعلم، والتفرُّغ له؛ فتأكَّد أنها ستكون الأمة الرائدة في العالم أجمع، والتي يسعى الجميع لخطب وُدِّها، والاستفادة منها، والتقرُّب إليها؛ فهكذا هي سنن الله عزَّ وجلَّ في خلقه: أفرادًا وأممًا؛ نسأل الله ﷻ أن يرزقنا العلم، وأن يرزقنا الخشية قبله، وأن يجعل أمتنا الإسلامية طليعة الأمم، وحضارتنا رائدة الحضارات...

وصلِّ اللهُمَّ وسلِّم وبارك على نبي العلم المبعوث رحمةً للعالمين.

أ.د/ راغب السرجاني

(١) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ١/ ٥٠.

مَصَادِرُ الدِّرَاسَةِ*

أولاً: القرآن الكريم

ثانيًا: كتب تفاسير القرآن وعلومه

- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف الدين: التبيان في آداب حملة القرآن، الوكالة العامة للتوزيع - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

ثالثًا: كتب السنن والآثار

- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد: المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩.
- ابن حبان، محمد بن أحمد التميمي: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد: سنن ابن ماجة، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر - بيروت.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث: سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.
- أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.
- أبو يعلى، أحمد بن علي: مسند أبي يعلى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ - ١٩٨٤م.
- أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني: المسند، مؤسسة قرطبة - القاهرة.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: الأدب المفرد، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩ - ١٩٨٩م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح المختصر، تحقيق مصطفى ديب البُغَا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ - ١٩٨٧.

* المصادر مرتبة ترتيبًا أبجديًا مع تجاهل (ال).

- البزار، أحمد بن عمرو: **مسند البزار**، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: **سنن البيهقي الكبرى**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز – مكة المكرمة، ١٤١٤ – ١٩٩٤م.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: **شعب الإيمان**، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠.
- الترمذي، محمد بن عيسى: **الجامع الصحيح**، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- الحارث بن أبي أسامة والحافظ نور الدين الهيثمي: **بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث**، تحقيق حسين أحمد صالح الباكري، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية – المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
- الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري: **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.
- الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن: **سنن الدارمي**، تحقيق فواز أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب: **المعجم الكبير**، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم – الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ – ١٩٨٣م.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد: **المعجم الأوسط**، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين – القاهرة، ١٤١٥هـ.
- الطيالسي، سليمان بن داود: **مسند أبي داود الطيالسي**، دار المعرفة – بيروت.
- عبد بن حميد بن نصر أبو محمد الكسي: **المنتخب من مسند عبد بن حميد**، تحقيق صبحي البدري السامرائي، محمود محمد خليل الصعيدي، مكتبة السنة – القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
- عبد الرزاق، أبو بكر بن همام الصنعاني: **مصنف عبد الرزاق**، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣.
- مالك بن أنس بن عامر الأصبحي: **الموطأ**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية – بيروت.
- مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري: **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- المنذري، أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي: **الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب: **المجتبى من السنن**، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب: **سنن النسائي الكبرى**، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري،

وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ – ١٩٩١م.

رابعًا: كتب مصطلح الحديث

- إبراهيم بن علي آل كليب: **مهمات علوم الحديث**، دار الوراق للنشر والتوزيع.
- ابن الصلاح، أبو عمرو عثمان الشهرزوري: **علوم الحديث**، مكتبة الفارابي، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.
- ابن الملقن، سراج الدين عمر بن علي: **المقنع في علوم الحديث**، تحقيق عبد الله بن يوسف الجديع، دار فواز للنشر – السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
- الأبناسي، إبراهيم بن موسى: **الشذا الفيّاح من علوم ابن الصلاح**، تحقيق صلاح فتحي هلل، مكتبة الرشد، الرياض – السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م.
- الحافظ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي: **التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح**، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ – ١٩٧٠م.
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي: **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف – الرياض، ١٤٠٣هـ.
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي: **الكفاية في علم الرواية**، تحقيق أبو عبد الله السورقي وإبراهيم حمدي المدني، المكتبة العلمية – المدينة المنورة.
- السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن: **فتح المغيث شرح ألفية الحديث**، دار الكتب العلمية – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
- السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد: **أدب الإملاء والاستملاء**، تحقيق ماكس فايسفايلر، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.
- السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر: **تدريب الراوي في شرح تقريب النووي**، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة الرياض الحديثة – الرياض.
- القاضي عياض بن موسى اليحصبي: **الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع**، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث، المكتبة العتيقة – القاهرة، تونس، الطبعة الأولى، ١٣٧٩هـ – ١٩٧٠م.
- اللكنوي، أبو الحسنات محمد عبد الحي الهندي: **الرفع والتكميل في الجرح والتعديل**، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.

خامسًا: كتب التخريج وشروح السنة

- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩هـ.
- ابن معظم شاه الكشميري: **العرف الشذي شرح سنن الترمذي**، تحقيق محمود أحمد شاكر، مؤسسة ضحى للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.

- الألباني، محمد ناصر الدين: **السلسلة الصحيحة**، مكتبة المعارف – الرياض ١٩٩٥م.
- الألباني، محمد ناصر الدين: **السلسلة الضعيفة**، مكتبة المعارف – الرياض ١٩٩٥م.
- المناوي، محمد عبد الرؤوف بن علي: **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، المكتبة التجارية الكبرى – مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ.
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف الدين: **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

سادسًا: كتب الفقه والعقائد

- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي: **تلبيس إبليس**، تحقيق محمد الحسن، دار الكتب العلمية ـ بيروت ٢٠٠٢م.
- ابن الصلاح، أبو عمرو عثمان الشهرزوري: **أدب المفتي والمستفتي**، تحقيق موفق عبد الله عبد القادر، مكتبة العلوم والحكم، عالم الكتب – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم: **درء تعارض العقل والنقل**، تحقيق محمد رشاد سالم، دار الكنوز الأدبية – الرياض، ١٣٩١هـ.
- ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم: **مجموع الفتاوى**، تحقيق عامر الجزار، دار ابن حزم – بيروت ١٩٩٨م.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد: **الإحكام في أصول الأحكام**، مطبعة الإمام – القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد: **الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحَل**، مكتبة الخانجي – القاهرة.
- ابن رشد، أبو الوليد محمد الأندلسي: **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**، تحقيق: علي معوض، دار الكتب العلمية – بيروت ٢٠٠٣م.
- ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله: **تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري**، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
- ابن قدامة، موفق الدين المقدسي: **المغني على مختصر الخرقي**، ضبط وتصحيح عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت ،١٩٩٤م.
- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تحقيق طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل – بيروت، ١٩٧٣م.
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف الدين: **آداب الفتوى والمفتي والمستفتي**، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دار الفكر – دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف الدين: **المجموع شرح المهذب للشيرازي**، مطبعة المنيرية.

سابعًا: كتب السيرة والتاريخ

- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الجزري: **الكامل في التاريخ**، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

- ابن الشحنة: **الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب**، دار الكتاب العربي - القاهرة ١٩٩٩م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن المغربي: **المقدمة**، تحقيق علي عبد الواحد وافي، مطبعة دار الشعب.
- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن منيع: **الطبقات الكبرى**، تحقق إحسان عباس، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.
- ابن سيد الناس، محمد بن عبد الله بن يحيى (ت ٧٣٤هـ): **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ١٤٠٦هـ.
- ابن عساكر: **تاريخ دمشق الكبير**، دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٩٩٦م.
- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: **زاد المعاد في هدي خير العباد**، تحقيق مصطفى عطا، دار الكتب العلمية.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: **البداية والنهاية**، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك المعافري: **السيرة النبوية**، تحقيق محمد فهمي السرجاني، المكتبة التوفيقية – القاهرة.
- بهاء الدين بن شداد: **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٩٤م.
- الخطيب البغدادي، أبو بكر محمد: **تاريخ بغداد**، تحقيق مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٧م.
- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان: **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: **تاريخ الخلفاء**، مطبعة السعادة - مصر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: **تاريخ الأمم والملوك**، دار الكتب العلمية – بيروت، ط، ١٤٠٧هـ.
- عز الدين بن شداد: **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تحقيق يحيى زكريا، مكتبة المتنبي - القاهرة ١٩٩٥م.
- محمد كرد علي: **خطط الشام**، الطبعة الثالثة، مؤسسة النوري - بيروت ١٩٨٣م.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد عبد القادر، دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٩٧م.
- النعيمي، عبد القادر: **الدارس في تاريخ المدارس**، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٠م.

ثامنًا: كتب التراجم والعِلل

- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الجزري: **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، دار الفكر بيروت.

- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ): **صفة الصفوة**، تحقيق محمود فاخوري، ومحمد رواس قلعه جي، دار المعرفة – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ابن حبان، أبو حاتم محمد البستي: **المجروحين**، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار الوعي - حلب.
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي: **الإصابة في تمييز الصحابة**، دار الكتاب العربي – بيروت.
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي: **تقريب التهذيب**، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد - سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي: **تهذيب التهذيب**، دار الفكر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ١٩٩٤م.
- ابن قاضي شهبة الدمشقي: **طبقات الشافعية**، عالم الكتب ، بيروت ١٩٨٠م.
- الأدنروي، أحمد بن محمد: **طبقات المفسرين**، تحقيق سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- الباجي، أبو الوليد سليمان بن خلف: **التعديل والتجريح لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح**، تحقيق أبو لبابة حسين، دار اللواء للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨هـ): **سير أعلام النبلاء**، تحقيق حسين الأسد، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان: **الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة**، تحقيق محمد عوامة، دار القبلة للثقافة الإسلامية، مؤسسة علو – جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان: **تذكرة الحفاظ**، إعانة وزارة معارف الحكومة العالية الهندية، دار إحياء التراث العربي.
- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان: **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- الزِّركلي، خير الدين: **الأعلام** قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الخامسة، أيار (مايو) ١٩٨٠م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: **طبقات المفسرين**، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ.
- الصَّفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: **الوافي بالوفيات**، تحقيق أوتغريد فايترت، المعهد الألماني، ١٩٩٧م.
- عمر رضا كحالة: **معجم المؤلفين** تراجم مصنفي الكتب العربية، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- المِزِّي، أبو الحجاج يوسف بن الزكي: **تهذيب الكمال**، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

تاسعًا: كتب تراثية عامة

- ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد: **التواضع والخمول**، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي: **صيد الخاطر**، تحقيق علي الطنطاوي، دار الفكر المعاصر - بيروت ١٩٨٧م.
- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق: **الفهرست**، دار المعرفة - بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- ابن جماعة، بدر الدين الكناني: **تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم**، تحقيق محمد هاشم، دار الكتب العلمية - بيروت ٢٠٠٢م.
- ابن رجب الحنبلي: **جامع العلوم والحكم**، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ابن سعيد الأندلسي: المغرب في حلي المغرب، حققه وعلّق عليه شوقي ضيف، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة.
- ابن سينا: **القانون في الطب**، تحقيق محمد الضناوي، دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٩٩م.
- ابن قتيبة الدينورى، أبو محمد عبد الله بن مسلم: **الإمامة والسياسة**، تحقيق طه محمد الزينى، مؤسسة الحلبي - القاهرة، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- أبو هلال العسكري: **الحث على طلب العلم والاجتهاد**، دار الفضيلة - القاهرة ١٩٩٨م.
- الإشبيلي، أبو القاسم محمد بن إبراهيم بن خيرة: **ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب**، مخطوط.
- البيهقي، ظهير الدين علي بن زيد: **تتمة صوان الحكمة**، تحقيق رفيق العجم، دار الفكر اللبناني ١٩٩٤م.
- حاجي خليفة: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٢م.
- الرازي، أبو بكر بن أبي حاتم: **آداب الشافعي ومناقبه**، مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٩٣م.
- طاش كبري زاده: **مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم**، دار الكتب العلمية - بيروت ٢٠٠٢م.
- عبد الله بن محمد بن الصديق الحسني: **تمام المنة ببيان الخصال الموجبة للجنة**، مكتبة القاهرة - مصر.
- العبدري، أبو عبد الله محمد بن محمد بن الحاج: **المدخل**، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة - بيروت.
- القاضي عياض: **ترتيب المدارك وتقريب المسالك**، تحقيق محمد سالم، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٨م.
- القنوجي، صديق بن حسن: **أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم**، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٧٨م.

- محمد كمال الدين الأدهمي: مرآة النساء فيما حسُن منهن وساء، مكتبة التراث الإسلامي - القاهرة.
- المقري التلمساني، أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ١٩٦٨م.

عاشراً: كتب البلدان

- الحِميري، محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.
- الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب - بيروت ١٩٨٩م.
- القزويني، زكريا محمود: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تحقيق فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة - بيروت، ١٩٧٨م.
- المقريزي، تقي الدين أحمد: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، القاهرة ١٢٧١هـ.
- ياقوت بن عبد الله الحموي، أبو عبد الله: معجم البلدان، دار الفكر - بيروت.

حادي عشر: كتب معاصرة

- إبراهيم المزيني: الحياة العلمية في العهد الزنكي - الرياض ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- أبو الحسن الندوي: مذكرات سائح في الشرق العربي، دار ابن كثير - دمشق ٢٠٠٠م.
- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، دار الشروق - عمان ١٩٩٧م.
- أحمد علي الملاّ: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، دار الفكر المعاصر - دمشق ١٩٨٦م.
- أحمد فؤاد باشا: التراث العلمي الإسلامي زاد للآتي، دار الفكر العربي - القاهرة ٢٠٠٢م.
- إدوارد فينديك: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، تصحيح محمد البلاوي، دار صادر - بيروت
- اعتماد القصيري: فن التجليد عند المسلمين، وزارة الثقافة - سوريا ١٩٧٩م.
- أكرم عبد الوهاب: ١٠٠ عالم غيروا وجه العالم، دار الطلائع للنشر والتوزيع - القاهرة، ٢٠٠٠م.
- إلياس سركيس: معجم المطبوعات العربية، عالم الكتب - بيروت ٢٠٠٠
- أمين يوسف، وعلي حسين النبهان: أشهر محاكمات التاريخ، دار التراث - بيروت، ١٩٧٢م.
- أنور بن سعيد البيلاوي: الوقت بين حرص السلف وتفريط الخلف، القاهرة د.ت.
- جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي، مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٧٤م.
- جودت سعيد: مذهب ابن آدم الأول، دار الفكر المعاصر - بيروت ١٩٩٣م.
- جودة هلال، محمد محمود صبح: قرطبة في التاريخ الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م.
- حسان شمسي باشا: هكذا كانوا يوم كنا، دار المنارة - جدة، ١٩٩١م.
- حسن الشرقاوي: المسلمون علماء وحكماء، دار الفكر العربي - بيروت ١٩٩٨م.
- رأفت غنيمي الشيخ، تاريخ آسيا الحديث والمعاصر، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية - ٢٠٠٠م.

- رحاب العكاوي: الكندي أعظم الحكماء في تاريخ البشرية، دار الفكر العربي - القاهرة ٢٠٠١م.
- رحاب العكاوي، محمد أمين فرشوخ: موسوعة عباقرة الإسلام، دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٩٦م.
- الرشيدي: محمد الفاتح، مكتبة لنبان - ناشرون ١٩٨٩م.
- زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي - بيروت، ١٩٨١م.
- زينب عصمت راشد: تاريخ أوروبا الحديث، دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٩٨م.
- ستيفنسون: الحياة والمؤسسات في أمريكا، مركز الكتب الأردني، توزيع الدار العربية للنشر - القاهرة ١٩٨٩م.
- سعدي أبو جيب: حياة جلال الدين السيوطي مع العلم من المهد إلى اللحد، دار المناهل - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.
- سيد العفاني: صلاح الأمة في علو الهمة، مؤسسة الرسالة - بيروت ٢٠٠٢م.
- سيد رضوان: السلطان محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامي، الدار السعودية - جدة ١٩٩٠م.
- شوقي أبو خليل: دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية، دار الفكر - دمشق ١٩٩٦م.
- شوقي أبو خليل: هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، دار الفكر - دمشق ١٩٩٦م.
- صبري الدمرداش: قطوف من سير العلماء، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ٢٠٠٦م.
- صفي الدين حامد: الإمبراطورية الأمريكية، الجزء الثالث، مكتبة الشروق٢٠٠١م.
- عامر النجار: تاريخ الطب في الدولة الإسلامية، دار المعارف - القاهرة، ١٩٩٤م.
- عبد الحفيظ يعقوب: من ملامح الحضارة الإيرانية القديمة، جامعة القاهرة ٢٠٠٦م.
- عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر المعاصر - بيروت ١٩٨٤م.
- عبد الرحيم عبد الواحد: مهاتير محمد عاقل في زمن الجنون، ميديا هب للدعاية والنشر، دبي - الإمارات، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.
- عبد الستار الشيخ: عمر بن عبد العزيز، دار القلم - دمشق، ١٩٩٦م.
- عبد السلام فهمي: محمد الفاتح، دار القلم - دمشق ١٩٩٣م.
- عبد العزيز العمري: الفتوح الإسلامية عبر العصور، دار إشبيلية - الرياض، ط٢، ١٩٨٦م-١٤٠٦هـ.
- عبد الله العقيل: من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة ٢٠٠٠م.
- عبد الله ناصح علوان: صلاح الدين بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين، دار السلام - القاهرة ١٩٩٨م.
- عبد المنعم النمر: الإسلام والمبادئ المستوردة، دار الكتاب المصري اللبناني - القاهرة ١٩٩٥م.
- عدنان عبد الرحمن الدوري: إتحاف الأمجاد فيما يصح به الاستشهاد.
- على بن عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٥م.

- علي محمد الصلابي: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
- عماد الدين خليل: تشكيل العقل المسلم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا ١٩٩٢م.
- عمر فاروق الطباع: ابن النفيس في تاريخ الطب العربي، مؤسسة المعارف - بيروت ٢٠٠٢م.
- عمر فاروق الطباع: الكندي فيلسوف العرب، مؤسسة المعارف - بيروت ٢٠٠٢م.
- عمر فاروق الطباع، عبد المنعم الهاشمي: ابن الهيثم مؤسس علم الضوء الحديث، مؤسسة المعارف - بيروت ١٩٩٣م.
- فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام، دار الشروق - عمان ١٩٨٨م.
- فهمي هويدي: الإسلام في الصين ، عالم المعرفة - الكويت ١٩٨١م.
- فوزي درويش: الشرق الأقصى الصين واليابان، القاهرة ١٩٩٧م.
- قدري حافظ طوقان: العلوم عند العرب، مكتبة مصر - القاهرة، ١٩٩٨م.
- ماجدة علي صالح: عظماء آسيا في القرن العشرين، مركز الأهرام للدراسات الإستراتيجية - القاهرة ٢٠٠١م.
- محمد الحمد: جوانب من سيرة الإمام عبد العزيز بن باز، دار ابن خزيمة - الرياض ٢٠٠٢م.
- محمد السيد سليم: العلاقة بين الديمقراطية والتنمية في آسيا، مركز الأهرام للدراسات الإستراتيجية - القاهرة ١٩٩٧م.
- محمد السيد سليم: النموذج الكوري للتنمية، دار الفجر - القاهرة ١٩٩٦م.
- محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين، مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٧٧م.
- محمد الغزالي: ظلام من الغرب، دار نهضة مصر - القاهرة ١٩٩٧م.
- محمد الغزالي: عِلل وأدوية، دار الشروق - القاهرة ١٩٩٨م.
- محمد الغزالي: مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، دار الشروق - القاهرة ١٩٩٨م.
- محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم، دار الشواف - الرياض ١٩٩٢م.
- محمد أمين شلقامي: فهم التجربة الكورية وسبل الاستفادة منها، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة، مركز الدراسات الأسيوية، العدد ٣٦، فبراير ٢٠٠١م.
- محمد جابر الأنصاري: مراجعات في الفكر القومي، كتاب العربي رقم ٥٧ - الكويت، يوليو ٢٠٠٤م.
- محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، الطبعة الثانية، دار القلم - دمشق ١٩٩٩م.
- محمد حسن عيدروس: الإمارات بين الماضي والحاضر، دار العيدروس للكتاب الحديث، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- محمد رجب البيومي: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، دار القلم - دمشق ١٩٩٥م.
- محمد سعيد مرسي: عظماء الإسلام عبر أربعة عشر قرنًا من الزمان، اقرأ - القاهرة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

- محمد صفوت: **فتح القسطنطينية**، دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٩٩م.
- محمد علي عثمان: **مسلمون علموا العالم**، مكتبة معروف - القاهرة.
- محمد عنان: **تراجم إسلامية**، مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٧٠م.
- محمد ماهر حمادة: **المكتبات في الإسلام**، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٧٨م.
- محمد محمود محمدين: **الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان**، دار الخريجي للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ.
- محمد مصطفى هدارة: **المأمون الخليفة العالم**، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٣م.
- محمود الحاج قاسم: **الطب عند العرب والمسلمين**، الدار السعودية للنشر - جدة، ١٩٨٧م.
- مصطفى السباعي: **من روائع حضارتنا**، دار الوراق، ودار السلام - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- مصطفى الشكعة: **الأئمة الأربعة**، دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- مصطفى لبيب عبد الغني: **دراسات في تاريخ العلوم عند العرب**، المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة ٢٠٠٠م.
- منير البعلبكي: **موسوعة المورد الحديثة**، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٩٥م.
- **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة**: إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي - الرياض ٢٠٠١م.
- نفيس أحمد: **الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي**، ترجمة فتحي عثمان، وكالة الأهرام للتوزيع والنشر - القاهرة ١٩٩٨م.
- هشام عبد الرءوف حسن، **تاريخ اليابان الحديث والمعاصر**، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ٢٠٠٣م.
- يوسف القرضاوي: **البابا والإسلام معركة فُرِضَت علينا**، مكتبة وهبة - القاهرة ٢٠٠٦م.
- يوسف القرضاوي: **الرسول والعلم**، مكتبة وهبة - القاهرة.
- يوسف القرضاوي: **الشيخ الغزالي كما عرفته**، دار الوفاء - المنصورة ٢٠٠١م.

ثاني عشر: كتب مترجمة

- آدم مِتز: **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ترجمة محمد عبد الهادي أبي ريدة، مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٩٨م.
- أريك فون دانيكن: **عربات الآلهة**، ترجمة عدنان حسن، دار المدى للثقافة والنشر - دمشق ١٩٩٥م.
- بيرنيا، حسن: **تاريخ إيران القديم من البداية حتى نهاية العهد الساساني**: ترجمة دكتور محمد السباعي محمد السباعي، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٧٩م.
- جاك ريسلر: **الحضارة العربية**، ترجمة خليل أحمد خليل، عويدات للنشر - بيروت ١٩٩٣م.
- جواهر لال نهرو: **لمحات من تاريخ العالم**، دار الجيل - بيروت ١٩٩٧م.

- جورج سارتون: **تاريخ العلم**، ترجمة إبراهيم بيومي مدكور وآخرون، دار المعارف - القاهرة ١٩٩١م.
- جوستاف جرونيباوم: **حضارة الإسلام**، ترجمة عبد العزيز توفيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٧م.
- جون هرمان راندال: **تكوين العقل الحديث**، ترجمة جورج طعمة، دار الثقافة للنشر والتوزيع بيروت، د.ت.
- خوليان ريبيرا: **التربية الإسلامية في الأندلس**، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف - القاهرة ١٩٩٨م.
- روبرت جرام: **ترويض النمور**، ترجمة سمير كريم، مركز الأهرام للترجمة والنشر - القاهرة ١٩٩٩م.
- روم لاندو: **الإسلام والعرب**، ترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٩١م.
- رينيه كوليزييه: **تطور الفكر الجغرافي**، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دار الفكر - دمشق ١٩٩٢م.
- زيغريد هونكة: **شمس العرب تسطع على الغرب**، نقله عن الألمانية فاروق بيضون، دار صادر بيروت الطبعة العاشرة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- غوستاف لوبون: **حضارة العرب**، ترجمة: عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.
- كارل نللينو: **علم الفلك عند العرب**، الدار العربية للكتاب - القاهرة ١٩٩٣م.
- كراتشوفسكي: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ترجمة صلاح الدين هاشم، دار الغرب الإسلامي - بيروت ١٩٨٧م.
- لين بول: **قصة العرب في أسبانيا**، ترجمة علي الجارم، دار الكتاب المصري - القاهرة ١٩٤٤م.
- محمد أسد: **الإسلام على مفترق الطرق**، ترجمة عمر فروخ، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٩٧م.
- ول ديورانت: **قصة الحضارة**، ترجمة زكي نجيب محمود وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ٢٠٠١م.

ثالث عشر: مجلات ودوريات ومواقع على شبكة الإنترنت

- تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٦م، والمنشور على صفحة الإنترنت.
- جريدة الأيام الفلسطينية، كانون الأول ٢٠٠٦م.
- جريدة البيان الإماراتية: عدد (٩٨٤٢) ٢٠٠٧م.
- جريدة الحياة اللندنية.
- كتاب الحقائق السنوي الصادر عن وكالة المخابرات الأمريكية لسنة ٢٠٠٧م.
- مجلة البرلماني العربي: عدد (٨٢)،٢٠٠١م، الاتحاد البرلماني العربي - دمشق.
- مجلة المختار الإسلامي، ربيع الأول ١٤٠٠هـ.
- الصفحة الرسمية للجمهورية الكورية الجنوبية على شبكة الانترنت.
- موقع إسلام أون لاين.
- موقع الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني.
- الموقع الرسمي للمؤسسة العربية للعلوم والتكنولوجيا.

- الموقع الرسمي لمؤسسة السعيد للعلوم والثقافة.
- الموقع الرسمي لمجلس التعاون الخليجي.
- الموقع الرسمي لمدينة دبي.
- الموقع الرسمي لوزارة التربية والتعليم الإماراتية.
- موقع الشبكة الإسلامية.
- موقع القنطرة.
- موقع المنظمة العالمية للملكية الفكرية.
- موقع المنظمة العربية للتنمية الزراعية التابعة لجامعة الدول العربية.
- موقع الموسوعة العربية العالمية.
- موقع النادي العربي للمعلومات.
- موقع جائزة الملك فيصل العالمية.
- موقع ديوان العرب.
- موقع صندوق النقد العربي.
- موقع فلسطين المسلمة.
- موقع مجموعة "لابوراتوريو".
- موقع مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية.
- موقع معهد التعليم العالي في جامعة شنغهاي جياو تونغ.
- موقع مهارات النجاح.
- موقع ويكيبيديا.

* * *

فهارس الكتاب

فهرس الأعلام

***

فهرس الأعلام المترجم لها

* * *

فهرس الأماكن

* * *

فهرس الكتاب

البـــاب الأول: أمة الإســـلام والعلـم

الباب الثاني: صناعة العلمـــاء

الباب الثالث: دور العلم في بناء الحضارات (أمثلة تطبيقية)

الباب الرابع: دور العلم في حياة العلماء (أَمْثِلَةٌ تَطْبِيقِيَّةٌ)

هذا الكتاب

لا شكَّ أن أمتنا الإسلامية أمة عظيمة، بل هي أعظم الأمم وخيرها، كما قال تعالى:

"كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ"

والغيورون من أبنائها يريدون بناء نهضتها من جديد، ويسعون لذلك، وإن كانوا يختلفون في اختيار سبل البناء، وترتيب الأولويات، إلا أنهم يُجْمِعون على أنَّ بناء الأمم لا يكون إلا بالعلم، ومن ثَمَّ كانت فكرة هذا الكتاب.

تُرَى ما المقصور بكلمة العلم التي وردت في القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة: هل هو علوم الشرع فقط، أم علوم الشرع والحياة معًا؟ تُرَى ما أسباب تخلُّف أمتنا؟ وما السبيل لإعادة العلم إلى بؤرة اهتمام المسلمين؟ تُرَى ما دور العلم في بناء الأمم وحضارتها قديمًا وحديثًا؟ وما دور العلم في حياة العلماء مسلمين وغير مسلمين؟ تُرَى ما دور الأسرة والدولة والمجتمع في إعداد العلماء؟ يحاول هذا الكتاب الإجابة عن كل هذه الأسئلة وغيرها، آملين أن يُعِيدَ الله للأمة مكانتها وهيبتها وعزتها، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

الناشر



www.IslamStory.com

